(٢١)

عادات القرآن الأسلوبية

دراسة تطبيقية

تأليف

د. راشد بن حمود بن راشد الثنيان

الأستاذ المساعد في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة القصيم

المجلد الأول

دار التدمرية

بسم الله الرحمن الرحيم

عَادَاتُ القُرآنِ الأُسْلُوبِيَّة

دِرَاسَةٌ تَطْبِيقِيَّةٌ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في القرآن وعلومه

إشراف
فضيلة الدكتور محمد بن سريع السريع
الأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين

المشرف المساعد
فضيلة الدكتور عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر
الأستاذ المشارك بقسم البلاغة في كلية اللغة العربية

دار التدمرية
الرياض - ص.ب: ٢٦١٧٣ - الرمز البريدي: ١١٤٨٦
هاتف: ٤٩٢٤٧٠٦ - ٤٩٢٥١٩٢ - فاكس: ٤٩٣٧١٣٠
Email: TADMORIA@HOTMAIL.COM
المملكة العربية السعودية

المُقَدِّمَة

وتتضمن:

أهمية الموضوع وأسباب اختياره.

هدف البحث.

الدراسات السابقة.

الصعوبات في البحث.

خطة البحث.

منهجي في كتابة البحث.

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾﴾ [النساء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أما بعد(١):

فإن القرآن الكريم لا تنقضي عجائبُه، ولا تنفد نجائبُه، ولا يشبع منه العلماء، وهو أشرف ما صرف إليه اللبيب نفسَه، وأمضى فيه يومَه وأمسَه، ولم أزلْ أبحث في لججِ بحاره، وأخوض في موجِ غماره؛ لاستخراج شيء من مكنون كنوزه وأسراره، إلى أن تجمَّع لي بحمد الله من ذلك ما تُرجَى بركاتُه، وتُحمد غُدواته ورَوحاتُه.

ولا جرم أن لغةَ القرآن موضعُ احتفاءِ العلماءِ على اختلاف تخصُّصاتهم،

---

(١) هذه خطبة الحاجة، أخرجها الإمام أحمد ٦/ ٢٦٢، ٢٦٤ (٣٧٢٠، ٣٧٢١)، وأبو داود ٢/ ٢٣٨ (٢١١٨)، والترمذي ٣/ ٤٠٤ (١١٠٥)، والحاكم ٢/ ١٩٩، وقد أفردها الألباني في رسالة خاصة باسم: «خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلِّمها أصحابه» وقد جمع ألفاظها، وطرقها، وبيَّن من خرجها، ومن الخير للمسلم أن يعوِّد لسانه قولها، وقلمه كتابتها بين يدي كلامه.

وتباين أعصارهم وأمصارهم، وبيانُه محورُ كثير من الدراسات والأبحاث المتطلعة إلى كشف إعجازه، والوقوف على أسراره وأغواره.

وكتاب الله المبين إعجازُه الكبير في فصاحته، وعظيم سبكه، وبديع بلاغته، وإن في آيه لحلاوة، وإن على كلمه لطلاوة، ولو أراد متفاصح أن يُبَدِّل كلمة مكان كلمة لما وجد ما يقوم مقامَها، ولتبدَّت له لفظة القرآن أحسنَ من أختها.

ولهذا ظهر اهتمام المفسِّرين بهذا النوع من علوم القرآن متمثلاً في استقراء أساليبه سواءً الألفاظُ أو الجمل أو التراكيب أو غيرها.

وبعد انتهائي من دراستي المنهجية لمرحلة الدكتوراه، بحثت عن موضوع ذي عمق وجدَّة وابتكار وإسهام فاعل لإنماء المعرفة في التخصُّص، حتى أنعم الله عليَّ إذْ وقع نظري على مصطلح ردَّده جمع من الأئمة والعلماء المبرّزين في مختلف العصور ألا وهو: **(عادات القرآن)**.

ومن هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حيث يقول: «فالخطاب بصيغة الجمع قد تنوعت عادة القرآن فيها»(١).

وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ حيث يقول: «جرت عادة القرآن بتهديد المخاطبين وتحذيرهم بما يذكره من صفاته»(٢).

والشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمٰن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ يقول ضمن ردِّه على العراقي: «ولكن من عادة القرآن مراعاة ما تقتضيه الحال، فيُطنب في محل الإطناب، ويوجِز في محل الإيجاز؛ والبلاغة مطابَقَةُ الكلام لمقتضى الحال»(٣).

بل إن ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ أكد على المفسر تعلمه والعناية به، فقال: «يحق على المفسر أن يعرف عادات القرآن من نظمه وكلمه»(٤).

---

(١) منهاج السُّنَّة النبوية ٤/ ٢٠٧.
(٢) بدائع الفوائد ١/ ٨١.
(٣) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ١٢/ ٢٢٩.
(٤) التحرير والتنوير ١/ ١٢٤.

وجعله في مقدمات تفسيره عنواناً لمبحث مستقل في المقدمة العاشرة من تفسيره[1].

ولهؤلاء العلماء وغيرهم سلف في ذلك على اختلاف عباراتهم في تحديد هذا المصطلح؛ إذ بعضهم يُعبر عنه بذكر أمثلة عليه، كما هي عادة السلف الأوائل؛ حيث لم يكونوا يُعْنَون بالحدود والتعريفات.

وهذه العاداتُ متفرقةٌ مبثوثةٌ في كتب التفسير، وغيرها من المؤلفات التي تُشير إلى هذا الموضوع، وتُرشد إلى معالِمِه، وتُلمح إلى قدرِه.

ولا ريب أن جمعَ ما تناثر في هذا الموضوع مما يعين على تدبرِ القرآن وعقْلِه وخدمةِ علومِه، لا سيما أن هذا الموضوع لم يُبحَث ولم يُجمَع فيما أعلم؛ بل هو بِكْر يحتاج إلى جمع ودراسة، وبعد استخارة واستشارة، عقدت العزم على جمع عادات القرآن الكريم في أسلوبه، ودراستها دراسة تطبيقية، ورغبت أن يكون هذا البحث حاملاً العنوان التالي:

(عادات القرآن الأسلوبية دراسة تطبيقية)

سائلاً المولى جل وعلا أن يسدد لساني وبناني وبياني،
وأن يغفر لي خطئي وزللي، إنه سميع قريب.

❑ أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تظهر أهمية الموضوع في أمور، منها:

١ ـ أن الاطلاع على عادات القرآن ودراستها يفتح للدارس آفاقاً كثيرة للفهم والتدبر والتفكر، ويعين على معرفة ما في القرآن من معان وأسرار.

٢ ـ أن البحث في هذا الموضوع يعين المفسر على تفسير القرآن، ويختصر عليه جهداً ووقتاً، وذلك من خلال فهم عاداته في أساليبه.

٣ ـ أن العلم بعاداتٍ مطردةٍ في القرآن يُعد من أوجه الترجيح عند اختلاف المفسرين، مما يعطي أهمية كبرى لهذا الموضوع.

---

(١) المرجع السابق ١/ ١٢٤.

٣ ـ أنه يجمع شتات ما تفرق من هذه العادات المهمة المنثورة في كتب التفسير وغيرها؛ ويتناولها بالبحث والاستقراء والبيان.

٤ ـ أنه موضوع يتناول جانباً مهماً من جوانب علوم القرآن، ولم أطلع على من أفرده بالتأليف.

❐ هدف البحث:

استقراء عادات القرآن الكريم الأسلوبية ودراستها، وإبراز شيء من جهود العلماء في بيانها.

❐ الدراسات السابقة:

بعد البحث في الدراسات السابقة التي تطرقت لهذا الموضوع، لم أقف على من أفرد التأليف في عادات القرآن الأسلوبية مما يضفي على هذه الرسالة شيئاً من الجدَّة والابتكار.

أما المؤلفات التي لها صلة بالموضوع فمن ذلك ما يلي:

١ ـ الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي (ت١٠٩٤هـ) رتبه على حروف المعجم وفي بداية كل فصل يذكر كليات في ألفاظ القرآن وغيره، دون جمع ودراسة بل على طريقة المعاجم اللغوية، والبحث في عادات القرآن أعم وأشمل.

٢ ـ الكليات الشرعية في القرآن الكريم، للدكتور: الحسن حريقي، تناول فيه ثماني كليات شرعية من خلال ثماني آيات، متعلقة بالاعتقاد ومقاصد الشرع والطاعة والجزاء، وبيَّن مظانها وشواهدها وما يتفرع منها.

وهذا بحث في موضوعات كلِّيةٍ معنوية، ولم يتطرق لعادات القرآن الأسلوبية التي سأبحثها في هذه الرسالة بمشيئة الله.

٣ ـ دراسات لأسلوب القرآن الكريم، للدكتور: محمد عبد الخالق عضيمة رَحِمَهُ اللَّهُ الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وهو مطبوع في أحد عشر مجلداً في دار الحديث بالقاهرة، قال في مقدمته: «استهدفت أن

أصنع للقرآن الكريم معجماً نحوياً صرفياً، يكون مرجعاً لدارس النحو؛ فيستطيع أن يعرف متى أراد: أوَقَع مثل هذا الأسلوب في القرآن أم لا؟»[١].

وهو كما قال، القسم الأول: الحروف والأدوات، والقسم الثاني: دراسة الجانب الصرفي، والقسم الثالث: دراسة الجانب النحوي.

ففيه وضع الشواهد القرآنية على أبواب النحو والصرف ليُحْتكم إليها.

لكن هذا البحث يدرس العادات الأسلوبية في القرآن دراسة تطبيقية من حيث اختيار الحروف والألفاظ ومناسبتها للسياق، والعادة في نيابة بعضها عن بعض، وعادة القرآن في الذكر والحذف، والإظهار والإضمار، والإيجاز والإطناب، وعادات القرآن من ناحية تراكيبه في قصصه وخطاباته، ونحو ذلك.

٤ ـ كليات الألفاظ في التفسير دراسة نظرية تطبيقية، للأستاذ: بريك بن سعيد القرني، في رسالة ماجستير، مقدمة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية كلية أصول الدين.

قد جمع الباحث فيها ثمانية وخمسين لفظاً؛ منها خمس وثلاثون مطردة، وثلاث وعشرون أغلبية، وهي كليات في معنى اللفظ القرآني، فقد خُصِّص لدراسة الألفاظ فقط، والذي هو مطلب واحد من هذا البحث، فلم يتطرق في بحثه لأساليب القرآن بأنواعها في الألفاظ أو الجمل، أو التراكيب، أو المعاني، أو الأسلوب البلاغي والقصصي، وعادة القرآن في الحوار والخطاب، وعادة القرآن في استعمال الحروف والكلمات، ونحو ذلك.

وبهذا تبين أن هذا الموضوع لم يفرد بالتأليف فيما اطلعت عليه، فزاد ذلك من الرغبة في البحث فيه.

❑ الصعوبات التي واجهتني في البحث:

من أهم الصعوبات التي واجهتني في البحث:

---

(١) دراسات لأسلوب القرآن ١/ ٩.

١ ـ عدم اتضاح محددات البحث ابتداءً، وعدم توفر دراسات سابقة.

٢ ـ تعلق الموضوع بشكل دقيق بعدد من العلوم خارج التخصص: كعلم الأصول، والقواعد الفقهية، وأصول اللغة والبلاغة؛ مما أحتاج معه إلى دراسة هذه العلوم بشكل تخصصي.

٣ ـ اعتماد البحث بشكل كامل على الاستقراء، ويكتنف ذلك: تعرض الاستقراء لعدم الاستقصاء، وعدم الوصول إلى الكمال.

٤ ـ سعة بعض العادات مما يحتاج إلى رسالة مستقلة، فأجد الصعوبة الشديدة في اختصار العادة بأمثلتها، وأحتاج إلى وقت أطول في تحريرها.

❐ خطة البحث:

ـ المقدمة وفيها:

ـ أهمية الموضوع وأسباب اختياره.

ـ هدف البحث.

ـ الدراسات السابقة.

ـ خطة البحث.

ـ منهجي في كتابة البحث.

ـ التمهيد وفيه:

ـ بيان مصطلح (عادات القرآن) إفراداً وتركيباً.

ـ ظهور مصطلح (عادات القرآن) وعناية العلماء به.

ـ منزلة عادات القرآن في التفسير.

الباب الأول: عادات القرآن في حروفه وألفاظه، وفيه:

الفصل الأول: عادات القرآن في الحروف، وفيه:

المبحث الأول: اختيار الحروف، وفيه:

المطلب الأول: اختيار الحرف المناسب للسياق.

المطلب الثاني: ذكر القرآن بعد الحروف المقطعة.

المطلب الثالث: مراعاة المناسبة لحروف الفواصل.

المبحث الثاني: نيابة بعض الحروف عن بعض، وفيه:
المطلب الأول: نيابة حروف الجر عن بعض.
المطلب الثاني: نيابة حروف النداء عن بعض.
المطلب الثالث: نيابة حروف العطف عن بعض.
المبحث الثالث: التأكيد ببعض الحروف أو حذفها، وفيه:
المطلب الأول: التأكيد ببعض حروف المعاني.
المطلب الثاني: تقوية المعنى ببعض الحروف.
المطلب الثالث: حذف بعض الحروف.
الفصل الثاني: عادات القرآن في الألفاظ، وفيه:
المبحث الأول: اختيار اللفظ المناسب، وفيه:
المطلب الأول: اختيار اللفظ المناسب للسياق.
المطلب الثاني: اختيار الألفاظ الجامعة.
المطلب الثالث: مراعاة المناسبة لألفاظ الفواصل.
المبحث الثاني: استعمال بعض الألفاظ لمعنى خاص، وفيه:
المطلب الأول: تخصيص اللفظ بمعنى.
المطلب الثاني: استعمال بعض الألفاظ مرة واحدة فقط.
المطلب الثالث: استعمال الألفاظ اللائقة بالقرآن.
المبحث الثالث: نيابة بعض الألفاظ عن بعض، وفيه:
المطلب الأول: وضع الماضي موضع المستقبل.
المطلب الثاني: تذكير المؤنث.
المطلب الثالث: استعمال لفظين مختلفين في معنى واحد.
الباب الثاني: عادات القرآن في الحذف والإضمار والإيجاز وضدها، وفيه:
الفصل الأول: عادة القرآن في الحذف والذكر، وفيه:
تمهيد:
المبحث الأول: حذف المبتدأ أو الخبر، وفيه:
المطلب الأول: حذف المبتدأ.

المطلب الثاني: حذف الخبر.
المبحث الثاني: حذف الفعل أو المفعول به، وفيه:
المطلب الأول: حذف الفعل.
المطلب الثاني: حذف المفعول به.
المبحث الثالث: حذف الصفة أو الموصوف، وفيه:
المطلب الأول: حذف الصفة.
المطلب الثاني: حذف الموصوف.
المبحث الرابع: حذف المضاف أو المضاف إليه، وفيه:
المطلب الأول: حذف المضاف.
المطلب الثاني: حذف المضاف إليه.
المبحث الخامس: حذف جواب الشرط والقسم، وفيه:
المطلب الأول: حذف جواب الشرط.
المطلب الثاني: حذف القسم أو جوابه.
الفصل الثاني: عادة القرآن في الإضمار والإظهار والإيجاز والإطناب، وفيه:
المبحث الأول: كون الإضمار يقوم مقام الإظهار، وفيه:
المطلب الأول: وضع الظاهر موضع المضمر.
المطلب الثاني: وضع المضمر موضع الظاهر.
المبحث الثاني: إيجاز الحذف والقصر، وفيه:
المطلب الأول: إيجاز الحذف.
المطلب الثاني: إيجاز القصر.
المبحث الثالث: الإطناب، وفيه:
المطلب الأول: الإيضاح بعد الإيهام.
المطلب الثاني: ذكر الخاص بعد العام.
المطلب الثالث: التكرار.
المطلب الرابع: التذييل.

الباب الثالث: عادات القرآن في تراكيبه، وفيه:

الفصل الأول: عادات القرآن في قرن بعض الألفاظ ببعض، وفيه:

المبحث الأول: قرن بعض الأسماء ببعض، وفيه:

المطلب الأول: قرن بعض أسماء الله جل وعلا ببعض.

المطلب الثاني: قرن بعض أسماء البشر ببعض.

المطلب الثالث: قرن بعض الطوائف ببعض.

المبحث الثاني: قرن بعض الآيات الكونية ببعض، وفيه:

المطلب الأول: قرن بعض الآيات الكونية ببعض.

المطلب الثاني: قرن دلائل الأنفس بدلائل الآفاق.

المبحث الثالث: قرن بعض الأحكام ببعض، وفيه:

المطلب الأول: قرن بعض العبادات الشرعية ببعض.

المطلب الثاني: قرن الأحكام بما يحث على فعلها.

المبحث الرابع: قرن الترغيب بالترهيب، وفيه:

المطلب الأول: قرن الوعد بالوعيد.

المطلب الثاني: تهديد المخاطبين وترغيبهم بذكر صفات الله.

المبحث الخامس: ما يضاف إلى الله تعالى من الخير والشر، وفيه:

المطلب الأول: إضافة الخير إلى الله دون الشر.

المطلب الثاني: ذكر سبب العقاب.

الفصل الثاني: عادات القرآن في قصصه، وفيه:

المبحث الأول: ربط القصة بما يناسبها، وفيه:

المطلب الأول: توارد قصص الأنبياء عليهم السلام.

المطلب الثاني: ذكر القصص بعد دلائل التوحيد.

المطلب الثالث: تعقيب القصص بذكر المواعظ والعبر.

المبحث الثاني: التنويع في عرض القصص، وفيه:

المطلب الأول: الاقتصار في سوق القصص على المقصود.

المطلب الثاني: الطول والقصر في القصة.

المطلب الثالث: تكرار القصة.

الفصل الثالث: عادات القرآن في خطاباته، وفيه:

المبحث الأول: خطاب القرآن للأنبياء، وفيه:

المطلب الأول: نداء الأنبياء السابقين بأسمائهم.

المطلب الثاني: نداء النبي ﷺ بوصفه.

المطلب الثالث: خطاب النبي ﷺ خطاب لأمته.

المبحث الثاني: خطاب القرآن للناس، وفيه:

المطلب الأول: الخطاب بلفظ الناس وبلفظ الإيمان.

المطلب الثاني: خطاب الرجال والنساء.

المطلب الثالث: خطاب العام وخطاب الخاص.

المبحث الثالث: انتقال الكلام من أسلوب إلى أسلوب، وفيه:

تمهيد:

المطلب الأول: انتقال الكلام من التكلم إلى الخطاب.

المطلب الثاني: انتقال الكلام من الخطاب إلى التكلم.

المطلب الثالث: انتقال الكلام من الغيبة إلى التكلم.

المطلب الرابع: انتقال الكلام من التكلم إلى الغيبة.

المطلب الخامس: انتقال الكلام من الخطاب إلى الغيبة.

المطلب السادس: انتقال الكلام من الغيبة إلى الخطاب.

ـ الخاتمة:

وفيها نتائج البحث، وتوصيات الباحث.

ـ فهارس البحث:

١ ـ ثبت المصادر والمراجع.

٢ ـ فهرس محتويات الرسالة.

☐ منهج البحث:

اعتمدت المنهج الاستقرائي التحليلي حسب ما يأتي:

١ ـ جمع عادات القرآن من كتب التفسير وغيرها، وترتيب المادة العلمية المستخرجة على حسب ترتيب الأبواب والفصول التي ذكرت.

مع اليقين التام بأن عادات القرآن تفوت كل محاولة لتحديدها، وتُجاوز طاقات النفس البشرية على مشارفَة آفاقها المتنوعة، وتَسِم بالعجز كل اجتهاد لاجتلائها، والمحاولة جادة بقدر المستطاع لرصد بعض أسرار القرآن وعاداته وفتح الباب للتأمل والتدبر في آياته.

٢ ـ دراسة العادات؛ وذلك على النحو الآتي:

أ ـ ذكر تمهيد مختصر لكل عادة يوضح المراد منها.

ب ـ تطبيق العادة على عدد من الآيات مع التوضيح، واعتمدت في دراسة العادات: قراءة حفص عن عاصم رحمهما الله، ولم أُدخل القراءات الأخرى.

جـ ـ الإكثار قدر المستطاع من النقول لكلام العلماء على كل عادة ومثال؛ تأييداً لما توصلت إليه.

د ـ إذا كانت العادة متفقاً عليها ذكرت شواهدها وما يُعززها، وأذكر الاستثناءات إن وجدت، مجتهداً في توضيح ما قاله العلماء فيها.

هـ ـ بعد كل عادة أجتهد في ذكر ما أتوصل إليه من حِكَم وأسرار، ولا يلزم أن يكون ما أذكره هو السبب دون غيره.

و ـ أذكر العادات ولو لم أقف فيها على تعليل، وأكِل العلم إلى الله تعالى فيما عجز القلم أن يكتب فيه سراً، فللّه الحكمة البالغة.

ز ـ الاختصار في العرض للعادة، واختيار الأمثلة المحرِّرة للعادة حتى لا تحتاج إلى بيان طويل.

ح ـ ما أذكره من أمثلة فليس بالضرورة أن يكون متفقاً عليه، فزيادة الأمثلة من باب التأكيد، والشأنُ لا يُعْتَرضُ المثال، إذ قد كفى الفرض والاحتمالُ.

ط ـ الحرص على كون البحث محصوراً على الدراسة القرآنية، وعدم الإسهاب في المسائل إلا عند الضرورة مع الاختصار.

ي ـ ذكر النتيجة التي توصلت إليها بعد كل عادة قدر المستطاع.

٣ ـ عزو الآيات إلى سورها من القرآن وترقيمها، وجعلها بين معقوفتين.

٤ ـ تخريج الأحاديث، وعزوها إلى مصادرها، فإن كانت في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بهما، وإن لم يكن فيهما، فمع عزوه إلى مصادره أذكر درجته صحةً وضعفاً، معتمداً في ذلك على كلام المحققين من أهل الحديث.

٥ ـ إحالة كلام أهل العلم إلى موضعه من كتبهم إن وجدت، أو المعتبرة في نقل أقوالهم عند عدمها.

٦ ـ نسبة الأبيات الشعرية إلى قائليها وتوثيقها.

٧ ـ شرح المصطلحات والكلمات الغريبة وتوضيحها.

٨ ـ التعريف بالأعلام باختصار، ثم الإحالة على مرجع أو اثنين من مراجع ترجمته، مع ملاحظة ما يلي: عدم التعريف بالأنبياء والخلفاء الأربعة ورواة الأحاديث، ومن كان في نص منقول، ولم أذكر الألقاب العلمية؛ لكون ذلك معلوماً إلا أن ينص عليها المنقول عنه.

٩ ـ التعريف بالفِرق مما يحتاج إلى تعريف في أول موطن ترد فيه قدر الاستطاعة.

وقبل أن أختم أتوجه بالشكر الجزيل لله ﷻ على ما منّ به عليَّ من نعم عظيمة، ويسَّر لي من مِنن جسيمة، فللَّه الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

ثم أُثنِّي بالشكر والتقدير والدعاء والوفاء، لوالديَّ الكريمين، اللَّذَيْن ربَّياني صغيراً، وغمراني بفضلهما كبيراً، فقد أحاطاني بالتشجيع، والتوجيه، والدعاء، فجزاهما الله عني خير ما جزى والداً عن ولده.

ثم أشكر لأهل الفضل فضلَهم، فأُزجي وافر الشكر، وعاطر الثناء، لصاحبَي الفضيلة، شيخيَّ القديرين: فضيلةِ الشيخِ الدكتورِ: محمد بن سريع السريع، الأستاذ المشارك بكلية أصول الدين المشرفِ على الرسالة، وفضيلةِ

الشيخ الدكتور: عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر، الأستاذ المشارك بكلية اللغة العربية المشرف المساعد، حيث تكرَّما بقَبول الإشرافِ على هذه الرسالة، رغم كثرةِ الأعمال، وضيقِ الوقت، ولقد أفدتُ منهما العلم الغزير، والخلق النبيل، والتوجيه الوجيه، وحالي مع الواحد منهما:

يزيد تكرُّماً وأزيد شكراً وذلك دأبه أبداً ودأبي

فلهما مني شكرٌ يتناهى، وثناءٌ يتجدد، ودعاء صادق، ألظُّ به لدى الرواحة والبكور.

كما أشكر أصحاب الفضيلةِ أعضاءَ لجنة المناقشة: فضيلة الأستاذِ الدكتور فهد بن عبد الرحمٰن الرومي الأستاذ في كلية المعلمين بجامعة الملك سعود، وفضيلةَ الأستاذِ الدكتور: بدر بن ناصر البدر الأستاذ بكلية أصول الدين بجامعة الإمام، وفضيلة الدكتورِ: عبد العزيز بن صالح العمار الأستاذ المشارك بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام، على قَبولهم مناقشة الرسالة، وأسأل الله أن ينفعني بتوجيهاتهم وملحوظاتهم.

ولا يفوتني أن أشكر فضيلة الشيخ الدكتور: أحمد بن ناصر الطريقي المرشدِ العلميِّ لخطةِ البحث، حيث أفدت من علمه، وأدبه، وتوجيهاته حتى تمت الموافقة على خطة البحث.

والشكر يتكرر لفضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور: بدر بن ناصر البدر رئيس القسم آنذاك، والذي أشار عليَّ بهذا الموضوع وسقاه مذ كان فكرة مرتبطاً بتفسير الرازي فحسب، حتى تطور وعمَّ التفاسير واستوى على سوقه، فبارك الله في الجهود وسدد الخطى.

كما أشكر جميع المشايخ والإخوة والأصدقاء الذين وقفوا معي، وأعانوني على إتمام هذا البحث، فبارك الله فيهم ووفقهم أينما كانوا.

والشكرُ والدعاء يُسدَيان لجامعتِنا الغراء، الجامعةِ المباركة، جامعةِ الإمامِ محمدِ بن سعودٍ الإسلاميةِ، إدارةً، وعماداتٍ، وكلياتٍ، فقد كان جُلُّ تعليمي في قاعاتها، متتلمذاً على أساتذتها، وعلمائها، فاللَّهُمَّ اجزِ مَن

أسَّسها، ومن سعى في رقيِّها ونهضتها خيراً، ثم الشكر لكلية أصول الدين خصيصاً، مُمثلة بعميدِها، ووكلائِها، ورؤساءِ أقسامِها، وأعضاءِ هيئةِ التدريسِ فيها، حيث أتيحت لي فرصةُ الالتحاق بمرحلة الدكتوراه، في قسم القرآن وعلومه، فنهلت من علوم المشايخِ، وأفدتُ من أخلاقِهم، وتوجيهاتِهم، وتجارِبِهم.

والشكر يُساق لكلية اللغة العربية التي كان لها الأثر البارز في مساندة البحث وخدمة كتاب الله تعالى، فجزاهم الله عني خير الجزاء.

وهذه الجامعة العظيمة إنما هي ثمرة من ثمار دولتنا المباركة التي أقامت الشريعة، ورفعت راية التوحيد، وأولت جانب العلم الشرعي مزيد عناية، وعمَّ خيرُها القاصي والداني، وبلغ شُعاعُها السهولَ والحزون.

تأمل شمسَها ومدى ضحاها ... تجد في كل ناحية شُعاعاً

هذا، وأسألُ اللهَ سبحانه أن يغفر لي كلَّ زلل، وكل خطل في القول والعمل، وأن يتداركني ووالدي ومشايخي برحمته وعفوه، وأن يوفق الجميع لكل خير، إنه سميع قريب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

✍ **الباحث**

راشد بن حمود بن راشد الثنيان

التَّمْهِيد

وفيه:

- بيان مصطلح (عادات القرآن) إفراداً وتركيباً.
- ظهور مصطلح (عادات القرآن) وعناية العلماء به.
- منزلة عادات القرآن في التفسير.

بيان مصطلح (عادات القرآن) إفراداً وتركيباً

تعريف عادات القرآن باعتبار مفرديه:

❑ أولاً: تعريف العادات لغة واصطلاحاً:

تعريف العادات لغة:

العادات: جمع كثرة، مفرده عادة، مِنْ عاد يَعُود عَوْداً، والعَوْد: تكرار الأمر وتثنيته[١].

قال الخليل: «العَوْد: هو تثنية الأمر عوداً بعد بَدْء»[٢].

وقال ابن فارس: «العين والواو والدال أصلان صحيحان، يدل أحدهما على تثنية في الأمر، وهو العَوْد..»[٣].

والعادةُ: الدُّرْبة، والتمادي في الأمر حتّى يصيرَ له سجيّة.

ويُقَالُ للرَّجُل المواظب في الأمر: مُعاوِد[٤].

قال الجوهري: «والعادة معروفة، والجمع عادٌ وعادات، تقول منه: عادَهُ واعتَادَه»[٥].

ومن هذا الباب:

العِيادة: أن تعود مريضاً، ولآل فلانٍ مَعَادةٌ؛ أي: أمر يغشاهم الناسُ له.

والمَعَاد: كل شيء إليه المصير، والآخرة مَعادٌ للناس، والله تعالى

---

(١) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (عود) ٥٩٣.
(٢) العين، مادة: (عود) ٢/٢١٧.
(٣) معجم مقاييس اللغة، مادة: (عود) ٤/ ١٨١.
(٤) ينظر: العين ٢/٢١٨، تاج العروس ٨/ ٤٤٤.
(٥) الصحاح ٣/٧٦.

المبدِئ المُعيد، وذلك أنه بدأ الخلْقَ ثم يُعيدهم. وتقول: رأيتُ فلاناً ما يبدئ وما يعيد؛ أي: ما يتكلم ببادئةٍ ولا عائدة.

ومنه المعاوَدَة، واعتياد الرَّجل، والتعوُّد.

والقياس صحيح في كلِّ هذه المعاني[١].

قال ابن منظور: «والعادَةُ: الدَّيْدَنُ يُعادُ إليه، معروفة، وجمعها: عادٌ وعاداتٌ، وتَعَوَّدَ الشيءَ وعادَه وعاوَدَه مُعاوَدَةً وعِواداً واعتادَه واستعاده وأعادَه؛ أي: صار عادَةً له»[٢].

تعريف العادات اصطلاحاً:

من أهم التعريفات التي ذكرها العلماء في تعريف العادة:

التعريف الأول: ما استمر الناس عليه على حكم المعقول وعادوا إليه مرة بعد أخرى[٣].

التعريف الثاني: ما استقر في النفوس من الأمور المتكررة المعقولة عند الطباع السليمة[٤].

وهذا مفهوم واسع للعادة حيث يدخل فيه كل ما نشأ الناس عليه واعتادوه، واستقر في نفوسهم، فلفظ (ما) يعم ما تعارفه الناس سواء كان صحيحاً أو فاسداً، وسواء كان قولياً أو فعلياً.

وعلى هذا تجري العادة في الأقوال والأفعال، ويقوم كيانها على استقرار الأمر في النفوس واعتياد الناس وتكرارهم لها، وقبول الطباع السليمة لها[٥].

---

(١) أي: القياس على الأصل وهو: تكرار الأمر وتثنيته. ينظر: معجم مقاييس اللغة ٤/ ١٨١.

(٢) لسان العرب ٣/ ٣١٥.

(٣) ينظر: التعريفات ١٤٦، الكليات ٦١٧، المعجم الوسيط ٢/ ٦٣٥.

(٤) ينظر: الأشباه والنظائر لابن نجيم ٩٣، وهذا هو تعريف الفقهاء. مجموع رسائل ابن عابدين ٢/ ١١٤.

(٥) ينظر: العرف وأثره في الشريعة والقانون ٣٦.

التعريف الثالث: الأمر المتكرر من غير علاقة عقلية[١].

لأن التكرار إذا كان ناشئاً عن علاقة عقلية، وهي التي يحكم العقل فيها لم يكن عندئذ من قبيل العادة، بل من قبيل التلازم العقلي، وذلك كتكرر حدوث الأثر كلما حدث مُؤَثِّرُه، كتحرك الخاتم بحركة الإصبع، وتحرك ورق الشجر كلما تحرك الريح، فلا يسمى عادة ـ على هذا التعريف ـ مهما تكرر؛ لأنه ناشئ عن تلازم وارتباط في الوجود بين العلة والمعلول، يقضي به العقل، وليس ناشئاً عن ميل الطبع.

فهذه خلاصة تعريف اللغويين والفقهاء والأصوليين للعادة اصطلاحاً، وبينها فروق يسيرة.

وعلى هذا فالقول بأن العادة: هي الأمر المتكرر متفق عليه بين الأصوليين والفقهاء، والأمر المتكرر يشمل كل حادث يتكرر؛ لأن لفظة [الأَمْرِ] من أوسع ألفاظ اللغة عموماً وشمولاً[٢].

ويبقى أن التعريف الثاني يُخرِج من العادة ما لا تقبله الطباع السليمة، ومن باب أولى ما لا يوافق الشرع[٣].

وفي التعريف الأخير إخراج الأمر المتكرر لوجود علاقة عقلية، فلا يُعتبر عادة، وإنما هو تلازم عقلي، والله تعالى أعلم.

❑ ثانياً: تعريف القرآن لغة واصطلاحاً:

تعريف القرآن لغة:

اختلفت آراء العلماء من جهة كون هذا اللفظ جامداً أو مشتقاً، ومن جهة كونه مهموزاً أو لا، ويمكن توضيح ذلك مختصراً من خلال النقاط التالية:

---

(١) ينظر: التقرير والتحبير لابن أمير الحاج ٢/ ٢٢١، وهذا هو تعريف الأصوليين.

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة ١/ ١٣٧، أصول الفقه الإسلامي ٢/ ٨٢٩، الوجيز في إيضاح القواعد الفقهية الكلية ٢٧٤.

(٣) ينظر: شرح الكوكب المنير ٤/ ٤٤٨، ٤٤٩.

أولاً: اتفق العلماء على اسمية لفظ [قُرْآنٌ] فليس بفعل ولا حرف.

ثانياً: القرآن على وزن فعلان؛ كغفران وشكران، وهو مهموز كما في قراءة جمهور القراء، وقَرَأ ابن كثير بالتخفيف: قُرَان، نَقَل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها.

قال الشاطبي:

ونَـقْـلُ قُـرَانٍ والـقُـرَانِ دَوَاؤُنَـا ....[1]

ثالثاً: اختلف العلماء في كونه جامداً أو مشتقاً، وإليك مذاهبهم:

المذهب الأول: أن القُرَان اسم جامد، وهذا قول الشافعي[2]، واختاره السيوطي[3].

والمذهب الثاني: أن القرآن اسم مشتق، وهو قول الجمهور[4]، على تفصيل في مادة الاشتقاق[5].

---

(١) المراد: بيان القراءة بنقل حركة الهمزة لابن كثير، وظاهره: أن نقل القرآن وهو قراءته وتلاوته وتعليمه دواء لمن استعمله مخلص من أمراض المعاصي، ثم قراءة ابن كثير هذه تحتمل أن تكون من باب نقل حركة الهمزة كما ذكر، وتحتمل أن تكون من قرنت بلا همز؛ أي: جمعت، ومنه: القِرَان في الحج. ينظر: إبراز المعاني من حرز الأماني ١/٣٥٧، رقم البيت ٥٠٠.

(٢) ينظر: مستدرك الحاكم ٢/ ٢٥٠ (٢٩٠٥)، معرفة السنن والآثار للبيهقي ٧/٥٦٨ (٦١٤٠) رواية عن شيخه إسماعيل بن قسطنطين.

(٣) الإتقان ١/ ١١٣.

(٤) ينظر: البرهان ١/٢٧٨، الإتقان ١/ ١١٢.

(٥) قيل: مشتق من قَرَنت الشيء بالشيء إذا ضممت أحدهما إلى الآخر، سُمِّي بذلك لقران السور والآيات والحروف فيه. ينظر: البرهان ١/ ٢٧٨.

وقيل: مشتق من القرائن؛ لأن الآيات يصدق بعضها بعضاً، ويشابه بعضها بعضاً فهي حينئذ قرائن. ينظر: تفسير الرازي ٥/ ٧٤، البحر المحيط ٢/ ٣٢، وهو بلا همز ونونه أصلية على هذين القولين.

وقيل: مشتق من القرء وهو الجمع؛ لأن القرآن يجمع الآيات والسور ويضم بعضها إلى بعض، وهو على هذا القول مهموز ونونه زائدة، ينظر: لسان العرب ١/ ١٢٨، الكليات ١١٤٢، مناهل العرفان ١/ ١٤.

وأشهر الأقوال أنه مشتق من مادة: (قرأ)، بمعنى تلا.

والدليل على ذلك استعمال هذا اللفظ ومشتقاته في كلام الله سبحانه، فهو مصدر القراءة، يقال: قرأت القرآن فأنا أقرؤه، من قرأ قراءةً وقرآناً فهو مصدر[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ [يونس: ٦١]، وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل]، وقوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء]، وقوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء]، وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة].

قال الزرقاني: «أما لفظ القرآن فهو في اللغة: مصدر مرادف للقراءة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة]، ثم نقل من هذا المعنى المصدري وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل على النبي من باب إطلاق المصدر على مفعوله؛ ذلك ما نختاره استناداً إلى موارد اللغة وقوانين الاشتقاق، وإليه ذهب اللحياني، وجماعة، ثم نقل من هذا المعنى المصدري وجُعِل اسماً لكلام الله تعالى.

أما القول بأنه وصف من القرء، بمعنى الجمع، أو أنه مشتق من القرائن، أو أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء، أو أنه مرتجل؛ أي: موضوع من أول الأمر علماً على الكلام المعجز المنزل غير مهموز ولا مجرد من أل، فكل أولئك لا يظهر له وجه وجيه، ولا يخلو توجيه بعضه من كلفة، ولا من بُعْدٍ عن قواعد الاشتقاق وموارد اللغة.

وعلى الرأي المختار فلفظ قرآن مهموز وإذا حذف همزه فإنما ذلك للتخفيف وإذا دخلته أل بعد التسمية فإنما هي للمح الأصل لا للتعريف»[(٢)].

---

(١) ينظر: تفسير الرازي ٥/ ٧٤.

(٢) مناهل العرفان ١/ ١٤، وينظر: مباحث علوم القرآن للقطان ٢٠.

فالقرآن هو المقروء، من باب تسمية المفعول بالمصدر[(١)]، ثم غلب اسماً على كلام الله تعالى المحفوظ بين دفتي المصحف.

تعريف القرآن اصطلاحاً:

هو: «**كلام الله المنزل على محمد ﷺ المتعبد بتلاوته**»[(٢)].

شرح التعريف:

(**كلام الله**) جنس في التعريف يشمل جميع كلام الله جل وعلا، ويُخرج كلام غيره سبحانه من الإنس والجن والملائكة.

وخرج بقوله: (**المنزل**) كلام الله تعالى لأهل السماء، وما استأثر بعلمه، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف].

وتقييد المنزل بكونه: (**على محمد ﷺ**) يُخرج ما أُنزل على غيره من الأنبياء كالتوراة والإنجيل، وكل ما لم ينزل على محمد ﷺ سوى القرآن.

وقوله: (**المتعبد بتلاوته**)؛ أي: المقروء في الصلاة، والمثاب على قراءته، فيُخرِج القراءات الشاذة، والحديث القدسي[(٣)].

❑ ثالثاً: تعريف عادات القرآن باعتبار تركيبه:

أثبت ربنا جل وعلا أن له سنناً وعادات مع خلقه في غير ما آية.

ـ كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح].

قال الماوردي: «قوله ﷻ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح]؛ يعني: طريقة الله وعادته السالفة نصر رسله

---

(١) ينظر: الإتقان ١/ ١١٣.

(٢) ينظر: التعريفات ٢٢٣، مناهل العرفان ١/ ١٥، ولكثرة خصائص القرآن تعددت التعريفات؛ فيُذكر في تعريف من خصائصه ما لا يذكر في الآخر، والله أعلم.

(٣) ينظر: الإحكام في أصول الأحكام ١/ ١٥٩، مباحث في علوم القرآن ٢٠، دراسات في علوم القرآن ٢١، المحرر في علوم القرآن ٢٢.

وأوليائه على أعدائه»[١].

ـ وقال سبحانه: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء].

قال ابن جزي: «ومعناه: العادة؛ أي: هذه عادة الله مع رسله»[٢].

ـ وقال تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الحجر].

قال السعدي: «أي: عادة الله فيهم بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله»[٣].

وعادات القرآن هي عادة الله تعالى في كلامه المنزل.

ومن خلال تعريف العادات والقرآن باعتبار مفرديهما؛ يظهر لي أن إضافة العادات إلى القرآن من باب إضافة نوع من علوم القرآن إلى القرآن.

قال الشاطبي في أقسام العلوم المضافة إلى القرآن: «وقسم هو من عادة الله تعالى في إنزاله، وخطاب الخلق به، ومعاملته لهم بالرفق والحسنى..»[٤].

ولم أجد ـ فيما اطلعت عليه ـ من عرَّف عادات القرآن كمصطلح إضافي، ولذا فإني ـ بعد طول تأمل ـ رأيت أن يُقال في **تعريف عادات القرآن**:

«ما كرَّره القرآن على طريقة واحدة أو أغلبية لدلالة خاصة».

شرح التعريف:

(ما كرَّره) بمعنى: أنه تكرر أكثر من مرة، فأخرج ما جاء ذكره مرة واحدة.

(القرآن) خرج به ما تكرر في غير القرآن، من العادات في الفقه والأصول وسائر العلوم.

(على طريقة واحدة)؛ يعني: على حال واحدة في كل القرآن، وخرج به ما تنوع وروده في القرآن.

---

(١) النكت والعيون ٥/٣١٨.

(٢) التسهيل ٢/١١٦.

(٣) تفسير السعدي ٤٢٩.

(٤) الموافقات ٤/٢٠٠.

(أو أغلبية)؛ يعني: الأكثر من مواضعها، فلا تنخرم العادة إذا خرج موضع أو أكثر على غير الطريقة الأغلبية، ويُخرِج هذا ما جاء على طريقتين متساويتين في القرآن.

قال الشاطبي: «الأمر العام والقانون الشائع هو ما تقدم، فلا تنقضه الأفراد الجزئية الأقلية؛ لأن الكلية إذا كانت أكثرية في الوضعيات انعقدت كلية، واعتمدت في الحكم بها وعليها، شأن الأمور العادية الجارية في الوجود»(١).

(لدلالة خاصة)؛ أي: لمعنى وسرّ أراده القرآن من التكرار، وخَرَج به ما تكرر في القرآن ودلالته عامة كعامة مسائل النحو والإعراب.

قال ابن الأثير: «وصاحب علم البيان والنحوي يشتركان في أن النحوي ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي؛ وتلك دلالة عامة، وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة؛ وهي دلالة خاصة، والمراد بها: أن يكون على هيئة مخصوصة من الحسن، وذلك أمر وراء النحو والإعراب»(٢).

وقال ابن تيمية: «ودلالة اللفظ على المعنى دلالة قصدية إرادية اختيارية، فالمتكلم يريد دلالة اللفظ على المعنى؛ فإذا اعتاد أن يعبر باللفظ عن المعنى كانت تلك لغته، ولهذا كل من كان له عناية بألفاظ الرسول ومراده بها: عرف عادته في خطابه، وتبين له من مراده ما لا يتبين لغيره.

ولهذا ينبغي أن يُقصَد إذا ذُكر لفظ من القرآن والحديث أن يُذكر نظائر ذلك اللفظ، ماذا عنى بها الله ورسوله؟ فيُعرف بذلك لغة القرآن والحديث، وسُنَّة الله ورسوله التي يخاطب بها عباده، وهي العادة المعروفة من كلامه...»(٣).

فيدخل في هذا المصطلح: عادات القرآن في حروفه وألفاظه وتراكيبه

---

(١) المرجع السابق ٤/ ١٧٥.
(٢) المثل السائر ١/ ٢٦.
(٣) مجموع الفتاوى ٧/ ١١٥.

وأحكامه ومعانيه، كلية أو أغلبية، علمنا دلالتها أو لم نعلم، فهو مصطلح واسع وكبير، ولا يمكن حصره في بحث بل ولا في بحوث.

وبحثي هذا سيقتصر على جزء كبير ومهم من عادات القرآن، وهو **عادات القرآن الأسلوبية**.

والمراد بالأسلوب: أجناس الكلام وطرقه.

قال الجوهري: «الأساليب: هي أجناس الكلام وطرقه»[(١)].

وقال: «والأُسلوب بالضم: الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول؛ أي: في فنون منه»[(٢)].

وقال الجرجاني: «الأسلوب: الضرب من النظم والطريقة فيه»[(٣)].

وقال ابن منظور: «وكل طريق ممتد فهو أُسلوب، ويُجمَعُ أَساليبَ، والأُسْلوبُ بالضم الفَنُّ، يقال: أَخَذ فلانٌ في أَساليبَ من القول؛ أي: أَفانِينَ منه»[(٤)].

والقول مكون من حرف ولفظ وجملة[(٥)].

والقيد بالأسلوبية: يُخرِج عادات القرآن في غير الأسلوب، وهي كثيرة كعادات القرآن في الأحكام الفقهية والعقدية، وعادات القرآن المعنوية عموماً، وغيرها.

فعادات القرآن الأسلوبية:

«ما كرره القرآن من أساليبه على طريقة واحدة أو أغلبية لدلالة خاصة».

هذا هو ما سأتناوله في هذا البحث بمشيئة الله تعالى، سالكاً طريقة التطبيق بالأمثلة على آيات القرآن، أسأل الله التوفيق والسداد.

---

(١) الصحاح ٧/ ٢٧.
(٢) الصحاح ٢/ ١٦٧، وينظر: لسان العرب ١/ ٤٧١.
(٣) دلائل الإعجاز ٣٣٨.
(٤) لسان العرب ١/ ٤٧١.
(٥) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة ٤٧، ٤٨.

ظهور مصطلح (عادات القرآن) وعناية العلماء به

بدأ الكلام في عادات القرآن منذ ظهور علوم القرآن، الذي تزامن مع نزول القرآن، فمسألة (أول ما نزل، ونزول الوحي) جزء من علوم القرآن.

ثم بدأت العلوم تظهر شيئاً فشيئاً.

والكلام في عادات القرآن مرتبط بالتفسير الذي هو جزء من علوم القرآن، وفيه ما لا يقوم التفسير إلا به؛ كعلم غريب القرآن، وعلم أسباب النزول، وعلم المكي والمدني، وغيرها مما لا تخلو منه كتب التفسير.

وقد اعتنى السلف بعادات القرآن، فضمَّنوها تفسيرهم للآيات، ومن ذلك:

ـ قول ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة] يقول: كادوا لا يفعلون، ولم يكن الذي أرادوا؛ لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها: وكل شيء في القرآن: كاد، أو كادوا، أو لو، فإنه لا يكون، وهو مثل قوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]»(١).

ـ وقول ابن عباس ومجاهد وعطاء وعمرو بن دينار، وغيرهم رضي الله عنهم: «كل شيء في القرآن [أَوْ] كذا [أَوْ] كذا فصاحبه بالخيار، أيّ ذلك شاء فعل»(٢).

ـ وقول ابن عباس رضي الله عنهما: «وكل [عَسَى] في القرآن فهي واجبة»(٣).

ـ وقول الضحاك بن مزاحم في قوله: ﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الصَّافات] قال: «كل كأس في القرآن فهو خمر»(٤).

وقال ابن عيينة: «ما سمى الله تعالى ﴿مَطَرًا﴾ في القرآن إلا عذاباً،

---

(١) أخرجه الطبري ٢/ ٢١٩.
(٢) أخرجها الطبري ٣/ ٧٤، ٧٥.
(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ١٦٨.
(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٦.

وتسمية العرب الغيث، وهو قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ﴾ [الشورى: ٢٨]»(١).

وقال الجاحظ: «وفي القرآن معان لا تكاد تفترق: مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس»(٢).

وقال مكي: «وكل شيء في القرآن: أجر كريم، وأجر كبير، ورزق كريم فهو الجنة»(٣).

وقال الراغب: «القوم جماعة الرجال في الأصل دون النساء، وفي عامة القرآن أريد الرجال والنساء جميعاً»(٤).

فمن هذه النقولات وغيرها تبرز عناية العلماء بعادات القرآن في زمن متقدم من حيث الأصل دون المصطلح، فلم تكن عادات القرآن بخافية على العلماء، بل ذكروها دون إدخالها في مصطلح محدد، حتى ظهر هذا الاصطلاح في القرن السادس، فأول من نص على هذا المصطلح فيما اطلعت عليه الزمخشري حيث قال: «من عادته عَجَلَّ في كتابه أن يذكر الترغيب مع الترهيب، ويشفع البشارة بالإنذار إرادة التنشيط لاكتساب ما يُزلِف، والتثبيط عن اقتراف ما يتلف»(٥).

ثم تتابع المفسرون والمحققون على استعمال هذا المصطلح.

قال الرازي: «عادة القرآن أن يكون بيان التوحيد وبيان الوعظ والنصيحة

---

(١) أخرجه البخاري ٦/ ٧٧ معلقاً بصيغة الجزم، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال].

(٢) البيان والتبيين ١/ ٢١.

(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية ٤/ ٢٩٥١، ٦/ ٤١٥١.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن ٦٩٣، وذكر جملة كبيرة من عادات القرآن وأفردها المحقق صفوان عدنان داوودي في فهرس مستقل ٩٤٨.

(٥) الكشاف ١/ ١٣٣.

وبيان الأحكام مختلطاً بعضها بالبعض ليكون كل واحد منها مقوياً للآخر ومؤكِّداً له»(١).

وقال البيضاوي: «﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ [الأعراف: ١٥٩]؛ يعني: من بني إسرائيل ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ يهدون الناس محقين، أو بكلمة الحق ﴿وَبِهِۦ﴾ بالحق ﴿يَعْدِلُونَ﴾ بينهم في الحكم، والمراد بها: الثابتون على الإيمان القائمون بالحق من أهل زمانه، أتْبَعَ ذكرهم ذكر أضدادهم على ما هو عادة القرآن، تنبيهاً على أن تعارض الخير والشر وتزاحم أهل الحق والباطل أمر مستمر»(٢).

وقال ابن تيمية: «فعادة القرآن إذا أضيف القول إلى الله أن يقال: قول الله، لا يقال: قول الحق إلا إذا كان المراد القول الحق، كما في قوله: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ [مريم: ٣٤]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقوله: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ [صٓ]»(٣).

وقال ابن القيم: «والآثار السلفية والمألوف من عادة القرآن في استعماله ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ [الحاقَّة: ٣]، في الأمور الغائبة العظيمة كما تقدم والله أعلم»(٤).

وقال الزركشي: «واعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن كقوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة]..»(٥)، ومثله قال السيوطي(٦).

وقال ابن حجر: «عادة القرآن إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد حيث يعرض يوم القيامة، أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها المحاسبة عملاً وتركاً، كما قال في الكهف: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩] إلى أن قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف]»(٧).

---

(١) تفسير الرازي ٦/ ٢٠.
(٢) تفسير البيضاوي ٣/ ٦٦.
(٣) مجموع الفتاوى ٢٠/ ٤٨٠.
(٤) التبيان في أقسام القرآن ١/ ٢٤.
(٥) البرهان ١/ ١٧٠.
(٦) الإتقان ٢/ ٢٤٤.
(٧) فتح الباري ٨/ ٦٨٠.

وقال ابن عادل: «... قد تقدم أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين المطيعين المتقين»(١).

وقال البقاعي: «التقدير: ثم يعيدكم خلقاً جديداً كما كنتم أول مرة، فحذفه كما هو عادة القرآن في حذف كل ما دل عليه السياق ولم يدع داع إلى ذكره»(٢).

وقال السيوطي: «﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٠٢] وهذا جَرْيٌ على عادة القرآن في الخطاب فلا مفهوم له»(٣).

وقال ابن عاشور: «والخطاب بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطاب للمسلمين على عادة القرآن في إطلاق هذا العنوان، ولأن شأن الموصول أن يكون بمنزلة المعرف بلام العهد»(٤).

إلى غير ذلك من المواضع الكثيرة في كتب المفسرين وغيرهم؛ مما يدل على اهتمامهم وعنايتهم به.

وخلال هذه القرون الطويلة تداول العلماء هذا المصطلح وتتابعوا عليه دون نكير.

ويعد ابن عاشور أول من وضع مصطلح: عادات القرآن، عنواناً لباب مستقل، وبين أهمية معرفة عادات القرآن للمفسر(٥).

وأُلخص أهم مظاهر عناية العلماء بعادات القرآن في الأمور الآتية:

١ ـ أن عناية العلماء بعادات القرآن انطلقت من عنايتهم بكتاب الله تعالى، وهذا أمر ظاهر، ومن علوم القرآن عادته في النزول، وعادته في النسخ، وعادته في الأمثال والأقسام وغيرها ومما تتابع العلماء على بيانه، وإبراز أسراره ولطائفه: عادات القرآن في حروفه وألفاظه وتراكيبه.

٢ ـ ومن عناية العلماء بعادات القرآن ربط التفسير بها في كثير من المواضع.

---

(١) تفسير اللباب ١٤/١٤٦.
(٢) نظم الدرر ٦/٣٧٩.
(٣) تفسير الجلالين ١١٩.
(٤) التحرير والتنوير ٢/٢٢٢.
(٥) التحرير والتنوير ١/١٢٤.

قال ابن عباس ﷺ في تفسير الورود الوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم]: «الورود: الدخول، وقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء] أورودٌ هو أم لا؟ وقال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود]، أورود هو أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك، قال: فضحك نافع»(١).

وقال الطبري: «وأما قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل]، فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم فيه بما قلنا إن معناه: والذين هم بالله مشركون.

وعن الربيع: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ أشركوه في أعمالهم.

والقول الأوّل، أولى القولين في ذلك بالصواب، وذلك أن الذين يتولون الشيطان إنما يشركونه بالله في عبادتهم وذبائحهم ومطاعمهم ومشاربهم، لا أنهم يشركون بالشيطان.

ولو كان معنى الكلام ما قاله الربيع، لكان التنزيل: الذين هم مشركوه، ولم يكن في الكلام به، فكان يكون لو كان التنزيل كذلك، والذين هم مشركوه في أعمالهم، إلا أن يوجه موجه معنى الكلام، إلى أن القوم كانوا يدينون بألوهة الشيطان، ويشركون الله به في عبادتهم إياه، فيصحّ حينئذ معنى الكلام، **ويخرج عما جاء التنزيل به في سائر القرآن**، وذلك أن الله تعالى وصف المشركين في سائر سور القرآن أنهم أشركوا بالله، ما لم ينزِّل به عليهم سلطاناً، وقال في كلّ موضع تقدّم إليهم بالزجر عن ذلك، لا تشركوا بالله شيئاً، ولم نجد في شيء من التنزيل: لا تشركوا الله بشيء، ولا في شيء من القرآن، خبراً من الله عنهم أنهم أشركوا الله بشيء، فيجوز لنا توجيه معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ إلى: والذين هم

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٢٣٠.

بالشيطان مشركو الله. فبيِّنٌ إذاً إذ كان ذلك كذلك، أن الهاء في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِۦ﴾ عائدة على الربّ في قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل]»[١].

٣ ـ ومما يدل على عنايتهم بعادات القرآن استقراء القرآن كاملاً لاستخراجها.

فقد قال ابن عاشور: «وقد استقريت بجهدي عادات كثيرة في اصطلاح القرآن»[٢].

٤ ـ الترجيح بعادات القرآن.

قال ابن القيم في معرض تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ [الطَّارق]: «والقول الأول هو الصواب ـ أي: إنه على رجعه إليه يوم القيامة، كما هو قادر على خلقه من ماء هذا شأنه ـ لوجوه، أحدها: أنه هو المعهود من طريقة القرآن في الاستدلال بالمبدأ على المعاد»[٣].

وقد أكثر ابن القيم من الاستدلال بعادات القرآن، والترجيح بها، وأطلق عليها: عادة القرآن، ومعهود القرآن، وطريقة القرآن، ونحوها.

٥ ـ إيجاب العلماء تنزيل كلام الله تعالى على عادته الغالبة منه.

قال الآمدي: «يجب تنزيل كلام الشارع على عرفه؛ إذ الغالب منه أنه إنما يناطقنا فيما له فيه عُرْف بعُرْفِه»[٤].

وقال ابن تيمية: «إذا عُرف المتكلم فُهِم من معنى كلامه ما لا يفهم إذا لم يعرف؛ لأنه بذلك يعرف عادته في خطابه، واللفظ إنما يدل إذا عرف لغة المتكلم التي بها يتكلم وهي عادته وعرفه التي يعتادها في خطابه، ودلالة اللفظ على المعنى دلالة قصدية إرادية اختيارية، فالمتكلم يريد دلالة اللفظ على المعنى؛ فإذا اعتاد أن يعبر باللفظ عن المعنى كانت تلك لغته ولهذا كل

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٢٩٥، وينظر: ١/ ٢٢٣.
(٢) التحرير والتنوير ١/ ١٢٥.
(٣) التبيان في أقسام القرآن ٦٦.
(٤) الإحكام ٣/ ٢٠.

من كان له عناية بألفاظ الرسول ومراده بها: عرف عادته في خطابه، وتبين له من مراده ما لا يتبين لغيره.

ولهذا ينبغي أن يُقصَد إذا ذُكر لفظ من القرآن والحديث أن يُذكر نظائر ذلك اللفظ، ماذا عنى بها الله ورسوله؟ فيُعرف بذلك لغة القرآن والحديث، وسُنَّة الله ورسوله التي يخاطب بها عباده، وهي العادة المعروفة من كلامه...»[١].

وقال ابن نجيم: «واعلم أن اعتبار العادة والعرف يُرجَع إليه في مسائل كثيرة، حتى جعلوا ذلك أصلاً»[٢].

وعليه فقد اعتنى السابقون بعادات القرآن، قبل ظهور هذا المصطلح وبعده، وهي في تطور مستمر، يزيدُ باستقراء القرآن وتأمل ألفاظه ومعانيه واستخراج كنوزه وأسراره، أسأل الله جل وعلا أن يبارك في الجهد ويوفق للصواب.

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ١١٥.

(٢) الأشباه والنظائر ٩٣.

منزلة عادات القرآن في التفسير

علوم القرآن كثيرة، تعين على فهمه على الوجه الصحيح، ونشأتها إنما كان لخدمة النص القرآني، وقد نزل القرآن الكريم بلغة العرب، وكان صحابة رسول الله ﷺ على دراية بلسان العرب، يعرفون معاني ألفاظه، وتصرّف أساليبه، فقد كانوا على سليقة سليمة، وقُربِ عهد بنزول الكتاب المبارك، فيعرفون لغة القرآن، وإذا نزلت بهم حادثة فزعوا إلى كتاب الله، فإن لم يجدوا فيه حاجتهم فزعوا إلى السُّنَّة الصحيحة، فإن لم يجدوا فيها اجتهدوا وألحقوا الأشباه بالأشباه، مراعين المصالح التي راعتها الشريعة، فلم يكونوا بحاجة إلى كتابة قواعد وأصول للتعامل مع القرآن، بل دونها العلماء بعد ذلك من خلال النظر في النصوص وأساليب السلف ومناهجهم في التعامل معها.

فعناية المسلمين بالقرآن خلَّف ثروة علمية في مختلف المجالات، تجتمع كلها تحت ما اصطُلِح على تسميته (علوم القرآن)، لضمان الفهم الصحيح لنصوص الكتاب، ومن ذلك عادات القرآن.

ـ فعادات القرآن من جملة علوم القرآن المتنوعة.

قال الشاطبي في تقسيم العلوم المضافة إلى القرآن: «وقسم وهو مأخوذ من عادة الله تعالى في إنزاله، وخطاب الخلق به، ومعاملته لهم بالرفق والحسنى، من جعله عربياً يدخل تحت نيل أفهامهم.. ويشتمل على أنواع من القواعد الأصلية والفوائد الفرعية، والمحاسن الأدبية؛ فلنذكر منها أمثلة يُستعان بها في فهم المراد:

فمن ذلك: عدم المؤاخذة قبل الإنذار، ودل على ذلك إخباره تعالى عن نفسه بقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]، فجرت عادته في

خلقه أنه لا يؤاخذ بالمخالفة إلا بعد إرسال الرسل، فإذا قامت الحجة عليهم، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ولكل جزاءُ مثلِه»[١].

- وإذا عُرفت عادة القرآن فهي دليل استقرائي لا يخرج عنه معنى الآية غالباً.

قال الشنقيطي: «من أنواع البيان التي تضمنها الاستدلال على أحد المعاني الداخلة في معنى الآية بكونه هو الغالب في القرآن، فغلبته فيه دليل استقرائي على عدم خروجه من معنى الآية، وقد قدمنا أمثلة لذلك، فإذا علمت ذلك فاعلم أن ابن عباس ﵄ استدل على المراد بورود النار في الآية بمثل ذلك الدليل الذي ذكرنا: أنه من أنواع البيان في هذا الكتاب المبارك...» إلخ[٢].

- وعادات القرآن هي المرجع عند الاختلاف في المعنى.

قال ابن تيمية وهو يتكلم عن تفسير التابعين: «فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجةً على بعض، ولا على مَن بعدهم، ويُرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السُّنَّة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك»[٣].

فلغة القرآن: هو المعهود من عادته في ألفاظه وأسلوبه؛ بالنظر إلى نظائر اللفظ في القرآن، فيعرف معناه باطراد ذلك المعنى في تلك النظائر، وعموم المعنى لموارد استعمال ذلك اللفظ[٤].

وتبعه على هذا ابن كثير في مقدمة التفسير[٥].

فعادات القرآن من أوجه الترجيح عند المفسرين.

قال ابن القيم عند تفسيره للقَسَم في قول الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ [التّكوير]: «وليس قول من فسَّرها بالظباء وبقر الوحش

---

(١) الموافقات ٤/ ٢٠٠. (٢) أضواء البيان ٣/ ٤٧٨.

(٣) مقدمة التفسير ١١٦، مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٧٠.

(٤) حاشية مقدمة التفسير لابن قاسم ١١٧. (٥) تفسير ابن كثير ١/ ١٠.

بالظاهر لوجوه..»، وذكر منها: «أنه ليس بالبيِّن إقسامُ الرب تعالى بالبقر والغزلان، وليس هذا عُرف القرآن ولا عادته، وإنما يقسم سبحانه من كل جنس بأعلاه؛ كما أنه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها وهي النفس الإنسانية، ولما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه وأجلِّه وهو القرآن، ولما أقسم بالعلويات أقسم بأشرفها وهي السماء وشمسها وقمرها ونجومها...» إلخ(١).

- وعادات القرآن وسيلة تحمي المفسر من أن يقول على الله بلا علم، وهي مقدمة تؤدي إلى نتيجة صحيحة، وهي عاصم من الخطأ والانحراف في بيان الأسلوب القرآني، فلا يمكن أن يتكلم في القرآن من لم يعرف عادات القرآن، من خلال استقرائه، وتتبع عادته في ألفاظه ومعانيه.

فعادات القرآن علم عزيز يقوم على الاستقراء والتدبر، مع استجماع الناظر للشروط الواجب توفرها في المفسر؛ كالعلم باللغة وأصولها، وأصول الفقه، ودلالات الألفاظ، وأصول العقيدة، ونحوها، ومتى أخل الباحث ببعض هذه العلوم قَصُرَ نظرُهُ في مباحث عادات القرآن، أو أوشك أن يخرج بنتائج غير صحيحة، فبعض المفسرين مع تسليمه بعادات القرآن وأهميتها إلا أنهم خرجوا ببعض القواعد في باب الأسماء والصفات التي خالفوا فيها الحق.

قال الآمدي: «يجب تنزيل كلام الشارع على عرفه؛ إذ الغالب منه أنه إنما يناطقنا فيما له فيه عرف بعرفه»(٢).

وقال القرافي: «وينبغي أن يعلم العادة في اللفظ: أن يغلب إطلاق لفظ واستعماله في معنى حتى يصير هو المتبادر من ذلك اللفظ عند الإطلاق، مع أن اللغة لا تقتضيه، فهذا هو معنى العادة في اللفظ، وهو الحقيقة العرفية»(٣).

وقال ابن تيمية: «فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب؛ فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دال عليه، ولا يكون

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ٧٤. (٢) الإحكام ٣/ ٢٠.
(٣) الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام ٢٢٠.

الأمر كذلك، ويجعلون هذه الدلالة حقيقة، وهذه مجازاً كما أخطأ المرجئة في اسم الإيمان فجعلوا لفظ الإيمان حقيقة في مجرد التصديق وتناوله للأعمال مجازاً»(١).

وقال ابن عاشور: «يحق على المفسر أن يعرف عادات القرآن من نظمه وكلمه»(٢).

- وعادات القرآن تضبط التفسير اللغوي، وتقيده بقَبول السياق له، ومراعاة غرض المتكلم به سبحانه(٣).

قال ابن تيمية: «فليس كل معنى صحيح يفسر به اللفظ لمجرد مناسبة؛ كالمناسبة التي بين الرؤيا والتعبير، وإن كانت خارجة عن وجوه دلالة اللفظ، كما تفعله القرامطة والباطنية؛ إذ دلالة اللفظ على المعنى سمعية؛ فلا بد أن يكون اللفظ مستعملاً في ذلك المعنى بحيث قد دل على المعنى به، لا يكتفي في ذلك بمجرد أن يصلح وضع اللفظ لذلك المعنى؛ إذ الألفاظ التي يصلح وضعها للمعاني ولم توضع لها: لا يحصي عددها إلا الله. وهذا عند من يعتبر المناسبة بين اللفظ والمعنى كقول طائفة من أهل الكلام والبيان، وأما عند من لا يعتبر المناسبة: فكل لفظ يصلح وضعه لكل معنى؛ لا سيما إذا علم أن اللفظ موضوع لمعنى هو مستعمل فيه؛ فحمله على غير ذلك لمجرد المناسبة كذب على الله»(٤).

وقال ابن القيم: «وينبغي أن يفطن هنا لأمر لا بد منه، وهو أنه لا يجوز أن يُحمل كلام الله ﷻ ويُفسّر بمجرّد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام، ويكون كلام به له معنى ما؛ فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين للقرآن؛ فإنهم يفسرون الآية ويعربونها بما يحتمله تركيب تلك الجملة، ويُفهم من ذلك التركيب أي معنى اتفق، وهذا غلط عظيم يقطع السامع بأن مراد القرآن غيره». وذكر أمثلة، ثم قال: «بل للقرآن عرف خاص

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ١١٦.
(٢) التحرير والتنوير ١/ ١٢٤.
(٣) ينظر: قواعد الترجيح ٢/ ٣٦٣.
(٤) مجموع الفتاوى ٢/ ٢٧.

ومعان معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها، ولا يجوز تفسيره بغير عرفه والمعهود من معانيه فإن نسبة معانيه إلى المعاني كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ، بل أعظم، فكما أن ألفاظه ملوك الألفاظ وأجلها وأفصحها، ولها من الفصاحة أعلى مراتبها التي يعجز عنها قدر العالمين، فكذلك معانيه أجل المعاني وأعظمها وأفخمها؛ فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعاني التي لا تليق به، بل غيرها أعظم منها وأجل وأفخم، فلا يجوز حمله على المعاني القاصرة بمجرّد الاحتمال النحوي والإعرابي»[(١)].

وقال القرطبي: «فمن لم يُحكِّم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرَّد فهم العربية كثر غلطه، ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأي»[(٢)].

وعليه فهذا مما يزيد في منزلة عادات القرآن؛ لأنه سيسهم في الحد من تساهل بعض الناس في تفسير ألفاظ القرآن من أي معجم لغوي بطريقة غير صحيحة، والسبب: أنه أغفل النظر إلى عادة القرآن، فهذا المصطلح سيضبط كثيراً من معاني الألفاظ.

وستكون عادات القرآن بإذن الله تعالى لبنةً جديدةً لدلالات الترجيح بين المعاني، وما فعله الشنقيطي في كتابه أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن إلا من هذا النوع، والله تعالى أعلم.

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٥٣٨.

(٢) تفسير القرطبي ١/ ٣٤.

الباب الأول

عادات القرآن في حروفه وألفاظه

وفيه فصلان:

- الفصل الأول: عادات القرآن في الحروف.
- الفصل الثاني: عادات القرآن في الألفاظ.

الفصل الأول

عادات القرآن في الحروف

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: اختيار الحروف.
- المبحث الثاني: نيابة بعض الحروف عن بعض.
- المبحث الثالث: التأكيد ببعض الحروف أو حذفها.

المبحث الأول

اختيار الحروف

وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: اختيار الحرف المناسب للسياق.
- المطلب الثاني: ذكر القرآن بعد الحروف المقطعة.
- المطلب الثالث: مراعاة المناسبة لحروف الفواصل.

المطلب الأول

اختيار الحرف المناسب للسياق

من تأمل كتاب الله جل وعلا وجد كل حرف في مكانه المناسب فهو لا يقبل التغيير ولا التبديل، ولكل حرف معنى لا يستقيم السياق بحذفه، فاجتمع في القرآن مناسبة الحرف في مكانه مع دلالته على المعنى بأدق أسلوب وأحسن تعبير.

قال الرازي[(١)]: «وفي كل حرف من حروف القرآن بلاغة وفصاحة»[(٢)].

وعادات القرآن الدالة على هذا كثيرة منها:

أولاً: عادة القرآن في نداء الله لعباده استعمال أم الباب (يا) دون غيرها

---

(١) هو: محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري الشافعي، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي، المفسِّر، إمام وقته في العلوم العقلية، من أهم مصنفاته: «مفاتيح الغيب المسمى التفسير الكبير»، و«لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات»، و«المحصول»، مات سنة (٦٠٦هـ)، له ترجمة في: طبقات الشافعية ٥/ ٣٣، طبقات السيوطي ١٠١.

(٢) تفسير الرازي ٢٩/ ١٣٤.

من **حروف النداء** التي ذكرها أهل اللغة وهي: «الهمزة»، «أيْ»، «أيا»، «هيا»، «آيْ»، «آ»، «وَا»، «يا»[(١)].

فكلما نادى الله عباده في كتابه كان بحرف النداء (يا) وهي أم الباب كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة]، وقال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة]، وقال جل وعلا: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ [الكافرون]، وغيرها من الآيات.

قال ابن هشام[(٢)]: «وهي أكثر أحرف النداء استعمالاً، ولهذا لا يقدَّر عند الحذف سواها نحو: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ﴾ [يوسف: ٢٩]»[(٣)].

وقد نصَّ أبو حيان[(٤)] على هذه العادة فقال: «يا: حرف نداء، . .

---

(١) ينظر: رصف المباني في شرح حروف المعاني ٧١، ١٤١، ٢١٣، ٢١٥، ٤٣١، ٤٧٢، ٥١٣.

(٢) هو: عبد الله بن يوسف بن أحمد أبو محمد جمال الدين ابن هشام، من أئمة العربية، له تصانيف كثيرة، منها: «الإعراب عن قواعد الإعراب»، «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك»، «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب»، مات سنة (٧٦١هـ)، له ترجمة في: الدرر الكامنة ٣/ ٩٣، شذرات الذهب ٦/ ١٩١.

(٣) مغني اللبيب ٣٦١، وينظر: الجنى الداني ٦١.

(٤) هو: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيَّان الغرناطي أبو حيان الأندلسي الجياني النِّفْزي، من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات، من أهم مصنفاته: «البحر المحيط»، «التذييل والتكميل في شرح التسهيل»، =

وعلى كثرة وقوع النداء في القرآن لم يقع نداء إلا بها، وهي أعمُّ حروف النداء، إذ ينادى بها القريب والبعيد والمستغاث والمندوب»[١].

ومجيء هذا الحرف دون غيره من حروف النداء اختيار للحرف المناسب في المكان المناسب على الحال المناسب؛ مراعاة للخفة في النطق والدلالة على معان دقيقة شاملة للمراد لا يؤديه غيره من الحروف، **ومن المعاني المستفادة من استعمال هذا الحرف:**

١ ـ أنها أم الباب، وهي أكثر أدوات النداء استعمالاً عند الخاصة والعامة، وهي أخف حروف النداء في النطق فتبدو كأنها صوت واحد؛ لانطلاق اللسان بمدها دون استئناف عمل.

٢ ـ أن حرف النداء (يا) يستخدم لكل أنواع النداء، في نداء القريب والمتوسط والبعيد، بل لكل درجات القرب والبعد الحسي والمعنوي حقيقة أو حكماً[٢]؛ فالنداء بهذا الحرف أدق من غيره لتفاوت قرب المخلوقين من الله تعالى وبُعدهم، فإذا جاء النداء لعموم الناس ومنهم المقربون ومن ليس كذلك، أو للمؤمنين مع أن بعضهم أقرب من بعض؛ فاستخدام حرف النداء (يا) يتناول أفراد المنادى على اختلاف درجاتهم ولا يحقق ذلك غيره من الحروف.

٣ ـ ومما يلتمس في مناداة الله لعباده بحرف النداء (يا) مع أنه أقرب إليهم من حبل الوريد، مراعاة مقام الربوبية الرفيع، في الأمر والنهي والتوجيه، إذْ هو سبحانه العليُّ الأعلى.

٤ ـ وكذا من أوجه كثرة النداء بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ﴾ في القرآن أن فيه أوجهاً من التأكيد وأسباباً من المبالغة، والمقام في نداءات القرآن يناسب المبالغة والتأكيد.

= مات سنة (٧٤٥هـ)، له ترجمة في: طبقات الداوودي ٢/ ٢٨٧، شذرات الذهب ٦/ ١٤٥.

(١) البحر المحيط ١/ ٢٣١.

(٢) ينظر: مغني اللبيب ٣٦١.

قال الزمخشري[(١)]: «فإن قلت لم كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره؟ قلت: لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة؛ لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام وخطوب جسام ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ»[(٢)]، والله أعلم.

٥ ـ كما أن من عادة العرب استعمال حرف النداء (يا) لنداء القريب إشارة إلى غفلته.

قال الشاطبي[(٣)]: «كما أن في إثبات الحرف ـ يعني: حرف النداء ـ التنبيه على معنيين إثبات التنبيه لمن شأنه الغفلة والإعراض والغيبة، وهو العبد، والدلالة على ارتفاع شأن المنادِي وأنه منزه عن مداناة العباد، إذ هو في دنوه عالٍ، وفي علوه دانٍ، سبحانه!»[(٤)].

وفي آيات القرآن إشارة إلى غفلة المخلوقين عن الآخرة؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ [المنافقون]، وبيَّن الله تعالى أن الحياة الدنيا دار لهو ولعب فقال سبحانه: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا

---

(١) هو: أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري النحوي، معتزلي المذهب، جاور في مكة زمناً فلقب بجار الله، من أئمة البلاغة والعربية والآداب، من أهم مصنفاته: «الكشاف»، و«المفصل»، «أطواق الذهب»، مات سنة (٥٣٨هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٢/ ٨١، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٥٢.

(٢) الكشاف ١/ ١٢٢، وينظر: الإتقان في علوم القرآن ٣/ ٢٨٣.

(٣) هو: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، أصولي حافظ. من أهل غرناطة، ومن أئمة المالكية، من أهم مصنفاته: «الموافقات»، «الاعتصام»، مات سنة (٧٩٠هـ)، له ترجمة في فهرس الفهارس ١/ ١٣٤، الأعلام ١/ ٧٥.

(٤) الموافقات ٢/ ١٦٤.

لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد].

ومن هنا يستنبط أن نداء الله تعالى لأهل الدنيا عموماً فيه تذكير وتنبيه وحث لهم على ما ينفعهم في الدنيا وينجيهم في الآخرة، والله تعالى أعلم وأحكم.

ثانياً: عادة القرآن في تاء القسم عدم دخولها على غير لفظ الجلالة.

أقسم الله تعالى في كتابه بربوبيته في سبعة مواضع:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾ [سبأ].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن].

وفي المواضع السابقة أمرٌ من الله لنبيه ﷺ أن يقسم به.

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الحجر].

٦ ـ وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ [مريم].

٧ ـ وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [المعارج].

وسائر أقسام القرآن بآيات الله المستلزمة لذاته وصفاته، للدلالة على أنه من عظيم آياته كقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا ﴿١﴾﴾ [الصَّافات]، وقوله تعالى:

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾ [الفجر]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾ [التّكوير]، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾﴾ [الطّارق]، ومثل هذه الأقسام كثير في القرآن.

ولكن ورد القسم بالتاء في القرآن في تسعة مواضع:

١ ـ قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يوسف].

٢ ـ قوله سبحانه: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [يوسف].

٣ ـ قوله جل وعلا: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف].

٤ ـ قوله سبحانه: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النحل].

٦ ـ قوله سبحانه: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل].

٧ ـ قوله جل وعلا: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء].

٨ ـ قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾﴾ [الشعراء].

٩ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الصّافات].

قال ابن عطية[١]: «ولا تدخل التاء في القسم إلا في المكتوبة من بين

---

(١) هو: عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمٰن بن عطية أبو محمد الغرناطي القاضي، أبو محمد، مفسر، فقيه، أندلسي، عارف بالأحكام والحديث، ولي قضاء المرية، من أهم مصنفاته: «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»، قيل: مات سنة (٥٤١هـ أو ٥٤٢هـ أو ٥٤٦هـ)، له ترجمة في: طبقات السيوطي ص٥٠، طبقات الداوودي ١/ ٢٦٥.

أسماء الله تعالى لا في غير ذلك»[١].

وقال الألوسي[٢]: «من خصائص الاسم الجليل دخول تاء القسم عليه»[٣].

وقد حُكي عن العرب دخول التاء على الرب والرحمٰن.

قال أبو حيان: «حُكي عن العرب دخولها على الرب، وعلى الرحمٰن، قالوا: ترب الكعبة، وتالرحمٰن»[٤].

ومن الأسرار المستنبطة في اختيار التاء في هذه المواضع: أن فيها زيادة معنى؛ وهو التعجب والتفخيم؛ لا يؤديه غيرها من حروف القسم، ففيها اختيار الحرف المناسب للدلالة على المعنى المناسب.

قال الزمخشري: «فإن قلت: ما الفرق بين الباء والتاء؟ قلت: إن الباء هي الأصل، والتاء بدل من الواو المبدلة منها، وإن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب»[٥]، وهو كما قال في جميع المواضع.

ثالثاً: عادة القرآن اختيار الحرف المناسب للسياق طلباً للخفة والسهولة في النطق.

قال ابن جني[٦]: «والحروف الفرعية المستقبحة، هي فروع غير مستحسنة، لا يؤخذ بها في القرآن ولا في الشعر، ولا تكاد توجد إلا في لغة

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٣.

(٢) هو: أبو الوفاء شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، شارك في علوم كثيرة، ومن أهم تصانيفه: «روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني»، مات سنة (١٢٧٠هـ)، له ترجمة في: معجم المؤلفين ١٢/ ١٧٥، الأعلام ٨/ ٥٣.

(٣) روح المعاني ٣/ ١١٣.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٣٢٧ بتصرف، وينظر: الجنى الداني في حروف المعاني ١/ ٨.

(٥) الكشاف ٣/ ١٢٣، البحر المحيط ٥/ ٣٢٧، تفسير أبي السعود ٤/ ٢٩٥.

(٦) هو: عثمان بن جني الموصلي أبو الفتح، من أئمة الأدب والنحو، من أهم تصانيفه: «المحتسب في شواذ القراءات»، و«سر صناعة الإعراب»، و«الخصائص»، وكان المتنبي يقول: ابن جني أعرف بشعري مني، مات سنة (٣٩٢هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٣/ ٢٤٦، سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢٠.

ضعيفة مرذولة، غير متقبلة، وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالميم»[(١)].

وقال الرماني[(٢)] في تلاؤم حروف القرآن: «والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كله... والسبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف»[(٣)].

بل لا تجد في كلام الله أي تنافر أو صعوبة في النطق، فليس بين الحروف القرب الشديد في المخارج أو البعد الشديد، وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة القفز، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي المقيد؛ لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه، وكلاهما صعب على اللسان[(٤)].

وبعد استقرائي القرآن للتأمل في تآلف حروفه وخفتها تبين لي:

ـ أنه لم يرد في القرآن حروف مستقبحة ولا صعبة النطق.

ـ أنه لم يرد حرف الغين مشدداً في القرآن مطلقاً، وذلك والله أعلم لما فيه من الثقل؛ مع وروده في اللغة مشدداً ولثقله يفكّون الإدغام.

قال الجوهري[(٥)]: «سغْسغْت الطعام: أوسعته دسماً، وسغْسغْت رأسي، إذا وضعت عليه الدهن بكفك وعصرته ليتشرب، وأصله: سغّغْته بثلاث غينات»[(٦)].

---

(١) سر صناعة الإعراب ١/ ٥١.

(٢) هو: علي بن عيسى بن علي بن عبد الله أبو الحسن الرماني، باحث معتزلي مفسر، من كبار النحاة، له مصنفات كثيرة، من أهمها: «شرح أصول ابن السراج»، و«معاني الحروف»، و«النكت في إعجاز القرآن»، مات سنة (٣٨٤هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ١/ ٣٣١، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٥٣٥.

(٣) النكت في إعجاز القرآن ٩٥ ـ ٩٦.

(٤) ينظر: النكت في إعجاز القرآن ٩٥ ـ ٩٦ بتصرف.

(٥) هو: إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر التركي الأُتْرَارِي، وأُتْرار: هي مدينة فاراب، من أئمة اللغة، وأحد من يضرب به المثل في ضبط اللغة، من أشهر كتبه الصحاح، والعروض، مات سنة (٣٩٣هـ)، وقيل: (٣٩٨هـ)، له ترجمة في معجم الأدباء ٢/ ٢٦٩، سير أعلام النبلاء ١٧/ ٨٢.

(٦) الصحاح ٣/ ١٠٩٠.

وقال الأزهري[١]: «غزَّ زغَّ: مستعملان، .. زغَّ قال الليث: زغْزغْت الرجل إذا سخرت به، وقال المفضل: الزغزغة أن تخبئ الشيء وتخفيه»[٢].

- ومن عجائب القرآن وإعجازه سهولة النطق لحروفه حتى مع وجود تكرار الحرف تكراراً غير مألوف كما في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود]، في الآية ثمانية عشر ميماً، بل فيها ثمان ميمات متوالية عند النطق بها، وذلك في قوله: ﴿أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ﴾ [هود]، واجتماع هذه الميمات متفق عليه عند جميع القراء وعند ترتيل الآية ترتيلاً صحيحاً لا تحس بثقل أبداً، وهنا تتبين أهمية الترتيل كما قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل]، وقوله: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان]، بل تكرار حرف الميم هنا يوحي بشدة الحالة التي كان عليها نوح حين كانت السفينة وقت غرق قومه تكابد الأمواج، والله أعلم.

ومثلها قول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران]، ففي مطلع الآية اثنا عشر ميماً، ولكنها مع الترتيل كأنها ميم واحدة.

وتأمل قوله سبحانه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة]، ففي الآية أحد عشر قافاً وهو من أصعب الحروف نطقاً، ولو اجتمعت في كلام أقل من هذا لعسر على القارئ تحقيقها، فسبحان الله العظيم، ولا أجد تعليلاً لهذا اليسر والسهولة في النطق إلا أنه كلام الله.

---

(١) هو: محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، أبو منصور، أحد الأئمة في اللغة والأدب، شافعي المذهب، من مصنفاته: «تهذيب اللغة»، و«التفسير»، و«علل القراءات»، مات سنة (٣٧٠هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٤/ ٣٣٤، طبقات الشافعية ٣/ ٦٣.

(٢) تهذيب اللغة ٨/ ٩.

المطلب الثاني

ذكر القرآن بعد الحروف المقطعة

عادة القرآن في كل سورة افتُتحت بالحروف أن يُذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته.

وهذا أمر معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة(١)، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة]، وقال سبحانه: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ [الأعراف]، وقال جل وعلا: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه]، وقال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصِّلت].

قال ابن القيم(٢): «ولم تذكر قط ـ الحروف المقطعة ـ في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن، إما مقسماً به أو مخبراً عنه»(٣).

وقال الزركشي(٤): «واعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن كقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾»(٥).

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ١/ ١٦٠، التحرير والتنوير ٥/ ٢٢١.

(٢) هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب، أبو عبد الله شمس الدين المعروف بابن قيم الجوزية، فقيه حنبلي، أصولي، محدِّث، مفسِّر، من أهم مصنفاته: «زاد المعاد»، و«مدارج السالكين»، مات في دمشق سنة (٧٥١هـ)، له ترجمة في: ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٧، المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد ٢/ ٣٨٤.

(٣) التبيان ١٢٦.

(٤) هو: محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي الموصلي، أبو عبد الله، بدر الدين: عالم بفقه الشافعية والأصول، عالم في الحديث والتفسير، من مصنفاته: «شرح البخاري»، و«البرهان في علوم القرآن»، و«تفسير القرآن العظيم وصل إلى سورة مريم»، و«البحر المحيط في أصول الفقه»، مات سنة (٧٩٤هـ)، له ترجمة: الدرر الكامنة ٣/ ٣٩٧، طبقات المفسرين للأدنه وي ٣٠٢، وفيه اسمه: محمد بن عبد الله بن بهادر.

(٥) البرهان ١/ ١٧٠.

وقال الشنقيطي[١]: «السور التي افتتحت بالحروف المقطعة يذكر فيها دائماً عقب الحروف المقطعة الانتصار للقرآن وبيان إعجازه، وأنه الحق الذي لا شك فيه»[٢].

فذِكْر القرآن أو الإشارة إليه بعد الحروف المقطعة دليل على أنه قُصِد بها إظهار إعجاز القرآن، وأنه الحق.

فالقرآن الكريم مركب من جنس هذه الأحرف التي يكوِّن منها العرب كلامهم، ومع ذلك عجزوا أن يصُفُّوا منها مثل هذا القرآن.

قال ابن أبي العز[٣]: «وإلى هذا ـ أي: إعجازه ـ وقعت الإشارة بالحروف المقطعة في أوائل السور؛ أي: أنه في أسلوب كلامهم وبلغتهم التي يتخاطبون بها، ألا ترى أنه يأتي بعد الحروف المقطعة بذكر القرآن؟ كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة]، ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران] الآية، ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية [الأعراف]، ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس]، وكذلك الباقي ينبههم أن هذا الرسول الكريم لم يأتكم بما لا تعرفونه؛ بل خاطبكم بلسانكم»[٤].

---

(١) هو: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، مفسر، من علماء شنقيط في موريتانيا، ولد وتعلم بها، وحج عام ١٣٦٧هـ، واستقر مدرساً في المدينة النبوية، من مؤلفاته: «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»، و«دفع إيهام الاضطراب في آيات الكتاب»، و«مذكرة أصول الفقه»، مات سنة (١٣٩٣هـ)، له ترجمة في: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة العدد (٣) السنة (٦) محرم ١٣٩٤هـ ص٢٨ وما بعدها. الأعلام ٦/ ٤٥.

(٢) أضواء البيان ٢/ ١٦٧.

(٣) هو: علي بن علاء الدين علي بن محمد أبو الحسن الأذرُعي الأصل، المعروف بابن أبي العز، الحنفي الدمشقي، فقيه، كان قاضي القضاة بدمشق، من مصنفاته: «شرح العقيدة الطحاوية»، و«التنبيه على مشكلات الهداية»، مات سنة (٧٩٢هـ)، له ترجمة في شذرات الذهب ٦/ ٣٢٦، هدية العارفين ١/ ٧٢٦.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٧٥٥.

وقال الشنقيطي: «أما القول الذي يدل استقراء القرآن على رجحانه فهو: أن الحروف المقطعة ذكرت في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها»(١).

ويستثنى من هذه العادة: سورة مريم، وسورة العنكبوت، وسورة الروم، وسورة القلم؛ أربعُ سورٍ من خمسٍ وعشرين سورة.

ففي أغلب السور المفتتحة بالحروف المقطعة التعقيب بذكر القرآن، إشارة إلى عظمته، وإلى عجز العرب عن الإتيان بمثله مع أنه بلغتهم ومُكَوَّن من هذه الحروف، إلى غير ذلك من مظاهر الإعجاز وبيان الحق والانتصار له، وهذه عادة نبه عليها العلماء في كتب علوم القرآن.

قال السيوطي(٢): «واعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن كقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة]، ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [آل عمران]، ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف]، ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس]، ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه]، ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الشعراء]، ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [يس]، ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [ص]، ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [غافر]، ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [ق]»(٣)، والله تعالى أعلم.

---

(١) أضواء البيان ٢/ ١٦٦.

(٢) هو: عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن الخضر بن الهمام جلال الدين السيوطي، الشافعي، إمام حافظ مؤرِّخ أديب، له نحو ٦٠٠ مصنَّف، منها: «الإتقان في علوم القرآن»، و«الأشباه والنظائر»، و«المزهر»، نشأ في القاهرة يتيماً، ولمَّا بلغ الأربعين اعتزل النساء وخلا بنفسه إلى أن مات سنة (٩١١هـ)، له ترجمة في: شذرات الذهب ٨/ ٥١، البدر الطالع ١/ ٢٢٩.

(٣) الإتقان ٢/ ٢٤٤.

المطلب الثالث

مراعاة المناسبة لحروف الفواصل

جاء القرآن الكريم على أحسن أسلوب وأكمل تناسق بين الجمل والآيات، ومن عاداته رعاية حروف الفواصل، فحقق جمال النظم، وراعى مُشَاكَلة اللفظ.

والمراد هنا: الحرف الأخير من الآية مما يقتضيه المعنى[١].

نقل السيوطي عن ابن الصائغ[٢] الحنفي قوله: «اعلم أن المناسبة أمر مطلوب في اللغة العربية يرتكب لها أمور من مخالفة الأصول، وقد تتبعت الأحكام التي وقعت آخر الآي مراعاة للمناسبة، فعثرت على نيف عن الأربعين حكماً»[٣].

فتبين لنا أن عادة القرآن مراعاة الفاصلة، وأن هذا أمر منشود في اللغة العربية.

قال الرماني: «وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة؛ لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها»[٤].

ويتفرع على هذه العادة ما يأتي:

أولاً: عادة القرآن الكريم مراعاة الخفة في حروف فواصل الآيات مع تمام المعنى.

---

(١) ينظر: الفاصلة القرآنية للحسناوي ٢٩، ورجح الجمهور تسميته فاصلة في القرآن، ومنعوا من تسميته سجعاً، وفرقوا بينهما من ناحية أن السجع يتبع المعنى فيه اللفظ، أما الفاصلة فيتبع اللفظ فيها المعنى، ينظر: البرهان ١/٥٣، الفاصلة القرآنية ٩١ وما بعدها، وقال السيوطي: ولا يجوز تسميتها قوافي إجماعاً. ينظر: الإتقان ٢/٢١٠.

(٢) هو: محمد بن عبد الرحمٰن بن علي شمس الدين الحنفي الزمردي، ابن الصائغ، أديب، مصري، من كتبه: «التذكرة في النحو»، و«المباني في المعاني»، و«المنهج القويم في فوائد تتعلق بالقرآن العظيم»، مات سنة (٧٧٦هـ)، له ترجمة في: الدرر الكامنة ٣/٤٩٩، شذرات الذهب ٦/٢٤٨.

(٣) ينظر: الإتقان للسيوطي ٢/٢١٤.

(٤) النكت في إعجاز القرآن ٩٠.

عند تأمل حروف الفواصل في كتاب الله تعالى نراها سهلة ماتعة للقارئ والسامع، بحروف متناسبة متجانسة لها أثر في الصوت واللفظ والمعنى.

قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة].

وقال جل وعلا: ﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۝٤ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ۝٣٥ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ۝٣٦﴾ [النبأ].

قال السيوطي: «كثُر في القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون، وحكمته وجود التمكن من التطريب بذلك»[(١)].

وقد جاء القرآن موافقاً لحال العرب في كلامهم.

قال سيبويه[(٢)]: «إذا ترنموا ـ يعني: العرب ـ فإنهم يلحقون الألف والياء والواو ما ينون وما لا ينون؛ لأنهم أرادوا مد الصوت»[(٣)].

وهذا معنى قول الشاطبي[(٤)]:

---

(١) الإتقان ٢/ ٢٢٧.

(٢) هو: عمرو بن عثمان بن قنبر البصري، أبو بشر الملقب بسيبويه إمام أهل البصرة في العربية، لزم الخليل فَفَاقَه، وسيبويه بالفارسية: رائحة التفاح، من أهم مصنفاته: «الكتاب في النحو»، مات سنة (١٨٠هـ)، وقيل غيرها، وفيات الأعيان ٣/ ٤٦٣، العبر في خبر من غبر ١/ ٢٧٨.

(٣) الكتاب ٤/ ٢٠٤.

(٤) هو: القاسم بن فِيرُّهْ بن خلف بن أحمد الرُّعينيّ الشاطبي الأندلسي أبو محمد، ولد أعمى، إمام كبير، قرأ القراءات وهو صغير، حافظ للحديث، فقيه شافعي، بصير بالعربية، من مصنفاته: «منظومة حرز الأماني ووجه التهاني» من أشهر ما كتب في القراءات، و«ناظمة الزهر في عد الآي»، مات سنة (٥٩٠هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٤/ ٧١، غاية النهاية في طبقات القراء ٢/ ٢٠.

وجاء بحرف المد الاكثر منهما   ولا فرق بين الياء والواو فى السبر[١]

يعني: الفواصل، قال شارحه: «وحكمة ذلك وجود التمكن من التطريب كما قال سيبويه...»[٢].

- قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ۝٨﴾ [المزمل].

قال أبو السعود[٣]: «تبتيلاً مكان تبتلاً مع ما فيه من رعاية الفواصل»[٤].

بل زيدت ألف الإطلاق في الفواصل مراعاة لما قبلها وما بعدها وتحقيقاً للسهولة في القراءة والتناسق في الصوت.

- ومن الأمثلة: سورة الأحزاب؛ بُنِيَت مُعظَم فواصلها على الألف فجيء بألف الإطلاق كما في قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠﴾ [الأحزاب]، فزيد على النون ألف لمناسبة نهاية الفواصل، وقبل هذه الآية: مسطوراً، غليظاً، أليماً، بصيراً، وبعدها: شديداً، غروراً، فراراً.. إلخ.

- وكذا قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧﴾ [الأحزاب]، وقبلها ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦﴾ [الأحزاب].

قال ابن عاشور[٥]: «والألف في آخر قوله: ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ لرعاية الفواصل

---

(١) ناظمة الزهر للشاطبي بيت رقم (٣٨).

(٢) شرح المخللاتي لناظمة الزهر ٥١.

(٣) هو: محمد بن محمد بن مصطفى العمادي أبو السعود الحنفي، صنف: «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن العظيم في التفسير»، وله حاشية على تفسير الكشاف، مات سنة (٩٨٢هـ)، له ترجمة في: طبقات الأدنه وي ٣٩٨، شذرات الذهب ٨/ ٣٩٨.

(٤) تفسير أبي السعود ٦/ ٣٢٢.

(٥) هو: محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين، شيخ جامع الزيتونة بتونس، من مصنفاته: «التحرير والتنوير في التفسير»، و«مقاصد الشريعة الإسلامية»، و«موجز البلاغة»، و«أصول التقدم في الإسلام»، مات سنة (١٣٩٣هـ)، له ترجمة في: الأعلام ٦/ ١٧٤، تراجم لتسعة من الأعلام، د. محمد الحمد ١٥٣.

التي بنيت عليها السورة فإنها بنيت على فاصلة الألف وهي ألف الإطلاق»[١].

ـ ومن الأمثلة: صرف الممنوع من الصرف رعايةً لخفة الفواصل[٢]؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥﴾ [الإنسان]؛ لأن قبلها في الفواصل: سروراً، حريراً، زمهريراً، تذليلاً، وبعدها: تقديراً، زنجبيلاً، سلسبيلا.. إلخ.

قال الزمخشري: «﴿قَوَارِيرَا﴾ وهذا التنوين بدل من ألف الإطلاق؛ لأنه فاصلة»[٣].

والمتأمل لكتاب الله تعالى في جميع الفواصل يجد أن حروف الفواصل تتبع المعنى؛ فيتكامل المعنى برعاية الفواصل، وهذا أعلى الفصاحة، فالفاصلة القرآنية المتماثلة لم تأت لغرض لفظي فحسب، ولكنها تأتي لغرض معنوي دقيق يحتمه سياق الكلام وتقتضيه الحِكْمة الإلـٰهية، ويجتمع معه جمال اللفظ وتناسق الفواصل، فهي تخدم اللفظ والمعنى في آن واحد.

ـ وقول الله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر].

قال القاسمي[٤]: «أي: يولون أدبارهم المؤمنين بالله عند انهزامهم، وإفراد ﴿الدُّبُرَ ۝٤٥﴾ لإرادة الجنس، أو رعاية الفاصلة»[٥]، وهو هنا قد أفاد المعنى مع رعاية الفواصل.

بل لا تحسن المحافظة على الفواصل إلا مع بقاء المعاني، وأما إهمال المعاني والاهتمام بتحسين اللفظ دون النظر إلى مؤداه فليس من قبيل البلاغة، والله أعلم.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ٣٣٧.

(٢) ينظر: البرهان ١/ ٦٦.

(٣) الكشاف: ٤/ ٦٧٢.

(٤) هو: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، إمام الشام في عصره، علماً بالدين، وتضلعاً من فنون الأدب، مولده ووفاته في دمشق، سلفي العقيدة، من مصنفاته: «محاسن التأويل في التفسير»، و«إصلاح المساجد من البدع والعوائد»، و«دلائل التوحيد»، مات سنة (١٣٣٢هـ)، له ترجمة في: فهرس الفهارس ١/ ٤٤٧، الأعلام ٢/ ١٣٥.

(٥) تفسير القاسمي ٩/ ٩٥.

ثانياً: عادة القرآن مجيء أغلب حروف الفواصل إما متماثلة أو متقاربة.

قال السيوطي: «حروف الفواصل إما متماثلة وإما متقاربة.

فالأولى مثل: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤﴾ [الطور]، والثاني: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة]، ﴿قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ [ق]، قال الإمام فخر الدين وغيره: وفواصل القرآن لا تخرج عن هذين القسمين بل تنحصر في المتماثلة والمتقاربة»[1].

وعند التأمل فإن التماثل والتقارب هو الأغلب في حروف الفواصل ولا يكاد أحدهما يزيد على الآخر، لكن الملاحظ أن الفواصل المتماثلة أكثر في السور المكية كسورة النازعات، وعبس، والانفطار، والأعلى، على حين أن المتقاربة أكثر في السور المدنية كسورة البقرة وآل عمران، والمائدة[2].

أما الفاصلة المنفردة وهي قليلة فهي التي لم تتماثل حروفها ولم تتقارب كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [الانفطار]، فواصل هذه الآيات وما بعدها في النون والميم تتماثل مع نفسها وتتقارب مع بعض، لكن حرف الكاف جاء منفرداً من بين الحروف.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى]، وكذا آخر سورة العلق.

ولعل من حِكَم ذلك شد الذهن لأمر مهم وعظيم، أو الإشارة إلى الانتهاء في بعض الفواصل[3]، والله أعلم.

ولا يخفى أن مبنى الفواصل على الوقف فإن كل الفواصل تتماثل بالوقف على السكون.

ولهذا يقول السيوطي: «مبنى الفواصل على الوقف، ولهذا ساغ مقابلة المرفوع بالمجرور وبالعكس كقوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٢٢٧، وينظر: تفسير الرازي ١/ ١١٩، البرهان ١/ ٧٢.

(٢) ينظر: الفاصلة في القرآن ١٤٧. (٣) ينظر: المرجع السابق ١٤٨.

خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾ [الصَّافات] مع قوله: ﴿دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾﴾ [الصَّافات]، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصَّافات]، وقوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ [القمر] مع قوله: ﴿قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر]، و﴿وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر]، و﴿مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾ [القمر]، وقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد]، مع قوله: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ [الرعد]»[1]، والله تعالى أعلم.

---

(١) الإتقان ٢/٢٢٦.

المبحث الثاني

نيابة بعض الحروف عن بعض

وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: نيابة حروف الجر عن بعض.
- المطلب الثاني: نيابة حروف النداء عن بعض.
- المطلب الثالث: نيابة حروف العطف عن بعض.

المطلب الأول

نيابة حروف الجر عن بعض

نزل القرآن الكريم بلغة العرب وأسلوبهم في الكلام، والمتأمل فيه يقف على عادة من عاداته وهي نيابة حروف الجر عن بعض[١]؛ فنجد تعدي كثيرٍ من الأفعال التي وردت في القرآن إلى مفعولها بحرف جر غير الحرف الذي تتعدى به في أصل الوضع اللغوي[٢].

وعادة نيابة الحروف عن بعض فيما إذا كان الحرف في معنى الآخر، أو مردوداً إليه بوجه ما، أو العامل فيه بمعنى العامل في الآخر.

أما مع عدم الرجوع إليه أو إلى العامل فلا يصح بوجه[٣].

---

(١) ينظر: تأويل مشكل القرآن ٢٩٨، وينظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي ٤٣٩، وهي مسألة خلافية. ينظر للاستزادة: التضمين النحوي في القرآن للدكتور محمد نديم فاضل، تناوب حروف الجر في لغة القرآن للدكتور محمد حسن عواد.

(٢) من طريق استقراء معاجم اللغة، والنظر في الكتب المؤلفة في معاني الحروف.

(٣) ينظر: رصف المباني في شرح حروف المعاني ٤٣٢.

وقد تتابع العلماء على بيان هذه المعاني فعقد ابن قتيبة[١] في كتابه «تأويل مشكل القرآن» باباً خاصاً لحروف الصفات التي يقع بعضها موقع بعض[٢]، وذهب إلى مثل ذلك ابن سيده[٣] وعقد لها فصلاً في كتابه (المخصص) سماه: «دخول بعض الصفات على بعض»[٤]، وعمل ابن السّيد البَطَلْيَوسي[٥] عمل سابقيه فخصص باباً لذلك في كتابه «الاقتضاب» سماه: «دخول بعض الصفات مكان بعض»[٦]، وغير ذلك مما هو في تضاعيف كتب اللغة والنحو[٧].

وأمثلة هذا كثير منها:

ـ قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٤]؛ أي: من علم الله، (الباء) بمعنى (من)[٨].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]؛ أي: بأمر الله،

---

(١) هو: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبو محمد النحوي اللغوي، صنف غريب القرآن، وتأويل مشكل القرآن، مات سنة (٢٧٦هـ)، وقيل غيرها، له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ١٣/٢٩٦، طبقات الداوودي ١/٢٥١.

(٢) تأويل مشكل القرآن ٢٩٨.

(٣) هو: علي بن إسماعيل، المعروف بابن سيده أبو الحسن المرسي، إمام في اللغة وآدابها، كان ضريراً، وكذلك أبوه، نبغ في آداب اللغة ومفرداتها، فصنف: «المخصص»، و«المحكم والمحيط الأعظم»، و«شرح ما أشكل من شعر المتنبي»، مات سنة (٤٥٨هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٣/٣٣٠، الأعلام ٤/٢٦٣.

(٤) المخصص ٤/٢٣٧.

(٥) هو: محمد بن عبد الله بن محمد بن السيد أبو محمد البَطَلْيَوسي ـ بفتح الباء الموحدة والطاء المهملة وسكون اللام وفتح الياء المثناة من تحتها وسكون الواو وبعدها سين مهملة ـ النحوي، اللغوي، من مصنفاته: «الاقتضاب في شرح أدب الكتاب»، و«الأسباب الموجبة لاختلاف الأئمة»، مات سنة (٥٢١هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٣/٩٦، سير أعلام النبلاء ١٩/٥٣٣.

(٦) الاقتضاب ١/٣٣٨.

(٧) ينظر: رصف المباني ٢٢٣، مغني اللبيب ١١٠.

(٨) ينظر: تأويل مشكل القرآن ٣٠٢.

(من) بمعنى (الباء)، ومن تأتي للسبب في كلام العرب[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١﴾ [المعارج]؛ أي: عن عذاب، (الباء) بمعنى (عن)[٢].

وهذه العادة لها أثر بارز في أداء المعاني، وبعد استقراء كلام المفسرين الأوائل واللغويين السابقين في بيان الآيات التي استُعمل فيها حرف الجر في موضع يُستعمل فيه حرفٌ آخر عادةً؛ تبيَّن أنهم لم يلتزموا منهجاً محدداً في توجيه هذه الأساليب في جميع المواضع، فأحياناً يقولون بتضمين الفعل معنى فعل آخر[٣]، ويقولون بتناوب حروف الجر في أحيان أُخر[٤].

فالإمام الطبري[٥] مع تفسيره بالتضمين في مواضع منها قوله:

(وقوله: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ [الكهف: ٢٨] يقول جل ثناؤه لنبيه ﷺ: ولا تصرف عيناك عن هؤلاء الذين أمرتك يا محمد أن تصبر نفسك معهم إلى غيرهم من الكفار، ولا تجاوزهم إليه، وأصله من قولهم: عدوت ذلك، فأنا أعدوه: إذا جاوزته»[٦].

وقوله: «ويعني بقوله: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، يُرْوَى بها ويُنتفع»[٧].

إلا أنه لم يقدمه على القول بتناوب الحروف؛ فقد قال في تفسير قوله

(١) ينظر: تأويل مشكل القرآن ٣٠١، البحر المحيط ٥/٣٠٣، الجنى الداني ٣١٤، البرهان ٤/٤٢٠.
(٢) ينظر: رصف المباني ٢٢٢.
(٣) ينظر: الخصائص لابن جني ٢/٧،٨.
(٤) ينظر: معاني القرآن للنحاس ٢/٩١، ٥/٤٢، معاني القرآن للفراء ٢/١٨٦، معاني القرآن للأخفش الأوسط ١/٤٦، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٢٩٨، التبيان للعكبري ١/٢٩٠.
(٥) هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري، أبو جعفر، الإمام المفسر المؤرخ، كان مجتهداً لا يقلد أحداً، من أشهر مصنفاته: «كتاب التفسير»، و«أخبار الأمم والملوك»، مات سنة (٣١٠هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ١/٤٥٦، سير أعلام النبلاء ١٤/٢٦٧.
(٦) تفسير الطبري ١٥/٢٣٧.
(٧) تفسير الطبري ٢٣/٥٣٩.

تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [آل عمران].

(فتأويل الكلام: ومن أهل الكتاب الذي إنْ تأمنه، يا محمد، على عظيم من المال كثير، يؤدِّه إليك ولا يخنْك فيه، ومنهم الذي إن تأمنه على دينار يخنْك فيه فلا يؤدِّه إليك، إلا أن تلح عليه بالتقاضي والمطالبة، و[الباء] في قوله: ﴿بِدِينَارٍ﴾ و[عَلَى] يتعاقبان في هذا الموضع، كما يقال: «مررت به، ومررت عليه»)[1].

وقال أيضاً: «قول الله جل ثناؤه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ يعني به: على جذوع النخل، وكما قالوا: [فعلت كذا في عهد كذا، وعلى عهد كذا]، بمعنى واحد»[2].

بل جمع بين التفسير بالتضمين للفعل والتضمين للحرف في مواضع كثيرة، حيث يقول:

«وقوله: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٧]، يقول: ونصرنا نوحاً على القوم الذين كذّبوا بحججنا وأدلتنا، فأنجيناه منهم، فأغرقناهم أجمعين»[3].

وقال الطبري أيضاً: «القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: ٢]، قال أبو جعفر: يعني بذلك تعالى ذكره: ولا تخلِطوا أموالهم ـ يعني: أموال اليتامى بأموالكم ـ فتأكلوها مع أموالكم»[4]، ومِثلُه فَعَل الزمخشري فقد فسر بهذا وهذا[5].

وكذا ابن عطية فقد وصف تضمين الفعل بأنه قول الحذاق[6]، ومع ذلك يقول: «التعدية باللام في ضمنها تعد بالباء يفهم من المعنى»[7].

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٥١٩، ٥٢٠.
(٢) تفسير الطبري ٢/ ٤١٢.
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٤٧٤.
(٤) تفسير الطبري ٧/ ٥٢٨.
(٥) ينظر: الكشاف ٢/ ٦٧٠، ٤/ ٢٢٧.
(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٦.
(٧) ينظر: المحرر الوجيز ١/ ٧٤.

وكذا أبو حيان الأندلسي مع قوله: «إن تضمين الأفعال أولى من تضمين الحروف»(١)، إلا أنه فسر بتناوب الحروف(٢)، وكذا ابن كثير(٣)، وغيرهم.

بل إن ابن تيمية(٤) مع قوله بالتضمين للأفعال كما في الفتاوى: «والعرب تُضَمِّنُ الفعل معنى الفعل وتعديه تعديته، ومن هنا غلط من جعل بعض الحروف تقوم مقام بعض»(٥).

فسَّر بتناوب الحروف في مواضع حيث يقول: «قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢]؛ يعني: على الأرض، لا يريد الدخول في جوفها، وكذلك قوله: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦]؛ يعني: على الأرض، لا يريد الدخول في جوفها، وكذلك قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ يعني: فوقها عليها»(٦).

وكذلك ابن القيم حيث يقول عن تضمين الأفعال: «هذه طريقة إمام الصناعة ـ سيبويه ـ رحمه الله تعالى، وطريقة حذاق أصحابه يضمِّنون الفعل معنى الفعل، لا يقيمون الحرف مقام الحرف، وهذه قاعدة شريفة جليلة المقدار تستدعي فطنة ولطافة في الذهن»(٧).

ومع هذا فسَّر (في) بمعنى (على) حيث يقول: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾

---

(١) البحر المحيط ١/ ٢٣٤.
(٢) ينظر: البحر المحيط ٦/ ١٦.
(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٦٧٠، ٣/ ٤٩، وهو الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوّ الدمشقي الشافعي، حافظ مؤرِّخ فقيه، له مصنفات كثيرة، منها: «البداية والنهاية»، و«تفسير القرآن العظيم»، و«جامع المسانيد»، مات سنة (٧٧٤هـ)، له ترجمة في: طبقات الداوودي ١/ ١١١، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١.
(٤) هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني الدمشقي الحنبلي أبو العباس تقي الدين ابن تيمية، ذكر ابن حجر في الدرر الكامنة ١/ ١٨٥: أن تصانيفه ربما تزيد على أربعة آلاف كراسة، من أشهر مصنفاته: «منهاج السُّنَّة»، و«درء تعارض العقل والنقل»، و«الرد على المنطقيين»، و«الاستقامة»، مات سنة (٧٢٨هـ)، له ترجمة في: الذيل على طبقات الحنابلة ٢/ ٢٤٩، البداية والنهاية ١٤/ ١٣٥.
(٥) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٤٢.
(٦) مجموع الفتاوى ٥/ ٦٨.
(٧) بدائع الفوائد ٢/ ٢١.

[الملك: ١٦]، معناه: من على السماء؛ يعني على العرش، وقد تكون: (في) بمعنى (على) ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢]؛ أي: على الأرض، وكذلك قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: على جذوع النخل»[(١)].

مما يدل على أن السياق له أثر كبير في التفسير، وأن القولين قائمان ولكل قولٍ وجاهته، وإن كان القول بتضمين الأفعال أوجه وأسلم من الاعتراضات على القول بتناوب حروف الجر، ولكن في القرآن مواضع لا يمكن فيها تضمين الفعل، فلا يمكن القول بقاعدة مطردة بل يقال: إن الأمر واسع، والأولى حمل الآية على المعنيين إن أفادت ذلك مع عدم التعسف في التأويل أو تضمين الحروف ما لا تحتمل عند أهل اللغة.

قال المبرد[(٢)]: «وحروف الخفض يبدل بعضها من بعض، إذا وقع الحرفان في معنى في بعض المواضع، قال الله جل ذكره: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: على... وقال الله جل وعز: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور: ٣٨]؛ أي: عليه، وقال تبارك وتعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]؛ أي: بأمر الله»[(٣)].

وقال ابن السَرَّاج[(٤)]: «واعلم: أن العرب تتسع فيها فتقيم بعضها مقام بعض إذا تقاربت المعاني، فمن ذلك: الباء تقول: فلان بمكة وفي مكة...»

---

(١) حاشية ابن القيم على سنن أبي داود ١٣/ ١٩.

(٢) هو: محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي، البصري النحوي، أبو العباس المعروف بالمبرد، إمام العربية ببغداد في زمنه، له تصانيف كثيرة، من أشهرها: «الكامل»، و«المقتضب»، و«إعراب القرآن»، مات سنة (٢٨٦هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٤/ ٣١٣، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٥٧٧.

(٣) الكامل في اللغة والأدب ٣/ ٧٣.

(٤) هو: محمد بن السري بن سهل، البغدادي النحوي، أبو بكر ابن السراج، أحد أئمة الأدب والعربية، كان يلثغ بالراء فيجعلها غيناً، من مصنفاته: «الأصول في النحو»، و«شرح كتاب سيبويه»، و«الشعر والشعراء»، مات سنة (٣١٦هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٤/ ٣٣٩، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٤٨٥.

إلى أن قال: «فهذه حقيقة تعاقب حروف الخفض، فمتى لم يتقارب المعنى لم يجز»(١).

وجامع الكلام في المسألة ما قاله ابن السّيد البَطَلْيَوْسي: «هذا الباب أجازه قوم من النحويين أكثرهم من الكوفيين، ومنعه قوم أكثرهم من البصريين، وفي القولين نظر؛ لأن من أجاز دون شرط وتقييد، لزمه أن يجيز سرت إلى زيد، وهو يريد مع زيد قياساً على قولهم: «إن فلاناً لظريف عاقل إلى حسب ثاقب»؛ أي: مع حسب، ولزمه أن يجيز: زيد في عمرو؛ أي: مع عمرو... هذه المسائل لا يجيزها من يجيز إبدال الحروف، ومن منع ذلك على الإطلاق لزمه أن يتعسف في التأويل لكثير مما ورد؛ لأن في هذا الباب أشياء كثيرة يبعد تأويلها على غير البدل»(٢).

وخلاصة القول:

- أن من عادات القرآن: [تعدي كثيرٍ من الأفعال التي وردت في القرآن إلى مفعولها بحرف جر غير الحرف الذي تتعدى به في أصل الوضع اللغوي]، وقد أبان علماء اللغة والتفسير معاني هذه الحروف، وأن هذه عادة العرب، وقد جاء القرآن بلغتهم ومرجعاً لها.

- ومن خلال هذه العادة؛ نشأت مسألة: هل هذا الأسلوب تناوب بين الحروف؟ أو تضمين الفعل معنى فعل آخر يتعدى بهذا الحرف حسبما سُمِع عن العرب؟(٣).

- تجدُرُ الإشارة إلى أن القول بالتضمين فيه بلاغة إعطاء الفعل معنى فعلين، كما قال الزمخشري عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨]: «وإنما عدَّى بعن، لتضمين عدا معنى نبا وعلا، في قولك: نَبَت عنه عينُه، وعَلَت عنه عينُه: إذا اقتحمته ولم تعْلَق به. فإن قلت: أي غرض في هذا التضمين؟ وهلَّا قيل: ولا تعدهم عيناك، أو لا تعد

(١) الأصول في النحو ١/ ٤١٤ ـ ٤١٥.
(٢) ينظر: الاقتضاب ١/ ٣٤٠.
(٣) ينظر: الخصائص لابن جني ٢/ ٧، ٨.

عيناك عنهم؟ قلت: الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذّ، ألا ترى كيف رجع المعنى إلى قولك: ولا تقتحمهم عيناك مجاوزتين إلى غيرهم؟، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢]؛ أي: ولا تضموها إليها آكلين لها»[١]، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

نيابة حروف النداء عن بعض

حروف النداء التي ذكرها أهل اللغة وهي: «الهمزة»، «أيْ»، «أيا»، «هيا»، «آيْ»، «آ»، «وَا»، «يا»[٢].

وقد تستعمل أدوات النداء التي للقريب لنداء البعيد، لمعنى من المعاني، كأن يريد الإشارة إلى أنَّ هذا البعيد في جسده هو قريب إلى قلبه ونفسه وحاضر في ذهنه، أو أنه لشدة استماعه وسرعة استجابته كأنه قريب، فهو لا يحتاج أن ينادى بأدوات نداء البعيد.

وقد تستعمل أدوات النداء التي للبعيد لنداء القريب، للدلالة على معنى من المعاني، إشارة إلى علو مرتبته وقدره، فناسب نداؤه بنداء البعيد في العلو، أو إشارة إلى انحطاط منزلته، فناسب كذلك نداؤه بنداء البعيد في السفل، أو إشارة إلى غفلة المنادى فهو بمنزلة البعيد لحاجته إلى زيادة التنبيه، أو إشارة إلى شدة حاجته إليه فيمد صوته بالنداء كالمستغيث، فناسب استعمال أداوت نداء البعيد لما فيها من مد الصوت، ونحو هذا كما هي عادة العرب[٣].

وزعم بعضهم أن في نداء الرب بـ(يا) إشارة إلى احتقار العبد نفسه والإقرار بالتقصير[٤]، فالتناوب في استعمال حروف النداء وتحديد المعنى

---

(١) الكشاف ٢/ ٦٧٠.

(٢) ينظر: رصف المباني في شرح حروف المعاني ٧١، ١٤١، ٢١٣، ٢١٥، ٤٣١، ٤٧٢، ٥١٣.

(٣) ينظر: الكشاف ١/ ١٢١، الجنى الداني ٣٥٤ ـ ٣٥٥، روح المعاني ١/ ١٨١.

(٤) ينظر: الكشاف ١/ ١٢١، اللباب في علوم القرآن ١/ ٤٠٧.

يكون حسب السياق لتضم حروف النداء جميع معاني القرب أو البعد مسافة أو حكماً[١].

وعادة القرآن نيابة أم الباب (يا) عن جميع أدوات النداء، لتعم جميع المعاني، فهي في غاية الدقة لبيان حال المنادى، من حيث القرب والبعد الحسي والمعنوي، مما سبقت الإشارة إليه في مباحث اختيار الحرف المناسب.

ومما يؤكد نيابتها عن جميع الأدوات أنها إذا حذفت أداة النداء في القرآن فلا يقدر غير (يا)؛ لكونه أصلاً لحروف النداء ومشترَكاً لنداء القريب والبعيد[٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا...﴾ الآية [يوسف: ٢٩]؛ أي: يا يوسف[٣]، والله تعالى أعلم.

المطلب الثالث

نيابة حروف العطف عن بعض

حروف العطف لها الأثر الكبير في دلالات الآيات، والربط بين الجمل والكلمات، ولذا بيَّن علماء اللغة أن لكل حرف دلالة عامة تختص به.

وقبل البداية في بيان العادة أشير إلى أهم حروف العطف التي تقع النيابة بينها ومعانيها عند أهل اللغة:

❑ الأول: [الواو] وهو أصل حروف العطف:

قال المبرِّد: «وكل بابٍ فأصله شيءٌ واحدٌ، ثم تدخل عليه دواخل؛ لاجتماعها في المعنى... والواو أحق بالعطف»[٤].

ومعناها إشراك الثاني فيما دخل فيه الأول وليس فيها دليل على أيهما

---

(١) ينظر: رصف المباني ٥١٣.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير ١/ ٢٢٨.
(٣) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٥/ ٣٥٧٧.
(٤) المقتضب ٧٠.

كان أولاً، نحو قول الله ﷻ: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران] والركوع قبل السجود(١).

يقول سيبويه: «قولك: مررتُ بعمرٍو وزيد، وإنما جئت بالواو لتضم الآخر إلى الأول وتجمعهما، وليس فيه دليل على أنَّ أحدهما قبل الآخر»(٢).

ويقول الرضي(٣): «فقوله: [فالواو للجمع مطلقاً]: معنى المطلق أنه يحتمل أن يكون حصل من كليهما في زمان واحد، وأن يكون حصل من زيد أولاً، وأن يكون حصل من عمرو أولاً، فهذه ثلاثة احتمالات عقلية، لا دليل في الواو على شيء منها، هذا مذهب جميع البصريين والكوفيين»(٤).

□ الثاني: [الفاء] ومعناها أن الثاني بعد الأول وأن الأمر بينهما قريبٌ:

يقول سيبويه في التمييز بين الواو والفاء: «والفاء وهي تضم الشيء إلى الشيء، كما فعلت الواو، غير أنها تجعل ذلك متسقاً بعضه في إثر بعض، وذلك قولك: مررتُ بعمرٍو فزيدٍ فخالدٍ، وسقط المطر بمكان كذا وكذا، فمكان كذا وكذا، وإنما يقرو أحدهما بعد الآخر»(٥).

□ الثالث: [ثُمَّ] وهي مثل الفاء إلا أنها أشد تراخياً، وتجيء لتبيِّن أن بين الثاني والأول مهلة:

يقول المرادي(٦): «[ثُمَّ] حرف عطف يشرك في الحكم، ويفيد الترتيب

---

(١) الأصول في النحو ٢/ ٥٥. (٢) الكتاب ٤/ ٢١٦.

(٣) هو: محمد بن الحسن الرضي السمنائي النجفي المعروف بالرضي، وبالشارح، وبنجم الأئمة، ونجم الدين، عالم بالعربية، من أشهر مصنفاته: «الوافية في شرح الكافية» لابن الحاجب في النحو، و«شرح مقدمة ابن الحاجب» وهي المسماة بالشافية في علم الصرف، مات سنة (٦٨٦هـ)، له ترجمة في: روضات الجنات ٢٨٦، الأعلام ٦/ ٨٦.

(٤) شرح الكافية ٤/ ٣٨٢. (٥) الكتاب ٤/ ٢١٧.

(٦) هو: الحسن بن قاسم بن عبد الله بن علي المرادي المصري المولد المغربي الإقامة والشهرة، الآسفي النحوي اللغوي الفقيه، بدر الدين المعروف بابن أم قاسم، مفسر أديب، من مصنفاته: «تفسير القرآن»، و«الجنى الداني في حروف المعاني»، و«شرح الشاطبية»، و«شرح الألفية»، مات يوم عيد الفطر سنة (٧٤٩هـ)، له ترجمة في: غاية =

بمهلة؛ فإذا قلت: قام زيد ثم عمرو، آذنت بأن الثاني بعد الأول بمهلة»(١).

قال ابن القيم: «لا غرو أن يتقارب معنى الحرف من معنى الاسم المشتق المتمكن في الكلام، فهذه ثُمَّ حرف عطف، ولفظها كلفظ الثَّم، والثَّمُّ هو زمُّ الشيء بعضه إلى بعض... وأصله من ثممْتُ البيتَ: إذا كانت فيه فُرَج فَسُدَّ بالثَّمام»(٢).

ويتضح معناهما الأصلي أكثر من خلال آيات سورة عبس حيث يقول الله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [عبس] العطف بالفاء للدلالة على التعاقب والتقارب، ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ [عبس]؛ أي: أخرجه من بطن أمه(٣)، ولذا جاء العطف بثم للدلالة على التراخي ووجود الفاصل بين الحدثين؛ من كونه نطفة إلى ولادته، وهو مدة بقاء الجنين في بطن أمه، ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾ [عبس] عطف بثم للدلالة على التراخي بين خروجه من بطن أمه إلى موته، بخلاف المدة بين موته وقبره فإنها يسيرة ولذا جاء العطف بالفاء إشارة إليه، ولما كان بين الموت والبعث برزخاً فاصلاً جاء التعقيب بثُم ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس](٤).

يقول سيبويه مفرقاً بين هذه الأحرف الثلاثة: «فإذا قلت: مررتُ برجل

= النهاية ١/ ٢٢٧، والدرر الكامنة ٢/ ٣٢.

(١) الجنى الداني ٤٢٦.

(٢) بدائع الفوائد ١/ ٩٩، ينظر: معجم مقاييس اللغة ١/ ٣٦٩. قال الجوهري: «وثممت الشيء أثُمُّه بالضم ثمّاً، إذا أصلحته ورممته بالثَّمام» الصحاح ٦/ ١٥٩.

(٣) وروي عن مجاهد: أن المراد بالسبيل طريق الحق والباطل، أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٢٣، وقال الطبري: «وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: ثم الطريق، وهو الخروج من بطن أمه يسَّره، وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالصواب؛ لأنه أشبههما بظاهر الآية، وذلك أن الخبر من الله قبلها وبعدها عن صفة خلقه وتدبيره جسمه، وتصريفه إياه في الأحوال، فالأولى أن يكون أوسط ذلك نظير ما قبله وما بعده» ٢٤/ ٢٢٤.

(٤) ينظر: رصف المباني ص٢٤٩، وما ذكرته في معنى الفاء، وثم هو مذهب الجمهور وما أوهم خلاف ذلك تأولوه، ينظر: الجنى الداني ٤٢٦، مع العلم بأن التراخي أمر نسبي يُقَدَّر في كل موضع بقدره.

راكب وذاهب، استحقهما؛ لا لأن الركوب قبل الذهاب، ومنه: مررتُ برجل راكب فذاهب استحقهما، إلا أنه بَيَّنَ أن الذهاب بعد الركوب، وأنه لا مهلة بينهما، وجعله متصلاً به، ومنه: مررتُ برجل راكب ثم ذاهب، فبيَّنَ أن الذهاب بعده، وأن بينهما مهلة وجعله غير متصل به، فصَيَّرَه على حِدَة»(١).

❐ الرابع: [أَوْ] إما أن تكون:

أ ـ لأحد الشيئين بغير تعيينه عند شك المتكلم، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون].

ب ـ أو قصده أحدهما، مثل قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ﴾ [المائدة: ٨٩].

ج ـ أو إباحة(٢) كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ﴾ [البقرة: ٧٤](٣).

وإذا دَخلَت عليها لا الناهية امتنع فعل الجميع كقول الله ﷻ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإنسان] إذ المعنى لا تطع أحدهما(٤).

وهكذا اعتنى علماء اللغة بتحديد المعنى الأصلي لحروف العطف فمنها ما يفيد الاشتراك، وأخرى للتعقيب، وثالثة للتعقيب مع التراخي، وغيرها، ومن هنا تظهر أهمية معرفة عادة القرآن في نيابة بعض حروف العطف عن بعض.

---

(١) الكتاب ١/ ٤٢٩.

(٢) الإباحة: هي حرية المخاطب في اختيار أحد المتعاطفين أو اختيارهما معاً، فالمراد: الإباحة بحسب العقل، أو العرف في أي وقت، وعند أي قوم لا الإباحة الشرعية. ينظر: ضياء السالك إلى أوضح المسالك ٣/ ٢٠٠.

(٣) ينظر: رصف المباني ص٢١٠، مغني اللبيب ٧٣.

(٤) مغني اللبيب ٧٤، الأصول في النحو ٢/ ٥٥، ٥٦.

فعادة القرآن نيابة حروف العطف عن بعض حسب دلالة السياق القرآني.

فالمتأمل لحروف العطف في القرآن يرى الدقة البالغة في اختيار مواضعها من خلال التناوب فيما بينها باستعمال أحدها بمعنى الآخر، وكذا عند الانتقال من حرف لآخر في سياق واحد ليدل دلالة واضحة ـ مع تناوبهما ـ أن بينهما فرقاً دقيقاً لمن تأمل فيها، وأن بلاغة القرآن لا تضاهيها بلاغة.

١ ـ فمن الأمثلة مجيءُ الفاء بمعنى ثم:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزُّمر: ٧].

في آية سورة الزمر حرف العطف [الفاء] وفي آية سورة الأنعام [ثُمَّ] مع أن ظاهر السياق واحد، مما يدل على التناوب بين الحرفين مع دقة في دلالة المعنى.

ويؤيد هذا قول بعض العلماء: إن الفاء فيها نوع من التراخي، وكل شيء بحسبه، وإن لم يكن كما في [ثُمَّ] تماماً[1].

قال الزركشي: «نص الفارسي في الإيضاح على أن ثم أشد تراخياً من الفاء فدل على أن الفاء لها تراخ، وكذا ذكر غيره من المتقدمين ولم يدع أنها للتعقيب إلا المتأخرون»[2].

وقال جل وعلا: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون].

هذه الفاءات التي في قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ وفي: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ﴾ وفي: ﴿فَكَسَوْنَا﴾ كلها بمعنى ثم؛ لتراخي معطوفاتها.

قال الزركشي في معاني الفاء: «وتجيء للمهلة كـ «ثم»؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]، ولا شك أن بينها وسائط.

---

(١) ينظر: مغني اللبيب ١٦٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٤/ ٢٩٧.

وكقوله: ﴿وَالَّذِيٓ أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾ [الأعلى] فإن بين الإخراج والغثاء وسائط»(١).

٢ ـ وتأتي ثم بمعنى الواو:

ومن أقوال العلماء التي ذَكَرت أمثلةً لهذا المعنى:

ـ قال السمرقندي(٢): «قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢] [ثُمَّ] بمعنى العطف؛ يعني: وأورثنا الكتاب»(٣).

وقال البغوي: «﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، ويجوز أن يكون [ثُمَّ] بمعنى [الواو]؛ أي: وأورثنا؛ كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البلد: ١٧]؛ أي: وكان من الذين آمنوا..»(٤).

ـ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّٰجِدِينَ ۝١١﴾ [الأعراف].

قال أبو حيان: «ثم بمعنى الواو فلم ترتّب ويكون الترتيب بين الخلق والتصوير أو تكون ثُمَّ في ﴿ثُمَّ قُلْنَا﴾ للترتيب في الإخبار لا في الزمان وهذا أسهل محمل في الآية»(٥).

وقال الأخفش(٦): «﴿ثُمَّ﴾ في معنى الواو»(٧).

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٤/ ٢٩٥، وينظر: مغني اللبيب ١٦٨.

(٢) هو: نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، أبو الليث الملقب بإمام الهدى، من أئمة الحنفية الزهاد، له مصنفات نفيسة منها: «التفسير»، وكتاب «النوازل في الفقه»، و«تنبيه الغافلين»، مات سنة (٣٩٣هـ)، له ترجمة في: طبقات الحنفية ٢/ ١٩٦، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٢٢، طبقات الداوودي ٢/ ٣٤٦.

(٣) تفسير السمرقندي ٣/ ١٠٠.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٦٢٣، وينظر: ٤/ ٦٢١. (٥) البحر المحيط ٥/ ١٦.

(٦) هو: علي بن سليمان، أبو الحسن، المعروف بالأخفش الصغير النحوي، له تصانيف منها: «معاني القرآن»، «شرح سيبويه»، مات سنة (٣١٥هـ)، له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ١٤/ ٤٨٠، شذرات الذهب ٢/ ٢٧٠.

(٧) معاني القرآن ٢/ ٢٩٤، وقال النحاس: «وهذا القول خطأ على مذهب أهل النظر من النحويين، ولا يجوز أن تكون ثم بمعنى الواو لاختلاف معنييهما»، وذكر قول مجاهد =

ـ وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣].

قال القرطبي[١]: «﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]؛ أي: ارجعوا إليه بالطاعة والعبادة، قال الفراء: [ثُمَّ] هنا بمعنى [الواو]؛ أي: وتوبوا إليه؛ لأن الاستغفار هو التوبة، والتوبة هي الاستغفار، وقيل: استغفروه من سالف ذنوبكم، وتوبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم، قال بعض الصلحاء: الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين»[٢].

وقال القرطبي: «﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصَّافات] قال أبو عبيدة: يجوز أن تكون [ثُمَّ] بمعنى [الواو]»[٣].

قال السيوطي في [ثُمَّ]: «وذكر أهل التفسير أنه في القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: بقاؤه على أصله، ومنه قوله تعالى في الأنعام: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ [١٦٤]، وفي الأعراف: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾، وفي فاطر: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [٣٢]، وهو كثير في القرآن.

والثاني: بمعنى الواو، ومنه قوله تعالى في يونس: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [٤٦]، وفي القيامة: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

والثالث: وقوعه زائداً، ومنه قوله تعالى في سورة براءة: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا

= أن المعنى: ولقد خلقناكم ثم صورناكم في ظهر آدم وقال: «وهذا أحسن الأقوال يذهب مجاهد إلى أنه خلقهم في ظهر آدم ثم صورهم حين أخذ عليهم الميثاق ثم كان السجود لآدم بعدُ؛ ويقوي هذا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] معاني القرآن ٣/ ١٢، وينظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ١٢٣.

(١) هو: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح أبو عبد الله الأنصاري الخزرجي المالكي القرطبي، صنف التفسير المشهور بجامع أحكام القرآن، والتذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، مات سنة (٦٧١هـ)، طبقات المفسرين للسيوطي ص٧٩، طبقات الداوودي ٢/ ٦٥، شذرات الذهب ٥/ ٢٣٥.

(٢) تفسير القرطبي ٩/ ٣.

(٣) تفسير القرطبي ١٥/ ٨٨.

مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: ١١٨]»[(١)].

قال الجصاص[(٢)]: «قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ۝٤٦﴾ [يونس]، ومعناه: والله شهيد»[(٣)].

وقال البغوي[(٤)]: «﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ [يونس: ٤٦]، في الآخرة، ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ۝٤٦﴾ [يونس]، فيجزيهم به، [ثُمَّ] بمعنى [الواو]، تقديره: والله شهيد»[(٥)].

- وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ۝٢٥﴾ [التوبة].

سياق الآية العطف بـ[الواو] ولكن عَدَل إلى [ثُمَّ] حيث قال: ﴿ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ۝٢٥﴾ [التوبة]، ولم يقل: [وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ووليتم مدبرين].

قال ابن عاشور: «وموقع ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ۝٢٥﴾ [التوبة]، موقع التراخي الرتبي؛ أي: وأعظم ممّا نالكم من الشرّ أن وليتم مدبرين»[(٦)].

فكأنه يشير إلى الحالة النفسية التي مر بها المسلمون في حنين، حيث إن [ثُمَّ] في أصلها للتراخي فتلمح إلى طول الزمن الذي جاء بعده الفرار مع

---

(١) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ١٢٣.

(٢) هو: الإمام أحمد بن علي أبو بكر الرازي الإمام الكبير المعروف بالجصاص، كان إمام الحنفية في عصره، من مصنفاته: «أحكام القرآن»، و«شرح مختصر الطحاوي»، و«شرح الأسماء الحسنى»، مات سنة (٣٧٠هـ)، له ترجمة في: طبقات الحنفية ١/ ٨٥، طبقات الداوودي ١/ ٥٦.

(٣) أحكام القرآن ٣/ ٣٧٢.

(٤) هو: الحسين بن مسعود الفراء البغوي أبو محمد الشافعي، يلقب بمحيي السُّنَّة، فقيه محدث مفسر، من مصنفاته: «لباب التأويل في معالم التنزيل»، و«شرح السُّنَّة»، مات سنة (٥١٦هـ)، له ترجمة في: طبقات السيوطي ٣٨، طبقات الداوودي ١/ ١٦١.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٤، وينظر: تفسير النسفي ١/ ٣٥٧.

(٦) التحرير والتنوير ٦/ ٣٣١.

صعوبته عليهم وشدته فقد حصل بعد حيرة واضطراب؛ فلو أتى بالواو لما أفادت هذه الدلالة، والله أعلم.

٣ ـ وتأتي الفاء بمعنى الواو:

كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤﴾ [الأعراف].

قال الفراء[(١)]: «إنما أتاها البأس مِن قَبْل الهلاك، فكيف تَقَدَّم الهلاك؟»[(٢)].

أجاب العلماء على هذا الإشكال بأجوبة[(٣)] منها: وقوع الهلاك والبأس معاً فتكون الفاء بمعنى الواو كقوله: أعطيت فأحسنت، وكان الإحسان مع العطاء لا بعده، فلا تفيد الترتيب، ولا يحتاج السياق إلى تقدير[(٤)].

وحين نتأمل في سياق القرآن نجد الانتقال من العطف بالواو في نفس الموضع إلى الفاء، مما يزيد الأسلوب جمالاً، ويدل على أن بينهما اجتماعاً وافتراقاً.

قال تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النَّازعات].

جاءت هذه الآيات متعاطفة بالواو إلى قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣﴾

---

(١) هو: يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور بن مروان أبو زكريا الديلمي، المعروف بالفراء، إمام الكوفيين، ومن أعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، من مصنفاته: «معاني القرآن»، و«كتاب اللغات»، و«مشكل اللغة»، مات سنة (٢٠٧هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٢/ ٢٢٨، طبقات الداوودي ٢/ ٣٦٧.

(٢) معاني القرآن ١/ ٣٧١.

(٣) قال أبو حيان: «فلا بدّ من تجوّز إما في الفعل بأن يراد به: أردنا إهلاكها، وإما أن يختلف المدلولان بأن يكون المعنى: أهلكناها بالخذلان وقلة التوفيق فجاءها بأسنا بعد ذلك، وإما أن يكون التجوّز في الفاء: بأن تكون بمعنى الواو وهو ضعيف، أو تكون لترتيب القول فقط فكأنه أخبر عن قرى كثيرة أنه أهلكها، ثم قال: فكان من أمرها مجيء البأس، وقيل: الفاء ليست للتعقيب وإنما هي للتفسير» البحر المحيط ٤/ ٢٦٩.

(٤) ينظر: معاني القرآن ١/ ٣٧٢، تفسير ابن عبد السلام ٢/ ١١١، تفسير القرطبي ٧/ ١٦٢.

[النَّازعات]، ثم عدل السياق عنها إلى الفاء في قوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥﴾ [النَّازعات].

قال الزمخشري: «أقسم ﷻ بطوائف من الملائكة تنزع الأرواح من الأجساد، وبالطوائف التي تنشطها؛ أي: تخرجها، من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وبالطوائف التي تسبح في مضيها؛ أي: تُسرع فتَسبِق إلى ما أمروا به، فتُدَبِّر أمراً من أمور العباد»(١).

فالحاصل من كلام الزمخشري أن الله أقسم بطوائف من الملائكة؛ فالأُولى: التي تنْزع الأرواح من الأجساد، والثانية: التي تخرجها، والثالثة: التي تسبح في مضيها؛ أي: تُسرِع فتَسْبِق فتُدَبِّر، فوقف عند هذه، فوصفها بثلاث صفات متتابعة؛ وهي: السبح والسبق والتدبير؛ لذلك عطف بين صفاتها بالفاء، وعطف بين ذوات الطوائف بالواو، والله أعلم.

ـ كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥﴾ [المرسلات].

في هذه الآيات العدول عن الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۝٢﴾ [المرسلات] إلى الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣﴾ [المرسلات]؛ ثم العدول إلى الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤﴾ [المرسلات].

ومن خلال استقراء الآيات التي جاءت على هذا الأسلوب ودراستها يتبين دقة اختيار حرف العطف ودلالته العميقة.

قال الزمخشري: «أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره، فعصفن في مضيهن؛ كما تعصف الرياح تخففاً في امتثال أمره، وبطوائف منهم نشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي، أو نشرن الشرائع في الأرض، أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أوحين، ففرقن بين الحق والباطل فألقين ذكراً إلى الأنبياء»(٢).

وهذا؛ وإن كان استنباطاً جميلاً أن يَجْعل [الواو] لعطف الذوات،

---

(١) الكشاف ٤/ ١١٢.

(٢) الكشاف ٤/ ٦٧٧.

و[الفاء] للتفريع في عطف الصفات؛ لأن الأصل في المتعاطفات التغاير في الذوات على وجه العموم، ولمَّا جَمَع بين [الواو] و[الفاء] في موضع واحد فُرِّق بينهما بأن [الواو] على الأصل في عطف الذوات ومجيء [الفاء] تفريع لصفات المتعاطفات؛ إلا أنه لا يطَّرِد في القرآن، وليس عليه جميع المفسرين.

ففي القرآن عطف الصفات على بعض بالواو مع أنها لموصوف واحد، وجيء بحرف العطف بينها.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ① ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ③ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ④﴾ [الأعلى].

ـ وجاء العطف أيضاً بالفاء مع أن الذوات مختلفة على قول جميع المفسرين[١]؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ① فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ② فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ③ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ④﴾ [الذاريات].

يقول الألوسي: «وعَطفُ الناشرات على ما قبل بالواو ظاهرٌ للتغاير بالذات بينهما، وعطف العاصفات على المرسلات، والفارقات على الناشرات، وكذا ما بعد بالفاء؛ لتنزيل تغاير الصفات منزلة تغاير الذات»[٢].

وعلى هذا؛ فالذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن الواو جاءت لعطف الذوات، وتنزيلٌ لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات.

فالآية تدل على أن ما عدل فيه من الواو إلى الفاء طائفة واحدة من الملائكة ذات صفات متعددة، والفاء للدلالة على تعاقب هذه الصفات وتتابعها، وهذه الدلالة لا توجد في الواو، والله أعلم.

٤ ـ وكذلك أو تأتي بمعنى الواو عند أمن اللبس[٣].

قال السيوطي: «وذكر أهل التفسير أن [أَوْ] في القرآن على ثلاثة أوجه... وذكر منها معنى: [الواو]، ومنه قوله تعالى في الأنعام: ﴿أَوْ مَا

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/٣٩١.
(٢) روح المعاني ٢٩/١٦٩.
(٣) شرح ابن عقيل ٣/٢٠٧.

﴿ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ﴾ [١٤٦]، وفي طه: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾»[(١)].

وقال ابن كثير: «وذهب ابن جرير الطبري ومن تبعه من كثير من المفسرين أن هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين، وتكون [أَوْ] في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩] بمعنى [الواو]؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإنسان]»[(٢)].

وقال الرازي: «﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةًۚ﴾ [النساء: ٧٧] [أَوِ] بمعنى [الواو]، والتقدير: يخشونهم كخشية الله وأشد خشية»[(٣)].

وقال الكيا الهراسي[(٤)]: «﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة]، فلو كان الأول بمعنى: ما لم تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة أو لم تفرضوا، لمَا عطف عليها المفروض لها، فعُلم أن معناه: ما لم تمسوهن ولم تفرضوا لهن فريضة، فيكون [أَوْ] بمعنى [الواو]»[(٥)].

وقال الطبري: «﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الذاريات]، وكان معمر بن المثنى يقول: [أَوْ] في هذا الموضع بمعنى [الواو] التي للموالاة؛ لأنهم قالوها جميعاً له»[(٦)].

بل إن آية البقرة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ﴾ [البقرة: ١٩٦] دلالة على أن [الواو] تأتي بمعنى [أَوْ]، ولذلك قال في البيان: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ﴾ للدلالة على أنها على معناها الأصلي.

قال أبو السعود: «﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ﴾ فذلكة الحساب[(٧)]، وفائدتها أن لا

---

(١) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ١٠٩.
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١٩٤. (٣) تفسير الرازي ١٠/ ١٤٨.
(٤) هو: علي بن محمد بن علي الطبري أبو الحسن الشافعي، الملقب بعماد الدين، المعروف بالكيا الهراسي، من أشهر مصنفاته: «أحكام القرآن»، مات سنة (٥٠٤هـ)، له ترجمة في: طبقات الشافعية ٤/ ٢٨١، شذرات الذهب ٤/ ٨.
(٥) أحكام القرآن ١/ ٢٠٠. (٦) تفسير الطبري ٢١/ ٥٣٥.
(٧) الفذلكة: كلمة مخترعة من قوله؛ أي: الحاسِبِ إذا أجْمَلَ حسابه: فذلِك كذا وكذا =

يتوهم أن [الواو] بمعنى [أَوْ]»[(١)].

إذن:

حروف العطف ينوب بعضها عن بعض، وهي عادةٌ لها أثر في معاني القرآن، وهو موضوع طويل، قد لا يتفق المفسرون في مفرداته على معنى واحد وليس هذا مقصوداً هنا؛ بل لنعلم أن هذه العادة جارية عند العرب وفي كتاب الله منها مواضع كثيرة نبَّه عليها المفسرون.

ويستنبط من هذا التناوب أمور منها:

١ ـ جمال الأسلوب القرآني بعدم الاستمرار على صيغة واحدة عند كثرة المتعاطفات.

٢ ـ إفادة معنى جديد عند النيابة لا يؤديه الحرف الأصلي.

٣ ـ في تنويع هذه الحروف نوع من الإعجاز البياني.

٤ ـ الربط بحروف العطف بين الجمل يكون على حسب ما يناسب المعنى، ويُزَيِّن النطق بالقرآن.

ومن لطائف هذا المطلب:

١ ـ أن ثم لم تقع عاطفة للمفرد على المفرد في القرآن، وإنما جاءت عاطفة للجمل[(٢)].

٢ ـ الفاء جاءت عاطفة للمفرد وللجملة في القرآن، ولكن عطفها للاسم في نوع معين لم تتجاوزه: وهو عطف الصفات، فتَعْطِف اسم الفاعل على اسم الفاعل فقط[(٣)]؛ كقوله تعالى: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢﴾ [الصَّافات]، ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤﴾ [النَّازعات]، ﴿فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ۝٢﴾ [العاديات]، ولم أستطع أن أصل إلى سببٍ في اختيار هذا الأسلوب مع الفاء، فالله أعلم بأسرار كتابه.

= عدداً، وهي مثل قولهم: فَهْرَس الأبواب فَهْرَسَةً، إلا أن فَذْلَكَ ضارِبٌ بعرقٍ في العربية، وفَهْرَس مُعَرَّب، تاج العروس ٢٧/ ٢٩٣، وينظر: التسهيل ١/ ١٣٨، الكليات ١١٠٤.

(١) تفسير أبي السعود ١/ ٢٠٧.

(٢) ينظر: دراسات لأسلوب القرآن ٨/ ١١.

(٣) ينظر: دراسات لأسلوب القرآن ٢/ ٨، ١١/ ١٨٩.

المبحث الثالث

التأكيد ببعض الحروف أو حذفها

وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: التأكيد ببعض حروف المعاني.
- المطلب الثاني: تقوية المعنى ببعض الحروف.
- المطلب الثالث: حذف بعض الحروف.

المطلب الأول

التأكيد ببعض حروف المعاني

الحروف قسمان: حروف مَعَان، وحروف مَبَان.

وفي هذا المطلب بيان أن من عادات القرآن تأكيد السياق القرآني بحروف المعاني، وسيأتي الكلام في المطلب التالي حول تقوية المعنى بحروف المباني.

والمراد بحروف المعاني: ما جاء لمعنى وليس باسم ولا فعل[(١)].

وحروف المباني: هي حروف الهجاء[(٢)].

وقبل ذكر أمثلة العادة أشير إلى أنه قد يُسَمِّي بعض العلماء حرف التأكيد زائداً، وهذا اصطلاح إعرابي درج عليه كثير من علماء اللغة العربية، ومن العلماء من سمَّاه: حرف الصِّلَة والحشْو واللغْو.

قال الرضي عن الحروف الزائدة: «... وسُمِّيت أيضاً حروف الصلة؛

(١) الكتاب ١٢، الصاحبي في فقه اللغة ١٧، هذا من أحسن ما عُرِّف به حرف المعنى.
(٢) اللباب في علل البناء والإعراب ٥٠.

لأنها يُتوصَّل بها إلى زيادة الفصاحة أو إلى إقامة وزن أو سجع أو غير ذلك»[١].

وقال ابن يعيش[٢]: «والصلة والحشو من عبارات الكوفيين، والزيادة والإلغاء من عبارات البصريين»[٣].

قال ابن عثيمين[٤]: «قوله: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣﴾ [فاطر] ما: نافية، مِن: حرف جر زائد لفظاً، وقيل: لا ينبغي أن يقال: حرف جر زائد في القرآن، بل يقال: مِن: حرف صِلَة، وهذا فيه نظر؛ لأن الحروف الزائدة لها معنى، وهو التوكيد»[٥].

وقد نزَّه بعض العلماء كتاب الله تعالى من أن يكون فيه حرف زائد.

قال ابن هشام: «ينبغي للمُعْرِب أن يتجنب أن يقول في حرف في كتاب الله تعالى: إنه زائد؛ لأن الزائد هو الذي لا معنى له، وكلام الله منزه عن ذلك»[٦].

المهم هنا أنه جاء التأكيد بالحروف في القرآن والشعر ما لا يحصى، وكل حرف في القرآن ففيه فائدة؛ وقول من قال حرف زائد ليس على ظاهره؛ فالمراد بالحرف الزائد: أنه زائد في الإعراب، فيؤول الأمر إلى الخلاف اللفظي.

---

(١) شرح الكافية للرضي ٤/ ٤٣٣.

(٢) هو: يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء الموصلي، موفق الدين الأسدي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع، من كبار العلماء بالعربية، من كتبه: «شرح المفصل»، و«شرح التصريف الملوكي» لابن جني، مات سنة (٦٤٣هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٢/ ٣٤١، شذرات الذهب ٥/ ٢٢٨.

(٣) شرح المفصل ٨/ ١٢٨.

(٤) هو: محمد بن صالح بن عثيمين الوهيبي أبو عبد الله التميمي، من مؤلفاته: «تفسير آيات الأحكام» ولم يكمل، «أصول في التفسير»، مات سنة (١٤٢٠هـ)، له ترجمة في: مقدمة مجموع فتاواه جمع فهد السليمان ١/ ٩.

(٥) القول المفيد على كتاب التوحيد ١/ ٢٨٥.

(٦) قواعد الإعراب ١٦٩، وينظر: البرهان ١/ ٣٠٥.

قال الزركشي: «وجميع ما قيل فيه زائد، ففائدته التوكيد؛ لأن الزيادة في الكلام تقتضي أن ذلك لم يصدر عن غفلة، وإنما صدر عن قصد وتأمل، وذلك من فوائد التوكيد اللفظي»(١).

وقال ابن عثيمين: «إنه زائد من حيث الإعراب، أما من حيث المعنى، فهو مفيد وليس في القرآن شيء زائد لا فائدة منه، ولهذا نقول: هو زائد، زائد بمعنى أنه لا يُخِلُّ بالإعراب إذا حذف»(٢).

فهذه الحروف الزائدة جِيء بها لفوائد لفظية كتزيين السياق وزيادة الفصاحة.

ولفوائد معنوية كالتأكيد؛ والتأكيد معنى مقصود، فللحرف معنى في السياق لا يكون إلا به.

وعلل بعض العلماء الزيادة بكون ما بعد الحرف معمول لما قبله، ومن ذلك قول أبي حيان: «ومعنى الزيادة فيها: أن ما بعدها معمول لما قبلها»(٣).

وقد اتفقت كلمة المفسرين والنحويين والبلاغيين: أنه يمتنع أن يوجد في القرآن الزيادة المحضة التي يكون وجودها كعدمها.

وسأشير إلى عادة القرآن بزيادة بعض حروف المعاني للتأكيد في القرآن مع ذكر الأمثلة:

أولاً: عادة القرآن زيادة [مَا] للتأكيد كلما جاءت بعد [قَلِيلاً]:

ـ كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة].

أي: اعتذروا عن الإيمان بأن قلوبهم غلف؛ أي: عليها غلاف وأغطية، فلا يخلص إليها ما تقول، يزعمون أنه عذر لهم، وهذا كذب منهم، فلهذا قال تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: أنهم مطرودون ملعونون، بسبب

(١) البحر المحيط في أصول الفقه ١/ ٣٧١.
(٢) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ٨/ ١٦٣.
(٣) البحر المحيط ٤/ ٤٣٦.

كفرهم، فقليلاً المؤمن منهم، أو قليلاً إيمانهم، وكفرهم هو الكثير(١).

قال أبو حيان: «زيادة ما للتوكيد لا ينكره في أماكنه من له أدنى تعلق بالعربية، فضلاً عن من يتعاطى تفسير كلام الله»(٢).

فـ[مَا] هنا زائدة مؤكدة، وفي كل موضع مثل هذا السياق؛ فلا يجوز أن تكون مصدرية؛ لأنه يلزم رفع [قَلِيلاً] ليكون مبتدأ وخبراً، ولا يجوز أن تكون [مَا] نافية لتقدم معمول ما في حيزها عليها(٣).

قال مكي(٤) في تفسير الآية: «و[مَا]: زائدة»(٥).

وقال أبو السعود: «﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [مَا]: مزيدةٌ للمبالغة؛ أي: فإيماناً قليلاً يؤمنون»(٦).

ومواضع زيادة [مَا] في القرآن كثيرة، أذكر على سبيل الإشارة:

- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف].
- وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف].
- وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون].
- وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل].
- وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ١/ ٣٢٤، تفسير السعدي ٥٨.
(٢) البحر المحيط ٣/ ١٠٤.
(٣) المراد: تقدم [قليلاً] وهو معمولُ ما في حَيِّز: [ما]، على العامل وهو الفعل: يؤمنون، وهذا لا يجوز عند أهل اللغة. ينظر: البحر المحيط ١/ ٤٧١، دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٣/ ١١٥.
(٤) هو: مكي بن أبي طالب أبو محمد القيسي القيرواني المالكي، من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية، ومن مصنفاته: «مشكل إعراب القرآن»، «الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه»، مات سنة (٤٣٧هـ)، له ترجمة في: طبقات الداوودي ٢/ ٣٣١، شذرات الذهب ٣/ ٢٦٠.
(٥) الهداية إلى بلوغ النهاية ١/ ٣٤٤.
(٦) تفسير أبي السعود ١/ ١٢٨.

- وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [غافر].

- وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحاقَّة].

- وقوله تعالى: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقَّة].

ففي كل هذه المواضع وغيرها زيادة [مَا] لإرادة التوكيد، مع تقوية اللفظ وصلة الكلمات وتمام الفصاحة.

قال العكبري: «زيادة [مَا] تؤذن بإرادة شدة التوكيد»(١).

وقال ابن عاشور: «وشاعت زيادة مَا بعد اسم: قليل، وكثير، وبعد فعل: قل، كثر، طال»(٢).

ثانياً: عادة القرآن زيادة [مَا] للتأكيد كلما جاءت بعد [إِذَا]:

حسب استقراء المواضع التي جاءت فيها [مَا] بعد [إِذَا] تبيَّن أنها زائدة للتأكيد في جميع المواضع.

قال أبو حيان: «[مَا] بعد إذا زائدة للتأكيد»(٣).

ولنتأمل في المواضع، ومنها:

- قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ [البقرة: ٢٨٢].

المراد: إذا دعوا، ولكن لزيادة التأكيد جاءت ما.

قال البقاعي(٤): «﴿إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ دعاء جازماً بما أفهمته زيادة [مَا]»(٥).

وقال ابن عثيمين: «أي: لا يمتنع الشهداء إذا ما دعوا لتحمل الشهادة،

---

(١) التبيان في إعراب القرآن ١/ ٥٤، وينظر: البرهان في علوم القرآن ٢/ ٤١٦، التحرير والتنوير ٢٦/ ٣٤٩.

(٢) التحرير والتنوير ٢٧/ ١٦.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٤٧١.

(٤) هو: إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط بن علي بن أبي بكر البقاعي، أبو الحسن برهان الدين، مؤرخ أديب، أصله من البقاع في سورية، من مصنفاته: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»، و«القول المفيد في أصول التجويد»، و«عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران»، مات سنة (٨٨٥هـ)، له ترجمة في: شذرات الذهب ٧/ ٣٣٩، البدر الطالع ١/ ١٩.

(٥) نظم الدرر ١/ ٥٤٧.

أو أدائها؛ وما هذه زائدة لوقوعها بعد إذا؛ وفيها بيت مشهور يقول فيه:

يا طالباً خذ فائدة [مَا] بعد [إِذَا] زائدة

ولكن يجب أن نعلم أنه ليس في القرآن شيء زائد بمعنى أنه لا معنى له؛ بل زائد إعراباً فقط؛ أما في المعنى فليس بزائد»[1].

ـ وكذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [المائدة: ٩٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة].

عند التأمل في هذه الآية التي زيدت فيها [مَا] للتأكيد، والآية التي قبلها بدون زيادة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [التوبة]، يدل على معنى دقيق للتفريق بينهما.

قال ابن عاشور: «﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة]، عطف على قوله: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ [التوبة]، وهذا عود إلى بيان أحوال المنافقين وما بينهما اعتراضات.

وهذه الآية زيدت فيها [مَا] عقب [إِذَا] وزيادتها للتأكيد؛ أي: لتأكيد معنى [إِذَا] وهو الشرط؛ لأن هذا الخبر لغرابته كان خليقاً بالتأكيد، ولأن المنافقين ينكرون صدوره منهم بخلاف الآية السابقة؛ لأن مضمونها حكاية استيذانهم وهم لا ينكرونه»[2].

---

(١) تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين ٣/ ٤٠٧.
(٢) التحرير والتنوير١١/ ٦٤.

- وكذلك زيدت [مَا] في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ۝١٢٧﴾ [التوبة].

- وقوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ۝٥١﴾ [يونس].

- وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ۝٤٥﴾ [الأنبياء].

- وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢٠﴾ [فصِّلت].

- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ۝٣٧﴾ [الشورى].

- وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥﴾ [الفجر].

- وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾ [الفجر].

ثالثاً: عادة القرآن زيادة [الباء] للتأكيد في فاعل [كَفَى]:

عند تأمل [الباء] في فاعل [كَفَى] يتبين أنها زائدة للتأكيد في جميع مواضعها في القرآن(١).

قال أبو حيان: «وزيادتها في فاعل [كَفَى] وفاعل [يكفي] مُطَّردة»(٢).

قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ۝٦﴾ [النساء]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ۝٤٥﴾ [النساء]، ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ۝٥٠﴾ [النساء]، ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥﴾ [النساء]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ۝٧٠﴾ [النساء]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ۝٧٩﴾ [النساء]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ۝٨١﴾ [النساء]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝١٣٢﴾ [النساء]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝١٦٦﴾ [النساء]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ۝١٧١﴾ [النساء]، ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي

---

(١) ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٨/٣٦٧، ٣٧٠.
(٢) البحر المحيط ٣/٦٥٩.

وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد: ٤٣]، ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء]، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء]، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء]، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الإسراء]، ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء]، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان]، ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان]، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾ [الأحزاب]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب]، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت]، ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ [الأحقاف]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح].

ومما يدل على زيادة [الباء] في [كَفَى] ورودها دون [الباء] في فاعلها، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب].

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة].

وبعد استقراء فاعل [كَفَى] في القرآن تبين لي:

أن عادة القرآن جر فاعل [كَفَى] بـ[الباء] الزائدة للتأكيد عدا الآية السابقة: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ﴾ [الأحزاب: ٢٥] فقط.

قال ابن هشام: «ولا تزاد [الباء] في فاعل [كَفَى] التي بمعنى: أجزأ وأغنى، ولا التي بمعنى: وقى»(١).

وفي الآية السابقة [كَفَى] بمعنى: وَقَى، والله أعلم.

رابعاً: عادة القرآن زيادة [أنْ] للتأكيد كلما جاءت بعد [لَمَّا]:

كل ما جاء في القرآن [أنْ] بعد [لَمَّا] فهي زائدة للتأكيد.

(١) مغني اللبيب ١١٦، وينظر: الإتقان ١/ ٤٦٤.

- كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦].

- وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩].

- وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [العنكبوت: ٣٣].

فـ [أنْ] في هذه المواضع زائدة للتأكيد.

قال السمين[١]: «قوله: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ﴾ [العنكبوت: ٣٣] تقدم نظيرُها، إلا أنَّ هنا زيدت [أنْ] وهو مطردٌ تأكيداً»[٢].

وقد أشار بعض العلماء أن زيادة [أنْ] يفيد تحقيق الربط بين مضمون الجملتين اللتين بعد [لَمَّا].

قال الزمخشري: «﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ﴾ [أنْ] صلة أكدت وجود الفعلين مترتباً أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما كأنهما وجِدا في جزء واحد من الزمان، كأنه قيل: لما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث خِيفة عليهم من قومه»[٣].

وخلاصة ما وجدته من كلام المفسرين والنحويين: أن الحرف الزائد لا يخلو من معنى التأكيد.

قال ابن السرَّاج: «وحق المُلْغى عندي أن لا يكون عاملاً ولا معمولاً فيه حتى يُلغَى من الجميع، وأن يكون دخوله كخروجه لا يُحدِث معنى

---

(١) هو: أحمد بن يوسف بن عبد الدايم الحلبي، أبو العباس، شهاب الدين المعروف بالسمين، مفسر، عالم بالعربية والقراءات، شافعي، من أهل حلب، من مصنفاته: «الدر المصون في إعراب القرآن»، و«عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ في غريب القرآن»، و«شرح الشاطبية»، مات سنة (٧٥٦هـ)، له ترجمة في: غاية النهاية ١/ ١٥٢، الدرر الكامنة ١/ ٣٣٩.

(٢) الدر المصون ٩/ ١٩.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٥٣، وينظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ٢٤٤.

غير التأكيد»[١].

وكذلك قال ابن جني عن الحروف: «وأما زيادتها فلإرادة التوكيد بها»[٢].

بل ذكر بعض النحويين للحرف الزائد أكثر من فائدة التوكيد.

قال الرضي: «قيل: فائدة الحرف الزائد في كلام العرب: إما معنوية وإما لفظية، فالمعنوية تأكيد المعنى.. وأما الفائدة اللفظية فهي تزيين اللفظ، وكون زيادتها أفصح، أو كون الكلمة أو الكلام بسببها تهيأ لاستقامة وزن الشعر، أو لحسن السجع، أو غير ذلك من الفوائد اللفظية»[٣].

وقد تجتمع الفائدتان ـ لفظية ومعنوية ـ في حرف، وقد تنفرد إحداهما عن الأخرى[٤].

وقال الرضي أيضاً: «فإن قيل: فيجب ألا تكون زائدة إذا أفادت فائدة معنوية. قيل: إنما سُمِّيت زائدة لأنه لا يتغير بها أصل المعنى بل لا يزيد بسببها إلا تأكيد المعنى الثابت وتقويته، فكأنما لم تُفد شيئاً لمَّا لم تُغاير فائدتُها العارضة الفائدةَ الحاصلة قبلها... ولا يجوز خُلُوّها من الفوائد اللفظية والمعنوية معاً؛ وإلّا لعُدَّتْ عبثاً، ولا يجوز ذلك في كلام الفصحاء، ولا سيما في كلام الباري تعالى وأنبيائه»[٥].

وقال الزركشي: «سُئل بعض العلماء عن التوكيد بالحرف؟ وما معناه؟ إذ إسقاط كل الحرف لا يُخِل بالمعنى، فقال: هذا يعرفه أهل الطباع؛ إذ يجدون أنفسهم بوجود الحرف على معنى زائد لا يجدونه بإسقاط الحرف»[٦].

والذي يظهر بعد هذا:

أن زيادة الحروف من عادة العرب في شعرهم ونثرهم، ومن أهم الحروف التي قيل بزيادتها: ما، أنْ، الباء، لا النافية، مِنْ[٧].

---

(١) الأصول في النحو ٢/ ٢٥٩.
(٢) الخصائص ٢/ ٢٨٤.
(٣) شرح الكافية للرضي ٤/ ٤٣٢، ٤٣٣.
(٤) ينظر: إعراب القرآن وبيانه ٨/ ٣٧٩.
(٥) شرح الكافية للرضي ٤/ ٤٣٢، ٤٣٣.
(٦) البرهان ٣/ ٧٤.
(٧) ينظر: الكتاب ٤/ ٢٢١، ٢٢٢، الجنى الداني ١/ ٦، ٥٠، ٥٣، ٥٦، مغني اللبيب ١٤٤، ٣٢٧، دراسات لأسلوب القرآن ١/ ٤٢٠، ٢/ ٤٧١، ٣/ ٣٤٧، ٤١٥.

وتَرْكُ الزيادةِ في مَواضِعِها نَقْص في البلاغة والفصاحة، وَوُجودُ الزيادة للتأكيد في القرآن نوع من الإحاطة بلسان العرب، ونوع مْن الإعجاز البياني وجمال النظم القرآني، وللزيادة في القرآن فائدتان: لفظية ومعنوية.

وإن كان مصطلح الزيادة ليس لفظاً متفقاً عليه؛ فليس المراد بالزيادة ظاهرها بل المراد: أنه لا يتوقف عليها المعنى الإعرابي، فلا ينبغي التوسع فيها، ولا يعني أن يقابلها النقصان فالقرآن منزه عن ذلك، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

تقوية المعنى ببعض الحروف

صرَّح عامة علماء اللغة أن زيادة مبنى الكلمة يدل على زيادة المعنى[(١)]، وكل حرف في كتاب الله موضوع بحساب وميزان دقيق، ليؤدى المعنى الذي أراده الله منه، وقد سبق الكلام عن تأكيد المعنى القرآني بحروف المعاني، وسيكون هنا عن تقويته بحروف المباني.

والمراد بحروف المباني حروف الهجاء التي ليس لها معنى في نفسها، وإنما تبنى منها الكلمات التي تدل على المعاني.

وعادة القرآن تقوية المعاني بزيادة حرف على أصل بِنْيَة الكلمة، وقد أطلق العلماء على هذه العادة عبارات متقاربة كقولهم: زيادة اللفظ لزيادة المعنى[(٢)]، وقولهم: قوّة اللفظ لقوّة المعنى[(٣)].

قال ابن جني: «فإذا كانت الألفاظ أدلة المعاني، ثم زيد فيها شيء أوجبت القسمة له زيادة المعنى به»[(٤)].

وقال الزركشي: «الألفاظ أدلة على المعاني؛ فإذا زيدت في الألفاظ

---

(١) ينظر: الخصائص٣/ ٢٦٤، المثل السائر ٢/ ٥٧، ضياء السالك ٣/ ٣٥٥، قواعد التفسير ١/ ٣٥٦.

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى ١٦/ ٥٣٧.

(٣) ينظر: الطراز لأسرار البلاغة ١/ ٣٨٨. (٤) الخصائص ٣/ ٢٦٨.

وجب زيادة المعاني ضرورة»(١).

وعلى هذا فقد جاءت عادة القرآن بدلالة سياقه أن زيادة المبنى علامة على قوة المعنى، ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

❏ أولاً: زيادة الحرف:

عند النظر إلى قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود].

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ [المزمل].

وغيرها من الآيات الكثيرة، جاءت بلفظ: اصبر.

وفي مواضع أخرى زيدت الطاء كما في الآيات التالية:

ـ قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم].

فأصل اصطبر: اصبر، ولكن زيادة الطاء له أثر كبير في المعنى، كيف والطاء من أقوى الحروف، ولا أعرف كلمة فيها حرف الطاء إلا وتحس فيها بالقوة، نحو: بطش، وطبع، وقطع، طلع، خبط، وزيادة الطاء في الآية؛ لأن الصبر على العبادة يحتاج إلى جهد وقوة وشدة.

قال أبو السعود: «وتعدية الاصطبار باللام لتضمينه معنى الثبات للعبادة فيما تورد عليه من الشدائد والمشاق»(٢).

ـ **ومن الأمثلة قوله سبحانه:** ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه].

جاءت زيادة الطاء في الصبر على الصلاة بإقامتها، بحدودها وأركانها وآدابها وخشوعها، فإنَّ ذلك شاقٌّ على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٤.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٧٤.

على ذلك، والصبر معها دائماً، فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما سواها من دينه أحفَظُ وأقوَم، وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع، والقيام بهذا الأمر يحتاج إلى صبر كبير لذا جاءت كلمة (اصطبر) للدلالة على الزيادة في الصبر، والله أعلم.

قال الطبري: «يقول: واصطبر على القيام بها، وأدائها بحدودها أنت»[(١)].

وقال السمرقندي: «﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾؛ يعني: اصبر على ما أصابك فيها من الشدة»[(٢)].

ـ ومن الأمثلة قوله جل وعلا: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾ [القمر].

قال الزركشي: «وكقوله تعالى: ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ فإنه أبلغ من الأمر بالصبر من اصبر»[(٣)].

وقال الكفوي[(٤)]: «﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ داوم»[(٥)].

وقال ابن عاشور: «والاصطبار: الصبر القوي، وهو كالارتقاب أيضاً أقوى دلالة من الصبر؛ أي: اصبر صبراً لا يعتريه ملل ولا ضجر؛ أي: اصبر على تكذيبهم ولا تيأس من النصر عليهم»[(٦)].

ـ ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: ٣٧]، فلم يقل: (يصرخون) إشارة لشدة الصراخ.

قال الزركشي: «وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: ٣٧] فإنه أبلغ

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤٠٥.
(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٤١٨.
(٣) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٤.
(٤) هو: أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء، من قضاة الأحناف، عاش وولي القضاء في (كَفَه) بتركيا، وبالقدس، وببغداد، من أشهر مصنفاته: «الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية»، وله كتب أخرى بالتركية، مات سنة (١٠٩٤هـ)، له ترجمة في: هدية العارفين ٢٢٩، الأعلام ٢/ ٣٨.
(٥) الكليات ١٨٦.
(٦) التحرير والتنوير ٢٧/ ٢٠٠.

من يتصارخون»[١]، والله أعلم.

ومن أمثلة زيادة الحرف لزيادة المعنى:

ـ قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف].

قال البغوي وابن الجوزي: «استطاع واسْطَاع بمعنى واحد»[٢].

معنى هذه الآية عند أهل التأويل كما قال الطبري: «﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف] يقول عز ذكره: فما اسطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا الردم الذي جعله ذو القرنين حاجزاً بينهم، وبين من دونهم من الناس، فيصيروا فوقه وينزلوا منه إلى الناس... ﴿وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف] يقول: ولم يستطيعوا أن ينقبوه من أسفله، وبنحو الذي قلنا في ذلك: قال أهل التأويل»[٣].

إذن فما السر في استعمال القرآن لها بالتاء وبدونها في آية واحدة؟.

الذي يظهر والله أعلم أن ذلك لأمور منها:

١ ـ تناسبُ اللفظ مع السياق فتَسَلُّق السَدِّ شيء لطيف يحتاج إلى لطفٍ وخفة فناسب حذف التاء، وأما النقب والخراب فأمْرُه ثقيل يحتاج إلى جُهد وقوة وآلات كثيرة؛ فناسب ذِكْرُ التاء ليكون ثِقَلُ الكلمةِ مناسبٌ لثِقَل الفعل، وخِفَّةُ الكلمةِ مناسب لخفة الفعل، والله أعلم.

٢ ـ بيان إعجاز القرآن في حروفه وألفاظه.

٣ ـ وعلى قول من قال إنهما بمعنى واحد فللزيادة أثر في التنويع بين اللفظين للمعنى الواحد بدون تكرار مع جمال الصوت والأداء، وهذا كثير في القرآن.

ـ وكذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٤.

(٢) تفسير البغوي ٥/ ١٩٧، زاد المسير ٤/ ٢٤٥.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ١١٧.

تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ [الكهف]، ثم قال بعدها: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ [الكهف].

فهل هناك فرق بين تستطع وتسطع في الآيتين؟

الجواب كما سبق والله أعلم، فلما لم يكن قد أخبر الخضر موسى عليه السلام بتفسير هذه الحوادث التي حدثت لهما كان الفعل [تَسْتَطِعْ] زائدَ المبنى ليدل على شِدَّة المعاناة التي كابَدَها موسى عليه السلام في عدم الصبر والاستطاعة؛ فلما أخبر الخضر موسى عليه السلام بالعلل وبيَّن له سبب أفعاله السابقة سَهُل الأمر على موسى فجاء الفعل [تَسْطِعْ] قليل المبنى ليَدُل على قلة المعنى وقلة المعاناة التي كابدها موسى؛ لأنه قد عَرَف السبب وخَفَّ عنده الألم.

وكذلك فإن المقامَ الأول مقامُ شرح وتوضيح، والمقامَ الآخر مقامُ مفارقة وتوديع، فناسب المقال المقام.

ومن جهةٍ أخرى: مراعاة معنى التنويع في الألفاظ واستعمالها في الأوجه الصحيحة لها ومراعاة الخفة في النطق لمناسبة السياق من أعظم ما يقف عنده المسْلِم مسَلِّماً لعظمة هذا القرآن وإعجازه بحروفه وكلماته ومعانيه.

قال النسفي: «﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ [الكهف] حذف التاء تخفيفاً»[(١)].

وفي زيادة هذا الحرف أو تركه بيان الدقة في علم القراءات، حيث لم يختلف القراء في قراءتها بهذه الصيغ، فكل حرف في موضعه للدلالة على معنى أراده الله جل في علاه[(٢)].

ومن الأمثلة كذلك لفظ [أَسْمِعْ] و[اسْتَمَعَ]:

عند تأمل الآيات التي فيها [أَسْمِعْ] و[اسْتَمَعَ] يظهر ـ والله أعلم ـ أن زيادة التاء في لفظ [اسْتَمَعَ] إشارةٌ إلى أهمية المُستَمَعِ إليه، وفيه معنى الزيادة على السماع بالإصغاء والانتباه، بينما لفظ [أَسْمِعْ] في سياق الآيات ـ مجرداً

(١) تفسير النسفي ٢/ ٢٥١.

(٢) ينظر: الحجة في القراءات السبع ٢٣٢.

من التاء ـ يدل على أن مجرد السماع كافٍ لتنفيذ المطلوب.

ـ تأمل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [الحج: ٧٣].

فالأمر في هذه الآيات فيه حث على السماع والفهم والإدراك لما يسمع كما يدل السياق.

ـ أما الآيات التي جاءت دون التاء فكقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة].

ـ وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء].

قال الشنقيطي: «وقوله: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]؛ لأن السمع الذي لا ينافي العصيان هو السمع بالآذان دون السمع بمعنى الإجابة»[١].

❏ ثانياً: تكرار الحرف لزيادة المعنى:

ـ قال تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾﴾ [الشعراء].

قال: كُبْكِبُوا، ولم يقل: كُبُّوا، والكبكبة تكرير الكب، فالتكرير في الحرف دل على التكرير في المعنى.

قال الطبري: «وأصل كُبْكِبُوا: كبِّبُوا، ولكن الكاف كرّرت»[٢].

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١/ ٤١.
(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٣٦٧.

وقال مكي: «وحقيقة معنى كُبْكِبُوا: تكرير الانكباب، كأنه إذا ألقي ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فيها نعوذ بالله منها»[١].

وقال ابن جزي[٢]: «أي: كَبَّهم الله في النار مرة بعد مرة»[٣].

وقال ابن عاشور: «ومعنى فَكُبْكِبُوا: كُبوا فيها كَبّاً بعد كَبّاً، فإنَّ كُبْكِبُوا مضاعف كبُّوا بالتكرير، وتكرير اللفظ مفيدٌ تكرير المعنى»[٤].

وهذا هو ما بيَّنه القرآن كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [الملك].

وفي اللفظ (كُبكِبوا) تحقير لهم كأنهم شيء كريه كُبَّ من إناء[٥].

ومن أمثلة تكرار الحرف لزيادة المعنى:

ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ [يوسف].

فحَصْحَصَ: أصله حصّ[٦]، وتكرار الحرف هنا لإفادة شدة الظهور والوضوح بعد الكتمان.

قال ابن سيده: «والحَصْحَصَة: بيان الحق بعد كِتْمَانه»[٧].

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية ٨/ ٥٣٢٤.

(٢) هو: محمد بن أحمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي، أبو القاسم الغرناطي، فقيه من العلماء بالأصول واللغة، من مصنفاته: «التسهيل لعلوم التنزيل»، و«القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية»، و«تقريب الوصول إلى علم الأصول»، و«الفوائد العامة في لحن العامة»، مات سنة (٧٤١هـ)، له ترجمة في: الدرر الكامنة ٣/ ٣٥٦، نفح الطيب ٣/ ٢٧٠.

(٣) تفسير ابن جزي ٢/ ٢٩٥.

(٤) التحرير والتنوير ١٩/ ١٥٢.

(٥) ينظر: الجدول في إعراب القرآن ١٩/ ٩٣، التحرير والتنوير ١٩/ ١٥٢.

(٦) ينظر: معجم مقاييس اللغة ٢/ ١٢.

(٧) المخصص٣/ ٤١١، وينظر: المحيط في اللغة ٢/ ٢٩٨، تفسير القرطبي ٩/ ٢٠٨.

وقال الماوردي[١]: «وأصله: مأخوذ من قولهم: حَصّ شعره إذا استأصل قطعه فظهرت مواضعه، ومنه الحِصَّة من الأرض إذا قُطِعَت منها؛ فمعنى: حصحص الحق؛ أي: انقطع عن الباطل بظهوره وبيانه، وفيه زيادة تضعيف دل عليها الاشتقاق»[٢].

- وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ [الحاقَّة].

الصَّرْصَرْ: الشديدة الصوت والبرودة، وتكرير الصاد والراء إشعار بتكرارها وشدتها.

قال ابن كثير: «﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [فصّلت: ١٦]، قال بعضهم: هي الشديدة الهبوب، وقيل: الباردة، وقيل: هي التي لها صوت، والحق أنها متصفة بجميع ذلك»[٣].

قال ابن عاشور: «والصَّرْصَرْ: الريح العاصفة التي يكون لها صرصرة؛ أي: دوي في هبوبها من شدة سرعة تنقلها، وتَضْعِيفُ عَينِه للمبالغة في شدتها بين أفراد نوعها كتضعيف كُبْكِب للمبالغة في كبَّ، وأصله صَرَّ؛ أي: صاح»[٤].

❏ ثالثاً: النقل من وزن إلى وزن أعلى منه لزيادة المعنى:

وهذا أعم مما سبق، فإذا كان اللفظ على وزن من الأوزان، ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه، فلا بد أن يتضمن معنًى أكثر مما تضمنه أولاً؛ لأن الألفاظ دالة على المعاني، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت الزيادة زيادة في المعاني، وفي هذا النوع إشارة للزيادة والمبالغة[٥].

---

(١) هو: علي بن محمد بن حبيب أبو الحسن الماوردي البصري الشافعي، أقضى قضاة عصره، له من المؤلفات: النكت والعيون في التفسير، والأحكام السلطانية، والحاوي الكبير في فقه الشافعية، مات سنة (٤٥٠هـ)، له ترجمة في: طبقات الشافعية ٣/ ٣٠٣، طبقات السيوطي ٢٥، شذرات الذهب ٣/ ٢٨٥.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٧/ ١٦٩. وينظر: إعراب القرآن وبيانه ١٠/ ١٨٩.

(٤) التحرير والتنوير ٢٤/ ٢٥٩.

(٥) ينظر: إعراب القرآن وبيانه ٢/ ١٦١.

قال الزركشي: «واعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أعلى منه فلا بد أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً»(١).

ومن أمثلة زيادة الوزن لزيادة المعنى:

ـ قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، عند تأمل اللفظتين كسبت واكتسبت، ترى زيادة حروفٍ في الثاني، والمراد: كسبت من الخير، واكتسبت من الشر؛ بدليل قوله في الموضع الأول: [لَهَا]، وفي الموضع الثاني: [عَلَيْهَا](٢)، وذلك ـ والله أعلم ـ لمَّا كانت السيئة ثقيلةً وفيها تكلف زِيدَ في لفظ فعلها(٣)، ومن لطف الله ورحمته أن الثواب على أقل قليلٍ من الطاعة؛ فلهذا أُتِيَ بالثلاثي المجرد.

قال ابن جني: «قول الله ﷻ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ تأويل ذلك: أن كسب الحسنة بالإضافة إلى اكتساب السيئة أمر يسير ومستصغَر؛ وذلك لقوله عزَّ اسمه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] أفلا ترى أن الحسنة تَصغُر بإضافتها إلى جزائها صِغر الواحد إلى العشرة، ولمَّا كان جزاء السيئة إنما هو بمثلها لم تحتقر إلى الجزاء عنها، فعُلِم بذلك قوّة فعل السيِّئة على فعل الحسنة ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم] فإذا كان فعلُ السيئة ذاهباً بصاحبه إلى هذه الغاية البعيدة المترامية، عُظِّم قدرها وفُخِّم لفظ العبارة عنها فقيل: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ فزيد في لفظ فِعل السيئة وانتُقِص من لفظ فعل الحسنة لما ذكرنا»(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر]، وقوله تعالى: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر].

بين قَدَرَ واقْتَدَرَ فرق واضح؛ فمعنى اقْتَدَرَ أقوى من معنى قَدَرَ.

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٤.
(٢) ينظر: زاد المسير ١/ ٢٨٣.
(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٤.
(٤) الخصائص٣/ ٢٦٥.

قال ابن الأثير(١): «كقَادِرٍ ومُقْتَدِر: فإن قادراً اسم فاعل قَدَرَ وهو ثلاثي، ومقتدراً اسم فاعل اقْتَدَرَ وهو رباعي؛ فلذلك كان معنى القدرة في اقْتَدَرَ أشد من معنى القدرة في قَدَرَ وهذا لا نزاع فيه»(٢).

وقال الزركشي: «مقتدر أبلغ من قادر لدلالته على أنه قادر متمكن القدرة لا يرد شيء عن اقتضاء قدرته، ويسمى هذا: قوة اللفظ لقوة المعنى»(٣).

- ومن الأمثلة كذلك قوله تعالى: ﴿فَادْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النساء: ٦].

في قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ استعفّ أبلغ من عف، وكأن المراد - والله أعلم - الحثُّ على زيادة العفة(٤).

ومن هنا نستنبط أن كل زيادة في صيغِ المبالغة فهي داخِلَة في هذه العادة؛ لأنها نَقْلٌ من وزنٍ إلى وزنٍ أعلى منه.

والأمثلة في القرآن كثيرة، ومنها:

- قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾ [نوح].

فإن [غَفَّارًا] أبلغ في المغفرة من [غَافِرٍ] لأن [فعَّالاً] يدل على كثرة صدور الفعل، و[فَاعِلٌ] لا يدل على الكثرة.

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [البقرة].

فالتواب هو الذي تتكرر منه التوبة مرة بعد مرة وهو أبلغ من [التائب] من تابَ يتوبُ فهو تائب؛ أي: صدرت منه التوبة مرة واحدة، فإذا قيل: [تَوَّابٌ] كان صدور التوبة منه مراراً كثيرة.

---

(١) هو: نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد أبو الفتح الشيباني الموصلي، ضياء الدين ابن الأثير، من مصنفاته: «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»، و«الوشي»، و«كتاب الأنوار في نعت الفواكه والثمار»، مات سنة (٦٣٧هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٢/ ١٦١، العبر ٥/ ١٥٦، سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٧٣.

(٢) المثل السائر ٢/ ٥٧.

(٣) البرهان ٣/ ٣٤.

(٤) ينظر: الجدول في إعراب القرآن ٤/ ٤٤٢.

ـ وقوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة].

استعمل هنا صيغتا المبالغة [سَمَّاعُونَ]، و[أَكَّالُونَ] لبيان الزيادة في المعنى، والزيادةِ في التقبيح والذم، فلم تُستَعمل في القرآن إلا في وصف الإنسان، وفي مقام الذمّ فقط، وهذا المعنى لا يؤديه صيغة: سامع وسميع.

ونستنبط كذلك أن زيادة الحرف بالتضعيف تدل على زيادة المعنى، ومن أمثلة المضعَّف في القرآن الذي يدخل في هذه العادة ما يأتي:

ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة].

إذا تأملنا الأفعال المضعفة: [يقتَّلوا، يصلَّبوا، تقطَّع] وجدنا فيها من الزيادة والمبالغة في المعنى ما لا يوجد في الأفعال المخففة، والله أعلم.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد].

في قوله تعالى: [فَقَطَّعَ] التضعيف في هذا الفعل يدل على شدة التقطيع والتمزيق وهو ما لا يؤديه الفعل بدون تضعيف.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾﴾ [إبراهيم].

ـ وقال سبحانه: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [صَ].

يدل التضعيف في قوله: [مُقْرِنِينَ] على متانةِ هذه الأصْفَاد وإحْكَام التقييد والتنكيل، وذلك لأن الفعل زاد في المبنى فزاد في المعنى لأن [قَرَّن] أبلغ وأشد في الإحكام من [قَرَنَ].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ﴾ [يوسف: ٢٣].

عند تأمل الفعل (غَلَّقَت) معناه أحكمت غلق الأبواب وبالغت في إحكام

غلقه؛ لأن (غَلَّقَ) محول عن غَلَقَ فلما زيد في مبنى الكلمة زيد في معناها؛ لأن الألفاظ أدلة على المعانى وأمثلة للإبانة عنها.

وعليه:

فزيادة المبنى لا بد أن يكون لها أثر في المعنى إما بتقويته أو بتغيير معناه.

وليس هذا باطراد؛ فالسياق له أثر في تحديد المراد، وهو واضح لمن تأمله في كتاب الله تعالى.

ولذلك فتَنْزيل هذه العادة بالوصف أحق منها بالاسم؛ لأن الوصف مشابه للفعل، وهي في الفعل أقعد منها في الاسم.

وعلى هذا فلا يدخل في هذه العادة مثلاً: زيادة المَبْنَى في التصغير؛ لأنها تَدُل على النقص في المصغَّر، وكذا الأسماء التي لا معنى للفعل فيها، فإنها إذا زيدت تغيَّر معناها؛ لأن المراد منها منحصر في تعيين المسمى، والله أعلم.

قال ابن الأثير: «والزيادة في الألفاظ لا توجب زيادة في المعاني إلا إذا تضمنت معنى الفعلية لأن الأسماء التي لا معنى للفعل فيها إذا زيدت استحال معناها»(١).

كما أنه لا بد أن تُقَيَّد دلالةُ التضعيف على زيادة المعنى بما إذا نقل المضعَّف من صيغة إلى صيغة أعلى منها في الوزن؛ كنقل الثلاثي إلى الرباعي، إما إذا كان التضعيف هو أصل الكلمة فلا يدخل فيما نحن بصَدَدِه.

ولذا فلا يدخل في هذه العادة قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء]، فلم يُرَد به التكثير، بل المراد: الخطابُ المطلق؛ لأن هذه اللفظة [كَلَّمَ] رباعية وليس لها ثلاثي لتنقل منه، ولو كانت بمعنى جرَّح لكانت للمبالغة؛ لأن لها ثلاثياً وهو كلَم مخففاً؛ أي: جرَح.

---

(١) المثل السائر ٢/ ٥٧.

ولا يدخل أيضاً قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل]، فرتّل لا ثلاثي لها تنقل منه إلى الرباعي، بل هي رباعية موضوعة لصفة معينة من القراءة[1]، والله تعالى أعلم.

المطلب الثالث

حذف بعض الحروف

أسلوب القرآن لا يماثله أسلوب، ومن تَمرَّس في أساليب اللغة وطرائقِها في التعبير يجد للقرآن لذّة وتميزاً وأسراراً في ذكره وحذفه، تفْتَح الآفاق للدراسة والتأمل، ولا بد أن نعلم أن الحذف في القرآن لا ينسب إلى القرآن ذاته، ولكن إلى تركيب اللغة، وهو نوع من اللغة والبلاغة، ويزيد جمالاً أنه في كتاب الله.

وعادة القرآن الكريم حذف بعض الحروف التي تذكر على الأصل في اللغة.

وهذا الذكر والحذف لحكمة اقتضاها سياق القرآن قد نعلمها أو جزءاً منها، وكثيراً ما تغيب عنا.

ومن أمثلة ذلك:

☐ أولاً: عادة القرآن إسقاط حرف النداء [يا] في آيات دعاء العباد لربهم:

والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة].

- وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة].

- وقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران].

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٦، إعراب القرآن وبيانه ٧/ ١٢.

ـ وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [المائدة].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾ [فاطر: ٣٧].

ـ وقوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح]، وغيرها من الآيات.

ويتضح هذا أكثر عند تأمل نداء نوح لابنه في قوله سبحانه: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢]، جاء هنا بحرف النداء ولم يأت به في ندائه لربه حيث قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥]، وهذا هو المناسب لقرب الله تعالى من عباده، وحذف الأداة أدق تعبيرٍ عن هذا القرب.

وقد أشار الإمام مكي بن أبي طالب إلى هذه العادة وعلل بأن الحذف تعظيم لله، فقال: «ونداء الرب قد كَثُر حذف [يا] منه في القرآن، وعلة ذلك أن في حذف [يا] من نداء الرب تعالى معنى التعظيم له والتنزيه وذلك أن النداء فيه طَرَف من معنى الأمر»(١).

ومثله ذكر السمين الحلبي(٢)، والزركشي(٣).

وليس في القرآن نداءٌ لله تعالى بحرف النداء [يا] إلا في موضعين؛ ولا تنتقض هذه العادة في القرآن لأنهما جاءا على سبيل الشكاية لا لمعنى الطلب.

وهما: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان].

وقوله جل وعلا: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الزُخرف].

وهذا مما اختص به النبي ﷺ؛ لبيان علو شأنه، وشأن ما يُشتكى منه،

---

(١) مشكل إعراب القرآن ١/ ٢٨٥.
(٢) الدر المصون ٦/ ٣٣٦.
(٣) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٢١٣.

ومن رُفِعَت إليه الشكوى، وفيهما معنى نداء المستغيث من أجل رسالته، لا من أجل نفسه.

فذكرها في نداء الرب سبحانه: إشارة إلى شدة حاجة المنادِي لما يدعو به، والتعبير عن استغاثته وتلهفه وتألمه ونحو ذلك من المعاني، وهذا هو الظاهر في الموضعين الذين ذُكِرت فيهما أداة النداء للرب جل وعلا.

ففي الآية الأولى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان].

ذَكَر الرسول ﷺ حرفَ النداء لربه وهو أقرب إليه من حبل الوريد؛ ليَمُدَّ صوته بأداة النداء حُزْناً على قومه، وحِرْصاً منه عليهم، وحِكَايةً لحالهم، وليس فيه طلب من ربه.

وفي الآية الثانية: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ [الزُّخرف].

لمَّا ظَهَر عنادُ القوم، وبُعدِهم عن الإيمان بالله، عبَّر بأداة النداء لبيان حُزنه من أجلهم، مع حِرصِه عليهم ورَغْبَتِه في إيمانهم، فهو يَحْكِي ويشكُو حالهم إلى خالقهم، وليس في الآية طلَبٌ من ربه، ليدعو دون أداةٍ كما هي عادة القرآن، والله سميع قريب.

إذن حذف حرف النداء إشارة إلى قرب الله من خلقه، قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ [المجادلة: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ [ق: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وحذف الأداة أدق تعبيرٍ عن هذا المعنى، وفيه تنبيه على استشعار القرب عند قراءة ما حُذِفَت فيه أداة النداء، وعند دعاء الله سبحانه، وهذا سبب لتدبر كلام الله تعالى.

قال الشاطبي: «فإذا أتي بالنداء من العباد إلى الله تعالى؛ جاء من غير حرف فلا تجد فيه نداء الرب تعالى بحرف نداء ثابت؛ بناء على أن حرف النداء للتنبيه في الأصل، والله منزه عن التنبيه»[١].

(١) الموافقات ٢/١٦٣.

وفي الحذف أيضاً تعظيم لله جل وعلا وتنزيه له من أي نقص ﷻ؛ لأن في النداء طَرَفٌ مِن معنى الأمْر[١].

وإذا ذُكِرت أداة النداء من العباد لربهم فهو حكاية للحال، ومدُّ الصوتِ بـ [يا] إشارة للألم والاستغاثة، ونحو ذلك من المعاني، والله تعالى أعلم.

◻ ثانياً: عادة القرآن حذف آخر حرف في الآية مراعاة للفاصلة، ولأسرار أخرى:

مثال ذلك:

- قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق]، وفي الآيات الأخرى علقة، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨﴾ [القيامة]، ففي حذف التاء مراعاة للفاصلة، إضافةً إلى دلالتها على الجمع لمناسبة ما قبلها.

قال القاسمي: «وإنما قال: ﴿عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق]، دون علقة كما في الآية الأخرى، لرعاية الفواصل، ولأن ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾، مراد به الجنس فهو في معنى الجمع؛ فلذا جمع ما خلق منه ليطابقه»[٢].

- وقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضُحى].

قال سبحانه: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ ولم يَقُل [قلاك] مراعاة للفاصلة[٣]، مع كمال المعنى حيث إن المنْفِيَّ في الآية أمران: نَفَى التوديع وهو ما يكون بين الأحباب والأصحاب، ونَفَى القِلَى وهو ما يكون بين المتباغضين[٤]، ففي ذكر ضمير المخاطب في التوديع تكريم لرسول الله ﷺ، بخلاف القِلَى فالتكريم في حذف الضمير وعَدَمِ كَوْن الخطاب مباشرةً للرسول ﷺ؛ فأُكْرِم ﷺ بالذكر وبالحذف.

---

(١) ينظر: مشكل إعراب القرآن ١/ ٢٨٥، البرهان ٣/ ٢١٣.

(٢) تفسير القاسمي ٩/ ٥٠٨.

(٣) ينظر: البرهان ٣/ ١٦٧، الإتقان ٣/ ١٩٢.

(٤) ينظر: العين ٢/ ٢٢٣، الزاهر للأزهري ١٨٥، لسان العرب ٨/ ٣٨٠، تاج العروس ٣٩/ ٣٤٣.

ـ ومثله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضُّحى].

المعنى: فآواك وهداك.

ولكن حُذِف الضمير لأمور:

١ ـ مراعاةً للفاصلة[١].

٢ ـ ولكمال دلالة الآية على المراد، فالمعنى ـ مع الحذف ـ أعمُّ، حيث أفاد أن الله آوَى النبي ﷺ وآوى به، وهدَى النبي ﷺ وهدَى به.

فشَمِل اللفظُ بحذف الضمير العمومَ في المعنى ـ وهذا أكثرُ دلالةً ـ مع جمال اللفظ والصوت في ختام الآيات.

قال ابن عاشور: «وحذفت مفاعيل: ﴿فَآوَىٰ ۝٦﴾، ﴿فَهَدَىٰ ۝٧﴾، ﴿فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ للعلم بها من ضمائر الخطاب قبلها، وحذفها إيجاز، وفيه رعاية على الفواصل»[٢].

ـ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ [طه].

حُذفَ آخرُ الآية؛ فالتقدير: وما هداهم، ولكن هذا التقدير يحتمل أن فرعون ما هدى قومه ولكن هدى غيرهم.

قال ابن عباس: «﴿وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾؛ أي: ما هدى نفسه بل أهلك نفسه وقومه»[٣].

فلإطلاق نفْيِ هِداية فرعون لنفسه ولقومه ولغيرهم جاء اختيار حذف الضمير مع مراعاة الفاصلة، فاكتمل جمال اللفظ وكمال المعنى. والله تعالى أعلم.

ومن ذلك: حذف ياء المتكلم مراعاة للفاصلة.

ـ مثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠﴾ [البقرة].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١﴾ [البقرة].

---

(١) ينظر: أضواء البيان ٤/ ٧٣.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٥٤.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ٢٢٩.

- وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون].

وهذا الحذف لرعاية الفواصل، والخفة في النطق، وكمال المعنى ووضوحه، فحذف الياء فيه معنى الدوام والاستمرار.

قال الفراء: «قال الله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الكفر، ﴿وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ الإسلام، ولم يقل ديني؛ لأن الآيات بالنون فحذفت الياء، كما قال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩﴾ [الشعراء]»[1].

وأمثلة هذا في القرآن كثيرة ومنها على سبيل الإشارة:

- قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ۝١٥٢﴾ [البقرة].

- وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠﴾ [يوسف].

- وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝٣٧﴾ [الأنبياء].

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۝٩٢﴾ [الأنبياء].

- وقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ۝١٦﴾ [الزُّمر].

- وقوله تعالى: ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ۝٢٥﴾ [يس].

- وقوله تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ [نوح].

- وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ۝٣٩﴾ [المرسلات].

قال ابن عاشور: «﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٢٦﴾ [فاطر]... وحُذفت ياء المتكلم تخفيفاً، ولرِعاية الفواصِل في الوقف؛ لأن الفواصل يعتبر فيها الوقف»[2].

وعند تأمل هذا الحذف لمراعاة أواخر الآيات نجد إثبات ياء المتكلم غالباً إذا كانت الكلمة في وسط الآية.

---

(١) معاني القرآن ٣/ ٢٩٧.

(٢) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٠٠.

ـ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة].

ـ وقوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ [يوسف]، وغيرها.

ومن ذلك: حذف ياء المنقوص مراعاة للفاصلة:

من المعلوم أن ياء المنقوص المعرف بأل لا تحذف في حالتي الرفع والجر، ولكن حُذِفت في القرآن مراعاة لجمال الصوت والفاصلة.

قال ابن مالك[1]:

وَحَذْفُ يَا الْمَنْقُوصِ ذِي التَّنْوِينِ ما لَمْ يُنْصَبَ اوْلَى مِنْ ثُبُوتٍ فَاعْلَمَا
وَغَيْرُ ذِيْ التَّنْوِينِ بِالْعَكْسِ وَفِي نَحْوِ مُر لُزُومُ رَدِّ الْيَا اقْتُفِي[2]

أبان ابن مالك أن المنقوص غير المنون ـ المعرف بأل ـ يكون الوقف عليه رفعاً وجراً بإثبات الياء نحو: شرُّ القلوبِ القلبُ القاسي.

ولا شك أنه يجوز الوقف عليه بحذفها، كما هي قراءة حفص مع الجمهور[3].

ومن أمثلة ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد].

ـ وقوله سبحانه: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر].

---

(١) هو: جمال الدين محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، المالكي حين كان بالمغرب، الشافعي حين انتقل إلى المشرق، أحد الأئمة في علوم العربية، له مصنفات كثيرة، منها: «الألفية في النحو» وهي الأكثر عناية عند العلماء من بين أراجيزه، ومن كتبه: «الأفعال وتصريفها»، و«العروض»، وله قصيدة دالية في القراءات، وغيرها، مات سنة (٦٧٢هـ)، له ترجمة في: غاية النهاية ٢/ ١٨٠، طبقات الشافعية ٥/ ٢٨.

(٢) الألفية بيت ٨٨٥ ـ ٨٨٦.

(٣) الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/ ٢٤.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾ [غافر].

وأما المنوَّن ـ وهو المجرد من أل والإضافة ـ فالجمهور مع حفص على حذف الياء[1].

ـ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ [الرعد].

ـ وقوله سبحانه: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد].

ـ وقوله جل وعلا: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد].

ـ وقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ﴾ [النحل: ٩٦].

قال مكي في المُنَوَّن: «والحذف والإثبات لغتان للعرب والحذف أكثر، وهو الاختيار؛ لأن عليه الأكثر»[2].

وأقول: هي عادة القرآن مراعاةً للفاصلة.

◻ ثالثاً: عادة القرآن حذف الحرف للتوسعِ في المعنى، واحتمالِ أكثر من حرف:

تركُ حرفٍ يحتمل مكانُه أكثرَ من حرفٍ يدل على سعة اللغة واحتمالِ جميع المعاني.

ـ كما قال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [النمل].

ـ وقال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [غافر].

يُحتمَل حذف حرف الباء، ويحتمل حذف حرف اللام؛ لأن الأمر عادة يأتي مع حرف الباء كما في قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ويأتي كذلك مع حرف اللام كما في قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر]، فلمَّا لم يُذكر أحدُهما دلَّ على عدَم التخصيصِ وإرادة جميع المعاني.

ـ ومثال آخر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

---

(١) ينظر: التيسير في القراءات السبع ١٠٨.

(٢) الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/٢١.

في الآية حرف جر محذوف، فيُحتَمل حذفُ حرف الجر اللام [لئلا يقولوا]، ويُحتمل حذف حرف الجر الباء [بأن لا يقولوا]، ويحتمل حذف حرف الجر على [على أن لا يقولوا]، ومع حذف الحرف تتسع الآية لجميع هذه المعاني، والله أعلم.

وبعد هذا؛ فالحذف والزيادة خلاف الأصل؛ فكُلَّمَا أمكن أن يكون الكلام مستقيماً دون تقديرِ محذوفٍ كان ذلك أولى، وكذلك إذا استقام الكلام دون جعل الكلمة زائدة، فهذا أصل متفق عليه[١].

قال الزركشي: «فصل في أن الحذف خلاف الأصل، وعليه ينبني فرعان:

أحدهما: إذا دار الأمر بين الحذف وعدمه كان الحمل على عدمه أولى؛ لأن الأصل عدم التغيير.

والثاني: إذا دار الأمر بين قلة المحذوف وكثرته كان الحمل على قلته أولى»[٢]. والله تعالى أعلم.

---

(١) ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٢/ ٤٧١.
(٢) البرهان ٣/ ١٠٤.

الفصل الثاني

عادات القرآن في الألفاظ

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: اختيار اللفظ المناسب.
- المبحث الثاني: استعمال بعض الألفاظ لمعنى خاص.
- المبحث الثالث: نيابة بعض الألفاظ عن بعض.

المبحث الأول

اختيار اللفظ المناسب

وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: اختيار اللفظ المناسب للسياق.
- المطلب الثاني: اختيار الألفاظ الجامعة.
- المطلب الثالث: مراعاة المناسبة لألفاظ الفواصل.

المطلب الأول

اختيار اللفظ المناسب للسياق

ليس التناسب في القرآن خاصاً بالحروف، بل هو شامل لألفاظه وهذا أمر معلوم مشهود، فعادة القرآن اختيار اللفظ المناسب حسب دلالة السياق، وأمثلة ذلك لا تحصى، فكل كلمة في القرآن تصلح مثالاً لهذه العادة.

قال ابن القيم: «وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين»[(١)].

ـ قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة].

ولم يقل [بضيائهم] مع ما فيه من بديع المطابَقَة؛ لأن ذهابَ النور ذهابٌ للضياء من باب أولى دون العكس؛ فصار أبلغ في النفي[(٢)].

قال الزرقاني[(٣)]: «ومن شواهد ما نذكر أننا نلاحظ في كثير من ألفاظ

(١) جلاء الأفهام ٢٣٣.
(٢) ينظر: كشف المعاني ٩٦.
(٣) هو: محمد عبد العظيم الزرقاني، من علماء الأزهر بمصر، تخرج من كلية أصول =

القرآن أنها اختيرت اختياراً يتجلى فيه وجه الإعجاز من هذا الاختيار، وذلك في الألفاظ التي نمر بها على القرون والأجيال منذ نزل القرآن إلى اليوم، فإذا بعض الأجيال يفهم منها ما يناسب تفكيره ويلائم ذوقه ويوائم معارفه، وإذا أجيال أخرى تفهم من هذه الألفاظ عينها غير ما فهمته تلك الأجيال، ولو استبدلت هذه الألفاظ بغيرها لم يصلح القرآن لخطاب الناس كافة، وكان ذلك قدحاً في أنه كتاب الدين العام الخالد، ودستور البشرية في كل عصر ومصر، فسبحان من أنزل هذا القرآن مشبعاً لحاجات الجميع، وافياً تجارب الجميع، ملائماً لأذواق الجميع، متفقاً ومعارف الجميع، مما يدل دلالة واضحة على أنه كلام الله وحده أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً»[(١)].

ومن تأمل كلام الله تعالى في السياقات المتشابهة يجد لفظاً في بعضها يختلف عن الآخر مع أنه يشاركه في المعنى، فلا يَشُك أنه أمرٌ مقصود في كتاب الله، واختيارٌ لكل لفظٍ في مكانه المناسب، ليدل على أعلى مقامات البلاغة ومراتب الإعجاز.

ومن الأمثلة على دقة اللفظ ومناسبته للسياق في القرآن ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصِّلت: ٣٩].

هل هناك فرق بين الأرض الهامدة والأرض الخاشعة؟.

لا شك في الفرق بينهما، والتأمل في سياق الآيات يزيد ذلك تأكيداً:

١ ـ فلفظ الآية الأولى: [هَامِدَةً] جاء قبلها بداية خلق الإنسان ومراحل نموه.

= الدين، وعمل بها مدرساً لعلوم القرآن والحديث، ومن أشهر كتبه: «مناهل العرفان في علوم القرآن»، مات بالقاهرة سنة (١٣٦٧هـ)، له ترجمة في: الأعلام ٦/ ٢١٠.

(١) مناهل العرفان ٢/ ٢٢٢.

ولفظ الآية الثانية: [خَاشِعَةً] قبلها تسبيح الملائكة والخضوع لله، وهي من مواضع سجود التلاوة، وهذا تناسب تام.

٢ ـ ومن حيث اللغة، **فالأرض الهامدة** التي لا يكون فيها حياة ولا نبت فهي يابسة مجدبة قاحلة(١)، ومن قدرة الله إذا نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت.

والأرض الخاشعة هي الأرض التي فيها حياةٌ ونبات، ولكن لتأخر المطر أوشك نباتها على الهلاك.

ولذا قال في **آية سورة الحج**: ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥﴾، إشارة إلى أن الأرض قاحلة جرداء لا نبات فيها، وبعد نزول الماء أنبتت من كل زوج بهيج.

بينما في **آية سورة فصلت**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٣٩﴾، لم يأت لفظ [أَنۢبَتَتۡ] إشارةً إلى أن النبات موجود، ولكنه بحاجة إلى الماء ليستأنف الحياة من جديد(٢).

٣ ـ كلتا الآيتين دليل على البعث بعد الموت، لكن ـ والله أعلم ـ **الأولى**: استدلال بأصل خلق النبات، وفي **الثانية**: استدلال بإعادة خلق النبات؛ فابتداء الخلق أعظم من إعادته، وكلاهما على الله يسير، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٧﴾ [الرُّوم]؛ لأن **الآية الأولى**: استدلال لمن شك في البعث بعد الموت، **وفي الثانية**: حكاية آيات الله في الكون، فكان اللفظ المناسب للسياق هو ما اختاره القرآن، ولله في ذلك حكمة.

ومن الأمثلة كذلك:

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا

---

(١) ينظر: تاج العروس ٩/٣٤٦، لسان العرب ٣/٤٣٦، قال في «المعجم الوسيط»: الهامد من الأجسام في الكيمياء الفاقد للنشاط الكيماوي، وأرض هامدة: يابسة مجدبة ٢/٩٩٣.

(٢) ينظر: لسان العرب ٨/٧١.

لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ [الكهف]، وقوله بعدها: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ [الكهف]، فما الفرق من الناحية البيانية بين قوله تعالى: ﴿إِمْرًا﴾ و﴿نُّكْرًا﴾؟

النُّكْر أشدُّ من الإمْر استعظاماً بالعين وإنكاراً بالقلب[1]، ولذلك جاء تنزيل كل لفظ في المكان المناسب له، فوصف الله تعالى على لسان موسى للرجل الصالح خرق السفينة بأنه شيء إمْر، ووصف قتل الغلام بأنه شيء نُكر، **وذلك لأمور منها:**

١ ـ أن خرقَ السفينة أقلُّ من قتل الغلام أثراً في النفس، وخرقُ السفينة لا يتلفها[2].

٢ ـ كما أنه هو الحدَثُ الأول لموسى، وقَتْلُ الغلام إتلاف وإزهاق، وقد جاء ثانياً، فناسب السياق التعبير بما هو أشد من الأول[3].

٣ ـ عناية القرآن بعدم التكرار المجرد عند اختيار الألفاظ، ومراعاة الصوت والأداء، والتغيير في الألفاظ لشَدِّ السامع وإثْرائه بالعبارات ذات الدلالات الأكثر تأثيراً في آيات القرآن، مع أنه لا يحسن مجيء أحد الوصفين في مكان الآخر، فكل لفظ في مكانه المناسب للسياق على الإطلاق، والله أعلم.

ومن الأمثلة كذلك:

قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه] استعمال لفظ [حَيَّةٌ]، وفي قوله سبحانه: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ [الشعراء]، وقوله سبحانه: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأعراف]، استعمال لفظ [ثُعْبَانٌ].

وعند التأمل يتبين دقة اللفظ في كل آية، فقد جاء في القرآن إلقاء موسى لعصاه ثلاث مرات:

---

(١) ينظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٣٥٦.
(٢) ينظر: ملاك التأويل ٢/ ٣٢٢، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤/ ٤٥٠.
(٣) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٦/ ٤٤٣٢.

الأولى: عند قدوم موسى إلى مصر إذ رأى ناراً، فجاء إليها، فناداه الله أن ألق عصاك.

الثانية: عند إقناع فرعون بصدق رسالته.

الثالثة: أمام السحرة وما سحروا به أعين الناس.

فالموقف الأول: لما ناداه الله وأمره أن يلقي عصاه فإذا هي حية تهتز وتسعى، فأمره الله أن لا يخاف، وأن هذه معجزة لإثبات صدق رسالتك إلى فرعون، أشار الله إلى هذا الموقف في غير ما آية كقوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النمل]، ولكن في آية واحدة منها استعمل لفظ [حَيَّةٌ] وهي قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه]، وهذا تفسير للآية السابقة.

قال ابن سيده: «والجانُّ: حَيَّة دَقِيق أمْلَسُ لا يَضُر أحداً، وربَّما كان في بيوت الناس لا يَقتُلونه»(١).

وقال البيضاوي(٢): «﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠]، حية خفيفة سريعة»(٣).

في هذا الموقف أمَرَ الله تعالى موسى أن يلقي عصاه وهو في الواد المقدس، فتحولت العصا حية صغيرة؛ فيرى موسى المعجزة ولا يخاف منها، وهذا في أول الأمر.

والموقف الثاني: إلقاء العصا أمام فرعون والمراد إخافته ليستيقن بصدق موسى عليه السلام، فجاء اختيار لفظ [ثُعْبَانٌ] حين تحولت العصا، والثعبان في اللغة: الحية الكبيرة، وهكذا جاء ذكر الثعبان في القرآن في هذا الموقف؛ أمام فرعون في موضعين كما في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾

---

(١) المخصص ٢/ ٣١٢.

(٢) هو: عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي، أبو سعيد الشيرازي الشافعي قاض ومفسر، من مصنفاته: «أنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير»، و«طوالع الأنوار في العقيدة»، مات سنة (٦٨٥هـ)، له ترجمة في: طبقات الداوودي ١/ ٢٤٨، البداية والنهاية ١٧/ ٦٠٦.

(٣) تفسير البيضاوي ٤/ ٢٦٠، وينظر: التسهيل ٢/ ٣٠٢، الكليات ٥٥٢.

[الأعراف]، وقوله سبحانه: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ [الشعراء].

قال النحاس: «الثعبان: الكبير من الحيات»(١).

وقال الكفوي: «ثُعْبَانٌ حية عظيمة الجسم»(٢).

ففي أول الأمر انقلبت العصا حية صغيرة فيها الخفة والاهتزاز والسرعة، ثم لما اطمأن موسى وأرسله الله إلى فرعون المتكبر انقلبت العصا ثعباناً مبيناً، فناسب كل لفظ موضعه.

قال مكي: «وقيل: إن الله قلب له العصا في أول مرة جاناً، وهو الحية الصغيرة لئلا يخاف ويجزع، فلما أنس بها وأخذها وأرسلها، أرسله إلى فرعون، فألقاها في الحال الأخرى بين يدي فرعون فصارت ثعباناً مبيناً، والله أعلم»(٣).

وأما الموقف الثالث: فكان إلقاء العصا أمام السحرة الذين سحروا أعين الناس لم يذكر تحولها إلى ثعبان أو جانّ، بل قال سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأعراف].

وعند التأمل في دقة الألفاظ: نَجِد أن السحرة أوهَمُوا الناس بسحرهم أن الحبال تتحرك وتسعى، قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه]، فلن يؤثر في الناس تخويفهم بالجان، ولا بالثعبان، بل المراد هنا إقناع الناس بأن حبال السحرة تمثل الباطل، وأن عصا موسى معها الحق، ولذا قال تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا سَحَرُوٓا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأعراف] الآيات.

فكلمة [جَآنٌّ] وهي الحية الصغيرة، جاءت في القرآن مرتين فقط وكلاهما حين أمر الله موسى عليه السلام أن يلقي العصا في الوادي المقدس: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ

---

(١) معاني القرآن ٥/ ٧٥.
(٢) الكليات ٥٠٣، وينظر: البحر المحيط ٦/ ١٧٢، لسان العرب ١/ ٢٣٦.
(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية ٨/ ٥٣٧٣.

حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠﴾ [طه]، فالكلمة مناسبة للموقف، وكلمة ثعبان جاءت في القرآن مرتين فقط وكلاهما حين ألقى موسى عليه السلام العصا أمام فرعون، وهي الكلمة المناسبة للموقف؛ لأن الثعبان أكبر من الجآنّ وأكثر تخويفاً لفرعون، وهنا يقف المسلم عند هذه الدقة المتناهية في كلمات القرآن معظماً لكلام الله، مسروراً مستبشراً به.

قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف ذُكِرت بألفاظ مختلفة: بالحية، والجآنّ، والثعبان؟ قلت: أمّا الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير، وأمّا الثعبان والجانّ فبينهما تناف: لأنّ الثعبان العظيم من الحيات، والجان الدقيق»(١)، والله تعالى أعلم.

ومن الأمثلة كذلك:

اختيار لفظ [الرب] في نداء العباد لربِّهم ودعائهم إياه.

- كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

- وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

- وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

- وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ [ص: ٣٥].

- وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٦].

وغيرها كثير؛ وفي هذا تنبيهٌ وتعليمٌ للعبد أن يختار في دعائه ما يناسب مقتضى الحال، فمن معاني الرب القيام بما يصلح المربوب.

قال ابن فارس(٢): «الرب: المالك، والخالق، والصاحب،

---

(١) الكشاف ٣/ ٦٠.

(٢) هو: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين: أحد أئمة اللغة والأدب، من أشهر مصنفاته: «معجم مقاييس اللغة»، و«الصاحبي في فقه اللغة»، و«جامع التأويل في تفسير القرآن»، و«ذم الخطأ في الشعر»، مات سنة (٣٩٥هـ)، له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٠٣، شذرات الذهب ٣/ ١٣٢.

والمصلح»[١].

وعرَّفه الفيروزآبادي[٢] بقوله: «رب كل شيء: مالكه ومستحقه أو صاحبه»[٣].

وقد جاءت كلمة [الربّ] في القرآن الكريم ومعاجم اللغة في موارد متعددة، ولكنها جميعاً ترجع إلى معنى واحد أصيل، وهو: من بيده أمر التدبير والتصرف[٤].

قال ابن تيمية: «والرَّبُّ: هو المربي الخالق الرازق الناصر الهادي.

وهذا الاسم أحق باسم الاستعانة والمسألة؛ ولهذا يقال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [نوح: ٢٨]، ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف]، ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٦]، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧]، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فعامة المسألة والاستعانة المشروعة باسم الرب»[٥].

ولكن في موضع واحد يأتي لفظ الجلالة [اللَّهُ] كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال].

فلم يأت هنا بلفظ الرب؛ وهذا مما يزيد في عظمة هذا القرآن؛ لأمور:

١ ـ أن النداء من قوم مشركين، لم يتأدبوا بآداب الإسلام.

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٢/ ٣٨١.

(٢) هو: محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر، أبو طاهر، مجد الدين الشيرازي الفيروزآبادي: كان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير، من أشهر مصنفاته: «القاموس المحيط»، و«بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز»، و«المغانم المطابة في معالم طابة»، مات سنة (٨١٧هـ)، له ترجمة في: البدر الطالع ٢/ ٢٨٠، طبقات الأدنه وي ٣١٢.

(٣) القاموس المحيط ١١١.

(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة ٢/ ٣٨٢.

(٥) مجموع الفتاوى ١٤/ ١٣.

٢ ـ ولا مناسبة بين لفظ الرب وبين ما دَعَوا به من العذاب.

فجاء النداء باللفظ العام وهو الدعاء بلفظ الألوهية، فللّه الحكمة العالية البالغة(١).

والأمثلة على هذه العادة كثيرة ومطردة، وكل لفظ في القرآن يصلح أن يكون مثالاً لهذه العادة، ومعاني ألفاظ القرآن متناسقة مع السياق الذي وردت فيه، وتلتقي مجتمعة على تقرير المعنى العام لألفاظ القرآن، فالسياق الدقيق هو الذي يُقَدِّر اللفظ المناسب(٢).

المطلب الثاني

اختيار الألفاظ الجامعة

تميّز القرآن بعادة التعبير عن معانٍ كبيرةٍ في ألفاظٍ جامعة لا يستطيع البشر التعبير بمثلِها لتحقيق المعنى المراد نفسه.

فاختار القرآنُ الألفاظَ السهلةَ الجامعةَ بين الدقة في تحديد المراد، والشمول في الدلالة على المعاني.

وهذا مما اختص به كتاب الله تعالى، فكل من حافظ على اختصار اللفظ لم يستطع التعبير عن مراده دون حيف في المعنى، ومن حافظ على شمول المعنى وتحليله ـ وأنَّى لأحد أن يأتي بمثل معاني القرآن في كمالها ـ فلا بد له من كثرة الألفاظ ليُكمِل مراده فيقع في الحشو والزيادة والإملال مما يفرِّق المعنى ويُنسِي أوله آخره.

فهذا كتاب الله قد جمع الأمرين، فأوصَل المعاني الكبيرة بألفاظ قليلة.

---

(١) ينظر: الموافقات ٢/ ١٦٤، فلفظ الألوهية صالح لكل دعاء، ومناسب لكل معنى.

(٢) وللمزيد من التأمل في دقة استعمال الألفاظ في القرآن: فليُبحَث في القرآن لفظ: (ولد، وغلام)، ولفظ: (زوج، وامرأة)، ولفظ: (سلك، وجعل)، ولفظ: (ينظروا، ويروا)، ولفظ: (قومه، وملائه)، وغيرها.

وألفاظُ القرآن كلُّها دقيقة محكمة، وأسلوبه مطابق لمقتضى الحال في خطابه للعلماء والعامة.

فالقرآن وحده هو الذي يراه البلغاءُ أكملَ تعبير وألطفَ أسلوب، ويراه العامةُ أحسنَ كلام وأيسرَه فهماً وإدراكاً، فهو خطابٌ للخاصة والعامة على السواء، كما قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر].

قال السمرقندي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وهو من جوامع الكلم؛ لأنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ يعني: صدَّقوا، ولم يقل بأي شيء صدَّقوا، معناه: الذين صدَّقوا بوحدانية الله تعالى، وصدَّقوا بمحمد ﷺ، وبالقرآن، وصدَّقوا بجميع الرسل، وبالبعث، والحساب، والجنة والنار»[(١)].

وقال ابن القيم: «أكثر ـ عمومات القرآن ـ محفوظة باقية على عمومها، فعليك بحفظ العموم فإنه يخلصك من أقوال كثيرة باطلة... ولهذا قال شمس الأئمة السرخسي: إنكار العموم بدعة حدثت في الإسلام بعد القرون الثلاثة»[(٢)].

وقال الزركشي عن القرآن: «أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجلِّ صورة تشتمل على أدقِّ دقيق؛ لتفهمَ العامةُ من جَليلها ما يُقنِعهم ويُلزمهم الحجة، وتفهمَ الخواصُّ من أثنائها ما يوفَّى على ما أدركه فهم الخطباء»[(٣)].

وقال الفيروزآبادي: «ومن جوامع آيات القرآن قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف]، فإنها جامعة لجميع مكارم الأخلاق، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، مستجمعة لجميع أَسباب السِّياسة والإِيالة[(٤)]، وقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾

---

(١) تفسير السمرقندي ١/ ٣٨٨.
(٢) الصواعق المرسلة ٤/ ٦٨٤.
(٣) البرهان ٢/ ٢٤ بتصرف.
(٤) الإيالة: من آل مالَه يَؤوله إِيالة إِذا أصلحه وساسه. ينظر: معجم مقاييس اللغة، مادة: =

[النَّازعات]، محتوية على حاجات الحيوانات كافَّة، وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، إلى آخر الثلاث الآيات؛ جامعة لجميع الأوامر والنَّواهي، ومصالح الدُّنيا والآخرة، وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا...﴾ [القصص: ٧]، يشتمل على: أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين»(١).

ومن الأمثلة على ذلك:

قول النبي ﷺ لما سئل عن الحُمُر: «**ما أنزل الله عليَّ فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذَّة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾** [الزَّلزلة]»(٢).

ومن الأمثلة كذلك:

قول ابن مسعود رضي الله عنه: «إن أجمع آية في القرآن لخير أو لشر، آية في سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ الآية [النحل: ٩٠]»(٣).

وعند التأمل في أوامر القرآن ونواهيه نجدها بأسلوب واسع الدلالة مع

= (أول) ١/ ١٦٠، الصحاح ٥/ ٣١٤، لسان العرب ١١/ ٣٢.

(١) بصائر ذوي التميز ١/ ٧١، وينظر: المحرر الوجيز ٢/ ٥٦٣، البحر المحيط ٤/ ٤٤٤، نظم الدرر ٨/ ٤٧٥.

(٢) أخرجه البخاري ٣/ ١٤٨ (٢٣٧١)، كتاب الوحي، باب شرب الناس والدواب من الأنهار، ومسلم ٢/ ٦٨٠ (٩٨٧)، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، حيث سئل ﷺ عن الخيل فقال: «**الخيل ثلاثة: فهي لرجل أجر، ولرجل ستر، ولرجل وزر؛ فأما التي هي له أجر فالرجل يتخذها في سبيل الله، ويعدها له فلا تغيِّب شيئاً في بطونها إلا كتب الله له أجراً، ولو رعاها في مرج ما أكلت من شيء إلا كتب الله له بها أجراً، ولو سقاها من نهر كان له بكل قطرة تغيِّبها في بطونها أجر ـ حتى ذكر الأجر في أبوالها وأرواثها ـ ولو استنت شرفاً أو شرفين كتب له بكل خطوة تخطوها أجر في عسرها ويسرها، وأما الذي هي له ستر فالرجل يتخذها تكرماً وتجمُّلاً، ولا ينسى حق ظهورها وبطونها في عسرها ويسرها، وأما الذي عليه وزر فالذي يتخذها أشراً وبطراً وبذخاً ورياء الناس، فذاك الذي هي عليه وزر، وسئل عن الحمر...**» الحديث.

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٢٨٠.

قلة الألفاظ جامع بين الترغيب والترهيب، والمعاني الكثيرة التي يفهمها الجميع، فلا تفصيلٌ ممل، ولا استعمال عبارات توهم السامع غير المراد.

ومن ذلك على سبيل المثال: ألفاظ الأوامر في القرآن.

فغالباً ما تأتي أوامر القرآن جامعةً لمعان كثيرة، ومن أمثلة ذلك:

ـ جاء الأمر بعبادة الله في آيات كثيرة، وهذا الأمر شامل لجميع أنواع العبادة بلا استثناء ابتداء بالواجبات وانتهاء بالمستحبات، بل إن أول أمر في القرآن أمرٌ بعبادة الله في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة].

فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة(١)، وكل داعٍ إلى الله تعالى فقدوته الأنبياء الذين دعوا قومهم إلى عبادة الله، لكونها دعوة جامعة لكل خير، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف]، وقال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف]، وقال الله تعالى عن المسيح: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أهمية اختيار اللفظ الجامع عند الأمر بطاعة الله، أو التحذير من معصيته، وفي هذا تربية للمسلم على الطريقة المثلى للدعوة إلى الخير.

ـ وكذلك جاء الأمر بتقوى الله تعالى في كتاب الله أكثر من ثمانين مرة.

وهو أمر جامع للقرب من كل خير والبعد عن كل شر.

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى ١٠/١٤٩.

وهو وصية الله للأولين والآخرين؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ [النساء].

وهي الواقية للعبد من عذاب الله.

ولذا خاطب الله تعالى بها المؤمنين؛ فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة].

وخوطب بها النبي ﷺ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ [الأحزاب].

ومعنى قوله: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ اثبت على تقوى الله ودم عليها؛ لأنه كان متقياً[(١)].

وتَنَوُّعُ المأمورين بالتقوى دليل على أنها لفظ جامع يدعى إليه جميع خلق الله، وينتفع بالتقوى كل من تحلى بها على اختلاف مشاربهم.

وخُوطِب بها عامة الناس؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحج].

قال القاسمي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحج]، يأمر تعالى عباده بِتَقْوَاه التي هي من جوامع الكلم، في فعل المأمورات واجتناب المنهيات»[(٢)].

ومن الأمثلة كذلك: ألفاظ النهي في القرآن.

فغالباً ما تأتي ألفاظ النهي جامعةً لمعان عامة.

ـ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال].

فالنهي عن الخيانة نهيٌ شاملٌ لكلِّ خيانةٍ في ما شرعه الله تعالى ورسوله.

---

(١) ينظر: معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣١٧، الهداية إلى بلوغ النهاية ٩/ ٥٧٨٠.
(٢) تفسير القاسمي ٧/ ٢٣٠.

فهو لفظ جامعٌ لمعانٍ كثيرة كما ذكر المفسرون[١]، ولا يصح استثناء ما يشمله من معان إلا بدليل؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾ قال: «بترك فرائضه، ﴿وَالرَّسُولَ﴾ بترك سُنَّته وارتكاب معصيته»[٢].

وقال الطبري: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله نهى المؤمنين عن خيانته وخيانة رسوله، وخيانة أمانته، وجائز أن تكون نزلت في أبي لبابة، وجائز أن تكون نزلت في غيره، ولا خبر عندنا، بأيٍّ ذلك كان يجب التسليم له بصحته»[٣].

ـ وكذلك جاء النهي في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأنعام].

هذا النهي عام لكل إثم، وتخصيصه بشيء معين يحتاج إلى دليل.

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بين أنه فصَّل المحرمات أتبعه بما يوجب تركها بالكلية بقوله: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ﴾، والمراد: من الإثم ما يوجب الإثم، وذكروا في ظاهر الإثم وباطنه وجهين:

الأول: أن ظاهر الإثم: الإعلان بالزنا، وباطنه: الاستسرار به.

الثاني: أن هذا النهي عام في جميع المحرمات، وهو الأصح؛ لأن تخصيص اللفظ العام بصورة معينة من غير دليل غير جائز»[٤].

واشتمال القرآن على الألفاظ الجوامع أعظم دليل على أنه تنزيل من حكيم حميد، وعلى صدق من أعطي جوامع الكلم.

فقد جاء في الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بُعثت بجوامع الكلم**...»[٥]، وفي رواية: «**فُضِّلْتُ على**

---

(١) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٤/ ٢٧٩٥، تفسير العز بن عبد السلام ١/ ٥٣٢.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٥٨، وينظر: الدر المنثور ٤/ ٤٩.

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٤٨٣.

(٤) تفسير الرازي ١٣/ ١٣٧.

(٥) أخرجه البخاري ٩/ ١١٣ (٧٢٧٣)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب قول النبي ﷺ بعثت بجوامع الكلم، ومسلم ١/ ٣٧١ (٥٢٣)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

الأنبياء بستٍّ: أعطيت جوامع الكلم، ونُصرت بالرعب،...» الحديث[(١)].

المراد بجوامع الكلم: الألفاظ القليلة الجامعة لمعان كثيرة.

قال ابن الأثير[(٢)]: «أي: أنه كان كثير المعاني قليل الألفاظ»[(٣)].

وقال ابن حجر[(٤)]: «وجزم غير الزهري بأن المراد بجوامع الكلم: القرآن، بقرينة قوله: «**بعثت**»، والقرآن هو الغاية في إيجاز اللفظ واتساع المعاني»[(٥)].

قال ابن تيمية: «ولهذا جاء كتاب الله جامعاً، كما قال ﷺ: «**أُعطيت جوامع الكلم**»»[(٦)].

وقد جزم ابن حجر أن المراد بجوامع الكلم: القرآن، وأن الخلاف في دخول السُّنَّة.

حيث قال: «قيل يؤخذ من إيراد البخاري هذا الحديث[(٧)] عقب الذي قبله[(٨)] أن الراجح عنده، أن المراد بجوامع الكلم: القرآن، وليس ذلك بلازم، فإن دخول القرآن في قوله: «**بُعثت بجوامع الكلم**» لا شك فيه، وإنما النزاع،

---

(١) أخرجه مسلم ١/ ٣٧١ (٥٢٣)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٢) هو: المبارك بن محمد الشيباني الجزري أبو السعادات الشافعي، المعروف بابن الأثير، من مصنفاته: «الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف»، «النهاية في غريب الحديث والأثر»، مات سنة (٦٠٦هـ)، له ترجمة في: طبقات الشافعية ٥/ ١٥٣، شذرات الذهب ٥/ ٢٢.

(٣) النهاية في غريب الحديث ١/ ١٩٥، وينظر: غريب الحديث لابن الجوزي ١/ ١٧١.

(٤) هو: شهاب الدين أحمد بن علي الكناني أبو الفضل العسقلاني ثم المصري الشافعي، شارح صحيح البخاري، وله من المصنفات: «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، و«الدرر الكامنة»، و«الإصابة في تمييز أسماء الصحابة»، وغيرها، مات سنة (٨٥٢هـ)، له ترجمة في: طبقات الحفاظ ٥٥٢، شذرات الذهب ٧/ ٢٧٠.

(٥) فتح الباري ١٣/ ٢٤٧.

(٦) مجموع الفتاوى ٤/ ٤٥٧.

(٧) يريد حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي..**» أخرجه البخاري ٩/ ١١٣، (٧٢٧٤).

(٨) أي: حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**بُعِثت بجوامع الكلم..**» أخرجه البخاري ٩/ ١١٣ (٧٢٧٣).

هل يدخل غيره من كلامه من غير القرآن؟»[١].

وقال ابن قتيبة: «قول رسول الله ﷺ: **«أوتيت جوامع الكلم»**، فإن شئت أن تعرف ذلك فتدبر قوله سبحانه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف]، كيف جمع له بهذا الكلام كل خُلُق عظيم»[٢].

والذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن الروايات الأُخرى تُفسِّر المراد، وأن النبي ﷺ أوتي الكتاب والسُّنَّة، فكلاهما متضمِّن لجوامع الكلم.

قال النووي[٣]: «**«بُعثت بجوامع الكلم»**، قال الهروي: يعني به: القرآن، جمع الله تعالى في الألفاظ اليسيرة منه المعاني الكثيرة، وكلامه ﷺ كان بالجوامع قليل اللفظ كثير المعاني»[٤].

وقال ابن رجب[٥]: «وجوامع الكلم التي خُصَّ بها النبي ﷺ نوعان:

أحدهما: ما هو في القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠]، قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: إن الله جمع لكم في هذه الآية الخير كله والشر كله: فوالله ما ترك العدل والإحسان شيئاً من طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ إلّا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئاً إلّا جمعه.

والثاني: ما هو في كلامه ﷺ، وهو منتشر موجود في السنن المأثورة

---

(١) فتح الباري ١٣/٢٤٨. (٢) تأويل مشكل القرآن ١١.

(٣) هو: يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحوراني النووي، الشافعي، أبو زكريا، محيي الدين، مولده ووفاته في نوا من قرى حوران، بسورية، فقيه، ومحدِّث، ولغوي، من أهم مصنفاته: «المجموع في شرح المهذّب»، و«شرح صحيح مسلم»، و«رياض الصالحين»، مات سنة (٦٧٦هـ)، له ترجمة في: طبقات الشافعية ٥/ ١٦٥، شذرات الذهب ٥/ ٣٥٤.

(٤) شرح النووي على مسلم ٥/٥.

(٥) هو: زين الدين عبد الرحمٰن بن أحمد ابن رجب بن الحسن بن محمد بن مسعود، أبو الفرج، السلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي، الحافظ المحدث الفقيه الواعظ، من كتبه: «شرح جامع الترمذي»، و«جامع العلوم والحكم»، و«لطائف المعارف»، «فتح الباري»، «شرح صحيح البخاري» ولم يتمه، و«ذيل طبقات الحنابلة»، مات سنة (٧٩٥هـ)، له ترجمة في: شذرات الذهب ٦/ ٣٣٩، طبقات الأدنه وي ٣٥٣.

عنه ﷺ، وقد جمع العلماء رضي الله عنهم جموعاً من كلماته الجامعة»[١].

وقال القرطبي: «هذا رسول الله ﷺ مع ما أوتي من جوامع الكلم، واختص به من غرائب الحِكَم، إذا تأملت قوله ﷺ في صفة الجنان، وإن كان في نهاية الإحسان، وجدته منحطاً عن رتبة القرآن، وذلك في قوله عليه السلام: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[٢]، فأين ذلك من قوله عز وجل: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزُّخرف: ٧١]»[٣].

والخلاصة: أنه لا تعارض بين القولين: فعادة القرآن اختيار الألفاظ الجامعة، وإذا كان النبي ﷺ أوتي جوامع الكلم في حديثه؛ فكون جوامع الكلم في القرآن من باب أولى وآكد، فالحاصل والمراد هنا أن القرآن اشتمل على جوامع الكلم وتميز بها، والأمثلة كثيرة لا تخفى.

وقد بوّب السَّعدي[٤] في «**القواعد الحسان**»: «القاعدة الواحدة السبعون: في اشتمال كثير من ألفاظ القرآن على جوامع المعاني».

وذكر أكثر من خمسين مثالاً من القرآن، وقال بعدها: «فهذه الآيات الكريمات وما أشبهها، كل كلمة منها قاعدة، وأصل كلي، يحتوي على معان كثيرة»[٥].

وفي هذه العادة من الفوائد:

١ ـ أن جوامع الكلم تتناسب مع تفاوت الأفهام البشرية، وتنوع إدراكاتها، فيفهمها العامة والعلماء.

---

(١) جامع العلوم والحكم ٨.

(٢) أخرجه البخاري ٤/ ١٤٣ (٣٢٤٤)، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، ومسلم ٤/ ٢١٧٤ (٢٨٢٤)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٣) تفسير القرطبي ١/ ٧٧.

(٤) هو: عبد الرحمٰن بن ناصر بن عبد الله آل سَعْدي أبو عبد الله التميمي النجدي الحنبلي، من أهم مؤلفاته: «تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان»، «منهج السالكين» و«توضيح الفقه في الدين»، مات سنة (١٣٧٦هـ)، له ترجمة في رسالة بعنوان: حياة الشيخ عبد الرحمٰن السعدي في سطور، لأحمد بن عبد الله القرعاوي.

(٥) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ١٤٠ وما بعدها.

٢ ـ أن جوامع الكلم هي الأسلوب الأمثل لمعالجة هفوات الناس، ومراعاة حال المدعوين، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، فالحكمة متضمنة للكلام المناسب في الوقت المناسب حسب الحال المناسب، قال الخليل[1]: «الحكمة: مرجعها إلى العدل والعلم والحِلم»[2].

٣ ـ وتتأكد الحكمة في الدعوة إلى الله؛ لأن الدعوة لمن قصَّر في طاعة الله، وعصى مراراً قد أَلِف المعصية وتعوَّد عليها، فالشدة والعنف تُنَفِّره، فلا بُدَّ من الرفق به ومراعاة حاله؛ لِيَخرُج عما أَلِف، ويسلك الطريق الصحيح، فمسلك اللِّين والرِّفق يؤثر أكثرَ على المدعوِّ مهما كان مكانُه وحالُه؛ وهذا هو المطلوب من المسلمين كلٌّ بحسبه.

قال السعدي: «قد أمر الله تعالى بالدعاء إلى سبيله بالتي هي أحسن؛ أي: بأقرب طريق موصل للمقصود، محصل للمطلوب، ولا شك أن الطرق التي سلكها الله في خطاب عباده المؤمنين بالأحكام الشرعية هي أحسنها وأقربها»[3].

٤ ـ أن في الألفاظ الجامعة إيجازاً في اللفظ، وإعجازاً في المعنى.

٥ ـ في اللفظ الجامع جمْعٌ بين معان متفاوتة، وكلها صحيحة مقبولة، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران].

قال القرطبي: «قال أنس بن مالك ومكحول في تفسير: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، معناه: إلى تكبيرة الإحرام، وقال علي بن أبي طالب: إلى أداء الفرائض، وقال عثمان بن عفان: إلى

---

(١) هو: الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي، أبو عبد الرحمٰن، من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض، وهو أستاذ سيبويه النحوي، ولد ومات في البصرة، من مصنفاته: كتاب «العين في اللغة»، و«معاني الحروف»، وكتاب «العروض»، مات سنة (١٧٠هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٢/ ٢٤٤، سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٣١.

(٢) كتاب العين ٢٠٤.

(٣) القواعد الحسان ١٨.

الإخلاص، وقال الكلبي: إلى التوبة من الربا، وقيل: إلى الثبات في القتال، وقيل غير هذا، والآية عامة في الجميع»[١].

فتصح جميع المعاني تفسيراً للآية؛ لأنه لا تعارض بينها، ولذا يحمل ما ورد عن السلف على أنه تفسير بالمثال، والله أعلم.

٦ - في الألفاظ الجامعة بيان عموم القرآن وشموله، وأنه صالح ومُصلِح لكل زمان ومكان، قال جل وعلا: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ﴾ [المائدة: ٤٨]، والله تعالى أعلم وأحكم.

المطلب الثالث

مراعاة المناسبة لألفاظ الفواصل

القرآن كما هو معجز في مضمونه ومعانيه، فهو معجز في أسلوبه وبنائه، ومن أساليب القرآن المعجزة، مراعاة المناسبة لألفاظ فواصل الآيات، والتالي لكتاب الله جل وعلا يدرك أن هذا من عادات القرآن، مما يدل دلالة واضحة أن الاهتمام بالصوت أمر مطلوب، وأدعى لانتباه السامع وإصغائه لإدراك وفهم المضمون، مع الدلالة الواسعة للمعنى، وهذا ما يوافق الذوق العربي الذي نزل القرآن معجزة لأهله بفصاحتهم وبلاغتهم.

والفاصلة: كلمة آخر الآية[٢].

قال ابن الجوزي[٣]: «ويسمون أواخر الآي الفواصل»[٤].

---

(١) تفسير القرطبي ٤/ ٢٠٣.

(٢) ينظر: معاني ألفاظ القرآن ٧٢٤، لسان العرب ١١/ ٥٢٤، البرهان ١/ ٥٣، الإتقان ٢/ ٢٠٩.

(٣) هو: جمال الدين عبد الرحمٰن بن علي بن محمد ابن الجوزي أبو الفرج القرشي البغدادي الحنبلي، علامة عصره في التاريخ والحديث، صاحب التصانيف في أنواع العلوم منها: «زاد المسير»، و«الناسخ والمنسوخ»، و«تلبيس إبليس»، و«الضعفاء والمتروكين»، مات سنة (٥٩٧هـ)، له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٦٥، طبقات السيوطي ٥٠.

(٤) زاد المسير ١/ ٣٦٤.

ولابن الصائغ الحنفي[١] مؤلف حول الفاصلة، لخَّصه السيوطي في الإتقان حيث يقول: «تتبعت الأحكام التي وقعت في آخر الآي مراعاة للمناسبة؛ فعثرت منها على نيف عن الأربعين حكماً. .»[٢].

ومن أبرز عادات القرآن:

التقديم والتأخير لرعاية ألفاظ الفواصل، ومن الأمثلة:

☐ أولاً: تقديم ما هو متأخر في الزمان:

- كقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [النَّجم].

- وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ [النَّازعات].

- وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الليل].

ففي تقديم الآخرة على الأولى مراعاة للفواصل مع جمال في التعبير، وإلا فقد جاءت الأولى مقدمة على الآخرة كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص].

☐ ثانياً: تقديم الفاضل على الأفضل:

- كما في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه].

ومن أبرز أسرار تقديم هارون على موسى هنا مراعاة الفاصلة[٣] إذ أواخرها الألف المقصورة مثل: «ألقى، تسعى، موسى، الأعلى، أتى، أبقى، الدنيا، يحيى، العلى، تزكى»[٤].

---

(١) هو: محمد بن عبد الرحمٰن بن علي، شمس الدين الحنفي الزمردي، ابن الصائغ، أديب مصري، من كتبه: «التذكرة في النحو»، و«المباني في المعاني»، و«المنهج القويم في فوائد تتعلق بالقرآن العظيم»، مات سنة (٧٧٦هـ)، له ترجمة في: الدرر الكامنة ٣/ ٤٩٩، شذرات الذهب ٦/ ٢٤٨.

(٢) ينظر: الإتقان ٢/ ٢١٤.

(٣) ينظر: البرهان ٣/ ٢٧٤، الفاصلة للحسناوي ١١٨.

(٤) ينظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ ٥٦٤.

وخلاصة البحث فيها:

أن موسى وهارون اقترنا في عشر آيات من القرآن وقدم موسى في تسع منها تقديماً لما حقه التقديم، أربعة مواضع منها في فواصل الآيات كلها روعيت فيها الفواصل بالتماثل أو التقارب.

ـ كما قال تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف]، سياق هذه الآيات، قوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف].

ـ وقوله تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء]، سياق هذه الآيات: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشعراء].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [الصَّافات]، سياق هذه الآيات: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ [الصَّافات].

ـ وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الصَّافات]، سياق هذه الآيات: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾ [الصَّافات].

وفي ثلاثة مواضع كانت القصة واحدة، وهي قصة موسى مع سحرة فرعون، فقدم موسى في موضعين هما:

ـ قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء].

تقديماً لما حقه التقديم.

وفي الموضع الثالث قدم هارون، مراعاة للفاصلة كما في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه]، فروعيت الفواصل مع تمام المعنى، وفي هذا أيضاً تمام الفصاحة والبلاغة.

ولا يلزم من تقديم هارون تفضيله على موسى، فتقديمه لمراعاة الفاصلة من ناحية، وكون الواو إنما تفيد الجمع دون الترتيب من ناحية أخرى، وهذا جزء من التعليل.

ولا يعني هذا أن التقديم والتأخير في أواخر الآي لمراعاة الفاصلة فحَسْب، فالمتأمل لسورة طه يجد أن الفاصلة تغيرت في مواضع أُخرى حسب اختلاف المعنى، والمثال من السورة نفسها في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾﴾ [طه].

وفي تقديم هارون معان أُخرى غير الفاصلة، ومنها ما يأتي:

١ ـ أن هارون أكبر من موسى عليهما السلام، وأفصح منه، وتقديمه بسببها جائز.

٢ ـ أن فرعون ادَّعى الربوبية: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النَّازعات]، وادَّعى الألوهية فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، ولو اقتصروا على القول: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأعراف]، ادَّعى فرعون أنه هو، ولم يقتصروا على ذكر موسى لكون فرعون أيضاً يدعي ربوبيته لموسى، قال تعالى على لسان فرعون: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء]، فذكروا هارون وقدموه دفعاً لهذه الشبهة.

٣ ـ وفي تقديم هارون تأكيدُ إيمانهم، حيث إن المتوقَّع أن يُقدِّموا من جاء بالمعجزة، فإذا آمنوا برب هارون فإيمانهم برب موسى من باب أولى.

قال البيضاوي: «﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه] قدم هارون لكبر سنه، أو لروي الآية، أو لأن فرعون ربَّى موسى في صغره، فلو اقتصر على

موسى، أو قدم ذكره لربما تُوُهِّم أن المراد فرعون، وذِكر هارون على الاستتباع»[١].

٤ ـ أن كل هذه المقولات اجتمعت على لسان السحرة في تلك الحال، فقال بعضهم: رب العالمين، وقال بعضهم: موسى وهارون، وقال بعضهم: هارون وموسى، اختلفت الأساليب في قولها، كما هو شاهد الواقع في الأحداث الكبار، مع الجمع الكثير، وهذا من إعجاز القرآن، في حكاية الأقوال.

٥ ـ أن القرآن يُبَيِّن لنا الحالة التي كان عليها السحرة لما ظهرت معجزة موسى، فسجدوا، ومن شدة الموقف جاء التقديم والتأخير غير مقصود لهم، كحال العبد الذي فرح براحلته بعد الإياس منها فأخطأ من شدة الفرح[٢].

قال الباقلاني[٣]: «وأقوى ما يستدلون ـ القائلون بجواز السجع في القرآن[٤] ـ به عليه، اتفاق الكل على أن موسى أفضل من هارون عليهما السلام،

---

(١) تفسير البيضاوي ٤/ ٦١.

(٢) إشارة إلى حديث الفرح بالتوبة، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه؛ فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللَّهُمَّ أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح»** أخرجه مسلم ٤/ ٢١٠٤، (٢٧٤٧)، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها.

(٣) هو: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر الباقلاني، البصري، المتكلم المشهور، قاض، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة، من كتبه: «إعجاز القرآن»، و«الإنصاف»، و«مناقب الأئمة»، و«الملل والنحل»، مات سنة (٤٠٣هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٤/ ٢٦٩، الأنساب ٢/ ٥٢.

(٤) بعد اطلاعي على الخلاف تبين لي أن سببه عدم اتفاقهم على معنى السجع، فكلٌّ نظر إلى جانب منه فحكم ودافع بناء على ما ظهر له، وتعاريف السجع غير متحدة الضوابط، وليست بدقيقة، فمن نظر إلى أن السجع فيه تكلف وإخلال بالمعنى، وتشبه بما لا يليق؛ منع منه مطلقاً، وهذا هو الظاهر من أدلتهم، ومن فصّل ـ وهو الأصح ـ في أن السجع: إما أن يكون متكلفاً، وفيه تغيير للمعنى فهذا مذموم، ولم يرد منه شيء في القرآن، وإما أن يكون السجع بلا تكلف تابعاً للمعنى فهذا محمود، وهو الذي ورد به القرآن، لكن الذين نفوا اسم السجع كانوا أكثر توفيقاً في تنزيه كلام الله =

ولمكان السجع قيل في موضع: هارون وموسى، ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل: موسى وهارون».

وأجاب عنه بقوله: «وأما ما ذكروه من تقديم موسى على هارون عليهما السلام في موضع وتأخيره عنه في موضع لمكان السجع وتساوي مقاطع الكلام فليس بصحيح؛ لأن الفائدة عندنا غير ما ذكروه، وهي أن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة وتؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب الذي تظهر به الفصاحة، وتتبين به البلاغة..»(١).

فلا أَشُكُّ أن هناك معان لهذا التقديم والتأخير حقيقةٌ بأن يُتَأمل فيها، مع القول بمراعاة الفاصلة كما ذكر العلماء(٢).

وعليه فالأقرب أن عادةَ القرآن في الفواصل مراعاةُ اللفظ والمعنى جميعاً، ولا تعارض بينهما، بل به يتحقق إعجاز القرآن بجانبيه اللفظي والمعنوي، والله أعلم.

ومن الأمثلة كذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [النَّجم].

ففي هذه الآية تقديم موسى على إبراهيم مراعاة لرؤوس الآي.

قال الزركشي: «قدم ذكر موسى لوجهين، **أحدهما**: أنه في سياق الاحتجاج عليهم بالترك وكانت صحف موسى منتشرة أكثر انتشاراً من صحف إبراهيم، **وثانيهما**: مراعاة رؤوس الآي»(٣).

= تعالى عن الوصف المستعمل في غيره من أساليب البشر، ولكي يسلم القرآن من الاشتراك في مسمى يحتمل المدح والذم، فالقول بالفاصلة أبعد عن الخلاف، وأعمُّ وأدقّ، والله أعلم.

(١) إعجاز القرآن ٥٧، ٦١ ـ ٦٢.

(٢) القول بمراعاة الفاصلة هو أقوى توجيه في نظري لهذا التقديم، والمعاني الأخرى اجتهادية ليس هناك ما يمنع منها، والعلم عند الله.

(٣) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٢٣٩.

بينما قدم إبراهيم في غير هذا الموضع.

- كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب].

- وقوله تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى].

□ ثالثاً: تقديم الأبلغ:

القاعدة في علم البيان تأخير الأبلغ، يقال: عالم نحرير، وشجاع باسل[(١)].

ولكن قُدِّم الأبلغ في القرآن لفوائد من أشهرها مراعاة الفاصلة في الصوت والمعنى.

- كتقديم الرحمٰن على الرحيم في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ [الفاتحة][(٢)].

- وتقديم الرؤوف على الرحيم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة].

- وتقديم العفو على الغفور في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ [الحج].

- وتقديم الرسول على النبي في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ [مريم][(٣)].

قال الزمخشري: «فإن قلت: فلم قدم ما هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه، والقياس الترقي من الأدنى إلى الأعلى؛ كقولهم: فلان عالم نحرير، وشجاع باسل، وجواد فياض؟.

قلت لما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها

---

(١) ينظر: المثل السائر ٢/ ٣٢، الإيضاح في علوم البلاغة ٣٠٤، مغني اللبيب ٤٤، البرهان ٣/ ٢٧٤.

(٢) ينظر: مغني اللبيب ٤٤٠.

(٣) ينظر: البرهان ٣/ ٢٧٤.

أردفه: ﴿ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ كالتتمة والرديف، ليتناول ما دق منها ولطف»[١].

❐ رابعاً: تقديم المعمول على العامل:

- ومن صوره في الفواصل تقديم المفعول على الفاعل؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١﴾ [القمر]، كل فواصل السورة رائية؛ فقدم المعمول على العامل ليتحقق تناسب الفواصل مع جمال الصوت وجودة الجرس المؤثر على القلوب.

- ومن ذلك تأخير الفاعل في قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧﴾ [طه]، قدم الضمير العائد على موسى والمفعول على الفاعل لمراعاة المناسبة بين فواصل الآيات [تسعى، الأعلى، أتى]، مع ما لتقديم الخيفة في الآية من معنى.

- قال الزركشي: «وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾ [فصّلت]، فقدم إياه على تعبدون لمشاكلة رؤوس الآي»[٢].

- ومثلها قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧﴾ [البقرة]، فقدم المفعول لتأكيد اختصاصهم بظلم أنفسهم، وللجمال الصوتي بتوافق الفواصل بحرف النون حيث الفواصل قبلها: [تنظرون، تشكرون].

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧﴾ [البقرة]، قدم فيه المفعول للقصر، وقد حصل القصر أولاً بمجرد الجمع بين النفي والإثبات، ثم أكد بالتقديم لأن حالهم كحال من يَنْكِي غيره»[٣].

بل إن أبا السعود قصر الحكمة في التقديم والتأخير على رعاية مناسبة الفاصلة حيث قال: «﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧﴾ لما أنهم أضاعوها بإنفاقها لا على ما ينبغي، وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص؛ إذ الكلام في الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول؛ أي: ما ظلمهم الله ولكن

---

(١) الكشاف ١/ ٥١.
(٢) ينظر: البرهان ٣/ ٢٧٥.
(٣) التحرير والتنوير ١/ ٥١٢.

ظلموا أنفسهم، وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار»[١].

ومن عادات القرآن في مراعاة المناسبة لألفاظ الفواصل:

إيثار فصل الآية عند ما يناسب البلاغة ولو لم يكتمل معنى الآية القرآنية، والعكس كذلك، فيؤْثَر عدم فصل الآية ولو اكتمل معناها؛ لأن الجرس الصوتي يتلاءم مع عدم الفصل.

وأمثلة هذا كثيرةٌ، خصوصاً في السور المكية التي كانت أولُ ما قرعَ أسماعَ العرب لتأسر حبهم وذوقهم العربي.

ومن ذلك:

- قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ [المدَّثر].

لما تأملت في الآيتين: ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المدَّثر] وجدت اتصالهما اتصال العامل بمعموله، ولعل من حِكم رسم الفاصلة بينهما - والله أعلم - رعاية مناسبة الألفاظ، وحُسْنِ الترتيب مع استمرار قارئ القرآن في القراءة حتى يتم المعنى، وإذا وقف عند الفاصلة فإنه وقوفُ مرتِّلٍ متَابع.

- وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون].

بين الآيتين ارتباط وثيق، بل الوقوف على الأولى دون متابعة يُوهِم غير المعنى المقصود؛ لأن ما بعدها وصفٌ لِمَن يقع عليهم الوَيْل وليس لعامة المصلين، بل على المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون، ولعل من حِكَم الفاصلة رعاية المناسبة للألفاظ مع بقاء حُسن الأداء الذي يقتضيه جمالُ الترتيل، مع استمرار القارئ حتى يتم المعنى كاملاً، وإذا وقف فهي وقفة نَفَس لا وقفة ختام[٢].

- وقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/ ٧٥.

(٢) ينظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ ٥٥٩.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾﴾ [الشعراء].

نلاحظ رسم الفاصلة بعد ﴿تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾﴾ مع ارتباط ما بعده به ارتباط القَيْد بالمُقَيَّد، ولكن لرعاية المناسبة لألفاظ الفواصل اخْتِير رسم الفاصلة عند لفظ: ﴿تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾﴾ وعدم وضعها بعد: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، والله أعلم.

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصّافات].

إتيان الفاصلة عند [يَعْبُدُونَ] يقال فيه مثل ما قيل في آية الشعراء السابقة.

ـ وقوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾﴾ [القمر].

في هذا النص مراعاةٌ لنَسَقِ اللفظ واختيار المناسب لفواصل الآيات، حيث نرى إيثار عدم فصل الآية مع اكتمال معناها عند قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، والفصل بينها وبين ما قبلها مع الارتباط من جهة المعنى، ثم بدأ كلامٌ مستأنفٌ في موضوعٍ جديد عن اليوم الآخر وما يحصل فيه من مشاهد، ولكن لأن الجرس الصوتي يتلاءم مع عدم الفصل، فالفواصل رائية وفيها تجانس في حرف النون والراء [نُذُر، نُكُر]، فلعل من حِكم مجيء الفاصلة عند قوله: ﴿ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾، ﴿نُّكُرٍ ﴿٦﴾﴾ ولم تكن عند قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ مراعاة لمناسبة ألفاظ الفواصل.

ففي هذه الآية مثالٌ لفصلِ الألفاظ في المعنى الواحدِ مراعاةً للفاصلة، وربطٌ للألفاظ في معان مختلفة مراعاةً للفاصلة، فجاء اختيار اللفظ المناسب للصوت المناسب مع حصول المعنى المناسب، والله تعالى أعلم.

المبحث الثاني

استعمال بعض الألفاظ لمعنى خاص

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول: تخصيص اللفظ بمعنى.**
- **المطلب الثاني: استعمال بعض الألفاظ مرة واحدة.**
- **المطلب الثالث: استعمال الألفاظ اللائقة بالقرآن.**

المطلب الأول

تخصيص اللفظ بمعنى

من عجائب هذا الكتاب العظيم أنك تجد ألفاظاً تختَصُّ بمعنى واحدٍ في جميع القرآن مع أن لها معاني أخرى ودلالات مختلفة، إلا أن القرآن اختار منها معنًى واحداً؛ فيصح أن يقال عندها: كل ما جاء هذا اللفظ في القرآن فمعناه كذا باطراد.

وهو موضوع جميل، وفيه من الفوائد البيانية واللطائف اللفظية ما جعل العلماء يهتمون بهذه الألفاظ، فمنهم من سمَّاها: كليات[(١)]، ومنهم من سمَّاها: عادات[(٢)]، ومنهم من أطلق عليها أفراد القرآن[(٣)] ولا مشاحَّة في الاصطلاح، ومنهم من أفردها بالتأليف باسم: الوجوه والنظائر[(٤)].

قال ابن عاشور: «وقد اعتنى العلماء بإحصاء كليات تتعلق بالقرآن،

---

(١) كالكفوي في الكليات.
(٢) كابن عاشور في التحرير والتنوير.
(٣) كابن فارس في الأفراد.
(٤) مثل: مقاتل، والدامغاني، والسبكي، والسيوطي، وابن نجيم، وينظر: كليات الألفاظ في التفسير ١/ ٩٣.

وجمَعَها ابن فارس وذكرها عنه في الإتقان، وعُني بها أبو البقاء الكفوي في كلياته»[١].

وقال الجاحظ[٢]: «وقد يستخِف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرُها أحقُّ بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن [الْجُوعِ] إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر؟ والناس لا يذكرون [السَّغب][٣]، ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر [المطر] فلا نجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يُفصِّلون بين ذكر [المطر]، وذكر [الْغَيْثَ]»[٤].

وفي هذه العبارة التي توالى عليها العلماء: (كل ما في القرآن كذا فمعناه كذا) ترجيحٌ للفظ الذي فيه نزاع بما يوافق أغلب استعماله في القرآن، فيحكونها كلية وإن كانت أغلبية عند بعض المفسرين.

فمعرفة هذه العادة مهم جداً؛ لأن استعمال القرآن للفظ في مواضع على

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٣.

(٢) هو: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي البصري، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، من أئمة الأدب، إليه تنسب الفرقة الجاحظية من المعتزلة، له تصانيف كثيرة منها: الحيوان، والبيان والتبيين، والبخلاء، والمحاسن والأضداد، مات سنة (٢٥٥هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٣/ ٤٧٠، سير أعلام النبلاء ١١/ ٥٢٧.

(٣) السَّغَب: هو الجوع، وقيل: الجوع مع التعب. ينظر: لسان العرب، مادة: (سغب) ١/ ٤٦٨.

(٤) البيان والتبيين ١/ ٢٦، ويستثنى من هذا الحكم آية النساء وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢] إذ المطر ههنا بمعنى الغيث وهو رحمة لا عذاب، ولو قيل: إن مطر يقال في الخير، وأمْطَر في العذاب كان أدقّ. ينظر: مفردات ألفاظ القرآن ٧٧٠، وهذا قول الأزهري. ينظر: المصباح المنير ٢/ ٥٧٥، وقال ابن حجر: «يقال: مطرت السماء وأمطرت، ويقال: مطرت في الرحمة، وأمطرت في العذاب، وقال ابن عيينة: «ما سمَّى الله مطراً في القرآن إلا عذاباً»؛ يعني: ما أطلق المطر في القرآن إلا على العذاب، وتُعُقب بقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ [النساء: ١٠٢]» فتح الباري ١/ ١٨٩، والله أعلم.

معنى واحد ينفع المفسر والمتأمل في معرفة معاني القرآن.

وهو أيضاً يَفْصل النزاع ـ إن وجد ـ في أحد مواضع اللفظ، فالقاعدة التي اعتمدها أئمة التفسير حَمْلُ اللفظ على مِثْلِه من ألفاظ القرآن في غير موضعِ النزاع أولى من حمله على غيره(١).

وقد اطلَعْتُ على رسالة متميزة بعنوان: [كليات الألفاظ في التفسير] حَوَت الكلمات التي قال عنها المفسرون: كلُّ ما في القرآن بمعنى واحد أو أغلبي(٢).

وقد اعتنى العلماء بهذا الجانب قديماً وحديثاً لما فيه من الاستقراء لكتاب الله والوقوف على عادة من عادات القرآن الأسلوبية.

ومن الأمثلة على هذه العادة:

ـ عدم البيان بعد قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، والبيان بعد قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾.

جاء قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ في ثلاثة مواضع من القرآن كلُّها لم يُخبَر بتفسيره وهي:

١ ـ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب].

٢ ـ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الشورى].

والمعنى: أي شيء أعلمك عن وقت قيام الساعة فذلك إلى الله، والمأمور به هو الاستعداد لها(٣).

٣ ـ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [عبس].

أي: وما يُعلِمك أنه يحصل له زكاةٌ وطهارة في نفسه(٤)، فأنت لا تعلم

(١) ينظر: الموافقات ٣/٣٥٨، التبيان في أقسام القرآن ١٣٦.

(٢) هي: رسالة ماجستير قيّمة في قسم القرآن وعلومه، كلية أصول الدين، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية للشيخ الفاضل/ بريك بن سعيد القرني، طبعت عام ١٤٢٦هـ في مجلدين.

(٣) ينظر: تفسير السمعاني ٤/٣٠٨، تفسير ابن كثير ٦/ ٤٨٣.

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير ٨/ ٣١٩.

بحقيقة أمْرِه فهو من أمر الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ولم يأت في الآيات التالية بيان عن عاقبة أمره وما آلَ إليه.

قال ابن القيم: «والمألوف من عادة القرآن في استعمال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ في الأمور الغائبة العظيمة»[١].

وورد قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ ثلاث عشرة مرة في القرآن.

قال سفيان بن عيينة[٢]: «وما كان: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أخبره»[٣].

ومثله قال الفراء[٤]، وغيرهما[٥].

وهي كالتالي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾ [الحاقَّة]، ثم بيَّن في الآيات بعدها، فقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ [الحاقَّة]، فذكر أوصاف الواقعة، وهي والحاقة من أسماء القيامة.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ [المدَّثر]، ثم بيَّن أوصافها: ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾ [المدَّثر] إلخ.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾ [المرسلات]، وبيَّن بعدها بقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المرسلات].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾﴾ [الانفطار].

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾ [الانفطار]، ثم بيَّن بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾﴾ [المطفِّفين]؛ أي: وأيُّ شيء

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ٢٩.

(٢) هو: سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، أبو محمد، محدِّث الحرم المكي، وسكن مكة وتوفي بها، كان حافظاً ثقة، واسع العلم كبير القدر؛ من مصنفاته: «الجامع في الحديث»، و«كتاب في التفسير»، مات سنة (١٩٨هـ)، له ترجمة في: تاريخ بغداد ٩/ ١٧٤، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٤٢.

(٣) تفسير الطبري ٢٣/ ٥٧٠.

(٤) معاني القرآن ٣/ ٢٨٠.

(٥) ينظر: زاد المسير ٩/ ١٣٤، تفسير القرطبي ٢٠/ ٣، نظم الدرر ٨/ ٣٥٨.

أدراك يا أيها النبي ما سِجِّين؟! على التعظيم لأمره، ثم بَيَّنَ فقال: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٩﴾ [المطففين]؛ أي: مكتوبٌ فيه عَمَلُ الكفار(١)، قال قتادة(٢): مرقوم: «مكتوب رُقِمَ لهم فيه بِشَرٍّ»(٣).

٧ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩﴾ [المطفِّفين]؛ أي: وأي شيء أدراك يا أيها النبي ما عليُّون؟! يُعَجِّبُ نبيه ﷺ من علِّيين، ثم بيَّنه فقال: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٩﴾ [المطفِّفين]؛ أي: مكتوب بأمان الله للأبرار من العذاب يوم القيامة والفوز بالجنة(٤).

٨ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾ [الطَّارق]، جاء الجواب: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ [الطَّارق].

٩ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢﴾ [البلد]؛ أي: ما اقتحام العقبة؟! أي: وأي شيء أشعرك يا أيها النبي ما اقتحام العقبة؟! ثم فسَّرها فقال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ [البلد]؛ أي: اقتحامها والنجاة منها هو فك رقبة من الرق وأسر العبودية(٥).

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾ [القدر]، جاء البيان بقوله: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾ [القدر].

١١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣﴾ [القارعة]، جاء البيان بقوله: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٢٤/ ٢٨٥.

(٢) هو: قتادة بن دِعامة بن قتادة بن عُزيز، أبو الخطاب السدوسي البصري، مفسِّر حافظ فقيه، عالماً بالعربية ومفردات اللغة، وأيام العرب والنسب، مات بواسط في الطاعون سنة (١١٨هـ)، له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٩، طبقات الداوودي ٢/ ٤٧.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٨٥، وينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ١٢/ ٨١٢٥، تفسير السمرقندي ٣/ ٥٣٥، تفسير القرطبي ٩/ ٨٢.

(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٢٣، تفسير الرازي ٣١/ ٨٨، التسهيل ٣/ ٢٩٥، نظم الدرر ٨/ ٣٦٢.

(٥) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ١٢/ ٨٢٨٠، المحرر الوجيز ٥/ ٤٥٦، الكشاف ٤/ ٧٥٩، التسهيل ٣/ ٣٢٦.

١٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠﴾ [القارعة]، جاء البيان بقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾ [القارعة].

١٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥﴾ [الهمزة]، جاء البيان بقوله: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦﴾ [الهمزة].

قال الراغب(١): «كل موضع في القرآن ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد عُقِّب ببيانه»(٢).

ومن الأمثلة كذلك:

ـ لفظ الترف.

جاء في كلِّ مواضعه في القرآن بمعنى التَّنَعُّم بالحرام.

وقد ورد ذكر التَّرَف في القرآن في ثمانيةِ مواضع كلّها في موضع الذم والتحذير منه.

والترف في اللغة كما قال ابن فارس: «التاء والراء والفاء كلمة واحدة، وهي التُّرْفَة، يقال: رجل مُترفٌ مُنعَّم، وتَرَّفَهُ أهلُه إذا نعّموه بالطعام الطيب والشيء يُخَصُّ به»(٣).

فإذا نظرت إلى كل موضع في القرآن ذكر فيه الترف وجدته منسوباً إلى أهل الشر، ويأتي دائماً في سياق الذم والوعيد.

والآيات كما يأتي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ۝١١٦﴾ [هود].

---

(١) هو: الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم الراغب الأصفهاني، المعروف بالراغب، من أشهر مصنفاته: «مفردات ألفاظ القرآن»، و«جامع التفاسير»، «وحل متشابهات القرآن»، و«أفانين البلاغة»، مات سنة (٥٠٣هـ)، له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٢٠، طبقات الداوودي ٢/ ٣٢٩، باسم المفضل والصواب أنه الحسين.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن ٣١٣، ٣٩٩، وينظر: الإتقان ١/ ١٩٠، وذكرها قبله المبرد في ما اتفق لفظه واختلف معناه ٤٨، وينظر للاستزادة: كليات الألفاظ في التفسير ٢/ ٥٤٤.

(٣) معجم مقاييس اللغة، مادة: (ترف) ١/ ٣٤٥، وينظر: كتاب العين ١٠٢، لسان العرب ٩/ ١٧.

قال ابن كثير: «أي: استمروا على ما هم فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك، حتى فَجَأهم العذابُ»[١].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء].

فالمراد: أنهم استعملوا نعمة الله في معصيته والخروج عن طاعته فحق عليهم العذاب[٢].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء].

قال القرطبي: «﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾؛ أي: إلى نِعَمكم التي كانت سبب بطَرِكم، والمُتْرَف المتنعم، يقال: أُترف على فلان؛ أي: وسع عليه في معاشه»[٣].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [المؤمنون].

أي: أغنياءهم ورؤساءهم، والإشارة إلى قريش[٤].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [المؤمنون].

قال الطبري: «يقول: ونعَّمناهم في حياتهم الدنيا بما وسَّعنا عليهم من المعاش، وبسطنا لهم من الرزق، حتى بَطِرُوا وعَتَوْا على ربهم وكفروا»[٥].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ].

قال ابن الجوزي: «مترفوها: هم أغنياؤها ورؤساؤها، في المشار إليهم

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٦١.
(٢) ينظر: تفسير البغوي ٥/ ٨٣.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ٢٧٥.
(٤) ينظر: زاد المسير ٤/ ٤١٧.
(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٢٨، ٢٩.

قولان: **أحدهما**: أنهم المُتْرَفون من كل أُمة، **والثاني**: مشركو مكة»[١].

٧ ـ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزُّخرف].

قال القرطبي: «والمترف: المنَعَّم، والمراد هنا الملوك والجبابرة»[٢].

٨ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الواقعة].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: إن هؤلاء الذين وصف صفتهم من أصحاب الشمال، كانوا قبل أن يصيبهم من عذاب الله ما أصابهم في الدنيا مترفين؛ يعني: منعمين»[٣].

وقال السعدي: «أي: قد ألهتهم دنياهم، وعملوا لها، وتنعموا وتمتعوا بها، فألهاهم الأمل عن إحسان العمل، فهذا هو الترف الذي ذمهم الله عليه»[٤].

وعلى هذا فلفظ الترف اختصَّ بسياق الذم في كل مواضعه في القرآن؛ لأنه تَنَعُّمٌ شَغَل عن طاعة الله، وقاد إلى الطغيان والتكبر.

ولم يأت موضع يطلق فيه الترف على التنعُّمِ في حدود المباح، فسبحان الحكيم العليم.

ومن الأمثلة على هذه العادة:

ـ كل خسران ذكره الله في القرآن فالمراد به النقصان في الآخرة.

ومادة [خُسْرٍ] كما قال ابن فارس: «الخاء والسين والراء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على النَّقْص، فمن ذلك الخُسْر والخُسْران، ويقال: خَسَرْتُ المِيزانَ وأخْسَرْتُه، إذا نقَصْتَه»[٥].

ولفظ [خَسِرَ] ورد في القرآن أكثر من سبعين مرة باختلاف تصاريفه.

قال الراغب: «كل خسران ذكره الله تعالى في القرآن فهو على المعنى

---

(١) زاد المسير ٥/ ١٦٨.
(٢) تفسير القرطبي ١٦/ ٧٥.
(٣) تفسير الطبري ٢٣/ ١٣١.
(٤) تفسير السعدي ٨٣٤.
(٥) معجم مقاييس اللغة، مادة: (خسر) ٢/ ١٨٢.

الأخير، - أي: خسارة الميزان في القيامة - دون الخسران المتعلق بالمقتنيات الدنيوية والتجارات البشرية»[١].

ومن خسر الآخرة فقد خسر الدنيا والآخرة[٢].

ومن الآيات التي ورد فيها الخُسْر:

١ - قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة].

قال البغوي: «الخاسرون: المغبونون»[٣].

وقال السعدي: «﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ في الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم؛ لأن خسرانهم عام في كل أحوالهم؛ ليس لهم نوع من الربح؛ لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان؛ فمن لا إيمان له لا عمل له؛ وهذا الخسار هو خسار الكفر، وأما الخسار الذي قد يكون كفراً؛ وقد يكون معصية؛ وقد يكون تفريطاً في ترك مستحب، [فَهُوَ] المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر]، فهذا عام لكل مخلوق؛ إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح؛ والتواصي بالحق؛ والتواصي بالصبر؛ وحقيقة فوات الخير؛ الذي كان العبد بصدد تحصيله وهو تحت إمكانه»[٤].

٢ - وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة].

٣ - وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن ٢٨٢، ويَخْرُجُ من هذا: ما كان حكاية على لسان أحد من الخلق؛ لعدم إدراكهم معنى الخسارة الحقيقية أو لكبرهم وعنادهم، كما قال تعالى على لسان مشركي قوم شعيب: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى على لسان قوم عاد أو ثمود: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون].

(٢) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن ٢٨٢. (٣) تفسير البغوي ١/ ٧٧.

(٤) تفسير السعدي ٤٧.

قال الطبري: «﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ يقول: فقد هلك هلاكاً، وبخس نفسه حظَّها فأوبقها بخساً مبيناً يبين عن عَطَبه وهلاكه؛ لأن الشيطان لا يملك له نصراً من الله إذا عاقبه على معصيته إياه في خلافه أمرَه، بل يخذُله عند حاجته إليه»(١).

٤ ـ وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ﴾؛ أي: فلا هو حَصَل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾؛ أي: هذه هي الخسارة العظيمة، والصفقة الخاسرة»(٢).

٥ ـ وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزُّمر].

قال الطبري: «وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهم: إن الهالكين الذين غَبَنوا أنفسهم، وهلكت بعذاب الله أهلوهم مع أنفسهم، فلم يكن لهم إذ دخلوا النار فيها أهل، وقد كان لهم في الدنيا أهلون، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»(٣).

فظهر من هذه الآيات أن كل خسران ذكَرَه الله في القرآن وحذَّر منه وحكى حال أهله فهو خسارة الآخرة، ولو كان في الدنيا فلِتَرتُّب العذاب عليه في الآخرة، والله تعالى أعلم.

---

(١) تفسير الطبري ٩/ ٢٢٤.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٤٠١.
(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٢٧١.

المطلب الثاني

استعمال بعض الألفاظ مرة واحدة فقط

من عادات القرآن التي تحتاج إلى تأمل وتدبر استعمال اللفظ لمرة واحدة في القرآن كله فلا إعادة للكلمة، ولو كانت كلمة دارجة في اللسان العربي.

وبعد استقراء المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم أحصيت عدداً من الكلمات التي لم تَرِد في القرآن كلِّه إلا مرة واحدة؛ بل ولا من جَذْرِها اللغوي إلا هي.

وهي كلمات تستحق أن تُفرد في معجم مستقل، لدراسة معنى اللفظ لغوياً، ومعرفة معناه حسب السياق الوارد فيه، وفيها أسرارٌ ومعانٍ لمن تأمل فيها.

وأذكر بعض هذه الألفاظ على سبيل المثال:

المثال الأول:

ـ كلمة [يَبْحَثُ] لم ترد إلا في قول الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة].

وعند التأمل في لفظ [بحث] يتبين الآتي:

أ ـ لم تُذكَر مادة [بَحَثَ] في القرآن إلا مرة واحدة.

ب ـ البحث لغة: قال ابن فارس: «الباء والحاء والثاء أصلٌ واحد، يدلُّ على إثارة الشيء»[1].

وقال الراغب: «البحث: الكشف والطلب»[2].

وقال العسكري: «الفرق بين البحث والطلب: أن البحث هو طلب الشيء مما يخالطه فأصله أن يبحث التراب عن شيء يطلبه فالطلب يكون

---

(١) معجم مقاييس اللغة ١/ ٢٠٤.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن ١٠٨.

لذلك ولغيره»[١].

وفسَّر الطبري البحث في الآية بالحفر، حيث قال: «﴿يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: يحفر في الأرض، فيثير ترابها»[٢].

وقد ورد في القرآن لفظ [الحُفْرة والحافرة]، وعُدِل هنا عنها إلى البحث.

ج ـ تكرر في آخر الآية نفسها لفظ [يواري، فأواري]، وهو المراد من بحث الغراب، ولم يُكتف به عن لفظ البحث مع دلالته على المراد.

د ـ اختيار لفظ [المواراة] دون الدفن الذي لم يرد في القرآن، مع قربهما في المعنى.

قال ابن فارس: «دفن: الدال والفاء والنون أصلٌ واحد يدلُّ على استخفاءٍ وغموض؛ يقال: دُفِنَ الميتُ»[٣].

وقال ابن منظور: «الدَّفْن السَّتْر والمُواراة»[٤].

وهذا من إعجاز القرآن حيث كان في استعمال اللفظ (يبحث) دقيقاً؛ لأن الحفر أعمق من البحث.

قال ابن فارس: «حفر: الحاء والفاء والراء أصلان: أحدهُما: حَفْر الشّيء، وهو قلعه سُفْلاً؛ والآخَر: أوَّل الأمر»[٥].

وأكد ذلك باستعمال [يُوَارِي] بعدها؛ فالدفن أكثر من المواراة، وهذا هو حال الغراب يبحث ويواري دون الحفر والدفن.

قال القرطبي: «وقيل: إن الغراب بحث الأرض على طُعْمِه ليخفيه إلى وقت الحاجة إليه؛ لأنه من عادة الغراب فعل ذلك؛ فتنبه قابيل بذلك على مواراة أخيه»[٦].

---

(١) الفروق في اللغة ٥٢٧، وينظر: فقه اللغة ٢١٠.
(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٢٢٩.
(٣) معجم مقاييس اللغة ٢/ ٢٨٦.
(٤) لسان العرب ١٣/ ١٥٥.
(٥) معجم مقاييس اللغة ٢/ ٨٤.
(٦) تفسير القرطبي ٦/ ١٤١.

فالدقة واضحة في اختيار اللفظ الذي لم يَرِد في غير هذا الموضع من القرآن، والله تعالى أعلم وأحكم.

المثال الثاني:

ـ كلمة [**فَانْبَجَسَتْ**] وردت مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

وورد في سياق قريب منه [فَانْفَجَرَتْ]، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة].

وقد بحث العلماء في التفريق بين الانبجاس والانفجار، وخلاصته في رأيين:

الرأي الأول:

أنهما بمعنى واحد، فيكون اختيار كل لفظ في موضع من باب التفنن والتنويع في الألفاظ، مع اتحاد الدلالة.

قال البغوي: «وأكثر أهل التفسير يقولون: انفجرت وانبجست: واحد»(١).

وقال الألوسي: «والظاهر استعمالهما بمعنى واحد»(٢).

وقال ابن فارس: «بَجَسَ: الباء والجيم والسين: تفتُّح الشيءِ بالماء خاصّة»(٣).

وقال أيضاً: «فَجَرَ: الفاء والجيم والراء أصلٌ واحدٌ، وهو التفتح في الشَّيء»(٤).

والرأي الثاني:

مع موافقة أكثرهم لما سبق، قالوا: بينهما فرق دقيق؛ وخلاصة القول:

---

(١) تفسير البغوي ١/ ١٠٠.
(٢) روح المعاني ١/ ٢٧١.
(٣) معجم مقاييس اللغة ١/ ١٩٩.
(٤) المرجع السابق ٤/ ٤٧٥.

أن الانبجاس يخرج من شيء ضيق، والانفجار من شيء واسع.

قال الراغب: «يقال: بجس الماء وانبجس: انفجر، لكن الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع، ولذلك قال ﷻ: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، وقال في موضع آخر: ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة]»[١].

وعبَّر عن هذا الفرق ابن عطية، فقال: «الانبجاس: أخف من الانفجار»[٢].

وقال بعضهم في الفرق: الانبجاس أول خروج الماء، والانفجار سيلانه وقوته.

قال الألوسي: «قيل بينهما فرق، فالانبجاس: أول خروج الماء؛ والانفجار: اتساعه وكثرته»[٣].

وقال البغوي: «قال أبو عمرو بن العلاء: انبجست؛ أي: عَرِقَت، وانفجرت؛ أي: سالت»[٤].

فالجمع بين الآيتين:

أن الماء ابتدأ بالخروج قليلاً، ثم صار كثيراً[٥].

وعلى هذا فالانفجار أعم من الانبجاس، فكل انفجار انبجاس وليس كل انبجاس انفجاراً، ولذا تكررت مادة فَجَّر في القرآن؛ وهي شاملة لكلِّ المعاني الأصلية التي قيلت في الانبجاس والانفجار على ما ذكره ابن فارس في أصل المادة لكلا اللفظين[٦].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن ٦٩.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٣٥.
(٣) روح المعاني ١/ ٢٧١.
(٤) تفسير البغوي ١/ ١٠٠.
(٥) تفسير الرازي ١٥/ ٢٩.
(٦) ينظر: معجم مقاييس اللغة ١/ ١٩٩، ٤/ ٤٧٥.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف].

وقوله سبحانه: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر].

ولم يقل: بجَّسنا، فللّه الحكمة البالغة العالية.

وبناءً على ما سبق من فروق بين لفظ انبجس وانفجر.

فعند التأمل ـ أكثر ـ في آية سورة الأعراف نرى أن طلب السقيا من بني إسرائيل فيها موضع ابتداء؛ قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، وقد جاء في الجواب ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ الدالُّ على ابتداء خروج الماء وخفته.

وفي سورة البقرة كان الطلب من موسى ﷺ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [البقرة: ٦٠]، وهو موضع كمالِ السؤال، فجاء الجواب بلفظ: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ الدال على الغزارة والسيلان؛ فناسب بداية الطلب بداية السقيا، وناسب تمام الطلب تمام السقيا، والله أعلم.

ويستنبط من هذه الآية التي انفردت بلفظ الانبجاس:

١ ـ أن استعمال لفظ في موضع من القرآن لا يمكن أن يُستَعاض عنه بغيره ألبتَّة.

٢ ـ عنايةُ القرآن بعدم التكرار لكل الألفاظ من العناية بما يناسب المقام.

٣ ـ أن لطائف القرآن لا تنتهي، وكلٌّ من تدبر علم أنه بحاجة إلى زيادة تدبُّر.

٤ ـ أن استعمال اللفظ في موضعٍ، وغيرُه في موضع آخر معَ أن السياقَ متقاربٌ، إشارة إلى أن كل آية تتحدث عن جانب من جوانب الحدث بلا تعارض، والله أعلم.

٥ ـ عناية القرآن بالتنويع بين الألفاظ مع عدم التعارض؛ وفيها دلالة على سعة اللغة العربية التي نزل بها القرآن، وعلى ثراء ألفاظها، ودقة معانيها.

المثال الثالث:

- كلمة [سَكَتَ] لم ترد في القرآن إلا في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾؛ أي: سكن، ﴿عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾؛ أي: غضبه على قومه، ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾؛ أي: التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل، غيرةً لله وغضباً له»(١).

معنى [سَكَتَ] في اللغة: خلاف نَطَقَ، ويأتي بمعنى سكن، وهو المراد في الآية(٢).

قال ابن فارس: «سكت: السين والكاف والتاء يدلُّ على خِلاف الكلام»(٣).

وقال مكي: «والمعنى: ولما سكن عن موسى عليه السلام غَضَبُهُ.

يقال: سَكَتَ سَكْتاً، إذا سَكَنَ، وسَكَتَ سُكُوتاً وسُكْتاً، إذا قَطَعَ الكَلَامَ»(٤).

وقال الفراء: «﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾، والغضب لا يسكت، إنما يسكت صاحبه، وإنما معناه: سكن»(٥).

ومثله قال النحاس(٦)، وابن قتيبة(٧)، وغيرهم(٨).

وقال الراغب: «السُّكُوتُ مختصّ بترك الكلام، ولمّا كان السّكوت ضرباً من السّكون استعير له في قوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾»(٩).

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٨.
(٢) ينظر: الصحاح ٢/ ٢٧٥، لسان العرب ٢/ ٤٣.
(٣) معجم مقاييس اللغة ٣/ ٨٩، وينظر: لسان العرب ٢/ ٤٣.
(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية ٤/ ٢٥٧٦.
(٥) معاني القرآن ٢/ ١٥٦.
(٦) معاني القرآن ٣/ ٨٥.
(٧) غريب القرآن ١٧٣.
(٨) ينظر: ياقوتة الصراط ٢٣٢.
(٩) مفردات ألفاظ القرآن ٤١٦.

وعلى هذا فالأصل في السكوت قطع الكلام، ويأتي بمعنى السكون، فاختيار اللفظ هنا على الأصل ولكن لِمَ لَمْ يُقل: سكَن؟ فالغضب لا يسكت وإنما يسكُن، وقد ذُكِر السكن في القرآن كثيراً[١]، وعُدل عنه في هذا الموضع إلى لفظ: [سَكَتَ] الذي لم يرد في غير هذا الموضع، فقد أفاد معاني لا يؤديها غيره، ومنها:

١ ـ أفادت أن الغضب إذا تطور وتمكن في النفس صار كالإنسان الآمر الناهي، ولذلك قال ولما سكت الغضب، كأنه يأمره بصوت ثم سكت[٢].

قال ابن عاشور: «وحسن هذا التشبيه أن الغضبان يجيش في نفسه حديث للنفس يدفعه إلى أفعال يطفئ بها ثوران غضبه، فإذا سكن غضبه وهدأت نفسه كان ذلك بمنزلة سكوت المغري، فلذلك أطلق عليه السكوت»[٣].

٢ ـ أن من معاني السكوت اللغوية: السكون، وهذا هو تفسير هذه الآية عند أهل العربية[٤]، والجامع بين اللفظين: الكف عن الشيء.

٣ ـ أن السكون أعم من السكوت فكل ما هدأ فقد سكن؛ كالريح والمطر والناس والبهائم، وفي الحركة والصوت.

قال الراغب الأصفهاني: «السكون: ثبوت الشيء بعد تحرك، ويُستَعمل في الاستيطان نحو سكن فلان مكان كذا»[٥].

٤ ـ في اختيار لفظ السكوت ـ والله أعلم ـ أن الغضب ما زال بالكلية عن موسى وإنما خفّ وقلّ، فلم يأت بلفظ يدل على الزوال مثل: [ذَهَبَ] كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾

---

(١) قال ابن فارس: «السين والكاف والنون أصلٌ واحد مطّرد، يدلُّ على خلاف الاضطراب والحركة، يقال: سَكَن الشّيءُ يسكُن سكوناً فهو ساكن» معجم مقاييس اللغة ٣/ ٨٨.

(٢) ينظر: الكشاف ٢/ ١٥٤.

(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٠٣.

(٤) ينظر: العين ٤٣٥، معجم مقاييس اللغة ٣/ ٨٩، لسان العرب ٢/ ٤٣.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن ٤٨٦.

[هود]؛ لأنه هنا ـ والله أعلم ـ زال الروع بالكلية عن إبراهيم عليه السلام وجاءته البشرى فلم يعُد للخوف في قلبه أيُّ أثر، أما موسى عليه السلام فقد قل الغضب؛ لأن توبة القوم لم يتأكد بعدُ أنها خالصة[(١)]، ولم يجزم بأنها من الجميع، ولذا قال في الآية بعدها: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف].

إن هذه الكلمات التي لم ترد في القرآن إلا مرة واحدة تحتاج إلى جمع ودراسة، وبيان اللطائف المستفادة منها، **ومن الكلمات الأفراد في القرآن على سبيل المثال:**

١ ـ **[الرَّطْب]** في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام].

٢ ـ **[الخبز]** في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف].

٣ ـ **[الجو]** في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل].

٤ ـ **[الرُّطَب]** في قوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم].

٥ ـ **[الساحل]** في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه].

٦ ـ **[جَامِدَةً]** في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل].

---

(١) ينظر: روح المعاني ٩/ ٧١.

٧ ـ [**الشعوب**] في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

٨ ـ [**الْمَجَالِسِ**] في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ﴾ [المجادلة: ١١].

٩ ـ [**الزنجبيل**] في قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾ [الإنسان].

١٠ ـ [**السَّوط**] في قوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ [الفجر].

١١ ـ [**أذاعَ**] في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء].

١٢ ـ [**خلَع**] في قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [طه].

ومما يستنبط من هذه العادة:

أ ـ سعة لغة القرآن وشموله على الثروة اللغوية الكبيرة من الكلمات العربية.

ب ـ تسمية بعض السور بالكلمة التي لم ترد إلا مرة واحدة تمييزاً لها عن غيرها، ومن السور التي سُميت بالكلمة التي لم ترد في القرآن إلا فيها:

سورة الروم، وسورة الأحقاف، وسورة الجمعة، وسورة التغابن، وسورة المزمل، وسورة المدثر، وسورة المطففين، وسورة التين، وسورة الفيل، وسورة قريش، وسورة الماعون، وسورة المسد.

ج ـ بعض الكلمات الغريبة التي تذكر وحيدة في القرآن فلِسِرٍّ يُناسب سياق الآية، وهذا من إعجاز القرآن الأسلوبي؛ لأن اختيار اللفظ المناسب للسياق هو عادة القرآن.

وصدق الله القائل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء].

المطلب الثالث

استعمال الألفاظ اللائقة بالقرآن

عادة القرآن اختيار الألفاظ اللائقة التي يقبلها الذوق السليم، وتدل على المعنى المراد بكل وضوح، والتكنِيَة عن المعاني التي يُستحيَى منها دون التصريح بها أبلغ عند العرب، ويعدُّونه من البراعَة والبلاغة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الرفث الجماعُ، والمباشرة الجماع، والملامسة الجماع، ولكن الله كريم يَكني»(١).

قال مكي: «وهو قول جميع المفسرين»(٢).

وقال مجاهد(٣): «﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]، قال: وأسْتَاهَهم، ولكن الله كريم يَكْنِي»(٤).

قال الزركشي: «ومن عادة القرآن العظيم الكناية عن الجماع باللمس والملامسة والرفث، والدخول، والنكاح، ونحوهن، قال تعالى: ﴿فَالْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فكنى بالمباشرة عن الجماع لما فيه من التقاء البشرتين، وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ النِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣]، إذ لا يخلو الجماع من الملامسة»(٥).

---

(١) أخرجه الطبري ٣/ ٤٨٧، ٣/ ٥٠٤، ٨/ ٣٩١، وينظر: المحرر الوجيز ٢/ ٣٥، تفسير القرطبي ٥/ ١٠٢، تفسير ابن كثير ٢/ ٣١٤.

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية ١/ ٦١٥.

(٣) هو: مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي الأسود، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي شيخ القراء والمفسرين، مات سنة (١٠٢هـ)، له ترجمة في: الجرح والتعديل ٨/ ٣١٩، سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٤٩.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ١٦، وينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٤/ ٢٨٤٨، الكشاف ٢/ ٢١٧.

(٥) البرهان ٢/ ٣٠٣.

فكل كلمات القرآن بلا استثناء هي أعلى الألفاظ وأرفع الأساليب، فلا نجد في القرآن كلمةً لا تليق، ولا كلمةً تخدش الحياء، ولا نرى عبارةً لا تتَّسم بالأدب.

وفي هذه العادة:

١ ـ مراعاة ذوقِ السامع والقارئ فيما يُستحيى من ذكره.

٢ ـ وتربية المؤمنين على الأدب، وتعليمهم الخلق، والسمو بنفوسهم وعقولهم إلى الأفق العالي، والمستوى الرفيع.

٣ ـ وفيها أدب الخطاب والحوار، وأساليب الإقناع المناسبة للمعارضين.

قال الشاطبي عن القرآن: «أتى فيه الكناية في الأمور التي يُستحيى من التصريح بها، كما كنى عن الجماع باللباس والمباشرة، وعن قضاء الحاجة بالمجيء من الغائط، وكما قال في نحوه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ [المائدة: ٧٥][(١)]؛ فاستقر ذلك أدباً لنا استنبطناه من هذه المواضع، وإنما دلالتها على هذه المعاني بحكم التَّبع لا بالأصل»[(٢)].

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ﴾ [البقرة: ١٨٧].

أصل اللباس: الثياب، وفيه دلالة على المخالطة والمداخلة[(٣)]، ومن ثَمَّ سُمي امتزاج كل واحد من الزوجين بصاحبه لباساً، لانضمام الجسد وامتزاجهما وتلازمهما تشبيهاً بالثوب[(٤)].

قال البغوي: «قيل: سُمي كل واحد من الزوجين لباساً لتجردهما عند النوم واجتماعهما في ثوب واحد حتى يصير كل واحد منهما لصاحبه كالثوب

---

(١) أي: ويلزم قضاء الحاجة التي لا تليق بالإلـه، ينظر: الهداية ٣/ ١٨١٦.

(٢) الموافقات ٢/ ١٦٥.

(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة ٥/ ٢٣٠.

(٤) ينظر: تفسير الطبري ٣/ ٤٨٩، تفسير القرطبي ٢/ ٣١٦.

الذي يلبسه»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة].

فلفظ (أذى) لفظ جامع لأشياء تؤذي، لما فيه من القذارة والنتن، ومخرجه سبيل البول، واختيار القرآن لهذه اللفظة دل على المراد مع مراعاة الذوق وإفادة المعنى[٢].

ومن هذه العادة يستنبط أنه من الأدبِ تحسين العبارة بالكناية ونحوها في المواطن التي يُحتاج فيها إلى ذِكْر ما يستحيى من ذِكْرِه.

ـ وقوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة].

في هذه الآية تَرْك ما يَفحُش ذِكرُه على السمع، وهي كنايةٌ وتربية على حسن الكلام.

قال الزمخشري: «﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة، وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة، على المؤمنين أن يتعلَّموها ويتأدَّبوا بها، ويتكلَّفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم»[٣].

وقال أبو حيان: «﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ الإتيان كناية عن الوطء»[٤].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥].

عبَّر عن الجماع بالسر[٥].

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٢٠٧.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٢٨٥.
(٣) الكشاف ١/ ٢٩٤.
(٤) البحر المحيط ٢/ ١٨٠، وينظر: تفسير أبي السعود ١/ ٢٢٣.
(٥) ينظر: تفسير السمرقندي ١/ ١٨١، البرهان ٢/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤، وذهب جماعة من السلف إلى أن المراد: لا توافقوهن بالمواعدة والتوثق وأخذ العهود في استسرار =

قال ابن قتيبة: «﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥]؛ أي: نكاحاً؛ لأن النكاح يكون سراً ولا يظهر، فاستعير له السرّ»(١).

وقال الطبري: «ولكن حرم عليكم أن تواعدوهن جماعاً في عُددهن»(٢).

وقال أبو حيان: «﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥]، كنَّى بالسر عن النكاح، وهي من أبلغ الكنايات»(٣).

وبهذا تظهر دقة اختيار القرآن للألفاظ؛ من خلال كونها تحمل المعنى المراد وافياً، مع جمالها وقَبول الذوق لها، وفهم المقصود منها.

ـ وقول الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء].

في هذه الآية سمَّى الله تعالى قضاء الحاجة مجيئاً من الغائط، والوطء لمساً، فأتى بالكناية في الأمور التي يستحيى من التصريح بها.

قال الفراء: «﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ كناية عن خلوة الرجل إذا أراد الحاجة»(٤).

وقال أبو السعود: «﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾، هو المكان الغائر المطمئن، والمجيء منه كناية عن الحدث؛ لأن المعتاد أن من يريده يذهب

= منكم، ينظر: النكت والعيون ١/ ٣٠٤، ونسبه ابن عطية للجمهور، وقال الطبري: «وأولى الأقوال بالصواب في تأويل ذلك، تأويل من قال: [السر] في هذا الموضع الزنا. وذلك أن العرب تسمي الجماع وغشيان الرجل المرأة [سراً]؛ لأن ذلك مما يكون بين الرجال والنساء في خفاء غير ظاهر مطلع عليه، فيسمى لخفائه [سرّاً]» تفسير الطبري ٥/ ١١٠، وقال ابن عطية: «هكذا جاءت عبارة هؤلاء في تفسير السر، وفي ذلك عندي نظر، وذلك أن السرَّ في اللغة يقع على الوطء حلاله وحرامه» المحرر الوجيز ١/ ٣٠٦.

(١) تأويل مشكل القرآن ٩١.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ١١٣.

(٣) البحر المحيط ٢/ ٢٤٠.

(٤) معاني القرآن ١/ ٣٠٣، وينظر: معاني القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٤، زاد المسير ١/ ٢٧٧، تفسير ابن كثير ٢/ ٣١٤.

إليه ليواري شخصه عن أعين الناس، وإسناد المجيء منه إلى واحد منهم من المخاطبين دونهم للتفادي عن التصريح بنسبتهم إلى ما يستحيى منه أو يستهجن التصريح به، وكذلك إيثار الكناية فيما عطف عليه من قوله ﷻ: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ على التصريح بالجماع»[١].

- وقوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ [المائدة: ٧٥].

قال مكي: «فنبه بأكل الطعام على عاقبته»[٢].

وقال ابن الجوزي في ختام الآية: «وقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة] من ألطف ما يكون من الكناية»[٣].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾؛ أي: يحتاجان إلى التغذية به، وإلى خروجه منهما، فهما عبدان كسائر الناس وليسا بإلـٰهين»[٤].

- وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

قوله: ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾، كناية عن الجماع[٥].

- وقوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ [يوسف: ٢٣].

فالمراد: ما تريده المرأة من الرجل[٦].

- وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء].

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/ ١٨٠.
(٢) الهداية ٣/ ١٨١٦.
(٣) زاد المسير ٢/ ٢٤٨.
(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ١٥٩.
(٥) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٤/ ٢٦٦٩، المحرر الوجيز ٢/ ٥٥٧، التسهيل ١/ ٤٣٣، تفسير أبي السعود ٣/ ٣٠٣.
(٦) ينظر: تفسير الطبري ١٦/ ٢٤، تفسير البغوي ٤/ ٢٢٧، زاد المسير ٤/ ٢٠١، التسهيل ٢/ ١٤.

ـ وقوله جل وعلا: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التَّحريم].

فمن خلال هذه الآيات بيان حمل مريم عليها السلام بالمسيح بنفخ جبريل في جيب درعها، ولا يمكن التعبير إلا بمثل هذه الألفاظ الجميلة.

قال الطبري: «وقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ يقول: فنفخنا فيه في جيب درعها، وذلك فرجها، ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ من جبرئيل، وهو الروح، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»[(١)].

وقال ابن كثير: «فإن الله بعثه ـ أي: جبريل ـ إليها فتمثل لها في صورة بشر سَوي، وأمَرَه الله تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام»[(٢)].

ومما يُستفاد من هذه العادة:

ـ تنزيه القرآن عن الكلمات الفاحشة.

ـ تربية المؤمنين على الأدب وحسن الخطاب.

ـ وقوف القرآن على مواطن العبرة، وترك ما عداها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف]، وهذا خلاف كلام أهل الفحش، والروايات الهابطة، الذين يبسطون مشاهد السوء، ويطوُون العبر.

فما أجمل اختيار القرآن للألفاظ اللائقة والمناسبة للذوق مع دلالتها على المراد في جميع الآيات، واختيار المواضع التي كُني فيها عن ما يُستحيى من التصريح بذكره يكون المثال أوضح وأقرب، كما أنها المواضع التي نص المفسرون فيها على هذه العادة[(٣)].

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ٥٠٠.
(٢) تفسير ابن كثير ٨/ ١٧٣.
(٣) ينظر: تفسير القرطبي ١١/ ٣٣٨، تفسير البغوي ٥/ ٣٥٣.

المبحث الثالث

نيابة بعض الألفاظ عن بعض

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول: وضع الماضي موضع المستقبل.**
- **المطلب الثاني: تذكير المؤنث.**
- **المطلب الثالث: استعمال لفظين مختلفين في معنى واحد.**

المطلب الأول

وضع الماضي موضع المستقبل

إن المتأمل لكلام الله جل وعلا يرى فيه من الخصائص والمزايا ما لا يجده في غيره من الكلام.

ومن ذلك: مخالفة ظاهر اللفظ لمراعاة المعنى.

والحقُّ أنها الدقة في وضع الألفاظ مواضِعَهَا حسَبَ السياق المناسب لها؛ فيُراعَى المعنى بالدرجة الأولى، وتكون الألفاظُ وسيلةً لإيصال المعنى بأقرب صورة.

وفي هذا المطلب أمثلةٌ لاستعمال الفعل الماضي موضع الفعل المستقبل، نظراً إلى أن ما هو متحققُ الوقوعِ مستقبلاً فهو بحكم الواقع فعلاً، دل عليه السياق وكلام المفسرين، والبلاغيين، وهو ما يسمى: خروج الكلام عن مقتضى الظاهر.

وهذا التعويض بالماضي عن المستقبل، من عادة العرب عند تحقق الوقوع.

فمَن رأيناهُ يرمي نفسَه من شاهق على صخرة لينتحر؛ قُلنا عنه بصيغة

الماضي: هذا قَتَل نفسه، لعدم وجود الشك بأنه سيتحطم ويهْلَكُ عند وصوله الصخرةَ التي رمى نفسه عليها.

وكذا لو كان الصديقُ بالطريق إليّ، وقد قرب وتحقق وصوله، يقول بصيغة الماضي: وصَلْت إليك.

قال ابن فارس: «باب التعويض: من سُنن العرب التَّعْوِيض وهو إقامة الكلمة مقامَ الكلمة، فيقيمون الفعلَ الماضي مقامَ الراهن؛ كقوله جلّ ثناؤه: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النمل]، المعنى: أم أنت من الكاذبين، ومنه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ... ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة]، بمعنى: أنتَ عليها»[(١)].

قال الشنقيطي: «والتعبير عن المستقبل بصيغة الماضي لتحقق وقوعه، كثيرٌ في القرآن»[(٢)].

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾ [النحل].

كان الكفار يستعجلون ما وُعِدوا به من قيام الساعة حيث قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر]، ويقولون: ما نرى شيئاً مما تخوِّفنا به، استهزاءً وتكذيباً، فأنزل الله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١][(٣)]، الذي هو بمنزلة الآتي الواقع، وإن كان منتظراً لقرب وقوعه[(٤)].

ومعنى ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾: سيأتي؛ لأنه قال بعدها: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، وعبَّر بالماضي عن المستقبل لتأكد وقوعه.

قال مكي: «إنما جاء كذلك لأنهم استبعدوا ما وعدهم الله من عذاب، فأتى بالماضي في موضع المستقبل لقربه من الإتيان، ولصدق المخبر به»[(٥)].

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة ٥٩. (٢) أضواء البيان ٢/ ٣٢٦.

(٣) ذكره الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما في أسباب النزول ٢٢٨، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير، والبغوي في تفسيره ٤/ ٧، ولم أجده مسنداً عن ابن عباس، وأخرجه الطبري عن ابن جريج بمعناه ١٧/ ١٦٢.

(٤) ينظر: الكشاف ٣/ ٣٣٠. (٥) الهداية ٦/ ٣٩٤٥.

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها، معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة كما قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾ [القمر]»[١].

وقال السيوطي: «إطلاق الماضي على المستقبل لتحقق وقوعه نحو: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الساعة بدليل: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾»[٢].

وقال الشنقيطي: «﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: قرب وقت إتيان القيامة، وعبَّر بصيغة الماضي؛ تنزيلاً لتحقق الوقوع منزلة الوقوع»[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧﴾ [النمل].

قوله: ﴿فَفَزِعَ﴾ ماضٍ أريد به ما يقع يوم النفخ وهو في المستقبل، والمراد ـ والله أعلم ـ الإشارة إلى القرب وتحقق الوقوع.

قال الزركشي: «﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ﴾، لا يمكن أن يراد به المضيّ؛ لمنافاة ﴿يُنفَخُ﴾ الذي هو مستقبل في الواقع، وفائدة التعبير عنه بالماضي: الإشارة إلى استحضار التحقق، وإنه من شأنه لتحققه أن يعبر عنه بالماضي وإن لم يرد معناه»[٤].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزُّمر].

فقوله: ﴿وَنُفِخَ...﴾ ﴿ثُمَّ نُفِخَ﴾ أفعال ماضية، وهي لم تحدث بعد.

قال الطبري: «ونفخ إسرافيل في القرن»[٥].

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزُّمر]

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٥٥.
(٢) الإتقان ٢/ ٨٣.
(٣) أضواء البيان ٢/ ٣٢٦.
(٤) البرهان ٣/ ٣٧٣.
(٥) تفسير الطبري ٢١/ ٣٢٩.

بين ما يكون بعد قبض الأرض وطي السماء وهو النفخ في الصور»[١].

وبعدها قال سبحانه: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر].

فيها ألفاظ: **فَصَعِقَ، وَأَشْرَقَتِ، وَوُضِعَ، وَجِيءَ، وَقُضِيَ**، كلها بصيغة الماضي ولكنها لم تقع بعد، بل هي في المستقبل بعد النفخ في الصور، وهذا التعبير لتحقق الوقوع، وصدق المُخبِر.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم].

هذا حدث حقيقي في يوم البعث، ولذلك فالتعبير بالماضي في قوله: ﴿وَبَرَزُوا۟﴾ دليل على تحقق الوقوع.

قال البغوي: «﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١]؛ أي: خرجوا من قبورهم إلى الله وظهروا جميعاً»[٢].

وقال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ لفظه لفظ الماضي، ومعناه المستقبل، والمعنى: خرجوا من قبورهم يوم البعث، واجتمع التابع والمتبوع»[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف].

هذا النداء بعد استقرار أهل الجنة في منازلهم، والتعبير بالماضي لتحقق وقوعه، وفيه الترغيب بما يوصل إلى الجنة، قبل فوات الأوان.

قال ابن كثير: «يخبر تعالى بما يخاطب أهلُ الجنة أهلَ النار إذا استقروا في منازلهم، وذلك على وجه التقريع والتوبيخ»[٤].

---

(١) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٧٩.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٤٣.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٥.
(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٦.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٤٨﴾ [الأعراف]، وأمثالها كثير.

ويغلب استعمال هذا الأسلوب في سياق التهويل والتهديد وتعظيم أمور الآخرة.

قال الزركشي: «ويغلب ذلك ـ التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي ـ فيما إذا كان مدلول الفعل من الأمور الهائلة المهددة المتوعد بها؛ فيعدل فيه إلى لفظ الماضي تقريراً وتحقيقاً لوقوعه؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧﴾ [النمل]، وقوله في الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزُّمر]، وقوله: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ [إبراهيم: ٢١]، . . .» إلخ[١].

وفي هذه العادة الأسلوبية:

١ ـ مخالفة ظاهر اللفظ مع مراعاة الدقة في المعنى، وذلك بتنزيل تحقُّقِ الوقوع منزلة الوقوع[٢].

٢ ـ وفيها الدلالة على قربه.

٣ ـ وكذلك صدق المُخبِر.

قال القرطبي: «أخبار الله تعالى في الماضي والمستقبل سواء؛ لأنه آت لا محالة»[٣].

فمعرفة هذه العادة مما يُجلِّي القولَ بدقة ألفاظ هذا القرآن، وأن كل كلمة في موضعها المناسب، فلا يمكن رفعها وتنزيل غيرها مكانها، أو تبديلها بأحسن منها؛ لأنه ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فصّلت].

---

(١) البرهان ٣/٣٧٢، وينظر: الإتقان ٢/٨٣.
(٢) الصاحبي في فقه اللغة ٥٩، وينظر: المزهر ١/٢٦٥.
(٣) تفسير القرطبي ١٠/٦٥.

المطلب الثاني

تذكير المؤنث

❏ القاعدة المختَصَرة لمواضع تأنيث الفعل وجوباً:

١ ـ إذا كان الفاعل اسماً ظاهراً حقيقيَّ التأنيث متصلاً بالفعل، نحو: «قامت هند».

٢ ـ إذا كان الفاعل ضميراً مستتراً يعود على مؤنث حقيقي التأنيث أو مجازي التأنيث، نحو: هند قامت، والشّمس طلعت.

❏ ويجوز تأنيث الفعل مع الفاعل:

١ ـ إذا كان الفاعل حقيقي التأنيث مفصولاً عن فعله، نحو: حضر القاضي اليوم امرأةٌ، وحضرت القاضي اليوم امرأةٌ.

٢ ـ إذا كان الفاعل ظاهراً مجازي التأنيث، نحو: طلع الشّمس، وطلعت الشّمس.

٣ ـ إذا كان الفاعل جمع تكسير، نحو: جاء الرجال، وجاءت الرجال(١).

ومن عادات القرآن الأسلوبية استعمالُ المذكر في موضعٍ ظاهره استعمالُ المؤنث، وهذا من تَرْك حُكمِ ظاهر اللفظ وحمله على معناه، وهو نوع من أنواع البلاغة القرآنية.

وتذكير المؤنث من سنن العرب.

يقول ابن جني: «فصل في الحمل على المعنى: قد ورد به القرآن وفصيحُ الكلام منثوراً ومنظوماً، كتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث»(٢).

---

(١) ينظر: اللمحة شرح الملحة ١/ ٣١٣، ٣١٤، شرح شذور الذهب ١٩٣، شرح ابن عقيل ١/ ٣٧٣.

(٢) الخصائص ٢/ ٤١١.

وقال الثعالبي[(١)]: «فصل في تذكير المؤنث وتأنيث المذكَّر في الجمع: هو من سنن العرب قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ [يوسف: ٣٠]، وقال: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ [الحجرات: ١٤]»[(٢)].

وقال الكفوي: «وتذكير المؤنث أسهلُ من تأنيث المذكر؛ لأن التذكير أصل والتأنيث فرع، فتذكير المؤنث على تأويله بمذكر، نحو: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٥]؛ أي: وعظ، ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [ق: ١١]؛ أي: مكاناً، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٨]؛ أي: هذا الشخص أو الجرم أو الطالع...» إلخ[(٣)].

وتذكيرُ المؤنثِ أوسعُ من تأنيث المذكر.

قال ابن جني: «وتذكير المؤنث واسع جداً؛ لأنه رد فرع إلى أصل، لكن تأنيث المذكر أذهب في التناكر والإغراب»[(٤)].

وعلى هذا فأمثلة تذكير المؤنث كثيرة، **وفي هذه العادة:**

١ ـ ردُّ فرع إلى أصل.

٢ ـ مراعاةُ المعنى الأصلي.

٣ ـ إفادة معنى إضافي، وأسلوب بلاغي.

قال الثعالبي: «فصل في حمل اللفظ على المعنى في تذكير المؤنث وتأنيث المذكر:

من سنن العرب ترك حكم ظاهر اللفظ وحمله على معناه... وفي القرآن: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١﴾ [الفرقان]، والسَّعير مذكر، ثمَّ قال: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [الفرقان: ١٢]، فحمله على النار؛ فأنَّثه، وقال

---

(١) هو: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، أبو منصور الثعالبي النيسابوري، من أئمة اللغة والأدب، كان فراءً يخيط جلود الثعالب، واشتغل بالأدب والتاريخ، ومن مصنفاته: «يتيمة الدهر»، و«فقه اللغة»، و«سحر البلاغة»، و«لطائف المعارف»، مات سنة (٤٢٩هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٣/ ١٧٨، شذرات الذهب ٣/ ٢٤٦.

(٢) فقه اللغة وأسرار العربية ٣٦٧.

(٣) الكليات ١٣١٧.

(٤) الخصائص ٢/ ٤١٥.

عزَّ اسمه: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [ق: ١١]، ولم يقل: ميتة؛ لأنه حمله على المكان، وقال جلّ ثناؤه: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨]، فذكَّر السّماء وهي مؤنثة؛ لأنه حمل الكلام على السقف، وكل ما علاك وأظلك فهو سماء، والله أعلم»(١).

ومن الأمثلة لتذكير المؤنث:

- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة].

فلفظ: [مَوْعِظَةٌ] مؤنث، والفعل [جاءَ] مذكر.

قال الزركشي: «يكثر في تأويله ـ المؤنث ـ بمذكر؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، على تأويلها بالوعظ»(٢).

جاز تذكير الموعظة أو معاملتها معاملة المذكر؛ لأن تأنيثها ليس بحقيقي، وانصرف الفعل إلى معنى الموعظة.

قال السمرقندي: «﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ولم يقل جاءته؛ لأن التأنيث ليس بحقيقي، ويجوز أن يذكر ويؤنث؛ لأنه انصرف إلى المعنى؛ يعني: فمن جاءه نهي، ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ في القرآن، في بيان تحريم الربا»(٣)، ومثله قال القرطبي(٤).

قال ابن كثير: «﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥]؛ أي: من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه، فله ما سلف من المعاملة»(٥).

وقد جاء الفعل مؤنثاً مع الموعظة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ

---

(١) فقه اللغة وأسرار العربية ٣٦٧.
(٢) البرهان ٣/ ٣٥٩.
(٣) تفسير السمرقندي ١/ ٢٠٧.
(٤) تفسير القرطبي ٣/ ٣٥٩.
(٥) تفسير ابن كثير ١/ ٧٠٩.

جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس].

وهذا مما يؤكد جواز ذلك[1]، كما هو قول أهل اللغة، والوعظ والموعظة معبران عن معنى واحد[2].

قال ابن منظور[3]: «الوَعْظ والعِظةُ والعَظةُ والمَوْعِظةُ: النُّصْح والتذْكير بالعَواقِب... وفي التنزيل: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، لم يجئ بعلامة التأْنيث؛ لأنه غير حقيقي، أَو لأَن الموعِظة في معنى الوَعْظ»[4].

والمراد بالموعظة هنا: القرآن في كلام أكثر المفسرين[5].

فالملحوظ أن في تذكير الفعل إسقاطاً للتاء، وفي تأنيثه زيادة التاء.

فتفسير الأولى: مجيء النهي من القرآن.

وتفسير الثانية: مجيء القرآن كلِّه.

وفي هذا تأكيد لزيادة المعنى عند زيادة المبنى، والله أعلم.

ومن الأمثلة: تذكير الفعل مع لفظ البينات.

- كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران].

الفعل [جَاءَ]: مذكر، والفاعل [الْبَيِّنَاتُ]: مؤنث.

قال الطبري: «يعني: وجاءهم الحجج من عند الله والدلائلُ بصحة ذلك»[6].

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٣٥٦. (٢) ينظر: زاد المسير ١/ ٢٨٤.

(٣) هو: محمد بن مكرم بن علي ابن منظور أبو الفضل الأنصاري، من أشهر كتبه: «لسان العرب»، وله اختصارات كثيرة لكتب الأدب المطولة، مات سنة (٧١١هـ)، له ترجمة في: فوات الوفيات ٢/ ٢٦٥، الدرر الكامنة ٤/ ٢٦٢.

(٤) لسان العرب مادة: (وَعَظ) ٧/ ٤٦٦.

(٥) ينظر: تفسير الطبري ١/ ٦٧، ١٥/ ١٠٥، معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٠، الكشاف ٢/ ٣٣٦، تفسير ابن كثير ٤/ ٢٧٤، تفسير القرطبي ٨/ ٣٥٣، البرهان ١/ ٢٧٣.

(٦) تفسير الطبري ٦/ ٥٧٦.

فالمراد بالبينات: الحُجَج والدلائل على صدق الرسول ﷺ.

قال ابن كثير: «أي: قامتْ عليهم الحُجَجُ والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسولُ، وَوَضَح لهم الأمرُ، ثم ارتدوا إلى ظُلْمة الشرك»[1].

- وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران].

أي: من حُجج الله[2].

قال ابن كثير: «ينهى هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضية في تفرقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم»[3].

- وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [غافر].

قال القرطبي: «أي: دلائل توحيده»[4].

ولفظ ﴿الْبَيِّنَاتُ﴾ ليست مؤنثاً حقيقياً؛ فيجوز إتيان الفعل مذكراً.

ولذا جاء في باقي المواضع بتأنيث الفعل.

- كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ [البقرة].

قال الطبري: «وقد قال عدد من أهل التأويل إن البينات هي: محمد ﷺ والقرآن، وذلك قريب من الذي قلنا في تأويل ذلك؛ لأن محمداً ﷺ والقرآن، من حجج الله على الذين خوطبوا بهاتين الآيتين، غير أن الذي قلناه في تأويل ذلك أولى بالحق؛ لأن الله جل ثناؤه، قد احتج على من خالف الإسلام من أحبار أهل الكتاب بما عهد إليهم في التوراة والإنجيل، وتقدَّم إليه على ألسن أنبيائهم بالوصاة به، فذلك وغيرُه من حجج الله تبارك وتعالى عليهم مع ما لزمهم من الحجج بمحمد ﷺ وبالقرآن، فلذلك اخترنا ما اخترنا من التأويل

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٧١.
(٢) ينظر: تفسير الطبري ٧/ ٩٢.
(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٩١.
(٤) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٢٩.

في ذلك، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»(١).

فرجّح الطبري الجَمْعَ بين القولين فشمل معنى البينات في هذه الآية: حُجج الله ومنها القرآن والرسالة.

ـ وقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة].

أي: كان الناس مجتمعين على الهدى، وذلك عشرة قرون بعد نوح عليه السلام، فلما اختلفوا في الدين فكفر فريق منهم وبقي الفريق الآخر على الدين، وحصل النزاع وبعث الله الرسل ليفصلوا بين الخلائق ويقيموا الحجة عليهم، وقيل: بل كانوا مجتمعين على الكفر والضلال والشقاء، ليس لهم نور ولا إيمان، فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم مبشرين ومنذرين، وذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب، وهذا يقتضي اتفاقهم عليها واجتماعهم، فأخبر تعالى أنهم بغى بعضهم على بعض، وحصل النزاع والخصام وكثرة الاختلاف.

فاختلفوا في الكتاب الذي ينبغي أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه، وذلك من بعد ما علموه وتيقنوه بالآيات البينات، والأدلة القاطعات، فضلوا بذلك ضلالاً بعيداً(٢).

قال الطبري: «﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ يعني بذلك: من بعد ما جاءتهم حجج الله وأدلته أنّ الكتابَ الذي اختلفوا فيه وفي أحكامه عند الله، وأنه الحق الذي لا يسعهم الاختلاف فيه، ولا العمل بخلاف ما فيه»(٣).

وقال البغوي: «صفة محمد ﷺ في كتبهم»(٤).

---

(١) تفسير الطبري ٤/ ٢٥٩. (٢) ينظر: تفسير السعدي ٩٥.
(٣) تفسير الطبري ٤/ ٢٨١، وينظر: النكت والعيون ١/ ٢٧١.
(٤) تفسير البغوي ١/ ٢٤٤.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

المراد بالبينات: الرسل الذين جاء وصفهم في أول الآية، والآيات التي جاءت على أيدي الرسل.

قال الطبري: «يعني: من بعد الرسل الذين وصفهم بأنه فضل بعضهم على بعض، ورفع بعضهم درجات، وبعد عيسى ابن مريم، وقد جاءهم من الآيات بما فيه مزدجر لمن هداه الله ووفقه»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء].

فقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾؛ أي: من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة والأدلة القاهرة على يد موسى عليه السلام، وما كان من إهلاك فرعون وجميع جنوده في اليمّ(٢).

قال الطبري: «وإنما عنى بـ ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: أنها آيات تبين عن أنهم لن يروا الله في أيام حياتهم في الدنيا جهرة، وكانت تلك الآيات البينات لهم على أن ذلك كذلك: إصعاقُ الله إياهم عند مسألتهم موسى أن يريهم ربه جهرة، ثم إحياءه إياهم بعد مماتهم، مع سائر الآيات التي أراهم الله دلالةً على ذلك»(٣).

وقال القرطبي: «﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾؛ أي: البراهين والدلالات والمعجزات الظاهرات؛ من اليد والعصا وفلق البحر وغيرها، بأنه لا معبود إلا الله عز وجل»(٤).

(١) تفسير الطبري ٥/ ٣٨٠.
(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٤٦.
(٣) تفسير الطبري ٩/ ٣٦٠، وينظر: تفسير الرازي ١١/ ٧٧.
(٤) تفسير القرطبي ٦/ ٦ ـ ٧.

وبعد استقراء مواضعه في القرآن مع الفعل المؤنث والمذكر، تبين الآتي:

١ ـ أن من الأسرار ـ والله أعلم ـ اختيار اللفظ المناسب لكل موضع حسب المعنى المراد، فالملاحظ أن لفظ [الْبَيِّنَاتُ] يدل مع الفعل المذكر على معنى الحُجج والبراهين والأوامر والنواهي، وتزيد دلالته مع الفعل المؤنث فيشمل الحُجج والبراهين والرسل والرسالات وما جاء معهم من آيات، فيَجوز أن يكون من باب زيادة اللفظ زيادةٌ في المعنى، فزيادة تاء التأنيث تدل على زيادة المعنى في البينات.

٢ ـ أن لفظ [الْبَيِّنَاتُ] جمع تكسير؛ فيجوز معه تأنيث الفعل وتذكيره، وإتيان فعله مرة مذكراً وأُخرى مؤنثاً من باب التنويع والتفنن في الأسلوب، والعلم عند الله.

ومن الأمثلة كذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف].

فهنا لم تلحق علامة التأنيث وصف ﴿قَرِيبٌ﴾ مع أن موصُوفَهُ مؤنث اللفظ ﴿رَحْمَتَ﴾، وقد كَثُرت أقوال العلماء في التوجيه لهذا الأسلوب.

وقد أطال ابن القيم في ذكر الوجوه فقال: «وأما الإخبار عن الرحمة وهي مؤنثة بالتاء بقوله: قريب وهو مذكر؛ ففيه اثنا عشر مسلكاً نذكرها ونبين ما فيها من صحيح وسقيم ومقارب...»(١).

وأهم هذه الوجوه:

١ ـ أن قريباً يتعين فيها التأنيث مع المؤنث إذا أُطلقت على قرابة النسب، وأما إذا أُطلق على قرب المسافة فيجوز فيها التذكير والتأنيث، والتذكير أكثر(٢).

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٥٢٩ ـ ٥٤٥.

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٨٠، وينظر تفصيل الأقوال: البرهان ٣/ ٣٦٠، تفسير الرازي ١٤/ ١١١، تفسير البيضاوي ٣/ ٢٨، تفسير القرطبي ٧/ ٢٢٧، تفسير أبي السعود ٣/ ٢٣٣، أضواء البيان ٢/ ٣٢.

٢ ـ أن الرحمة مضافة إلى الله، فلهذا قال: قريب من المحسنين[١].

٣ ـ أن الرحمة مصدرٌ بمعنى الرحِم أو الإحسان أو الثواب؛ فالتذكير باعتبار المعنى[٢].

٤ ـ أن قريباً صفةُ موصوف محذوف تقديره: شيء قريب[٣].

٥ ـ أن قريباً فعيل بمعنى مفعول الذي يستوي فيه المذكر والمؤنث[٤].

وأقربها وجهان:

الأول:

أن الرحمة مضافة إلى الله تعالى، والإحسان يقتضي قرب الرب من عبده، كما أن العبد قرب من ربه بالإحسان.

وهذا ما رجَّحه ابن القيم حيث يقول: «فالرب تبارك وتعالى قريب من المحسنين، ورحمته قريبة منهم، وقربه يستلزم قرب رحمته ففي حذف التاء ههنا تنبيه على هذه الفائدة العظيمة الجليلة.

ولو قال: إن رحمة الله قريبة من المحسنين لم يدل على قربه تعالى منهم؛ لأن قربه تعالى أخص من قرب رحمته، والأعم لا يستلزم الأخص، بخلاف قربه، فإنه لما كان أخص استلزم الأعم، وهو قرب رحمته، فلا تستهن بهذا المسلك فإن له شأناً، وهو متضمن لسِرٍّ بديع من أسرار الكتاب، وما أظن صاحب هذا المسلك قصَدَ هذا المعنى ولا ألَمَّ به، وإنما أراد أن الإخبار عن قرب الله تعالى من المحسنين كاف عن الإخبار عن قرب رحمته منهم»[٥].

---

(١) ينظر: الكشف والبيان ٤/ ٢٤١، تفسير ابن كثير ٣/ ٤٢٩، الكليات ١٩٠.

(٢) ينظر: تفسير الطبري ١٢/ ٤٨٧، الصحاح ٢/ ٢١٨، تفسير السمرقندي ١/ ٥٣٨، النكت والعيون ٢/ ٢٣١، تفسير البغوي ٣/ ٢٣٨، التبيان في إعراب القرآن ١/ ٥٧٥، نظم الدرر ٣/ ٤٤، لسان العرب ١/ ٦٦٣، الكليات ١٣١٨.

(٣) ينظر: البرهان ٣/ ٣٦١، تفسير أبي السعود ٣/ ٢٣٣.

(٤) ينظر: العين للخليل ٧٧٧، تفسير السمرقندي ١/ ٥٣٨.

(٥) بدائع الفوائد ٣/ ٥٤١.

الثاني:

أن القرابة إذا كانت قرابة نسب تعَيَّن التأنيث فيها مع الأنثى.

فتقول: هذه المرأة قريبتي؛ أي: في النسب، ولا تقول: قريب مني، وإذا أطلقت القرابة على المسافة جاز فيه مطابقة موصوفه، وجاز التذكير على التأويل بالمكان، فتقول: داره قريبة، وقريب مني، والتذكير على التأويل بالمكان هو من المعروف عن العرب.

قال الفراء: «ورأيت العرب تؤنث القريبة في النسب لا يختلفون فيها، فإذا قالوا: دارك منا قريب، أو فلانة منك قريب في القرب والبعد، ذكروا وأنثوا»(١).

وهو قول أبي عبيدة(٢)، والطبري(٣).

والدليل على هذا التوجيه، قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الشورى].

ولما كان المراد من القرب في هذه الآية قرب المسافة جاء لفظ ﴿قَرِيبٌ﴾ مذَكَّراً على الغالب من استعماله ـ وهذا من لطيف فروق العربية في استعمال المشترك ـ إزالة للإبهام بقدر الإمكان(٤)، والله تعالى أعلم.

المطلب الثالث

استعمال لفظين مختلفين في معنى واحد

لغة القرآن من مظاهر إعجازه، ولغته: ألفاظٌ ودلالات، وإذا تأملنا في ألفاظه وجدنا عادةً تميَّزَ بها القرآن، وهي استعمال الأساليب العالية؛ لإيصال

---

(١) معاني القرآن ١/ ٣٨١.

(٢) مجاز القرآن ١/ ٢١٦، وهو معمر بن المثنى أبو عبيدة التيمي النحوي البصري، من أشهر تصانيفه: «مجاز القرآن»، مات سنة (٢١٠هـ)، وقيل غيرها، له ترجمة في: طبقات الداوودي ٢/ ٣٢٦، طبقات الأدنه وي ٣٠.

(٣) تفسير الطبري ١٢/ ٤٨٨.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير ٨/ ١٧٧.

المعاني المقصودة، فتكامل فيه الوفاء بين اللفظ والمعنى بأسلوب عظيم.

قال الخطابي[١]: «اعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضَمَّناً أصحَّ المعاني...» إلخ[٢].

ومن ذلك موضوع اختلاف الألفاظ واتفاق المعاني، وباصطلاح آخر: ترادف الألفاظ، فكم جاء في القرآن اختيار كلمة في موضع، واختيار مرادفٍ لها في موضع آخر، سواءً كان كلياً أو جزئياً.

والمراد باستعمال اللفظين بمعنى واحد في هذا المطلب: المعاني الأصلية.

أي: الترادف في أصل المعنى، أما المعاني الثانوية فكلُّ لفظٍ يؤدي معاني دقيقة لا توجد بتفاصيلها في اللفظ الآخر، وهذا هو استعمال أكثر العلماء، وفَهْمُه يُزِيل كثيراً من موارد النزاع في المسألة.

ولذا حمَلَت رسالة الرماني في الترادف اسم: «الألفاظ المترادفة المتقاربة المعنى».

وعبَّر عنه ابن جني بقوله: «تجد للمعنى الواحد أسماء كثيرة، فتبحث عن أصل كل اسم منها، فتجده مُفضَى المعنى إلى معنى صاحبه».

وأفرد له باباً سماه: «باب في تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني»[٣].

وقال ابن الأعرابي[٤]: «كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد؛

---

(١) هو: حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطّاب البستي، أبو سليمان، فقيه محدِّث، من مصنفاته: «معالم السنن في شرح سنن أبي داود»، و«بيان إعجاز القرآن»، و«إصلاح غلط المحدِّثين»، و«غريب الحديث» وغيرها. توفي في بست سنة (٣٨٨هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٢/ ٢١٤، سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢٤.

(٢) بيان إعجاز القرآن ٢٧ ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

(٣) الخصائص ٢/ ١١٣.

(٤) هو: محمد بن زياد الهاشمي، المعروف بابن الأعرابي، أبو عبد الله الكوفي الأحول، راوية، ناسب، علامة باللغة، له تصانيف كثيرة منها: «أسماء الخيل وفرسانها»، و«تاريخ القبائل»، و«النوادر»، مات سنة (٢٣١هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٤/ ٣٠٦، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٦٨٨.

في كل واحد منهما معنى ليس في صاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به، وربما غمض علينا، فلم نلزم العرب جهله»(١).

وقال ابن تيمية: «فإن الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادرٌ وإما معدوم، وقَلَّ أن يعبَّر عن لفظٍ واحدٍ بلفظ واحدٍ يؤدي جميع معناه، بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا من أسباب إعجاز القرآن»(٢).

وهذه العادة تجعلُ مِنَ المترادفَين معنًى لا يؤديه كل واحدٍ منهما منفرداً، ويَظْهر هذا جلياً في عطف المترادفات.

وعلى كلٍّ فليس البحث في وقوع الترادف أو خلافه(٣).

لكن ـ على جميع الأقوال ـ مَهْمَا أمكن حمل الألفاظ القرآنية على عدم الترادف كان أولى(٤)، ولو كانت الألفاظ داخلة في معنى كلِّي واحد، إلا أنه معنى عامٌّ صالح لِنِسَب متفاوتة من المعاني.

قال الزركشي: «فعلى المفسر مراعاة الاستعمالات، والقَطْعُ بعدم الترادف ما أمكن؛ فإن للتركيب معنى غير معنى الإفراد؛ ولهذا منع كثير من الأصوليين وقوع أحدِ المترادفين موقع الآخر في التركيب، وإن اتفقوا على جوازه في الإفراد»(٥).

ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

ـ قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران].

فالوَهَن يُعَرَّف عند أهل اللغة بالضعف، مما يدل على اشتراكهما في أصل المعنى.

قال ابن فارس: «وَهَنَ: الواو والهاء والنون: كلمتانِ تدلُّ إحداهما على

---

(١) ينظر: المزهر في علوم اللغة ١/ ٣١٤. (٢) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٤١.

(٣) ينظر أقوال العلماء في هذه المسألة: الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم ٣٩، ١٦٣.

(٤) ينظر: الكليات ٤٨٥، الإتقان ٢/ ١٥٤، التفسير والمفسرون ١/ ٢٦٠.

(٥) البرهان ٤/ ٧٨.

ضَعف، والأخرى على زمان»[١].

وقال أيضاً: «ضعف: الضاد والعين والفاء أصلانِ متباينانِ، يدلُّ أحدُهما على خلاف القُوَّة، ويدلُّ الآخر على أن يزاد الشَّيءُ مِثلَه»[٢].

وعند التدقيق في الفروق، نجد العسكري[٣] يقول: «الفرق بين الوهن والضعف: أن الضعف ضد القوة، وهو من فعل الله تعالى، كما أن القوة من فعل الله، تقول: خلقه الله ضعيفاً، أو خلقه قوياً، وفي القرآن: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء]، والوَهَن: هو أن يفعل الإنسان فعل الضعيف، تقول: وهن في الأمر يَهِنُ وَهْناً وهو واهن إذا أخذ فيه أخذ الضعيف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]؛ أي: لا تفعلوا أفعال الضعفاء وأنتم أقوياء على ما تطلبونه بتذليل الله إياه لكم»[٤].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه].

فالظلم والهضم يجتمعان في معنى النقص، وعُرِّف الهضم بالظلم.

كما قال ابن فارس: «والمتهضِّم: الظالم»[٥].

وقال ابن منظور: «المُتَهَضَّمُ والهَضِيمُ جميعاً: المظلومُ»[٦].

ولكن عند التأمل والتدقيق نجد من ذَكَر فروقاً بينهما.

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٦/ ١٤٩.

(٢) المرجع السابق ٣/ ٣٦٢، وينظر: لسان العرب ٩/ ٢٠٣، ١٣/ ٤٥٣.

(٣) هو: الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، أبو هلال، الأديب اللغوي، من مصنفاته: «التلخيص في اللغة»، و«جمهرة الأمثال»، و«الحث على طلب العلم»، و«الفروق في اللغة»، وكتاب «الصناعتين»، و«المحاسن في تفسير القرآن»، مات بعد سنة (٣٩٥هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ١/ ٥٥، معجم البلدان ٤/ ١٢٣.

(٤) الفروق في اللغة ١٨٢.

(٥) معجم مقاييس اللغة ٦/ ٥٥.

(٦) لسان العرب ١٢/ ٦١٣.

كما قال الطبري: «﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ يقول: فلا يخاف من الله أن يظلمه، فيحمل عليه سيئات غيره، فيعاقبه عليها ﴿وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ يقول: لا يخاف أن يهضمه حسناته، فينقصه ثوابها، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»(١).

وقال ابن الجوزي: «وفرق بعض المفسرين بين الظُّلم والهَضْم، فقال: الظُّلم: منع الحق كلِّه، والهضم: منع البعض، وإن كان ظُلْماً أيضاً»(٢).

وعلى هذا يكون الظلم أعم من الهضم؛ لأنه في منع الحق كله أو بعضه، فكل هضمٍ ظلمٌ، وليس كل ظلم هضماً، والله تعالى أعلم.

ـ وقوله تعالى: ﴿الَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر].

فمع تقارُب النَّصَب واللغُوب في المعنى إلا أنه لمَّا اجتمعَا أفادا معنًى لا يؤدِّيانه منفردَين.

قال ابن منظور: «نَصَب: النَّصَبُ الإعْياءُ من العَناءِ»، وقال أيضاً: «لَغَب: اللُّغُوبُ التَّعَبُ والإعْياءُ»(٣).

وقال السيوطي: «فإن [نُصُبٍ] كـ [لَغَب] وزناً ومعنى»(٤).

وعند البحث نجد من فَرَّقَ بين اللفظين بفرقٍ دقيق؛ كالزمخشري حيث يقول: «فإن قلتَ: ما الفرق بين النصب واللغوب؟.

قلتُ: النصب: التعب والمشقة التي تصيب المنتَصِب للأمر المزاول له، أما اللغوب: فما يلحقه من الفتور بسبب النصب، فالنصب نفس المشقة والكلفة، واللغوب: نتيجته وما يحدث من الكلال والفترة»(٥).

ـ وقوله تعالى: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾ [المدَّثر].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٣٧٩، وينظر: تفسير البغوي ٥/ ٢٩٦.
(٢) زاد المسير ٤/ ٣٢٤، وينظر: الفروق في اللغة ٤٠٧.
(٣) لسان العرب ١/ ٧٥٨، وكذا ١/ ٧٤٢. (٤) الإتقان ٢/ ١٥٤.
(٥) الكشاف ٣/ ٦٢٤.

ظاهر اللفظين الترادف.

قال القرطبي: «وكرر اللفظ تأكيداً»[١].

وإن كانا متقاربين إلا أنه باجتماعهما حصل معنى لا يحصل بانفراد كل لفظ عن الآخر.

فذكر العلماءُ الفرقَ الدقيق الذي به اكتمل المعنى.

قال الطبري: «﴿لَا تُبْقِي﴾ من فيها حياً، ﴿وَلَا تَذَرُ ۝٢٨﴾ من فيها ميتاً، ولكنها تحرقُهم كلَّما جُدِّد خلقُهم، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»[٢].

وقال الماوردي: «﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨﴾ فيه وجهان:

أحدهما: لا تبقي من فيها حياً، ولا تذره ميتاً، قاله مجاهد.

الثاني: لا تبقي أحداً من أهلها أن تتناوله، ولا تذره من العذاب، حكاه ابن عيسى، ويحتمل وجهاً ثالثاً: لا تبقيه صحيحاً، ولا تذره مستريحاً»[٣].

ومن الأمثلة:

ـ لفظ [الصوف] و[العهن].

فالصوف معروفٌ وهو شعر الغنم.

قال ابن فارس: «صوف: الصاد والواو والفاء أصلٌ واحد صحيح، وهو الصُّوف المعروف، والباب كله يَرجِع إليه»[٤].

وكذلك العهن، فقد فُسِّر بالصوف في المعاجم والتفاسير، فهما بمعنى واحد أصلي، ولكن بينهما معنى زائد.

قال ابن فارس: «العِهْن: الصُّوف المصْبُوغُ»[٥].

وقال ابن منظور: «العِهْنُ الصُّوفُ المصْبُوغُ ألواناً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة]»[٦].

---

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ٧٧. (٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٢٧.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٥٠، وينظر: المحرر الوجيز ٦/ ٤٤٩، الدر المصون ١٠/ ٥٤٥.

(٤) معجم مقاييس اللغة ٣/ ٣٢٢. (٥) المرجع السابق ٤/ ١٧٧.

(٦) لسان العرب ١٣/ ٢٩٧.

وقال الطبري: «وقوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة] يقول تعالى ذكره: ويوم تكون الجبال كالصوف المنفوش؛ والعِهْن: هو الألوان من الصوف، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»(١).

ولم يرد لفظ [الصوف] إلا في موضع واحد من القرآن، وهو:

- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝٨٠﴾ [النحل].

وهذا السياق امتنان من الله تعالى على عباده بهذه النعم.

أما لفظ [العهن] فقد ورد في موضعين من القرآن، وهما:

- قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾ [المعارج].
- وقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة].

فالعهن في كلا الموضعين وارد في سياق تشبيه الجبال الراسيات بالصوف المنفوش يوم القيامة.

وفي اختيار اللفظ هنا فرقٌ دقيقٌ أشار إليه بعض العلماء وإن اشتركا في المعنى الأصلي.

فعند تأمل تعريف [العهن]؛ نجد فيه الزيادةُ على تعريف [الصوف] بكونه مصبوغاً ملوناً، واختيار لفظ [العهن] دون لفظ [الصوف] أدقُّ في التشبيه؛ لأن الجبالَ مُكوَّنةٌ من تربةٍ ذات ألوان مختلفةٍ ملونة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧﴾ [فاطر].

قال الفراء: «وقوله ﷻ: ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة]؛ لأن ألوانها - أي: الجبال - مختلفة؛ كألوان العهن»(٢).

وقال الراغب: «العهن: الصوف المصبوغ، قال تعالى: ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة]، وتخصيص العهن لما فيه من اللون»(٣).

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٧٤.
(٢) معاني القرآن ٣/ ٢٨٧.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن ٥٩٢.

وإلى مثل هذا أشار القرطبي[١].

إن هذه العادة ـ استعمالُ لفظينِ بمعنىً واحد ـ مهمةٌ جداً لفهم كتاب الله وحسن تدبره، وقد أفردها العلماء بالتأليف، وذكروا المؤيدين والمعارضين، وكما أشرت فليس هذا موضع التفصيل.

ولكن أذكر ما توصلت إليه بعد بحث هذه المسألة:

١ ـ أن لفظ الترادف عند العلماء يُطلَق على نوعين:

الأول: الترادف الكلي.

والثاني: الترادف الجزئي، فلا بد من الاستفصال عند الإطلاق.

فإذا قيل: مترادفان، فغالباً ما يُراد الاشتراكُ في المعنى الأصلي، ولو افترقا في المعاني الثانوية، وهذا موجود في اللغة والقرآن.

وعليه؛ فالقول باستعمال لفظين بمعنى واحد هو من هذا الباب[٢].

وبسبب الاصطلاح الأول؛ منع البعضُ وجودَ لفظين بمعنى واحدٍ في اللغة والقرآن.

٢ ـ مَنْ منَعَ وجودَ الترادف:

- فلا يشمل عنده ما إذا كان اللفظان في لغتين؛ لأن هذا لا نزاع في جوازه، مثل: نهْر ونهَر، بسطة وبصطة، فهما لغتان بمعنى واحد[٣]، وعلى هذا فالترادف الكلي: نادر إن لم ينعدم في لغة واحدة.
- ولا يلزمه القول باختلاف اللفظين؛ بل المراد مِنْ مَنْعِ الترادف: أن في كلِّ لفظٍ منهما معنىً ليس في الآخر.

قال ابن فارس: «ولسنا نقول: إن اللفظتين مختلفتان، وإنما نقول: إن

---

(١) تفسير القرطبي ١٨/ ٢٨٥.

(٢) ينظر: المعجم الوسيط ٣٣٩، قالوا: ترادف الكلمتين أن تكونا بمعنى واحد، وكذلك ترادف الكلمات (مولّد).

(٣) ينظر: الفروق في اللغة للعسكري ١٢، معجم مقاييس اللغة ١/ ٢٥٢، مفردات ألفاظ القرآن ٨٢٥، لسان العرب ٧/ ٢٦١.

في كل واحدة منهما معنى ليس في الأخرى»[١].

٣ ـ في عطف المترادفين على بعض تقويةُ المعنى، وتوكيدُه، وتمامُه.

قال الكفوي: «والملخَّص في هذا: أن يُعتقد أن مجموع المترادفين يُحصِّل معنى لا يوجد عند انفرادهما؛ فإن التركيب يُحدِث معنى زائداً، وإذا كانت كثرة الحروف تفيد زيادة المعنى فكذلك كثرة الألفاظ»[٢].

٤ ـ أهمية مراعاة السياق الذي وردت فيه الألفاظ المترادفة؛ لأن وجودَ اللفظ في سياقٍ معينٍ هو الذي يُحدد المعنى الزائد فيه.

قال الزركشي: «قاعدةٌ في ألفاظ يُظن بها الترادف وليست منه، ولهذا وزِّعَت بحسب المقامَات، فلا يقوم مرادِفها فيما استُعمِل فيه مقامَ الآخر»[٣]، والله تعالى أعلم.

❊ ❊ ❊

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة ٦٠.

(٢) الكليات ٤٨٦، وينظر: الإتقان ٢/ ١٥٤.

(٣) البرهان ٤/ ٧٨.

الباب الثاني

عادات القرآن في الحذف والإضمار والإيجاز وضدها

وفيه فصلان:

- الفصل الأول: عادات القرآن في الحذف والذكر.
- الفصل الثاني: عادات القرآن في الإضمار والإظهار والإيجاز والإطناب.

الفصل الأول

عادات القرآن في الحذف والذكر

وفيه خمسة مباحث:

- المبحث الأول: حذف المبتدأ أو الخبر.
- المبحث الثاني: حذف الفعل أو المفعول به.
- المبحث الثالث: حذف الصفة أو الموصوف.
- المبحث الرابع: حذف المضاف أو المضاف إليه.
- المبحث الخامس: حذف جواب الشرط والقسم.

□ تمهيد:

الأصل في كلام الله تعالى عدم الحذف، وكذلك الكلام العربي، وعليه: فكُلّما أمكن حمل الكلام على عدم الحذف أو قلته فهو الأولى.

وكمَا سبق فمن عادات القرآن حذفُ الحرف لفائدةٍ أعلى من ذكره، وكذلك عادته حذف اللفظ ـ الذي يقتضيه معنى النص ـ لفائدة أكبرَ من ذكره.

وأمثلة الحذف في القرآن كثيرةٌ كما سيأتي في المباحث التالية، فقد يحذف من الأول لدلالة الآخر، وقد يحذف من الآخر لدلالة الأول، وقد يحذف من الأول والآخر معاً؛ لأن في كل منها ما يدل على المحذوف من سياق الآيات، وقد ذكر ابن هشام أكثر من ثلاثين نوعاً من أنواع الحذف في اللسان العربي، واستشهد على كثيرٍ منها بأمثلة قرآنية[1].

ولا شك أن الأهم عند تطبيق هذه العادة على الآيات القرآنية: العلمُ بأن الحذف إنما جاء على نهج العرب في كلامها، فبلغ به القرآن أعلى أنواع البلاغة والفصاحة.

قال الجرجاني[2] في باب الحذف: «هو بابٌ دقيقُ المسلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأمر، شبيه بالسِّحر، فإنَّك ترى به ترك الذِّكْر أفصحَ من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيدَ للإفادة، وتجدُك أنطقَ ما تكونُ إذا لم تنطِقْ، وأتمَّ ما تكون بياناً إذا لم تُبِن»[3].

---

(١) ينظر: مغني اللبيب ٨١١.

(٢) هو: عبد القاهر بن عبد الرحمٰن أبو بكر الجرجاني النحوي البلاغي، الشافعي الأشعري، من مصنفاته: كتاب «المغني في شرح الإيضاح»، و«إعجاز القرآن»، و«دلائل الإعجاز»، و«أسرار البلاغة في علم المعاني»، و«صنف التفسير»، مات سنة (٤٧١هـ)، وقيل: (٤٧٤هـ)، له ترجمة في: العبر في خبر من غبر ٣/ ٢٧٩، طبقات الأدنه وي ١٣٣.

(٣) دلائل الإعجاز ١٢١.

المبحث الأول

حذف المبتدأ أو الخبر

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: حذف المبتدأ.
- المطلب الثاني: حذف الخبر.

المطلب الأول

حذف المبتدأ

يجوز حذف المبتدأ كُلَّما دل عليه دليل، ولم يؤد إلى الالتباس في المعنى، بل هو أسلوب عربيٌّ فصيح، وفي هذا الحذف إيجاز، وسعة في التقدير، وسعة في المعاني، وهو من مقاصد البلاغة[١].

قال ابن مالك:

وحذفُ ما يُعلم جائزٌ، كما تقولُ زيدٌ، بعد مَن عِندَكما؟
وفي جواب كيف زيدٌ؟ قل: دنف فزيدٌ استُغنِيَ عنه إذْ عُرِف[٢]

وعند تأمل كتاب الله تعالى نجد أمثلة حذف المبتدأ كثيرة، ومنها:

- قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران].

أي: كسبهم وربحهم متاعٌ قليل[٣].

---

(١) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة ٥٢، المزهر في علوم اللغة ١/ ٢٦١.
(٢) ألفية ابن مالك ١٨.
(٣) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٢/ ١٢٠٦.

ومثل هذا كلُّ موضعٍ جاء فيه الخبر مصدراً نائباً عن فعله.

ـ وقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [البقرة: ٢٧١].

أي: فنعم الصدقات هي(١).

ومثل هذا كل موضع جاء فيه الخبر مخصوصاً بالمدح أو الذم، بعد نعم وبئس مؤخراً عنهما(٢).

ومن الأمثلة:

حذف المبتدأ بعد القول.

ـ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ [النساء: ٨١].

والتقدير: أمرنا طاعةٌ(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [يوسف: ٤٤].

والتقدير: هي أضغاثُ(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الذاريات].

والتقدير: أنا عجوزٌ(٥).

ـ وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ [ص: ٢٢].

أي: نحن خصمان(٦).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ [القمر].

والتقدير: هو مجنون(٧).

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ١/ ٧٠١.
(٢) ينظر: ضياء السالك إلى أوضح المسالك ١/ ١٩٨.
(٣) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٢/ ١٣٩٦، البحر المحيط ٣/ ٣١٧.
(٤) ينظر: البحر المحيط ٥/ ٣١١، الجدول في إعراب القرآن ١٢/ ٤٤٠.
(٥) ينظر: التحرير والتنوير ٢٦/ ٣٦١.
(٦) ينظر: التبيان في إعراب القرآن ٢/ ١٠٩٨.
(٧) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٧٤.

ومن الأمثلة:

حذف المبتدأ بعد فاء الجزاء.

- كما قال تعالى عن اليتامى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

قال ابن الجوزي: «أي: فهم إخوانكم»(١).

- وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

والتقدير: فهو لأنفسكم.

- وقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصّلت: ٤٦].

قال العكبري(٢): «﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ هو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: فهو لنفسه»(٣).

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]؛ كقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصّلت: ٤٦]، ونظائرها في القرآن كثيرة»(٤).

- وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧].

والتقدير: فالإساءة لها(٥)، وغرض الحذف في كل ذلك الاختصار.

ومن الأمثلة:

حذف المبتدأ إذا كان الخبر صفة له في المعنى.

قال ابن عاشور: «وحذف المسند إليه في هذا المقام استعمال شائع عند العرب، إذا ذكروا موصوفاً بأوصافٍ أو أخبارٍ جعلوه كأنه قد عُرِف للسامع»(٦).

---

(١) زاد المسير ١/ ٢١٥.

(٢) هو: عبد الله بن الحسين بن عبد الله أبو البقاء العُكْبَري النحوي الحنبلي، جمع فنوناً من العلم، له من المصنفات: «التبيان في إعراب القرآن»، «إعراب الحديث»، مات سنة (٦١٦هـ)، له ترجمة في: طبقات الداوودي ١/ ٢٣١، شذرات الذهب ٥/ ٦٧.

(٣) التبيان في إعراب القرآن ٢/ ١١٢٨.

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ٧٠٤.

(٥) ينظر: البحر المحيط ٦/ ١٠، الجدول في إعراب القرآن ١٥/ ١٣.

(٦) التحرير والتنوير ١/ ٣١٣.

- كقوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾ [البقرة].

صمٌّ: خبر لمبتدأ محذوف، وهو ضمير يعود إلى ما قبله، والتقدير: هم صمٌّ.

- وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد].

عالمُ: خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: هو عالمُ[١].

- وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝١١٧﴾ [البقرة].

فارتفاع بديعُ على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو بديعُ[٢].

ومن الأمثلة:

حذف المبتدأ بعد بل.

- كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦﴾ [الأنبياء].

عباد: خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: هم عبادٌ.

قال مكي: «أي: بل هم عباد مكرمون»[٣].

- وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ۝١٥٤﴾ [البقرة].

قال الزمخشري: «حُذِف المبتدأ في قوله [أَحْيَاءٌ]، والمعنى: هم أحياء لدلالة الكلام عليهما»[٤].

ومن الأمثلة:

حذف المبتدأ في جواب السؤال والاستفهام.

قال ابن هشام: «يكثر حذف المبتدأ في جواب الاستفهام»[٥].

---

(١) ينظر: التبيان في إعراب القرآن ٢/ ٧٥٣.
(٢) ينظر: البحر المحيط ٤/ ١٩٧.
(٣) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٧/ ٤٧٤٦، البرهان ٣/ ١٣٥.
(٤) الكشاف ١/ ٤٦٧، وينظر: الدر المصون ٢/ ١٨٤.
(٥) مغني اللبيب ٨٢٢.

ـ كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر].

والتقدير: الملك لله الواحد، فحذف المبتدأ من الجواب، إذ المعنى لا ملك إلا لله[1].

ـ وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [المؤمنون].

فالتقدير: سيقولون الأرضُ ومن فيها لله، ليطابق الجواب السؤال.

قال العكبري: «وهو مطابق للفظ والمعنى»[2].

ـ وقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ [الحج].

أي: هي النار[3].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾ [القارعة].

نارٌ: خبر لمبتدأ محذوف في جواب السؤال، والتقدير: هي نار[4].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾﴾ [الهمزة].

نارُ الله: خبر لمبتدأ محذوف في جواب السؤال؛ أي: هي نار الله[5].

وبعد تأمل هذه المواضع من حذف المبتدأ في كتاب الله تعالى؛ أذكر بعض الحِكَم واللطائف من هذا الحذف، ومنها:

ـ أنه إذا عُرِف المعنى بأسلوب أقلّ اكتُفي به؛ فالإيجاز من مطالب الفُصَحاء، والقرآن ضَرَب المثل الأعلى لهذا الأسلوب؛ ففيه تحصيل المعنى الكثير باللفظ القليل، كما هي عادة القرآن.

ـ إذا وُجِد ما يدل على المبتدأ المحذوف فلا حاجة لذكره، حفاظاً على

---

(١) ينظر: البرهان ٤/٤٨.
(٢) التبيان في إعراب القرآن ٢/٩٥٩.
(٣) ينظر: تفسير الطبري ١٨/ ٦٨٤، زاد المسير ٤/٣٩٨.
(٤) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ١٢/ ٨٤١٤.
(٥) ينظر: الدر المصون ١١/١٠٧.

وقت القارئ، ولئلا يُشغل بغير المهم، ومما يدل عليه: كثرةُ الاستعمال، أو عِلْمُ المخاطب به، ونحو ذلك.

ـ إذا كان السياق لا يحتمل غيرَ المحذوف، فلا يصلُح للتقدير إلا هو، كما في الإخبار عن صفات الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد].

فقوله: [عَالِمُ] خبر لمبتدأ محذوف(١)، لا يصلُحُ وضع هذه الصفة إلا لله، فالذي سوغ الحذفَ كونُه من مواضع العلم بالمحذوف(٢).

إن المبتدأ ركن من أركان الجملة لا تقوم إلا به، والذي جوّز حذفه عند أهل اللغة، وجود دليل عليه حاليٍّ أو مقالي، وموقعُ المحذوف في القرآن أملَحُ على النفس من ذكره.

قال الجرجاني بعد الإشارة إلى عدد من الأمثلة في حذف المبتدأ، وأن في الحذف أنساً وملاحَةً تذهبُ إذا رُمْتَ التَّكلم به: «وإذ قد عَرَفْتَ هذه الجملَةَ من حال الحذف في المبتدأ، فاعلم أن ذلك سبيلُه في كلِّ شيء، فما من اسم أو فعلٍ تجدُه قد حُذِف، ثم أُصيبَ به موضعُه، وحُذِف في الحال يَنْبغي أن يُحذَفَ فيها، إلَّا وأنت تجدُ حذفَه هناك أحسنَ من ذكرِهِ، وترى إضمارَه في النفس أولى وآنس مِنَ النطق به»(٣).

المطلب الثاني

حذف الخبر

من عادات القرآن حذف الخبر، وذلك لوجود ما يدل على المحذوف، وعند تأمل كتاب الله تعالى نجد أمثلةَ حذفِ الخبر كثيرة، وآثارها في المعنى والأسلوب كبيرة، وهذا من بلاغة القرآن وإعجازه.

---

(١) ينظر: التبيان في إعراب القرآن ٢/ ٧٥٣.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير ١/ ٣١٣، ١٨/ ١١٧.
(٣) دلائل الإعجاز ١٢٦، ١٢٧.

ومعرفة مواضع الحذف في القرآن جزء من تدبره، كما أن فيها جمع الشواهد النحوية من كتاب الله، والاستدلالُ بها لقواعد العربية والتأصيلُ لها.

ومن أمثلة حذف الخبر:

إذا كان المبتدأ بعد لولا، والخبر كون عام[(١)].

- كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [النور].

قال العكبري: «﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: لولا فضل الله حاضر، ولزم حذفُ الخبر لقيامِ العلم به، وطولِ الكلام بجواب لولا»[(٢)].

- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة].

فقوله: ﴿دَفْعُ﴾ مبتدأ مرفوع، والخبر محذوف وجوباً تقديره: موجود[(٣)].

- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الصَّافات].

قال مكي: «والخبر محذوف، و﴿لَكُنتُ﴾ جواب لولا تقديره: ولولا نعمة ربي تداركتني أو استنقذتني ونحوه لكنت معك في النار»[(٤)].

فإن كان الخبر دالّاً على كون خاص[(٥)]، وجب ذكره إن لم يدل عليه دليل.

ومن الأمثلة:

حذف الخبر إذا كان المبتدأ نصاً في القسم.

- كما في قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر].

---

(١) بمعنى: الدلالة على وجود أو كون عام، فيقدر: بمعنى كائن أو موجود، أو مستقر أو حاصل.

(٢) التبيان في إعراب القرآن ١/ ٧٢.

(٣) ينظر: الجدول في إعراب القرآن ٣/ ١٤. (٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦١٤.

(٥) كالمشي والركوب والقعود والأكل والشرب ونحوها؛ كقول: لولا العدو سالمنا ما سلم، فإن دل عليه دليل جاز حذفه وذكره، نحو: لولا مساعدوه لفشل، أو لولا مساعدوه قدموا له العون لفشل. ينظر: ضياء السالك إلى أوضح المسالك ١/ ٢٠١.

قال مكي: «رفع [لَعَمْرُ] على الابتداء، والخبر محذوف»[١].

والمعنى: لعَمْرك قَسَمي، ولعَمْرك ما أُقسِمُ به، وحُذف الخبر؛ لأن في الكلام دليلاً عليه[٢].

ومن الأمثلة:

حذف الخبر إذا وقع بعد المبتدأ واوٌ هي نص في المعية.

ـ كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الصَّافات].

قال الزمخشري: «يجوز أن تكون الواو بمعنى: مع، مثلها في قولهم: كلُّ رجل وضيعته، وأنّ كل رجل وضيعته؛ فكما جاز السكوت على: كل رجل وضيعته؛ جاز أن يسكت على قوله: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾؛ لأن قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾، سادٌّ مسدَّ الخبر؛ لأن معناه: فإنكم مع ما تعبدون»[٣].

ومن الأمثلة:

حذف الخبر إذا كان المبتدأ مصدراً، وبعده حال سدت مسد الخبر[٤].

ـ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

كلمته: مبتدأ، وألقاها: حال سدت مسد الخبر، والعامل فيها معنى: كلمته؛ لأن معنى الكلمة أنه مكون بها من غير أب[٥]، وهو مِثْل قولهم: ضربي زيداً قائماً.

فهذه المواضع مما يُحذف فيه الخبر عند العرب.

كما قال ابن مالك:

وبعد لولا غالباً حذْف الخبر حتمٌ وفي نصِّ يمين ذا استقر

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية ٦/ ٣٩١٤.
(٢) ينظر: زاد المسير ٤/ ٦٩، تفسير القرطبي ١٠/ ٤٠.
(٣) الكشاف ٤/ ٦٧، وينظر: تفسير الرازي ٢٦/ ٣٦٥، البحر المحيط ٧/ ٣٦٢.
(٤) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ١/ ٢٢٣.
(٥) ينظر: التبيان في إعراب القرآن ١/ ٤١٢، المحرر الوجيز ٢/ ١٦٣.

وبعد واوٍ عيَّنت مَفهوم مع   كَمِثْلِ (كلُّ صانعٍ وما صنع)
وقبل حال لا يكون خبرًا   عن الذي خبَرُه قد أُضمِرا
كضَربيَ العبدَ مُسيئاً وأتم   تبْيِيني الحقَّ مَنُوطاً بالحِكَم[(١)]

ولا يمكن حصر مواضع جواز حذف الخبر[(٢)]؛ لأنه كلَّما دلَّ على حذف الخبر دليل جاز حذفه.

ومن الأمثلة:

إذا عُطفت جملة اسمية على جملة أخرى خبرها غير محذوف.

- كما في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ففي هذه الآية أخبار محذوفة لوجود دليل عليها.

قال الرازي: «وأما قوله: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فهو مرفوع بالابتداء، وكذا قوله: ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ والخبر محذوف؛ لدلالة ما تقدم عليه، والتقدير: قل قتالٌ فيه كبيرٌ، وصدٌّ عن سبيل الله كبيرٌ، وكفرٌ به كبيرٌ»[(٣)].

- وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد].

فالخبر محذوف في قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾؛ أي: وظلها دائمٌ[(٤)].

- وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ﴾ [الطلاق: ٤].

فقوله: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ﴾.

---

(١) ألفية ابن مالك مع شرح ابن عقيل ١/ ١٩٤.
(٢) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٨/ ٢٥٦.
(٣) تفسير الرازي ١/ ٨٧٩.
(٤) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٥/ ٣٧٤٧، الكشاف ٢/ ٥٠١، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ٣/ ٢٢٣.

قال أبو حيان: «قدروا خبره جملة من جنس خبر الأول؛ أي: عدتهن ثلاثة أشهر، والأولى أن يقدر: مثل أولئك، أو كذلك، فيكون المقدر مفرداً»[(١)].

ومن الأمثلة:

حذف الخبر إذا كان في مقابلة المبتدأ.

- كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ [الرعد: ٣٣].

فقوله: ﴿أَفَمَنْ﴾ موصولة مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: كمن ليس كذلك[(٢)].

- وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨].

والتقدير: كمن هداه الله[(٣)].

- وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧].

حَذَفَ هنا المعادِل الذي دَخَلَت عليه الهمزة.

قال أبو حيان: «وحذف المعادل الذي دخلت عليه الهمزة، والتقدير: كمن يريد الحياة الدنيا، وكثيراً ما حذف في القرآن»[(٤)].

- وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزُمر: ٩].

والتقدير: كمن ليس كذلك.

قال العكبري: «وحذف الخبر لدلالة قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ﴾»[(٥)].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٨٠.
(٢) ينظر: تفسير البيضاوي ٣/ ٣٣١، البرهان ١/ ٤٦.
(٣) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٩/ ٥٩٥٥.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٢١١.
(٥) التبيان في إعراب القرآن ٢/ ١١٠٩.

ـ وحذف في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزُّمر: ٢٢].

وتقديره: كالقاسي قلبه الذي هو في ظلمة(١).

ـ وكذا في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾ [الزُّمر].

قال العكبري: «﴿أَفَمَنْ﴾: مُبتدأ، والخبر محذوف، تقديره: كمن نجا»(٢).

وبعد تأمل هذه المواضع من حذف الخبر في كتاب الله تعالى؛ نجد حِكَماً ولطائف من هذا الحذف، ومنها:

ـ أنه إذا دل دليل على الخبر استُغنِي عن ذكره للاختصار مع كمال المعنى.

ـ يحسُن حذفُ الخبرِ إذا كان في مقابلة المبتدأ لوجودِ الدلالة عليه، مع جمال التعبير.

ـ من أدلة حذف الخبر أنه ذُكِر في مواضع أُخرى من كتاب الله.

كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ﴾ [النحل: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ﴾ [الرعد: ١٩].

وقوله جل وعلا: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ [محمد: ١٤].

فإثبات الخبر في هذه الآيات دليل على الحذف في المواضع الأخرى.

ـ أن الحذف الذي في مَحلِّه بلاغةٌ تؤدي إلى جمال السياق ومتعة القارئ.

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٥/ ٣٨٤.

(٢) التبيان في إعراب القرآن ٢/ ١١١٠.

- أن التعليل للحذف بكثرة الاستعمال، وعلم المخاطب بالمحذوف هما أهم المسوغات لبلاغة هذا الأسلوب وحسن استعماله.

وفي مواضعَ كثيرةٍ احتمَالُ حذف المبتدأ أو الخبر في جملة واحدة.

ومن ذلك:

إذا جاء الحذف بعد الفاء.

- كقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

فيجوز كون التقدير على حذف الخبر: فعليه عدةٌ.

ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف تقديره: فالواجب عدةٌ.

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ﴾ مرفوع على خبر الابتداء، تقديره: فالحكم أو فالواجب عدةٌ، ويصح أن يرتفع على ابتداء، والخبر بعده، والتقدير: فعدة أمثل له، ويصح: فعليه عدة»[(١)].

- وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨].

ارتفاع: اتباعٌ، على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: فالأمر، أو الحكم، أو الواجب[(٢)]، ويجوز أن يكون مبتدأً محذوف الخبر تقديره: فعلى الولي اتباع القاتل بالدية[(٣)].

ومن الأمثلة:

إذا كان الحذف بعد اسم الإشارة فيجوز التقدير على حذف المبتدأ أو الخبر.

- كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

---

(١) المحرر الوجيز ١/٢٣٨.

(٢) ينظر: الكشاف ١/٢٤٨، المحرر الوجيز ١/٢٣٣.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٢/١٦.

يجوز التقدير: الأمر ذلك[١]، أو التقدير: ذلك الأمر[٢].

ـ وقوله جل وعلا: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ۝٥٥﴾ [ص].

يجوز التقدير: الأمر هذا، ويجوز: هذا للمؤمنين[٣].

قال الزركشي في دليل الحذف: «ويدل على هذا المعنى: دخول الواو بعد قوله ذلك وهذا؛ لأن ما بعد الواو يكون معطوفاً على ما قبله بها وإن كان مضمراً»[٤].

ومن الأمثلة:

إذا كان صدر الجملة مصدراً مرفوعاً.

ـ كقوله تعالى: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ [يوسف: ١٨].

يجوز التقدير: فأمري صبر جميل، أو فصبرٌ جميل أمثل من غيره[٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٥٣﴾ [النور].

فيجوز التقدير: طاعةٌ أولى، ويجوز: المطلوب طاعةٌ[٦].

قال ابن جزي: «طاعةٌ معروفةٌ: مبتدأ، وخبره محذوف؛ أي: طاعة معروفة أمثل وأولى بكم، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: المطلوب منكم طاعةٌ معروفة لا يشك فيها»[٧].

وقد اجتمع حذف المبتدأ والخبر في آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾ [الذاريات].

فسلامٌ: مبتدأ والخبر محذوف؛ أي: سلامٌ عليكم[٨]، وقومٌ: خبر لمبتدأ

---

(١) ينظر: التبيان في إعراب القرآن ٢/ ٩٤٦.
(٢) ينظر: تفسير القرطبي ١٢/ ٩٠.
(٣) ينظر: تفسير البيضاوي ٥/ ٥١، البحر المحيط ٧/ ٣٨٨.
(٤) البرهان ٤/ ٣١٥.
(٥) ينظر: تفسير الطبري ١٥/ ٥٨٤، المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٢، البرهان ٣/ ١٤٢.
(٦) ينظر: الكشاف ٣/ ٢٥٥. (٧) التسهيل ٢/ ٢٦٩.
(٨) ينظر: المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٢، التبيان في إعراب القرآن ٢/ ٧٠٥.

محذوف، تقديره: أنتم قومٌ[١].

والأمثلة في هذا الباب كثيرة[٢].

وفي الحذف اختصارُ العبارة، وتباعدٌ عن الحشو، وهذا من كمال الفصاحة والبلاغة لكتاب الله العظيم، ومن أسرار تأثيره على القارئ والمستمع.

كما أن في مواضع احتمال حذف المبتدأ أو الخبر تكثير المعاني مع إيجاز المباني، والله تعالى أعلم.

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٣٧.

(٢) ينظر للاستزادة: البرهان ٣/ ١٣٥ ـ ١٤٣، دراسات لأسلوب القرآن ٨/ ٢٥٦.

المبحث الثاني

حذف الفعل أو المفعول به

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: حذف الفعل.
- المطلب الثاني: حذف المفعول به.

المطلب الأول

حذف الفعل

من عادة القرآن حذف الفعل في مواضع كثيرة، حتى صار الإضمار بمنزلة الإظهار في جُلِّها، وإذا دل على الحذف دليل لفظاً أو معنى جاء الاكتفاء بما يدل على المعنى.

ومن المواضع التي يُحذَف فيها الفعل:

إذا كان الفعل مفسَّراً بما بعد الفاعل، ويكثر بعد: إذا، وإنْ.

ـ كقول الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التّكوير].

التقدير: إذا كُوِّرت الشمسُ.

قال السمين: «في ارتفاع الشمس وجهان، أصحهما: أنها مرفوعة بفعل مقدر مبني للمفعول، حُذِف وفسره ما بعده»(١).

ـ وقوله جل وعلا: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق]، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾ [الرَّحمٰن].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ [القمر: ٢٤].

---

(١) الدر المصون ١٠/٦٩٩.

فقوله: بشراً، نُصِب بإضمار فعل يدل عليه قوله: ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾[١].

قال الزمخشري: «﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ نُصب بفعل مضمر يفسره ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ وقرئ: (أَبَشَرٌ مِنَّا وَاحِدٌ) على الابتداء[٢]، ونتبعه: خبره، والأوّل أوجه للاستفهام»[٣].

- وقوله سبحانه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩].

قوله: ﴿طَآئِفَتَانِ﴾ ارتفع بفعلٍ تقديره: اقتتل، دل عليه الظاهر.

قال العكبري: «﴿طَآئِفَتَانِ﴾: فاعل فعل محذوف»[٤].

- وكذا قوله جل وعلا: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

فقوله: أحدٌ، فاعل لفعل مضمر يدل عليه الظاهر؛ أي: وإن استجارك أحدٌ[٥].

قال الزمخشري: «مرتفع بفعل الشرط مضمراً يفسره الظاهر، تقديره: وإن استجارك أحد استجارك ولا يرتفع بالابتداء؛ لأن [إنْ] من عوامل الفعل لا تدخل على غيره»[٦].

ومن الأمثلة:

حذف الفعل إذا كان جواباً لسؤال.

- كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت].

والتقدير: ليقولن خلقهن اللهُ.

- وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ

---

(١) المحرر الوجيز ٥/١٩٨، التبيان في إعراب القرآن ٢/١١٩٤.
(٢) من قراءة أبي السمال، ينظر: المحتسب ٢/٢٩٧.
(٣) الكشاف ٤/٤٣٧.
(٤) التبيان في إعراب القرآن ٢/١١٧١.
(٥) ينظر: تفسير النسفي ٢/٧٩.
(٦) الكشاف ٢/٢٣٦.

بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت].

التقدير: ليقولن أنزله الله[(١)].

فيقدَّر في كل سؤالٍ ما يناسبه في الجواب.

يدل على هذا التقدير إظهاره في بعض المواضع من القرآن.

كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزُّخرف].

وفي ذكر الفعل في هذا الموضع فوائدُ منها:

١ ـ التوكيد.

٢ ـ عدم النص في الجواب، فيحتمل الابتداء والاستئناف، ويحتمل الجواب.

قال أبو حيان: «كرر الفعل في الجواب في قوله: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ مبالغة في التوكيد، وفي غير ما سؤال اقتصروا على ذكر اسم الله، إذ هو العلَم الجامع للصفات العلا، وجاء الجواب مطابقاً للسؤال من حيث المعنى، لا من حيث اللفظ؛ لأن مَن: مبتدأ، فلو طابق في اللفظ، كان بالاسم مبتدأ، ولم يكن بالفعل»[(٢)].

٣ ـ احتمال كون الجواب من لازم قولهم، لإلزام الحجة عليهم.

قال البيضاوي: «﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ لعله لازم مقولهم، أو ما دل عليه إجمالاً أُقيم مقامَه تقريراً لإلزام الحجة عليهم، فكأنهم قالوا: الله، كما حُكِي عنهم في مواضع أُخَر، وهو الذي من صفته ما سَرَد من الصفات»[(٣)].

وليس ذلك بلازم، قال أبو حيان: «والظاهر أن: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ نفس المحكي من كلامهم، ولا يدل كونهم ذكروا في مكان خلقهن الله، أن لا يقولوا في سؤال آخر: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾»[(٤)]، والله تعالى أعلم.

---

(١) ينظر: البرهان ٣/ ٢٠٠.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٨.
(٣) تفسير البيضاوي ٥/ ١٤٠.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٨.

٤ ـ فيه دليلٌ على أن المحذوف في مثلِ هذا السياق فِعْل.

قال السمين: «وفيها دليلٌ على أنَّ الجلالةَ الكريمةَ مِنْ قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] مرفوعةٌ بالفاعلية لا بالابتداء؛ للتصريح بالفعل في نظيرتِها، وهذا الجوابُ مطابق للسؤالِ من حيث المعنى»[١].

ومن الأمثلة:

حذف الفعل إذا دل عليه السياق.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ﴾ [القمر].

والتقدير: فنصرناه ففتحنا أبواب السماء؛ لأن ما ظهر من الكلام يدل على المحذوف.

ـ وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

والتقدير: فماتوا ثم أحياهم؛ لأنه لا يصح عطف الماضي على فعل الأمر[٢].

قال العكبري: «معطوف على فعل محذوف، تقديره: فماتوا ثم أحياهم»[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

أي: فأفطر فعدة من أيام أخر[٤]، وهذا أمر واضح على القول الصحيح[٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء]؛ أي: فضربه فانفلق[٦]، دل على ذلك العقل والسياق.

(١) الدر المصون ٩/ ٥٧٥.
(٢) ينظر: البرهان ٣/ ٢٠٤.
(٣) التبيان في إعراب القرآن ١/ ١٩٣.
(٤) ينظر: البحر المحيط ٢/ ٦.
(٥) خلافاً لأهل الظاهر الذين أوجبوا الفطر على المسافر أخذاً بالظاهر، ينظر: المحلى ٦/ ٢٤٣.
(٦) ينظر: النكت والعيون ٤/ ١٧٤، تفسير ابن كثير ١/ ٢٦٠.

ومن الأمثلة:

حذف القول وهو كثيرٌ لدلالة السياق عليه.

ـ كقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران].

أي: فيقال لهم: أكفرتم؛ لأن [أمَّا] لا بد لها في الخبر من فاء[١]، ولكن بإضمار القول تُضمَر الفاء معه.

قال أبو حيان: «والتقدير: فيقال لهم: أكفرتم؟ كما حذف القول في مواضع كثيرة»[٢].

وقال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم﴾ تقرير وتوبيخ متعلق بمحذوف، تقديره: فيقال لهم: أكفرتم؟ وفي هذا المحذوف هو جواب أمَّا، وهذا هو فحوى الخطاب، وهو أن يكون في الكلام شيء مقدر لا يستغني المعنى عنه»[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزُمر: ٣].

أي: يقولون ما نعبدهم ليقربونا إلى الله.

قال ابن جزي: «﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ هذه الجملة في موضع معمولِ قولٍ محذوف»[٤].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة].

أي: وقلنا خذوا[٥].

قال الطبري: «العرب من شأنها ـ إذا عرفَتْ مكان الكلمة ولم تشكّ أن سامعها يعرف، بما أظهرت من منطقها، ما حذفت ـ حذفُ ما كفى منه الظاهر

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة ١٧٨.
(٢) البحر المحيط ٣/ ٢٦.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥١٠.
(٤) التسهيل ٢/ ٤٦٠.
(٥) ينظر: البرهان ٣/ ١٩٦.

من منطقها، ولا سيما! إن كانت تلك الكلمة التي حُذفت، قولاً أو تأويلَ قولٍ»[(١)].

إلى غير ذلك من الأمثلة في حذف الفعل، ومن فوائد هذا الحذف:

ـ أن في حذف الفعل كما مرَّ في بعض المواضع: الإخبار عنه مرتين دون تكرار له، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ [الانفطار]، فالمعنى: انفطرت السماء انفطرت.

ـ أن الاختصار في محلِّه أفضل من الإطالة، ووجودُ دليلٍ على الفعل المحذوف يُغني عن ذكره، وتحصيل المعنى الكثير في اللفظ القليل من عادات القرآن.

ـ يُستَدل على حذف الفعل بذكره في موضع آخر، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٦١﴾ [العنكبوت]، وذُكر في قوله سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾ [الزُّخرف].

ـ أن في الحذفِ فوائد لا يؤديها الذكر، ومن ذلك: النص على المراد، ومطابقته باللفظ عند الجواب على السؤال، وكذلك الحصر.

قال الزركشي: «وأما المعنى فلا شك أنه يختلف، فإنه إذا قيل: من جاء؟ فقلت: جاء زيد، احتمل أن يكون جواباً، وأن يكون كلاماً مبتدأً، ولو قلت: زيد، كان نصاً في أنه جواب، وفي العموم الذي دلت عليه مَن، وكأنك قلت: الذي جاء زيد، فيفيد الحصر، وهاتان الفائدتان إنما حصلتا من الحذف»[(٢)].

ـ أن الأكثرَ حذفُ الفعل في جواب السؤال، وعلى هذا فيُبحث عند ذكر الفعل عن سرّ في كل موضع.

ومن ذلك مثلاً: قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾ [يس] جاء الجواب بذكر الفعل: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ

---

(١) تفسير الطبري ١/ ١٤٠.
(٢) البرهان ٤/ ٤٨.

أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس]، ولعله ـ والله أعلم ـ للتأكيد على ما أنكروه من البعث[١].

ـ أن الاشتغال بذكر المحذوف يُفضِي إلى تفويت المُهِم، وهذه هي فائدة باب التحذير والإغراء، وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾ [الشمس]، فقوله: ناقةَ الله تحذير، والتقدير: ذروا، وسقياها إغراء، والتقدير: الزموا[٢]، فحذف الفعلين اعتناء بالأهم، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

حذف المفعول به

من عادات القرآن حذف المفعول، وهو كثير في القرآن، والأصل لجواز الحذف أمن اللبس الذي يؤَكَّدُ عليه في كل باب من أبواب الحذف.

قال ابن مالك:

وحذفُ ما يُعلم جائزٌ[٣]، .. ..

فعادة القرآن حذف المفعول إذا كان الغرض من السياق الفعل لا المفعول.

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص].

حُذِف من هذه الآية خمسةُ مفاعيل؛ لوضوحها، ولأنها غير مرادة، وتقديرها: [يسقون مواشيهم]، [تذودان مواشيهما]، [لا نسقي مواشينا]، [يُصْدِر الرعاءُ مواشيهم]، [فسقى لهما مواشيهما].

ففي الآية إعراض عما ليس بمقصود؛ لأن الغرض أن يُعلم أنه كان من

---

(١) ينظر: البرهان ٤/٤٨، ٤٩.
(٢) ينظر: الإتقان ٢/١٢٣.
(٣) ألفية ابن مالك ١٨.

الناس سَقْي، ومِن الامرأتين ذَوْد، وأنهما قالتا لا يكون منا سقْي حتى يُصدر الرعاء، وأنه كان من موسى عليه السلام بعد ذلك السَّقْي، وأما كون المسْقِي غنماً أو إبلاً أو غيرَ ذلك، فخارج عن المقصود، ولا يترتب عليه عمل[1].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة].

لم يُذكَر مفعول ﴿يُبْصِرُونَ﴾؛ لأن المقصود نفي الإبصار عنهم لا متعَلَّقُه[2].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١].

حُذِف المفعول لأنه لم يُرَد الأكلُ من معيَّن، وإنما أراد وقوع هذين الفعلين[3].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ [مريم: ٤٢].

المراد أن إلههم لا يسمع ولا يبصر.

قال أبو حيان: «معمول: ﴿يَسْمَعُ﴾ و﴿يُبْصِرُ﴾ منسي ولا ينوى؛ أي: ما ليس به استماع ولا إبصار؛ لأن المقصود نفي هاتين الصفتين، دون تقييد بمتعلق»[4].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨].

حُذِف هنا مفعول ﴿يَعْلَمُونَ﴾؛ لأن المقصود نفي نسبة العلم إليهم، لا نفي علمهم بشيء مخصوص، فكأنه قيل: وقال الذين ليسوا ممن لهم سجية في العلم لفرط غباوتهم[5].

ومن الأمثلة:

حذف المفعول إذا أُريد بالفعل العموم.

ـ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمر: ٩].

حُذف المفعول ليدل ـ والله أعلم ـ على العلم العام المثمِرِ للعَمَل،

---

(١) ينظر: البرهان ٣/ ١٧٧.
(٢) ينظر: البحر المحيط ١/ ٢١٦.
(٣) ينظر: البرهان ٣/ ١٧٦.
(٤) البحر المحيط ٦/ ١٨٢.
(٥) ينظر: البحر المحيط ١/ ٥٣٦.

بدلالة سياق الآية، حيث أثنى فيها على القانت آناء الليل وهو عَمَلٌ بما علِمَه، بقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزُّمر].

قال ابن قتيبة: «وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزُّمر: ٩]، ولم يذكر ضِدَّ هذا؛ لأن في قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمر: ٩]، دليلاً على ما أراد»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فلم يُذكَر المفعول ليدل على العموم، ولو ذُكِر لنَقَص المعنى، فالمراد: أن الله تعالى وحده له الإحياء والإماتة(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ [النَّجم].

حُذف هنا أربعة مفاعيل؛ لأنها مسوقة لبيان قدرة الله فلا حاجة للمفعول، بل المراد العموم.

قال الرازي: «﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ لا مفعول لهما في هذا الموضع؛ لأنهما مسوقتان لقدرة الله لا لبيان المقدور، فلا حاجة إلى المفعول.

يقول القائل: فلان بيده الأخذ والعطاء، يعطي ويمنع، ولا يريد ممنوعاً ومُعطَى»(٣).

وقال البيضاوي: «لا يقدر على الإماتة والإحياء غيره»(٤).

ومن الأمثلة:

حذف المفعول في رؤوس الآي.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة].

---

(١) تأويل مشكل القرآن ١٣٦، ١٣٧.
(٢) ينظر: البرهان ٣/ ١٧٦.
(٣) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٨٠.
(٤) تفسير البيضاوي ٥/ ٢٦٠.

أي: كأنهم لا يعلمون أنه كتاب الله، أو نبي مرسل[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة: ٢٤٣].

مفعول: ﴿يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ محذوف، تقديره: نعمه.

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة].

فلم يُذكر متعلق: ﴿تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

قال الزمخشري: «ويجوز أن يقدر: وأنتم تعلمون أنه لا يماثَل، أو وأنتم تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت، أو وأنتم تعلمون أنها لا تفعل مثل أفعاله»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ [القصص].

لم يذكر المتعلق لإفادة العموم.

ـ وقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى].

فالتقدير: قلاك، ولكن حذف المفعول مراعاة للفاصلة، واختصاراً، وتكريماً، ولظهور المحذوف قبله[٣]، إذ يُعلم أن المحذوف ضمير المخاطب، وهو رسول الله ﷺ.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الضحى].

فحذف الضمير المنصوب، لمراعاة الفاصلة، والاختصار، وإفادة معنى أوسع، فيقدر: هداك وهدى بك.

قال ابن عثيمين: «ولم يأت التعبير ـ والله أعلم ـ فهداك؛ ليكون أشمل

---

(١) ينظر: تفسير البيضاوي ١/ ٣٧٠. (٢) الكشاف ١/ ١٢٧.
(٣) ينظر: التبيان في إعراب القرآن ٢/ ١٢٩٢، البرهان ٣/ ١٦٧.

وأوسع، فهو قد هُدِي عليه الصلاة والسلام، وهَدَى الله به، فهو هاد مهدي عليه الصلاة والسلام، إذاً ﴿فَهَدَىٰ﴾؛ أي: فهداك وهدى بك»[١].

ومن الأمثلة:

حذف المفعول إذا كان معلوماً من السياق.

ـ كما في قوله جل وعلا: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران].

حذف مفعول سبح للعلم به من سياق الآية؛ أي: وسبح ربكَ.

ـ وقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [المجادلة].

حُذِف مفعول: ﴿يَجِدْ﴾ ومفعول: ﴿يَسْتَطِعْ﴾ للعلم به من سياق الآية، فالمراد: فمن لم يجد الرقبة، ومن لم يستطع الصيام.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب].

أي: والحافظات فروجهن، والذاكرات الله كثيراً.

قال العكبري: «وأغنى المفعول الأول عن الإعادة»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران].

حُذفت متعلقات هذه الأوصاف للعلم بها، فالمعنى: الصابرين على تكاليف ربهم، والصادقين في أقوالهم، والقانتين لربهم، والمنفقين أموالهم في طاعته، والمستغفرين الله لذنوبهم في الأسحار[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص].

---

(١) تفسير جزء عم ٢٣٧.

(٢) التبيان في إعراب القرآن ٢/١٠٥٧.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٢/٤١٨.

مفعولا ﴿تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ محذوفان، أحدهما العائد على الموصول، والتقدير: تزعمونهم شركاء[١]، والمحذوف في حكم المنطوق به؛ فالدلالة عليه من وجهين: اقتضاء الفعل له، واقتضاء الصلة إذا كان العائد[٢].

قال السمين: «فحذف المفعولان معاً ثقة بدلالة الكلام عليهما»[٣].

- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

أي: فاسْتَغْفَروه، فالمفعول محذوف لفهم المعنى[٤].

ومن الأمثلة:

حذف مفعول شاء وأراد.

وإذا حذف بعد [لَوْ] فهو المذكور في جوابها دائماً[٥].

- كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٠].

مفعول شاء محذوف، تقديره: ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بسمعهم وأبصارهم.

قال الزمخشري: «ومفعول شاء محذوف؛ لأن الجواب يدل عليه، والمعنى: ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها، ولقد تكاثر هذا الحذف في شاء وأراد لا يكادون يبرزون المفعول إلا في الشيء المستغرب»[٦].

- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة].

قال أبو حيان: «ومفعول: شاء محذوف؛ لدلالة الجواب عليه، التقدير: ولو شاء الله إعناتكم»[٧].

---

(١) ينظر: تفسير البغوي ٦/ ٢١٧، تفسير البيضاوي ٤/ ٣٠٠، البحر المحيط ٧/ ١٢٣.
(٢) ينظر: البرهان ٣/ ١٦٣.
(٣) الدر المصون ١١/ ٣٣٣، وينظر: تفسير أبي السعود ٧/ ٢١.
(٤) ينظر: البحر المحيط ٣/ ٦٤. (٥) ينظر: الإتقان ٢/ ١٢٥.
(٦) الكشاف ١/ ١١٩، وينظر: البحر المحيط ١/ ٢٢٦، تفسير أبي السعود ٤/ ١٢٩.
(٧) البحر المحيط ٢/ ١٧٢.

ـ وقوله تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [فصّلت].

مفعول شاء محذوف؛ أي: لو شاء ربنا إرسال الرسل(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ [النحل].

مفعول شاء محذوف؛ لِدَلالة: ﴿لَهَدَىٰكُمْ﴾؛ أي: ولو شاء هدايتكم(٢).

ـ وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ [المزمل].

مفعول شاء محذوف، يدل عليه الشرط؛ لأن مَن: شرطية؛ أي: فمن شاء أن يتخذ سبيلاً اتخذه إلى ربه(٣).

والأمثلة في كتاب الله تعالى كثيرة جداً(٤).

قال الزركشي: «والحكمة في كثرة حذف مفعول المشيئة المستلزمة لمضمون الجواب لا يمكن أن تكون إلا مثلية الجواب؛ ولذلك كانت الإرادة كالمشيئة في جواز اطراد حذف مفعولها؛ كقوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الصَّف: ٨]، وإنما حذفه؛ لأن في الآية قبلها ما يدل على أنهم أَمِروا الكذب(٥)؛ وهو بزعمهم إطفاء نور الله، فلو ذكر أيضاً لكان كالمتكرر؛ فحُذِف وفسِّر بقوله: ﴿لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ وكان في الحذف تنبيه على هذا المعنى الغريب»(٦).

ويستثنى من هذه العادة إذا كان مفعول الإرادة عظيماً أو دعا إليه السياق فإنه لا يحذف، ومثاله:

ـ قول الله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزُّمر].

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ١٩٧.
(٢) ينظر: البحر المحيط ٥/ ٤٦٣.
(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٥٨.
(٤) ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٩/ ١٥٩.
(٥) أَمِروا: أي: أكثروا، معجم مقاييس اللغة ١/ ١٣٨.
(٦) البرهان ٣/ ١٦٨، ١٦٩، وينظر: الإتقان ٢/ ١٢٥.

في الآية رد على الكفار في قولهم: اتخذ الله ولداً بما يطابقه في اللفظ؛ ليكون أبلغ في الرد، ولو حذفه فقال: [لو أراد الله لاصطفى] لم يظهر المعنى المراد؛ لأن الاصطفاء قد لا يكون بمعنى التبني، ولو قال: لو أراد الله لاتخذ ولداً لم يكن فيه ما في إظهاره من تعظيم جرم قائله[١].

- وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء].

فذكر المفعول هنا لعود الضمير عليه، فلو حُذف لم يكن للضمير ما يعود عليه[٢]، وهذا التعليل هو ما رجحه أبو حيان[٣].

والمتأمل في مواضع الحذف للمفعول به في القرآن يجدُ إعجازاً عظيماً، ومتعةً تقوده إلى جمالية اللغة وأساليبها.

ومن الحِكم في حذف المفعول به:

- أن المفعول به ليس عمدة في الكلام، ولذلك ساغ حذفه عند أمن اللبس.

قال ابن مالك:

وحَذفَ فَضْلَةٍ أَجِزْ إن لـم يَضِر[٤] ....

أن حَذْف المفعول يُفيد التعميم مع الاختصار، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس].

لم يُذكر في هذه الآية مفعول يدعو؛ لإفادة العموم.

قال الزركشي: «أي: كل أحد؛ لأن الدعوة عامة، والهداية خاصة»[٥].

ويكثر هذا التعميم في رؤوس الآي كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

---

(١) ينظر: الكشاف ١/ ١١٩، البرهان ٣/ ١٧٠.
(٢) ينظر: البرهان ٣/ ١٧١.
(٣) البحر المحيط ١/ ٢٢٦، وقال البعض: سبب الذكر غرابة مفعول الإرادة. ينظر: البرهان ٣/ ١٧١.
(٤) ألفية ابن مالك ٢٩.
(٥) البرهان ٣/ ١٦٥، وينظر: تفسير أبي السعود ٤/ ١٣٧، تفسير السعدي ٣٦٢.

- إذا كان المراد إثبات المعنى الذي دل عليه الفعل دون المتعلق، فلا يُحتاج إلى ذكر المفعول؛ لأنه غير مقصود، أو لا يترتب عليه عمل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

- أن في حذف المفعول به إيثار الاختصار عند قيام القرينة، وعدم التكرار.

كسبقِ ما يدل على المفعول، ومنه قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد]؛ أي: ويثبت ما يشاء.

وكذا رعاية الفواصل عند وضوح المعنى، ومنه قوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الأعلى]؛ أي: يخشى الله.

- ومن فوائد حذف المفعول: البيان بعد الإبهام، كما في مفعول المشيئة والإرادة، لتمام المعنى، ووضوحه، والبيان بعد الإبهام أوقع في النفس، والله تعالى أعلم.

المبحث الثالث

حذف الصفة أو الموصوف

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: حذف الصفة.
- المطلب الثاني: حذف الموصوف.

المطلب الأول

حذف الصفة

الصفة: هي التابع الذي يكمل متبوعه؛ بدلالته على معنىً فيه، أو فيما يتعلق به[(١)].

وقد حُذفت الصفة في القرآن لمَّا قام الدليلُ عليها.

قال ابن مالك:

وَمَا مِنَ الْمَنْعُوتِ وَالنَّعْتِ عُقِلْ يجُوزُ حَذْفُهُ وَفِي النَّعْتِ يَقِلّ[(٢)]

وهذه قاعدة معروفة تقدمت في حذف المبتدأ، وحذفُ ما يعلم جائز، وهي في الحقيقة ضابط من ضوابط النحو، والمراد هنا: أن الذي عُلِم من المنعوت والنعت يجوز حذفه[(٣)].

قال الطبري: «كل كلام نُطِق به - مفهوم به معنى ما أُريد - ففيه الكفاية من غيره»[(٤)].

---

(١) ينظر: التعريفات ١٣٣، الكليات ١٥١٥، ضياء السالك ٣/ ١٢٩، وتسمى: النعت، والوصف.

(٢) ألفية ابن مالك مع شرح ابن عقيل ٢/ ١٧٧ بيت (٥١٩).

(٣) ينظر: تأويل مشكل القرآن ١٤٥، ١٤٦، شرح ابن عقيل على الألفية ٢/ ١٧٧.

(٤) تفسير الطبري ٢/ ١٦٠.

وقال الزركشي في حذف الصفة: «وأكثر ما يرِدُ للتفخيم والتعظيم في النكرات، وكأنّ التنكير حينئذ عَلَم عليه؛ كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف]؛ أي: وزناً نافعاً»[(١)].

فَتُحذَف الصفة في القرآن إذا دلَّ عليها دليل من سياق الآية.

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف].

أي: سفينةٍ صالحةٍ، وهذا التقدير يقتضيه السياق اللفظي؛ لأن عموم قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ يقتضي أخذَ الملكِ للمعيبةِ والصحيحة معاً[(٢)]؛ فلا فائدة في خرق السفينة، فتقديرُ الصفةِ إيضاحٌ للغاية من خرقها، فالخَضِر أراد أن يعِيبَها ليجعلَها غير صالحة في نظر الملِك، ولم يُرِد إخراجَها عن كونها سفينة، فعُلِم من السياق أن هناك حذفاً.

وقد قُرئ في غير المتواتر: (**وَكَانَ أَمَامَهُم مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْباً**)[(٣)].

وفيها دليل على الصفة المحذوفة.

قال الطبري: «لأن وراءهم ملكاً يأخذ كل سفينة غصباً؟ قيل: إن معنى ذلك، أنه يأخذ كل سفينة صحيحة غصباً، ويدع منها كلّ معيبة، لا أنه كان يأخذ صحاحها وغير صحاحها، فإن قال: وما الدليل على أن ذلك كذلك؟ قيل: قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] فأبان بذلك أنه إنما عابها؛ لأن المعيبة منها لا يعرِض لها، فاكتفى بذلك من أن يقال: وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صحيحة غصباً، على أن ذلك في بعض القراءات كذلك»[(٤)].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش].

---

(١) البرهان ٣/ ١٥٥.

(٢) ينظر: دفع إيهام الاضطراب ١٤٥.

(٣) ينظر: تفسير الطبري ١٨/ ٨٤، معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٧، النشر ١/ ١٤، الإتقان ١/ ١٦٧.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٨٤.

أي: جوعٍ شديدٍ، وخوفٍ عظيمٍ(١)، وفي هذا كمال نعمة الله عليهم؛ والآية في سياق الامتنان عليهم.

- وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨].

أي: لستم على شيءٍ نافعٍ(٢).

قال ابن عطية: «﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾؛ أي: على شيءٍ مستقيمٍ»(٣).

وقال البقاعي: «﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾؛ أي: سارّ، أو يعتد به من دنيا ولا آخرة»(٤).

- وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝٥١﴾ [ص].

أي: وشرابٍ كثيرٍ؛ بدليل ما قبله.

قال الرازي: «والتقدير: بفاكهة كثيرة، وشراب كثير»(٥).

- وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزُّخرف: ٤٨]؛ أي: أكبر من أختها السابقة(٦).

قال ابن جزي: «فالمراد: أكبر من أختِها المتقدمة عليها»(٧).

وقوله: أختها؛ أي: التي مثلها.

قال الزمخشري: «وهذه صفةُ كل واحدة منها؛ فكان المعنى على أنها أكبر من بقية الآيات على سبيل التفصيل والاستقراء، واحدةً بعد واحدة»(٨).

ومن الأمثلة:

حذف الصفة إذا دل عليها العرف أو العقل(٩).

- كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا﴾ [البقرة: ٧١].

---

(١) ينظر: البرهان ٣/ ١٥٥.
(٢) ينظر: مغني اللبيب ٥٩٠، الجدول في إعراب القرآن ٢٥/ ٩٤.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٢٥٥.
(٤) نظم الدرر ٢/ ٥٠٧.
(٥) تفسير الرازي ٢٦/ ١٩١.
(٦) ينظر: مغني اللبيب ٥٩٠.
(٧) التسهيل ٣/ ٢٢.
(٨) الكشاف ٤/ ٢٥٨.
(٩) ينظر: البرهان ٣/ ١٥٦.

أي: الحق الواضح، وإلا كان مفهومه كفراً[١]؛ لأنه يدل على أنهم اعتقدوا فيما تقدم من الأوامر أنها ما كانت حقّاً، وليس كذلك بل المراد: الآن اتضحت حقيقة ما أُمرنا على تقدير الصفة فلا يكون كفراً[٢].

- وقوله جل وعلا: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

والمراد: ليس من أهلك الناجين[٣]، فحُذِف الوصف لكونه معروفاً ضمناً، فهو ابنه من النسب حيث نادى فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما بغت امرأة نبي قط وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ يقول: إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك»[٤].

قال السمرقندي: «إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم»[٥].

- وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف]؛ أي: وزناً نافعاً[٦].

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ [طه].

والذي لا يموت يحيا، والذي لا يحيا يموت، ولكن المعنى: لا يحيا حياةً طيبةً يُعتَد بها، ولا يموت موتاً مريحاً، فكأن الإحياء للعذاب ليس بحياة معتدٍّ بها[٧].

- وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ

---

(١) ينظر: مغني اللبيب ٥٩١.
(٢) ينظر: اللباب في علوم الكتاب ٢/ ١٧٣.
(٣) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ٤٩٩، البرهان ٣/ ١٥٦.
(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٤٣، وينظر: الدر المنثور ٨/ ٧٧.
(٥) تفسير السمرقندي ٢/ ١٥٣.
(٦) ينظر: البرهان ٣/ ١٥٥، الإتقان ٢/ ١٣٥، روح المعاني ٣٠/ ٢٢٢.
(٧) ينظر: البحر المحيط ٦/ ٢٤٤.

فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران].

فالمراد: الناس الذين يعادونكم(١)؛ لأنه لا يُتَصوَّر أن المراد به كل الناس، وإنما هو مخصوص بأتباع الشيطان، بدلالة الإشارة إليه في الآية التالية حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنعام].

أي: قومك المعاندون(٢)، فالواقع أن من القوم من صدق به، فلا بد من تقييد القوم المكذبين بصفة معلومة.

وبعد تأمل مواضع حذف الصفة في القرآن تبين لي ما يأتي:

١ ـ أن حذف الصفة لا يكون إلا في صفة تقدمها ما يدل عليها، أو تأخَرَ عنها، أو فُهم ذلك من دليل خارجٍ عنها.

٢ ـ أن حَذْف الصفةِ وإقامة الموصوف مقامَها أقلُّ استعمالاً من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه؛ لأن الصفة إذا حُذفت لا تُعلم إلا بدليل بخلاف حذف الموصوف فإنه يُعرف بمجرد الصفة.

٣ ـ أن الصفة تُحذَف للتفخيم والتعظيم، والمدحِ والثناء، كما تقول: كان والله رجلاً؛ أي: رجلاً فاضلاً أو كريماً أو شجاعاً أو نحوها من الصفات، وتقول: زرته فوجدته إنساناً؛ أي: إنساناً عظيماً أو سمحاً أو ما أشبهه، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ﴾ [النساء: ٧٩]؛ أي: رسولاً كاملَ الصفات، وهذا واضح من دلالة الحال، وعليه فلو خَلَت الصفة من دلالة اللفظ أو الحال فإن حذفها لا يجوز.

٤ ـ أن هذا الباب فيه من اللطائف المعنوية ما لا يمكن التعبيرُ عنها بالألفاظ، فتشحذُ أذهان العلماء للبحث والتأمل، ليجدوا الإعجازَ بالإيجاز

(١) ينظر: البرهان ٣/ ١٥٦.
(٢) ينظر: البحر المحيط ٦/ ٢٤٤.

وكمال المعاني، فما أجمل هذه اللغة، وما أحسن أساليبها، وسبحان من أنزل كلامه بلسان عربي مبين.

٥ ـ أن القرآن كلام جامع مانع، بيَّن الله تعالى في كتابه وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج، ولم يذكر صفاتها، بل بيَّنها النبي ﷺ بياناً شافياً كافياً، قال جل وعلا: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل]، وهذا شامل لتبيين ألفاظه، وتبيين معانيه[١].

وكما قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

المراد: فمن شهد منكم الشهر مسلماً مكلفاً قادراً مقيماً فليصمه.

كل هذه الصفات لمَّا دل عليها الإجماع والسُّنَّة، جاز حذفها.

قال الزمخشري: «﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ والمعنى: فمن شهد منكم في الشهر فليصم فيه؛ يعني: فمن كان منكم مقيماً حاضراً لوطنه في شهر رمضان فليصم فيه»[٢].

فمِن بلاغة القرآن: الإيجازُ مع الإفهام، والتقت ببلاغة الرسول ﷺ؛ فاكتمل البيان.

قال الطبري: «إنّ مما أنزل الله من القرآن على نبيه ﷺ، ما لا يُوصل إلى علم تأويله إلا ببيان الرسول ﷺ، وذلك تأويل جميع ما فيه: من وجوه أمره ـ واجبه ونَدْبِه وإرْشاده ـ وصنوفِ نَهيه، ووظائفِ حقوقه وحدوده، ومبالغ فرائضه..»[٣].

وقال القرطبي: «فبلاغة القرآن في أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الإيجاز والبيان»[٤].

---

(١) ينظر: تفسير السعدي ٧٤.
(٢) الكشاف ٢/ ٤٠٤.
(٣) تفسير الطبري ١/ ٧٤.
(٤) تفسير القرطبي ١/ ٧٧.

المطلب الثاني

حذف الموصوف

حذف الموصوف كثير في القرآن، وكذا في لغة العرب؛ لأن الموصوف يُعرَف غالباً بذكر الصفة، أما الصفة فإذا حُذفت لم تُعلم إلا بدليل، ولهذا كان حذف الصفة أقل[١]، فالمراد منها بيان الموصوف.

قال ابن هشام: «ويجوز بكثرةٍ حذفُ المنعوت إن عُلِم، وكان النعت صالحاً لمباشرة العامل نحو: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ﴾ [سبأ: ١١]»[٢].

ولا يُحذَف الموصوف إلا إذا كانت الصفة خاصة بالموصوف[٣]؛ حتى يحصل العلم بالموصوف.

وأمثلة حذف الموصوف وإقامة الصفة مكانه كثيرة في القرآن، ومنها:

- قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء].

أي: وآتينا ثمود الناقة آيةً مبصرةً.

فإنه لم يرد أن الناقة كانت مبصرة، ولم تكن عمياء، وإنما أُريد آية مبصرة فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه، بدليل آخر الآية: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾.

- وقوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان].

أي: وجنة دانية[٤].

- وقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣].

فالكاف صفةٌ لمحذوف؛ أي: آمنوا إيماناً مثل إيمان الناس.

- وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: ١٣].

---

(١) ينظر: شرح ابن عقيل ٢/ ١٧٨.
(٢) أوضح المسالك ٣/ ١٤٥ بتصرف.
(٣) ينظر: الدر المصون ١/ ١٤١، البرهان ٣/ ١٥٤.
(٤) ينظر: البرهان ٣/ ١٥٥.

أي: أنؤمن إيماناً كإيمان السفهاء[١].

قال العكبري: «﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾، الكاف في موضع نصب صفةٌ لمصدرٍ محذوف؛ أي: إيماناً مثل إيمان الناس، ومثله: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ﴾»[٢].

فحُذِف الموصوف فيها وأقيمت الكاف التي هي صفته مقامه.

وعلى هذا أكثر ما جاء في القرآن من قوله: ﴿كَمَآ﴾[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ٦٣﴾ [القصص].

قال الزمخشري: «[كَمَا] الكاف صفة مصدر محذوف، تقديره: أغويناهم، فغووا غياً مثل ما غوينا»[٤].

ومثله قال الرازي[٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨﴾ [البقرة].

قال النحاس: «﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾ الكاف في موضع نصب نعت لمصدر؛ أي: سؤالاً كما سئل موسى»[٦].

ومثله قال العكبري[٧].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣﴾ [القمر].

أي: سفينة ذات ألواح[٨].

ـ وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٩٥﴾ [الواقعة].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٠.
(٢) التبيان في إعراب القرآن ١/ ٣٠، ينظر: تفسير النسفي ١/ ١٩.
(٣) ينظر: إعراب القرآن المنسوب للزجاج ١/ ١٥٧.
(٤) الكشاف ٣/ ٤٣٠.
(٥) تفسير الرازي ٢٥/ ٧.
(٦) إعراب القرآن ١/ ٢٥٥.
(٧) التبيان في إعراب القرآن ١/ ١٠٤.
(٨) ينظر: البرهان ٣/ ١٥٥.

أي: حق العلم اليقين.

قال الفراء: «﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾ [ق]، والحب هو الحصيد، وهو مما أضيف إلى نفسه، مثل قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥﴾ [الواقعة]، ومثله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق]»(١).

ـ وقوله جل وعلا: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾ [ق].

التقدير: حبَّ النبت الحصيد، وهو كل ما يحصد(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝٤٨﴾ [الصَّافات].

أي: حور قاصرات(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور: ٢٦].

قيل المراد: النساء الخبيثات للرجال الخبيثين.

قال ابن تيمية: «النساء الخبيثات للرجال الخبيثين، والنساء الطيبات للرجال الطيبين»(٤).

وقال أبو حيان: «والظاهر أن ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾ وصف للنساء، وكذلك ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾؛ أي: النساء الخبيثات للرجال الخبيثين ويرجحه مقابلته بالذكور»(٥).

وقيل: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول، والطيبات من القول للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من القول، وهو قول أكثر المفسرين(٦)، ورجحه الطبري(٧)،

---

(١) معاني القرآن ٣/ ٧٦.
(٢) ينظر: تفسير القرطبي ١٧/ ٦.
(٣) ينظر: مغني اللبيب ٥٨٩، البرهان ٣/ ١٥٥.
(٤) جامع المسائل ٤/ ١٤٢، مجموع الفتاوى ١٥/ ٣٢٢.
(٥) البحر المحيط ٦/ ٤٠٥، وينظر: التسهيل ٢/ ٢٥٥.
(٦) ينظر: تفسير البغوي ٦/ ٢٨، الكشاف ٣/ ٢٢٩، تفسير القرطبي ١٢/ ٢١١.
(٧) تفسير الطبري ١٩/ ١٤٤.

والنحاس[١].

وعلى كلا القولين فالموصوف محذوف والخلاف في تقديره.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البيّنة].

أي: دين الملة القيِّمة[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ].

أي: العبد الشكور[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝١١﴾ [سبأ].

أي: دروعاً سابغاتٍ[٤].

ـ وقوله جل وعلا: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ﴾ [يوسف: ١٠٩].

على تقدير: ولدار الساعةِ الآخرةِ، فتكون الآخرة صفة للساعة المضمرة، وليست الدار مضافةً إلى الآخرة؛ لأن الشيء لا يضاف إلى صفته[٥].

قال الزمخشري: «ولدار الساعةِ، أو الحالِ الآخرةِ»[٦]، ومثله قال الرازي[٧].

وقال السمين: «قولُ البصريين وهو أنه من باب حَذْف الموصوف وإقامةِ الصفةِ مُقامه، والتقدير: ولَدارُ الساعةِ الآخرة، أو لدار الحياة الآخرة، يدلُّ عليه: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾ [آل عمران: ١٨٥]»[٨].

---

(١) معاني القرآن ٤/ ٥١٥.
(٢) ينظر: مغني اللبيب ٥٨٩، البرهان ٣/ ١٥٥.
(٣) ينظر: البرهان ٣/ ١٥٥.
(٤) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٢/ ١٥٢٤، مغني اللبيب ٥٨٩، الإتقان ٢/ ١٣٤.
(٥) ينظر: أوضح المسالك ٢/ ٣٠٣، تفسير النسفي ١/ ٣٢٠.
(٦) الكشاف ٢/ ٤٨٠.
(٧) ينظر: تفسير الرازي ١٢/ ١٦٧.
(٨) الدر المصون ٤/ ٦٠٠.

ومن الأمثلة في حذف الموصوف:

ـ جميع ما جاء في القرآن من قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥].

فالتقدير: وعملوا الأعمال الصالحات(١).

قال الألوسي: «﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ بما وجب الإيمان به، ﴿وَعَمِلُواْ﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على الوجه الذي أمروا به»(٢).

ـ كما أن السيئات في قوله تعالى: ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

أي: الخصال السيئات.

وبعد التأمل في كثرة حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه؛ تبين لي:

١ ـ أن أمثلةَ حذف الموصوف في القرآن لا حصر لها؛ مما يدل على أن هذا الحذف معلوم من السياق لأهل العربية، فجُمِع في حذف الموصوف المعلوم: الإيجاز مع تمام المعنى، وهذا هو الإيجاز البليغ.

٢ ـ عناية العلماء بجمع المواضع التي حُذف فيها الموصوف، وإفراد مباحث خاصة بحذف الموصوف.

٣ ـ نُقِل الإجماع على وجوده في القرآن، وفي هذا تأكيد لأهمية دراسة هذا الأسلوب.

قال مكي ـ عن إقامة الصفة مقام الموصوف ـ: «وقد جاء هذا في القرآن بإجماع، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ [فصّلت: ١٠]، ولم يقل: جِبَالاً رَوَاسِيَ، وقال: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سبأ: ١١]، ولم يقل: دُرُوعاً سَابِغاتٍ»(٣).

٤ ـ أن من أكثر مواضع حذف الموصوف، إذا كان في سياق النداء وإذا كان الموصوف مصدراً.

---

(١) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٥/ ٣٧٣٤، تفسير ابن كثير ٦/ ٣٣٢.

(٢) روح المعاني ٢/ ٣٧٩.

(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية ١/ ٣٣١.

فمثال الأول:

ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ [الزُّخرف: ٤٩].

تقديره: يا أيها الرجل الساحر[١].

ـ وكذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٤].

تقديره: يا أيها القوم الذين آمنوا.

ومثال الثاني:

ـ قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان].

تقديره: ومن تاب وعمل عملاً صالحاً.

والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان].

ـ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣].

أي: قولاً ذا حُسْنٍ فحُذِف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه بعد حذف المضاف.

قال العكبري: «والضمُّ على تقدير حذف مضاف؛ أي: قولاً ذا حُسْنٍ»[٢].

وقال أبو حيان: «حُسناً نعت لمصدر محذوف؛ أي: قولاً ذا حُسْنٍ»[٣].

٥ ـ في حذف الموصوف اكتفاءٌ بأحدِ لَفظَين بينهما تلازمٌ وارتباط، ليس كيف ما اتفق؛ بل لأن فيه نكتة تقتضي الاقتصار عليه.

٦ ـ من أسباب حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه: ووضوح دلالة الصفة على الموصوف؛ لخصوصيتها به، أو لتعظيمه وتفخيمه؛ لما في الحذف من الإبهام، أو العكس من إرادة الإهانة والتحقير بعدم ذكر الموصوف إهمالاً وتجاهلاً، والذي يُفسر هذا السياق.

---

(١) ينظر: البرهان ٣/ ١٥٥.

(٢) التبيان في إعراب القرآن ١/ ٨٤.

(٣) البحر المحيط ١/ ٤٥٤.

المبحث الرابع

حذف المضاف أو المضاف إليه

وفيه مطلبان:

- **المطلب الأول: حذف المضاف.**
- **المطلب الثاني: حذف المضاف إليه.**

المطلب الأول

حذف المضاف

المضاف: اسم يعرب حسب موقعه من الجملة، ولا يكْمُل معناه إلا بوجود المضاف إليه، والمضافُ يُحذَف كثيراً في القرآن ويُقام المضاف إليه مقامه عند وجود قرينة، من باب الإيجاز والاختصار[(١)].

قال ابن قتيبة: «باب الحذف والاختصار، من ذلك: أن تَحذفَ المضاف وتُقيمَ المضاف إليه مقامه، وتجعلَ الفعل له.

كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]؛ أي: سل أهلها.

﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣]؛ أي: حبه»[(٢)].

وقال ابن جني في حذف المضاف: «وأمّا أنا فعندي أنّ في القرآن مِثْل هذا الموضع نيِّفاً على ألْفِ موضِع، وذلك أنه على حذفِ المضافِ لا غير»[(٣)].

---

(١) ينظر: الكتاب ١/ ٢١١.

(٢) تأويل مشكل القرآن ١٣٣.

(٣) الخصائص ١/ ١٩٢.

وقال في موضع آخر: «وحَذْفُ المضاف في القرآن والشعر وفصيح الكلام في عدد الرمل سعة، وأستغفر الله، وربما حَذفت العرب المضاف بعد المضاف مكرراً؛ أُنساً بالحال ودلالة على موضوع الكلام؛ كقوله ﷻ: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طـه: ٩٦]؛ أي: من أثر حافرِ فرسِ الرسول»(١).

وقال الزركشي: «حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وهو كثير»(٢).

ـ كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

حُذِف المضاف وتقديره: ولكن البرَّ برُّ من آمن بالله واليوم الآخر(٣).

قال الرازي: «ولكن البرَّ برُّ مَن آمن بالله؛ فحُذِف المضاف، وهو كثير في الكلام»(٤).

وعند تأمل كتاب الله تعالى نجد حَذْف المضاف في مواضع من أهمها:

أولاً: إذا نُسب الحكم شرعي إلى ذات، فإن المضاف محذوف؛ لأن التكليف لا يقع على الذوات وإنما على الأفعال.

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

والمراد: حُرم عليكم نكاحُ أمهاتكم، لدلالة السياق عليه(٥).

قال أبو حيان: «وليس هذا من المجمل، بل هذا مما حُذِف منه المضاف لدلالة المعنى عليه؛ لأنه إذا قيل: حُرم عليك الخمر، إنما يفهم منه شربها، وحرمت عليك الميتة؛ أي: أكلها، وهذا من هذا القبيل، فالمعنى: نكاح أمهاتكم، ولأنه قد تقدم ما يدل عليه وهو قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم

---

(١) المحتسب ١/ ١٨٧.
(٢) البرهان ٣/ ١٤٦.
(٣) ينظر: الكتاب لسيبويه ١/ ٢١٢.
(٤) تفسير الرازي ٥/ ٣٣.
(٥) ينظر: تفسير الطبري ٦/ ٣٧٠، تفسير ابن كثير ٢/ ٨٨٤.

مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء]»(١).

والحذف للمضاف هنا أفاد العموم، فيشمل التحريم للنكاح ومقدماته من قول أو فعل(٢).

- وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ١]؛ أي: أحلت لكم منافع بهيمة الأنعام.

- ومثله قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [الحج: ٣٠].

هذه فيها حذف مضافين، والتقدير: منافع بهيمة الأنعام، فالمضاف الأول دل عليه عدم وقوع الحِلّ على الذوات، والمضاف الثاني دلت عليه آية سورة المائدة: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [المائدة: ١](٣).

قال الشنقيطي: «وحذف المضاف كثير في القرآن كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ [النساء: ٢٣]؛ أي: نكاحها، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]؛ أي: أكلها، ونحو ذلك»(٤).

- وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣].

أي: أكلُ الميتة(٥).

قال أبو حيان: «وأسند التحريم إلى الميتة، والظاهر أن المحذوف هو

---

(١) البحر المحيط ٣/ ٢١٨.
(٢) ينظر: الواضح لابن عقيل ٢/ ٤٤٣.
(٣) ينظر: ملاك التأويل ١/ ١٥٨.
(٤) أضواء البيان ٣/ ٥٨.
(٥) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٣/ ١٥٧٨، والخلاف جار في حكم الانتفاع بها، والآية دليل لمن حرم؛ حملاً لحذف المضاف على العموم في الحكم، ينظر: مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين ١١/ ١٠٤، قال النووي في شرحه لصحيح مسلم ٤/ ٥٤: «وروي هذا القول عن عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وعائشة، وهو أشهر الروايتين عن أحمد، وإحدى الروايتين عن مالك».

الأكل؛ لأن التحريم لا يتعلق بالعين»[١].

- وقوله تعالى: ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ [الأنعام: ١٣٨].

المراد: منافع ظهورها، فيتناول الركوب والتحميل عليها[٢].

ثانياً: حذف المضاف إذا عُلِّق فيه الطلبُ على ما قد وقع.

- كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

- وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل].

فالعقد وعهد الله أمرٌ واقعٌ لا يتعلق فيهما نقض ولا وفاء؛ وإنما المراد: الوفاء بمضمونها ومقتضاها، وعلى هذا فالتقدير على حذف المضاف: أوفوا بمقتضى العقود والعهود[٣].

ثالثاً: حذف المضاف إذا عُلِّق الفعل على ذات لا يمكن إسناده إليها.

- كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء].

على تقدير حذف المضاف؛ أي: سدُّ يأجوج ومأجوج.

قال أبو حيان: «﴿فُتِحَتْ يَأْجُوجُ﴾ على حذف مضاف؛ أي: سد يأجوج ومأجوج»[٤].

وقال القرطبي: «وفي الكلام حذف؛ أي: حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]»[٥].

- وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤].

على تقدير حذف المضاف الذي يتضح من السياق؛ أي: شعرُ الرأسِ.

قال البغوي: «أي: ابيض شعر الرأس»[٦].

(١) البحر المحيط ١/ ٦٦٠.
(٢) ينظر: مغني اللبيب ٥٨٥.
(٣) ينظر: مغني اللبيب ٥٨٥.
(٤) البحر المحيط ٦/ ٣١٤.
(٥) تفسير القرطبي ١١/ ٣٤١.
(٦) تفسير البغوي ٥/ ٢١٨.

وقال ابن عاشور: «وأصل النظم المعتاد: واشتعل الشيب في شعر الرأس»(١).

- وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء].

والمراد: بقراءة صلاتك(٢).

قال الزمخشري: «بصلاتك: بقراءة صلاتك على حذف المضاف؛ لأنه لا يُلبس»(٣).

- وقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الأعراف].

فالمراد: أهل قرية(٤)؛ لدلالة السياق، ولأن القرآن بين أن المراد بها السكان، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأعراف]، فجعل القرى هم السكان(٥).

إلى غير ذلك من الأمثلة في حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه في كتاب الله(٦).

إن حذف المضاف فيه إيجاز اللفظ مع تمام المعنى، ومن حِكَمه:

- قصدُ المبالغة كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران].

فالمضاف هنا محذوف؛ أي: عرضها مثل عرض السماوات والأرض.

وقد دل على هذا الحذف آية الحديد حيث يقول تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ١٠. (٢) ينظر: ياقوتة الصراط ٣١٦.
(٣) الكشاف ٢/ ٦٥٥، وينظر: تفسير البيضاوي ٣/ ٤٧٢، تفسير أبي السعود ٥/ ٢٠٠.
(٤) ينظر: الجدول في إعراب القرآن ٣٠/ ٣٢٧.
(٥) ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ١١٣.
(٦) ينظر للاستزادة: تأويل مشكل القرآن ١٣٣، مغني اللبيب ٥٨٥، البرهان ٣/ ١٤٦.

وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١][(١)].

ـ وضوح المعنى؛ كما في تعليق الحرمة والإباحة بالأعيان، فالمراد: تحريم الفعل المطلوب منها بدلالة العرف واللغة.

قال ابن هشام: «الطلب لا يتعلق إلا بالأفعال»[(٢)].

فإذا قيل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]، فَهِم كلُّ أحدٍ أن المراد: تحريم أكلهما.

وإذا قيل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ [النساء: ٢٣]، فَهِم كلُّ أحدٍ أن المراد: تحريم نكاحهن[(٣)].

ـ أن المعلّق على واقعٍ يُحذف مضافُهُ؛ لأنه لا ينسب للأمر الواقع سلب أو إيجاب إلا بتقدير مضافٍ حسب السياق، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء]، المراد: مقتضى العهد.

ـ لا بد من أمن اللبس في المعنى مع كل حذف، وإلا امتنع الحذف.

قال ابن القيم: «وحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه كثير، وهذا إنما يكون حيث لا لبس، وأما إذا أوقع في اللبس فإنه يمتنع»[(٤)]، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

حذف المضاف إليه

المضاف إليه: هو اسمٌ أو ضمير يُنسب إلى اسمٍ سابق، والاسم السابق له هو المضاف، ويُعرب حسب موقعه من الجملة، والمضاف إليه مجرور دائماً[(٥)].

---

(١) ينظر: ملاك التأويل ١/ ١٢٣. (٢) مغني اللبيب ٥٨٥.
(٣) ينظر: الكشاف ١/ ٥٢٥، التفسير الكبير ١٠/ ٢١، تفسير البيضاوي ٢/ ١٦٥.
(٤) حاشية ابن القيم على سنن أبي داود ٨/ ٢١، وينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٦/ ٤٧١.
(٥) ينظر: التعريفات ٢١٧.

قال سيبويه: «والمضاف إليه: هو تمام الاسم ومقتضاه»[(١)].

وإذا كانت دلالة المضاف إليه قوية، وأُمِن اللبس جاز حذفه اكتفاءً بالمضاف والقرينة الدالة على المضاف إليه[(٢)].

ومن المواضع التي حُذِف فيها المضاف إليه:

إذا أضيف المنادى إلى ياء متكلم، ومن الأمثلة:

١ ـ حذف ياء المتكلم في [يا قَوْم]:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥٤].

فحذْفُ المضاف إليه في هذا الموضع كثيرٌ؛ اكتفاءً بكسر ما قبله دليلاً عليه.

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يس].

فالمضاف إليه هنا ياء المتكلم، والتقدير: يا قومي.

حُذِفت في جميع مواضع هذا السياق في القرآن[(٣)]، وهي أفصح اللغات[(٤)].

قال ابن زنجلة[(٥)]: «﴿يَٰقَوْمِ﴾ والأصل يا قومي فحذفت الياء، وإنما

---

(١) الكتاب ٢/ ٢٢٦. (٢) ينظر: أوضح المسالك ٢/ ٣٤٤.

(٣) كل مواضع [يا قوم] في القراءات المتواترة.

(٤) ينظر: إبراز المعاني من حرز الأماني ١/ ٨٣، قال السمين: «وهي لغة القرآن» الدر المصون ١/ ٣٥٩.

(٥) هو: عبد الرحمٰن بن محمد، أبو زرعة ابن زنجلة، عالم بالقراءات، كان قاضياً مالكياً، ومن مصنفاته: «حجة القراءات»، و«شرف القراء في الوقف والابتداء»، مات حوالي سنة (٤٠٣هـ)، له ترجمة في: مقدمة محقق كتاب الحجة الأستاذ سعيد الأفغاني، الأعلام ٣/ ٣٢٥.

تحذف في النداء؛ لأن باب النداء باب التغيير والحذف»[١].

وقال العكبري: «﴿يَٰقَوۡمِ﴾، حذف ياء المتكلم اكتفاء بالكسرة، وهذا يجوز في النداء خاصة؛ لأنه لا يلبس»[٢].

وقال الزركشي: «كثُر في القرآن حذفُ الياء من المنادى المضاف إلى ياء المتكلم نحو: ﴿يَٰرَبِّ﴾، ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ وعُلِّل ذلك بأن النداء باب حذف ألا ترى أنه يحذف منه التنوين»[٣].

ـ ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨﴾ [غافر].

ـ وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢﴾ [نوح].

٢ ـ حذف ياء المتكلم في [يا عِبادِ]:

ـ كما في قوله جل وعلا: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ١٦﴾ [الزُّمر].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨﴾ [الزُّخرف].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ [الزُّمر: ١٠].

وقد جاء إثباتُ ياء المتكلم مفتوحةً في موضعين من القرآن[٤] هما:

ـ قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [العنكبوت].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزُّمر: ٥٣].

---

(١) حجة القراءات ٣٥٤.
(٢) التبيان في إعراب القرآن ١/ ٦٤.
(٣) البرهان ٣/ ١٨٠.
(٤) من قوله: ﴿يَٰعِبَادِ﴾.

وثبوت الياء في هذين الموضعين في المصاحف بلا خلاف[١].

٣ ـ حذف ياء المتكلم في [يَا رَبِّ].

ـ قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف].

فحُذِفت من المنادى ياء المتكلم، وهي مضاف إليه، وقد تكرر هذا مراراً في القرآن.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء].

ـ وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العنكبوت].

ـ وقوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصَّافات].

ومن الأمثلة:

حذف المضاف إليه في الغايات[٢].

أي: (قبلُ) و(بعدُ) فيكثُر حذفُ المضاف إليهما في القرآن إذا قُطِعا عن الإضافة لفظاً وبقي المعنى مراداً، ويبنيان على الضم[٣].

قال الرضي: «المضاف إليه لا يُحذَف إلا مع بناء المضاف، كما في الغايات، أو مع ساد مسد المضاف إليه، وهو التنوين»[٤].

ـ كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرُّوم].

---

(١) ينظر: إبراز المعاني من حرز الأماني ١/ ٣٠٤، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ٢٢٣.

(٢) المراد: المضاف إلى (قبل) و(بعد) وهما ظرفا زمان يفيدان الغاية القبلية أو البعدية.

(٣) ينظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٦٥١، مغني اللبيب ٥٨٧.

(٤) شرح الرضي على الكافية ١/ ١١٦، وينظر: الإتقان ٢/ ١٣٤.

أي: من قبل الغَلَبِ ومن بعدِه[١]، فحُذف المضاف إليه، وبقي منوياً ومقدراً[٢].

قال البقاعي: «﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: قبل دولة أهل فارس على الروم، ثم دولة الروم على فارس، لا إلى غاية تكون مبدأ لاختصاصه بالأمور فيه سبحانه غلبوهم ﴿وَمِنۢ بَعْدُ﴾؛ أي: بعد دولة الروم عليهم، ودولتهم على الروم، لا إلى غاية فيه أيضاً غلبهم الروم، فَحَذْف المضاف إليه هو الذي أفهم أن زمن غلبة فارس لهم وما بعده من البضع مذكور دخوله في أمر مرتين»[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ٨٩].

أي: كانوا من قبل مجيء القرآن يستفتحون على الذين كفروا، فحُذف المضاف؛ لدلالة السياق.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ٧٨].

أي: من قبل مجيئهم.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة].

المراد: بعد نزول المائدة[٤].

ـ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الشعراء].

---

(١) ينظر: تأويل مشكل القرآن ٢٤٠، تفسير السمرقندي ٣/ ٤، مغني اللبيب ٥٨٧، البرهان ٣/ ١٥٢.
(٢) ينظر: الكشاف ٣/ ٤٧٣، مغني اللبيب ٥٨٧، البرهان ٣/ ١٥٢.
(٣) نظم الدرر ٥/ ٥٩٥.
(٤) ينظر: الجدول في إعراب القرآن ٧/ ٦٦.

يعني: بعد إنجائنا نوحاً ومن آمن[١].

ومن مواضع حَذْف المضاف إليه:

إذا تلا (كل)[٢] أو (بعض).

هذه الألفاظ ملازمة للإضافة أبداً، وإذا قُطِعت عنها الإضافة لفظاً ومعنى، عوِّض عن المضاف إليه بالتنوين[٣].

قال الرازي: «لِمَ جَاز حَذْفُ المضاف إليه من ﴿كُلٌّ﴾ [آل عمران: ٧]؟ الجواب: لأن دلالة المضاف عليه قويةٌ، فبعد الحَذْفِ الأمنُ مِنَ اللبسِ حاصل»[٤].

- كما في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران: ٧].

فالمراد: كل واحدٍ من المحكم والمتشابه من عند ربنا، فحذف المضاف إليه للعلم به[٥].

- وقوله جل وعلا: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ﴾ [البقرة: ١٤٨].

أي: ولكل أهل قبلة وجهةٌ، فحذف المضاف إليه لفظاً ونُوِي المعنى، واستُغني عنه بالتنوين الذي يدل عليه[٦].

قال الرازي: «إنما قال: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ ولم يقل: لكلِّ قومٍ أو أمةٍ؛ لأنه معروف المعنى عندهم، فلم يضر حذف المضاف إليه، وهو كثير في كلامهم كقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٨]»[٧].

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي ١٣/ ١٢١.

(٢) يشترط في (كل) لقطع الإضافة عنها في اللفظ: ألا تكون للتوكيد، ولا للنعت، ينظر: ضياء السالك إلى أوضح المسالك ٢/ ٣٠٥.

(٣) ينظر: شرح الرضي على الكافية ١/ ١١٦.

(٤) تفسير الرازي ٧/ ١٥٥.

(٥) ينظر: تفسير القاسمي ٢/ ٢٥٦.

(٦) ينظر: ضياء السالك إلى أوضح المسالك ٢/ ٣٠٥.

(٧) تفسير الرازي ٤/ ١١٩.

ـ وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [البقرة].

أي: كل من في السماوات والأرض.

قال أبو حيان: «كلٌّ: مرفوع بالابتداء، والمضاف إليه محذوف، وهو عبارة عن من في السماوات والأرض؛ أي: كل من في السماوات والأرض»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل].

(كلٌّ) مضافة تقديراً؛ أي: وكلهم[٢].

ـ وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء]؛ أي: كل ذلك[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر]؛ أي: كلنا، فحذف المضاف إليه[٤].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [الإسراء]، حُذِف المضاف إليه بعد (كلٌّ) فنونت، والتقدير: كلُّ أحدٍ يعمل على طريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة[٥].

ومن مواضع حذف المضاف إليه:

إذا تلا (بعض).

ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٧٦].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ١٤٥].

---

(١) البحر المحيط ١/ ٥٣٣. (٢) ينظر: الدر المصون ٨/ ٦٤٥.

(٣) ينظر: البرهان ٣/ ١٥٢، بصائر ذوي التمييز ٤/ ٣٧٢.

(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ١٧٥، البحر المحيط ٧/ ٤٤٩.

(٥) ينظر: تفسير البيضاوي ٣/ ٤٦٤، تفسير النسفي ٢/ ٢٩٨.

- وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ٣٤].

- وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

- وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فقُطعت (بعض) عن الإضافة لفظاً ومعنىً[(١)].

قال ابن هشام: «من أنواع تنوين العوض: التنوين اللاحق عوضاً عن مضاف إليه، بعد: (كل) و(بعض)؛ أي: إذا قطعتا عن الإضافة، نحو: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الفرقان: ٣٩]، ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقيل: هو تنوين التمكين، رجع لزوال الإضافة التي كانت تعارضه»[(٢)].

ومن الأمثلة كذلك:

- قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٣٥].

والتقدير: كبر مقتُ فعلِكم.

قال ابن عطية: «والمراد: كبر مقتُ فعلِكم فحذف المضاف إليه، ونصب المضاف على التمييز»[(٣)].

- وقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ [سبأ: ٣٣].

أي: بل صدَّنا مكركم بنا بالليل والنهار.

قال أبو السعود: «فحُذِف المضاف إليه، وأُقيم مقامه الظرف اتساعاً»[(٤)].

وبعد تأمل مواضع حذف المضاف إليه، توصلت إلى النتائج الآتية:

- كثرة حذف المضاف إليه في القرآن، ولكنه أقل من حذف المضاف.

قال الزركشي: «وهو أقل استعمالاً»[(٥)]؛ أي: من حذف المضاف.

---

(١) ينظر: البرهان ٣/ ١٥٢.

(٢) مغني اللبيب ٣٣١ بتصرف.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٧.

(٤) تفسير أبي السعود ٧/ ١٣٤.

(٥) البرهان ٣/ ١٥٢.

ـ كَثُر حَذْف المضاف إليه في القرآن بعد عدد من الكلمات منها: «قبل، وبعد، وكل وبعض».

ـ علامة حذفِ المضاف إليه بعد هذه الكلمات أحد أمرين:

أ ـ كونها مبنية؛ لأنه إذا حُذف المضاف إليه ونوي معناه استحقت البناء.

ب ـ أو كونها مختومة بالتنوين عوضاً عن الإضافة[(١)].

قال الزركشي: «من قرأ بتنوين [كُلٌّ] فإنه حَذَفَ المضاف إليه، وجعل التنوين عوضاً عنه»[(٢)].

ـ الأكثر في القرآن حَذْف المضاف إليه إذا أضيف المنادى إلى ياء متكلم.

ـ من فوائد حذف المضاف إليه:

١ ـ الإيجاز عند العلم بالمراد.

٢ ـ وخفة النطق على اللسان.

٣ ـ وكثرة الأجر بإعمال الذهن، والله تعالى أعلم.

---

(١) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني ٢٣.

(٢) البرهان ٢/ ٤٣٥.

المبحث الخامس

حذف جواب الشرط والقسم

وفيه مطلبان:

- **المطلب الأول: حذف جواب الشرط.**
- **المطلب الثاني: حذف القسم أو جوابه.**

المطلب الأول

حذف جواب الشرط

ومن مواضع الحذف والاختصار في كتاب الله تعالى أن يأتي الكلام مَبنِيّاً على أن له جواباً، فيُحْذَف الجواب لعلم المخاطب به.

قال سيبويه: «سألت الخليل عن قوله جل ذكره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزُّمر: ٧٣] أين جوابها؟

وعن قوله جل وعلا: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧] فقال: إن العرب قد تترك في مثل هذا الخبر الجواب في كلامهم لعلم المخبر لأي شيءٍ وضع هذا الكلام»(١).

وأمثلة حذف جواب الشرط كثيرة في القرآن، وفي لغة العرب، ولا يكون ذلك إلا إذا عُلِم المحذوف بما يدل عليه من متقدمِ خبرٍ أو مشاهدةِ حال.

قال الطبري: «إنّ من شأن العرب الإيجاز والاختصار، إذا كان فيما

---

(١) الكتاب ٣/ ١٠٣.

نطقت به الدلالة الكافية على ما حذفتْ وتركتْ»[١].

وقال الشنقيطي: «الغالب في اللغة العربية أن يكون الجواب المحذوف من جنس المذكور قبل الشرط، ليكون ما قبل الشرط دليلاً على الجواب المحذوف»[٢].

ومن مواضع حذف جواب الشرط في القرآن:

حذف جواب الشرط في جواب (لو).

قال الرازي: «وهو كثير في التنزيل»[٣].

وقال أبو حيان: «وحذف جواب لو، لفَهْم المعنى، كثيرٌ في القرآن، وفي لسان العرب. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ: ٥١]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]، ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١]»[٤].

ـ ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام].

حُذِف جواب الشرط، وتقديره: ولو ترى إذ وقفوا على النار لرأيت أمراً شنيعاً[٥].

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]، الآية المخاطبة فيه لمحمد ﷺ وجواب [لَوْ] محذوف، تقديره في آخر هذه الآية: لرأيت هولاً أو مشقاتٍ أو نحو هذا، وحذف جوابها في مثل هذا أبلغ؛ لأن المخاطب يُترَك مع غاية تخيله»[٦].

ـ وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنعام].

جواب لو محذوف، والتقدير: لشاهد أمراً عظيماً[٧].

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٣٢٧.
(٢) أضواء البيان ٢/ ٢٤٠.
(٣) تفسير الرازي ٤/ ١٨٨.
(٤) البحر المحيط ١/ ٦٤٦.
(٥) ينظر: الكشاف ٢/ ١٦.
(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٣٣٠.
(٧) ينظر: التبيان في إعراب القرآن ١/ ٤٨٩.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

لم يُؤت بجواب لو[١]، وتقديره: لكان هذا القرآن[٢]، وقيل التقدير: لما آمنوا به، بدليل قوله تعالى قبلها: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠][٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة]، تقدير الجواب: لرأيت أمراً عظيماً، ولعلمت أن القوة لله[٤].

ومن الأمثلة:

حذف جواب الشرط إذا جاء في ختام الآيات.

ـ كقوله تعالى في السحر: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة].

معنى شروا: باعوا[٥]، وجواب الشرط محذوف تقديره: لو كانوا يعلمون قبح عملهم لما فعلوا ما فعلوا[٦].

قال أبو حيان: «وجواب لو محذوف، تقديره: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ ذمّ ذلك لما باعوا أنفسهم»[٧].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة].

أي: ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم، لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به[٨].

ـ وقوله جل وعلا: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة].

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء ٢/ ٧.
(٢) ينظر: تأويل مشكل القرآن ١٣٦.
(٣) ينظر: مغني اللبيب ٦١٢.
(٤) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ١/ ٥٣٦.
(٥) ينظر: تفسير الطبري ٢/ ٤٥٥.
(٦) ينظر: تفسير أبي السعود ١/ ١٤٠.
(٧) البحر المحيط ١/ ٥٠٣.
(٨) تفسير ابن كثير ١/ ٣٦٤.

حُذِف جوابُ الشرط في ختام الآية، وتقديره: لو كانوا يفقهون لنفروا.

قال ابن كثير: «﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾؛ أي: لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر، ليتقوا به حَرَّ جهنم، الذي هو أضعاف أضعاف هذا»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون].

فقوله: ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ﴾ جوابُها محذوف، تقديرُه: لو كنتم تعلمونَ مقدارَ لُبْثِكم من الطول لَمَا أَجَبْتُم بهذه المدة(٢).

قال الزركشي: «وقوله: ﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ تقديره: لآمنتم، أو لما كفرتم، أو لزهدتم في الدنيا، أو لتأهبتم للقائنا»(٣).

وقال ابن كثير: «أي: لما آثرتم الفاني على الباقي، ولما تَصَرَّفتم لأنفسكم هذا التصرف السّيئ، ولا استحققتم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة، ولو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا»(٤).

ومن الأمثلة:

حذف جواب الشرط في جواب (لولا).

ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [النور].

فجواب لولا محذوف، تقديره: ولولا فضل الله عليكم ورحمته لعذبكم(٥).

قال الشنقيطي: «وقد تكرر في الآيات(٦) التي قبل هذه الآية حذف

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٩١.
(٢) ينظر: الدر المصون ٨/ ٣٧٤.
(٣) البرهان ٣/ ١٨٦.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ٥٠٠.
(٥) ينظر: تأويل مشكل القرآن ١٣٦.
(٦) المراد الآيات التي قبلها في سورة النور، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ =

جواب لولا؛ لدلالة القرائن عليه»[١].

- وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

جواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه؛ أي: لولا أن هدانا الله ما كنا لنهتدي.

قال أبو حيان: «والذي تقتضيه أصول العربية أنّ جواب [لَوْلَا] محذوف؛ لدلالة ما قبله عليه؛ أي: ﴿لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ ما كنا لنهتدي، أو لضللنا؛ لأنّ [لَوْلَا] للتعليق، فهي في ذلك كأدوات الشرط»[٢].

- وقوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠].

جواب لولا محذوف، وتقديره: لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به، دل عليه قوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ [القصص: ١٠][٣].

- وقوله جل وعلا: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص].

جواب لولا الأولى محذوف، تقديره: لعاجلناهم بالعذاب[٤].

قال الزمخشري: «﴿لَوْلَآ﴾ الأولى: امتناعية وجوابها محذوف، والثاني: تحضيضية»[٥].

وقال القرطبي: «وجواب [لَوْلَا] محذوف؛ أي: لولا أن يصيبهم عذاب بسبب معاصيهم المتقدمة، ﴿فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ﴾؛ أي: هلا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا

= وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

(١) أضواء البيان ٥/ ٤٨٥.

(٢) البحر المحيط ٤/ ٣٠٢، وينظر: تفسير أبي السعود ٣/ ٢٢٨.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٥/ ٢٩٥.

(٤) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٨/ ٥٥٤٣.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٢٢.

﴿رَسُولًا﴾ لما بعثنا الرسل، وقيل: لعاجلناهم بالعقوبة»[١].

ومن الأمثلة كذلك:

- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨].

- وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ [هود: ٨٨].

جواب الشرط الذي في قوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ محذوف تقديره: أأضل كما ضللتم، وأترك تبليغ الرسالة، ونحو هذا مما يليق بهذه المحاجة[٢].

قال مكي: «﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾؛ أي: على بيان، وبرهان فيما أدعوكم إليه، ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾؛ أي: حلالاً، وجواب الشرط محذوف لعلم السامع، والمعنى: أفتأمرونني بالعصيان»[٣].

- وقوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ [الزُمر: ٩].

لم يذكر ضد هذا؛ لأن في آخر الآية قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزُمر: ٩]، دليلاً على المراد[٤].

قال الفراء: «وقوله في الزمر: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الزُمر: ٩]، ولم يؤت له بجواب، وكفى قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزُمر: ٩] من ذلك، فهذا ممّا ترك جوابه، وكفي منه ما بعده»[٥].

- وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾ [الأحقاف].

---

(١) تفسير القرطبي ١٣/ ٢٩٣.
(٢) ينظر: مغني اللبيب ٦١٢، البرهان ٣/ ١٨١، دراسات لأسلوب القرآن ٢/ ٥٥٠.
(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية ٥/ ٣٤٥٣.
(٤) تأويل مشكل القرآن ١٣٦.
(٥) معاني القرآن ٢/ ٧.

قال أبو حيان: «﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ مفعولا أرأيتم محذوفان لدلالة المعنى عليهما، والتقدير: أرأيتم حالكم إن كان كذا؟ ألستم ظالمين؟ فالأول: حالكم، والثاني: ألستم ظالمين، وجواب الشرط محذوف؛ أي: فقد ظلمتم، ولذلك جاء فعل الشرط ماضياً»(١).

وقال الزمخشري: «﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن﴾ جواب الشرط محذوف تقديره: إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به، ألستم ظالمين؟ ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾»(٢).

- وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المائدة].

قال الرازي: «قوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ لا يصلح أن يكون جواباً لهذا الشرط؛ لأن الرسول الواحد لا يكون فريقين، فجواب الشرط محذوف، وإنما جاز حذفه لأن الكلام المذكور دليل عليه، والتقدير: كلما جاءهم رسول ناصبوه، ثم إنه قيل: فكيف ناصبوه؟ فقيل: فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون»(٣).

- وقوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [التَّحريم].

قال العكبري: «قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ [التَّحريم: ٤]، جواب الشرط محذوف تقديره: فذلك واجب عليكما أو يتب الله عليكما، ودل على المحذوف: ﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾؛ لأن إصغاء القلب إلى ذلك ذنب»(٤).

وبعد تأمل مواضع الحذف لجواب الشرط في القرآن توصلت إلى النتائج الآتية:

- أن حذف جواب الشرط في القرآن كثير، لا سيما إذا تقدم عليه أو اكتنفه ما يدل على الجواب(٥).

---

(١) البحر المحيط ٨/٥٨.
(٢) الكشاف ٤/٣٠٢.
(٣) تفسير الرازي ١٢/٤٧.
(٤) التبيان في إعراب القرآن ٢/١٢٢٩.
(٥) مغني اللبيب ٦١٢.

- أكثر حذف جواب الشرط في جواب (لو) و(لولا).
- الحذف خلاف الأصل، ولا يكون الميل عن الأصل إلا لغرضٍ.

ومن أهم فوائد حذف جواب الشرط:

الأولى: الإيجاز والاختصار، للعلم به من السياق، مع ما فيه من مراعاة فواصل الآيات، فيُتَحصَّل على المعنى الكثير في اللفظ القليل، ولو لم يكن في هذا الحذف المدلول عليه إلا تقليلُ الكلام وتقريب معانيه إلى الأفهام لكان ذلك كافياً في تحقيق عادة العرب من الإيجاز والاختصار.

قال الفراء: «وترك الجواب في القرآن كثير؛ لأن المعنى مكرر معروف»[1].

وقال القرطبي: «فجواب الشرط محذوف للعلم به»[2].

الثانية: أن حذف جواب الشرط في مقام الوعيد يقتضي تعظيم الأمر وشدته، مع ما يتركه الحذف من الأثر المعنوي على المتلقي؛ بسبب ما يُحْدِثُه من الإبهام الذي قد يجعل النفس تقدّر ما شاءت دون حدود.

- كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢].
- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ: ٥١].
- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥].
- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠].
- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧].
- وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ [التكاثر].

فحذْفُ الجواب في هذه الآيات وشبهِها أولى من ذِكْره، ليَدُل على عظمة ذلك المقام، وأنه لهوله وشدته وفظاعته لا يعبَّر عنه بلفظ ولا يُدرك

(١) معاني القرآن ١/ ٩٧، بتصرف. (٢) تفسير القرطبي ١٨/ ١٨٩.

بالوصف[١]، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

حذف القسم أو جوابه

ومن مواضع الحذف والإيجاز في كتاب الله تعالى، حذف القَسَم إذا كان في الكلام ما يدل عليه.

وأركان القسم أربعة:

اجتمعت في قول الله جل وعلا: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

فقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ الركن الأول: فعل القسم.

وقوله: ﴿بِاللَّهِ﴾ الركن الثاني: المقسم به.

وقوله: ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ الركن الثالث: المقسم عليه.

والركن الرابع: هو الغاية من القسم، وهذا يختلف من قَسَم لآخر حسب الحال والمقام.

قال ابن القيم: «وهو سبحانه يقسم بأمور على أمور، وإنما يقسم بنفسه الموصوفة بصفاته، وبآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته.. تارة على التوحيد، وتارة على أن القرآن حق، وتارة على أن الرسول حق، وتارة على الجزاء والوعد والوعيد، وتارة على حال الإنسان»[٢].

وعادة القرآن حذف فعل القسم، مع غير الباء؛ لأن حرف القسم لا يحذف إذا ذكر الفعل، والباء هي المختصة بجواز ذكر الفعل معها، كما في الآية السابقة، وفي قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

(١) ينظر: القواعد الحسان ٤٦، قواعد التفسير ١/ ٣٧٢.
(٢) التبيان في أقسام القرآن ٦.

قال ابن هشام في معاني الباء: «القسم، وهو أصل أحرفه، ولذلك خصت بجواز ذكر الفعل معها، نحو: أقسم بالله لتفعلن»[(١)].

وعلى هذا فيُكتفى في أغلب الأقسام بحرف القسم، ويُحذف الفعل.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام].

ففي هذه الآية اكتفاء بالواو في القسم عن الفعل.

ـ وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنعام].

ـ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف].

ففي هذه الآية اكتفاء بالتاء في القسم عن الفعل، وخُصت التاء بأسماء الله، وفي القرآن بلفظ الجلالة كما سبق.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء].

ففي هذه الأمثلة وغيرُها كثيرٌ، حَذْفُ فعل القسَم، اكتفاءً بالحرف، لكثرة تكرره ومعرفة المحذوف.

قال ابن القيم: «والقسم لما كان يكثر في الكلام اختُصِر، فصار فعل القسم يُحذف ويُكتفى بالباء، ثم عوض من الباء الواو في الأسماء الظاهرة، والتاء في أسماء الله؛ كقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧]، وقد نُقل: ترب الكعبة، وأما الواو فكثيرة»[(٢)].

قال ابن هشام: «حذف جملة القسم كثير جداً، وهو لازم مع غير الباء من حروف القسم»[(٣)].

---

(١) مغني اللبيب ١١٥.

(٢) التبيان في أقسام القرآن ٧.

(٣) مغني اللبيب ٦١٠.

وعادة القرآن حذف المقسم به.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف].

ففي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ تركٌ للمقسم به.

قال البيضاوي: «﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ جواب قسم محذوف»[1].

ومثله قال أبو حيان[2]، والسمين الحلبي[3].

ـ وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

ففي قوله تعالى: ﴿لَأَغْلِبَنَّ﴾، وقوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ جواب لقسم محذوف.

قال أبو حيان: «واللام في ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ جواب قسم محذوف؛ أي: وأقسم ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾، أو أجرى وعد الله لتحققه مجرى القسم فجُووب بما يجاوب به القسم»[4].

ـ ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾﴾ [التكاثر].

فبيَّن لهم ما أنذرهم منه وأوعدهم به؛ وقد مرّ ما في إيضاح الشيء بعد إبهامه من تفخيمه وتعظيمه، وهو جواب قسم محذوف، والقسم لتوكيد الوعيد[5].

ـ وقوله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران].

اللام في لتؤمنن به جواب قسم محذوف؛ أي: والله لتؤمنن به[6].

---

(١) تفسير البيضاوي ٣/ ١١.
(٢) البحر المحيط ٤/ ٢٧٨.
(٣) الدر المصون ٥/ ٢٧٤.
(٤) البحر المحيط ٦/ ٤٣١.
(٥) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٩٩.
(٦) ينظر: تفسير القرطبي ٤/ ١٢٥.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد].

فقوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ جواب قسم محذوف دل عليه باللام: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾[1].

وعادة القرآن حذف جواب القسم:

إذا كان في نفس المقسَم به دلالةٌ على المقسَم عليه.

فالمقصود يحصل بذكر المقسَم به، فيكون حذْف المقسم عليه أبلغ وأوجز.

قال ابن القيم: «والجواب يحذف تارة ولا يراد ذكره بل يراد تعظيم المقسم به، . . وتارة يحذف الجواب وهو مراد، إما لكونه قد ظهر وعرف؛ إما بدلالة الحال، كمن قيل له: كل. فقال: لا والله الذي لا إلـٰه إلا هو، أو بدلالة السياق، وأكثر ما يكون هذا إذا كان في نفس المقسم به ما يدل على المقسم عليه، وهي طريقة القرآن، فان المقصود يحصل بذكر المقسَم به فيكون حذف المقسَم عليه أبلغ وأوجز»[2].

ـ كما في قوله تعالى: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ [ص].

فإن في المقسَم به من تعظيم القرآن، ووصفِه بأنه ذو الشرف والقدر، وافتتاح السور بحرف من الحروف المقطعة، ما يدل على المقسَم عليه، من التحدي، وتقدير الجواب: إنه لمعجز أو لواجب العمل به، أو إن محمداً لصادق[3].

قال ابن عطية: «وقال قتادة والطبري: الجواب مقدر قبل بل، وهذا هو الصحيح، تقديره: والقرآن ما الأمر كما يزعمون، ونحو هذا من التقدير فتدبَّرْه»[4].

---

(١) ينظر: نظم الدرر ٧/ ١٧٤. (٢) التبيان ١٠، ١١.

(٣) ينظر: تفسير البيضاوي ٥/ ٣٤، تفسير النسفي ٤/ ٣٢.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦١.

وقال ابن القيم: «قوله: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾ [ص]، فإنه هنا حذف الجواب ومن قال: إن الجواب هو قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ۝٦٤﴾ [ص]، فقد أبعد النجعة»(١).

وهذا مطرد في كل ما شابه ذلك(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ [ق].

جواب القسم محذوف(٣)، معناه ـ والله أعلم ـ والقرآن المجيد لتبعثن، والشاهد على ذلك ما بعده من ذكر البعث في قوله: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣﴾ [ق](٤).

قال الطبري: «﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ [ق]، لَتُبْعثنّ بعد الموت، فقالوا: أإذا كنا تراباً بُعثنا؟ جحدوا البعث»(٥).

قال ابن القيم: «وحُذِفَ جواب القسم؛ لأنه قد علم بأنه يقسم على هذه الأمور، وهي متلازمة، فمتى ثبت أن الرسول حق ثبت القرآن والمعاد، ومتى ثبت أن القرآن حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به، ومتى ثبت أن الوعد والوعيد حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به، ومتى ثبت أن الوعد والوعيد حق ثبت صدقه وصدق الكتاب الذي جاء به»(٦).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ [الفجر].

جواب القسم هنا محذوف تقديره: ليُعَذَّبن، أو نحوه، ويدل على ذلك ما بعده من قوله: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ [الفجر]، إلى قوله: ﴿سَوۡطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾ [الفجر].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ٨، وينظر: التسهيل ٢/ ٤٣٨.
(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٣٨٣.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٨، التسهيل ٣/ ٧٣.
(٤) ينظر: تأويل مشكل القرآن ١٤٢.
(٥) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٢٧.
(٦) التبيان في أقسام القرآن ١٠.

قال ابن القيم: «قيل جوابه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر]، وهذا ضعيف لوجهين: أحدهما: طول الكلام والفصل بين القسم وجوابه بجمل كثيرة، والثاني: قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ ذِكْر لتقرير عقوبة الله الأمم المذكورة، وهي عاد وثمود وفرعون، فذَكَر عقوبتهم، ثم قال مقرراً ومحذراً: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾...»، ثم ذكر ما تضمنه المقسم به من معان، وقال بعدها: «فلما تضمن هذا القسم ما جاء به إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم، كان في ذلك ما دل على المقسَم عليه، ولهذا اعتبر القَسَم بقوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾ [الفجر] فإن عظمة هذا المقسَم به يُعَرِّف بالنبوة، وذلك يحتاج إلى حِجْر، بِحَجْر صاحبه عن الغفلة واتباع الهوى، ويحمله على اتباع الرسل لئلا يصيبه ما أصاب من كذب الرسل كعاد، وفرعون، وثمود»[١].

وقال السمين الحلبي بعد ذكر قول من قال الجواب: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾، وقدَّره: إن في ذلك قسماً لذي حجر: «وهذا قول باطل؛ لأنه لا يَصْلُح أن يكونَ مُقْسَماً عليه، على تقديرِ تسليمِ أن التركيبَ هكذا، وإنما ذكَرْتُه للتنبيهِ على سقوطِه»[٢].

ـ ومن الأمثلة في حذف جواب القسم قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ [النَّازعات].

فجواب القسم ههنا محذوف تقديره: لتبعثن أو لتحشرن ويدل على ذلك ما أتى من بعده من ذكر القيامة في قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ [النَّازعات]، إلى آخر السورة[٣].

قال الفراء: «ويسأل السائل: أين جواب القسم في النازعات؟ فهو مما تُرِك جوابه لمعرفة السامعين، المعنى وكأنه لو ظهر كان: لتبعثنّ، ولتحاسبنّ،

(١) التبيان في أقسام القرآن ٢١ ـ ٢٣. (٢) الدر المصون ١٠/ ٧٧٧.
(٣) ينظر: تأويل مشكل القرآن ١٤٢، مغني اللبيب ٦١٠.

ويدل على ذلك قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ⁽١١⁾﴾ [النَّازعات]»[١].

وقال الطبري في جواب القسم في النازعات: «والصواب من القول في ذلك عندنا: أن جوابَ القسمِ في هذا الموضعِ، مما استغني عنه بدلالة الكلام، فتُرِك ذكرُه»[٢].

وبعد؛ ففي هذه العادة:

ـ اختصار جملة القسَم لتكرره في الكلام، حيث يُحذَف فعل القسم ويُكتفى بالحرف.

ـ أن الله يقسم بنفسه الموصوفة بصفاته، وبآياته المستلزمة لذاته وصفاته، ويسمى هذا المقسم به.

ـ أن القسم في القرآن تارة على التوحيد، وتارة على أن القرآن حق، وتارة على أن الرسول حق، وتارة على الجزاء والوعد والوعيد، وتارة على حال الإنسان[٣]، ويسمى هذا المقسَم عليه، ولتكررِ المقسَم به والمقسَم عليه ومعرفتِه جاز حذفه.

ـ أنه أكثر ما يُحذف جواب القسم إذا كان في نفس المقسَم به دلالة على المقسَم عليه، فإن المقصود يحصل بذكره ـ أي: المقسَم به ـ، فيكون حذْف المقسم عليه أبلغ وأوجز.

ـ أن الغاية من القسم:

١ ـ إمّا تحقيق الخبر ودعوة المخاطب إلى الإيمان والإذعان به؛ كما هو الغالب.

٢ ـ أو لفت النظر إلى عظمة المقسم به، وما يتصف به من صفات عظيمة، وفي هذه الحالة يُحذف جواب القسم اختصاراً واكتفاءً بالمقسم به لحصول الغرض المقصود منه.

ـ أن حذف القسم أو جوابه فيه مراعاة لسياق التعبير، وحال النظم

(١) معاني القرآن ٣/ ٢٣١.
(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ١٩٢.
(٣) ينظر: التبيان في أقسام القرآن ٦.

والتركيب، وبناءً عليه ففي كل موضعٍ فائدةٌ للحذف، ومن خلالها يتبين سبب الحذف.

ـ أنه يُحذف جواب القسم في القرآن، وهو المقسم عليه كثيراً، ثم ينتقل بعد القسم إلى كلام آخر فيه معنى الجواب المحذوف، ويكون دليلاً على الجواب المطلوب.

ـ أن الأصل في المقسم عليه أن يكون مذكوراً في الكلام؛ لأنه المقصود بالتحقيق، ولكن جاء حذفه في القرآن، إما: للعلم به، أو لأن المعنى أوسع من أن يحده لفظ، فالحذف للتعظيم والتفخيم، وهذه عادة العرب في كلامهم إذا أرادوا أن يخبروا الغائب عن أمور عجيبة، يقول أحدهم: لو رأيت ما جرى يوم كذا بموضع كذا! ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥]، فجواب لو محذوف للتفخيم[١].

قال أبو حيان: «والجواب محذوف؛ أي: لاستعظموا ذلك»[٢].

فالأمر أعظم من أن يذكر.

ـ أن في حذف جواب القسم دلالة على التحدي والإعجاز بهذا القرآن، حيث يُقسم بالقرآن ثم يترك الجواب، والله تعالى أعلم.

---

(١) ينظر: التبيان في أقسام القرآن ٧.

(٢) البحر المحيط ١/٦٤٥، وينظر: زاد المسير ١/ ١٧٠.

الفصل الثاني

عادات القرآن في الإضمار والإظهار والإيجاز والإطناب

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: كون الإضمار يقوم مقام الإظهار.
- المبحث الثاني: إيجاز الحذف والقصر.
- المبحث الثالث: الإطناب.

المبحث الأول

كون الإضمار يقوم مقام الإظهار

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: وضع الظاهر موضع المضمر.
- المطلب الثاني: وضع المضمر موضع الظاهر.

المطلب الأول

وضع الظاهر موضع المضمر

ومن أساليبِ القرآن وفنونِه البليغة وضعُ الظاهر موضعَ المضمر، لزيادة التأكيد والتقرير.

والظاهر: هو البارز.

قال ابن فارس: «الظاء والهاء والراء، أصل صحيح واحد يدل على قوةٍ وبروز، من ذلك: يظهَر ظُهوراً فهو ظَاهر، إذا انكشَفَ وبَرَز»(١).

والمراد به اصطلاحاً: هو إبراز اللفظ الصريح في موضع يُغني عنه الضمير(٢).

والمضمر: هو المُخفَى والمغَيَّب.

قال ابن فارس: «الضاد والميم والراء أصلان صحيحان، أحدهما يدل على دقةٍ في الشيء، والآخر يدل على غيبة وتستر»(٣).

---

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة: (ظهر) ٣/ ٤٧١.

(٢) المغرب في ترتيب المعرب ٢/ ٤٠٢.

(٣) معجم مقاييس اللغة، مادة: (ضمر) ٣/ ٣٧١.

والمراد به اصطلاحاً: الاسم الذي يعود إلى ظاهر قبله لفظاً أو تقديراً.

قال الجرجاني: «المضمر ما وضع لمتكلم أو مخاطب أو غائب تقدم ذكره لفظاً أو معنى أو حُكْماً»(١).

والأصل في الأسماء أن تكون ظاهرة، فإذا خولف هذا الأصل فلِنُكْتَة أرادَها المتحدث، والذي يُبَيِّن هذا هو سياق الكلام وما يحيط به من دلائل وقرائن.

وأمثلة وضع الظاهر موضع المضمر كثيرة.

وعادة القرآن أن يكون هذا الأسلوب لحكمة ونكتة تُعرف من السياق، ومن ذلك:

١ ـ قصد التعظيم والتفخيم(٢):

ومن الأمثلة ما يأتي:

ـ قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ۝٣٨﴾ [الكهف].

ـ وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٢٢﴾ [المجادلة: ٢٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص].

وكل ما تكرر فيه اسم من أسماء الله تعالى مع إمكان إضماره، فلِمَا في السياق من قرينةِ التعظيم.

ومِثلُه ما تكرر من أسماء القيامة، فلِمَا في الآيات من التعظيم والتفخيم لليوم الآخر وما فيه.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١﴾ [الفرقان].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ [الحاقّة].

---

(١) التعريفات ٢٧٩.

(٢) الإكسير في علم التفسير في أصول وقواعد التفسير ٢٠٥.

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ [القارعة].

قال الزمخشري: «والأصل: الحاقة ما هي؛ أي: أيُّ شيء هي؟ تفخيماً لشأنها، وتعظيماً لهولِها، فوضع الظاهر موضع المضمر؛ لأنه أهول لها»(١).

٢ ـ قصد الإهانة والتحقير، وهو عكس الحِكْمة السابقة، والفارق بينهما السياق:

ومن الأمثلة:

كلُّ ما وردَ فيه الشيطان مكرراً أو أحدُ من أتباعه.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝١٩﴾ [المجادلة].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ۝٥٣﴾ [الإسراء].

ففي التصريح بذكر الشيطان في موضعِ إضماره تنفيراً وتحذيراً شديداً؛ لهوانه وحقارته، بدَلالة الخسارة والعداوة الحاصلة ممن كُرِّر لفظه.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ۝٣٧﴾ [غافر].

ففي إظهار [فِرْعَوْنَ] في موضع يغني عنه الضمير، زيادةُ التحقير، ودلالةٌ على سوء العمل، والميلِ عن الطريق الصحيح، والخسارةِ المحققة.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾ [ص].

جاء قبلها قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ [ص]، ولكن لقصد الوصف بالكفر، جاء مظهراً في موضع الإضمار.

قال ابن جزي: «﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ كان الأصل: وقالوا، ولكن وضع

---

(١) الكشاف ٤/ ٦٠٢.

الظاهر موضع المضمر قصداً لوصفهم بالكفر»(١).

٣ ـ إزالة اللبس، عندما يكون استعمال الضمير يوهم غير المراد:

ومن الأمثلة:

ـ قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فاستعمال الضمير في قوله: تؤتيه، يوهم أن المُلْكَ المؤتَى هو الملك الأول، فالتصريح به ليدل على أن هذا غير هذا، فيتضح المعنى ويزول اللبس.

ـ وقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء].

أظهر لفظ: ﴿قُرْءَانَ﴾ في الموضع الثاني؛ لأن استعمال الضمير مكانه بقوله: إنه، يوهم عوده على الفجر، فبيَّن أن المراد هو القرآن.

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الرُّوم].

في الآية: تكرار [ضِعْفٌ] ثلاث مرات، وتكرار [قُوَّةٍ] مرتين، وأظهرها لبيان المعنى، وأن كل لفظ فيه معنى لا يؤديه الضمير.

قال الراغب: «والثاني غير الأوّل، وكذا الثالث فإن قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾؛ أي: من نطفة، أو من تراب، والثاني: هو الضَّعْفُ الموجودُ في الجنين والطّفل، الثالث: الذي بعد الشّيخوخة، وهو المشار إليه بأرذل العمر.

والقوّتان، الأولى: هي التي تجعل للطّفل من التّحرّك، وهدايته واستدعاء اللّبن، ودفع الأذى عن نفسه بالبكاء، والقوّة الثانية: هي التي بعد البلوغ، ويدلّ على أنّ كلّ واحد من قوله: ﴿ضَعْفٍ﴾ إشارةٌ إلى حالة غير الحالة الأولى ذِكرُه منكّراً، والمنكّر متى أعيد ذكره وأريد به ما تقدّم عُرِّف(٢)؛

---

(١) التسهيل ٢/٤٣٨.

(٢) ينظر: مغني اللبيب ٦٢٣.

كقولك: رأيت رجلاً، فقال لي الرّجل: كذا. ومتى ذكر ثانياً منكّراً أُريد به غير الأوّل»(١).

- وقوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٦].

في الآية شاهدين لإزالة اللبس بإظهار المضمر:

الشاهد الأول: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ﴾ فأظهر الوعاء مع أن الأصل كفاية الضمير لتقدم ذكره فيقال: [ثم استَخْرجَها منه]، ولكن هذا يُوهِم عَوْد الضمير على أخيه، وهذا لا يصح، فأُعيد اللفظ الظاهر لنفي هذا الوارد.

الشاهد الثاني: ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ فأظهر أخيه، مع تقدم ذِكره، ولم يأت السياق: [ثم استخرجها من وعائه]؛ لأنه يوهم أن الضمير يعود على يوسف؛ لأنه أقرب مذكور، فضمير الفاعل في ﴿ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ يعود على يوسف، فأظهر اللفظ للبيان، وإزالة الوَهْم.

٤ ـ قصد العموم وبيان سبب الحكم:

ومن الأمثلة:

- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف].

فأظهر النفس ثانية، ولو اكتفي بالضمير، فقيل: إنها لأمارة؛ لاقتضى تخصيص ذلك؛ فجاء بالظاهر ليدل على أن المراد التعميم، وزاد دلالة التعميم الاستثناء ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾، ولم يقل: إنه، فأظهر لفظ الرب ـ والله أعلم ـ تعظيماً وبياناً لكمال مغفرته ورحمته(٢).

- وقوله جل وعلا: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن ٥٠٧.

(٢) ينظر: البحر المحيط ١/٣٨٦.

على معنى: أن الجميع بدلوا وسبب التبديل الظلم، فأظهر الظلم في موضع الإضمار إشعاراً بالعلة التي كانت سبباً لاستحقاقهم العذاب[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النَّجم].

أظهر الظنَّ لتعميم الحكم على الظن أنه لا يغني من الحق شيئاً، ولو استُعمل الضمير فقيل: إنه، لاقتضى تخصيص الحكم على ظنهم، فأظهر لبيان العموم.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾ [الفرقان].

قال ابن جزي: «﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ يحتمل أن يريد بالظالمين من تقدم، ووضع هذا الاسم الظاهر موضع المضمر؛ لقصد وصفهم بالظلم، أو يريد الظالمين على العموم»[٢].

ـ وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

والأصل: عليهم، لتقدم ذكره؛ فأفاد الإظهار الدلالة على أن اللعنة لحقتهم بسبب الكفر[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف].

أظهر لفظ [الْمُصْلِحِينَ] وهم من ذُكِر سابقاً؛ تنبيهاً على أن صلاحهم علة نجاتهم[٤].

قال ابن تيمية: «ولم يقل: أجرهم، تعليقاً لهذا الحكم بالوصف؛ وهو كونهم مصلحين، وليس في الضمير ما يدل على الوصف المذكور»[٥].

---

(١) ينظر: البرهان ٢/ ٤٩٥.
(٢) التسهيل ٢/ ٢٨١.
(٣) ينظر: البرهان ٢/ ٤٩٣.
(٤) ينظر: الإتقان ٢/ ٢١٧.
(٥) مجموع الفتاوى ١٤/ ٨٩.

لقد ظهر من ذلك كله:

أن عادة القرآن عند استعمال الظاهر موضع المضمر أن يكون لنكتة تُعلم من السياق[١].

١ ـ إما للتعظيم. ٢ ـ أو للإهانة.

٣ ـ أو لإزالة اللبس. ٤ ـ أو لقصد العموم.

٥ ـ أو لبيان علة الحكم، أو غيرها.

قال ابن جزي: «وضع الظاهر موضع المضمر، فتُكَرر الكلمة على وجه التعظيم، أو التهويل، أو مدح المذكور، أو ذمه، أو للبيان»[٢].

بل ومن الحِكم التي ذكرها العلماء الاستلذاذ بذكر اللفظ الظاهر في موضع إضماره[٣]، ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزُّمر: ٧٤]، ولم يقل: نتبوأ منها، تلذذاً بذكر الجنة، نسأل الله الكريم من فضله؛ ولهذا عدل عن ذكر الأرض إلى الجنة؛ وإن كان المراد بالأرض الجنة[٤].

قال ابن الجوزي: «﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: أرض الجنة»[٥]، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

وضع المضمر موضع الظاهر

من عادة القرآن استعمال المضمر موضع الظاهر، وهو خلاف مقتضى الظاهر[٦]، ولا يكون هذا إلا لفائدة أعلى.

---

(١) ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٨٨، الإيضاح في علوم البلاغة ٧٣، البرهان ٢/ ٤٨٢، وما بعدها، قواعد التفسير ١/ ٣٣٩.

(٢) التسهيل ١/ ٢٤.

(٣) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة ٤٠.

(٤) ينظر: البرهان ٢/ ٤٨٧.

(٥) زاد المسير ٥/ ٢٨١.

(٦) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة ٢٧.

والمراد: استعمال الضمير مكان الظاهر بحيث لا يوجد ما يعود عليه الضمير.

ـ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرَّحمٰن].

ففي قوله: ﴿عَلَيْهَا﴾ عاد الضمير على شيء يفهم من السياق، وليس في السياق، وهو الأرض[١].

قال مكي: «يعني: من على وجه الأرض، ومن يكون فيها بالموت، وأُضمِرت الأرض ولم يتَقَدم ذِكرها لظهور المعنى»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١].

المراد: على الأرض، لم يجر للأرض ذِكر، بل عاد الضمير على ما فُهِم من السياق[٣].

ـ ومثله قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]؛ أي: ظهر الأرض[٤].

قال ابن قتيبة: «يريد: على الأرض»[٥].

وقال الرازي: «﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ ولم يذكر الأرض؛ لكونها معلومة»[٦].

وهذا من أساليب الإيجاز، والإبهام أحياناً، ومن أساليب الخروج عن مقتضى الظاهر[٧].

ولذلك قال في الجوهر المكنون:

وخرجوا عن مقتضى الظواهرِ ... كَوَضْعِ مُضْمَرٍ مَكانَ ظاهِرِ
لنكتةٍ[٨] ....

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٩، التسهيل لعلوم التنزيل ٣/ ١١١.
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية ١١/ ٧٢٢٣.
(٣) ينظر: الدر المصون ٩/ ٢٤٢.
(٤) ينظر: الكشاف ٣/ ٦٢٨.
(٥) تأويل مشكل القرآن ١٤٣.
(٦) تفسير الرازي ٢٨/ ٢٤.
(٧) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة ٧٢.
(٨) الجوهر المكنون للأخضري فصل في الخروج عن مقتضى الظاهر بيت (٨٦).

فالمراد: أن وضع المضمر موضع الظاهر نوعٌ من الخروج عن مقتضى الظاهر إلى مطابقة ظاهر الحال، ولا يكون ذلك إلا لفائدةٍ[١].

ومن مواضع استعمال المضمر موضع الظاهر:

ما يكون في ضمير الشأن والقصة.

وهو ضمير غائب يسبقُ الجملة لا يحتاج إلى اسم ظاهر يعود إليه، بل يعود إلى ما في الذهن من شأن أو قصة، وهو مضمون الجملة التي بعده[٢].

قال الزركشي: «وهو الضمير المجهول الذي يلزمه التفسير بجملة أو مفرد»[٣].

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص].

فـ ﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن، وجملة ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ بيّنت الغرضَ من الضمير، وهو التفخيم والتعظيم لما بعده، ليتمكن ما يعقبه في نفوس السامعين، وحَسُن استعماله لاشتهار الاسم الظاهر؛ أي: الشأن الله أحد.

قال الزمخشري: «[هُوَ] ضمير الشأن، و[اللَّهُ أَحَدٌ] هو الشأن»[٤].

وقال أبو السعود: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ الضمير للشأن، ومدار وضْعِه موضِعَه مع عدم سبق ذكره: الإيذان بأنه من الشهرة والنباهة؛ بحيث يستحضره كل أحد، وإليه يشير كل مشير، وإليه يعود كل ضمير، كما ينبئ عنه اسمه الذي أصله القصد»[٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ [النمل].

الهاء ضمير الشأن، وبيانه بعده[٦].

---

(١) ينظر: حلية اللب المصون على الجوهر المكنون للدمنهوري ٢٤.

(٢) ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٤٠٩، الكليات ٨٩٩.

(٣) البرهان ٤/ ٢٩.

(٤) الكشاف ٤/ ٨٢٢، وينظر: تفسير البيضاوي ٥/ ٥٤٧.

(٥) تفسير أبي السعود ٩/ ٢١٢، ينظر: البرهان ٤/ ٢٩.

(٦) ينظر: البحر المحيط ٧/ ٥٥.

قال العكبري: «قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ الهاء: ضمير الشأن، وأنا الله: مبتدأ وخبر»[١].

- وقوله تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [الكهف].

قال أبو السعود: «﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن، وهو مبتدأ خبره الله ربي»[٢].

- وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجنّ][٣].

قال البقاعي: «﴿وَأَنَّهُۥ﴾ أن: الشأن أو القصة العظيمة العجيبة»[٤].

- وقوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام].

إنه: ضمير الشأن؛ أي: نعلم إن الذي يقولون ليحزنك[٥].

قال أبو حيان: «والضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ ضمير الشأن، والجملة بعده مفسرة له في موضع خبر إن»[٦].

- وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج].

فـ(ها) في قوله: إنها ضمير القصة، وقوله: ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ مفسرة له[٧].

قال الزمخشري: «﴿فَإِنَّهَا﴾ الضمير ضمير الشأن والقصة»[٨].

- وقوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان].

المعنى: إن المعصية إن تك مثقال حبة من خردل.

قال ابن كثير: «فقال: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾؛ أي:

---

(١) التبيان في إعراب القرآن ٢/ ١٠٠٥.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٢٢.
(٣) ينظر: البرهان ٢/ ٤١٠.
(٤) نظم الدرر ٨/ ١٩٤.
(٥) ينظر: الكشاف ٢/ ١٨.
(٦) ينظر: البحر المحيط ٤/ ١١٥.
(٧) ينظر: الدر المصون ٨/ ٢٨٨، تفسير أبي السعود ٦/ ١١١، روح المعاني ١٧/ ١٦٧.
(٨) الكشاف ٣/ ١٦٤.

إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة من خردل، وجوز بعضهم أن يكون الضمير في قوله: ﴿إِنَّهَآ﴾ ضمير الشأن والقصة»[(١)].

- وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩﴾ [الأنعام].

التقدير: إن الحياة إلا حياتنا الدنيا، فإظهار الخبر بعدها يدل عليها ويبينها[(٢)].

ومن أمثلة استعمال المضمر موضع المظهر:

- قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٩٧﴾ [البقرة].

فقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ إضمار في مقام الإظهار، دلالة على التفخيم والتعظيم.

قال القرطبي: «وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ الضمير في (إنَّه) يحتمل معنيين، الأول: فإن الله نزل جبريل على قلبك. الثاني: فإن جبريل نزل بالقرآن على قلبك»[(٣)].

وعلى كلا القولين ففيه إضمار في موضع الإظهار؛ لأنه لم يرد في السياق اسم ظاهر يعود عليه، سواء كان الضمير عائداً على الله جل وعلا، أو كان عائداً على جبريل[(٤)].

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾ [البقرة].

فقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: خالدين في النار، ولم يجر لها ذكر، ولكنه يفهم من السياق.

قال ابن عطية: «وقرائن الآية تقتضي أن هذه اللعنة مخلدة لهم في جهنم، فالضمير عائد على النار، وإن كان لم يجر لها ذكر؛ لأن المعنى

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٣٧.
(٢) ينظر: البحر المحيط ٤/ ١٠٩.
(٣) تفسير القرطبي ٢/ ٣٦.
(٤) ينظر: المحرر الوجيز ١/ ١٦٦.

يُفهِمها في هذا الموضع، كما يُفهِم قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرَّحمٰن] أنها الأرض، وقد قال بعض الخراسانيين في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النَّازعات] إن الضمير عائدٌ على النار»[1].

- وقوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء: ١١].

أي: ولأبوي الميت، دل عليه معنى الكلام وسياقه[2].

قال البغوي: «﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾؛ يعني: لأبوي الميت، كناية عن غير مذكور»[3].

وقال الزركشي: «﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ الضمير يعود على الميت، وإن لم يتقدم له ذكر، إلا أنه لما قال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١]، عُلِم أن ثم ميتاً يعود الضمير عليه»[4].

- وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [ص].

فالمراد: توارت الشمس، ولم ترد في السياق ولكنها معلومة منه بوضوح[5].

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر].

في قوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ ضمير يعود على غير مذكور في السياق، والأصل إظهاره، ولكن لمعرفة الاسم الظاهر واشتهاره، وهو القرآن، استُعمل الضمير لفائدة التعظيم والتفخيم.

قال أبو حيان: «والضمير عائد على ما دل عليه المعنى، وهو ضمير القرآن»[6].

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعنى القرآن، وإن لم يجْرِ له ذكر في هذه السورة؛ لأن المعنى معلوم»[7].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٧.
(٢) ينظر: البحر المحيط ٣/ ١٩١.
(٣) تفسير البغوي ٢/ ١٧٧.
(٤) البرهان ٤/ ٢٧.
(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٩.
(٦) البحر المحيط ٨/ ٤٩٢.
(٧) تفسير القرطبي ٢٠/ ١٢٩.

فظهر من ذلك:

ـ أن عادة القرآن عند استعمال المضمر موضع الظاهر ـ وهو خلاف الأصل ـ أن يكون لنكتة تُعلم من السياق[١].

ـ أن أكثر مواضعه في ضمير الشأن أو القصة؛ ليتمكن ما بعده في ذهن السامع.

قال الزركشي: «ويفعلون ذلك في مواضع التفخيم، والغرض منه: أن يتطلع السامع إلى الكشف عنه، وطلب تفسيره، وحينئذ تورد الجملة المفسرة له»[٢].

فأهم فوائد استعمال ضمير الشأن أو القصة:

أن يتمكن في ذهن السامع ما يعقبه، فإذا لم يفهم السامع من الضمير معنى انتظر عقبى الكلام كيف يكون، فيتمكن المسموع بعده في الذهن أكثر.

قال القزويني[٣] عما سبق: «وهو السر في التزام تقديم ضمير الشأن أو القصة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١١٧﴾ [المؤمنون]، وقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الحج: ٤٦]»[٤].

فحصول العلم بعد التشوق إلى فهمه أوقع في النفس، وفيه لذة العلم ودفع ألم التشوق، فإذا وضِّح وفسِّر حل محلاً رفيع القدر لديها، واللذة المشتملة على دفع الألم، أحلى من مجرد اللذة الحاصلة بدونه.

---

(١) ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/٨٨، الإيضاح في علوم البلاغة ٧٣، البرهان ٢/ ٤٨٢، وما بعدها، قواعد التفسير ١/ ٣٣٩.

(٢) البرهان ٢/ ٤١٠.

(٣) هو: محمد بن عبد الرحمٰن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق، قاض فقيه، أديب بالعربية والتركية والفارسية، من مصنفاته: «تلخيص المفتاح في المعاني والبيان»، و«الإيضاح في علوم البلاغة»، و«السور المرجاني من شعر الأرجاني»، مات سنة (٧٣٩هـ)، له ترجمة في: طبقات الشافعية ٥/ ٢٣٨، الدرر الكامنة ٤/ ٣.

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة ٧٢.

ـ ومن فوائد إضمار المظهر:

١ ـ المبالغة وتعظيم الشأن والقصة وتفخيم المضمر، ومن ثمّ فأكثر ما يكون في المواضع التي يقصد فيها التفخيم.

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ [النمل: ٩].

فجاء بضمير الشأن تعظيماً لله جل في علاه.

وكذلك يفيد معه معنى الانفراد كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص].

أي: المنفرد بالأحدية[1].

قال أبو السعود: «والسر في تصدير الجملة به: التنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها، وجلالة حيزها، مع ما فيه من زيادة تحقيق وتقرير، فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم، له خطر جليل، فيبقى الذهن مترقباً لما أمامه مما يفسره ويزيل إبهامه فيتمكن عند وروده له فَضْلَ تمكن»[2].

٢ ـ الإيجاز والاختصار، ومراعاة حسن النظم.

قال العكبري: «وإنّما جيء بالضمائر للاختصار»[3].

وقال الزركشي عند قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء: ١٧٦]: «وأما في آية المواريث، فالظاهر أن الضمير وضع موضع الظاهر اختصاراً؛ لبيان المعنى، بدليل أنه لم يتقدمه ما يدل عليه لفظاً، فكأنه قال: فإن كان الوارث اثنين، ثم وضع ضمير الاثنين موضعَ الوارث الذي هو جنس، لمّا كان المراد به منه الاثنان، وأيضاً فإن الإخبار عن الوارث ـ وإن كان جمعاً ـ باثنين ففيه تفاوت ما؛ لكونه مفرد اللفظ، فكان الأليق بحسن النظم وضع المضمر موضع الظاهر، ثم يجري الخبر على من حُدِّث عنه ـ وهو الوارث ـ فيجري الكلام في طريقه، مع الإيجاز في وضع المضمر موضع الظاهر، والسلامة من تفاوت اللفظ، في الإخبار عن لفظٍ مفردٍ بمثنى»[4].

---

(١) ينظر: البرهان ٢/ ٤١٠.
(٢) تفسير أبي السعود ٩/ ٢١٢.
(٣) اللباب في علل البناء والإعراب ١/ ٤٧٤.
(٤) البرهان ٢/ ٤٤٠، ينظر: ٤/ ٢٩.

٣ - بيان شهرة المضمر، حتى كأنه من زيادة شهرته دل على نفسه، فاكتفي عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر]؛ يعني القرآن، وقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧][1]، والله تعالى أعلم.

---

(١) ينظر: تفسير الرازي ٣/١٧٩، البرهان ٤/ ٢٤.

المبحث الثاني

إيجاز الحذف والقصر

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: إيجاز الحذف.
- المطلب الثاني: إيجاز القصر.

المطلب الأول

إيجاز الحذف

الإيجاز لغة: الاختصار.

قال ابن منظور: «أَوْجَزَه: اختصره»(١).

واصطلاحاً: أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارةِ متَعَارَفِ الأوْسَاط(٢).

قال مكي: «ومعنى الإيجاز: هو إظهار المعاني الكثيرة باللفظ القليل»(٣).

وبعض العرب كان يعد الإيجاز هو البلاغة.

قال ابن الجوزي: «وقد تكلم العلماء في حد البلاغة، فقال بعضهم: البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، وقيل: البلاغة حسن العبارة مع صحة المعنى، وقيل: البلاغة الإيجاز مع الإفهام والتصرف من غير إضجار»(٤).

---

(١) لسان العرب ٥/٤٢٧.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ١٧٩.

(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية ٦/٤٢٨٥.

(٤) زاد المسير ٢/١٢٢.

ومن المعلوم أن لكل مقام مقالاً فالإيجاز إنما يحسن في مواضعه، وقد جمع الكتاب العظيم بين الإيجاز والإطناب والحذف والتكرار، وهذا هو كمال البلاغة.

قال ابن قتيبة: «ولو كان الإيجاز محموداً في كل الأحوال لجرده الله تعالى في القرآن، ولم يفعل الله ذلك، ولكنه أطال تارة للتوكيد، وحذفه تارة للإيجاز، وكرر تارة للإفهام»(١).

والإيجاز على قسمين(٢):

القسم الأول:

إيجاز الحذف: وهو ما حُذف فيه كلمة أو جملة أو أكثر مع بقاء ووجود قرينة تشير إلى الشيء المحذوف(٣).

القسم الثاني:

إيجاز القصر: وهو أن يَقْصُر اللفظ عن معناه، فتقل الكلمات ويزيد المعنى دون حذف(٤)، وسيأتي بيانه في المطلب التالي.

وقد جاء الإيجاز في القرآن بقسميه(٥).

قال الجرجاني: «فما من اسم أو فعلٍ تجدُه قد حُذِف، ثم أُصيبَ به موضعُه، وحُذِف في الحال يَنْبغي أنْ يُحذَفَ فيها، إلَّا وأنت تجدُ حذفَه هناك أحسنَ من ذكرِهِ، وترى إضمارَه في النفس أولى وآنس مِنَ النطق به»(٦).

وقال ابن الأثير: «أما الإيجاز بالحذف فإنه عجيب الأمر، شبيه بالسحر، وذاك أنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون مبيناً إذا لم تبين... والأصل في المحذوفات جميعاً على اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام ما يدل على المحذوف، فإن لم يكن هناك دليل على المحذوف فإنه

---

(١) أدب الكاتب ١٥.
(٢) ينظر: البرهان ٣/ ٢٢٠.
(٣) ينظر: الإيضاح ١٨٧.
(٤) ينظر: الكليات ٣٢٤.
(٥) ينظر: البرهان ٣/ ٢٢٠.
(٦) دلائل الإعجاز ١٢٦، ١٢٧.

لغو من الحديث لا يجوز بوجه ولا سبب، ومن شرط المحذوف في حكم البلاغة أنه متى أظهر صار الكلام إلى شيء غث لا يناسب ما كان عليه أولاً من الطلاوة والحسن»(١).

والحديث هنا عن إيجاز الحذف، وقد اجتمع في القرآن إيجاز الحذف مع كمال المعنى والبلاغة.

وكل أمثلة الفصل السابق ـ في مباحث الحذف المتنوعة ـ صالحةٌ أن تكون مثالاً لهذا الأسلوب.

ولهذا فسأشير هنا على سبيل الاختصار لأنواع إيجاز الحذف وأمثلته:

فمِن أنواع إيجاز الحذف:

١ ـ حذف الحرف.

ـ كقوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [يوسف].

حُذِفت [لَا] من الكلام وهي مرادة في المعنى، فالتقدير: لا تفتأ.

قال ابن عطية: «المعنى: تالله لا تفتأ، فتحذف لا في هذه الموضع من القَسَم لدَلالة الكلام عليها»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ﴾ [آل عمران: ١١٨].

حُذِفت [واو] العطف، التقدير: لا يألونكم خبالاً وودُّوا.

٢ ـ حذف المبتدأ.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد].

عالمُ: خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: هو عالمُ(٣).

---

(١) المثل السائر ٢/٧٦. (٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٠.

(٣) ينظر: التبيان في إعراب القرآن ٢/ ٧٥٣.

٣ ـ حذف الخبر.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾ [الرعد: ٣٥]، فالخبر محذوف؛ أي: وظلها دائمٌ[(١)].

٤ ـ حذف الفعل.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت].

التقدير: خلقهن الله[(٢)].

٥ ـ حذف الفاعل والاكتفاء في الدلالة عليه بذكر الفعل.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ [الواقعة].

والتقدير: بلغت النفسُ الحلقوم؛ يدل على ذلك الضمير في الفعل بلغت.

قال ابن قتيبة: «﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾؛ أي: فهلَّا إذا بلغت النفسُ الحلقوم»[(٣)].

٦ ـ حذف المفعول به.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النَّجم]، وما بعدها.

فالأفعال: [أضحك وأبكى وأمات وأحيا] قد حُذفَت مفاعيلها؛ لإفادة العموم.

قال الرازي: «﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ لا مفعول لهما في هذا الموضع؛ لأنهما مسوقتان لقدرة الله لا لبيان المقدور، فلا حاجة إلى المفعول»[(٤)].

٧ ـ حذف الموصوف.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَاۚ﴾ [الإسراء: ٥٩].

---

(١) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٥/٣٧٤٧، الكشاف ٢/٥٠١، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ٣/٢٢٣.

(٢) ينظر: البرهان ٣/٢٠٠.

(٣) غريب القرآن ٤٥٢.

(٤) تفسير الرازي ٢٩/٢٨٠.

والمراد: آية مبصرة؛ لأنه لا معنى لوصف الناقة بأنها مبصرة، والدليل وصف الله تعالى للآيات بالإبصار في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ [النمل].

قال القرطبي: «معناه: آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها، فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به: أن الناقة كانت مبصرة، ولا يدري بماذا ظلموا، وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم، فهذا من الحذف والإضمار، وأمثال هذا في القرآن كثير»[١].

وقال الزركشي: «وليس المراد: أن الناقة كانت مبصرة لا عمياء»[٢].

٨ ـ حذف الصفة.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف].

والتقدير: يأخذ كل سفينة صحيحة أو صالحة؛ بدليل ما قبله[٣].

٩ ـ حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه.

ـ كما قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨].

أي: في سبيل الله[٤].

١٠ ـ حذف المضاف إليه.

ـ كما قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

أي: بعشر ليالٍ[٥].

١١ ـ حذف جواب الشرط.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [يس].

---

(١) تفسير القرطبي ١/ ٣٤.
(٢) البرهان ٢/ ٢١١.
(٣) ينظر: الإيضاح ١٨٨.
(٤) ينظر: تفسير البغوي ٥/ ٤٠٢.
(٥) ينظر: تفسير الطبري ١٣/ ٨٦.

أي: أعرضوا وأصرُّوا على تكذيبهم[١]، دل على ذلك قوله تعالى بعدها: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [يس].

١٢ ـ حذف الجملة.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

والتقدير: فاختلفوا فبعث الله النبيين[٢].

قال البيضاوي: «أي: فاختلفوا فبعث الله، وإنما حُذِف لِدَلالة قوله: ﴿فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]»[٣].

يظهر بعد هذه الأنواع أن من أهم فوائد إيجاز الحذف في القرآن:

١ ـ الاختصار عند تحقق ظهور المعنى المراد.

٢ ـ أن الإيجاز هو البلاغة في المواضع التي يكون فيها المقام لا يحتاج إلى تطويل.

٣ ـ التفخيم، وذلك بسبب ما يحدثه الحَذف في نفس السامع من الإبهام، ولذا يكثر الحذفُ في المواطن التي يُراد بها التعجب والتهويل.

٤ ـ التخفيف في النطق لكثرة تردده على الألسن، ولذا يكثر حذف النداء، وياء المتكلم، وياء المنقوص، ونحوها.

٥ ـ التعظيم، أو الإهانة، أو إرادة العموم، أو مراعاة الفاصلة مع تمام المعنى، أو النص على المقصود والحصر له؛ كحذف الفعل في الجواب، أو الاشتغال بالأهم وترك ما لا حاجة إليه، أو لا يترتب عليه أثر، أو البيان بعد الإبهام؛ كما في حذف المفعول به، أو كون المحذوف أكبر من أن يذكر، أو القوة في الخطاب، وغيرها.

---

(١) ينظر: النكت والعيون ٥/ ٢١.

(٢) ينظر: تفسير الطبري ٤/ ٢٧٥، الكشاف ١/ ٢٨٣، تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٩، البرهان ٣/ ٢٠٥.

(٣) ينظر: تفسير البيضاوي ١/ ٤٩٦.

وعلى هذا فقد بلغ القرآن أعلى درجات الإيجاز والبيان.

قال القرطبي: «فبلاغة القرآن في أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الإيجاز والبيان»[1].

وألفاظ القرآن مع ما فيها من الإيجاز والاختصار فهي وافية بالغرض المقصود، متميزة في الإبانة والإفصاح، قال جل وعلا: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصِّلت].

٦ ـ أن إيجاز الحذف وجه من وجوه إعجاز القرآن.

قال مكي: «ومن إعجازه: الحذف والإيجاز، ودلالة اليسير من اللفظ على المعاني الكثيرة، وهذا موجود بعضه في كلام العرب، لكن لا يوجد مثل قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال]، فقد تضمن هذا معاني، ولا يوجد مثله في كلام العرب بهذه الفصاحة، ومثله كثير في القرآن»[2].

ومن أهم أسباب الحذف:

أ ـ وجود دليل حالي أو مقالي في السياق.

ب ـ كون السياق لا يحتمل غير المحذوف.

ج ـ كثرة الاستعمال.

د ـ عِلْم المخاطب بالمحذوف.

هذه من أهم المسوغات لبلاغة هذا الأسلوب وحسن استعماله، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

إيجاز القصر

إيجاز القصر هو القسم الثاني من أقسام الإيجاز، وللقرآن فيه المنزلةُ التي لا تُسامَى، والغاية التي لا تدرك.

---

(١) تفسير القرطبي ١/ ٧٧.

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية ٦/ ٤٢٨٥.

والمراد به: تكثير المعنى بتقليل اللفظ، مع الإبانة والإفصاح[١].

- كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

فهذه الآية لا حذف فيها، ومعناها يزيد على ألفاظها؛ لأن المراد كما قال القزويني: «إن الإنسان إذا علم أنه متى قَتَلَ قُتِل؛ كان ذلك داعياً له قوياً إلى أن لا يُقْدِم على القتل فارتفع بالقتل - الذي هو قصاص - كثير من قتل الناس بعضهم لبعضٍ، فكان في ارتفاع القتل حياةٌ لهم»[٢].

وهذا المثال يكاد يكون مقارناً للذهن عند ذكر إيجاز القصر.

وكلُّ من تكلم عن إيجاز القصر ذكر هذه الآية مثالاً له، ولذلك أسهبوا في التعليق عليها، للوصول إلى النتيجة المحقَّقَة بأن الإيجاز في القرآن لا يمكن أن يقارَن بكلام الناس، من خلال قول العرب عن المعنى نفسه: «القتْل أنْفَى للقتل»، فذكر العُلماءُ ما وجدوه من فوارق حرفية ولغوية وبلاغية وغيرها، فأوصلها بعضهم إلى العشرين.

وبهذا تكون هذه الآية دليلاً لإعجاز القرآن باستعمال هذا الأسلوب[٣].

قال ابن الأثير: «ولا يُلتفت إلى ما ورد عن العرب من قولهم: القتل أنفى للقتل، فإن من لا يَعلم يظن أن هذا على وزن الآية، وليس كذلك، بل بينها فرق من ثلاثة أوجه:

الأول: أن [الْقِصَاصِ حَيَاةٌ] لفظتان، و[القتل أنفى للقتل] ثلاثة ألفاظ.

الوجه الثاني: أن في قولهم: [القتل أنفى للقتل] تكريراً ليس في الآية.

الثالث: أنه ليس كلُّ قتل نافياً للقتل إلا إذا كان على حكم القصاص»[٤].

❑ وخلاصة ما تميزت به آية القصاص:

١ - أن فيها الترغيب في القصاص بذكر الحياة المحبوبة والمقبولة في الطباع، وجعلها نتيجة له، وتنكيرها للتعظيم والتكثير.

---

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة ١٨٤. (٢) الإيضاح في علوم البلاغة ١٨٤.

(٣) ينظر: البرهان ٣/ ٢٢٢. (٤) المثل السائر ٢/ ١١٧.

٢ ـ في الآية إظهار للعدل بذكر كلمة القصاص، بخلاف أي لفظ آخر.

٣ ـ سلامة الآية من التكرار المعِيب، واطراد الحكم فيها، وكونه رادعاً عن الاعتداء.

٤ ـ شمولها القصاص في النفس والأعضاء، وهذا من زيادة المعاني مع قلة الألفاظ(١).

ولأجل تحصيل المعنى الكثير في اللفظ القليل حسن الإيجاز بنوعيه(٢).

ومن أمثلة إيجاز القصر في القرآن:

ـ قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف].

جمعت هذه الآية كل دقيق وجليل، من الأخذ بالأيسر، وتقوى الله، والصفح عن المسيء، وصلة الأرحام، وصرف اللسان عن الكذب، والإعراض عن كل محرم، وغير ذلك من أبواب الخير(٣).

قال السيوطي: «هذه الآية جامعة لمكارم الأخلاق؛ لأن في أخذ العفو: التساهل، والتسامح في الحقوق، واللين، والرفق في الدعاء إلى الدين، وفي الأمر بالمعروف: كف الأذى، وغض البصر، وما شاكلها من المحرمات، وفي الإعراض: الصبر، والحلم، والتؤدة»(٤).

وقال البيضاوي: «وهذه الآية جامعة لمكارم الأخلاق، آمرة للرسول باستجماعها»(٥).

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل].

هذه الآية لم تدع خيراً إلا أمرت به، ولا شراً إلا نهت عنه.

فالعدل: هو سلوك الصراط المستقيم في جميع الواجبات، والإحسان:

---

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة ١٨٤ ـ ١٨٥، البرهان ٣/ ٢٢٢، الإتقان ٢/ ١٢٠.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير ١/ ١٢٢.
(٣) ينظر: البرهان ٣/ ٢٢٦.
(٤) الإتقان ٢/ ١١٨.
(٥) تفسير البيضاوي ٣/ ٨٤.

هو الإخلاص في واجبات العبودية بأن تعبد الله كأنك تراه، وإيتاء ذي القربى: هو الزيادة على الواجب من النوافل هذا في الأوامر.

وأما النواهي: فأشار بالفحشاء إلى القوة الشهوانية، وبالمنكر إلى كل محرم شرعاً، وبالبغي إلى الاستعلاء والاستطالة[(١)].

ولهذا قال ابن مسعود: «إن أجمع آية في القرآن للخير والشر في سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل]»[(٢)].

وقرأ الحسن[(٣)] هذه الآية يوماً ثم وقف، فقال: «إن الله ﷻ جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة، فوالله ما ترك العدلُ والإحسانُ من طاعة الله شيئاً إلا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئاً إلا جمعه»[(٤)].

وقال السعدي: «هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات، لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل، أو إحسان، أو إيتاء ذي القربى، فهي مما أمر الله به، وكل مسألة مشتملة على فحشاء، أو منكر، أو بغي، فهي مما نهى الله عنه، وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال، وتُرَد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه الهدى

---

(١) ينظر: تفسير البيضاوي ٣/ ٤١٦، تفسير الرازي ٢٠/ ٨١، الإتقان ٢/ ١١٨.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٨٨، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/ ٤٧٣ (٢٤٤٠).

(٣) هو: الحسن بن يسار البصري بن أبي الحسن أبو سعيد مولى زيد بن ثابت، تابعي، كان إمام أهل البصرة، من مصنفاته: «التفسير» ورواه عنه جماعة، وكتابه إلى عبد الملك بن مروان في الرد على القدرية، و«فضائل مكة»، مات سنة (١١٠هـ)، له ترجمة في: حلية الأولياء ٢/ ١٣١، سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٦٣، طبقات الداوودي ١/ ١٥٠.

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١/ ١٦١ (١٤٠).

والشفاء، والنور والفرقان بين جميع الأشياء»(١).

فهذه الآيات وغيرها كثيرٌ من جوامع الكلم التي بُعِث بها النبي ﷺ، وقد سبقت الإشارة إلى شيء من هذه الجوامع في مبحث اختيار جوامع الألفاظ من عادة القرآن، وهنا جوامع الآيات، فاجتمع اختيار الألفاظ الجوامع مفردة ومجموعة.

قال الفيروزآبادي: «ومن جوامع آيات القرآن قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف]، فإنها جامعة لجميع مكارم الأخلاق، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، مستجمعة لجميع أسباب السِّياسة والإيالة»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

هاتان كلمتان أحاطتا بجميع الأشياء على غاية الاستقصاء، فالمراد بالخلق: جميع المخلوقات، والأمر: جميع الأوامر والنواهي منه سبحانه(٣).

قال السعدي: «وذلك أنه الخالق الآمر الناهي، فكما أنه لا خالق سواه فليس على الخلق إلزام ولا أمر ولا نهي إلا من خالقهم، وأيضاً فإن خلقه للخلق فيه التدبير القدري الكوني، وأمره فيه التدبير الشرعي الديني، فكما أن الخلق لا يخرج عن الحكمة؛ فلم يخلق شيئاً عبثاً، فكذلك لا يأمر ولا ينهى إلا بما هو عدل وحكمة وإحسان»(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص]، إلى آخرها.

ففيها كمال التنزيه، مع تضمنها الرد على نحو أربعين فرقة، بألفاظ موجزة(٥).

---

(١) تفسير السعدي ٤٤٧.

(٢) بصائر ذوي التمييز ١/ ٤٩، والإيالة: حسن الرعاية، ينظر: الصحاح مادة: (أول) ٥/ ٣١٤.

(٣) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٣/ ٢١٢٥، تفسير اللباب ٩/ ١٥٥.

(٤) تفسير السعدي ٥٠١.

(٥) ينظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٧/ ٥، البرهان ٣/ ٢٢٥، الإتقان ٢/ ١١٨.

قال الحكمي(١): «وهذه السورة العظيمة التي قال فيها النبي ﷺ: «**إنها تعدل ثلث القرآن**»(٢)، مشتملة على توحيد الإلٰهية والربوبية والأسماء والصفات، جامعة بين الإثبات لصفات الكمال وبين التنزيه له تعالى عن الأشباه والأمثال، متضمِّنة الرد على جميع طوائف الكفر؛ من الدَّهرية، والوثنية، والملاحدة من المشبهة والمعطلة، وأهل الحلول والاتحاد، ومن نَسَب له الصاحبة والولد، وغيرهم، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، والله أعلم»(٣).

- وقوله تعالى: ﴿**وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ** ﴿٧١﴾﴾ [الزُّخرف].

فهذه الآية جمعت أوصاف الجنة المرغبة فيها؛ بحيث لو اجتمع الخلق كلهم على وصف ما فيها على التفصيل لم يخرجوا عن هذا الوصف(٤).

قال القرطبي: «هذا رسول الله ﷺ مع ما أوتي من جوامع الكلم، واختص به من غرائب الحكم، إذا تأملت قوله ﷺ في «صفة الجنان»، وإن كان في نهاية الإحسان، وجدته منحطاً عن رتبة القرآن، وذلك في قوله عليه السلام: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»، فأين ذلك من قوله ﷻ: ﴿**وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ**﴾ [الزُّخرف: ٧١]»(٥).

- وقوله تعالى: ﴿**فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ**﴾ [الحجر: ٩٤].

---

(١) هو: حافظ بن أحمد بن علي الحكمي، فقيه أديب، من علماء منطقة جازان في السعودية، من مصنفاته: «الجوهرة الفريدة في العقيدة»، و«اللؤلو المكنون في أحوال السند والمتون»، و«الأصول في نهج الرسول»، و«منظومة سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد»، و«معارج القبول في شرحها»، مات سنة (١٣٧٧هـ)، وعمره ٣٥ سنة، له ترجمة في: مقدمة معارج القبول بقلم ابنه أحمد، أعلام الحنابلة في أصول الفقه للدكتور إبراهيم بن عبد الله آل إبراهيم ٦١، الأعلام ٢/ ١٥٩.

(٢) أخرجه البخاري ٦/ ٢٣٣ (٥٠١٣)، باب فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ومسلم ١/ ٥٥٦ (٨١١)، باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٣) معارج القبول ١/ ١٤٣.

(٤) ينظر: الإتقان ٢/ ١٢٠.

(٥) تفسير القرطبي ١/ ٧٧.

ففي هذه الكلمات اليسيرة جمع لمعان تحمل المهام الكبيرة على رسول الله ﷺ.

قال الزركشي: «فهذه ثلاث كلمات، اشتملت على جميع ما في الرسالة»[١].

سمع أعرابي رجلاً يقرأ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فسجد، وقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام[٢].

وهذا من أمثلة البيان والفصاحة والإعجاز في كتاب الله[٣].

- وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل].

ففي هذه الآية جمعٌ لعدد من الأساليب التي تحمل المعاني مع قلة الألفاظ وإيجازها[٤].

قال الزركشي: «فجمع في هذه اللفظة أحد عشر جنساً من الكلام، نادت، وكَنَّت، ونبَّهت، وسمَّت، وأمرت، وقصت، وحذرت، وخصت، وعمت، وأشارت، وعَذَرت.

فالنداء: يا، والكناية: أي، والتنبيه: ها، والتسمية: النمل، والأمر: ادخلوا، والقصص: مساكنكم، والتحذير: لا يحطمنكم، والتخصيص: سليمان، والتعميم: جنوده، والإشارة: وهم، والعذر: لا يشعرون»[٥].

- وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص].

---

(١) البرهان ٣/٢٢٦.

(٢) وسمع آخر رجلاً يقرأ: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام. ينظر: الشفا للقاضي عياض ٢٦٢، إعجاز القرآن للباقلاني ٦٦.

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز ٢٩٥، نهاية الأرب في فنون الأدب ٧/٦.

(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب ٧/٦.

(٥) البرهان ٣/٢٢٧.

قال ابن العربي: «هذه الآية من أعظم آي القرآن فصاحة؛ إذ فيها أمران، ونهيان، وخبران، وبشارتان»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف].

جَمَع الله في هذه الآية أصول الكلام: النداء، والعموم، والخصوص، والأمر، والنهي، والخبر[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ توجيه وجيز اجتمعت فيه أسباب الصحة، ووسائل الوقاية والعلاج، فمهما تكلم الباحث في أصول الصحة وتفصيلاتها؛ فمرجعه إلى هذا الجزء من الآية.

قال ابن القيم: «فصل في هديه في حفظ الصحة» وبعد ذكر أهمية اختيار نوع الأكل وأنه سبب اعتدال البدن وصحته قال: «وهذا كله مستفاد من قوله: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ فأرشد عباده إلى إدخال ما يقيم البدن من الطعام والشراب، عوض ما تحلل منه، وأن يكون بقدر ما ينتفع به البدن في الكمية والكيفية، فمتى جاوز ذلك كان إسرافاً، وكلاهما مانع من الصحة جالب للمرض؛ أعني: عدم الأكل والشرب، أو الإسراف فيه، فحفظ الصحة كله في هاتين الكلمتين الإلـٰهيتين»[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [هود].

تنوعت الأساليب في هذه الآية، فجمعت بين قلة الألفاظ وكثرة المعاني.

قال السكاكي[٤]: «وإذ قد وقفت على البلاغة وعثرت على الفصاحة

---

(١) أحكام القرآن ٣/ ٤٩١، وينظر: بصائر ذوي التمييز ١/ ٧٢.

(٢) ينظر: الإتقان ٢/ ١١٩.

(٣) زاد المعاد ٤/ ١٩٥، الطب النبوي ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٤) هو: يوسف بن أبي بكر بن محمد أبو يعقوب السكاكي سراج الدين الحنفي الخوارزمي، إمام في العربية والمعاني والبيان والأدب والعروض والشعر، متكلم فقيه =

المعنوية واللفظية، فأنا أذكر على سبيل الأنموذج آية أكشف لك فيها عن وجوه البلاغة والفصاحتين، ما عسى يسترها عنك، ثم إن ساعَدَك الذوق أدركت منها ما قد أدرك من تُحُدُّوا بها، وهي قوله علت كلمته: «﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [هود]»[(١)].

وقال الزركشي: «كيف أمر ونهى، وأخبر ونادى، ونعت وسمى، وأهلك وأبقى، وأسعد وأشقى، وقصَّ من الأنباء ما لو شُرِح ما اندرج في هذه الجملة من بديع اللفظ والبلاغة والإيجاز والبيان لجفت الأقلام، وانحسرت الأيدي»[(٢)].

وبعد هذا العرض لأمثلة إيجاز القصر يظهر لي ما يأتي:

ـ أن آيات القرآن حققت المراد منها في إيجاز ألفاظها، وكثرة معانيها، وحُسن تأليف حروفها، وتلاؤم كلمِهَا، فيدخل تحت كل لفظة منها جُمَلاً كثيرة، وفصولاً جمَّةً، وعلوماً كبيرة، مُلِئت الكتب من بعض ما استفيد منها، وكثرت البحوث في المستنبطات منها، وعلى هذا فالآيات التي فيها إيجاز قصر تحتاج إلى طول تأمل وتدبر.

ـ أن في إيجاز القصر إعجازاً بذاته، ودليل ذلك عَجْزُ المعارضين، واعترافُ المفترين بإعجاز بلاغته وبيانه.

قال الجرجاني: «والإيجاز من الأركان في أمر الإعجاز»[(٣)].

وقال الماوردي: «فأما إعجاز القرآن الذي عجزت به العرب عن الإتيان بمثله، فقد اختلف العلماء فيه على ثمانية أوجه:

= متفنن، من أشهر مصنفاته: «مفتاح العلوم في اثني عشر علماً»، «رسالة في علم المناظرة»، مات سنة (٦٢٦هـ)، له ترجمة في: الجواهر المضية في طبقات الحنفية ٢/ ٢٢٥، شذرات الذهب ٥/ ١٢٢.

(١) مفتاح العلوم ٥٢٧.

(٢) البرهان ٣/ ٢٢٧، وينظر: الإتقان ٢/ ١١٩.

(٣) دلائل الإعجاز ٣٧٩.

أحدها: أن وجه إعجازه، هو الإعجاز والبلاغة، حتى يشتمل يسير لفظه على كثير المعاني، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فجمع في كلمتين، عدد حروفهما عشرة أحرف معاني كلام كثير..»(١).

ـ أن في إيجاز القصر الاستغناء عن التفصيلات الكثيرة بالكلام الجامع، وبالأمثال، وبالقواعد العامة التي تدل على مثيلاتها ومقابلاتها.

ـ أن في هذا الأسلوب ـ إضافةً إلى الحسن والجمال ـ الدلالة على التمكن في الفصاحة والبلاغة.

ـ أن إيجاز القصر يكثُر في:

١ ـ النكرة في سياق الإثبات، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وكذا قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص].

٢ ـ وكذا في أدوات الحصر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

فدخل في حصر هذه الآية كل معنى من معاني الأخوة، وأوجب كل حق من حقوقها.

قال السعدي: «هذا عقد عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي شخص كان، في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم، ولهذا قال النبي ﷺ آمراً بحقوق الأخوة الإيمانية: «**لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا يبع أحدكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً المؤمن أخو المؤمن، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره**»(٢)»(٣).

---

(١) النكت والعيون ١/ ٣٠.

(٢) أخرجه البخاري ٨/ ٢٣ (٦٠٦٤)، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، ومسلم ٤/ ١٩٨٦ (٢٥٦٤)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) تفسير السعدي ٨٠٠.

٣ ـ كما كَثُر إيجاز القصر في الأسماء الموصولة الدالة على الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل].

فالاسم الموصول الدال على الجمع يدل على العموم، وعليه فالحكم ينال كل من يصلح دخوله فيه، ولذا فتشمل هذه الآية كل من اجتَنَب المعاصي وفَعَل الطاعات.

قال الماوردي: «فجمع في هذه الآية اجتناب المعاصي وفعل الطاعات»(١).

٤ ـ وظهر إيجاز القصر في أدوات الشرط، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾﴾ [الزَّلزلة].

قال ابن جزي: «والعموم أحسن؛ لأن كل أحد يرى ما عمل، لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾﴾»(٢).

وقال القرطبي: «وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية، القائلون بالعموم ومن لم يقل به»(٣).

ومواضع إيجاز القصر في القرآن كثيرة، والجامع لها: لفظ قليل في طياته معنى كبير، بسْطُهَا والتأمُّلُ فيها يحتاج إلى مجلدات، وتعْجِز دونه الأعمار والأوقات.

ألا ما أجمل الإيجاز في مواضعه، والقرآن هو مرجع اللغة العربية، وقد ضَرَب أروع الأمثلة في الإيجاز، ولا يُقلل ذلك من شأن الإطناب في مواضعه، كما سيأتي في المبحث التالي، فهذه هي اللغةُ العربية من مرجعِها، والفصاحةُ والبلاغةُ من موردها، قال جل وعلا: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف]، وقال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزُّمر]، وقال سبحانه: ﴿كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [فصِّلت]، والله أعلم.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٢٢.
(٢) التسهيل ٢/ ٥٣٠.
(٣) تفسير القرطبي ٢٠/ ١٥٢.

المبحث الثالث

الإطناب

وفيه أربعة مطالب:

- المطلب الأول: الإيضاح بعد الإبهام.
- المطلب الثاني: ذكر الخاص بعد العام.
- المطلب الثالث: التكرار.
- المطلب الرابع: التذييل..

❑ **تمهيد:**

الإطنَاب في الكلام لغة: المبالغة فيه[(١)].

قال ابن فارس: «الطاء والنون والباء أصلٌ يدلُّ على ثَبات الشَّيء، وتمكنه في استطالة»[(٢)].

والإطناب اصطلاحاً: زيادة اللفظ على المعنى لغرض بلاغي[(٣)].

وإذا كان الإيجاز في موضعه بلاغة، فإن الإطناب في مواضعه يعد بلاغة كذلك، ولذا جاء القرآن جامعاً بين الأسلوبين حسب حاجة المقام، فالبليغ من يوجز في مواطن الإيجاز، ويفصّل في مواطن التفصيل كما هي عادة القرآن[(٤)].

وفي أسلوب الإطناب موافقة الكلام للمقام، وهذا هو ما تعارف عليه

---

(١) ينظر: الصحاح، مادة: (طنب) ٢/ ١٩١.

(٢) معجم مقاييس اللغة، مادة: (طنب) ٣/ ٤٢٦.

(٣) ينظر: العين ٧/ ٤٣٨، الكليات ٢٠١، لسان العرب ١/ ٥٦٠، المعجم الوسيط ٢/ ٥٦٧.

(٤) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة ١٧٩.

العرب في بلاغتهم، بسط وتفصيل في غير خَطَلٍ، وإيجاز واختصار في غير عجزٍ[١].

قال الكفوي: «أما الإيجاز فكقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، والإطناب هذا المعنى كقوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣]»[٢].

وبين الإطناب والإسهاب فرق، فالإطناب هو بسط الكلام لتكثير الفائدة، والإسهاب تكثيره مع قلة الفائدة، فالإطناب بلاغة، والإسهاب عِيٌّ[٣].

قال الزمخشري: «وكما يجب على البليغ في مظان الإجمال والإيجاز أن يجمل ويوجز، فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع»[٤].

المطلب الأول

الإيضاح بعد الإبهام

الإيضاح: هو التبيين، من أوضح يوضح إيضاحاً[٥].

والواو والضاد والحاء: أصلٌ واحد يدلُّ على ظُهور الشَّيءِ وبُروزِه[٦].

والإبهام: هو الخفاء والاستغلاق، وطريقٌ مُبْهَمٌ إذا كان خَفِيّاً لا يَسْتَبين، واسْتَبْهَم عليه الأمر؛ أي: استَغْلَق[٧].

والباء والهاء والميم: أن يبقى الشّيءُ لا يُعْرَفُ المأْتَى إليه[٨].

وعلى هذا فالمراد بالإيضاح بعد الإبهام في هذا المبحث:

---

(١) ينظر: البيان والتبيين ١/ ٩١.
(٢) الكليات ١٣٨٢.
(٣) ينظر: الفروق في اللغة ٥٦، الكليات ٢٠١.
(٤) الكشاف ١/ ١١٣.
(٥) تاج العروس ٧/ ٢١٢.
(٦) معجم مقاييس اللغة ٦/ ١١٩.
(٧) لسان العرب ١٢/ ٥٦.
(٨) معجم مقاييس اللغة ١/ ٣١١.

كل ما ورد في القرآن خفياً ثم بُيِّن وَوُضِّح لغرض بلاغي، وهو أسلوب من أساليب البلاغة التي تفيد معنى البيان والتأكيد.

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب:

- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران].

أوضح جل وعلا من يجب عليه الحج بعد أن عمَّم وجوب الحج على الناس، ففيه الإيضاح بعد الإبهام، وأفاد هذا الأسلوب الزيادة والتأكيد على المستطيع؛ لأنه أمره بصورتين مختلفتين، **أولاً**: لدخوله في العموم، **وثانياً**: لاستطاعته.

قال الزمخشري: «ذكر الناس ثم أبدل عنه من استطاع إليه سبيلاً، وفيه ضربان من التأكيد، **أحدهما**: أن الإبدال تثنية للمراد وتكرير له، **والثاني**: أن الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال، إيراد له في صورتين مختلفتين»(١).

وقال الرازي: «أجمل أولاً وفصَّل ثانياً، وذلك يدل على شدة الاهتمام»(٢).

- وقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجر].

أُبهم الأمر في الآية ثم فُسِّر ووضِّح بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾، وفي هذا تفخيم للأمر وتعظيم له(٣).

قال الزمخشري: «وفسر: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾، وفي إبهامه وتفسيره تفخيم للأمر وتعظيم له»(٤).

---

(١) الكشاف ١/٤١٨.
(٢) تفسير الرازي ٨/١٣٦، وينظر: البحر المحيط ٣/١٢.
(٣) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٦/٣٩١٢.
(٤) الكشاف٢/٥٤٦.

ومثله قال الرازي[١]، والنسفي[٢]، وابن جزي[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

فقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾، إيضاحٌ لقوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾.

ـ وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١﴾ [الصَّف].

جيء بذكر التجارة مجملاً مبهماً، ثم وضّح وبيّن المراد بهذه التجارة وهي الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله.

قال القرطبي: «كأن التجارة لم يُدْرَ ما هي؟ فبُيِّنَت بالإيمان والجهاد، فهي هما في المعنى»[٤].

وقال ابن كثير: «ثم فسر هذه التجارة العظيمة التي لا تبور، والتي هي محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١﴾ [الصَّف]؛ أي: من تجارة الدنيا، والكد لها والتصدي لها وحدها»[٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠﴾ [طه].

ذُكِرَت الوسوسة على سبيل الإبهام، ثم جاء البيان عنها بأسلوب تفصيلي.

قال أبو السعود: «كأنه قيل فماذا قال في وسوسته؟ فقيل: قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد»[٦].

(١) تفسير الرازي ١٩/ ١٦٠.
(٢) تفسير النسفي ٢/ ٢٤٥.
(٣) التسهيل ٢/ ٦٢.
(٤) تفسير القرطبي ١٨/ ٨٧.
(٥) تفسير ابن كثير ٨/ ١١٢.
(٦) تفسير أبي السعود ٦/ ٤٧.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة].

هنا جاء بلفظ القواعد من غير إضافة للبيت ليبين بعدها أنها قواعد البيت، وفي هذا تعظيم لشأن الموَضَّح، وإبهامه لتشويق السامع إلى معرفته.

قال الزمخشري: «فإن قلت هلا قيل: قواعد البيت، وأيُّ فرق بين العبارتين؟ قلت: في إبهام القواعد وتبيينها بعد الإبهام ما ليس في إضافتها؛ لما في الإيضاح بعد الإبهام من تفخيم لشأن المبيَّن»[(١)].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ].

قوله: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾، إيضاح للإبهام في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾؛ أي: بخصلة واحدة، إن فعلتموها أصبتم الحق، وتوضيحها بما بعدها[(٢)].

قال الطبري: «وقوله: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾، يقول: وتلك الواحدة التي أعظكم بها: هي أن تقوموا لله اثنين اثنين، وفُرادَى فرادى؛ فـ[أنْ] في موضع خفضٍ ترجمةٌ عن الواحدة.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»[(٣)].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون].

الإبهام في قوله: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾، والإيضاح في قوله: ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾[(٤)].

---

(١) الكشاف ١/ ٢١٤.

(٢) ينظر: التسهيل ٢/ ٣٩٢، تفسير القاسمي ٨/ ١٥٤.

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٤١٧، وينظر: تفسير القرطبي ١٤/ ٣١١.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير ١٨/ ٤٥.

قال أبو السعود: «﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾، عند ذلك، أن اصنع الفلك، أن: مفسرة؛ لما في الوحي من معنى القول»(١).

قال الزركشي: «الثالث ـ من معاني أنْ ـ مفسرة بمنزلة أيِ، التي لتفسير ما قبلها بثلاثة شروط: تمام ما قبلها من الجملة، وعدم تعلقها بما بعدها، وأن يكون الفعل الذي تفسره في معنى القول؛ كقوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [الصافات]، ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧]، و﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ [البقرة: ١٢٥]»(٢).

ـ **وقوله تعالى**: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه].

﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾، مبهم، أوضحه قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف].

في قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ﴾ إبهام، أوضحه قوله: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الشعراء].

جاء ذكر النعمة على سبيل الإجمال الذي يُهيئ السامعين لتَلَقِّي ما يَرد بعده، فأُبهم في قوله: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾، ثم وضَّح بقوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾، مستشهداً بعلمهم(٣).

قال العكبري: «قوله تعالى: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ﴾ هذه الجملة مفسرة لما

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ١٣١.
(٢) البرهان ٤/ ٢٢٥، وينظر: رصف المباني ١٩٦، الجنى الداني ٢٢٠.
(٣) ينظر: الكشاف ٣/ ٣٣١، تفسير القرطبي ١٣/ ١٢٥، البحر المحيط ٧/ ٣٣، التحرير والتنوير ١٩/ ١٧.

قبلها»[١].

وقال ابن جزي: «﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ﴾ الآية تفسير لقوله: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ فأبهم أولاً ثم فسره»[٢].

ويأتي الإطناب لمراعاة المقام مع إزالة الإبهام:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه].

فهذا جواب للسؤال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه]، ويمكن قصر الجواب على قدر السؤال، ولكن لو اقتُصِر في مثل هذا المقام لم يُفِد السائل الفائدة الكاملة، بل سيدفعه لسؤال آخر؛ لزيادة التوضيح في معرفة الغاية من حمل العصا، ففي الزيادة في الجواب فوائد منها: إيضاح المراد من السؤال دون استبهام، وإقناع السائل، ومراعاة الحال، مما يؤدي إلى تجنب تكرار سؤال آخر، إضافة إلى التلذذ بالكلام في موضعه[٣].

قال الزركشي: «ومثال الزيادة في الجواب، قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه]، فإنه عليه السلام فهِم أن السؤال يعقبه أمر عظيمٌ يُحدِثه الله في العصا؛ فينبغي أن ينبه لصفاتها حتى يظهر له التفاوت بين الحالين»[٤].

وقد اجتهد بعض العلماء في ذكر النكت في زيادة الجواب، ومجملها:

١ ـ أنه لما سمع قول الله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾، عرف أن لله فيه أسراراً عظيمة، فذكر ما عرف، وعبَّر عن البواقي التي ما عرفها إجمالاً لا تفصيلاً، بقوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

٢ ـ أن موسى عليه السلام أحس بأن الله تعالى إنما سأله عن أمر العصا لمنافع عظيمة، فزاد في الجواب لإيضاح هذا الأمر العظيم الشريف الذي كلمه الله

---

(١) التبيان في إعراب القرآن ٢/ ٩٩٩.
(٢) التسهيل ٢/ ٢٩٦.
(٣) ينظر: الكليات ٢٠١.
(٤) البرهان ٤/ ٤٥.

بسببه[١].

٣ ـ الرغبة في التلذذ بسماع كلام الله تعالى وطول المحادثة.

٤ ـ أن الجواب جاء مكتملاً لكل ما يحتمله السؤال، وفيه مراعاة المقام، لاحتمال كون السؤال عن عين العصا أو عن منفعتها.

قال السعدي: «ومن أدب موسى عليه السلام، أن الله لما سأله عما في يمينه، وكان السؤال محتملاً عن السؤال عن عينها، أو منفعتها! أجابه بعينها، ومنفعتها»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام].

فقوله: يطير بجناحيه، مع أنه معلوم؛ زيادة لإيضاح ما يمكن أن يُلبِس.

فهي زيادة في بيان الجنس المقصود من الدابة والطائر، فذكر الجناحين إطناب، ولكنه من أجل تحديد النوع، وإزالة اللبس والغموض[٣].

قال النحاس: «ومعنى: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ على التوكيد؛ لأنك قد تقول: طرت في حاجتي»[٤].

قال الزمخشري: «وما معنى زيادة قوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ و﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾؟ قلت: معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطة، كأنه قيل: وما من دابة قط في جميع الأرضين السبع، وما من طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها غير مهمل أمرها. فإن قلت: فما الغرض في ذكر ذلك؟ قلت: الدلالة على عظم قدرته، ولطف علمه، وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس، المتكاثرة الأصناف، وهو حافظ لما لها وما عليها، مهيمن على أحوالها، لا يشغله شأن عن شأن، وأنّ المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان»[٥].

---

(١) ينظر: تفسير الرازي ٢٢/ ٢٤.
(٢) تفسير السعدي ٥٠٣.
(٣) ينظر: تفسير الرازي ١٢/ ١٧٥.
(٤) معاني القرآن ٢/ ٤٢٢، وينظر: تفسير البغوي ٣/ ١٤١.
(٥) الكشاف ٢/ ٢٢.

ومن الأسرار التي ذكرها العلماء في توجيه التأكيد بقوله: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾:

١ ـ أنه لما كان الطيران يوصف به من يعقل كالجان والملائكة، فإذا لم يبين بقوله: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ لتوهم اقتصار الوصف لمن يعقل، فقيل: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾؛ ليفيد إرادة الطير المعتقد فيه عدم المعقولية بعينه.

٢ ـ وقيل لو اقتصر على ذكر الطائر، فقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ﴾ لكان ظاهر العطف يوهم: ولا طائر في الأرض؛ لأن المعطوف عليه إذا قيد بظرف أو حال يقيد به المعطوف، وكان ذلك يوهم اختصاصه بطير الأرض الذي لا يطير بجناحيه كالدجاج والإوز والبط ونحوها، فلما قال: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ زال هذا الوهم وعُلم أنه ليس بطائر مقيد[(١)].

٣ ـ ولأن الطيران يستعمل لغة في الخفة وشدة الإسراع في المشي، وقد استُعمل الطائر في القرآن بمعنى العمل في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣][(٢)]، فقوله: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ رافع لاحتمال هذا المعاني[(٣)].

ومن خلال الأمثلة السابقة؛ تبيَّن لي ما يأتي:

ـ أن الإيضاح بعد الإبهام يُظهر المعنى في صورتين مختلفتين: إحداهما مجملة مبهَمة، والأخرى مفصَّلة موضِّحة.

ـ إتيان الإيضاح بعد الإبهام لتقرير المعنى في ذهن السامع بذكره مرتين، مرة على سبيل الإبهام والإجمال، ومرة على سبيل التفصيل والإيضاح، فيزيده ذلك نبلاً وشرفاً، ويتمكن في النفس أفضَل تمكُّن؛ لأن المعنى إذا أُلقِي على سبيل الإبهام تشوفَت نفس السامع إلى معرفته على سبيل الإيضاح.

ـ أن كَثْرَة النداء في القرآن على طريقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ لاستقلاله بأوجهٍ من التأكيد، وأسبابٍ من المبالغة، وأهمها: الإيضاح بعد الإبهام[(٤)].

---

(١) ينظر: البرهان ٢/ ٤٢٦.
(٢) البحر المحيط ٤/ ١٢٥، تفسير ابن كثير ٥/ ٥١.
(٣) ينظر: تفسير البيضاوي ٢/ ٤٠٦.
(٤) ينظر: تفسير القاسمي ١/ ٢٦٥.

قال الزمخشري: «[أي] وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام، وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه، فلا بد أن يردفه اسم جنس أو ما يجري مجراه يتصف به حتى يصح المقصود بالنداء، . . . وفي هذا التدرج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد والتشديد.

فإن قلت: لم كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره؟ قلت: لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة؛ لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره، ووعده ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام، وخطوب جسام، ومعان عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ»[١].

ـ أن فائدةَ البَدَل: الإيضاحُ بعد الإبهام؛ لأنه يُفيد تأكيداً من حيث المعنى إذ هو على نيَّةِ تكرارِ العاملِ[٢].

قال الزركشي: «البدل: والقصد به الإيضاح بعد الإبهام، وهو يفيد البيان والتأكيد»[٣].

ـ أن مجيء الإيضاح بعد الإبهام لتفخيم الأمر وتعظيمه؛ كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥﴾ [طه]، فإن قوله: ﴿ٱشْرَحْ لِى﴾ يُفيد طلب شرحٍ لشيء ما له، وقوله: ﴿صَدْرِى ۝٢٥﴾ يُفيد تفسيره وبيانه، وكذلك قوله: ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦﴾ [طه]، والمقام مقتضٍ للتأكيد، وللإرسال المُؤْذِن بِتَلقِّي المكاره والشدائد[٤].

ـ أن الجمل التفسيرية في القرآن تأتي للتعظيم؛ كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وهو في القرآن

---

(١) الكشاف ١/١٢١، ١٢٢.
(٢) ينظر: الدر المصون ١/٤٢.
(٣) البرهان ٢/٤٥٣، وينظر: الإتقان ٢/١٥٢.
(٤) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة ١٩٦.

كثير[١]، وتجيء الجملة التفسيرية لبيان العلة والسبب؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس]، وليس هذا من قولهم، وإلا لما حزِن الرسول؛ وإنما جيء به لبيان السبب في أنه لا يحزنه قولهم.

والفائدة من الجمل التفسيرية: الإيضاح بعد الإبهام؛ ولذلك لا يحسن قطع القراءة على ما قبلها دونها؛ لأن توضيح الشيء متمِّمٌ له.

- أن من فوائد هذا الأسلوب: التشويق للمتلقِّي، كما جاء الإبهام في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾، وبعده البيان والإيضاح في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج]، ومجيء المعنى على سبيل الإجمال والإبهام، ثم على سبيل الإيضاح والإفهام؛ لما في ذلك من تشويقٍ للمتلقي، وإشارة إلى أهمية المتحَدَّث عنه، وأهمية تدبره وتأمله، فهذا من أسباب الإطناب الذي هو فنٌّ من فنون البلاغة في علم المعاني، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

ذكر الخاص بعد العام

❑ تعريف العام والخاص:

العام لغة: الشامل وهو خلاف الخاص[٢].

واصطلاحاً: هو اللفظ الواحد الدال على مسمَّيَيْن فصاعداً مطلقاً معاً[٣].

والخاص لغة: هو المنفرد[٤].

---

(١) ينظر: البرهان ٣/ ٣٦.

(٢) ينظر: المعجم الوسيط ٢/ ٦٢٩.

(٣) ينظر: العدة في أصول الفقه ١/ ١٤٠، الإحكام للآمدي ٢/ ٢١٨، البحر المحيط في أصول الفقه ٢/ ١٨٠.

(٤) ينظر: المعجم الوسيط ١/ ٢٣٨.

واصطلاحاً: هو كل لفظ وضع لمعنى معلوم على الانفراد[(١)].

ومن صور الإطناب في القرآن: ذكر الخاص بعد العام، تنويهاً بشأن الخاص، وتنبيهاً على فضله، كأنما هو شيء آخر.

والمراد بذكر الخاص بعد العام في هذا المبحث:

ورود لفظ شامل لاثنين فأكثر في القرآن، ثم يُعطَف عليه لفظ هو جزء منه؛ للتنبيه على فضله ومكانته، فكلَّما كان الأول شاملاً للثاني فهو داخل هنا[(٢)].

ومن أمثلة ذكر الخاص بعد العام في القرآن:

ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [البقرة].

فقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [البقرة]، بعد قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ﴾ [البقرة: ٣]، والغيب يعم الآخرة وغيرها، ولكن خصها بالذكر لعظمها، والتنبيه على وجوب اعتقادها، والرد على الكفرة الجاحدين لها[(٣)].

ـ وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة].

عطف جبريل وميكال على عموم الملائكة وهما منهم، تشريفاً، وتأكيداً.

قال البغوي: «وجبريل وميكال، خصهما الله بالذكر من جملة الملائكة مع دخولهما في قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾، تفضيلاً وتخصيصاً؛ كقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الرحمن]، خص النخل والرمان بالذكر مع دخولهما في ذكر الفاكهة»[(٤)].

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٣/ ٢٤٠، شرح الكوكب المنير ٣/ ١٠٤، الكليات ٦٤٩، التعريفات ١٢٨.

(٢) ينظر: البرهان ٢/ ٤٦٩، الإتقان ٢/ ١٥٥.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ١/ ٦٢، تفسير القرطبي ١/ ١٤٠.

(٤) تفسير البغوي ١/ ١٢٥.

وقال الماوردي: «وقد دخل جبريل وميكائيل في عموم الملائكة فلِمَ خصهما بالذكر؟ فعنه جوابان:

أحدهما: أنهما خُصَّا بالذكر تشريفاً لهما وتمييزاً.

والثاني: أن اليهود لما قالوا جبريل عدوّنا، وميكائيل وليُّنا، خُصَّا بالذكر؛ لأن اليهود تزعم أنهم ليسوا بأعداء الله وملائكته؛ لأن جبريل وميكائيل مخصوصان من جملة الملائكة، فنص عليهما لإبطال ما يتأولونه من التخصيص»[١].

وقال أبو حيان: «نبَّه على فضل جبريل وميكال في تجريدهما بالذكر في قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾»[٢].

- وقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة].

في هذه الآية أمر الله تعالى بالمحافظة على الصلوات، والمحافظة عليها: أداؤها بوقتها وشروطها وأركانها وخشوعها وجميع ما لها من واجب ومستحب، وخص تعالى من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى[٣]، ففيها ذكر الخاص بعد العام للعناية به[٤].

قال ابن قتيبة: «وقوله سبحانه: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾، وهي منها، فأفردها بالذّكر ترغيباً فيها، وتشديداً لأمرها، كما تقول: إيتني كل يوم، ويوم الجمعة خاصّة»[٥].

وقال أبو حيان: «وخصت الصلاة الوسطى بالذكر، وإن كانت قد اندرجت في عموم الصلوات قبلها، تنبيهاً على فضلها على غيرها من الصلوات»[٦].

(١) النكت والعيون ١/ ١٦٣.
(٢) البحر المحيط ٢/ ٢٤٩، وينظر: تفسير اللباب ٢/ ٣١٥.
(٣) ينظر: معاني القرآن للفراء ٣/ ١٩٩، تفسير ابن كثير ١/ ٦٤٥، تفسير السعدي ١٠٦.
(٤) ينظر: تفسير اللباب ٤/ ٢٢٥.
(٥) تأويل مشكل القرآن ١٥٢.
(٦) البحر المحيط ٢/ ٢٤٩، وينظر: تفسير اللباب ٢/ ٣١٥.

وقال القرطبي: «وأفرد الصلاة الوسطى بالذكر وقد دخلت قبل في عموم الصلوات تشريفاً لها»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران].

الدعاء إلى الخير هو الدعاء إلى ما فيه صلاح ديني أو دنيوي، فعطف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عليه بقوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، مع اندراجهما فيه، من باب عطف الخاص على العام؛ لإظهار فضلهما ومكانتهما على سائر الخيرات(٢).

قال الزمخشري: «الدعاء إلى الخير عام في التكاليف من الأفعال والتروك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاص، فجيء بالعام ثم عطف عليه الخاص، إيذاناً بفضله كقوله: ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]»(٣).

وقال الرازي: «الدعوة إلى الخير جنس تحته نوعان، أحدهما: الترغيب في فعل ما ينبغي، وهو بالمعروف، والثاني: الترغيب في ترك ما لا ينبغي، وهو النهي عن المنكر، فذكر الجنس أولاً، ثم أتبعه بنوعيه مبالغة في البيان»(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق]، فعم بقوله: ﴿خَلَقَ﴾ جميع مخلوقاته، ثم خصّ، فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ [العلق].

قال الرازي: «قوله بعد ذلك: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ تخصيص للإنسان بالذكر من بين جملة المخلوقات؛ إما لأن التنزيل إليه، أو لأنه أشرف ما على وجه الأرض»(٥).

ـ وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾ [القدر].

---

(١) تفسير القرطبي ٣/ ٢٠٩.
(٢) ينظر: البرهان ٢/ ٤٦٩، تفسير أبي السعود ٢/ ٦٧.
(٣) الكشاف ١/ ٤٢٧.
(٤) تفسير الرازي ٨/ ١٤٦.
(٥) تفسير الرازي ٣٢/ ١٦.

قال الطبري: «معنى ذلك: تنزل الملائكة وجبريل معهم، وهو الروح في ليلة القدر»[١].

وجبريل من الملائكة فيكون من ذكر الخاص بعد العام، تشريفاً له.

وقال ابن كثير: «وأما الروح فقيل: المراد به هاهنا جبريل عليه السلام، فيكون من باب عطف الخاص على العام»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤].

قال الزمخشري: «والروح: جبريل عليه السلام، أفرده لتميزه بفضله»[٣].

فعطف جبريل على الملائكة على هذا التفسير من باب عطف الخاص على العام[٤].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ [الفلق].

قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ عام في جميع الشرور ثم خص منها ما خص للتأكيد عليها، إما لخفائها أو شدة شرها.

قال ابن عثيمين: «وقوله: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ هو معطوف على ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ لأن الغاسق من مخلوقات الله عز وجل»[٥].

ومن خلال هذا المبحث تبين لي ما يأتي:

ـ أن ذكر الخاص بعد العام كثير في القرآن، ومن فوائده:

١ ـ الإشارة إلى أهمية الخاص، وزيادة فضله وشرفه، كما في الأمثلة السابقة، وكذا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٢٥ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٣٤، وينظر: تفسير البغوي ٨/ ٤٩١.
(٢) تفسير ابن كثير ٨/ ٤٤٤.
(٣) الكشاف ٤/ ٦١٢.
(٤) ينظر: تفسير ابن كثير ٨/ ٢٢١.
(٥) تفسير جزء عم ٣٥٣.

فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحديد].

فلما ذكر تعالى إرسال الرسل جملة في الآية الأولى، أفرَدَ منهم في الآية بعدها نوحاً وإبراهيم عليهما السلام تشريفاً لهما بالذكر، أما نوح فلأنه أول الرسل إلى من في الأرض، وأما إبراهيم فلأنه انتسب إليه أكثر الأنبياء عليهم السلام وهو معظَّم في كل الشرائع، ففيه ذكر الخاص بعد العام(١).

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣]: «وخص نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى بالذكر لأنهم أرباب الشرائع»(٢).

٢ ـ ومن فوائده: ثبوت المعنى المشترك فيه من غير معارض، وإن كان من فوائده أن يتبَين دخوله بعموم المعنى المشترك، وبخصوص المعنى المميَّز وإن لم يكن الحكم ثابتاً للمشتَرك(٣)، فمجيء الخاص بعد العام لتثبيت وتأكيد إرادة المعنى في الخاص من جهتين: في لفظ العام لدخوله فيه، وفي لفظ الخاص لتعيينه بذاته، وهذا نص عليه لا يمكن معارضته.

ـ أن مسألة ذكر الخاص بعد العام ليس المراد بها المصطلح عليه عند أهل الأصول، بل كلُّ ما كان الأول فيه شاملاً للثاني فهو داخل في عطف الخاص على العام، توسعاً في الاصطلاح.

قال الزركشي: «ومنه ـ ذكر الخاص بعد العام ـ قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الرَّحمٰن]، وغَلّط بعضهم من عدَّ هذه الآية من هذا النوع، من جهة أن فاكهة نكرة في سياق الإثبات فلا عموم لها.

وهو غلط لأمرين:

أحدهما: أنها في سياق الإثبات، وهو مقتضى العموم، كما ذكره القاضي أبو الطيب الطبري.

---

(١) البحر المحيط ٨/٢٢٦، وينظر: تفسير أبي السعود ٨/٢١٢.

(٢) تفسير القرطبي ١٦/١١.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٠/١٨٩.

والثاني: أنه ليس المراد بالخاص والعام هاهنا المصطلح عليه في الأصول، بل كل ما كان الأول فيه شاملاً للثاني.

وهذا الجواب أحسن من الأول؛ لعمومه بالنسبة إلى كل مجموع يشتمل على متعدِّد»(١).

- أن ذكر الخاص بعد العام يختلف عن الإيضاح بعد الإبهام من وجهين:

الأول: أن ذكر الخاص بعد العام يجيء بحرف العطف، وليس كذلك الإيضاح بعد الإبهام.

الثاني: أنه هنا يذكر فيه العام أولاً، والإيضاح بعد الإبهام يُذكر فيه المجمل(٢)، والله تعالى أعلم.

المطلب الثالث

التكرار

التكرار لغة: مصدر كرر إذا ردَّد وأعاد(٣).

واصطلاحاً: إعادة اللفظِ أو مرادفِه لتقرير معنى(٤).

ويأتي التكرار في الألفاظ والجمل والموضوعات، وغيرها، وهو موضوع تحدث عنه كثير من المفسرين والبلاغيين، ومع تفاوت الآراء فيه، إلا أن التفصيل في تقسيم التكرار، وما هو الوارد منه في القرآن يزيل اللبس في نفيِ وجودِه، وأن له مواضع يحسن فيها، ومواضع يقبح فيها.

ومن حيث القسمة العقلية، فلا يخلو التكرار من كونه: تكرار اللفظ والمعنى، أو تكرار المعنى دون اللفظ، أو تكرار اللفظ دون المعنى.

---

(١) البرهان ٢/ ٤٦٩.

(٢) البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني ٥٠٤.

(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة ٥/ ١٢٦، لسان العرب ٥/ ١٣٥.

(٤) ينظر: البرهان ٣/ ١٠، التعريفات ٩٠.

أما تكرار اللفظ والمعنى، بمعنى المطابقة التامة، فهذا لا يكاد يوجد في كتاب الله؛ لأن التكرار بهذه الطريقة لا فائدة فيه، بل يُعتبر عَيْباً في الكلام، وهذا من الأسباب التي جعلت المنكرين يبالغون في الإنكار، فيُنزَّه كتاب الله تعالى عنه.

وهذا ما جعل العلماء يؤلفون كثيراً في المتشابه اللفظي لبيان الفرق المعنوي[(١)].

وأما تكرار المعنى دون اللفظ فهو كثير في القرآن ولكنه لا يُعتبر تكراراً بالمعنى الحقيقي، ففي كل أسلوب زيادة في المعنى لا توجد في الموضع الآخر.

وأما تكرار اللفظ دون المعنى، فلا يكاد يخلو منه كلام، ولا يَسْتغنِي عنه متكلِّم، ووجودُه في الكلام من أساليب البلاغة، وهو محور الحديث في هذا المبحث.

ومن تأمل في كتاب الله تعالى وجد التَّكرار في مواضعه المناسبة عادةً من عادات بلاغة القرآن، كما هي سنة العرب في كلامها.

قال ابن قتيبة: «وأما تكرار الكلام من جنس واحد وبعضه يجزئ عن بعض، كتكراره في: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ [الكافرون]، وفي سورة الرحمٰن بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرَّحمٰن]، فقد أعلَمْتُك أنّ القرآن نزل بلسان القوم، وعلى مذاهبهم، ومن مذاهبهم التكرار: إرادة التوكيد والإفهام»[(٢)].

وقال ابن فارس: «وسنن العرب التكرير والإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر»[(٣)].

وقال الزركشي: «وقد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة، ظناً أنه

---

(١) مثل: درة التنزيل للإسكافي، وملاك التأويل لابن الزبير، وأسرار التكرار في القرآن للكرماني، وكشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، وغيرها.
(٢) تأويل مشكل القرآن ١٤٩.
(٣) الصاحبي في فقه اللغة ١٥٨.

لا فائدة له، وليس كذلك، بل هو من محاسنها، لا سيما إذا تعلق بعضه ببعض، وذلك أن عادة العرب في خطاباتها إذ أبهمت بشيء إرادةً لتحقيقه وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء عليه كررته توكيداً، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم عليه، أو الاجتهاد في الدعاء عليه، حيث تقصِد الدعاء؛ وإنما نزل القرآن بلسانهم، وكانت مخاطباته جاريةً فيما بين بعضهم وبعض، وبهذا المسْلَك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة»[(١)].

وخلاصة القول: أن التكرار اللفظي ـ محل الحديث ـ أسلوب استخدمه العرب لأغراض متعددة، وهذا لا يعني أن تكرار اللفظ هو تكرار المعنى، بل تكرار اللفظ يضيف معنى جديداً، يُفهَم من سياق الكلام، ومن طريقة الأداء، ومن مقتضى الحال والمقام، فلا يخلو من فائدة وغرض بلاغي، سيتضح من خلال الأمثلة بإذن الله.

فعادة القرآن التكرار اللفظي، وكذلك التكرار المعنوي، وهنا التركيز على الأول، وأما الثاني فسيأتي في مبحث تكرار القصص بإذن الله تعالى في موضعه.

وفي القرآن لا يخلو تكرار لفظي من فائدة، ولاكتشاف فوائده لا بد من النظر في سياق الكلام، فقد يظهر في موضع ما لا يظهر في الآخر، أو يُقتَصر على جزءٍ في موضعٍ يكمّله الموضع الآخر.

وهذه بعض الأمثلة على التكرار اللفظي في القرآن معنونةً ببعض فوائده، ومنها:

١ ـ التأكيد.

وهذا الغرض يصاحب جميع مواضع التكرار، فمهما نَأت فوائد التَّكرار في القرآن فالتعليل بالتأكيد هو الأولى لتدبر القرآن على مقتضاه، بل لو لم تكن الإعادة لتقرير المعنى السابق لم يكن من التكرار[(٢)].

قال الرازي: «التكرار لأجل التأكيد كثير في القرآن»[(٣)].

---

(١) البرهان ٣/ ٩، وينظر: الإتقان ٢/ ١٤٤.
(٢) ينظر: البرهان ٣/ ١٠.
(٣) تفسير الرازي ١/ ١٦٦.

وقال القاسمي: «ووراء التأكيد سر أخص منه، وهو أن العرب متى ثبت أول كلامهم على مقصد، ثم اعترضها مقصد آخر، وأرادت الرجوع إلى الأول، قصدت ذكره: إما بتلك العبارة أو بقريب منها، وذلك عندهم مهيع من الفصاحة مسلوك، وفي كتاب الله تعالى مواضع في هذا المعنى»(١).

ومن الأمثلة:

ـ قوله تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المؤمنون].

فهذا التكرار لاستبعاد البعث، حيث قال الله عن المنكرين للبعث قبلها: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المؤمنون].

قال أبو السعود: «﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ تكرير لتأكيد البعد؛ أي: بُعْدُ الوقوع أو الصحة»(٢).

وكرر أيضاً: أنَّكم؛ لاستبعاد الوقوع.

ـ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة].

المعنى: أنهم يفشون السلام بينهم، فيسلمون سلاماً بعد سلام(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾ [الفجر].

قال السمرقندي: «قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا﴾؛ يعني: حقاً ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾؛ يعني: زلزلت الأرض زلزلة، والتكرار للتأكيد»(٤).

قال الرازي: «واعلم أن التكرار في قوله: ﴿دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾ معناه: دكاً بعد دك؛ كقولك: حسبته باباً باباً، وعلمته حرفاً حرفاً؛ أي: كرر عليها الدك حتى صارت هباءً منثوراً»(٥).

فالمراد بالتكرار التأكيد والدلالة على الاستيعاب.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٨].

---

(١) تفسير القاسمي ٢/ ١٨٨.
(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ١٣٤.
(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٥٩.
(٤) تفسير السمرقندي ٣/ ٥٥٧.
(٥) تفسير الرازي ٣١/ ١٥٨، ينظر: الدر المصون ١٠/ ٧٩١.

قال البيضاوي: «﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تأكيد لقوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وتشنيع عليهم وبيان»[١].

وقال النسفي[٢] ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تأكيد لقوله: هو من الكتاب وزيادة تشنيع عليهم»[٣].

وهذا التأكيد جاء بمعنى أوسع من الأول، وذلك أن الأول نفي للأخص، ثم عُطف عليه النفي الأعم، وهذا تأكيد لفظ مع زيادة معنى.

قال الرازي: «واعلم أن من الناس من قال: إنه لا فرق بين قوله: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وبين قوله: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وكرر هذا الكلام بلفظين مختلفين؛ لأجل التأكيد، أما المحققون فقالوا: المغايرة حاصلة، وذلك لأنه ليس كل ما لم يكن في الكتاب لم يكن من عند الله، فإن الحكم الشرعي قد ثبت تارة بالكتاب، وتارة بالسُّنَّة، وتارة بالإجماع، وتارة بالقياس، والكل من عند الله»[٤].

وقال أبو حيان: «﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ رد عليهم في إخبارهم بالكذب، وهذا تأكيد لقوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ نفي أولاً أخص، إذ التعليل كان لأخص، ونفي هنا أعم؛ لأن الدعوى منهم كانت الأعم؛ لأن كونه من عند الله أعم من أن يكون في التوراة أو غيرها»[٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾ [المدَّثر].

قال البغوي: «كرره للتأكيد»[٦].

---

(١) تفسير البيضاوى ٢/ ٥٦.

(٢) هو: عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي أبو البركات الحنفي، مفسر، من أهم تصانيفه: «مدارك التنزيل وحقائق التأويل في التفسير»، و«كنز الدقائق في الفقه»، و«المنار في أصول الفقه»، مات سنة (٧١٠هـ)، له ترجمة في: الجواهر المضية ١/ ٢٧٠، الدرر الكامنة ٣/ ١٧، طبقات الأدنه وي ص٢٦٣.

(٣) تفسير النسفي ١/ ١٦٢.

(٤) تفسير الرازي ٨/ ٩٥.

(٥) البحر المحيط ٢/ ٥٢٨.

(٦) تفسير البغوي ٨/ ٢٦٩.

ومثله قال ابن الجوزي[١]، والنسفي[٢]، وابن جزي[٣].

وقال أبو السعود: «﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠﴾ تكرير للمبالغة، وثم للدلالة على أن الثانية أبلغ من الأولى»[٤].

قال ابن قتيبة:

«قال الله ﷻ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [التّكاثر].

وقال: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح].

وقال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٥﴾ [القيامة].

وقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٨﴾ [الانفطار].

كلّ هذا يراد به التأكيد للمعنى الذي كرّر به اللفظ»[٥].

٢ ـ أن لا يُنسَى الأول إذا طال الفاصل.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨٨﴾ [آل عمران].

كرر: لا تحسبن لوجود الفاصل بينهما.

قال الفراء: «﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ فردّ (تَحْسَبَنَّ) مرّتين ومعناهما ـ والله أعلم ـ لا تحسبنّ الذين يفرحون بما أتوا بمفازة من العذاب، ومثله كثير في التنزيل وغيره من كلام العرب»[٦].

وقال مكي: «وحسب الثاني مع المصدر للتأكيد، ولطول القصة»[٧].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝٢٥٣﴾ [البقرة].

---

(١) زاد المسير ٨/٤٠٦.
(٢) تفسير النسفي ٤/٢٩٥.
(٣) التسهيل ٣/٢٥١.
(٤) تفسير أبي السعود ٩/٥٨.
(٥) تأويل مشكل القرآن ١٥٠.
(٦) معاني القرآن ٢/٤١٨.
(٧) الهداية إلى بلوغ النهاية ٢/١١٩٨، وينظر: التسهيل ١/٢٢٨.

كرر: ولو شاء لطول الفاصل بينهما.

قال الزمخشري: «﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ كرره للتأكيد»[١].

وقال ابن جزي: «﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ كرره تأكيداً، وليبني عليه ما بعده»[٢].

- وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف].

كرر: رأيتهم تأكيداً لما بينهما من الفاصل.

قال الماوردي: «وفي إعادة قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ وجهان:

أحدهما: تأكيداً للأول لبعد ما بينهما قاله الزجاج.

الثاني: أن الأول رؤيته لهم والثاني رؤيته لسجودهم»[٣].

قال ابن جزي: «﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ كرر الفعل لطول الكلام»[٤].

وقال القاسمي: «﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها، فلا تكرير، أو تأكيد للأولى تطرية لطول العهد»[٥].

٣ - التفخيم والتهويل.

- كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾ [الحاقَّة].

كُررت الحاقة لتعظيم شأنها وتهويل أمرها.

قال أبو حيان: «وما: استفهام لا يراد حقيقته؛ بل التعظيم، وأكثر ما يربط بتكرار المبتدأ إذا أريد؛ يعني: التعظيم والتهويل»[٦].

- وقوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ [القارعة].

تكرار لتفخيم شأن القارعة، وكل ما جاء على مثل هذا السياق.

---

(١) الكشاف ١/ ٣٢٦.
(٢) التسهيل ١/ ١٦٤.
(٣) النكت والعيون ٣/ ٧.
(٤) التسهيل ٢/ ١١.
(٥) تفسير القاسمي ٦/ ١٤٦.
(٦) البحر المحيط ٨/ ٣١٥.

قال السمين: «﴿ٱلْحَاقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٢﴾ ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ لا يكون ذلك إلَّا في مواضعِ التعظيم»[(١)].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾ [القدر].

ففي تكرار ذكر ليلة القدر تفخيم لشأنها ومكانتها.

قال أبو السعود: «وفي إظهار ليلة القدر في الموضعين من تأكيد التفخيم ما لا يخفى»[(٢)].

٤ ـ إظهار العناية والاهتمام.

وهذا عام لكل مكرر في القرآن، فتكرار اللفظ يُعطِيه أهميةً وعناية خاصة، وهذه عادة العرب[(٣)]، فما تكرار أسماء الله تعالى وصفاته، وآياته ومخلوقاته، والأوامر والنواهي، والوعد والوعيد، وغيرها، إلا للعناية بها.

ـ ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة].

كرر: [أُولَئِكَ]؛ للاهتمام بهم، ورفع شأنهم وتمكنهم من وصفهم.

قال السمين: «وكرر ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ تنبيهاً أنهم كما ثَبَتَت لهم الأُثْرَةُ بالهُدَى ثَبَتت لهم بالفلاح، فجُعِلت كل واحدةٍ من الأُثْرَتَيْنِ في تميُّزِهم بها عن غيرِهم بمثابةِ لو انفردت لَكَفَتْ مُمَيِّزة على حِدَتها»[(٤)].

وقال أبو حيان: «كرر ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ ليقع كل خبر منهما في جملة مستقلة، وهو آكد في المدح إذ صار الخبر مبنياً على مبتدأ»[(٥)].

ـ وقوله جل وعلا: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨٨﴾ [التوبة][(٦)].

---

(١) الدر المصون ١٠/ ١٩٤.

(٢) تفسير أبي السعود ٩/ ١٨٢، وينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٦، البحر المحيط ٨/ ٤٩٢.

(٣) الصاحبي في فقه اللغة ١٥٨.

(٤) الدر المصون ١/ ١٠٣.

(٥) البحر المحيط ١/ ١٦٩.

(٦) ينظر: البرهان ٣/ ١٣.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ [الواقعة].

فالسابقون الثانية: تأكيد مع إضافة معان أخرى؛ كالتعظيم، والاهتمام، وفي هذا الترغيب لهذا السبق.

قال ابن جزي: «﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ الأول مبتدأ، والثاني خبره، على وجه التعظيم؛ كقولك: أنت أنت، أو على معنى: أن السابقين إلى طاعة الله هم السابقون إلى الجنة، وقيل: إن السابقون الثاني صفة للأول، أو تأكيد»[(١)].

٥ ـ الوعيد والتهديد.

ـ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [النَّبأ].

ـ وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [التَّكاثر].

ففي التكرار هنا وعيد وتهديد أشد وأبلغ مما لو اكتفي بالآية الأولى[(٢)].

قال الماوردي: «﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [التَّكاثر] هذا وعيد وتهديد، ويحتمل أن يكون تكراره على وجه التأكيد والتغليظ»[(٣)].

وقال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾ زجر ووعيد، ثم كرر تأكيداً، ويأخذ كل إنسان من الزجر والوعيد المكررين على قدر حظه من التوغل فيما يكره، هذا تأويل جمهور الناس»[(٤)].

وقال ابن الجوزي: «﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ وعيد على إثر وعيد»[(٥)].

وقال ابن كثير: «﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التَّكاثر] هذا تفسير الوعيد المتقدم، وهو قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا

---

(١) التسهيل ٣/ ١١٨.
(٢) ينظر: أسرار التكرار ٢٤٥، وينظر: الدر المصون ١١/ ٩٧.
(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٣١.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٨٩، وينظر: تفسير أبي السعود ٩/ ٨٦.
(٥) زاد المسير ٩/ ٥.

سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ [التكاثر]»[١].

وقال القاسمي: «﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [النبأ] ردع للمتسائلين ووعيد لهم»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ [القيامة].

في هذا التكرار زيادة زجر وتهديد.

قال الطبري: «هذا وعيد من الله على وعيد»[٣].

وقال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ﴾ وعيد ثان، ثم كرر ذلك تأكيداً، والمعنى: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ﴾ الازدجار والانتهاء»[٤].

وقال ابن جزي: «﴿أَوۡلَىٰ لَكَ﴾ وعيد وتهديد ﴿فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ وعيد ثان، ثم كرر ذلك تأكيداً»[٥].

وقال النسفي: «﴿أَوۡلَىٰ لَكَ﴾ بمعنى: ويلٌ لك، وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكره، ﴿ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ كرر للتأكيد، كأنه قال: ويل لك فويل لك، ثم ويل لك فويل لك، وقيل: ويل لك يوم الموت، وويل لك في القبر، وويل لك حين البعث، وويل لك في النار»[٦].

قال ابن جماعة[٧]: «قوله تعالى: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ وأما تكراره فإما تأكيد له، أو أن الأول للدنيا، والثاني للآخرة؛ أي: ويل له فيهما. والله أعلم»[٨].

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ٤٧٤.
(٢) تفسير القاسمي ٩/ ٣٨٨.
(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٨٢.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٩.
(٥) التسهيل ٣/ ٢٦٠.
(٦) تفسير النسفي ٤/ ٣٠١.
(٧) هو: محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي، بدر الدين، أبو عبد الله الشافعي، قاض، عالم بالحديث وسائر علوم الدين، من تصانيفه: «المنهل الروي في الحديث النبوي»، و«كشف المعاني في المتشابه من المثاني»، و«غرة البيان لمن لم يسم في القرآن»، مات سنة (٧٣٣هـ)، له ترجمة في: شذرات الذهب ٦/ ١٠٥، فوات الوفيات ٢/ ٢٩٢.
(٨) كشف المعاني في المتشابه من المثاني ٣٦٩.

٦ ـ تعدد المتعلق؛ لتنوع الغرض الذي يبرز من خلال كلِّ قولٍ مكرَّر.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرَّحمٰن].

فقد وردت في سورة الرحمٰن إحدى وثلاثين مرة، والصواب أن كل واحدة تتعلق بما قبلها، وذلك أن الله خاطب بها الثقلين، وعدد عليهم نعمه، وأعقب كل قصة من هذه بتقرير الثقلين وتعجيزهم لقيام الحجة عليهم، فتكررت الآية بتكرر القضايا(١).

قال ابن الجوزي: «فإن قيل ما الفائدة في تكرار قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾؟ الجواب: أن ذلك التكرير لتقرير النعم وتأكيد التذكير بها»(٢).

وقال أبو حيان: «ولمَّا عدَّد تعالى نعمه، خاطب الثقلين بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر].

تكرر أربع مرات في سورة القمر.

قال ابن عطية: «وفائدة تكرار قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ التأكيد والتحريض وتنبيه الأنفس»(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ [القمر]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾ [القمر].

جاء هذا التكرار بعد كل قصة تختلف في أحداثها عن الأخرى، مما يدل على اختلاف متعلقها.

قال ابن عطية: «وفائدة تكرار قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ [القمر]، التخويف وهز النفس»(٥).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ [المرسلات].

---

(١) ينظر: ملاك التأويل ٢/ ٤٦٤.

(٢) زاد المسير ٨/ ١١٠.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٨٩.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٧.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٧.

تكررت عشر مرات في سورة المرسلات، وذلك أن الله ذكر قصصاً مختلفة، وأعقب كل قصة بهذه الآية، والقصص متغايرة، وكل آية ويل لمن كذب بها، فالمتعلق مختلف بينها.

قال أبو حيان: «﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾ [القمر]، توكيد وتوبيخ ذلك عند الطمس، وهذا عند تصبيح العذاب.

قيل: وفائدة تكرار هذا، وتكرار: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر]، التجرد عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين، للاتعاظ واستئناف التيقظ إذا سمعوا الحث على ذلك لئلا تستولي عليهم الغفلة، وهكذا حكم التكرير لقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرَّحمٰن]، عند كل نعمة عدها في سورة الرحمٰن. وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ [المرسلات]، عند كل آية أوردها في سورة والمرسلات، وكذلك تكرير القصص في أنفسها، لتكون العبرة حاضرة للقلوب، مذكورة في كل أوان»(١).

٧ ـ الترغيب أو الترهيب.

ـ ومن الأمثلة على الترغيب قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧].

كرر هنا للتأكيد، وإفادة أن الإحسان الأول هو الفعل، والثاني هو الجزاء عليه، ترغيباً في الثواب والجزاء، وأن ذلك عائداً للمحسن، وفضل الله واسع.

قال الماوردي: «﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾؛ لأن الجزاء بالثواب يعود إليها، فصار ذلك إحساناً لها»(٢).

قال الرازي: «قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] كرر الإحسان مبالغة في ذكر محاسنهم»(٣).

وقال ابن جزي: «﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أحسنتم الأول: بمعنى

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٨٠.
(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٣٠.
(٣) تفسير الرازي ١٩/٢٥.

الحسنات، والثاني: بمعنى الإحسان»[١].

وقال البقاعي: «﴿أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ فإن ذلك يوجب كوني معكم فأكسبكم عزاً في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما»[٢].

ـ ومن الأمثلة على الترهيب قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠﴾ [المعارج].

أي: لا يسأل القريب عن حاله، وهو يراه في أسوأ الأحوال، فتشغله نفسه عن غيره[٣]، وهذا من تصوير الموقف بما يدعو إلى الرهبة منه، والاستعداد للنجاة فيه.

قال ابن قتيبة: «أي: لا يسأل ذو قرابة عن قرابته؛ ولكنهم ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾ [المعارج: ١١]؛ أي: يُعَرَّفُونهم»[٤].

وقال الزركشي: «﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠﴾؛ أي: عن حميم لذهوله عنه»[٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠].

فكرر السيئة في الآية مرتين تأكيداً لسوئها وسوء عاقبتها، وإن كان المجازاة من الله ليست سيئة، ولكن سميت لمقابلة سببها، أو أنها سيئة تسوء صاحبها عند الجزاء، عدلاً من الله وحكمة، لا زيادة فيها ولا نقص.

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ﴾ قال الزجاج: سمى العقوبة باسم الذنب.

قال القاضي أبو محمد: وهذا إذا أخذنا السيئة في حق الله تعالى بمعنى المعصية، وذلك أن المجازاة من الله تعالى ليست سيئة إلا بأن سميت باسم موجبتها، وأما إن أخذنا السيئة بمعنى المعصية في حق البشر؛ أي: يسوء هذا

---

(١) التسهيل ٢/ ٩٩، وينظر: البحر المحيط ٦/ ١٠.

(٢) نظم الدرر ٤/ ٣٤٨.

(٣) ينظر: تفسير البغوي ٨/ ٢٢٢، تفسير ابن كثير ٨/ ٢٢٤.

(٤) غريب القرآن ٤٨٥.

(٥) البرهان ٤/ ١٦٥.

هذا ويسوء الآخر، فلسنا نحتاج إلى أن نقول: سمى العقوبة باسم الذنب، بل الفعل الأول والآخر: سيئة»[١].

وقال ابن جزي: «﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ سمى العقوبة باسم الذنب، وجعلها مثلها تحرزاً من الزيادة عليها»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ١٣٠﴾ [الشعراء].

تأكيد بأن بطشهم عن ظلم وتكبر، دل عليه لفظ البطش، والتجبُّر.

والمراد: إذا بطشتم كان البطش بطش الجبارين، وهذه من الصفات المذمومة التي تنفر منها الطباع السليمة.

قال الزمخشري: «﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم﴾ بسوط أو سيف كان ذلك ظلماً وعلواً»[٣].

وقال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ١٣٠﴾ المعنى: إذا ضربتم ضربتم بالسياط ضرب الجبارين، وإذا عاقبتم قتلتم، وإنما أنكر عليهم ذلك؛ لأنه صدر عن ظلم، إذ لو ضربوا بالسيف أو بالسوط في حقٍّ ما ليموا»[٤].

إلى غير ذلك من الأغراض والفوائد التي لا تنقضي، فسبحان الحكيم العليم.

وبعد التأمل في هذا المبحث تبين لي:

١ ـ أن أهم فائدة من فوائد التكرار: هي التأكيد والتقرير، ويتبعها ما يتبعها من خلال التأمل في السياق.

قال الزركشي: «وفائدة التكرار العظمى: التقرير»[٥].

وقال القرطبي: «قال الله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾ [الرحمن]، ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥﴾ [المرسلات]، ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٤ ثُمَّ كَلَّا

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٣٦.
(٢) التسهيل ٣/٩.
(٣) الكشاف ٣/٣٣١، تفسير البيضاوي ٤/٢٤٨.
(٤) زاد المسير ٦/١٣٦.
(٥) البرهان ٣/١٠.

سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [النبأ]، ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح] كل هذا على التأكيد»[١].

٢ ـ أن الفوائد من التكرار غير التأكيد كثيرة، ولا يمكن حصرها بعدد، بل الذي يحدد ذلك السياق، وإنما يُحتاج إلى التكرار ويحسن استعماله في الأمور المهمَّة التي تعظم العناية بها، ويُخَاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها، أو الاستهانة بقدرها، ومن فوائده على سبيل الإجمال: التأكيد، والتعظيم والتفخيم، والوعيد والتهديد، وبيان النعمة والمنة، والتذكير، والترغيب، والترهيب، والعناية والاهتمام بالأمر، والإشارة إلى تعدد المتعلق، وغير ذلك لمن تدبر كتاب الله.

٣ ـ أن التكرار في القرآن جاء في آية واحدة، وفي آيتين متتاليتين، وفي آيات متفرقة، وجاء في الحرف، وفي الكلمة، وفي الجملة، ولكل تكرار فائدة، وقد اهتم العلماء بهذا الموضوع استنباطاً وتأليفاً، وهو من أعظم ما يعين على تدبر القرآن.

٤ ـ أن التكرار أعم من التأكيد؛ لأنه يشمل تكرار التأسيس، وهو أبلغ من التأكيد.

ولذا جعل بعض المفسرين هذه الأمثلة من التأسيس لا التأكيد، وبهذا تجتمع الأقوال كما سبق، فإن التكرار يشمل نوعي التأكيد: اللفظي، والتأسيسي، فمن قال إنه تأكيد، فمراده تأكيد الأمر بتكرار الإنشاء، لا أنه تأكيد لفظي مجرد، ولو كان تأكيداً لفظياً لما فُصِل بالعطف، ولا بغيره[٢].

ومما يقوي هذه النتيجة القاعدة المشهورة: التأسيس أولى من التأكيد، وذلك بالنظر إلى اختلاف المتعلق بها قبلها.

ويؤيدها كذلك القاعدة التي سبقت الإشارة إليها: أن الزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى.

فعادة القرآن: تكرار اللفظ لزيادة المعنى.

---

(١) تفسير القرطبي ٢٠/٢٢٦.

(٢) ينظر: البرهان ٣/١٢.

وكما أن الإيجاز والاختصار في موضعه المناسب بلاغة، فكذلك الإطناب بالتكرار في موضعه المناسب بلاغة، فصار القرآن مرجع البلاغة ومنبعها.

٥ ـ التكرار فيه مراعاة مقتضى الحال، وهذا ظاهر في أسلوب القرآن.

فالقرآن الكريم خاطب جميع الناس على اختلاف عقولهم وقلوبهم، فمنهم المصدق وتكفيه الخلاصة من الكلام، ومنهم المعاند والمتكبر الذي يحتاج إلى تكرار وإقناع.

قال الجاحظ: «ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العربَ والأعْرَابَ أخرجَ الكلامَ مُخْرَجَ الإشارة والوحي والحذف، وإذا خَاطَبَ بني إسرائيل أو حكَى عنهم جعلَه مبسوطاً وزاد في الكلام»[1].

ـ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر].

كرر النداء للقوم ـ والله أعلم ـ مراعاة لحالهم، ورغبة في إقناعهم، واستمالة قلوبهم.

ـ وقوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم].

كرر النداء لأبيه مراعاة لحاله، ورغبة في استمالة قلبه لقبول الحق.

٦ ـ أن التكرار اللفظي في القرآن تكرار لما يحتاجه الخلق، فتكرار أسماء الله تعالى وصفاته، وأوامره ونواهيه، وآياته الكونية، وغيرها، تلبية لحاجةِ التَّالي، وما ينبغي له أن يصحَبَه بقلبه وجوارحِه بعد قراءته بلسانه.

---

(١) الحيوان ١/ ٩٤.

٧ ـ أنّ التكرار من أبرز جوانب البلاغة القرآنية وهو مظهر من مظاهر التحدِّي في كتاب الله المعجز الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الردّ، والله أعلم.

المطلب الرابع

التذييل

التذييل لغة: آخر كل شيء، مصدر ذيل للمبالغة، وذيَّل فلان ثوبه تذييلاً؛ أي: طوَّله[١].

واصطلاحاً: أن يؤتى بعد تمام الكلام وحسن السكوت عليه، بكلام مستقل في معنى الأول؛ تحقيقاً لدلالة منطوقه، أو مفهومه؛ ليكون معه كالدليل، ويظهرُ المعنى عند مَن لم يَفهم، ويَكمُل عند من عرفه[٢].

قال القزويني: «هو تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد»[٣].

وقال الباقلاني: «وهو ضرب من التأكيد»[٤].

وقد عُنِيَ بعض المفسرين بِبَيَان المناسبةِ بين الجمل، أو بين الآيات، أو بين السور واستنبطوا وجوهَ ارتباطٍ دقيقة.

فالجملة قد تكون تأكيداً لما قبلها، أو بياناً، أو تفسيراً، أو اعتراضاً تذييلياً، ولهذا أمثلتُه الكثيرة[٥].

ومن خلال التعريف؛ فمكان التذييل عند العرب كالختم في نهاية الحديث عن موضوع هام، فيُقَرَّر للسامع بطريقة التذييل، وهو من أسباب الإطناب المحمُود؛ لكونه بياناً وكمالاً للمعنى، ولذا جاء في القرآن كثيراً، **ومن أمثلته**:

---

(١) ينظر: لسان العرب ١١/ ٢٦٠.
(٢) ينظر: الطراز ٣/ ١١١، البرهان ٣/ ٦٨، الإتقان ٢/ ١٦٠.
(٣) الإيضاح في علوم البلاغة ٢٠٠. (٤) إعجاز القرآن ١٥٥.
(٥) مباحث في علوم القرآن ٩٧.

ـ قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف].

فقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، جملةٌ مفيدة اكتملَ معناها، والمراد: تعظَّموا عن قبول الآيات، وهو أعظمُ الكبر أن يتهاون العبد برسالة ربه بعد تَبيُّنِها.

وقوله بعدها: ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾، كلام مستقل؛ أي: قوماً يعملون بما يكرهه الله من المعاصي والفسق عتوّاً وتمرّداً كفاراً[1]، فلذلك استكبروا عنها وتجرؤوا على ردّها[2]، فالجملةُ الثانية تذييلٌ لتأكيد مضمون ما قبلها، فأفادت زيادة في المعنى.

قال الرازي: «﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ مصرين على الجرم والذنب»[3].

وقال الفيروزآبادي: «ونبّه بقوله: ﴿مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ أن حامِلَهم على ذلك ما تقدَّم من جُرمهم، وأنَّ ذلك دأْبهم لا أَنه شيء حادث منهم»[4].

وقال أبو السعود: «﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ جملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها»[5].

ـ وقوله جل وعلا: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المؤمنون].

فقوله: ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾؛ أي: وصْفُهُم العلو والقهر والفساد في الأرض؛ فلهذا صدر منهم الاستكبار، وذلك غيرُ مستَكثَر منهم، فهذه الجملة تذييل لما قبلها؛ تقريراً لمعنى الجملة الأولى[6].

وقال أبو السعود: «﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾، متكبرين متمردين، ﴿فَقَالُوٓا۟﴾[7] عطف على ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، وما بينهما اعتراض مقرر للاستكبار؛

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ١٣/ ٧٠.
(٢) ينظر: الكشاف٢/ ٣٤٣.
(٣) تفسير الرازي ١٤/ ١٧٨.
(٤) بصائر ذوي التمييز ٤/ ٣٢٥.
(٥) تفسير أبي السعود ٣/ ٢٦٥.
(٦) ينظر: ملاك التأويل ٢/ ٢٦٤، تفسير السعدي ٥٥٢.
(٧) تمام الآية: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون].

أي: كانوا قوماً عادتهم الاستكبار والتمرد»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزُّخرف].

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: تذييل؛ أي: فذلك شأن الأمم مع الرسل، وقوله: ﴿مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ جعل التذييل هنا من التفسير(٢).

قال ابن عاشور: «﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ جملة معترضة لتسلية النبي ﷺ على تمسك المشركين بدين آبائهم، والإشارة إلى المذكور من قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾؛ أي: ومثل قولهم ذلك، قال المترفون من أهل القرى المرسَل إليهم من قبلك»(٣).

ويُقسَّم التذييل في القرآن قسمين:

القسم الأول: ما يجري مجرى المثل: إذا كان مستقلاً بنفسه لإفادة المراد، فيشتهِر المعنى بكثرة دورانه على الألسنة، لإرادة العبرة والتأسي(٤).

ـ كقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر].

فالجملة الأخيرة تذييل؛ لاشتمالها على تحقيق مضمون ما قبلها، وجرت مجرى المثل، فلا يُخصَّص مضمونها بمخاطب معين(٥).

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ تذييل؛ لتحقيق هذه الأخبار، بأن المخبر بها هو الخبير بها وبغيرها، ولا يخبرك أحد مثل ما يخبرك هو.

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/١٣٦.
(٢) ينظر: البرهان ٣/ ٧٠.
(٣) التحرير والتنوير ٢٥/١٨٨.
(٤) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة ٢٠٠، البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني ٥١٠.
(٥) ينظر: البرهان ٣/ ٦٩، الإتقان ٢/ ١٦٠.

وعبّر بفعل الإنباء؛ لأن النبأ: هو الخبر عن حدث خطير مهم.

والخطاب في قوله: ﴿يُنَبِّئُكَ﴾ لكل من يصح منه سماع هذا الكلام؛ لأن هذه الجملة أرسلت مرسل الأمثال فلا ينبغي تخصيص مضمونه بمخاطب معين»[١].

القسم الثاني: ما لا يجري مجرى المثل لعدم استقلاله بإفادة المراد، وتوقُّفِه على ما قبله.

وفائدته: تحقيقُ ما قبله وتأكيدُه.

- كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ].

ففي الآية جملتان:

الأولى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾، والمراد: بهم أصحاب سد مأرب - سبأ - كان لهم جنتان عن يمين وشمال، فأعرضوا وجحدوا نعم الله، فعاقبهم الله وأبدلهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل، وهذا معنى هذه الآية، ثم جاءت الجملة الثانية: وهي قوله جل وعلا: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ تذييل يؤكّد مفهوم الجملة التي جاءت قبلها، وهي ممّا لا يجري المثل، إذ المعنى: لا نجزي مثل هذا الجزاء المعجّل الشامل إلّا من كان كفوراً، فإذا جعلنا الجزاء عاماً كان الثاني مفيداً فائدة زائدة[٢].

قال القزويني: «﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾، فالمعنى: وهل يجازى ذلك الجزاء إلا الكفور»[٣].

وقد اجتمع مثال القسمين في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ﴾ [الأنبياء].

في هذه الآية إطناب بالتذييل في موضعين، كلُّ واحد منهما محققٌ لفائدتها، ودالٌّ على مضمونها.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٤٠.
(٢) ينظر: البرهان ٣/ ٦٩.
(٣) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة ٢٠٠.

أولهما قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ وهذا تذييل لم يجر مجرى المثل.

فهذا الاستفهام وارد على جهة الإنكار عليهم في زعمهم الخلود، وأراد أنه لا تتصور أن تكون أنت ميتاً، وهم خالدون بعدك، فإذا كان لا خلود لك مع ما اختصصت به من المكانة والزُّلْفة عند الله تعالى فهم أحق بالانقطاع والزوال لا محالة.

والثاني قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وهو جار مَجْرَى المثل[(١)].

فهذا أيضاً توكيد لقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾؛ لأن هذا العموم قاطع لكل ظنٍّ يطمع بالخلود[(٢)].

واجتمع مثال القسمين أيضاً في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة].

فمثال القسم الأول:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ تذييل خرج مخرج المثل؛ لتحقيق ما سبقه من حقيقة الوعد، وأنه لا أحد أوفى من الله.

قال الرازي: «﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ وهو غاية في التأكيد»[(٣)].

وقال أبو السعود: «﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من حقيقة الوعد على نهج المبالغة في كونه سبحانه أوفى بالعهد من كل واف»[(٤)].

ومثال القسم الثاني:

قوله تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ تحقيق لما قبلها وتأكيد له، فالكلام قد

---

(١) ينظر: بغية الإيضاح ١/١٩٦.

(٢) ينظر: الطراز لأسرار البلاغة ٣/١١١. (٣) تفسير الرازي ١٦/١٦٠.

(٤) تفسير أبي السعود ٤/١٠٥.

تم وكمل قبل ذلك، ثم أتت هذه الجملة للتذييل، ولم تخرج مخرج المثل، فسبحان المتكلم بهذا الكلام.

قال الزجاج: «نصب وَعْداً على المعنى؛ لأن معنى قوله: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ وعُدُهم الجنة وعداً عليه حقاً»[(١)].

وقال ابن عطية: «وقوله سبحانه: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدر مؤكد؛ لأن ما تقدم من الآية، هو في معنى الوعد، فجاء هو مؤكداً لما تقدم من قوله: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾»[(٢)].

وقال السمين: «قوله: ﴿وَعْدًا﴾ منصوبٌ على المصدر المؤكد لمضمون الجملة؛ لأنَّ معنى ﴿ٱشْتَرَىٰ﴾ معنى وعدَهم بذلك، فهو نظير: هذا ابني حقاً»[(٣)].

ويُقَسَّم التذييل باعتبار تأكيده لمنطوق الكلام السابق أو مفهومه إلى قسمين:

القسم الأول: أن تكون الجملة الثانية تأكيداً لمنطوق الجملة الأولى؛ بأن يكون فيه اشتراك بين الجملتين في اللفظ.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء].

في هذه الآية إطناب على طريقة التذييل، فالجملة الأولى بيان لمجيء الحق وزهوق الباطل، ثم أكد هذا بالجملة الثانية، لتكون كالدليل عليها، ويظهر المعنى فيها ويكتمل، فأكدت منطوق الجملة التي جاءت قبلها، وعبارتها ممّا يجري مجْرى المثل[(٤)].

ـ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ].

في هذه الآية جملتان:

الأولى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٢/ ٤٧١.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٩٩.
(٣) الدر المصون ٦/ ١٢٨.
(٤) ينظر: البرهان ٣/ ٦٩.

الثانية: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ١٧﴾، وهي تأكيد لمنطوق الجملة الأولى.

لأن حاصل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾، ظاهرُه وصريحُه يدلان على أن الوجه في استحقاقهم لما استحقوه من نزول العذاب إنما كان من أجل كفرهم؛ لأن قوله: ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ تعليلٌ للجزاء من أجلِ الكفر، فقوله بعده: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ١٧﴾، تقريرٌ وتأكيد لما سبق من الجملة الأولى وتحقيق لها؛ لأنه دال عليها ومحقق لفائدتها[1].

القسم الثاني: أن تكون الجملة الثانية تأكيداً لمفهوم الجملة الأولى؛ أي: يكونَ التأكيدُ لمعناها دون أن يكونَ بين الجملتين اشتراكٌ لفظي.

- كما في قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ٦﴾ [النساء].

فتذييل الآية بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ٦﴾، تأكيد لمفهوم الآية قبله.

قال القاسمي: «﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ٦﴾ [النساء]؛ أي: كافياً في الشهادة عليكم بالدفع والقبض، أو محاسباً، فلا تخالفوا ما أمركم به، ولا يخفى موقع هذا التذييل هنا، فإن الوصي يحاسب على ما في يده.

وفيه وعيدٌ لوليّ اليتيم وإعلام له أنه تعالى يعلم باطنه كما يعلم ظاهره، لئلا ينوي أو يعمل في ماله ما لا يحل، ويقوم بالأمانة التامة في ذلك إلى أن يصل إليه ماله»[2].

- وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾ [الأحقاف].

---

(١) ينظر: الطراز لأسرار البلاغة ٢/ ١١٩.

(٢) تفسير القاسمي ٣/ ٣٢.

ففي ذكر الإيمان بعد إيمان الشاهد بيانٌ لظلمهم، ومفهوم جواب الشرط هو اعترافهم بالظلم، فجاء تذييل الآية: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ لتثبيت مفهوم جواب الشرط وتوكيده، وهذا مشعر بأنَّ كفرهم به هو سبب ضلالهم المسبَّب عن ظلمهم.

وعادة القرآن التذييل في أواخر الآيات، وأمثلته كثيرة منها:

ـ قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة].

فقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ تذييل لتأكيد الفضل والمدح لمن جاءت صفاتهم في الآية، وأن المؤمن الحقيقي هو من اتصف بهذه الصفات(١).

قال ابن عطية: «ثم قوَّاه تعالى بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذه الألفاظ في غاية الإيجاز وبراعة المعنى»(٢).

وقال أبو السعود: «﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾؛ أي: الموصوفين بالنعوت المذكورة، ووضع المؤمنين موضع ضميرهم؛ للتنبيه على أن ملاك الأمر هو الإيمان، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك وحذف المبشر به للإيذان بخروجه عن حد البيان»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران].

ثم قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران].

ففي نهاية كل آيةٍ تذييلٌ للآية بعد انتهاء المعنى فيها، فقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾،

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٢١٩.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٠.
(٣) تفسير أبي السعود ٤/ ١٠٧.

جئنَ بعد تمام المعنى، فكُنَّ في موقع التذييل الذي أكد مضمون الآية وأكسبها جمالاً على جمالها، وهكذا ختام كثير من الآيات.

- وقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف].

- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف].

فقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾، تذييلٌ مسوق لبيان سوء حال المخاطبين وتحذيرهم؛ أي: ما تتعظون إلا قليلاً، وما مننَّا عليكم بذلك إلا لتشكروا الله بمتابعة ما أنزل إليكم، وترك من دونه، فإذا اتعظتم وشكرتم اتبعتم الحق، ودامت النعم[(١)].

- وقوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة].

قال أبو السعود: «﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ تذييل لما سبق، مقرر لمضمونه وفيه إيذان بأن إيتاء النبوة من فضله العظيم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ [الإسراء]، وأن حرمان من حرم ذلك ليس لضيق ساحة فضله، بل لمشيئته الجارية على سنن الحكمة البالغة»[(٢)].

ومن خلال أمثلة التذييل في القرآن تبين لي ما يأتي:

١ ـ أن للتذييل في القرآن موقعاً جليلاً، ومكاناً شريفاً؛ لأن المعنى يزدادُ به انشراحاً، والمقصدُ اتضاحاً.

٢ ـ أن في التذييل المناسبة بين ختام الآية ومضمونها، ومن الأدلة على ذلك: توقُّعُ معاذ بن جبل ﷺ لما جاء من تذييلٍ في آخر الآيات حين قال: فتبارك الله أحسن الخالقين، حيث ضحك رسول الله ﷺ بعد أن سمع هذه العبارة من معاذ، ولما سأله معاذ: مم ضحكت يا رسول الله؟ قال عليه

---

(١) ينظر: تفسير القاسمي ٥/ ٥، ١١.
(٢) تفسير أبي السعود ١/ ١٤٢.

الصلاة والسلام: «**بها ختمت**»(١).

٣ ـ ختام الآيات بأسماء الله تعالى وصفاته تذييل بما يكون حثاً على مضمونها، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة].

وتجلّى بعد التأمل في الآيات السابقة أن التوبة موضوع أساسي فيها، وقد صرح الله بذكرها في كل الآيات، فناسب تذييل الآيات بذكر اسم [التَّوَّابُ الرَّحِيمُ]، حثاً للعباد عليها، وترغيباً لهم فيها.

وسيأتي تفصيلٌ أكثر ـ بإذن الله ـ في مبحث اقتران أسماء الله تعالى ببعض.

٤ ـ أن الجملة التذييلية من المرجحات للمراد بمضمون الآية عند الخلاف في معناها، فمثلاً:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٥/٥٦ (٤٦٥٧)، وقال: لا يروى هذا الحديث عن زيد بن الحارث إلا بهذا الإسناد، تفرد به آدم، وقال الهيثمي: وفيه جابر الجعفي وهو ضعيف وقد وثق، وبقية رجاله رجال الصحيح. ينظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٦/٤٤٨، وروي أنه لما قرأها النبي ﷺ، قال عمر ﷺ: تبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾، أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٦/١٧ (٥٦٦٢)، وقال: لم يرو هذا الحديث عن سالم بن عجلان الأفطس إلا رباح بن أبي معروف، تفرد به بشر بن السري.

ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ [إبراهيم].

في المراد بأيام الله ثلاثة أقوال:

القول الأول: الأيام التي عَذب الله فيها الأمم السابقة، فتكون مختصةً بالنقمة والعذاب، وهو ما رجحه القاسمي[1].

القول الثاني: الأيام التي أنعم الله فيها على السابقين، فتكون مختصة بالنعمة، وهو ما رجحه الطبري[2]، وابن قتيبة[3].

القول الثالث: أنها تشتمل على كلا المعنيين، وممن ذهب إلى ذلك: الفراء[4]، والزجاج[5]، والرازي[6]، وابن عطية[7]، والبيضاوي[8]، والنسفي[9]، والقرطبي[10]، وأبو السعود[11]، وابن عاشور[12].

والراجح ـ والله أعلم ـ القول الأخير.

لأنه قول أكثر المفسرين أولاً، ولأن فيه إعمال القرآن بكل ما تحتمله ألفاظه ثانياً.

وعليه فيكون تذكيرهم بأيام الله يحمل معنى الترغيب والترهيب، فالترغيب يكون بتذكيرهم بنعم الله عليهم وعلى مَن قبلهم ممن آمن بالرسل، والترهيب بتذكيرهم بأس الله وانتقامه ممن كذبَ بالرسل فيما سلف من الأيام، ومما يرجحه: تذييل الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ إذ الصبرُ مناسب للزجر، لما في التخويف من الحث على ترك المعصية خِيفَة الوقوع في سوء العاقبة.

والإنعامُ يبعث النفسَ على الشكر.

---

(١) تفسير القاسمي ٤/ ٤٦٣.
(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٥٢٠.
(٣) غريب القرآن ٢٣٠.
(٤) معاني القرآن ٢/ ٦٨.
(٥) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ١٥٥.
(٦) تفسير الرازي ١٩/ ٦٦.
(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٦.
(٨) تفسير البيضاوي ٣/ ٣٣٨.
(٩) تفسير النسفي ٢/ ٢٢٣.
(١٠) تفسير القرطبي ٨/ ٣٨٦.
(١١) تفسير أبي السعود ٥/ ٣٣.
(١٢) التحرير والتنوير ١٣/ ١٩٠.

فكان ذكر الصبر والشكر في ذيل الآية مناسباً لمعنى البؤس والنعيم في أيام الله، والله أعلم(١).

قال الزمخشري: «﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝﴾ يصبر على بلاء الله ويشكر نعماءه، فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم، أو أفاض عليهم من النعم، تنبه على ما يجب عليه من الصبر والشكر واعتبر»(٢).

وقال ابن تيمية: «﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾، وهي تتناول أيام نعمه وأيام نقمه ليشكروا ويعتبروا»(٣).

٥ ـ إمكانية تقسيم التذييل باعتبارات مختلفة:

أ ـ كاعتبار جريانه مجرى المثل أو لا.

ب ـ أو اعتبار تأكيده لمفهوم ما سبقه أو منطوقه.

ج ـ أو اعتبار غرضه؛ كالتأكيد أو بيان السبب أو الحث أو التحذير، إلى غير ذلك من الأغراض.

٦ ـ من خلال النظر في أشعار العرب نجد أنهم أكثروا من التذييل، حتى صارت بعضُ أمثالِهم جزءاً من أبيات الشعراء.

ومن أمثلة ذلك، قوله المتنبي:

مَا كلُّ ما يَتَمَنّى المرء يُدْرِكُهُ ... تجري الرياح بما لا تشتهي السفن(٤)

فمراده: أن أعداءه يتمنون موته، ولا يدركون ما يتمنون، فالأمور تسير على عكس رغباتهم، فالرياح تجري، وليست برغبة السفن في كل أحوالها وجريانها؛ لأن السفن إنما ترضى بالرياح الطيبة، والمراد بالسفن: أهلها(٥).

---

(١) ينظر: تفسير الرازي ١٩/ ٦٧، زاد المسير ٤/ ٣٤٦، البحر المحيط ٨/ ٤٥، تفسير السعدي ٤٢١.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٠٨.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦/ ١٩٤.

(٤) ديوان المتنبي ٢/ ٢٣٥.

(٥) ينظر: شرح ديوان المتنبي ٢/ ٢٣٥، الأمثال السائرة من شعر المتنبي ٧٢.

فالشطر الثاني من هذا البيت تذييل، أكّدَ به الشاعر منطوق الشطر الأول منه، وقد جرى مثلاً على ألسنة العرب.

وكذا قول زهير:

تـراهُ إذا مـا جـئـتـهُ مـتـهـلـلاً كأنكَ تعطيهِ الذي أنتَ سائلُهْ[1]

أراد أن فرَحَهُ بما يعطي أكثر من فرحِهِ بما يأخذ، فزاد في وصف السخاء منه.

فالشطر الثاني من هذا البيت تذييل، أكّد به الشاعر منطوق الشطر الأول منه، فالتذييل من عادة العرب، والقرآن نزل بلغتهم، وأعجزهم، وجاء بهذا الأسلوب في أعلى صوَرِه، وغاية جماله، والله تعالى أعلم وأحكم.

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ٢٩.

الباب الثالث

عادات القرآن في تراكيبه

وفيه ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: عادات القرآن في قرن بعض الألفاظ ببعض.
- الفصل الثاني: عادات القرآن في قصصه.
- الفصل الثالث: عادات القرآن في خطاباته.

الفصل الأول

عادات القرآن
في قرن بعض الألفاظ ببعض

وفيه خمسة مباحث:

- المبحث الأول: قرن بعض الأسماء ببعض.
- المبحث الثاني: قرن بعض الآيات الكونية ببعض.
- المبحث الثالث: قرن بعض الأحكام ببعض.
- المبحث الرابع: قرن الترغيب بالترهيب.
- المبحث الخامس: ما يضاف إلى الله من الخير والشر.

المبحث الأول

قرن بعض الأسماء ببعض

وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: قرن بعض أسماء الله جل وعلا ببعض.
- المطلب الثاني: قرن بعض أسماء البشر ببعض.
- المطلب الثالث: قرن بعض الطوائف ببعض.

المطلب الأول

قرن بعض أسماء الله جل وعلا ببعض

جميع أسماء الله تعالى حسنى، وكلها عظمى، وأجلّ العلوم العلمُ بالله ﷻ، ومن العلم به سبحانه: العلمُ بأسمائه الحسنى، والحسنُ والعظمة في أسماء الله جل وعلا يدل عليه كل اسم بمفرده في موضعه، وباعتبار جمعه إلى غيره، فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر، واقترانهما كمال فوق الكمال.

وقد أمر الله بدعائه بأسمائه؛ لما تحمله من المعاني التي تدل على كماله، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

كما أن من صفات الله ﷻ صفاتٍ تحصل من اقتران الأسماء.

قال ابن القيم: «مِن صفات الله ﷻ صفةٌ تحصل من اقتران الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما، نحو: الغني الحميد، والعفو القدير، والحميد المجيد، وكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغِنَى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناءٌ من غِنَاه وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذا العفو القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمله فإنه من أشرف

المعارف»[١].

وقال السعدي: «عليك بتتبعها في جميع الآيات المختومة بها، تجدها في غاية المناسبة، وتدلك على أن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته، ومرتبط بها، وهذا بابٌ عظيم في معرفة الله ومعرفة أحكامه، وهو من أجل المعارف، وأشرف العلوم»[٢].

وقد جاء ختام الآيات باقتران الأسماء في غاية المناسبة، تدركُ ذلك العقول السليمة، والفطر القويمة.

ومما يؤيد هذا: أنه عندما سمع بعض الأعراب قارئاً يقرأ: والله غفور رحيم، مكان قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾، في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة]، فقال الأعرابي: ليس هذا كلام الله، فقال: أتكذِّب بكلام الله؟ فقال: لا، ولكن لا يحسن هذا؛ فرجع القارئ إلى خطئه، فقال: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾، فقال: صدقت[٣].

فعادة القرآن قرْن أسماء الله تعالى كثيراً ـ وذلك في مواضعِهِ أبلغ ـ وخاصةً في أواخر الآيات.

قال الرازي: «إذا قُرن بغيره صار أبلغ، نحو قولنا: حي، فإذا قيل: الحي القيوم، أو الحي الذي لا يموت، كان أبلغ»[٤].

ومن الأمثلة على اقتران الأسماء الحسنى:

□ أولاً: اقتران الرحيم بالغفور:

ورد اقتران اسم الله تعالى الرحيم باسمه الغفور في كتابه الكريم في واحد وستين موضعاً؛ اثنين وأربعين موضعاً بلفظ: غفور رحيم، وخمسة عشر موضعاً بلفظ: غفوراً رحيماً، وسبعة بلفظ: الغفور الرحيم، وسبعة بلفظ: لغفور رحيم.

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٦١.

(٢) القواعد الحسان لتفسير القرآن ٥٩.

(٣) ينظر: أسماء الله الحسنى ٢٩٦.

(٤) تفسير الرازي ٢٢/ ١٢.

والغفور: صيغة مبالغة؛ وذلك لكثرة غفرانه تبارك وتعالى، وأصل الغفر: التغطية والستر، غفر الله له ذنوبه؛ أي: سترها، وتقول العرب: اصبغ ثوبك بالسواد فهو أغفر لوسخه(١).

ومن أسماء الله جل وعلا الغفور بمعنى: الساتر لذنوب عباده، المتجاوز عنها(٢).

قال السعدي: «العفو، الغفور، الغفار: الذي لم يزل ولا يزال بالعفو معروفاً، وبالغفران والصفح عن عباده موصوفاً، كل أحدٍ مضطر إلى عفوه ومغفرته، كما هو مضطر إلى رحمته وكرَمه»(٣).

والرحيم: فعيل بمعنى فاعل؛ أي: راحم، وبناءُ فعيل للمبالغة(٤)، والمعنى: أنه المثيب على العمل فلا يُضيع لعاملٍ عملاً، بل يُعطيه أضعاف عمله.

ومن أمثلة ذلك:

- قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة].

قال السعدي: «الإنسان في هذه الحالة مأمور بالأكل، بل منهي أن يلقي بيده إلى التهلكة، وأن يقتل نفسه، فيجب إذاً عليه الأكل، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات، فيكون قاتلاً لنفسه، وهذه الإباحة والتوسعة من رحمته تعالى بعباده، فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾ [البقرة]... أخبر أنه غفور، فيغفر ما أخطأ فيه في هذه الحال خصوصاً وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة»(٥).

- وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء].

---

(١) ينظر: لسان العرب ٥/ ٢٥.
(٢) ينظر: مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ٨/ ١٩٧.
(٣) تفسير السعدي ٩٤٦.
(٤) ينظر: البحر المحيط ١/ ١٢٥.
(٥) تفسير السعدي ٢٠٦.

قال الطبري: «يخبر بذلك جل ثناؤه: أنه غفور لمن كان جمع بين الأختين بنكاح في جاهليته، وقبلَ تحريمه ذلك، إذا اتقى الله تبارك وتعالى بعدَ تحريمه ذلك عليه، فأطاعه باجتنابه، رحيمٌ به وبغيره من أهل طاعته من خَلْقِه»(١).

- وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام].

قال السعدي: «﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ لمن تاب إليه وأناب، يغفر له الذنوب، ويستر عليه العيوب، ويرحمه بأن يتقبل منه الطاعات، ويثيبه عليها بأنواع المثوبات»(٢).

- وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس].

في هذه الآية الحث على التعرض لرحمة الله بالطاعة، وعدم اليأس من غفرانه بالمعصية(٣).

قال القرطبي: «﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده وخطاياهم، ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ بأوليائه في الآخرة»(٤).

وقال أبو السعود: «﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ تذييل لقوله تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ إلخ، مقرر لمضمونه، والكل تذييل للشرطية الأخيرة محقق لمضمونها»(٥).

وقال السعدي: «﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لجميع الزلات، الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها العبد، غفر الله ذنوبه، كبارها، وصغارها.

---

(١) تفسير الطبري ٨/ ١٥٠.
(٢) تفسير السعدي ٣٠٧.
(٣) ينظر: تفسير البيضاوي ٣/ ٢١٨.
(٤) تفسير القرطبي ٨/ ٣٨٨.
(٥) تفسير أبي السعود ٤/ ١٨٠.

﴿ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى جميع الموجودات، بحيث لا تستغني عن إحسانه، طرفة عين»[(١)].

واقتران الرحيم بالغفور؛ لأن الإنسان محتاج إلى مغفرةٍ لذنوب وقعت منه، ولا يكون ذلك إلا برحمة من الله تسدده للصواب، ولا تعاجله بالعقاب.

ومن المعاني المستفادة من اقتران الرحيم بالغفور في القرآن:

- أن الرحمة مكمِّلة للمغفرة، فالمغفرة ستر وتغطية، والرحمة زيادةُ نعمةٍ وإحسان، وصرف للعذاب.

- أن مغفرته سبحانه من رحمته وهي علة لها.

ولذا كان دخول الجنة برحمة الله وفضله، كما جاء في الحديث: «**لن يدخل أحداً عمله الجنة**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة**»[(٢)].

فكمال مغفرة الله تعالى برحمته، والله أعلم.

ومن الحِكَم في تقديم [الْغَفُورُ] على [الرَّحِيمِ]:

١ ـ أن المغفرة تخْلِية والرحمة تحْلِية، والتخلية قبل التحلية.

٢ ـ أن المغفرة تبدأ في الدنيا بستر الذنب، وكمال ثمرتها بالرحمة في الآخرة، بدخول الجنة، فروعي الترتيب الزمني.

٣ ـ أن فيهما الترقي من الأدنى إلى الأعلى.

فالغفور متضمن للمغفرة، والرحيم متضمن للرحمة، وإذا اجتمعا كَمُل النعيم لمن وفِّق لهما، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝٥٨﴾ [الكهف].

---

(١) تفسير السعدي ٣٧٥.

(٢) أخرجه البخاري ٧/١٥٧ (٥٦٧٣)، كتاب الأشربة، باب نهي المريض تمني الموت، ومسلم ٤/٢١٦٩ (٢٨١٦)، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله عن أبي هريرة ﵁.

قال القاسمي: «وتقديم الوصف بالمغفرة على الرحمة؛ لأنه أهم بحسب الحال، إذ المقام مقام بيان تأخير العقوبة عنهم، بعد استيجابهم لها»(١).

٤ ـ أن دفع الشر مقدم على جلب الخير.

قال ابن القيم: «ولما كان دفع الشر مقدماً على جلب الخير قدم اسم الغفور على الرحيم حيث وقع»(٢).

وفي كل مواضع الاقتران قُدِّم [الْغَفُورُ] على [الرَّحِيمُ]، إلا في آية واحدة قدم فيها [الرَّحِيمُ] على [الْغَفُورُ]، هي قوله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [سبأ].

والسرُّ في هذا والله أعلم:

١ ـ أنه لما كان المقام في الآية مقام تفضل وإنعام، قدمت الرحمة على المغفرة؛ لأن المغفرة لا تكون إلا عن ذنب وتقصير، ولم يذكر في الآية تصريح بذلك، فقدَّم المناسب لمضمون الآية.

٢ ـ أن التقديم للرحمة باعتبار الفضل والكمال، وأن هذا هو غاية المكلفين، فسياق الآية يبين عِظَم صفات الله والثناء عليه، ومن كمال فضله ونعمته أنه الرحيم بهم.

قال ابن القيم: «وأما قوله: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ فالرحمة هنا متقدمة على المغفرة: فإما بالفضل والكمال، وإما بالطبع لأنها منتظمة بذكر أصناف الخلق من المكلفين، وغيرهم من الحيوان، فالرحمة تشملهم، والمغفرة تخصهم، والعموم بالطبع قبل الخصوص كقوله: ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨﴾ [الرَّحمٰن]، وكقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]»(٣).

---

(١) تفسير القاسمي ٧/ ٤٦. (٢) بدائع الفوائد ٢/ ١٣٣.

(٣) بدائع الفوائد ٢/ ١٠١، وقد أفاض ابن القيم في معنى تقديم الرحيم، وذكر كلاماً مفيداً يحسن الرجوع إليه.

٣ ـ أن الرحمة عامة لجميع الخلق من حيث الإنعام والإحسان، وهذا يشمل جميع الكائنات التي بيّن الله أنه مالكها وهو العليم بحالها، والمغفرة خاصة للمؤمنين، فهو تقديم للعام على الخاص؛ لانتظامه مع الآية.

قال الزركشي: «قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فإن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة، وإنما تأخرت في آية سبأ في قوله: ﴿ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [سبأ]؛ لأنها منتظمة في سلك تعداد أصناف الخلق من المكلفين وغيرهم، وهو قوله: ﴿مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ فالرحمة شملتهم جميعاً، والمغفرة تخص بعضاً، والعموم قبل الخصوص بالرتبة»[1].

٤ ـ قال ابن القيم: «وقدم الرحيم في هذا الموضع لتقدم صفة العلم فحسن ذِكْر الرحيم بعده ليقترن به فيطابق قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]»[2].

٥ ـ أن من جملة ما يقع على الأرض أعمال المكلفين، وكذلك من جملة ما يعرج إلى السماء أعمال المكلفين، ففي تقديم الرحمة إشارة إلى أن هذه الأعمال مهما بلغ حسنها لا تكافئ نعم الله على العبد، ولكنها طريق الوصول إلى رحمته ومغفرته، وأن رحمة الرحيم هي سبيل دخول الجنة والفوز برضا الله تعالى.

❐ ثانياً: اقتران العليم بالسميع:

اقترن هذان الاسمان في القرآن في واحد وثلاثين موضعاً، خمسة عشر موضعاً بلفظ: السميع العليم، وخمسة عشر موضعاً بلفظ: سميع عليم، ومرة: سميعاً عليماً.

والسميع: فعيل بمعنى فاعل للمبالغة؛ أي: السامع، وهو الذي يسمع السر وأخفى، ويأتي بمعنى: الاستجابة، كما قال ﷺ: «**اللَّهُمَّ إني أعوذ بك**

---

(١) البرهان ٣/ ٢٤٩.

(٢) بدائع الفوائد ٢/ ١٣٣.

من قلب لا يخشع، ومن دعاء لا يسمع...»[١]؛ أي: من دعاء لا يستجاب، ومن هذا قول المصلي: سمع الله لمن حمده[٢].

والعليم: فعيل بمعنى عالم وهو من أمثلة المبالغة في وصفه بكمال العلم[٣]، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾ [يوسف] فهو العالم بالسرائر والخفيات، التي لا يدركها علم الخلق، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١١٩﴾ [آل عمران]، ووصْفُ غيره بالعلم ينصرف إلى نوع من العلوم دون نوع، وفي حال دون حال، وتَعْرِض عليهم الآفات والنسيان، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، ولكن علم الله كامل لم يسبقه جهل ولا يلحقه نسيان، قال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾ [الطّلاق][٤].

ومناسبة اقتران هذين الاسمين تختلف من آية إلى أخرى، وذلك لاختلاف موضوع الآية، وعلى سبيل المثال:

- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ [البقرة].

هذه الآية في شأن الدعاء، ولذا ناسب أن يختم الدعاء بالتوسل إلى الله سبحانه باستجابة الدعاء بهذين الاسمين، فالسميع بمعنى السامع للدعاء، أو المجيب له، والعليم بحال الداعي وحاجته.

قال ابن عاشور: «وجملة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ تعليل لطلب التقبل منهما»[٥].

وقال السعدي: «وأما قول الخليل وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٨٢)، كتاب الدعوات، وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢/ ١٦٥: صحيح.

(٢) معنى سمع: استجاب. ينظر: آداب المشي إلى الصلاة ٣٩.

(٣) التحرير والتنوير ١/ ٤١٥.

(٤) ينظر: مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ٣/ ١٩٠، ٤/ ١٤٦.

(٥) التحرير والتنوير ١/ ٧١٩.

من البيت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ فإنه توسلٌ إلى الله بهذين الاسمين إلى قبول هذا العمل الجليل، حيث كان الله يعلم نياتهما ومقاصدهما، ويسمع كلامهما، ويجيب دعاءهما فإنه يراد بالسميع في مقام الدعاء ـ دعاء العبادة ودعاء المسألة ـ معنى المستجيب، كما قال الخليل في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم]»[1].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾ [البقرة].

ففي هذه الآية جاء اقتران الاسمين تهديداً ووعيداً لمن بدل الوصية.

قال القرطبي: «صفتان لله تعالى لا يخفى معهما شيء من جَنَف[2] الموصين، وتبديل المعتدين»[3].

وقال السعدي: «وفيه التحذير للموصى إليه من التبديل»[4].

والجامع للحكمة في جميع مواضع اقتران [السَّمِيعُ الْعَلِيمُ] والله أعلم:

أن اقتران هذين الاسمين إذا جاء في آيات الدعاء أشعر بقربه تعالى؛ فيستحضر الداعي سمع الله تعالى للداعين المتضمن لعلمه بحاجاتهم وإجابتهم.

وإذا اقترنا في آيات الجزاء، أفاد التحذير والإنذار، فالله جل وعلا يسمع أقوالهم، ويعلم أعمالهم الصالحة وغيرها، وهو المجازي لهم.

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة]: «واعلموا أن الله سميع لقولهم، وعليم بهم وبغيرهم، وبما هم عليه مقيمون من الإيمان والكفر والطاعة والمعصية محيط بذلك كله، حتى أجازي كُلّاً بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر»[5].

ـ ومن الآيات التي اقترن فيهما هذا الاسمان قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا

---

(١) القواعد الحسان ٤٤.

(٢) الجَنَفُ: الميل، يقال: جَنَفَ وأَجْنَفَ إذا مالَ وجارَ، ينظر: لسان العرب، مادة: (جنف) ٩/ ٣٢.

(٣) تفسير القرطبي ٢/ ١٨٠.

(٤) تفسير السعدي ٢١٩.

(٥) تفسير الطبري ٥/ ٢٨١.

يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف].

- وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصّلت].

والمراد: في أي وقت أو حال تُحِس بوسوسة الشيطان فالتجئ واعتصم بالله، فإنه سميع لما تقول، عليم بما في صدرك.

فختم جل وعلا أمره بالاستعاذة من الشيطان بالجمع بين [السَّمِيعُ الْعَلِيمُ]، فهو مَن يُلجأ إليه لكمال سمعه وعلمه، المتضمن لإجابته وعصمته لمن التجأ إليه.

ووجه التعريف في سورة فصلت، والتنكير في سورة الأعراف:

مراعاة سياق الآيات قبلها، فسورة الأعراف تقَدَّم فيها قبل الآية وصف آلهتهم بأنها لا تخلق شيئاً ولا يستطيعون لهم نصراً، ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف]، فنفى عنهم القدرة والسمع والبصر وآلة المشي، وآلة البطش بقوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ﴾ [الأعراف: ١٩٥]، ولم يتقدم ما يوهم أدنى شيء يلحقها بشبه الأحياء، فضلاً عما فوق ذلك فورد الصفتان بقوله: سميع عليم.

وأما آية فصِّلت فتقدم قبلها قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [فصّلت]، وقوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصّلت: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [فصّلت: ٢٩]، فحصل من هذا أن مضليهم إنما كانوا من عالم الإنس والجن، وكلا الصنفين موصوف بالسمع والبصر وممن ينسب إليه علم، بخلاف المقدم ذكره في الأعراف، فلمَّا تقدم في سورة فصلت من يُظن منه الغنى، ويمكن منه أن يسمع ويبصر ويعلم، ناسبه التعريف في الصفة ليعطِي بالمفهوم نفيُ ذلك عن غير الموصوف بهما تعالى(١).

---

(١) ينظر: ملاك التأويل ١/ ٣١٢، ٣١٣.

وقال ابن جماعة: «آية الأعراف نزلت أولاً، وآية السجدة نزلت ثانياً، فحسن التعريف؛ أي: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٦﴾ [فصّلت]، الذي تقدم ذكره أولاً عند نزوغ الشيطان»(١).

ولم يأت في القرآن: عليم سميع، فللّه الحكمة البالغة.

قال ابن القيم: «ذكر السميع أوقع في باب التخويف من ذكر العليم؛ فهو أولى بالتقديم»(٢).

وقد اقترن بالسميع من أسماء الله أيضاً: البصير.

جاء اقتران السميع بالبصير في أحد عشر موضعاً، أربعة بلفظ: السميع البصير، وأربعة بلفظ: سميع بصير، وثلاثة بلفظ: سميعاً بصيراً.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء].

قال البغوي: «ذكر [السَّمِيعُ] لينبه على أنه المجيب لدعائه، وذكر [الْبَصِيرُ] لينبه على أنه الحافظ له في ظلمة الليل»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٦١﴾ [الحج].

ختم بـ[سَمِيعٌ] للدلالة على أنه مع إدخال الليل بالنهار والنهار بالليل يسمع كل الأصوات باختلاف اللغات والحاجات، و[بَصِيرٌ] للدلالة بأنه مع سمعه سبحانه يرى دبيب النملة السوداء، تحت الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝١٣٤﴾ [النساء].

أي: سميعاً لأقوالهم، بصيراً بأعمالهم ونياتهم، فناسب معناهما حال

---

(١) كشف المعاني ١٩٣.
(٢) بدائع الفوائد ٢/١٠١.
(٣) تفسير البغوي ٥/٥٨.
(٤) ينظر: تفسير السعدي ٥٤٣.

المذكورين في الآية[١].

قال الطبري: «وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾؛ يعني: وكان الله سميعاً لما يقول هؤلاء المنافقون الذين يريدون ثواب الدنيا بأعمالهم، وإظهارهم للمؤمنين ما يظهرون لهم إذا لَقُوا المؤمنين، وقولهم لهم: آمنا.

﴿بَصِيرًا﴾؛ يعني: وكان ذا بصر بهم وبما هم عليه منطوون للمؤمنين، فيما يكتمونه ولا يبدونه لهم من الغش والغِلّ الذي في صدورهم لهم»[٢].

☐ ثالثاً: اقتران الرحيم بالتواب:

اقترن هذان الاسمان في كتاب الله تعالى في تسعة مواضع، في الآيات التالية:

- قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة].

- وقوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة].

- وقوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة].

- وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة].

- وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة].

- وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة].

- وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء].

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٣/ ٣٨٤. (٢) تفسير الطبري ٩/ ٣٠١.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات].

والتواب: صيغة مبالغة، هو الذي يتوب على عبده ويقبل توبته، وكلما تكررت التوبة تكرر القبول.

قال السعدي: «وتوبة الله على عبده نوعان: توفيقه أولاً، ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانياً»[(١)].

والرحيم: سبق بيانه، وهو دال على اتصاف الله بالرحمة، والنعم والإحسان، وخيرات الدنيا والآخرة، كلها من آثار رحمته.

قال أبو حيان: «الرحيم: فعيل محول من فاعل للمبالغة»[(٢)].

وقال أبو السعود: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ مبالغ في قبول التوبة وإفاضة الرحمة حيث يجعل التائب كمن لم يذنب، ولا يخص ذلك بتائب دون تائب، بل يعم الجميع وإن كثرت ذنوبهم»[(٣)].

وبعد التأمل في الآيات التي ختمت بـ [التَّوَّابُ الرَّحِيمُ] فإن التوبة موضوع أصلي فيها، وقد صرح الله بذكرها في الآيات التي خُتمت بهذين الاسمين، فختامها بالتواب الرحيم حث على التوبة ووعد بقبولها، فناسب ختام الآية مضمونها.

ومن حِكَم اقتران اسم [الرَّحِيمُ] مع [التَّوَّابِ]:

١ ـ أن التوفيق للتوبة وقبولها من رحمة الله بعباده، وسبب لدفع العقوبة عنهم.

٢ ـ وهو من الترقي من الأدنى للأعلى.

---

(١) تفسير السعدي ٥٠.

(٢) البحر المحيط ١/ ١٢٥.

(٣) تفسير أبي السعود ٨/ ١٢٢.

٣ ـ أن فيه وعدٌ بعد التوبة بإفاضة الرحمة عليه وآثارها؛ من دخول الجنة وغير ذلك.

قال الطبري: «وأما قوله: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، فإنه يعني: أنه المتفضل عليه مع التوبة بالرحمة، ورحمته إياه إقالة عثرته وصفحه عن عقوبة جرمه»(١).

وقال أبو السعود: «**التوَّاب**: أي الرجَّاع على عباده بالمغفرة أو الذي يكثر إعانتهم على التوبة، وأصل التوب: الرجوع، فإذا وصف به العبد كان رجوعاً عن المعصية، وإذا وصف به الباري عز وعلا: أريد به الرجوع عن العقاب إلى المغفرة.

الرحيم: المبالغ في الرحمة، وفي الجمع بين الوصفين وعدٌ بليغ للتائب بالإحسان مع العفو والغفران»(٢)، والله أعلم.

❑ رابعاً: اقتران القيوم بالحي:

القيوم: لم يرد في القرآن إلا مقروناً باسم الحي، في ثلاث مواضع من القرآن، وهي:

- قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].
- وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران].
- وقوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۝١١١﴾ [طه].

وهذان الاسمان الكريمان يدلان على سائر الأسماء الحسنى دلالة مطابقة وتضمن ولزوم.

فالحي: من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات؛ كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك، فحياة الله جلا وعلا حياة لم يسبقها عدم، ولا يلحقها زوال، ومن أجل حياته كملت بقية أسمائه وصفاته، فلا يمكن لأحد أن يتصف بصفة كمال إلا إذا كان حياً، فجميع أسماء الله تدل على صفة الحياة التي تضمنها اسمه الحي.

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٥٤٨.

(٢) تفسير أبي السعود ١/ ٩٢.

والقيوم: هو الذي قام بنفسه وقام به غيره، فالله جل وعلا مستغن عن كل أحد، وكل أحد مفتقر إليه، فلا قوام لأحد إلا بالله، والله جلا وعلا غني كل الغنى عن جميع خلقه.

وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين من فعله ما يشاء، من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيُّومية الباري جل وعلا.

وقد كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: «**اللَّهُمَّ لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن...**»(١)، وفي رواية: «**قيَّام**»(٢)، وفي رواية: «**قيُّوم**»(٣). وهي ثلاث لغات(٤).

وهي من أبنية المبالغة، ومعناها: القَيّام بأُمور الخلق وتدبير العالم في جميع أَحواله(٥).

ولهذا قال بعض المحققين في الحي القيوم: إنهما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى(٦).

وقد روي عن النبي ﷺ أن الحي القيوم هو اسم الله الأعظم(٧)، مما

---

(١) أخرجه البخاري ٢/ ٦٠ (١١٢٠)، كتاب التهجد، باب التهجد بالليل، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجها مسلم ١/ ٥٣٢ (٧٦٩)، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه.

(٣) أخرجها عبد الرزاق في مصنفه ٢/ ٧٨ (٢٥٦٤)، كتاب الصلاة، باب استفتاح الصلاة.

(٤) ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال ٣/ ١٠٩.

(٥) ينظر: لسان العرب ١٢/ ٤٩٦.

(٦) ينظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٨/ ٣١١، تفسير السعدي ١١٠.

(٧) جاء من حديث أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هذه الآيتين: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة]، و﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران]، «**إن فيهما اسم الله الأعظم**» أخرجه أحمد ٤٥/ ٥٨٤ (٢٧٦١١)، وفي الباب عن أبي أمامة، عند ابن ماجه ٢/ ١٢٦٧ (٣٨٥٦)، كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم، وأخرجه الطبراني في الكبير ٨/ ١٨٣ (٧٧٧٤)، ولفظه: «**اسم الله** =

يُشير إلى أن الاسمين صارا كالاسم الواحد، فاقترانهما ببعض زاد كمالَهما.

فالحي القيوم فيه إثبات صفات الكمال، ونفي صفات النقص، وهذا من أبلغ طرق المدح عند السلف الصالح[1]، والله أعلم.

❐ وخلاصة البحث في اقتران أسماء الله تعالى في كتابه:

١ ـ أن كثرة اقتران الأسماء الحسنى في أواخر الآيات، تدل على أهمية هذا المبحث.

٢ ـ اقتران أسماء الله تعالى دليل على جانب من جوانب الكمال لله ﷻ، لدلالتهما على معنى ذي قدر زائد على مفرديهما.

فهو سبحانه [الْغَفُورُ الرَّحِيمُ] الغفور لمن تاب توبة نصوحاً، ولمن وقع في الذنب خطأ، الرحيم بهم حيث غفر لهم، وهذا من رحمة الله ﷻ بعباده.

وهو سبحانه: [السَّمِيعُ الْعَلِيمُ] السميع لأقوال القائلين بلا استثناء، العليم بأحوالهم علماً كاملاً، فيجازيهم على ذلك، إن خيراً فخيراً، وإن شراً فشراً، وهو البصير بكل المبصرات لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وهو سبحانه: [التَّوَّابُ الرَّحِيمُ] التواب: الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين، الرحيم: الذي وفق من شاء للتوبة وقبلها منهم.

وهو سبحانه: [الْحَيُّ الْقَيُّومُ] الحي: من له الحياة الكاملة المستلزمة لصفات الذات كلها، والقيوم: القائم بنفسه القائم بغيره المستلزم لصفات الأفعال، فانتظمت جميع الصفات في هذين الاسمين.

وهكذا باقي الأسماء الحسنى التي اقترنت في كتاب الله، كلها تؤدي إلى

= الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في سور ثلاث: البقرة وآل عمران وطه»، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/ ٣٨٢.

(١) ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٧/ ١٠٨، مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ٤/ ٦٩.

الكمال في المعاني، ولها في كل موضع دلالة، وهو باب واسعٌ للتدبر والتأمل.

قال ابن القيم: «فتأمله فإنه من أشرف المعارف»[١].

٣ ـ ختام الآيات باقتران الأسماء جاء في غاية المناسبة بين الختام والمضمون، يُدرك ذلك صاحب العقل الصحيح، والفطرة السليمة، وقد يُحذف الحُكم من الآية، ويدل عليه ختم الآية بالأسماء الحسنى، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة].

٤ ـ ليس بكثير أن يُفرَد لكل اسمين اقترنا في كتاب الله تعالى بحثاً كاملاً.

٥ ـ أسماء الله تعالى جاءت في القرآن:

ـ إما مفردة.

وهو في غالب الأسماء؛ كالرحمٰن، والسميع، والعليم، والملك، والقدوس، وغيرها.

ـ وإما مقترنة.

وهو كثير؛ كالسميع العليم، والغفور الرحيم، والحي القيوم، وغيرها[٢].

ومنها ما يحسن اقترانه بغيره؛ لأن كمال المعنى اللائق به سبحانه في الاقتران.

ـ ومن ذلك: الأول الآخر، والظاهر الباطن.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد].

في هذه الآية أربعة أسماء لله تعالى: الأول والآخر والظاهر والباطن،

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢٧٠.

(٢) ينظر: بدائع الفوائد ٢/ ٢٨١.

لم يأت أحدها منفرداً في القرآن، بل جاءت مقترنة ببعض، مما أفاد الكمال بين الضدين، فهو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء.

قال الرازي: «من الأسماء ما يكون مقارنتها أحسن؛ كقولك: الأول الآخر، المبدىء المعيد، الظاهر الباطن»(١).

ـ ومن ذلك اقتران العزيز بالحكيم.

لأنه سبحانه عز فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع.

كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة].

قال ابن الجوزي: «قال الأصمعي: قرأت هذه الآية، وإلى جنبي أعرابي، فقلت: والله غفور رحيم ـ سهواً ـ فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ قلت: كلام الله، قال: أعد، فأعدت: والله غفور رحيم، فقال: ليس هذا كلام الله، فتنبهت، فقلت: والله عزيز حكيم، فقال: أصبت، هذا كلام الله، فقلت له: أتقرأ القرآن؟ قال: لا، قلت: فمن أين علمت أني أخطأت؟ فقال: يا هذا عز فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع»(٢).

المطلب الثاني

قرن بعض أسماء البشر ببعض

نَصَّ القرآن على كثير من الأسماء بعينها، وأشار إلى صفاتِ كثيرٍ من البشر دون تعيينهم؛ ليعمَّ كل من اتصف بها، وهذا من عظمة هذا القرآن، ومن عادات القرآن اقتران الأسماء ببعضها، وتختلف مواضع اقتران الأسماء كثرةً بحسب العلاقة بينها، وسأبحث هنا الأمثلة على اقتران بعض أسماء البشر الواردة في القرآن والتحري للعلاقة بينها، ومن ذلك:

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ١٢، وينظر: تفسير اللباب ١٣/ ١٦٤.

(٢) زاد المسير ٢/ ٣٥٤، وينظر: البرهان ٣/ ٢٤٧.

❐ أولاً: اقتران موسى وهارون عليهما السلام:

جاء اقتران موسى وهارون في كتاب الله في مواضع كثيرة، فجُمع بينهما بالعطف أو بالضمير، أو بالذكر، **ومن أمثلة ذلك:**

- قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف].

- وقوله تعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه].

- وقوله تعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء].

أبدل [رَبِّ] الثاني من الأول لئلا يُتوهم أن المراد فرعون[١].

وفي النص على موسى وهارون مقترنين: إشارةٌ إلى أن الهداية كانت بسببهما، والله أعلم.

قال ابن عطية: «ووصلوا إيمانهم بسبب موسى وهارون، وصرحوا بأن ذلك على أيديهما؛ لأن قولهم: رب العالمين مُغْنٍ، فلم يكرروا البيان في قولهم: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ إلا لما ذكرناه»[٢].

وقال البيضاوي: «إبدالٌ للتوضيح، ودفع التوهم، والإشعار على أن الموجب لإيمانهم على أيديهما»[٣].

- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يونس].

- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ [المؤمنون].

والمراد: أن الله أرسل موسى بن عمران، كليم الله عليه السلام، وجعل معه أخاه هارون وزيراً استجابةً لسؤاله، حيث قال تعالى على لسان موسى:

---

(١) ينظر: تفسير البيضاوي ٣/٤٨. (٢) المحرر الوجيز ٤/٢٧٨.
(٣) تفسير البيضاوي ٤/٢٣٨.

﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠﴾ [طه][(١)].

- وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٧﴾ [يونس].

أي: أوحينا إلى موسى وأخيه أن اتخذا مباءةً لقومكما بمصر؛ بيوتاً تسكنون فيها وترجعون إليها للعبادة[(٢)].

- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الأنبياء].

- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١١٤﴾ [الصَّافات].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ولقد تفضلنا على موسى وهارون ابني عمران، فجعلناهما نبيين، ونجيناهما وقومهما من الغم والمكروه العظيم الذي كانوا فيه من عُبودة آل فرعون، ومما أهلكنا به فرعون وقومه من الغرق»[(٣)].

وقال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١١٤﴾؛ أي: أنعمنا عليهما بالنبوة»[(٤)].

وقال ابن كثير: «يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة، والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمده في حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم في أخس الأشياء، ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم، ثم أنزل الله على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين، وهو التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾، وقال هاهنا: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ۝١١٧ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١١٨﴾ [الصافات]؛ أي: في الأقوال والأفعال»[(٥)].

---

(١) ينظر: تفسير السعدي ٣٧٠، ٥٥٢.
(٢) ينظر: تفسير أبي السعود ٤/ ١٧١.
(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٩٣.
(٤) زاد المسير ٧/ ٧٩.
(٥) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٦.

ثم قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ [الصَّافات]، والآيات بعدها تتحدث عن موسى وهارون بالضمير المثنى العائد إليهما، فالمنَّة من الله تعالى عليهما كبيرة، فبَيْن موسى وهارون ارتباطٌ في السياق اللفظي لما بينهما من الارتباط العملي، إلى قوله تعالى في الآيات بعدها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الصَّافات].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾ [طه].

لما امتن الله على موسى بما امتن به، من النعم الدينية والدنيوية قال له: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾؛ أي: هارون ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾؛ أي: الحجج الدالة على الحق وحسنه، وقبح الباطل؛ كاليد، والعصا ونحوها، في تسع آيات إلى فرعون وملئه[1].

ففي هذه الآيات وغيرها التي قرن الله فيها بين موسى وهارون، دلالة على وجه علاقة بينهما.

ومن أسرار اقترانهما:

١ ـ أن موسى سأل الله أن يجعل له وزيراً من أهله، كما قال تعالى على لسانه: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾﴾ [طه]، وقد أجاب الله سؤله حيث قال سبحانه: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه].

وقد بيَّن الله تعالى سبب هذا السؤال في سورة الشعراء وفي سورة القصص حيث يقول سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الشعراء].

وقال جل وعلا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص].

---

(١) ينظر: تفسير السعدي ٥٠٦.

فبيَّن تعالى أنه أرسل موسى عليه السلام، وجعل معه أخاه هارون لشد عضده، ولما اجتمعا حقق الله لهما الحفظ والغلبة.

٢ ـ أن هارون هو الأخ الأكبر لموسى، فبينهما قرابة النسب[(١)]، وقرابة السكن، مما يؤدي إلى يسر التعاون بينهما، والاشتراك في أعمال الحياة والدعوة إلى الله.

٣ ـ أنه لقوة ارتباط هارون بموسى في الدعوة صارا كالواحد، حيث يقول الله تعالى على لسان فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ٤٩﴾ [طه].

٤ ـ أن الله أشركهما في الأمر بالذهاب والقول، حيث يقول جل وعلا: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ٤٢ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ٤٤﴾ [طه].

٥ ـ وأشركهما كذلك بالإيحاء والإيتاء حيث يقول تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٨٧﴾ [يونس]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ٤٨﴾ [الأنبياء].

قال السعدي: «فأخبر أنه آتى موسى أصلاً، وهارون تبعاً ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ وهي التوراة الفارقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال»[(٢)].

فتبين بهذا حضور هارون مع موسى في مواقف الدعوة كلها كما دلت الآيات[(٣)]، مما يجعل اقتران هارون بموسى اقتران الأخ بأخيه؛ بل زادت الأخوة لما اشتركا في الدعوة إلى الله، وقويت بمعية الله تعالى لهما وتأييده، حيث يقول جل وعلا: ﴿لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه]، والله تعالى أعلم.

□ ثانياً: اقتران فرعون وهامان:

جاء في القرآن اقتران فرعون وهامان في ستة مواضع، وهي كما يأتي:

---

(١) ينظر: تاريخ الأمم والرسل والملوك ١/ ٢٣١.

(٢) تفسير السعدي ٥٢٥.

(٣) ينظر: تفسير القرطبي ١١/ ٢٠٤.

- قوله تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص].

ووجه اقتران هامان بفرعون أنه وزيره ومعينه على الباطل، والدليل على ذلك ما يأتي من الآيات التالية.

قال أبو حيان: «﴿وَهَٰمَٰنَ﴾ وزير فرعون وأحد رجاله، وذُكِر لنباهته في قومه ومحله من الكفر، ألا ترى إلى قوله له: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ [غافر: ٣٦]»[١].

- وقوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾ [القصص].

فاجتمع فرعون وهامان ومن تبعهم على الخطأ.

قال البقاعي: «﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾؛ أي: كلهم على طبع واحد، ﴿كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾؛ أي: دأبهم تعمد الذنوب، والضلال عن المقاصد»[٢].

- وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣٨﴾ [القصص].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾؛ أي: أمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته أن يوقد له على الطين»[٣].

- وقوله تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ۝٣٩﴾ [العنكبوت].

بيَّن تبارك وتعالى أن موسى عليه السلام أُرسِل بالبينات إلى قارون وفرعون وهامان، وكان حالهم الاستكبار كمن سبقهم.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ١٠٠.
(٢) نظم الدرر ٥/ ٤٦٧.
(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٣٨.

ـ وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾﴾ [غافر].

فيها الاقتران بين هذه الأسماء للاشتراك في العمل الباطل، وطلب العون عليه.

❑ ثالثاً: اقتران موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما:

كثيراً ما يقرن الله تعالى في القرآن بين موسى ومحمد ﷺ.

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ [الإسراء].

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد، صلوات الله وسلامه عليه، عطف بذكر موسى عبده، وكليمه عليه السلام أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام وبين ذكر التوراة والقرآن»(١).

وقال أيضاً: «لما أخبر الله تعالى عن القرآن بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الأنعام: ١٥٤] وكثيراً ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف: ١٢]، وقوله في أول هذه السورة: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ [الأنعام: ٩١]، وبعدها ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقال تعالى مخبراً عن

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٤٥ ـ ٤٦، وينظر: ٥/ ٣٤٧.

المشركين: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٤٨]، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [القصص]، وقال تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف]»(١).

❑ رابعاً: اقتران داود وسليمان عليهما السلام:

قَرَن تعالى في كتابه بين داود وسليمان في ثماني مواضع، **ومن الأمثلة على ذلك:**

- قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنبياء].

- وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام].

- وقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء].

- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل].

- وقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل].

- وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص].

ووجه اقتران سليمان بداود، أنه من ذريته، وفهّمه الله الأحكام، وأنه ورثه في الحكم.

فسليمان عليه السلام من فضائل داود، ومن منن الله عليه حيث وهبه له، ومن

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٨.

أكبر نعم الله على عبده أن يهب له ولداً صالحاً، فإن كان عالماً فإنه نور على نور[(١)].

وفي ذكر داود وسليمان تسلية للرسول ﷺ، قال جل وعلا: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص].

قال ابن جزي: «داود وسليمان وأيوب أصابتهم شدائد ثم فرجها الله عنهم، وأعقبها بالخير العظيم، فأمر سيدنا محمداً ﷺ بذكرهم، ليعلِّمه أنه يفرج عنه ما يلقى من إذاية قومه، ويعقبها بالنصر والظهور عليهم، فالمناسبة في ذلك ظاهرة»[(٢)].

وقد أنعم الله على داود وسليمان بالحكم والعلم العظيم، بدليل التنكير في قوله تعالى:

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقاما بشكر الله على هذه النعمة فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾ [النمل].

قال السعدي: «وداود وسليمان من خواصِّ الرسل وإن كانوا دون درجة أولي العزم الخمسة، لكنهم من جملة الرسل الفضلاء الكرام الذين نوه الله بذكرهم ومدحهم في كتابه مدحاً عظيماً فحمدوا الله على بلوغ هذه المنزلة، وهذا عنوان سعادة العبد أن يكون شاكراً لله على نعمه الدينية والدنيوية، وأن يرى جميع النعم من ربه، فلا يفخر بها، ولا يعجب بها؛ بل يرى أنها تستحق عليه شكراً كثيراً، فلما مدحهما مشتركين خص سليمان بما خصه به لكون الله أعطاه ملكاً عظيماً وصار له من الماجريات ما لم يكن لأبيه صلى الله عليهما وسلم»[(٣)].

---

(١) ينظر: تفسير السعدي ٧١٢.
(٢) التسهيل ٢/ ٤٤٢.
(٣) تفسير السعدي ٦٠٢.

❏ خامساً: اقتران إسماعيل واليَسَع عليهما السلام:

ذُكِر اليسَع في القرآن مرتين واقترن بذكر إسماعيل، والآيات التي جاء فيها الاقتران هي:

- قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام].

- وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص].

ولم يأت الكلام في القرآن عن حياة اليَسَع، ورسالته، وأتباعه، وإنما اكتُفِي بعدِّه مع الرسل الكرام عليهم السلام الذين يجب الإيمان بهم إجمالاً وتفصيلاً، ولله في ذلك حكمة(١).

قال الطبري: «والصواب من القراءة في ذلك عندي، قراءةُ من قرأه بلام واحدة مخففة، لإجماع أهل الأخبار على أن ذلك هو المعروف من اسمه، دون التشديد، مع أنه اسم أعجمي، فينطق به على ما هو به»(٢).

وذكر المؤرخون تفاصيل ليس هذا محلها(٣).

فأهم أوجه اقتران أسماء الأنبياء:

المعنى الجامع بينهم وهو النبوة.

وأما تكرار الاقتران أو استمراره فلمعنى أكثر من النبوة، والله أعلم.

وقد ذكر بعض العلماء مراتب للأنبياء عند عدها في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ

---

(١) ينظر: تفسير البيضاوي ٥/ ٥٠، تفسير القرطبي ٧/ ٣٣، تفسير أبي السعود ٣/ ١٥٨، ولذا اختلف المفسرون في اسمه.

(٢) تفسير الطبري ١١/ ٥١١.

(٣) ينظر: البداية والنهاية ٢/ ٢٨٥.

﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام].

قال أبو حيان: «فهذه مراتب ست: مرتبة الملك والقدرة ذكر فيها داود وسليمان، ومرتبة البلاء الشديد ذكر فيها أيوب، ومرتبة الجمع بين البلاء والوصول إلى الملك ذكر فيها يوسف، ومرتبة قوة البراهين والمعجزات والقتال والصولة ذكر فيها موسى وهارون، ومرتبة الزهد الشديد والانقطاع عن الناس للعبادة ذكر فيها زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، ومرتبة عدم الأتباع ذكر فيها إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً»(١).

ولم يتبين لي في سرِّ اقتران إسماعيل واليسع، غير معنى النبوة، وعدم ذكر الأتباع، فأَكِلُ العلم إلى الله، وهو سبحانه أعلم وأحكم.

ومن الحكم المستنبطة في الاقتران بين أسماء البشر في القرآن:

- أن بينهما علاقة دينية أو دنيوية.
- أن في اقتران الأنبياء ببعض دلالة على النبوة، أو اشتراك في توصيل الرسالة.
- أن في اقتران أهل الباطل ببعض بيان اجتماعهم على الخطأ، وأن فيه أعواناً على الشر، كما أن هناك أعواناً على الخير.
- أن الإنسان يشرف بمن يُذكر معه، أو يُحتقر.
- أن من دواعي اقتران الأسماء:

١ ـ البنوة أو الأبوة أو عموم القرابة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام].

وقال تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ [مريم].

---

(١) البحر المحيط ٤/١٧٨.

٢ ـ الاشتراك في صفة.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ﴾ [الأنعام: ٨٤].

فسليمان وأيوب كلاهما قال الله تعالى فيهما: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾.

قال تعالى في سليمان: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص].

وقال تعالى في أيوب: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص].

فأيوب: هو العبد الصابر، وسليمان: هو العبد الشاكر، والصبر والشُّكر جِمَاع الإيمان.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ [الأنعام: ٨٤].

فيَجْمَع بينهما الاشتراك في الإنعام بعد البلوى، فكلاهما ممن أنعم الله تعالى عليه بعد الابتلاء.

ـ ويَجْمَع بين يحيى وعيسى استغراب الولادة.

فيحيى جاء من أبوين أحدهما شيخ والآخر عقيم، وعيسى جاء من أم بلا أب، وقد ذكرهما تعالى معاً في سورة آل عمران(١) ومريم(٢)، والله تعالى أعلم.

---

(١) المراد: قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ إلى أن قال: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران].

(٢) المراد قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم].

المطلب الثالث

قرن بعض الطوائف ببعض

جاء اقتران بعض الطوائف في القرآن، ولا يقرن بين اثنين ولا يفرق بينهما إلا لحِكْمة وفائدة، ومن أمثلة ما اقترن من الطوائف في القرآن:

□ أولاً: اقتران المؤمنين بالكفار:

بَيَّن الله جل وعلا في كتابه الحق والباطل، ودعا إلى الأول وحذر من الثاني، ولذا جاء الاقتران بين فريق الخير وفريق الشر كثيراً في القرآن؛ ليتضح الأمر أكثر، وتقومَ الحجة على العباد.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف].

قال ابن عطية: «في الآيةِ توعدٌ وتهديد؛ أي: فليختر كل امرئ لنفسه ما يجده غداً عند الله ﷻ»[(١)].

وقال ابن جزي: «ومعناه: أن الحق قد ظهر، فليختر كل إنسان لنفسه؛ إما الحق الذي ينجيه، أو الباطل الذي يهلكه، ففي ضمن ذلك تهديد»[(٢)].

وقال السعدي: «أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقين، بحسب توفيق العبد، وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئة بها يقدر على الإيمان والكفر، والخير والشر، فمن آمن فقد وفق للصواب، ومن كفر فقد قامت عليه الحجة، وليس بمكره على الإيمان، كما قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]»[(٣)].

فكثيراً ما يقرن الله تعالى في كتابه بين طائفة الحق وطوائف الكفر، وهذه المقابلات تغني عن التصريح بالأفضل من الفريقين لوضوحه.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٧.
(٢) التسهيل ٢/ ١٣٥.
(٣) تفسير السعدي ٤٧٥.

قال السعدي: «وهذه القاعدة في القرآن كثير، يذكرها في المقامات المهمة؛ كالمقابلة بين الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك.. ويذكر تباين الأوصاف التي يعرف العقلاء بالبداهة التفاوت بينها، ويدع التصريح بالمفاضلة للعقلاء»(١).

واقتران المؤمنين والكفار في كتاب الله تعالى كثيرٌ، ومن الأمثلة على ذلك:

- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة]، ثم جاء الحديث عن الكفار بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [البقرة].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: غطَّوا الحق وستروه، وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك، سواء عليهم إنذارك وعدمه، فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس]»(٢).

وقال السعدي: «﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة] والفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، حصر الفلاح فيهم؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم، وما عدا تلك السبيل، فهي سبل الشقاء والهلاك والخسار التي تفضي بسالكها إلى الهلاك.

فلهذا لما ذكر صفات المؤمنين حقاً، ذكر صفات الكفار المظهرين لكفرهم، المعاندين للرسول، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [البقرة]»(٣).

- وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥٧﴾ [البقرة].

---

(١) القواعد الحسان ١٣٥.
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١٧٣.
(٣) تفسير السعدي ٤٠.

وحّد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل: ٤٨]، إلى غير ذلك من الآيات[1].

- وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء].

- وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد]، ثم قال جل وعلا بعدها: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد]، ثم ختم سبحانه بيان الصفات بالترغيب حيث ذكر ثواب المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد].

- وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة].

نادى الله المؤمنين أن لا يتخذوا الكافرين أولياء، وهذا من مواضع الاقتران التي يُذكر فيها الفريقان تحذيراً لأهل الحق من أهل الباطل.

- وقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨].

ومن مواضعِ اقتران المؤمنين والكفار مواضعُ ذكرِ الجزاء:

- كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ١/ ٦٨٥.

أي: أفمن كان في الحياة الدنيا مؤمناً متقياً لله، كمن كان فاسقاً خارجاً عن طاعة الله؟ ﴿لَّا يَسْتَوُونَ﴾؛ أي: لا يستوون في الآخرة بالثواب والكرامة، كما لم يستووا في الدنيا بالطاعة والعبادة، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [القلم]؟

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن عدله وكرمه، أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة، من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسله، بمن كان فاسقاً؛ أي: خارجاً عن طاعة ربه، مكذِّباً لرُسُله إليه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر]؛ ولهذا قال تعالى ـ هاهنا ـ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة]؛ أي: عند الله يوم القيامة»(١).

ـ وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف]، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف].

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة، فلهم ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ والعدن: الإقامة»(٢).

ـ وأهل الحق ومن خالفهم على تنوُّع أشكالِهم فريقان، فإذا انتفى أحدهما ثبت الآخر، والإيمان والكفر لا يمكن أن يتساويا، ولكن هذه سُنَّة الله

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٦٩.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٦.

في الحياة، أن يجتمع الضدان ليتبين فضل الخير بمعرفة شر الضد.

فلما أشار تعالى إلى أنه يحكم بين الطوائف يوم القيامة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج]، ذكر فيها المؤمنين وخمس طوائف ضالة، ثم قال بعدها: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ [الحج].

قال ابن عاشور عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ﴾ [البقرة: ٤١]: «ولما كان الإيمان والكفر نقيضين إذا انتفى أحدهما ثبت الآخر، كان النهي عن أن يكونوا أول الكافرين يستلزم أن يكونوا أول المؤمنين»(١).

□ ثانياً: اقتران المؤمنين بالمنافقين:

ويتفرع من اقتران المؤمنين بالكفار، اقتران المؤمنين بالمنافقين على وجه الخصوص، وهو كثير في القرآن، **ومن الأمثلة على ذلك:**

- قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ [البقر]، ثم قال بعدها: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة].

قال ابن كثير: «لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة، ذكر صفات المؤمنين الحميدة، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ﴾»(٢).

- وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة]، ثم قال بعدها: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٤٤٥.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٤.

﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٧١﴾ [التوبة].

قال الرازي: «قوله في صفة المنافقين: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ يدل على أن نفاق الأتباع كالأمر المتفرع على نفاق الأسلاف، والأمر في نفسه كذلك؛ لأن نفاق الأتباع وكفرهم حصل بسبب التقليد لأولئك الأكابر، وبسبب مقتضى الهوى والطبيعة والعادة، أما الموافقة الحاصلة بين المؤمنين فإنما حصلت لا بسبب الميل والعادة، بل بسبب المشاركة في الاستدلال والتوفيق والهداية؛ فلهذا السبب قال تعالى في المنافقين: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ وقال في المؤمنين: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾»(١).

وقال ابن كثير: «لما ذكر الله تعالى صفات المنافقين الذميمة، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾؛ أي: يتناصرون»(٢).

- وقوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَٰفِقِينَ وَالْمُنَٰفِقَٰتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ۝٧٣﴾ [الأحزاب].

- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ الْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١٢﴾ [الحديد]، ثم قال بعدها: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَٰفِقُونَ وَالْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۝١٣﴾ [الحديد].

كلُّ هذه الأمثلة وغيرها؛ من ذكر الضدِّ بعد الضد: أسلوب من أساليب القرآن المؤثِّرة؛ فبالضد تتبين الأشياء.

- قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦١ اللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ۝٦٣﴾ [الزمر].

قال الزركشي: «وقوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ

(١) تفسير الرازي ١٦/ ١٠٤.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٧٤.

﴿ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦١﴾ [الزمر]، بقوله[١]: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ اعتراض واقع في أثناء كلام متصل، وهو قوله: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦١﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣﴾، وهو على مَهْيَع[٢] أسلوب القرآن؛ من ذكر الضد عقب الضد؛ كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء»[٣].

❑ ثالثاً: اقتران الجن والإنس:

بيَّن الله تعالى في كتابه حقائق عن الجن والإنس، وأُفردت سورة باسم الجن، وسورة باسم الإنسان، واقترنت هاتين الطائفتين كثيراً في القرآن.

قال الجاحظ: «وفي القرآن معان لا تكاد تفترق مثل: ... الجن والإنس»[٤].

- ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢﴾ [الأنعام].

فاقترن الجن والإنس لبيان أن للأنبياء من الإنس شياطين، ومن الجن شياطين.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ بدل من ﴿شَيَٰطِينَ﴾؛ أي: لهم أعداء من شياطين الإنس والجن، ومن هؤلاء وهؤلاء، قبحهم الله ولعنهم»[٥].

- وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ

---

(١) المراد والله أعلم: تعقيب الآية بقوله.
(٢) المهْيَع: الطريق الواسع الواضح، ينظر: معجم مقاييس اللغة ٦/ ٢٥.
(٣) البرهان ٣/ ٦٠.
(٤) البيان والتبيين ١/ ٢٧.
(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٩.

ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام].

اقترن الجن والإنس هنا للدلالة على استمتاع هؤلاء بهؤلاء.

قال القرطبي: «﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾؛ أي: من الاستمتاع بالإنس، فحذف المصدر المضاف إلى المفعول، وحرف الجر، يدل على ذلك قوله: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ وهذا يرد قول من قال: إن الجن هم الذين استمتعوا من الإنس؛ لأن الإنس قبلوا منهم. والصحيح أن كل واحد مستمتع بصاحبه»[(١)].

وقال ابن كثير: «ومعنى قوله: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾؛ أي: من إضلالهم وإغوائهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِىۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس]»[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

جاء الاقتران لتحدي الطائفتين عن الإتيان بمثل هذا القرآن، ولو كان بينهما من التعاون ما كان.

قال السعدي: «وهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع، على صحة ما جاء به الرسول وصدقه، حيث تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله، وأخبر أنهم لا يأتون بمثله، ولو تعاونوا كلهم على ذلك لم يقدروا عليه»[(٣)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الجنّ].

هذه الآية على لسان الجن بأنهم ما حسبوا أن الإنس والجن يكذبون في نسبة الصاحبة والولد إليه، ولما سمعوا القرآن آمنوا به، وعلموا أنهم كانوا يكذبون على الله[(٤)].

---

(١) تفسير القرطبي ٧/ ٨٤.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٣٨.
(٣) تفسير السعدي ٤٦٦.
(٤) ينظر: تفسير الطبري ٢٣/ ٦٥٤.

قال ابن قتيبة: «يقولون: كنا نتوهم أنّ أحداً لا يقول على الله باطلاً، يريدون: إنّا كنا قبل اليوم نصدّقهم ونحن نظن أن أحداً لا يكذب على الله، وانقطع هاهنا قول الجن»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجنّ].

اقترنا هنا لأن الإنس صرفوا عبادة للجن، فزاد الجن طغياناً وتكبراً، والإنس خوفاً وذعراً[٢].

قال الطبري: «وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ يقول تعالى ذكره مخبراً عن قِيل هؤلاء النفر: وأنه كان رجال من الإنس يستجيرون برجال من الجن في أسفارهم إذا نزلوا منازلهم»[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ۝١٣٠﴾ [الأنعام].

في هذه الآية نداء للجن والإنس جميعاً، واستفهام تقرير يوم القيامة عن بلوغهم الرسالة وكفرهم بها.

قال ابن كثير: «﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾؛ أي: من جملتكم، والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسل، كما قد نص على ذلك مجاهد، وابن جُرَيْج، وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف»[٤].

وقال أبو السعود: «﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ هما الثقلان، خوطبا باسم جنسهما لزيادة التقرير»[٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ

---

(١) تأويل مشكل القرآن ٢٤١.
(٢) ينظر: تفسير السعدي ٨٩٠.
(٣) تفسير الطبري ٢٣/ ٦٥٤.
(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٤٠.
(٥) تفسير أبي السعود ٨/ ١٨١.

رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف].

هذا خبر من الله جل ثناؤه يقول للمفترين المكذبين يوم القيامة: ادخلوا في جماعات قد سلفت من قبلكم من الجن والإنس في النار، ومعنى ذلك: ادخلوا في أمم هي في النار من النوعين ـ الجن والإنس ـ جزاء على كفرهم وضلالهم(١).

قال أبو حيان: «﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: يقول الله لهم؛ أي: لكفار العرب وهم المفترون الكذب، والمكذبون بالآيات، وذلك يوم القيامة، وعبَّر بالماضي لتحقّق وقوعه»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف].

بيَّن الله تعالى أن الكفار من الجن والإنس ممن خُلق لجهنم، نسأل الله السلامة والعافية.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ولقد خلقنا لجهنّم كثيراً من الجن والإنس»(٣).

وقال ابن جزي: «هم الذين علم الله أنهم يدخلون النار بكفرهم؛ فأخبر أنه خلقهم لذلك»(٤).

واقتران الجن بالإنس لبيان عموم التكليف، وعموم الجزاء والحساب، وأن في الفريقين أعداء لأهل الخير، وأن الموسوس يكون من الجن ومن الإنس كما قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس](٥)، إلى غير ذلك من الحكم والفوائد.

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٤١٥.
(٢) البحر المحيط ٤/ ٢٩٧.
(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٢٧٦.
(٤) التسهيل ١/ ٤٢٩.
(٥) ينظر: تفسير أبي السعود ٩/ ٢١٧.

والآيات في اقتران الجن والإنس كثيرة، وعند تأمل جميع المواضع نجد الإنس يُقدَّمون تارة، وتارة يُقدَّم الجن، والتقديم والتأخير ـ والله أعلم ـ حسب ما يناسب السياق.

فعندما يكون الحديث في السياق عن القوة فإنه يقدم الجن.

ـ كما قال الله جل وعلا: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾﴾ [الرَّحمٰن].

ـ ولما ذُكر جند نبي الله سليمان عليه السلام ـ وفيهم معنى القوة والإعجاز ـ قال سبحانه: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النمل]، فقُدِّم الجن لمناسبته للسياق.

ولهذا استقر في طباع الإنس حتى قبل الإسلام أن الجن أقوياء فكانوا يهابونهم، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ﴿٦﴾﴾ [الجنّ].

ـ وكذلك لما جاء الكلام عن بداية الخلق قُدم الجن، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]؛ لأنهم خُلقوا قبلُ، قال تعالى: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر].

قال الألوسي: «ولعل تقديم الجن في الذكر لتقدم خلقهم على خلق الإنسان في الوجود»(١).

ـ وعند الحديث عن الإغواء والإضلال ـ وهو في الجن أكثر ـ قدِّم الجن، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف].

قال أبو حيان: «وقدّم الجنّ لأنهم الأصل في الإغواء والإضلال، ودلّ

(١) روح المعاني ٢٧/٢٠.

ذلك على أنّ عصاة الجنّ يدخلون النار»(١).

وقال الرازي: «لأن الكفر في الجن أكثر»(٢).

وقال أبو السعود: «وتقديم الجن لأنهما أعرف من الإنس في الاتصاف بما نحن فيه من الصفات، وأكثر عدداً وأقدم خلقاً»(٣).

ـ ولما كان الحديث عن البلاغة والفصاحة ـ وهي في الإنس أكثر ـ قُدِّم الإنس، قال الله جل وعلا: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

ـ ولما جاء الكلام عن أعداء الأنبياء ـ وأكثرهم من الإنس ـ قدِّم الإنس، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام].

وتقديم الجن أكثر من تقديم الإنس في القرآن.

قال ابن القيم: «تقديم الجن على الإنس في أكثر المواضع؛ لأن الجن تشتمل على الملائكة وغيرهم مما اجتنَّ عن الأبصار، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ﴾ [الصَّافات: ١٥٨]»(٤)، فسبحان الحكيم العليم.

❏ رابعاً: اقتران اليهود والنصارى:

جاء اقتران اليهود والنصارى في القرآن كثيراً، وهما طائفتان من طوائف بني إسرائيل، **فاليهود**: هم أمة موسى عليه السلام، **واليهودية**: ـ في أصلها قبل أن يحرفها اليهود ـ هي الديانة المنزلة من الله تعالى على موسى عليه السلام، وكتابها التوراة، وهي الآن ديانة باطلة لأن اليهود حرَّفوها، ولأنها نُسخت بالإسلام.

ونلحظ في القرآن الكريم أنه حيناً يسمِّيهم [بَنِي إِسْرَائِيلَ]، وإسرائيل هو لقب يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وبنو إسرائيل هم ذريته.

---

(١) البحر المحيط ٤/٢٩٧.
(٢) تفسير الرازي ٢٨/١٩٩.
(٣) تفسير أبي السعود ٣/ ٢٩٥.
(٤) بدائع الفوائد ٢/ ٦٧.

وحيناً يسميهم: [الَّذِينَ هَادُوا] و[الْيَهُودُ]؛ لأنهم تسموا باليهود في عصورهم المتأخرة وكذلك جاء في السُّنَّة تسميتهم [بَنِي إِسْرَائِيلَ] و[الْيَهُودُ] أيضاً(١).

والنصارى: هم أمة عيسى عليه السلام، **والنصرانية**: ـ قبل التحريف ـ هي الدين المنزل من الله تعالى على عيسى عليه السلام، وكتابها الإنجيل.

وهي امتداد لليهودية؛ لأن بني إسرائيل حرفوا اليهودية ـ الدين الذي أنزله الله تعالى على موسى عليه السلام ـ وبدلوا التوراة، فأرسل الله نبيه عيسى عليه السلام إليهم مصححاً لما حرفوه، وليُحِل لهم بعض الطيبات التي حُرمت عليهم، ومبشراً بمحمد ﷺ رسولاً يأتي من بعده(٢).

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصَّف: ٦].

وعندما حصل التحريف في النصرانية، وتعددت الأناجيل، وتحول أتباعها عن التوحيد إلى الشرك المتمَثل بالتثليث، نُسخت بالإسلام فأصبحت باطلة لا تُقبَل عند الله.

ومن هنا يتبين أن بين الطائفتين علاقة وقرب زمني، وعند تأمل القرآن نجده كثيراً ما يقرن بين الطائفتين أو يثني بالحديث عن هذه ثم الأخرى، في أكثر من ثلاثين آية.

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ

---

(١) ينظر: الملل والنحل ١/١٧٧، الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة ١٨، الموسوعة الميسرة ١/٤٩١، قيل: إنّهم سُمُّوا باليهود نسبة إلى [يهودا ابن يعقوب]، وقيل: سُمُّوا يهوداً أخذاً من قول موسى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾؛ يعني: تُبْنا إليك، من (الهَوْد) وهو التّوبة والرُّجوع إلى الله ﷻ. هذا في الأصل، ثم صار يُطلق لفظ اليهود على المنتسبين إلى اتِّباع موسى، وإن كانوا قد خالفوه في أشياء كثيرة، وكذبوا عليه، وأَحْدَثوا في دينِه الأشياء القبيحة من الشرك بالله والكلام في حق الله ﷻ. ينظر: إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد ٢/١٧١.

(٢) ينظر: الملل والنحل ١/١٨٧، الموسوعة الميسرة ٢/٥٥٩.

يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة].

فاقترن اليهود والنصارى في هذه الدعوى، فاتفق الفريقان في هذا القول الذي أكذبه الله.

قال السعدي: «ومن مقالات اليهود والنصارى أن كلاً منهما ادعى دعوى باطلة، يزكون بها أنفسهم، بأن قال كل منهما: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾.

والابن في لغتهم هو الحبيب، ولم يريدوا البنوة الحقيقية، فإن هذا ليس من مذهبهم إلا مذهب النصارى في المسيح.

قال الله ردّاً عليهم حيث ادعوا بلا برهان: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾؟

فلو كنتم أحبابه ما عذبكم؛ لكون الله لا يحب إلا من قام بمراضيه»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة].

قال ابن كثير: «يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة، وردَّ عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة»(٢).

---

(١) تفسير السعدي ٢٢٧.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٣٨٤، وينظر: تفسير القرطبي ٢/ ٧٦.

وقال السعدي: «وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد، إلى أن بعضهم ضلَّلَ بعضاً، وكَفَّر بعضهم بعضاً، كما فعل الأمِّيُّون من مشركي العرب وغيرهم.

فكل فرقة تضلل الفرقة الأخرى، ويحكم الله في الآخرة بين المختلفين بحكمه العدل»[١].

واقترن اليهود والنصارى في مواضع التحذير منهم:

- كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة].

- وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة].

- وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة].

في هذه الآية إشارة إلى اشتراكهم في قول الكلام الباطل، والجرأة على الله، فشابهوا الكفار من قبلُ في قولهم الملائكة بنات الله، تشابهت قلوبهم فتشابهت أقوالهم[٢].

قال ابن جزي: «﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ يتضمن معنيين، أحدهما: إلزامهم هذه المقالة والتأكيد في ذلك، والثاني: أنهم لا حجة لهم في ذلك وإنما هو مجرد دعوى»[٣].

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾: «هذا لفظ خرج على العموم، ومعناه الخصوص؛ لأنه ليس كل اليهود قالوا ذلك، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، ولم يقل ذلك كل الناس»[٤].

---

(١) تفسير السعدي ٦٣.
(٢) ينظر: تفسير السعدي ٣٣٤.
(٣) التسهيل ١/ ٤٥٩.
(٤) تفسير القرطبي ٨/ ١١٧.

واقترن اليهود والنصارى لبيان الأقرب إلى المسلمين، وإلى ولايتهم ومحبتهم، وأبعدهم من ذلك.

- في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة].

فاليهود والذين أشركوا هم على الإطلاق أعظم الناس عداوة للإسلام والمسلمين، والنصارى أقرب مودة للمؤمنين؛ للأسباب المذكورة في الآيات، **ومنها:**

١ - أن ﴿مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾؛ أي: علماء متزهدين، وعُبَّاداً في الصوامع متعبدين، والعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يلطِّف القلب ويرققه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود، وشدة المشركين.

٢ - ومنها: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾؛ أي: ليس فيهم تكبر ولا عتو عن الانقياد للحق، وذلك موجب لقربهم من المسلمين ومن محبتهم، فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر[1].

وهؤلاء هم الذين قَبِلُوا رسالة محمد ﷺ، وآمنوا بها.

قال الطبري: «والصواب في ذلك من القول عندي: أنّ الله تعالى وصف صفة قوم قالوا: (إنا نصارى)، أن نبيّ الله ﷺ يجدهم أقربَ الناس وِداداً لأهل الإيمان بالله ورسوله، ولم يسمِّ لنا أسماءهم، وقد يجوز أن يكون أريد بذلك أصحابُ النجاشي، ويجوز أن يكون أريد به قومٌ كانوا على شريعة عيسى، فأدركهم الإسلام فأسلموا لما سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق، ولم يستكبروا عنه»[2].

وقال ابن كثير: «أي: الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا

---

(١) ينظر: تفسير السعدي ٢٤١.
(٢) تفسير الطبري ١٠/٥٠١، ٥٠٢.

فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]»[١].

وفي جميع مواضع اقتران اليهود والنصارى في القرآن تقديم اليهود على النصارى.

وقد ذكر العلماء حِكَماً أقربها: أنهم أسبق زماناً، وأقرب جواراً للمؤمنين.

قال الزركشي: «تقدَّم اليهود؛ لأنهم كانوا أسبق من النصارى، ولأنهم كانوا أقرب إلى المؤمنين بالمجاورة»[٢].

ولا شك أن كثرة اقتران اليهود والنصارى في القرآن؛ لِمَا بينهم من قواسمَ مشتركة، كما أخبر الله تعالى في غير ما آية، ومنها قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة].

وبيَّن سبحانه أنهم أولياء بعض، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة].

وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة].

واليهود والنصارى يدَّعون أن أنبياء الله على ملتهم؛ فأكذبهم الله وقال: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٦٧.

(٢) البرهان ٣/ ٢٤٠.

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران].

فقد تقاربوا في زمانهم، واجتمعوا أيضاً في كثير من صفاتهم، فزمان النصارى بعد اليهود مباشرة وامتداداً لهم، حتى صاروا كالطائفة الواحدة، ولذا أطلق القرآن في بعض المواضع اسماً جامعاً لهم، وهو: الذين أوتوا الكتاب.

كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران].

قال ابن عطية: «﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الذين أوتوا الكتاب في هذا الموضع: يجمع اليهود والنصارى باتفاق»[1].

واجتمعوا في كفرهم بنبوة محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة].

وأُمِرنا بالدعاء في اليوم مراراً أن يجنبنا الله صراطهم، كما في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة].

قال الزركشي ضمن بيان أن تقديم اليهود على النصارى لسبقهم: «وقد ينضم إليه التحقير كما في قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾»[2].

فاليهود والنصارى لم يُهدَوا الصراط المستقيم.

قال ابن تيمية: «واليهود مقصرون عن الحق، والنصارى غالون فيه»[3].

وزاد تشابههم بعد معرفة الحق عند الجميع.

قال ابن عثيمين: «ولقد كان اليهود يوصفون بأنهم مغضوب عليهم؛ لأنهم علموا الحق وخالفوه، وكان النصارى يوصَفُون بأنهم ضالون؛ لأنهم

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤١٩، وينظر: البحر المحيط ٢/ ٤٢٩.
(٢) البرهان ٣/ ٢٤٠.
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٦٦.

أرادوا الحق فضلوا عنه، أما الآن فقد علم الجميع الحق وعرفوه، ولكنهم خالفوه؛ وبذلك استحقوا جميعاً أن يكونوا مغضوباً عليهم»(١).

ومع هذا فكثرة تكرار التحذير منهم في القرآن؛ لأن الله قدَّر كوناً بما أخبر به رسوله ﷺ، أن من أمة محمد ﷺ من سيتبع اليهود والنصارى ويتشبه بهم.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراعٍ حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم**، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: **فمن؟**»(٢).

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ٣/ ٢١.

(٢) أخرجه البخاري ٩/ ١٢٦ (٧٣٢٠)، كتاب الاعتصام باب قول النبي ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**»، ومسلم ٤/ ٢٠٥٤ (٢٦٦٩)، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى.

المبحث الثاني

قرن بعض الآيات الكونية ببعض

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: قرن بعض الآيات الكونية ببعض.
- المطلب الثاني: قرن دلائل الأنفس بدلائل الآفاق.

المطلب الأول

قرن بعض الآيات الكونية ببعض

تنوع الحديث في كتاب الله تعالى عن الآيات الكونية، والحثِّ على التفكر فيها؛ لأن هذا مما يزيد الإيمان بالله وقدرته وعظمته سبحانه، فيعمل العبدُ لرضاه ويبتعد عن سخطه.

ومن ذلك السماوات والأرض وما فيهما من آيات، والليل والنهار، والشمس والقمر والكواكب، والجبال والأنهار، وغير ذلك(١).

قال ابن جزي: «فكل ما جاء في القرآن من التنبيه على المخلوقات والاعتبار في خلقه الأرض والسماوات، والحيوان والنبات، والريح والأمطار، والشمس والقمر، والليل والنهار، وغير ذلك من الموجودات؛ فهو دليل على خالقه، ومنه إثبات الوحدانية، والرد على المشركين، والتعريف بصفات الله من الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر، وغير ذلك من أسمائه وصفاته، والتنزيه عما لا يليق به»(٢).

وقد حثَّ العلماء على التفكر في هذه الآيات، والتأمل فيها.

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء ٢/ ٥٥.

(٢) التسهيل ١/ ٨.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلبُ ساهٍ»(١).

وعن محمد بن كعب القرظي قال: «لأن أقرأ ليلتي حتى الصبح بإذا زلزلت، والقارعة، لا أزيد عليهما، وأتردد فيهما وأتفكر، أحب إليَّ من أن أهذَّ القرآن ليلتي هذّاً، أو قال: أنثره نثراً»(٢).

ومن عادات القرآن اقتران بعض الآيات الكونية فيه ببعض، والتي هي محلٌّ للتأمل والتفكر، والجمعِ والدراسة، **ومن أمثلة ذلك:**

❑ أولاً: اقتران الشمس والقمر:

الشمس والقمر من آيات الله العظام، بهما تعرف الأزمنة والأوقات، فتُضبط بذلك أوقات العبادات، وآجال المعاملات، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر، وتناوبهما واختلافهما لما عَرَف ذلك عامةُ الناس، بل كان لا يعرفه إلا أفرادٌ من الناس، بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت(٣).

وقد اقترنا في مواضع كثيرة من القرآن، **ومنها:**

ـ قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾؛ أي: يجريان بحساب مقنن مقدر، لا يتغير ولا يضطرب، بل كل منهما له منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولاً وقصراً»(٤).

وقال الرازي: «اعلم أن هذا نوع آخر من دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته، فالنوع المتقدم كان مأخوذاً من دلالة أحوال النبات

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد ٩٧ (٢٨٨). ينظر: كنز العمال ٨/ ٣٣٤ (٢٢٥٤٤).
(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد ٩٧ (٢٨٧)، وابن أبي شيبة ٦/ ١٤١ (٣٠١٦٠).
(٣) تفسير السعدي ٢٦٥. (٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٤.

والحيوان، والنوع المذكور في هذه الآية مأخوذ من الأحوال الفلكية؛ وذلك لأن فلق ظلمة الليل بنور الصبح أعظم في كمال القدرة من فلق الحب والنوى بالنبات والشجر، ولأن من المعلوم بالضرورة أن الأحوال الفلكية أعظمُ في القلوب، وأكثرُ وقعاً من الأحوال الأرضية»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

وفي هذه الآية اقترن مع الشمس والقمر: النجوم، وجاء هذه الاقتران في أربع مواضع من القرآن، وكلُّها من الآيات العلوية العظيمة.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل].

قال السعدي: «أي: سخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم، وأنواع مصالحكم، بحيث لا تستغنون عنها أبداً، فبالليل تسكنون وتنامون وتستريحون، وبالنهار تنتشرون في معايشكم ومنافع دينكم ودنياكم، وبالشمس والقمر من الضياء والنور والإشراق، وإصلاح الأشجار والثمار والنبات، وتجفيف الرطوبات، وإزالة البرودة الضارة للأرض، وللأبدان، وغير ذلك من الضروريات والحاجيات التابعة لوجود الشمس والقمر»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾ إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عُبدت من دون الله، فبيَّن أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة»(٣).

---

(١) تفسير الرازي ١٣/ ٧٧.
(٢) تفسير السعدي ٤٣٧.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ٤٠٣.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء].

جاءت هذه الآيات في سياق واحد إشارة إلى ما به منافع العباد من الحر والبرد، والفصول، وبها يعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم، إلى غير ذلك، مما يدل على عظمة الخالق سبحانه، وكمال قدرته، وأنه المستحق للعبادة وحده، وإذا تفكر العاقل فيها عرف أن هذه الدار مزرعةٌ لدار القرار[(١)].

قال ابن جزي: «أي: كلهم في فلك يسبحون؛ يعني: الشمس والقمر دون الليل والنهار، إذ لا يوصف الليل والنهار بالسبح في الفلك، فالجملة في موضع حال من الشمس والقمر، أو مستأنفاً، فإن قيل: لفظ كل ويسبحون جمع، فكيف يعني الشمس والقمر وهما اثنان؟ فالجواب: أنه أراد جنس مطالعها كل يوم وليلة وهي كثيرة»[(٢)].

وبدلالة اقتران النجوم والشمس والقمر في آيات من كتاب الله اختار الرازي أن يضمها في التفسير هنا مع الشمس والقمر حيث يقول: «لا يجوز أن يقول: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ إلا ويدخل في الكلام مع الشمس والقمر: النجوم؛ ليثبت معنى الجمع، ومعنى الكل، فصارت النجوم وإن لم تكن مذكورة أولاً فإنها مذكورة لعود هذا الضمير إليها، والله أعلم»[(٣)].

ـ وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان].

سمّى الله تعالى الشمس في هذه الآية سراجاً لما فيها من النور والحرارة، والقمر فيه النور دون حرارة، وهذا من أدلة عظمة خالقها في أوصافه كلها، وما فيها من المصالح والمنافع للخلق دليل على كثرة خيراته.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا

---

(١) ينظر: تفسير السعدي ٥٢٢.
(٢) التسهيل ٢/ ١٩٢.
(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ١٤٤، وينظر: تأويل مشكل القرآن ١٩٣.

لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ [فصّلت].

قال ابن عطية: «ثم عدد آياته لتعبر فيها من صدق عن التوحيد بذكر الليل والنهار، وذكرهما يتضمن ما فيهما من القِصَر والطول والتداخل والاستواء في مواضع، وسائر عبرهما، وكذلك الشمس والقمر متضمن عجائبهما وحكمة الله فيهما ونفعه عباده بهما»[1].

ـ وقوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ [الرَّحمٰن].

هذا من أمثلة قَرْن الشمس والقمر لبيان الدِّقَّة في جريانهما وتعاقبهما بتقدير الصانع الحكيم.

قال ابن كثير: «أي: يجريان متعاقبين بحساب مُقَنَّن لا يختلف ولا يضطرب»[2].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾ [القيامة].

ونهاية هذا الاقتران اللفظي في كتاب الله تعالى اجتماعُ الشمس والقمر ذاتاً أو صفة في نهاية العالم يوم القيامة.

قال ابن الجوزي: «في معنى الآية قولان:

أحدهما: جمع بين ذاتيهما، وقال ابن مسعود: جُمعا كالبعيرين القرينين، وقال عطاء بن يسار: يجمعان ثم يقذفان في البحر، وقيل: يقذفان في النار، وقيل: يجمعان فيطلعان من المغرب.

والثاني: جُمع بينهما في ذهاب نورهما، قاله الفراء[3]، والزجاج[4]»[5].

وهذا الاقتران بين آيتين من آيات الله الكونية، دليل على عظمة هاتين الآيتين، وأن بينهما من الاتصال شيءٌ كثير، ومن ذلك:

ـ أن الشمس والقمر مُتكامِلان، فإحداهما آية الليل، والآخر آية النهار.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٦.
(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٨٩.
(٣) معاني القرآن ٣/ ٢٠٩.
(٤) معاني القرآن ٥/ ٢٥٢.
(٥) زاد المسير ٨/ ٤١٩.

ـ وبالشمس والقمر يتبين فضل الله على عباده، فبهما تقوم مصالح العباد في معاشهم ودنياهم.

وفي كل المواضع التي اقترن فيها الشمس والقمر قدمت الشمس إلا في موضع واحد فقد ذُكر القمر قبل الشمس.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح].

ومن الحِكَم في تقديم الشمس على القمر:

ـ أن الشمس هي الأصل، ونور القمر جزء من نور الشمس.

وهذا مما يدل على أهمية الشمس للقمر وللأرض وللمخلوقات عامة، فبدون الشمس لا يُرى القمر، وبدون الشمس لا تقوم حياة على الأرض.

ـ أن تقديم الشمس تقديم للأفضل والأشرف.

ولذا تكررت كلمة الشمس في القرآن أكثر من كلمة القمر(١).

وأما تقديم القمر على الشمس:

فقد قال الزركشي: «وأما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح].

فيحتمل وجهين: مناسبة رؤوس الآي، أو أن انتفاع أهل السماوات به أكثر»(٢).

والملاحظ في هذه الآية التي قُدم فيها القمر أن بينه وبين الشمس فاصلاً لفظياً، وليس كأكثر المواضع في توالي لفظ الشمس والقمر، وهو دليل على دقةِ وإحكام ألفاظ القرآن الكريم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء].

☐ ثانياً: اقتران الليل والنهار:

اقترن الليل والنهار في القرآن في مواضع كثيرة، وفيه بيان كمالِ نعمة الله على عباده، **ومن الآيات التي اجتمع فيها الليل والنهار:**

---

(١) وردت الشمس في القرآن ٣٣ مرة، والقمر ٢٧ مرة، واقترنا في ٢٣ موضعاً.
(٢) البرهان ٣/٢٥٩.

ـ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء].

قال السعدي: «يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾؛ أي: دالتين على كمال قدرة الله وسعة رحمته وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: جعلناه مظلماً للسكون فيه والراحة، ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾؛ أي: مضيئة ﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في معايشكم وصنائعكم وتجاراتكم وأسفاركم.

﴿وَلِتَعْلَمُواْ﴾ بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ فتبنون عليها ما تشاءون من مصالحكم»[(١)].

وقد امتنَّ الله بذلك على عباده فقال جل ثناؤه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص].

وقد تكرر اقتران الليل والنهار كثيراً في سياق التذكير بنعمة تعاقبهما، وما فيهما من رحمة الله تعالى، ومصالح للعباد، للدلالة على توحيد الله تعالى، ومن الآيات في هذا المعنى:

ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة].

قال الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، وتعاقب الليل والنهار عليكم أيها الناس.

---

(١) تفسير السعدي ٤٥٤.

وإنما الاختلاف في هذا الموضع: الافتعال، من خُلوف كل واحد منهما الآخر، كما قال تعالى ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان]، بمعنى: أن كل واحد منهما يخلف مَكان صاحبه، إذا ذهب الليل جَاء النهارُ بعده، وإذا ذهب النهارُ جاء الليل خلفه»[1].

وقال السعدي: «أخبر تعالى أن في هذه المخلوقات العظيمة، آيات؛ أي: أدلة على وحدانية الباري وإلٰهيته، وعظيم سلطانه ورحمته وسائر صفاته، ولكنها ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾؛ أي: لمن لهم عقول يعملونها فيما خلقت له، فعلى حسب ما منّ الله على عبده من العقل، ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبُّره»[2].

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران].

- وقوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

وفي الجمع بين هذه المخلوقات العظيمة المتضادة بيان عظمة الله تعالى وعظيم قدرته.

قال ابن كثير: «يذهب الليل بدآدئه[3] وظلام رواقه، ويجيء النهار بضيائه وإشراقه، كما قال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾، فبيَّن تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه»[4].

---

(١) تفسير الطبري ٣/ ٢٧٢. (٢) تفسير السعدي ٧٨.

(٣) الدآدئ: ثلاث ليال من آخر الشهر قبل ليالي المحاق، وكلّ إناءٍ قارَبَ أن يمتلئَ فقد تدأدأ، وكذلك هذه الليالي تكون إذا قارب الشهر أن يكمُل. ينظر: معجم مقاييس اللغة ٢/ ٢٦٢، الصحاح ٢/ ٥٢.
قال الخليل: «الدَّآدِئ: وهي ثلاث ليال، خمس وست وسبع وعشرون» العين، مادة: (داد) ٢٧٨.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٤.

وقال أبو السعود: «﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾؛ أي: يغطيه به، ولم يذكر العكس للعلم به، أو لأن اللفظ يحتملهما»[١].

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس].

- وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الرعد].

قال الماوردي: «معناه: يُغشِي ظلمةَ الليل ضوءَ النهار، ويغشي ضوء النهار ظلمة الليل»[٢].

- وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان].

ذكر المفسرون في معنى هذه الآية: أن الله جعل الليل والنهار يخلف كل واحد منهما صاحبه، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، وكل واحد منهما مخالفاً صاحبه، فجعل الليل أسوداً والنهار أبيضاً، وكل واحد منهما خلفاً من الآخر، فما فات أحدهما من عمل يعمل فيه لله، أدرك قضاؤه في الآخر[٣].

- وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٥﴾﴾ [الزُّمر].

قال الطبري: «﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ﴾ يقول: يغشي هذا على هذا، وهذا على هذا، كما قال: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [لقمان: ٢٩]، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»[٤].

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/ ٢٣٢. (٢) النكت والعيون ٣/ ٩٣.

(٣) ينظر: تفسير الطبري ١٩/ ٢٩٠، ٢٩١، والنكت والعيون ٤/ ١٥٣.

(٤) تفسير الطبري ٢١/ ٢٥٣.

وقال البيضاوي: «﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ يغشى كل واحد منهما الآخر، كأنه يلفه عليه لف اللباس باللابس، أو يغيبه به كما يغيب الملفوف باللفافة، أو يجعله كاراً عليه كروراً متتابعاً تتابع أكوار العمامة»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٥﴾ [الجاثية].

قال ابن كثير: «﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس]، وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحج: ٦١]؛ أي: يزيد من هذا في هذا، ومن هذا في هذا»(٢).

وكذلك تكرَّر كثيراً اقترانُ الليل والنهار لبيان أن الليل والنهار يزيدان وينقصان على حساب بعضهما، ومن الآيات التي أشارت لذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٢٧﴾ [آل عمران].

أي: تدخل ما نقصت من الليل في النهار، وكذا العكس.

قال الفراء: «نقصان الليل يولج في النهار، وكذلك النهار يولج في الليل، حتى يتناهى طول هذا وقصر هذا»(٣).

وقال الطبري: «ويعني بقوله: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ تدخل ما نقصتَ من ساعات الليل في ساعات النهار، فتزيد من نقصان هذا في زيادة هذا ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾، وتدخل ما نقصتَ من ساعات النهار في ساعات الليل، فتزيد في ساعات الليل ما نقصت من ساعات النهار»(٤).

---

(١) تفسير البيضاوي ٥/٥٨.
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٤٧٤.
(٣) معاني القرآن ١/ ٢٠٥.
(٤) تفسير الطبري ٦/ ٣٠٢.

- وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٦١﴾ [الحج].

- وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٢٩﴾ [لقمان].

- وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾ [المزمل: ٢٠].

قال الطبري: «وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ﴾ بالساعات والأوقات»(١).

وقال ابن كثير: «﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ﴾؛ أي: تارة يعتدلان، وتارة يأخذ هذا من هذا، أو هذا من هذا»(٢).

وبعد تأمل مواضع اقتران الليل والنهار تبين لي ما يلي:

١ - كثرة تكرار اقتران الليل والنهار عند الاستدلال على توحيد الله إما باختلافهما من الضياء والظلام، والطول والقصر، وإما بتعاقبهما على الدوام، إذا ذهب أحدهما، خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر، والبرد، والتوسط، وفي الطول، والقصر، والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، كل ذلك بإتقان وتدبير دقيق، ما يدل على قدرة مصرفها، وعلمه وحكمته، ورحمته الواسعة، مما يوجب أن يؤله ويعبد، ويفرد بالمحبة والتعظيم، والخوف والرجاء، وبذل الجهد في محابه ومراضيه.

٢ - أن كثرة اقتران الليل والنهار لما بينهما من التضاد الذي يتبين من خلاله فضل الآخر.

٣ - أن لفظ الليل يأتي قبل لفظ النهار في كل القرآن، وفيه إشارة إلى أن الليل هو الأصل، ولذا تكرر في القرآن أكثر من النهار.

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ٦٩٧.
(٢) تفسير ابن كثير ٨/ ٢٥٨.

قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يس].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ودليل لهم أيضاً على قدرة الله على فعل كل ما شاء ﴿ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ يقول: ننْزعُ عنه النهار، ومعنى: ﴿مِنْهُ﴾ في هذا الموضع: عنه، كأنه قيل: نسلخُ عنه النهار، فنأتي بالظلمة ونذهب بالنهار»(١).

وقال الماوردي: «أي: نخرج منه النهار؛ يعني: ضوءه؛ مأخوذ من سلخ الشاة إذا خرجت من جلدها»(٢).

وقال البغوي: «وقدّم الليل على النهار في الذِّكْر؛ لأنه أقدمُ منه، قال الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾»(٣).

٤ ـ الآيات التي ذُكر فيها خلق الليل والنهار، غالباً ما تُختم بصفات العزة والعلم للخالق ﷻ، والحث على التفكر والتدبر.

قال ابن كثير: «كثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعزة والعلم»(٤).

٥ ـ أن الترتيب الأغلب للآيات الكونية في القرآن: الليل والنهار والشمس والقمر، والسر في ذلك ـ والله أعلم ـ أنه بالنظر إلى القَدْر والأوّلية للشمس على القمر، وإلا فكل الآيات رحمةٌ من الله، ولا يَستغني عنها العباد، فالآيات يكمِّل بعضها بعضاً، وقد وافق هذا الترتيبُ ترتيبَها حسب كثرة تَكرارها في القرآن الكريم، فقد جاء ذكر الليل في القرآن الكريم اثنتين وتسعين

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٥١٦.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٧.

(٣) تفسير البغوي ١/ ١٧٧.

(٤) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٥٤، كقوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس]، وقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت].

مرة، وجاء ذكر النهار سبعاً وخمسين مرة، وجاء ذكر الشمس ثلاثاً وثلاثين مرة، وجاء ذكر القمر سبعاً وعشرين مرة، فسبحان الحكيم العليم[١].

❑ ثالثاً: اقتران السماء والأرض:

السماوات والأرض من مخلوقات الله العظيمة، وقد قرن بينهما سبحانه في كتابه في مواضع كثيرة، وغالباً ما يأتي الاقتران في سياق آيات الله الدالة على وحدانيته وربوبيته، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الجاثية].

ففي السماوات آيات عظيمة منها: سعتها، وعظمها، وما فيها من كواكبها، وبروجها، وعلومها، واستغنائها عن عَمَد تُقِلُّها، إلى غير ذلك من عجائبها، ولهذا أمر سبحانه بأن يُرجِعَ الناظرُ البصرَ فيها كرةً بعد كرة، ويتأملَ استواءها واتِّساقها وبراءتها من الخلل والفطور[٢]، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾ [الملك].

وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾ [الذاريات].

قال ابن كثير: «أي: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذَرَأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه»[٣].

وقد اقترنت السماوات والأرض في كتاب الله تعالى في أكثر من مائة وثمانين موضعاً[٤].

---

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ٣٨٧، ٥٥٣، ٦٥٦، ٧٢٠.
(٢) ينظر: بدائع الفوائد ١/ ٨٢.
(٣) تفسير ابن كثير ٧/ ٤١٩.
(٤) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ٢٦، ٣٦٢.

قال ابن عاشور: «وفي القرآن معان لا تكاد تفترق مثل: السماء والأرض»(١).

ومن الآيات التي تدل على ذلك:

- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة].

قال السعدي: «﴿أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو ما غاب عنا؛ فلم نشاهده، فإذا كان عالماً بالغيب؛ فالشهادة من باب أولى»(٢).

- وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [البقرة].

- وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة].

قال ابن قتيبة: «أي: مبدعها»(٣).

وقال السجستاني(٤): «﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مُبْتَدع؛ أي: مبتدئ»(٥).

- وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران].

قال السعدي: «أي: الخلق كلهم منقادون بتسخيره، مستسلمون له طوعاً واختياراً، وهم المؤمنون المسلمون المنقادون لعبادة ربهم، وكرهاً وهم سائر الخلق، حتى الكافرون مستسلمون لقضائه وقدره لا خروج لهم عنه، ولا

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٢٤، وينظر: البيان والتبيين ١/ ٢٧.

(٢) تفسير السعدي ٤٨.

(٣) تأويل مشكل القرآن ١٨١.

(٤) هو: محمد بن عزير السجستاني، أبو بكر العزيري، من بني عزرة، مفسر، اشتهر بكتابه: «غريب القرآن»، وكان مقيماً ببغداد، مات سنة (٣٣٠هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٤/ ٣٠٨، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢١٧، طبقات الأدنه وي ٤٢٥.

(٥) غريب القرآن ١١٧.

امتناع لهم منه، وإليه مرجع الخلائق كلها، فيحكم بينهم ويجازيهم بحكمه الدائر بين الفضل والعدل»(١).

- وقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران].

أمر الله تعالى في هذه الآية بالمسارعة إلى مغفرته، وإدراك جنته التي عرضها السماوات والأرض، فكيف بطولها، لا يعلمه إلا الله!.

قال القرطبي: «ونبَّه تعالى بالعرض على الطول لأن الغالب أن الطول يكون أكثر من العرض، والطول إذا ذكر لا يدل على قدر العرض»(٢).

- وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٨٩﴾ [آل عمران].

قال الطبري: «القول في تأويل قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٨٩﴾ قال أبو جعفر: وهذا تكذيب من الله جل ثناؤه للذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، يقول تعالى ذكره، مكذباً لهم: لله ملك جميع ما حوته السماوات والأرض، فكيف يكون ـ أيها المفترون على الله ـ من كان مُلك ذلك له فقيراً؟»(٣).

- وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٧٧﴾ [النحل].

قال مكي: «قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ المعنى: لله ما غاب عن أبصاركم في السماوات والأرض دون ما سواه»(٤).

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن كماله وقدرته على الأشياء، في علمه غيب السماوات والأرض، واختصاصه بذلك، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه الله تعالى على ما يشاء»(٥).

---

(١) تفسير السعدي ١٣٧.
(٢) تفسير القرطبي ٤/ ٢٠٤.
(٣) تفسير الطبري ٧/ ٤٧٣.
(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية ٦/ ٤٠٥٤.
(٥) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٨٩.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ [النور].

قال أبو السعود: «ولله ملك السماوات والأرض لا لغيره؛ لأنه الخالق لهما ولما فيهما من الذوات والصفات وهو المتصرف في جميعها إيجاداً وإعداماً بدءاً وإعادة»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان].

قال ابن عطية: «هذه آية تنبيه على الصنعة الدالة على الصانع وذلك أن تسخير هذه الأمور العظام كالشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح والحيوان والنبات إنما هو بمسخر ومالك»[٢].

وبعد تأمل مواضع اقتران السماوات والأرض في القرآن، تبين لي ما يأتي:

١ ـ تقدُّم السماوات على الأرض في كتاب الله تعالى غالباً، وفيه: أن الآيات التي في السماوات أعظم منها في الأرض[٣].

وفي مواضع قليلة قُدمت الأرض، ومن ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة].

فتقديم الأرض لمناسبة السياق، وأن الأرض هنا هي منَّة الله تعالى على الخلق فكيف يكْفُر بالله من خلقه الله، وخلق له ما في الأرض جميعاً، ومرجعُه إلى الله.

قال البقاعي: «ولما كانت السماء أشرف من جهة العلو الذي لا يرام، والجوهر البالغ في الأحكام، والزينة البديعة النظام، المبنية على المصالح

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ١٨٤.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧.
(٣) بدائع الفوائد ١/ ٨٢.

الجسام، وكثرة المنافع والأعلام، عبَّر في أمرها بثم فقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: وشرف على ذلك جهة العلو بنفس الجهة والحسن والطهارة وكثرة المنافع، وتقديم الأرض هنا؛ لأنها أدل لشدة الملابسة والمباشرة»[١].

- وقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة].

- وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾ [آل عمران].

قال أبو السعود: «وتقديم الأرض على السماء لإظهار الاعتناء بشأن أحوال أهلها، وتوسيط حرف النفي بينهما، للدلالة على الترقي من الأدنى إلى الأعلى باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا»[٢].

- وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس].

فتقديم الأرض هنا مناسب لسياق الكلام؛ لأن الكلام في حال أهلها.

قال البيضاوي: «وتقديم الأرض لأن الكلام في حال أهلها والمقصود منه البرهان على إحاطة علمه بها»[٣].

وقال أبو حيان: «ولما ذكر شهادته تعالى على أعمال الخلق ناسب تقديم الأرض الذي هي محل المخاطبين على السماء، بخلاف ما في سورة سبأ، وإن كان الأكثر تقديمها على الأرض»[٤].

وقال ابن القيم: «وأما تقديم الأرض في قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فبالرتبة أيضاً؛ لأنها منتظمة بذكر ما هي أقرب إليه، وهم المخاطبون بقوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ [يونس: ٦١]،

---

(١) نظم الدرر ١/ ٨٢.
(٢) تفسير أبي السعود ٢/ ٦.
(٣) تفسير البيضاوي ٣/ ٢٠٥.
(٤) البحر المحيط ٥/ ١٧٢.

فاقتضى حسن النظم تقديمها مرتبة في الذكر مع المخاطبين الذين هم أهلها»[١].

ـ وقوله ﷻ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٣٨﴾ [إبراهيم].

قال أبو السعود: «وتقديم الأرض على السماء مع توسيط لا بينهما باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا»[٢].

فتقديم السماء على الأرض ـ والله أعلم ـ هو الأصل في كتاب الله؛ لاعتبار الرتبة والفضل والشرف، وما فيها من آيات هي أعظم من آيات الأرض.

وتقديم الأرض لأسرار في مواضعه تناسب السياق، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

قال ابن القيم: «وتقديم السماء على الأرض في الذكر، وتقديم الأرض عليها في بعض الآي، ونحو: سميع عليم، ولم يجئ عليم سميع، وكذلك: عزيز حكيم، وغفور رحيم، وفي موضع واحد: الرحيم الغفور، إلى غير ذلك مما لا يكاد ينحصر، وليس شيء من ذلك يخلو عن فائدة وحكمة؛ فنقول: إن تقديم الألفاظ في اللسان على حسب تقدم المعاني في الجنان؛ بأحد خمسة أشياء: إما بالزمان، وإما بالطبع، وإما بالرتبة، وإما بالسبب، وإما بالفضل والكمال»[٣].

٢ ـ أن اقتران السماء والأرض كثيراً ما يكون في مواضع الدلالة على وحدانية الخالق سبحانه، واستحقاقه وحده للعبادة؛ فتكرر في علم الله تعالى لغيب السماوات والأرض، وكذلك في ملك الله للسماوات والأرض، وفي خلق الله للسماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، وفي تسخير ما فيهما لعباده، وفي سعة رحمته الله تعالى بهم، ورجوع من فيهما إليه، ونحو ذلك.

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ٦٧، وينظر: ملاك التأويل ١/ ٣٤٧.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٣، روح المعاني ١٣/ ٢٤١.
(٣) بدائع الفوائد ١/ ٦٥.

٣ ـ أن اقترانهما تكرر مرتين في أعظم آية من كتاب الله، وهي: آية الكرسي؛ مما يدل على عظمتهما.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة].

٤ ـ أن اقتران السماء والأرض، والشمس والقمر، وغيرهما دليل على كمال خالقهما، حيث خلق الشيء وما يُقابله ويُذْكَر معه.

قال الطبري: «عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣﴾ [الفجر]، قال: كلّ خلق الله شفع، السماء والأرض، والبرّ والبحر، والجنّ والإنس، والشمس والقمر، والله الوَتر وحده»[1].

والحاصل: أن هذه آيات عظيمة من آيات الله تعالى، ولكن يغفل الإنسان عن تدبرها، ولذا كرَّر الله تعالى ذكرَ هذه الآيات في سورٍ من القرآن الكريم، فيجيء مرة ذِكرُ الشمس والقمر، وأخرى ذكر الليل والنهار، وثالثة خلق السماوات والأرض، وهكذا؛ لأجل أن يصطحب الإنسان ذكرها فلا يغْفَل ولا ينسى والله المستعان، وهو جل وعلا أعلم وأحكم.

المطلب الثاني

قرن بعض دلائل الأنفس بدلائل الآفاق

عادة القرآن في الاستدلال لتوحيد الله، وبيان عظمته، قرنُ دلائلِ الأنفُس بدلائل الآفاق، وهذه الدلائلُ لها أثرٌ عظيمٌ في النفوس، كما هي

(١) أخرجه الفريابي في التفسير. ينظر: تغليق التعليق ٤/٤، والطبري ٢٤/٣٩٨، وذكره البخاري تعليقاً باختصار، قال ابن حجر: أراد مجاهد بهذا أن كل شيء له مقابل يقابله، ويذكر معه، فهو بالنسبة إليه شفع؛ كالسماء والأرض، والإنس والجن... إلخ، وبهذا زال الإشكال بأن السماوات سبع والسبع ليس بشفع، ينظر: فتح الباري ٦/٣٦٥.

مواعظُ القرآن صالحةٌ لكل زمان ومكان، كل ذلك لتثبيت الإيمان في القلوب.

والمراد بدلائل الأنفس: دلالة أحوال بدن الإنسان، ودلالة أحوال نفسه على توحيد الله تعالى، مثل: أطوار خلق الإنسان، وعلاقتُه بربه، وحاجتُه إليه.

قال ابن عطية: «﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات]، إحالة على النظر في شخص الإنسان؛ فإنه أكثر المخلوقات التي لدينا عبرة لما جعل الله فيه ـ مع كونه من تراب ـ من لطائف الحواس، ومن أمر النفس وجهاتها ونطقها واتصال هذا الجزء منها بالعقل ومن هيئة الأعضاء»(١).

ودلائل الآفاق: دلالةُ كلِّ شيءٍ غير الإنسان من هذا العالم على توحيد الله تعالى، وهي أقسام كثيرة؛ منها: أحوال الليل والنهار، والسماء والأرض(٢).

قال الراغب: «الآفاق؛ أي: في النواحي»(٣).

وللسماء آفاق، وللأرض آفاق(٤).

وعادة القرآن اقتران دلائل الأنفس ودلائل الآفاق.

قال الرازي: «واعلم أن عادة الله تعالى جارية في القرآن بأنه كلما ذكر الدلائل الموجودة في الأنفس فإنه يذكر عقيبها الدلائل الموجودة في الآفاق»(٥).

ومن الأمثلة على هذه العادة:

ـ قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصّلت].

قال النحاس: «وقوله جل وعز: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ

---

(١) المحرر الوجيز ٥/١٥٨.
(٢) ينظر: تفسير الرازي ٢٧/٧٣.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن ٧٩.
(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة ١/١١٤، لسان العرب ١٠/٥.
(٥) تفسير الرازي ٣١/٥٦.

حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ﴾؛ أي: في آفاق الدنيا وتقلب أحوالها ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ مثل ذلك»[١].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [غافر: ٨١]؛ أي: حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم، ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ [غافر]؛ أي: لا تقدرون على إنكار شيء من آياته، إلا أن تعاندوا وتكابروا»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام].

في هذه الآية عطف جملة: وهو الذي يتوفاكم، على جملة، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، انتقالاً من بيان سعة علم الله تعالى إلى بيان عظيم قدرته، وإثبات البعث بعد الموت؛ لأن ذلك كلّه من دلائل الألوهية، تذكيراً للعارف، وتعليماً لغيره، فأعقب تعالى بذكر دلائل الوحدانية في أنفس الناس بوفاتهم وبعثهم، ما ذكر من دلائلها في الآفاق ـ من سعة علمه وإحاطته بكل شيء ـ كما هي عادة القرآن.

قال الطبري: «فالذي يقبض أرواحكم بالليل، ويبعثكم في النهار، لتبلغوا أجلاً مسمى، وأنتم ترون ذلك وتعلمون صحّته، غير مُنكَرٍ له القدرة على قبض أرواحكم وإفنائكم، ثم ردِّها إلى أجسادكم، وإنشائكم بعد مماتكم، فإن ذلك نظير ما تعاينون وتشاهدون، وغير مُنكَرٍ لمن قدر على ما تعاينون من ذلك، القدرةُ على ما لم تعاينوه، وإن الذي لم تروه ولم تعاينوه من ذلك، شبيه ما رأيتم وعاينتم»[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ

---

(١) معاني القرآن ٦/ ٢٨٥.
(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ١٥٩.
(٣) تفسير الطبري ١١/ ٤٠٦.

مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [غافر].

ففي هذه الآيات من دلائل الآفاق:

ذكر أحوال الليل والنهار، وخلق الأرض والسماء.

وفيها من دلائل الأنفس:

ابتداءُ تصوير الإنسان، وتحسين صورته من قوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾، ورزقُه من الطيبات في قوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، وكيفيةُ تكوُّن بدن الإنسان من كونهِ نطفة إلى موته؛ كلُّها مذكورة في هذه الآيات.

فقَرَن جلَّ وعلا بين دلائل الآفاق ودلائل الأنفس لبيان الحق للخلق.

ـ وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه السلام، أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم، بعد

أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم وُجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته؛ فإنه سهل عليه يسير لديه.

ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السماوات وما فيها من الكواكب النيرة: الثوابت، والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبرارٍ وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء: كن، فيكون؛ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [العنكبوت]؛ كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الرُّوم: ٢٧].

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]؛ أي: يوم القيامة، ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت]، وكقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطُّور]»[١].

- وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات].

في هذه الآية اقترانٌ لدلائل الآفاق بدلائل الأنفس، لِمَا بينهما من العلائق، والغايةُ: بيانُ أن هذه الآيات حقٌّ من عند الله[٢].

قال ابن عاشور: «بعد أن ذكر دلائل الأرض ودلائل الأنفس التي هي من علائق الأرض عطف ذكر السماء للمناسبة، وتمهيداً للقسم الذي بعده في قوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات]»[٣].

- وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٧٠.
(٢) ينظر: النكت والعيون ٥/ ٣٦٨.
(٣) التحرير والتنوير ٢٦/ ٣٥٤.

طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح].

أمَرَ الله تعالى في هذه الآية بتعظيمه وأعقبها بدلائل الأنفس والآفاق:

فالأول: في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح]، هذا من دلائل الأنفس على توحيد الله.

قال ابن الجوزي: «﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾؛ أي: وقد جعل لكم في أنفسكم آية تدل على توحيده من خلقه إياكم من نطفة ثم من علقة شيئاً بعد شيء إلى آخر الخلق»(١).

والثاني: دلائل الآفاق بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾ [عبس]، الآيات.

فالآية الأولى: من دلائل الأنفس، والثانية وما بعدها: من دلائل الآفاق.

ـ وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطَّارق]، هذه وما بعدها في دلائل الأنفس، إلى أن قال جل وعلا: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾ [الطَّارق] وما بعدها في دلائل الآفاق؛ لإثبات البعث والجزاء، وأن القرآن حقّ.

وبعد التأمل في هذه النماذج تبين لي:

١ ـ أن اقتران دلائل الآفاق ودلائل الأنفس كثير مبثوث في القرآن.

٢ ـ أن من حِكَم اقترانهما: مراعاة حال المخاطب، وتنويع وسائل الاستدلال.

٣ ـ أن النظر في دلائل الآفاق ودلائل الأنفس، مع فهم نصوص الكتاب والسُّنَّة والتدبر فيها كما أمر الله، يوصِل إلى الحق ومعرفة رب العالمين، وأنه هو المستحق للعبادة وحده.

---

(١) زاد المسير ٨/ ٣٧١.

كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصِّلت: ٥٣].

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب[١]: «فإذا قيل لك: بم عرفت ربك؟ فقل: بآياته ومخلوقاته»[٢].

٤ ـ أن القرآن يبدأ تارة بدلائل الأنفس، وبعدها بدلائل الآفاق.

كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الرُّوم].

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ إلى قوله جل وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ الآيات إلى قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ [الواقعة].

وذلك لأن نفس الإنسان أقربُ الأشياء إليه، وهذا مسوغ معقول للبداية بالأقرب.

وتارة يبدأ بدلائل الآفاق، ثم بدلائل الأنفس.

كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الرُّوم].

وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصِّلت: ٥٣].

أ ـ وذلك لأن دلائل الآفاق أبهر وأعظم، فوقعت البداية بها لهذا السبب.

---

(١) هو: الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي، كان حافظاً ذكياً تعلَّم الكثير وانطلق للدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك، ونفع الله به كثيراً وفي مصنفاته، ومنها: «الأصول الثلاثة»، وكتاب «التوحيد»، وغيرها، مات سنة (١٢٠٦هـ)، له تراجم في عدة مصادر، فلينظر: محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه للأستاذ مسعود الندوي ص٣٧ وما بعدها.

(٢) الأصول الثلاثة ١٠.

كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر].

فإذا تأمل الإنسان في عظمة خلق الله أوصله ذلك إلى الإيمان بوحدانية الله تعالى وربوبيته، وإذا تفكر الإنسان في دلائل نفسه، عرف قدرة القدير، وعجز عقله عن التحليل، فكيف إذا قاسها إلى السماوات وما فيها من الشمس والقمر والنجوم، وإلى الأرض وما فيها من البحار والجبال والنبات والحيوان، وهنا يعرف بأن الخالق أجل وأعظم من أن يحيط بوصفه الواصفون، وأن كل ما خلقه الله ففيه الحكم البالغة، والأسرار العظيمة، مما لا سبيل إلى معرفته، وهنا يقول العبد: سبحانك![1].

ب ـ أو لأجل أن دلائل الأنفس حاضرة، لا حاجة بالعاقل إلى التأمل فيها، إنما الذي يَحتاج إلى التأمل فيه دلائل الآفاق؛ لأن الشُّبَه فيها أكثر، فهنا تقع البداية بها[2]، والله أعلم.

وعليه؛ فإن التقديم راجع لما يناسب السياق من حال المخاطب، فإذا لم يَفْهم بُيِّن له بوجه آخر.

فالدلائل المُتَنَوعةُ لا تخلو: أن يُبدأ بالأبْيَن ليُفهم ثم يرتقي إلى الأخفى لزيادة الدلالة، أو يُبدأ بالأعلى لأن له وجهٌ معتبر؛ فإن فهمَه المُستفيد فذلك، وإلا ينْزِلُ درجةً فدرجة ليُفهَم ويزيد الفهم[3].

وقد يُجمَع بين الدلائل في جملةٍ واحدة.

كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾ [الحديد].

قال الرازي: «واعلم أنه تعالى لما ذَكَر دلائل الآفاق أولاً، ودلائل الأنفس ثانياً، ذكر لفظاً يتناول الكل فقال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾»[4]، والله تعالى أعلم.

---

(١) ينظر: تفسير الرازي ٩/ ١١٢.
(٢) ينظر: تفسير الرازي ٣٠/ ١٢٤.
(٣) ينظر: تفسير الرازي ٢٥/ ٨٧، البحر المحيط ٧/ ١٥٩.
(٤) ينظر: تفسير الرازي ٢٩/ ١٨٢.

المبحث الثالث

قرن بعض الأحكام ببعض

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: قرن بعض العبادات الشرعية ببعض.
- المطلب الثاني: قرن بعض الأحكام بما يحث على فعلها.

المطلب الأول

قرن بعض العبادات الشرعية ببعض

مَن تدبر كتاب الله تعالى رأى اقتران بعض العبادات ببعض في آيات كثيرة، ومنها ما هو اقتران في آية واحدة، ومنها ما هو في سياق واحد من الآيات.

ومن أمثلة ذلك:

□ أولاً: الصلاة والزكاة:

قرنت الصلاة بأعمال صالحة كثيرة.

قال ابن تيمية عن الصلاة: «وهي المقرونة بالصبر وبالزكاة وبالنسك وبالجهاد في مواضع من كتاب الله؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، إلى

قوله: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء]»[١].

وأكثر ما اقترنت عبادة الصلاة في كتاب الله تعالى بعبادة الزكاة.

قال الجاحظ: «وفي القرآن معان لا تكاد تفترق مثل: الصلاة والزكاة»[٢].

وقال الرازي: «كلما ذكر الصلاة في كتابه ذكر الزكاة بعدها»[٣].

وقال ابن تيمية: «وأما قرنه بين الصلاة والزكاة في القرآن فكثير جداً»[٤].

ومن الأمثلة على ذلك:

- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة].

قال ابن جزي: «﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ فيه ثلاثة أقوال: الزكاة؛ لاقترانها مع الصلاة، والثاني: أنه التطوع، والثالث: العموم، وهو الأرجح لأنه لا دليل على التخصيص»[٥].

- وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة].

فهذا الاقتران في الألفاظ يدل على الاقتران في الأهمية، حيث يقترنان في الأمر بهما تارة، وفي بيان جزائهما أخرى، وفي مدح من اتصف بهما ثالثة، إلى غير ذلك.

- وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة].

قال أبو السعود: «﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ﴾ عطفٌ على فاعفوا[٦]،

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٧٠.
(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٧.
(٣) تفسير الرازي ١٧/ ٢٤٧.
(٤) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٣٦٢.
(٥) التسهيل ١/ ٧٠.
(٦) قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا =

أُمِروا بالصبر والمداراة واللجأ إلى الله تعالى بالعبادة البدنية والمالية»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة].

قال ابن كثير: «كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال، فإن الصلاة حق الله وعبادته، وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه، وتمجيده والابتهال إليه، ودعائه والتوكل عليه؛ والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك، ثم الأجانب، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنفال].

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ قال جماعة من المفسرين: هي الزكاة.

قال القاضي أبو محمد: وإنما حملهم على ذلك اقتران الكلام بإقامة الصلاة، وإلا فهو لفظ عام في الزكاة ونوافل الخير وصِلات المستحقين»[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة].

فجعل سبحانه سبيل العفو عنهم، وترك رصدهم في الطرق، بالتوبة عن الشرك، ويحصل بالإيمان، وتصديق هذا الإيمان بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، فهما شرط في كف القتال عنهم إذا آمنوا؛ لأنهم صاروا إخواناً كما في الآية

= مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة].

(١) تفسير أبي السعود ١/ ١٤٦.
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١٦٨.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٧٣.

التالية حيث يقول تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة][(١)].

قال أبو السعود: «﴿فَإِن تَابُواْ﴾ عن الشرك بالإيمان بعد ما اضطروا بما ذكر من القتل والأسر والحصر، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم، واكتفى بذكرهما عن ذكر بقية العبادات؛ لكونهما رأسي العبادات البدنية والمالية»[(٢)].

وقال السعدي: «وفي هذه الآية، دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة، فإنه يقاتل حتى يؤديهما، كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه»[(٣)].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج].

قال الطبري: «ويعني بقوله: ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إنْ وطَّنّا لهم في البلاد، فقهروا المشركين وغلبوهم عليها، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، يقول: إن نصرناهم على أعدائهم وقهروا مشركي مكة، أطاعوا الله، فأقاموا الصلاة بحدودها، وآتوا الزكاة؛ يقول: وأعطوا زكاة أموالهم من جعلها الله له»[(٤)].

وقال ابن عاشور: «فأما إقامة الصلاة فلدلالتها على القيام بالدين وتجديدٍ لمفعوله في النفوس، وأما إيتاء الزكاة فهو ليكون أفراد الأمة متقاربين»[(٥)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ١٤/ ١٥٢، تفسير ابن كثير ٤/ ١١٢، التحرير والتنوير ١٠/ ١١٦.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٤٤.
(٣) تفسير السعدي ٣٢٩.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٦٥١.
(٥) التحرير والتنوير ١٧/ ٢٨٠.

في الآيات قبلها بيان أن المؤمن والكافر يستويان في أن الدنيا متاع قليل لهما، فإذا صارا إلى الآخرة كان ما عند الله خير للمؤمن؛ حيث يقول تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشورى].

ثم بيَّن تعالى أن الذين أجابوه إلى ما دعاهم إليه من طاعته، ومنها: إقامة الصلاة، وعدم العجلة بالتشاور في الرأي، والقيام بالنفقة الواجبة والمستحبة(١).

وقال السعدي: «﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾؛ أي: انقادوا لطاعته، ولبَّوْا دعوته، وصار قصدهم رضوانه، وغايتهم الفوز بقربه.

ومن الاستجابة لله، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فلذلك عطفهما على ذلك، من باب عطف العام على الخاص، الدال على شرفه وفضله فقال: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: ظاهرها وباطنها، فرضها ونفلها، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ من النفقات الواجبة؛ كالزكاة والنفقة على الأقارب ونحوهم، والمستحبة؛ كالصدقات على عموم الخلق»(٢).

- وقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [المجادلة].

قال الطبري: «وقوله: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: فإذ لم تقدموا بين يدي نجواكم صدقات، ورزقكم الله التوبة من ترككم ذلك، فأدّوا فرائض الله التي أوجبها عليكم، ولم يضعها عنكم من الصلاة والزكاة، وأطيعوا الله ورسوله، فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه»(٣).

وقال السعدي: «﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: عفا لكم عن ذلك، ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بأركانها وشروطها، وجميع حدودها ولوازمها، ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة في أموالكم إلى مستحقيها.

---

(١) ينظر: تفسير البغوي ٧/ ١٩٧.
(٢) تفسير السعدي ٧٥٩.
(٣) تفسير الطبري ٢٣/ ٢٥١.

وهاتان العبادتان هما أُم العبادات البدنية والمالية، فمن قام بهما على الوجه الشرعي، فقد قام بحقوق الله وحقوق عباده، ولهذا قال بعده: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا أشمل ما يكون من الأوامر»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل].

قال البيضاوي: «﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ الواجبة، ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يريد به الأمر في سائر الإنفاقات في سبل الخيرات، أو بأداء الزكاة على أحسن وجه، والترغيب فيه بوعد العوض كما صرح به في قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ من الذي تؤخرونه إلى الوصية عند الموت، أو من متاع الدنيا»(٢).

وبعدُ؛ فعند تأمل كَثْرة اقتران الصلاة والزكاة في كتاب الله تعالى؛ يظهر ـ والله أعلم ـ **أن من أسباب ذلك**:

١ ـ أن الصلاة والزكاة هما أُم العبادات البدنية والمالية، فمن قام بهما على الوجه الشرعي، فقد قام بحقوق الله وحقوق عباده، فالصلاة عبادة جسدية، وفيها تطهير النفس، والزكاة عبادة مالية وفيها تطهير المال، والصلاة حق للمعبود على عبيده، والزكاة حق للفقراء على الأغنياء، ففيهما جِماع معاني العبادات، وكلُّ إنسان يحتاج إليهما لتطهير نفسه بالصلاة، وماله بالزكاة، والصلاةُ واجبة على الجميع، والمال يحتاج إليه الجميع، ولذا وجبت زكاة المال، ومن لا يملك مالاً فله حقٌّ في مال غيره.

٢ ـ وأن من أقام الصلاة على الوجه الذي طُلب منه، فلا يمكن أن يمنع الزكاة.

٣ ـ وأن الصلاة فيها تكميل النفس، والزكاة فيها تكميل الغير.

وهما مما شرعه الله على من قبلنا كما قال تعالى في إسماعيل عليه السلام:

---

(١) تفسير السعدي ٨٤٦.

(٢) تفسير البيضاوي ٥/ ٤٠٩.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾ [مريم].

ومن لطائف قرن الزكاة بالصلاة ما جاء في قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ۝٣٧﴾ [النور]، مع أن الزكاة لا تفعل في المساجد، ولكن لكونها قرينة لا تفارق إقامة الصلاة في عامة المواضع، مع ما فيه من التنبيه على أن محاسن أعمالهم غير منحصرة فيما يقع في المساجد، وكذلك خوفهم ليس مقصوراً على كونهم في المساجد[(١)].

ولفضل الصلاة والزكاة وشرفهما خصَّهما سبحانه بالذكر بعد أمره بعبادته في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البيِّنة]، ولكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين[(٢)].

قال البيضاوي: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة عطفهما على ما يعمُّهما لإنافتهما[(٣)] على سائر الأعمال الصالحة»[(٤)].

❏ ثانياً: اقتران الصلاة والصبر:

جاء اقتران الصلاة بالصبر في مواضع كثيرة في كتاب الله.

قال ابن تيمية: «يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيراً كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ﴾ [البقرة: ٤٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤﴾ [هود]، ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٥﴾ [هود]، وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ﴾ [طه: ١٣٠]،

---

(١) ينظر: روح المعاني ١٨/١٧٨. (٢) ينظر: تفسير السعدي ٨٦١.

(٣) لعلها من استأنف الشيء وأتنفه إذا أخذ أوله وابتدأه، لسان العرب ٩/١٢، فالصلاة والزكاة هما أساس الأعمال وأولها.

(٤) تفسير البيضاوي ١/٥٧٦.

وكذلك في سورة ق: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحجر]، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر]»(١).

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة].

ففي هذه الآية حث على تحمل مصائب الدنيا والاستعانة على جميع المطالب بالصبر والصلاة، فبهما يسهل على العبد القيام بالطاعات، وترك المحرمات، وتخف الكريهات، وبيَّن سبحانه أنه لا يوفق إلى الاستعانة بهما إلا الخاشعون(٢).

قال ابن كثير: «لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الصبر، والإرشاد إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في نقمة فيصبر عليها؛ كما جاء في الحديث: **«عجباً للمؤمن! لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له: إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له؛ وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له»**(٣).

وبيَّن تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة، كما تقدم في قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة]»(٤).

ـ وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة].

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٣٦١.

(٢) ينظر: التسهيل ١/ ٩٠، القواعد الحسان ١٣١.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) ٤/ ٢٢٩٥، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، بلفظ: **«عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»** من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ٤٤٦.

وهنا ختم الآية بغير ما ختم به الأولى، وفي كلٍّ مراعاة سياق الآية.

ففي الآية الأولى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة]، إشارة إلى التثاقل والتكاسل ممن قل عنده الإخلاص، وضعف لديه اليقين، وذلك مناسب لحال بني إسرائيل الذين تتحدث عنهم الآيات قبل، كما أخبر تعالى عن حال المنافقين وأكثرهم من يهود: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة: ٥٤]، وقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢].

وأما الآية الثانية فالنداء فيها للمؤمنين، وحالهُم حالُ رِضَى واستقامة؛ فناسب وصفُهم بالصبر، إذ بالصبر على الطاعات حصول الدرجات.

فجاء ختام كل آية بما يناسب سياقها، والله أعلم بما أراد(١).

ـ وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢﴾ [الرعد].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٧﴾ [لقمان].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بحدودها ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ يقول: وأمر الناس بطاعة الله، واتباع أمره ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ يقول: وانه الناس عن معاصي الله ومواقعة محارمه ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يقول: واصبر على ما أصابك من الناس في ذات الله، إذا أنت أمرتهم بالمعروف، ونهيتهم عن المنكر»(٢).

ـ وقوله سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۝١٣٢﴾ [طه].

قال ابن تيمية: «وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤﴾ [هود]، ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٥﴾ [هود]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ

---

(١) ينظر: ملاك التأويل ١/٣٨.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/١٤٢، وينظر: تفسير القرطبي ١٤/٦٨، تفسير ابن كثير ٦/٣٣٨.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ۝٥٥﴾ [غافر]، وقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ﴾ [طه: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٣﴾ [البقرة]، فهذه مواضع قَرَنَ فيها الصلاة والصبر»(١).

ومن أوجه المناسبة لاقتران الصبر والصلاة:

١ ـ أن الصلاة وغيرها من العبادات تحتاج إلى صبر، كما قال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ۝١٣٢﴾ [طه]، فاقترانهما لأن أحدهما يعين على الآخر.

قال ابن القيم: «قرن سبحانه الصبر بأركان الإسلام ومقامات الإيمان كلها.

فقرنه بالصلاة كقوله: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقرنه بالأعمال الصالحة عموماً كقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١]، وجعله قرين التقوى كقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ [يوسف: ٩٠]، وجعله قرين الشكر كقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝٥﴾ [إبراهيم]، وجعله قرين الحق كقوله: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر]، وجعله قرين الرحمة كقوله: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ۝١٧﴾ [البلد]، وجعله قرين اليقين كقوله: ﴿لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السجدة]، وجعله قرين الصدق كقوله: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وجعله سبب محبته ومعيته، ونصره وعونه، وحسن جزائه، ويكفي بعض ذلك شرفاً وفضلاً، والله أعلم»(٢).

٢ ـ أنه يكتنف إقامةَ الصلاة جميعُ أنواع الصبر، فمَن أقامها كاملةً فقد جمع الصبر بأنواعه، ولذا قال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ۝١٣٢﴾ [طه]، فاستعمل القرآن صيغة

---

(١) مجموع الفتاوى ١١/ ٣٥.
(٢) عدة الصابرين ٦١.

المبالغة في الفعل، وزيادة المبنى في العادة تدل على زيادة المعنى.

وفي أمْر الرسول ﷺ بالاصطبار عليها أمر بالمداومة، وفيه إشارة إلى أن في رعاية العبادة حق الرعاية مشقة على النفس، وقوله: ﴿لَا نَسْئَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: ١٣٢]، دفعٌ لما قد يخطر ببال أحدٍ من أن المداومة على الصلاة رُبما تضُر بالمعاش، فكأنه قيل: داوموا على الصلاة غير مشتغلين بأمر المعاش عنها إذ لا نكلفكم رزق أنفسكم نحن نرزقكم، وفيه إشعار بأن الصلاة سبب لزيادة الرزق وزوال الهم(١).

٣ ـ أن الصبر والصلاة مما يُستعان بهما على النوائب والمصائب وتحمُّل الشدائد؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة].

٤ ـ أن الصلاة نور والصبر ضياء، فاجتمع فيهما معنى النور، كما قال ﷺ: «**والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء**»(٢).

قال ابن رجب: «فهذه الأنواع الثلاثة من الأعمال أنوار كلُّها، لكن منها ما يختص بنوع من أنواع النور، فالصلاة نور مطلق، وأما الصبر فإنه ضياء، والضياء هو النور الذي يحصل فيه نوع حرارة وإحراق، كضياء الشمس، بخلاف القمر فإنه نور محض، فيه إشراق بغير إحراق، قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]»(٣).

وهذه المناسبة في الشمس والقمر جعلتهما متكاملين، وهكذا في الصلاة والصبر، فالصلاة نور مطلق، وفيها راحة النفس، وقرة العين، وأما الصبر فضياء فيه نوع حرارة، فهو نور لقلب المؤمن عند صبره على الطاعات وعن المحرمات وعلى البلايا والملمَّات، وفي الصبر عواقب حميدة في الدنيا

(١) ينظر: روح المعاني ١٦/ ٢٨٥.
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣) ١/ ٢٠٣، كتاب الطهارة باب فضل الوضوء، من حديث أبي مالك الأشعري.
(٣) جامع العلوم والحكم ٢/ ١٦٥.

والآخرة لمن أخلص نيته لله تعالى، وفيه حرارة بسبب منع النفس عما ترغب، وحبسها على ما تكره، وحرارة الصبر تذهبه راحة الصلاة، فيحصل النور الكامل لمن صلى وصبر.

٥ ـ أنه باجتماع هذه العبادات صلاح الخلق أجمع.

قال ابن تيمية: «فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية؛ إذا عرف الإنسان ما يدخل في هذه الأسماء الجامعة.

يدخل في الصلاة ذكر الله تعالى ودعاؤه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له، والتوكل عليه، وفي الزكاة الإحسان إلى الخلق بالمال والنفع من نصر المظلوم وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج، وفي الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الأشر والبطر»[(١)].

□ ثالثاً: اقتران عبادة الله وبر الوالدين:

قَرَن الله تعالى بين عبادته والإحسان إلى الوالدين في كتابه، ومن هذه الآيات ما يلي:

ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة].

فهنا قرن تعالى بين عبادته والإحسان إلى الوالدين، وفيه التأكيد على أهميته ووجوبه.

قال الجصاص: «قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ يدل على تأكيد حق الوالدين، ووجوب الإحسان إليهما كافرين كانا أو مؤمنين؛ لأنه قرنه إلى الأمر بعبادته تعالى»[(٢)].

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ أي: وأمرناهم بالوالدين إحساناً، وقرن الله ﷻ في هذه الآية حق الوالدين بالتوحيد؛ لأن

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٣٦٢.

(٢) أحكام القرآن ١/ ٤٧.

النشأة الأولى من عند الله، والنشء الثاني ـ وهو التربية ـ من جهة الوالدين، ولهذا قرن تعالى الشكر لهما بشكره فقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]»[١].

وقال ابن كثير: «يُذكّر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر، وأخذ ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولوا عن ذلك كله، وأعرضوا قصداً وعمداً، وهم يعرفونه ويذكرونه، فأمرهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تعالى، أن يُعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين، وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن الله تعالى بين حقه وحق الوالدين، كما قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الآية، إلى أن قال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٦]»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء].

في هذه الآية قرن تعالى الإحسان إلى الوالدين بأعظم أمر، وأعظم نهي، وهذا دليل على عِظَم هذا الحق.

قال السمرقندي: «﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾؛ أي: أحسنوا إلى الوالدين؛ يعني: براً بهما وعطفاً عليهما، وفي هذه الآية: بيان حُرْمَة الوالدين؛ لأنه قرن حق الوالدين بعبادة نفسه، ويقال: ثلاث آيات نزلت مقرونة بثلاث، لا يقبل

(١) تفسير القرطبي ٢/ ١٣.
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٣١٦.

إحداها بدون الأخرى، إحداها: قوله ﷻ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]، والثانية: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، والثالثة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وغيرها»[١].

قال الجصاص: «قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ فقرن تعالى ذكره إلزام بر الوالدين بعبادته وتوحيده، وأمر به كما أمر بهما، كما قرن شكرهما بشكره في قوله تعالى: ﴿اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ۝١٤﴾ [لقمان]، وكفى بذلك دلالة على تعظيم حقهما، ووجوب برهما والإحسان إليهما»[٢].

وقال ابن كثير: «وكثيراً ما يقرنُ الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين؛ كقوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، وكقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]»[٣].

- وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٥١﴾ [الأنعام].

- وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣﴾ [الإسراء].

قال القرطبي: «أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده، وجعل بر الوالدين مقروناً بذلك، كما قرن شكرهما بشكره فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ۝١٤﴾ [لقمان]»[٤].

وقال ابن كثير: «والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين، كما قال: ﴿...أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ۝١٤ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا

---

(١) تفسير السمرقندي ١/ ٩٦.
(٢) أحكام القرآن ٣/ ١٥٥.
(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٩٨.
(٤) تفسير القرطبي ١٠/ ٢٣٨.

لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان]، فأمر بالإحسان إليهما، وإن كانا مشركين بحسبهما، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية [البقرة: ٨٣]، والآيات في هذا كثيرة»[١].

وقال في تفسير آية لقمان: «ثم قَرَنَ بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن»[٢].

وهو كذلك فالأمثلة كثيرة، بل لا تكاد تجد الحث على بر الوالدين أو التحذير من عقوقهما إلا وقبلها أو بعدها الحديث عن عبادة الله وتوحيده أو النهي عن الشرك.

وعند التماس المناسبة في هذا الاقتران، تبين لي من الأوجه ما يلي:

١ ـ أن سبب وجود الإنسان الحقيقي هو إيجاد الله تعالى له، والسبب الظاهري لوجوده والداه، فأمر بتعظيم الموجد الأول، ثم قرنه بمن كان سبباً في وجوده ظاهراً، فالمناسبة في الإيجاد.

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى أمر بعبادة نفسه ثم أتبعه بالأمر ببر الوالدين، وبيان المناسبة بين الأمر بعبادة الله تعالى وبين الأمر ببر الوالدين من وجوه:

الوجه الأول: أن السبب الحقيقي لوجود الإنسان هو تخليق الله تعالى وإيجاده، والسبب الظاهري هو الأبوان، فأمر بتعظيم السبب الحقيقي، ثم أتبعه بالأمر بتعظيم السبب الظاهري»[٣].

٢ ـ أن الله أمر بتعظيم حقه تعالى، وأمر بتعظيم حقوق المخلوقين، وأحق الناس بذلك الوالدان، ففيه تأكيد الوجوب.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦١.
(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٣٦.
(٣) تفسير الرازي ٢٠/ ١٤٧.

قال القرطبي: «﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ فقد قرن بين عبادته وبين الإحسان للوالدين في الوجوب»[(١)].

٣ ـ أن نعم الله تعالى لا تعد ولا تحصى فوجب شكره عليها، وأعظم منعم على الإنسان بعد ربه والداه، ولذا جاء اقتران شكره تعالى بشكر الوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان]، وأحق الناس بالشكر بعد الله هما الوالدان.

قال الرازي: «ليس لأحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد فبدأ الله تعالى بشكر نعمة الخالق وهو قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ثم أردفه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] والسبب فيه ما بينا أن أعظم النعم بعد إنعام الإلـه الخالق نعمة الوالدين»[(٢)].

٤ ـ تربية النفس على الوفاء بالحق لله تعالى، والوفاء بالحق لعموم الخلق، والتأكيد لأول وأولى الحقوق وهو حق الوالدين.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾ [مريم: ٣٢]؛ أي: وأمرني ببر والدتي، ذكره بعد طاعة الله ربه؛ لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين»[(٣)].

كما أوصى الله تعالى بذلك فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف].

---

(١) تفسير القرطبي ٥/ ٧.
(٢) تفسير الرازي ٢٠/ ١٤٨.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٢٩.

وقبلها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف].

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن؛ كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة»(١).

❑ رابعاً: اقتران عبادة الله والتوكل:

قال ابن كثير: «وكثيراً ما يقرن الله بين العبادة والتوكل، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل]، وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة]»(٢).

ومن الأمثلة على ذلك:

- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل موسى نبيِّه لقومه: يا قوم إن كنتم أقررتم بوحدانية الله، وصدقتم بربوبيته فعليه توكلوا، يقول: فبه فثقوا، ولأمره فسلموا، فإنه لن يخذل وليّه، ولن يسلم من توكل عليه، ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾، يقول: إن كنتم مذعنين لله بالطاعة، فعليه توكلوا»(٣).

وقال السعدي: «﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ فقوموا بوظيفة الإيمان»(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٧٩.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٨٨.
(٣) تفسير الطبري ١٥/ ١٦٨.
(٤) تفسير السعدي ٣٧١.

ـ وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ١٢٩﴾ [التوبة].

بيَّن تعالى أنه هو الكافي لعبده، لا معبود بحق إلا هو، وربط بهذه الشهادة التوكل عليه فهو الكافي، وختم الآية بأنه رب العرش العظيم، الذي يملك كلَّ ما دونه، والملوك كلهم مماليكه وعبيده(١).

وقال السعدي: «﴿فَإِن﴾ آمنوا، فذلك حظهم وتوفيقهم، وإن ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ عن الإيمان والعمل، فامض على سبيلك، ولا تزل في دعوتك، وقل ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الله كافيَّ في جميع ما أهمني، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحق سواه.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: اعتمدت ووثقت به، في جلب ما ينفع، ودفع ما يضر»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٢٣﴾ [هود].

أمر الله تعالى بعبادته ثم ذكر التوكل على وجه الخصوص؛ لتأكيده وبيان أهميته، وأن التوكل هو وظيفة الإيمان.

قال أبو السعود: «﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنه كافيك، والفاء لترتيب الأمر بالعبادة والتوكل، على كون مرجع الأمور كلها إلى الله تعالى، وفي تأخير الأمر بالتوكل عن الأمر بالعبادة إشعار؛ لأنه لا ينفع دونها»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ٣٠﴾ [الرعد].

أمر الله نبيه ﷺ بالتصريح بالدين والإفصاح في الدعوة في قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، والمتاب: المرجع كالمآب لأن التوبة الرجوع(٤).

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ١٤/ ٥٨٧، وتفسير ابن كثير ٤/ ٢٤٣.
(٢) تفسير السعدي ٣٥٦.
(٣) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤٩.
(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٣/ ٣١٦.

قال ابن كثير: «﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن به، معترف مقر له بالربوبية والإلـٰهية، هو ربي لا إلـٰه إلا هو، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: في جميع أموري»(١).

- وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى].

قال الطبري: «وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، يقول: إلى الله أفوض أمري، فإنه ثقتي، وعليه اعتمادي في أموري، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾، وإليه أُقبل بالطاعة، وأرْجع بالتوبة»(٢).

- وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة].

- وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الملك].

- وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل]؛ أي: هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب لا إلـٰه إلا هو، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل، ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وكقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة]، وآيات كثيرة في هذا المعنى، فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله، وتخصيصه بالتوكل عليه»(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٦٠.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٤٥٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٨/ ٢٥٥.

ومن أوجه مناسبة اقتران التوكل بالعبادة:

١ ـ أنهما الجامعان للدين كله.

قال ابن تيمية: «فهو جَمَع بين العبادة والتوكل في عدة مواضع؛ لأن هذين يجمعان الدين كله»[١].

٢ ـ أن المستحق للعبادة والتوكل هو الله وحده.

قال ابن كثير: «﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام]، يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾؛ أي: أطلب ربّاً سواه، وهو رب كل شيء، يُرَبِّني ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري؛ أي: لا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شيء ومليكه، وله الخلق والأمر.

هذه الآية فيها الأمر بإخلاص التوكل، كما تضمنت الآية التي قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له، وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيراً في القرآن كما قال تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة]، وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل]، وأشباه ذلك من الآيات»[٢].

٣ ـ أن من أراد تحقيق العبودية لله تعالى، فلا يستغني عن التوكل على الله تعالى، فهو الموفق وهو المعين، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة].

٤ ـ أن اجتماعهما يفيد معنى زائداً على إفراد واحد منهما في موضع دون الآخر.

قال السعدي: «إذا أفردت العبادة في القرآن تناولت جميع ما يحبه الله

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ١٨.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٣.

ويرضاه ظاهراً وباطناً، ومن أول وأهم ما يدخل فيها: التوكل والاستعانة، وإذا جُمع بينها وبين التوكل والاستعانة، نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]، ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، فسرت العبادة بجميع المأمورات الباطنة والظاهرة، وفسر التوكل باعتماد القلب على الله في حصولها وحصول جميع المنافع ودفع المضار، مع الثقة التامة بالله في حصولها»(١).

فقد جاء التوكل على الله تعالى في القرآن أمراً للنبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وأمْراً للناس على ألسن الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤﴾ [يونس]، وجعله الله من صفات الرسل، كما قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود]، وجعله من صفات المؤمنين الصادقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال]، وبيَّن فضائله وآثاره، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزُّمر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطَّلاق: ٣]، فصار التوكل عند الإطلاق دالاً على العبادة، وعند إطلاق العبادة دليل عليه، وعند اقترانهما تأكيد وزيادة كمال في العبادة.

قال الغزالي(٢): «وكل ما ذُكِر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار، والتوكل على الواحد القهَّار»(٣).

وأختِم بقول ابن القيم: «وهذان الأصلان وهما التوكل والعبادة قد ذُكرا

---

(١) القواعد الحسان ٣٨.

(٢) هو: محمد بن محمد الطوسي الغزالي الشافعي، أبو حامد، فقيه أصولي متكلم، له نحو ٢٠٠ مصنف، من أشهر مصنفاته: «إحياء علوم الدين»، «ياقوت التأويل في تفسير التنزيل»، و«المستصفى من علم الأصول»، و«الاقتصاد في العلوم»، و«المنقذ من الضلال»، مات سنة (٥٠٥هـ)، له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ١٢/ ٧٥، شذرات الذهب ٤/ ١٠.

(٣) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٤٤.

في القرآن في عدة مواضع قرن بينهما فيها هذا أحدها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة].

الثاني: قول شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود].

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٢٣﴾ [هود].

الرابع: قوله تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤﴾ [الممتحنة].

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل].

السادس: قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾ [الشورى].

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين، وهما: إياك نعبد وإياك نستعين»[(١)].

والله تعالى أعلم.

❑ خامساً: اقتران الإيمان والعمل الصالح:

قرَن الله تعالى في كتابه بين الإيمان والعمل الصالح في أكثر من ثمانين موضعاً؛ وذلك لأن الإيمان لا يكتمل بلا عمل صالح، والعمل لا يكون صالحاً بلا إيمان.

قال ابن عاشور: «وهذا اصطلاح القرآن في الغالب أن يقرن الإيمان بالعمل الصالح، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝١٦﴾ [الروم]»[(٢)].

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٧٥.

(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ١١٧.

ومن الأمثلة على ذلك:

- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة].

- وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عمران].

- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف].

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس].

- وقوله تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ [الحج].

- وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص].

- وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [فاطر].

ونستفيد من هذه العادة الواضحة في كتاب الله تعالى ما يلي:

١ ـ أن اقتران الإيمان والعمل الصالح كثيراً يدل على الأهمية الكبيرة التي يوليها القرآن لهذه المسألة، والتي تعتبر القاعدة الأساسية في سعادة الإنسان، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل].

فأخبر جل وعلا ووعد من جَمَع بين الإيمان والعمل الصالح بالحياة الطيبة، والجزاء الحسن في الدنيا والآخرة.

٢ ـ التأكيد على تلازم الإيمان والعمل الصالح، فالعمل الصالح مصدق للإيمان، والإيمان لازم لقبول العمل الصالح.

فلأن الإيمان يدفع إلى العمل الصالح، والعمل الصالح يؤكد الإيمان ويدعمه ويقويه، اقترنا في القرآن كثيراً.

ومن أقرب ما يدل على هذا التلازم قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء]؛ لأنها في سياق الرد على من تسمى بالإيمان بالقول، دون إصلاح العمل، حيث قال تعالى قبلها: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء]، وقال بعدها: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء].

قال الحسن البصري: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل»[(١)].

٣ ـ أن اجتماع الإيمان والعمل الصالح هو الذي يترتب عليه الفوز الكبير والجزاء العظيم، في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [المائدة].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ [مريم].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٨٠ (٦٦).

٤ ـ أن العمل الصالح جزء من الإيمان، وذكره مقترناً به؛ لزيادة البيان وكمال الإيمان.

قال السعدي: «والآيات التي قرن الإيمان فيها بالعمل الصالح؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، يُفسَّر الإيمان فيها بما في القلوب من المعارف والتصديق، والاعتقاد والإنابة، والعمل الصالح بجميع الشرائع القولية والفعلية»[١].

٥ ـ أكثر مواضع اقتران الإيمان والعمل الصالح جاء بتقديم الإيمان على العمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه]، لكن تقديم العمل الصالح في بعض المواضع أدل على التلازم، كما قال تعالى في السورة نفسها: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه]، فهذا دليل على أنه لا يُقبل العمل الصالح بلا إيمان، ولا الإيمان بلا عمل صالح.

وتقديم الإيمان في أكثر المواضع؛ لأن المراد به قول القلب وعمله، وهو الأصل.

وإذا قُدم عملٌ على الإيمان دلَّ على أهميته من بين أعمال الإيمان حسب السياق، كما قدم الله سبحانه الشكر على الإيمان في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء].

قال البغوي: «﴿إِن شَكَرْتُمْ﴾؛ أي: إن شكرتم نعماءه، ﴿وَءَامَنتُمْ﴾ به، فيه تقديم وتأخير؛ لأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان»[٢].

قال البيضاوي: «وإنما قدم الشكر؛ لأن الناظر يدرك النعمة أولاً فيشكر شكراً مبهماً، ثم يمعن النظر حتى يعرف المنعم فيؤمن به»[٣].

وقدم جل وعلا الصلاة والزكاة على الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي

---

(١) القواعد الحسان ٣٧.
(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٠٣.
(٣) تفسير البيضاوي ٢/ ٢٧٢.

﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [المائدة: ١٢].

قال أبو السعود: «وتأخير الإيمان عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ـ مع كونهما من الفروع المترتبة عليه ـ لما أنهم كانوا معترفين بوجوبهما مع ارتكابهم لتكذيب بعض الرسل عليهم السلام»[(١)].

المطلب الثاني

قرن الأحكام بما يحث على فعلها

جاء في كتاب الله تعالى الاقتران بين الأمر بالشيء وما يحث على فعله، والنهي عن الشيء وما يحث على تركه.

قال السعدي: «قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [لقمان]، يشير تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾؛ أي: آياته محكمة، صدرت من حكيم خبير.

ومن إحكامها: أنها ما أمرت بشيء، إلا وهو خالص المصلحة، أو راجحها، ولا نهت عن شيء، إلا وهو خالص المفسدة أو راجحها، وكثيراً ما يجمع بين الأمر بالشيء، مع ذكر حكمته وفائدته، والنهي عن الشيء، مع ذكر مضرته»[(٢)].

وفي كل أوامر القرآن ونواهيه جَلْبُ الخير للخلق ودفع الشر عنهم، وذكر الفوائد العاجلة والآجلة للقيام بالأوامر، وذكر المحاذير من فعل النواهي، مما يحث على الفعل أو الترك، وقد أولى القرآن هذه المعاني عناية تامة، فقَرَن الله تعالى بين الحُكم ومعَان تَحُث على فعله أو تركه، والإنسان مأمورٌ بالامتثال المطلَق، سواء عرف الحِكْمة من الأوامر والنواهي، أو خفيت عليه، ولكن عادةُ القرآن ذِكرُ بعضِ الحِكَم والثمرات لامتثال أحكام القرآن فعلاً أو تركاً.

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/ ١٥، وينظر: روح المعاني ٦/ ٨٧.
(٢) تفسير السعدي ٦٤٦.

ومن الأحكام التي اقترن بها ما يحث على فعلها:

❑ أولاً: قرن الأمر بإقامة الصلاة بما يحث على فعلها:

فقد أمر الله بإقامة الصلاة في مواضع كثيرة، وقرَن بها ما يحث على فعلها.

ومن الأمثلة على ذلك:

- قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت].

قال ابن كثير: «الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر، كما قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت]»(١).

وقال السعدي عن إقامة الصلاة: «فهذه الصلاة هي التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾، وهي التي يترتب عليها الثواب، فلا ثواب للإنسان من صلاته، إلا ما عقل منها، ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها»(٢).

- وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون]، إلى قوله جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون].

قال البيضاوي: «﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ بيان لما يرثونه، وتقييد للوراثة بعد إطلاقها تفخيماً لها وتأكيداً، وهي مستعارة لاستحقاقهم الفردوس من أعمالهم، وإن كان بمقتضى وعده مبالغة فيه، وقيل: إنهم يرثون من الكفار منازلهم فيها(٣) حيث فوّتوها على أنفسهم؛ لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلاً

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢٥٢.
(٢) تفسير السعدي ٤٠.
(٣) هذا قول الفراء والسمرقندي. ينظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٣٣٠، تفسير السمرقندي ٢/ ٤٧٤.

في الجنة ومنزلاً في النار[(١)]»[(٢)].

وقال السعدي: «﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾ الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها أو المراد بذلك جميع الجنة ليدخل بذلك عموم المؤمنين على درجاتهم ومراتبهم كل بحسب حاله»[(٣)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج].

قال ابن كثير: «ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾؛ أي: على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها، كما تقدم في أول سورة: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾﴾ سواءً.

ولهذا قال هناك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون]، وقال هاهنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾؛ أي: مكرمون بأنواع الملاذ والمسار»[(٤)].

وجاء الوعيد على من تركها، كما قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم].

ومعنى إضاعتها: تأخيرها عن وقتها، وقيل: تركوها.

قال ابن جزي: «أضاعوا الصلاة، قيل: تركوها، وقيل: أخرجوها عن

---

(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا له منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾**» أخرجه ابن ماجه ٢/١٤٥٣ (٤٣٤١) وهو آخر حديث فيه، كتاب الزهد، باب صفة الجنة، وقال الألباني: صحيح، في صحيح سنن ابن ماجه ٣/٤١١ (٣٥١٩)، وينظر: السلسلة الصحيحة ٥/٣٤٨ (٢٢٧٩).

(٢) تفسير البيضاوي ٤/١٤٨، وينظر: تفسير الرازي ٢٣/٧٢، تفسير القرطبي ١٢/١٠٨، روح المعاني ١٨/١٢.

(٣) تفسير السعدي ٥٤٧.

(٤) تفسير ابن كثير ٨/٢٢٧.

أوقاتها، ﴿يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ الغي: الخسران»[١].

- وقوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٤٣﴾ [المدّثر].

فأول ما ذَكَروا مما عُذِّبوا عليه ترك الصلاة.

قال الطبري: «﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٤٣﴾ يقول: قال المجرمون لهم: لم نك في الدنيا من المصلين لله»[٢].

❑ ثانياً: قرن النفقة بما يحث عليها:

اقترن بالزكاة في القرآن ما يحث على فعلها، واجبها ونفلها.

ومن الأمثلة على ذلك:

- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝٣٩﴾ [سبأ].

- وقوله تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦﴾ [الأعراف].

فجعل من ثمارها الفوز بالقرب من رحمة الله.

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١٨﴾ [الحديد].

بيَّن سبحانه أن الصدقة تضاعف إلى أضعاف كثيرة.

- وقوله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝١٧﴾ [التغابن].

قال ابن كثير: «﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾؛ أي: مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاؤه»[٣].

---

(١) التسهيل ٢/ ١٦١.
(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٧.
(٣) تفسير ابن كثير ٨/ ١٤١.

ـ وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل].

قال أبو السعود: «فسنُهَيئه للخصلة التي تؤدي إلى يسر وراحة كدخول الجنة ومباديه»[(١)].

وقال السعدي: «من قواعد القرآن: أنه يبين أن الأجر والثواب على قدر المشقة في طريق العبادة، ويبين مع ذلك أن تسهيله لطريق العبادة من منَّته وإحسانه، وأنها لا تنقص من الأجر شيئاً»[(٢)].

فمن نعم الله تعالى على الخلق أن يسَّر لهم سبل الخير، وبيَّن لهم الأجر والثواب الكبير عليها؛ ليكون معيناً على فعلها.

ومن عادة القرآن أنه كلما جاء ذمُّ الربا كان قبله أو بعده ذكر فضل الصدقة.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝٢٧٦﴾ [البقرة].

قال ابن عاشور: «﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ﴾ استطراد لبيان عاقبة الصدقة في الدنيا، أيضاً ببيان أن المتصدق يفوز بالخير في الدارين، كما باء المرابي بالشر فيهما، فهذا وعد ووعيد دنيويان»[(٣)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦١ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٦٢﴾ [النساء].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ۝٣٩﴾ [الرُّوم].

---

(١) تفسير أبي السعود ٩/١٦٦.
(٢) القواعد الحسان ١١٢.
(٣) التحرير والتنوير ٣/٩١.

ثالثاً: قرن بالصيام بما يحث على فعله:

فقد قرنه الله تعالى بالحكمة من فرضه، وما يحث على فعله:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾ [البقرة].

ففي الآيتان عدد من الأمور التي تحث على الصيام، وترغب فيه:

١ ـ أن فَرْض الصيام عليكم، كما فُرِض على من قبلكم، وفي هذا تسهيل لهم.

٢ ـ أن من ثمرات الصيام: تحقيق التقوى.

٣ ـ أن الصيام أياماً معدودات.

٤ ـ الرخصة للمعذور، وجواز تأخير الصيام إلى أيام أخر.

وهذا مما يرغب المسلم بهذه العبادة العظيمة، ويسهلها عليه.

رابعاً: قرن الحج بمنافعه حثّاً على فعله:

قرن الله تعالى الحج بما يحث على فعله.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾ [الحج].

قال ابن كثير: «قال ابن عباس: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ قال: منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة فرضوان الله، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البُدْن والربح والتجارات.

وكذا قال مجاهد، وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة؛ كقوله: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٨]»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ [الحج].

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٤١٤.

فمن ثمرات الحج تقوى القلوب، وفيه مراعاة ذكر الفضل حثاً على العمل.

قال السعدي: «فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب، فالمعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله»(١).

◻ خامساً: اقتران ذكر القرآن بما يحث على العمل بما فيه:

جاء اقتران القرآن بذكر ما يحث على تلاوته، والعمل بما فيه.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء].

بيَّن تعالى أن القرآن هداية للخلق، وفي كل زمان ومكان يرشد إلى أهدى الأمور وأقومها، ويبشر بالأجر الكبير للمؤمنين العاملين للصالحات.

قال ابن كثير: «يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، وهو القرآن، بأنه يهدي لأقوم الطرق، وأوضح السبل»(٢).

قال السعدي: «القاعدة التاسعة والخمسون، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ما أعظمَ هذه القاعدةَ، وما أحكم هذا الأصلَ العظيمَ الذي نص الله نصاً صريحاً على عموم ذلك، وعدم تقيد هذا الهدى بحالة من الأحوال فكل حالة هي أقوم، في العقائد والأخلاق والأعمال والسياسات الكبار والصغار والصناعات والأعمال الدينية والدنيوية، فإن القرآن يهدي إليها ويرشد إليها، ويأمر بها ويحث عليها»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ [فاطر].

قال الفراء: «وقوله: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ جواب لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾»(٤).

---

(١) تفسير السعدي ٥٣٨.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٤٨.
(٣) القواعد الحسان ١٢٦.
(٤) معاني القرآن ٢/ ٣٦٩.

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه، ويؤمنون به، ويعملون بما فيه، من إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩﴾؛ أي: يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٣٠]؛ أي: ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم، ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾؛ أي: لذنوبهم، ﴿شَكُورٌ ۝٣٠﴾ [فاطر] للقليل من أعمالهم»(١).

وكثرةُ أوصاف القرآن تدل على فضله وشرفه، والحث على القرب منه، ولذا حث الله على تدبر آياته؛ لأنه يوصل إلى العلم والعمل.

ـ كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ [ص].

فالاستفادة الحقَّة من هذا الكتاب الكريم تكون بدوام الصلة به علماً وعملاً، تلاوة وتدبراً.

وتيسير القرآن للناس من وسائل الترغيب في القيام بحقه، وعدم هجره.

ـ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر].

قال ابن عطية: «يسر بما فيه من حسن النظر وشرف المعاني، فله لَوْطة(٢) بالقلوب وامتزاج بالعقول السليمة، وقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ استدعاء وحض على ذكره وحفظه؛ لتكون زواجره وعلومه وهداياته حاضرة في النفس»(٣).

وقال ابن جزي: «﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ وإنما كرر هذه الآية البليغة، وقوله: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٧﴾ [القمر]؛ لينبه السامع عند

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٤٥.

(٢) قال ابن منظور: «والولد ألوط؛ أي: أَلصَقُ بالقلب، وكذلك كل شيء لَصِق بشيء فقد لاَطَ به يَلوط لَوْطاً ويَليطُ لَيْطاً ولِياطاً: إذا لَصِق به؛ أي: الولد ألصق بالقلب، والكلمة واوية ويائية، وإني لأَجِدُ له لَوْطاً ولَوْطةً ولُوطةً». لسان العرب ٧/ ٣٩٤.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٦.

كل قصة فيعتبر بها، إذ كل قصة من القصص التي ذكرت عبرة وموعظة، فختم كل واحدة بما يوقظ السامع من الوعيد في قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ [القمر]، ومن الملاطفة في قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر]»[١].

❑ سادساً: قرن الاستغفار بالخير وسعة الرزق:

ـ كما قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود].

قال الطبري: «وقوله: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، يقول تعالى ذكره للمشركين الذين خاطبهم بهذه الآيات: استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، فإنكم إذا فعلتم ذلك بسط عليكم من الدنيا ورزقكم من زينتها، وأنسأ لكم في آجالكم إلى الوقت الذي قضى فيه عليكم الموت، وبنحو الذي قلنا في تأويل ذلك قال أهل التأويل»[٢].

وقال السعدي: «ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾؛ أي: يعطيكم من رزقه، ما تتمتعون به وتنتفعون»[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود].

ذكر الله تعالى في كتابه أسباب الرزق، وأهمها طاعة الله ورسوله، ولزوم التقوى، ومن ذلك كثرة الاستغفار، كما في هذه الآيات.

ـ وقوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح].

قال الماوردي: «﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ وهذا فيه

---

(١) التسهيل ٣/١٠٦.
(٢) تفسير الطبري ١٥/٢٢٩.
(٣) تفسير السعدي ٣٧٦.

ترغيب في التوبة»[١].

وقال ابن جزي: «﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ وفي الآية دليل على أن الاستغفار يوجب نزول الأمطار»[٢].

وقال السعدي: «﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾، فأخبر أن الاستغفار سبب يُستجلب به مغفرة الله ورزقه وخيره، وضد ذلك سبب للفقر والتيسير للعسرى»[٣].

وفي هذه الآيات من فضائل الاستغفار المرغبة فيه:

١ ـ أنه طاعة لله ورسوله.

٢ ـ وأنه سبب لمغفرة الذنوب، ونزول الأمطار، والإمداد بالأموال والبنين، ودخول الجنات، وزيادة القوة بكل معانيها، والمتاع الحسن، وإيتاء كل ذي فضل فضله.

□ سابعاً: قرن الصبر بالجزاء العظيم:

ذُكِر الصبر في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى؛ لأهميته وعظمته وعظمة الصابرين، ولذا قرن الله تعالى بالصبر جزاءه العظيم حثاً عليه وترغيباً فيه.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص].

فبيَّن تعالى أن أجرهم مضاعف، وفي الآية التالية أن هذا الأجر لا يحد، ولا يعلم قدره إلا الله، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزُّمر].

قال السعدي: «فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب؛ أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله، وأنه معين على كل الأمور»[٤].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٠١.
(٢) التسهيل ٣/ ٢٣٠.
(٣) القواعد الحسان ٤١.
(٤) تفسير السعدي ٧٢٠.

ـ وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد].

فمن فضائل الاستغفار أن جعل الله الملائكة تسلم على المؤمنين بسبب صبرهم، وعاقبتهم حميدة فضلاً من الله ومنة.

ـ وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود].

فرتب سبحانه المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح، مما يعين على القيام بها.

ـ وقال تعالى: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون].

في هذه الآية جعَلَ الفوز يوم القيامة لمن صبر، وهذا فضل عظيم.

ومن هنا تظهر أهميةُ دراسة العلل الشرعية، والفضائل الإلٰهية، التي ذكرها الله تعالى في كتابه مقرونة بأوامره ونواهيه، ومعرفة طرائقها لإقناع النفس البشرية، واطمئنانها، وفيها إثبات إعجاز القرآن، وأنه من حكيم حميد.

المبحث الرابع

قرن الترغيب بالترهيب

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: قرن الوعد بالوعيد.
- المطلب الثاني: تهديد المخاطبين وترغيبهم بذكر صفات الله.

المطلب الأول

قرن الوعد بالوعيد

من عادات القرآن اقتران الوعد بالوعيد، فإذا جاءت آيةٌ في الوعيد، فإن قبلها أو بعدها آية في الوعد، وهذه قاعدة عظيمة في الوعظ، وهذا من أحسن ما تلين له القلوب، فالعاقل من يحدوه الخوف والطمع إلى الامتثال.

قال الرازي: «والحق أن القرآن بشارة ونذارة»[1].

وقال البيضاوي: «قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف] على عادته ﷻ في أن يشفع الوعيد بالوعد»[2].

وقال الشاطبي: «إذا ورد في القرآن الترغيب قارَنَه الترهيب في لواحقه أو سوابقه أو قرائنه وبالعكس، وكذلك الترجية مع التخويف، وما يرجع إلى هذا المعنى مثله، ومنه ذكر أهل الجنة يقارنه ذكر أهل النار، وبالعكس؛ لأن في ذكر أهل الجنة ترجية، وفي ذكر أهل النار بأعمالهم تخويفاً؛ فهو راجع

---

(١) تفسير الرازي ٢٧/ ٨٢.

(٢) تفسير البيضاوي ٣/ ٢١.

إلى الترجية والتخويف»[١].

وقال أبو السعود: «جرت السُّنَّة الإلـٰهية على شفع الوعد بالوعيد، مراعاة لما تقتضيه الحكمة في إرشاد العباد؛ من الترغيب تارة، والترهيب أخرى، والتبشير مرة، والإنذار أخرى»[٢].

وهذا هو منهج الرسل في دعوة أقوامهم.

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الكهف: ٥٦]، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه ما يرسل الرسل إلا مبشرين من أطاعهم بالجنة، ومنذرين من عصاهم بالنار، وكرر هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنعام]»[٣].

ومن تتبع كتاب الله تعالى وجد هذا واضحاً من خلال آياته، ومن أمثلة ذلك:

❑ أولاً: قرن ذكر العذاب بذكر الرحمة:

- كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام].

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، لفظ عام في المال والقوة والجاه، وجودة النفوس والأذهان وغير ذلك، وكل ذلك إنما هو ليختبر الله تعالى الخلق فيرى المحسن من المسيء، ولما أخبر ﷻ بهذا ففسح للناس ميدان العمل وحضهم على الاستباق إلى الخير توعد ووعد تخويفاً منه وترجية، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام]، وسرعة عقابه إما بأخذاته في الدنيا، وإما بعقاب الآخرة، وحسن أن يوصف عقاب الآخرة بـ ﴿سَرِيعُ﴾ لما كان متحققاً مضمون الإتيان

---

(١) الموافقات ٤/ ١٦٧.

(٢) تفسير أبي السعود ١/ ١٢٢.

(٣) أضواء البيان ٣/ ٣٠٦.

والوقوع، فكل آت يحكم عليه بالقرب، ويوصف به ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٦٥﴾ ترجية لمن أذنب وأراد التوبة، وهذا في كتاب الله كثير: اقتران الوعيد بالوعد لطفاً من الله تعالى بعباده»(١).

- وقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ٥٠﴾ [الحجر].

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٩٩ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ١٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ١٠١ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾ [الأنبياء].

قال أبو السعود: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ شروع في بيان حال المؤمنين إثر شرح حال الكفرة، حسبما جرت به سُنَّة التنزيل: من شفع الوعد بالوعيد، وإيراد الترغيب مع الترهيب»(٢).

- وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام].

قال ابن كثير: «﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام]، يقول تعالى: فإن كذّبك - يا محمد - مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم، فقل: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة، واتباع رسوله، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ١٤٧﴾ ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين.

وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٦٥﴾

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٥.
(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ٨٧.

[الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد]، وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر]، وقال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البروج]، والآيات في هذا كثيرة جداً»[1].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران].

قال الرازي: «قال تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾، والغرض منه تأكيد الوعيد، ثم أتبع الوعيد بالوعد؛ فقال: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾»[2].

ثانياً: قرن ذكر الجنة بذكر النار.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة].

قال البيضاوي: «﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ﴾ عطف على الجملة السابقة، والمقصود عطف حال من آمن بالقرآن العظيم، ووصف ثوابه على حال من كفر به، وكيفية عقابه على ما جرت به العادة الإلـٰهية: من أن يشفع الترغيب بالترهيب تنشيطاً لاكتساب ما ينجي، وتثبيطاً عن اقتراف ما يردي»[3].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٧.
(٢) تفسير الرازي ٩/ ١٩.
(٣) تفسير البيضاوي ١/ ٢٤١.

وقال أبو السعود: «عطف قصة المؤمنين بالقرآن، ووصف ثوابهم، على قصة الكافرين به، وكيفية عقابهم، جرياً على السُّنَّة الإلـهية: من شفع الترغيب بالترهيب، والوعد بالوعيد وكان تغيير السبك؛ لتخييل كمال التباين بين حال الفريقين»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد].

قال ابن كثير: «وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار، ليرغب في الجنة ويحذّر من النار؛ ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر، قال بعده: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد]، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر]»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد].

في هذه الآية قَرَن بين وصف الجنة ووصف النار، والتقدير: هل كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار؟[٣].

قال مكي: «﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: ماكث أبداً في جهنم؛ أي: هل يستوي من هو في هذه الجنات والأنهار التي تقدم وصفها مع من هو ماكث في نار جهنم؟»[٤].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء؛ أي:

---

(١) تفسير أبي السعود ١/ ٦٨، وينظر: روح المعاني ١/ ٢٠٠.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٦٦.
(٣) ينظر: تفسير البغوي ٧/ ٢٨٣.
(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية ١١/ ٦٨٩٩.

ليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج].

بعد ذكر هذا العذاب الشديد في النار، أعقبه بذكر الرحمة والنعيم في الجنة حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحج].

قال القرطبي: «لما ذكر حال المشركين وحال المنافقين والشياطين ذكر حال المؤمنين في الآخرة أيضاً»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد].

قال النحاس: «فلما أخبر بولايته المؤمنين، وخذلانه الكافرين، أعلم بما أعده للمؤمنين والكافرين فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: منزل لهم، ﴿...وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾»[٣].

ومن الحكم في قرن الوعد بالوعيد:

١ ـ أن قرن الوعد بالوعيد أدعى للتأثر والقبول، وأعون على الطاعة، وترك المعصية.

٢ ـ أن هذا ما يوافق النفس البشرية، من الخوف من الوعيد، والرغبة في الوعد، فيجتمع في آن واحد: معالجة المسيء، ورده عن خطئه، وتثبيت المحسن، والزيادة في إحسانه.

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٣١٤.

(٢) تفسير القرطبي ١٢/ ٢١.

(٣) معاني القرآن ٦/ ٤٧٠.

قال البيضاوي: «﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٣٢﴾ [آل عمران] اتبع الوعيد بالوعد: ترهيباً عن المخالفة، وترغيباً في الطاعة»(١).

٣ ـ أن اجتماع الوعد والوعيد مما يُلَيِّن القلوب، وهو الطريق للوعظ المفيد، فإذا جاءت هذه الموعظة بهذه الطريقة قبِلَت القلوب وامتَثَلت.

قال البقاعي: «ولِوصْف المتقين وما يجازون به بما في الآيات الثلاث، ولوصف الكافرين الذين لا يؤمنون لما وقع من الختم على حواسهم، والحتم لعقابهم؛ ليعلم أن ما اتصف به المتقون هو الصراط المستقيم فيُلزَم، وما اتصف به من عداهم هو طريق الهالكين فيُترَك،.. فلما تم ذلك، وكان المقصود منه الدعاء إلى الله، انتهزت تلك الفرصة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، لما أسس لها من الترغيب بالترهيب»(٢).

٤ ـ أن الاقتصار على أحد الأسلوبين قد يحرف عن الطريق المستقيم، فالاقتصار على الوعد سبيل التواكل والتمادي في العصيان، وترك التوبة، والاقتصار على الوعيد سبيل اليأس والقنوط من رحمة الله، وكلاهما غير مقصود، لكن يغلب أحد الأسلوبين بحسب السياق ومقتضى الحال، ففي مواطن الاغترار يطلب فيها التخويف أكثر من طلب الترجية؛ لأن درء المفاسد آكد، وفي مواطن القنوط ومظنته يتسع مجال الترجية والترغيب(٣).

٥ ـ أن الاقتران يكون في آية واحدة، ويكون في آيات متعددة لكنها في سياق واحد، لتدل على ترابط القرآن، واكتمال الحق فيه والبيان، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

تهديد المخاطبين وترغيبهم بذكر صفات الله

ومن عادات القرآن ذكر أسماء الله تعالى وصفاته في أسلوب الترغيب أو الترهيب.

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ٩١، وينظر: تفسير أبي السعود ٢/ ٨٥، روح المعاني ٤/ ٥٦.
(٢) نظم الدرر ١/ ٣٢.
(٣) الموافقات ٤/ ١٧٠، وقد أجاب الشاطبي على كل اعتراض يزعم عدم اطراد هذه الكلية.

قال ابن القيم: «جرت عادة القرآن بتهديد المخاطبين وتحذيرهم بما يذكره من صفاته التي تقتضي الحذر والاستقامة؛ كقوله: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ [النساء]، والقرآن الكريم مملوء من هذا»[(١)].

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ [الفاتحة].

فرب العالمين فيها معنى الترهيب، وبعدها الرحمٰن الرحيم فيها معنى الترغيب، وهذه معان مستفادة من أسماء الله تعالى وصفاته.

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿...ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة]، وصف نفسه تعالى بعد ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة]، بأنه: ﴿...ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ لأنه لما كان في اتصافه بـ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ ترهيب قرنه بـ ﴿...ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ لما تضمن من الترغيب، ليجمع في صفاته بين الرهبة منه، والرغبة إليه، فيكون أعون على طاعته وأمنع»[(٢)].

وقال القاسمي: «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ [الفاتحة]، إيرادهما عقب وصف الربوبية من باب قرن الترغيب بالترهيب الذي هو أسلوب التنزيل الحكيم»[(٣)].

فقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ [الفاتحة]، بعد قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة]، من باب قرن الترغيب بالترهيب كما دل السياق.

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام]، فالرب هنا فيه معنى الترهيب، والغفور الرحيم فيه معنى الترغيب.

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ٨١.
(٢) تفسير القرطبي ١/ ١٣٩.
(٣) تفسير القاسمي ١/ ٢٢٧.

قال ابن جزي: «﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ جمع بين التخويف والترجية»[١].

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البروج].

فالبطش: هو الأخذ بقوة[٢]، وحيث وُصِف بالشدة فمعناه الزيادة في الغلظة، وفيه معنى شدة العقاب للجبابرة والظلمة، وأخذه إياهم بالعذاب والانتقام، مما يرهب من العصيان، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود].

قال الزمخشري: «﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: يُبدىء البطش ويعيده؛ يعني: يبطش بهم في الدنيا وفي الآخرة، أو دلَّ باقتداره على الإبداء والإعادة على شدة بطشه، وأوعد الكفرة بأنه يعيدهم كما أبدأهم ليبطش بهم إذ لم يشكروا»[٣].

ثم أعقبه باسم الغفور وقرنه باسم الودود[٤]، وفيهما معنى الوعد بالستر والمحبة والرضوان مما يرغب بالقرب من الرحمٰن.

قال ابن القيم: «وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور؛ فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب، والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه ويرحمه ويحبه مع ذلك فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحبه ولو كان منه ما كان»[٥].

وقال السعدي: «وفي هذا سر لطيف، حيث قرن الودود بالغفور؛ ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم»[٦].

---

(١) التسهيل ١/ ٣٨٩.
(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤.
(٣) الكشاف ٤/ ٧٣٣، وينظر: التسهيل ٣/ ٣٠٦.
(٤) الودود: هو المحب المحبوب. ينظر: تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي ٨٧.
(٥) التبيان ٦٠.
(٦) تفسير السعدي ٩١٨.

وقد سبقت عادة القرآن في قرن الوعد بالوعيد، وهذه أمثلة أخصّ إذ هي في أسماء الله وصفاته.

ـ وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة].

فاقتران السميع بالعليم في هذه الآية يحمل معنى التهديد والوعيد لأعداء الله، فالله ﷻ هو السامع لأقوالهم، العليم بأفعالهم.

قال الطبري: «فإن الله هو السميع لما يقولون لك بألسنتهم، ويبدون لك بأفواههم، من الجهل والدعاء إلى الكفر والملل الضّالة العليمُ بما يُبطنون لك ولأصحابك المؤمنين في أنفسهم من الحَسد والبغضاء.

ففَعَل الله بهم ذلك عَاجلاً وأنجزَ وَعْده، فكفى نبيّه ﷺ بتسليطه إيّاه عليهم، حتى قتل بعضهم، وأجلَى بعضاً، وأذلّ بعضاً وأخزاه بالجزية والصَّغار»(١).

ومن اتصف بالسمع والعلم فهو القادر على صرف شرهم.

قال السعدي: «ولهذا وعد الله رسوله أن يكفيه إياهم؛ لأنه السميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، العليم بما بين أيديهم وما خلفهم، بالغيب والشهادة، بالظواهر والبواطن، فإذا كان كذلك كفاك الله شرهم»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾ [البقرة].

فالسميع العليم فيه معنى التهديد والوعيد لمن بدل الوصية.

قال القرطبي: «صفتان لله تعالى لا يخفى معهما شيء من جَنَف الموصين وتبديل المعتدين»(٣).

وقال السعدي: «وفيه التحذير للموصى إليه من التبديل»(٤).

---

(١) تفسير الطبري ٣/ ١١٦.
(٢) تفسير السعدي ٦٨.
(٣) تفسير القرطبي ٢/ ٢٦٩.
(٤) تفسير السعدي ٨٥.

- وقوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ [البقرة].

فختام الآية بهذين الاسمين فيه معنى التهديد والوعيد لمن عدل عن الحق بعد ما تبين له، فإن العزيز الحكيم إذا عصاه العاصي عن علم، قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة.

قال ابن جزي: «﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ تهديد لمن زلَّ بعد البيان»[1].

وقال السعدي: «وفيه من الوعيد الشديد، والتخويف، ما يوجب ترك الزلل، فإن العزيز القاهر الحكيم، إذا عصاه العاصي، قهَرَه بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته، تعذيب العصاة والجناة»[2].

- وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ [البقرة].

ففي ختام هذه الآية بهذين الاسمين التهديد لمن جعل الحلف مانعاً له من الخير.

قال الطبري: «وهذا من الله تعالى ذكره تهدُّدٌ ووعيد»[3].

وقال السعدي: «فختم الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾؛ أي: لجميع الأصوات ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ بالمقاصد والنيات، ومنه سماعه لأقوال الحالفين، وعلمه بمقاصدهم هل خير أم شر، وفي ضمن ذلك التحذير من مجازاته، وأن أعمالكم ونياتكم قد استقر علمها عنده»[4].

- وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة].

وفي هذين الاسمين من أسماء الله تعالى معنى التهديد والوعيد لمن امتنع عن الرجوع من أجل المضارة والمشاقة للزوجة، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾ [البقرة]، ففي ختام الآية بالاسمين - الغفور

---

(١) التسهيل ١/ ١٤٣.
(٢) تفسير السعدي ٩٤.
(٣) تفسير الطبري ٤/ ٤٢٧.
(٤) تفسير السعدي ١٠٠.

الرحيم ـ الترغيب بالفيء؛ لأن ذلك مقام إنابة ورجوع إلى طاعة الله ﷻ فيما أمر به من المعاشرة بالمعروف.

قال السعدي: «﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ فيه وعيد وتهديد، لمن يحلف هذا الحلف، ويقصد بذلك المضارة والمشاقة»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾ [البقرة].

في ختام الآية بهذين الاسمين تهديد ووعيد لمن خالف شرع الله.

قال الطبري: «﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ في انتقامه ممن خالف أمره ونهيه وتعدى حدوده من الرجال والنساء»(٢).

وهكذا فسَّر الطبريُّ العزيزَ في جميع المواضع، كما قال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [آل عمران].

(ويعني بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ العزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، وادعى معه إلهاً غيرَه، أو عبد ربّاً سواه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيره، لا يدخل ما دبَّره وَهَنٌ، ولا يلحقُه خللٌ»(٣).

وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء]: «﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بمن آمن به من خلقه»(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ [الدُخان].

ففي هذين الاسمين معنى الترهيب والترغيب.

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ [الدُخان]؛ أي: المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه، كما قال: ﴿شَدِيدِ

---

(١) تفسير السعدي ١٠١.
(٢) تفسير الطبري ٥/ ٢٦١.
(٣) تفسير الطبري ١٩/ ٣٨٧.
(٤) تفسير الطبري ٦/ ٤٧٦.

﴿ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]، فقرن الوعد بالوعيد»[١].

إلى غير ذلك من الأمثلة التي تجعل مِن تأمل أسماء الله تعالى وصفاته في القرآن معنى آخر، ودلالة على الدقة في الألفاظ، والإعجاز فيها وفي المعاني، والله تعالى أعلم.

(١) تفسير القرطبي ١٦/١٤٨.

المبحث الخامس

ما يُضاف إلى الله من الخير والشر

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: إضافة الخير إلى الله دون الشر.
- المطلب الثاني: ذكر سبب العقاب.

المطلب الأول

إضافة الخير إلى الله دون الشر

من عادات القرآن التربية على الأدب مع الله تعالى، بإضافة الخير إليه دون الشر في الخطاب وغيره، مع أن الكل بيده سبحانه.

فما قدره الله سبحانه خيرٌ كلُّه والشر ليس إلى الله، فالله هو الذي قدّر هذه الأقدار، والخير كله فيما أذن الله تعالى فيه، وما قد يُتصور من شر فليس بشر من كل وجه، وإنما هو شر في وقت دون وقت، أو في حال دون حال، أو في عين دون أخرى، فللَّه في أمره وخلقه حِكَم وأسرار.

كما قال ﷺ في استفتاح صلاة الليل: «لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت»[(١)].

فالله ﷻ هو الخالق للحسنة والسيئة ومقدرُ وجودِها، كما في قول الله ﷻ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، أما من ناحية نسبة كل منهما إلى من أرشد إليها ودل عليها؛ فإن الله ﷻ قال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ

---

(١) أخرجه البخاري ٦/ ٣٨٢ (٣٣٤٨)، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وأخرجه مسلم ١/ ٥٣٤ (٧٧١)، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

﴿فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]؛ أي: أن الله ﷻ هو الذي هداك وأرشدك ووفقك للحسنة تفضلاً منه ومنّة، وما أصابك من جدب وشدة فبذنب أتيته عوقبت عليه[١].

قال الطبري: «يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾: ما يصيبك يا محمد من رخاء ونعمة وعافية وسلامة، فمن فضل الله عليك، يتفضل به عليك إحساناً منه إليك، وأما قوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ يعني: وما أصابك من شدة ومشقة وأذى ومكروه فمن نفسك؛ يعني: بذنب استوجبتها به، اكتسبته نفسك»[٢].

ومثله قال ابن كثير وزاد: «كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى]»[٣].

وقال الماوردي: «وفي الحسنة والسيئة ها هنا ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن الحسنة النعمة في الدين والدنيا، والسيئة المصيبة في الدين والدنيا[٤]، وهذا قول بعض البصريين.

والثاني: أن الحسنة ما أصابه يوم بدر، والسيئة ما أصابه يوم أُحد من شج رأسه وكسر رباعيته، وهو قول ابن عباس[٥]، والحسن.

والثالث: أن الحسنة الطاعة، والسيئة المعصية، وهذا قول أبي العالية[٦].

قوله تعالى: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ قولان: أحدهما: يعني فبذنبك[٧]، والثاني: فبفعلك»[٨].

وقال ابن تيمية: «وما يصيب العبد من النعم فإن الله أنعم بها عليه؛ وما يصيبه من الشر فبذنوبه ومعاصيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي ٥/ ٢٨٥.
(٢) تفسير الطبري ٨/ ٥٥٨.
(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٦٣.
(٤) رواه الطبري عن قتادة ٨/ ٥٥٩.
(٥) رواه عنه الطبري ٨/ ٥٥٨.
(٦) رواه عنه الطبري ٨/ ٥٥٩.
(٧) رواه الطبري عن السدي، وقتادة، وابن جريج، وابن زيد، تفسير الطبري ٨/ ٥٥٨، ٥٥٩، وينظر: تأويل مشكل القرآن ٢٢٥.
(٨) النكت والعيون ١/ ٥٠٩.

فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]؛ أي: ما أصابك من خصب ونصر وهدى فالله أنعم بها عليك؛ وما أصابك من جدب وذل وشر فبذنوبك وخطاياك؛ وكل الأشياء كائنة بمشيئته وقدرته وخلقه، فلا بد أن يؤمن العبد بقضاء الله وقدره؛ وأن يؤمن بشرع الله وأمره»(١).

ومن الأدلة قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران].

فقال سبحانه: بيدك الخير، ولم يقل والشر وإن كانا جميعاً بيده، لكن الخير يضاف إلى الله تعالى إرادة محبة ورضا، والشر لا يضاف إلا إلى مفعولاته؛ لأنه لا يضاف إلى صفاته ولا أفعاله، بل كلها كمال لا نقص فيه، وهذا معنى قوله: «**والشر ليس إليك**»(٢).

قال الشاطبي: «الأدب في ترك التنصيص على نسبة الشر إلى الله تعالى، وإن كان هو الخالق لكل شيء، كما قال بعد قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، إلى قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ولم يقل: بيدك الخير والشر، وإن كان قد ذكر القسمين معاً؛ لأن نزع الملك والإذلال بالنسبة إلى من لحق ذلك به شرٌّ ظاهر، نعم، قال في أثره: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران]، تنبيهاً في الجملة على أن الجميع خلقه»(٣).

وخلْقُ الله تعالى للأضداد والمتقابلات هو من كمال ربوبيته؛ كالليل والنهار، والحر والبرد، واللذة والألم، والخير والشر، والنعيم والجحيم(٤).

والأمثلة الكثيرة من الآيات تبين غاية الأدب في نسبة الخير إلى الله دون الشر، ومنها:

---

(١) مجموع الفتاوى ٨/ ٢٤٢.
(٢) ينظر: البرهان ٤/ ٥٩.
(٣) الموافقات ٢/ ١٦٦.
(٤) ينظر: مدارج السالكين ١/ ١٢٨.

ـ قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة].

فنَسَبَ الإنعام إليه جل وعلا، وأما الغضب فنُسِب إلى ما لم يُسَمَّ فاعله.

قال ابن القيم: «الطريقة المعهودة في القرآن الكريم أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله ﷻ، فيذكر فاعلها منسوبة إليه ولا يبني الفعل معها للمفعول، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حُذِف، وبني الفعل معها للمفعول أدباً في الخطاب، وإضافته إلى الله تعالى أشرف قسمي أفعاله.

فمنه قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ فإنه ذكر النعمة فأضافها إليه ولم يحذف فاعلها، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل وبنى الفعل للمفعول، فقال: ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، وقال في الإحسان: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾»(١).

وقال الزركشي: «التأدب في الخطاب بإضافة الخير إلى الله، وأن الكل بيده؛ كقوله تعالى: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، ثم قال: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، ولم يقل غير الذين غضبت عليهم»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فلم يُذكر المزيِّن تعليماً للأدب مع الله تعالى؛ لأنه تزيين الشر.

وقال تعالى في تزيين الخير: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ٧].

قال الطبري: «﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ يعني تعالى ذكره: زُيِّن للناس محبة ما يشتهون من النساء والبنين وسائر ما عدّ.

وإنما أراد بذلك توبيخ اليهود الذين آثَروا الدنيا وحبَّ الرياسة فيها، على اتباع محمد ﷺ بعد علمهم بصدقه»(٣).

وقال ابن جزي: «قيل: المزين هو الله، وقيل: الشيطان، ولا تعارض بينهما، فتزيين الله بالإيجاد والتهيئة للانتفاع وإنشاء الجِبلَّة على الميل إلى

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢٥٦.
(٢) البرهان ٤/ ٥٩.
(٣) تفسير الطبري ٦/ ٢٤٣.

الدنيا، وتزيين الشيطان بالوسوسة والخديعة»[١].

وقال أبو السعود: «﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان حقارة شأن الحظوظ الدنيوية بأصنافها، وتزهيد للناس فيها، وتوجيه رغباتهم إلى ما عنده تعالى، إثر بيان عدم نفعها للكفرة الذين كانوا يتعززون بها»[٢].

فلم يُذكر الفاعل تأدباً مع الله تعالى.

- وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾ [فاطر: ٨].

- وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾ [محمد].

- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾ [الإسراء].

فأضاف النعمة إلى الله تعالى، ومسُّ الشر لغيره، وفيه تعليم الأدب مع المنعم جل وعلا.

قال أبو السعود: «﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل، وفي إسناد المساس إلى الشر بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة إيذان بأن الخير مراد بالذات، والشر ليس كذلك»[٣].

- وقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف].

- مع قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف].

ففي الآية الأولى أسند ما ظاهره شر لنفسه.

وفي الآية الثانية أسند الخير إلى الله تعالى على سبيل الأدب مع الله تعالى.

---

(١) التسهيل ١/١٨٩.

(٢) تفسير أبي السعود ٢/١٤.

(٣) تفسير أبي السعود ٥/١٩١.

قال الزركشي تحت عنوان التأدب في الخطاب بإضافة الخير إلى الله: «وتأمل جواب الخضر عليه السلام عما فعله حيث قال في إعابة السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ﴾، وقال في الغلام: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾، وفي إقامة الجدار: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾»(١).

وقال ابن عطية: «وإنما انفرد أولاً في الإرادة؛ لأنها لفظة عيب فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه، وإنما قال الخضر في الثانية: فأردنا؛ لأنه أَمَل قد كان رواه هو وأصحابه الصالحون، وتكلم فيه في معنى الخشية على الوالدين، وتمنى البديل لهما، وإنما أسند الإرادة في الثالثة إلى الله تعالى؛ لأنها في أمر مستأنف في الزمن طويل، غيب من الغيوب، فحسن إفادة هذا الموضع بذكر الله تعالى، وإن كان الخضر قد أراد أيضاً ذلك الذي أعلمه الله أنه يريده، فهذا توجيه فصاحة هذه العبارة بحسب فهمنا المقصر، والله أعلم»(٢).

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا﴾ [الكهف: ٨٢] هاهنا أسند الإرادة إلى الله تعالى؛ لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله»(٣).

وقال القرطبي: «أضاف عيب السفينة إلى نفسه رعاية للأدب؛ لأنها لفظة عيب فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه»(٤).

- وقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء].

فنسب المرض إلى نفسه، ولم يقل: أمرضني.

أما ما قبلها وبعدها(٥) فنسبه إلى رب العالمين؛ كالخلق، والهداية،

---

(١) البرهان ٤/ ٥٩.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٦٧، وينظر: البرهان ٤/ ٦٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٧. (٤) تفسير القرطبي ١١/ ٣٩.

(٥) سياق الآيات قبلها وبعدها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء].

والإطعام، والسقي، والشفاء، والإماتة، والإحياء، وغفران الخطيئة[١].

قال ابن عطية: «تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ فأسند الفعل قبلُ وبعدُ إلى الله تعالى، وأسند المرض إلى نفسه، إذ هو معنى نقصٍ ومصيبة، وهذا المنزع يطرد في فصاحة القرآن كثيراً، ألا ترى إلى تقديم فعل البشر في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصَّف: ٥]، وتقديم فعل الله تعالى في قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨]»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجنّ].

ففي هذة الآية مثال واضح للأدب مع الله تعالى حيث أضافوا الخير إلى الرب سبحانه، وحذفوا فاعل الشر تأدباً مع الله[٣].

قال أبو السعود: «﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بحراسة السماء ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾؛ أي: خيراً، ونسبة الخير إلى الله تعالى دون الشر، من الآداب الشريفة القرآنية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء]، ونظائره»[٤].

وقال السعدي: «قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجنّ]؛ أي: لا بد من هذا أو هذا؛ لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيراً أنكروه، فعرفوا بفطنتهم أن هذا الأمر يريده الله، ويحدثه في الأرض، وفي هذا بيان لأدبهم، إذ أضافوا الخير إلى الله تعالى، والشر حذفوا فاعله تأدباً مع الله»[٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾ [الفلق].

فنسب الشر هنا للمخلوق، ولم يقل: الشر الذي خلقه، فالنسبة إلى سبب الشر أدباً مع الخالق جل وعلا[٦].

---

(١) ينظر: الموافقات ٢/١٦٧.
(٢) المحرر الوجيز ٣/٥٦٧.
(٣) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢/٥١٧.
(٤) تفسير أبي السعود ٩/٤٤.
(٥) تفسير السعدي ٨٩٠.
(٦) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢/٥١٧.

قال مكي: «وقوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾؛ أي: من شر كل ذي شر، أمر الله نبيه أن يتعوذ من شر كل ذي شر؛ لأن ما سواه ـ تعالى ذكره ـ مخلوق»[(١)].

وقال ابن القيم: «الشر الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين:

إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها، فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه، ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها، وهو أعظم الشرين وأدومهما، وأشدهما اتصالاً بصاحبه.

وإما شر واقع به من غيره، وذلك الغير إما مكلف أو غير مكلف، والمكلف إما نظيره، وهو الإنسان، أو ليس نظيره، وهو الجني، وغير المكلف، مثل: الهوام وذوات الحُمَة وغيرها»[(٢)].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾؛ أي: من شر جميع المخلوقات»[(٣)].

إلى غير ذلك من الأمثلة في كتاب الله تعالى.

قال الزركشي: «وهذا النوع مطرد في فصاحة القرآن كثيراً»[(٤)]، والله تعالى أعلم.

وأختم بقول ابن تيمية: «وقد علم المسلمون أن الله لم يخلق شيئاً ما إلا لحكمة؛ فتلك الحكمة وجه حسنه وخيره، ولا يكون في المخلوقات شر محض لا خير فيه، ولا فائدة فيه بوجه من الوجوه؛ وبهذا يظهر معنى قوله: **«والشر ليس إليك»**، وكون الشر لم يُضَف إلى الله وحده؛ بل إما بطريق العموم[(٥)]، أو يضاف إلى السبب[(٦)]، أو يحذف فاعله[(٧)]»[(٨)].

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية ١٢/ ٨٥٠٨. (٢) التفسير القيم ٥٤٥.
(٣) تفسير ابن كثير ٨/ ٥٣٥. (٤) البرهان ٤/ ٦٠.
(٥) كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزُّمر: ٦٢].
(٦) كقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق].
(٧) كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجنّ].
(٨) مجموع الفتاوى ١٤/ ٢١.

وهذا هو منهج القرآن لمن تأمله وتدبره.

ويتفرع من هذه العادة ما هو أخص وهو إضافة الثواب إلى الله تعالى.

فإن الثواب من الخير، **ومن الأمثلة على هذا ما يلي:**

- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة].

وفي هذه الآية بيان فضل الصدقة حيث جعل ثوابها عنده جل وعلا.

قال السعدي: «وقوله: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: كل أحد منهم بحسب حاله.

وتخصيص ذلك، بأنه عند ربهم، يدل على شرف هذه الحال، ووقوعها في الموقع الأكبر، كما في الحديث الصحيح: «**إن العبد ليتصدق بالتمرة من كسب طيب فيتقبلها الجبار بيده، فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل العظيم**»[(١)].

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة].

فبين جل وعلا أن ثوابهم عنده، وفيه إشارة إلى شرف هذه الحال، واستحقاقها الثواب العظيم، وأن ثوابهم عند الله وحده دون سواه.

قال ابن كثير: «فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: ثوابهم على الله، لا على أحد سواه»[(٢)].

- وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران].

---

(١) تفسير السعدي ٩٥٨.
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٦٩٣.

أي: أجاب الله دعاءهم، وبيَّن سبحانه أنه لا يضيع عمل عامل منهم من ذكر أو أنثى، سيلقون ثواب أعمالهم كاملاً موفراً ممن يملك الثواب، ويعطي على العمل القليل الثواب الكبير، وختم الآية بالتأكيد بأن الثواب من عند الله فقال: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران][١].

قال السمرقندي: «﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الجنات جزاء لأعمالهم من عند الله تعالى»[٢].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أضافه إليه ونسبه إليه لِيدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جَزيلاً كثيراً»[٣].

ـ ومثلها ما جاء بعدها في قول الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة].

الآية في النصارى الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة]، ثم بيَّن تعالى أنه أثابهم على إيمانهم بالثواب الجزيل، والنعيم المقيم.

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ﴾ دليل على إخلاص إيمانهم وصدق مقالهم، فأجاب الله سؤالهم وحقق طمعهم، وهكذا من خلص إيمانه وصدق يقينه يكون ثوابه الجنة»[٤].

قال ابن كثير: «﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ساكنين فيها أبداً، لا يحولون ولا يزولون،

---

(١) ينظر: تفسير السعدي ١٦٢.
(٢) تفسير السمرقندي ١/ ٣٠٠.
(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ١٩١.
(٤) تفسير القرطبي ٦/ ٢٦٠.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٥﴾؛ أي: في اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان، وأين كان، ومع من كان»[(١)].

وقال البقاعي: «ولما ذكر قولهم الدال على حسن اعتقادهم وجميل استعدادهم، ذكر جزاءهم عليه فقال: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الذي له جميع صفات الكمال، ﴿بِمَا قَالُوا۟﴾؛ أي: جعل ثوابهم على هذا القول المستند إلى خلوص النية الناشئ عن حسن الطوية»[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٨﴾ [النور].

في هذه الآية بيان فضل الله تعالى بجزائهم الثواب الأحسنَ من عملهم، والزيادة من فضله.

قال ابن عطية: «فالآية تنبيه على عظم النعمة عليهم، وجعل رزقهم بغير حساب، حيث هو دائم لا يتناهى، فهو لا ينفد»[(٣)].

وقال القرطبي: «﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ فذكر الجزاء على الحسنات، ولم يذكر الجزاء على السيئات ـ وإن كان يجازي عليها ـ لأمرين:

أحدهما: أنه ترغيب، فاقتصر على ذكر الرغبة.

الثاني: أنه في صفة قوم لا تكون منهم الكبائر، فكانت صغائرهم مغفورة»[(٤)].

وقال أبو السعود: «قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٨﴾ فإنه تذييل مقرر للزيادة، ووعد كريم؛ بأنه تعالى يعطيهم غير أجزية أعمالهم من الخيرات ما لا يفي به الحساب»[(٥)].

ـ وقوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾ [النبأ].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٦٩.
(٢) نظم الدرر ٢/ ٥٢٤.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٢٧١.
(٤) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٨١.
(٥) تفسير أبي السعود ٦/ ١٨٠.

في هذه الآية جعل الله تعالى الجزاء منه، عطاءً كثيراً، فجزاهم بالعمل اليسير الخير الجسيم الذي لا انقطاع له.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: هذا الذي ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه، بفضله ومَنِّه وإحسانه ورحمته؛ ﴿عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: كافياً وافراً شاملاً كثيراً؛ تقول العرب: أعطاني فأحسبني؛ أي: كفاني، ومنه: حسبي الله؛ أي: الله كافيّ»[(١)]، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

ذكر سبب العقاب

الحِكْمَة في جميع ألفاظ القرآن ومعانيه ظاهرة في آياته، **ومن ذلك:**

ذِكرُ سبب العقاب لمن استحقه، وعدمُ التزام ذكر سبب الثواب، تنبيهاً على أن الثواب من الله تعالى فضل، والعقاب منه عدل.

قال ابن القيم: «نصوص الثواب على الأعمال[(٢)] إنما تدل على أن الأعمال أسباب؛ لا أعواض وأثمان، والذي نفاه النبي ﷺ في الدخول بالعمل[(٣)]، هو نفي استحقاق العوض ببذل عوضه، فالمثبت باء السببية، والمنفي باء المعاوضة والمقابلة، وهذا فصل الخطاب في هذه المسألة»[(٤)].

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ٣٠٩.

(٢) كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزُّخرف]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران].

(٣) في قوله ﷺ: **«سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لن يُدخِل الجنةَ أحداً عملُه**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة»**. أخرجه البخاري ٧/ ١٥٧ (٥٦٧٣)، كتاب المرضى، باب نهي تمني المريض الموت، وأخرجه مسلم ٤/ ٢١٦٩ (٢٨١٦)، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) مفتاح دار السعادة ٢/ ٩٢.

ومن الأدلة على عادة القرآن في ذكر السبب المناسب لعقوبات الأمم الضالة:

التصريح بلفظ الحكمة، كما في قوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر]، بعد ذكره الإنذارَ الزاجرَ من العقوبات في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾ [القمر].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾؛ أي: من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسل، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب، مما يتلى عليهم في هذا القرآن، ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾؛ أي: ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب.

وقوله: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ﴾؛ أي: في هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله، ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾؛ يعني: أي شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه؟ فمن الذي يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٤٩﴾ [الأنعام]، وكذا قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١﴾ [يونس]»[1].

وقال الرازي: «بينَّا مراراً أن العادل يذكر للعقاب سبباً، والمتفضل لا يذكر للإنعام والتفضل سبباً»[2].

وقال ابن القيم: «وتأمل القرآن من أوله إلى آخره كيف تجده كفيلاً بأن الله تعالى لا يعاقب إلا من يستحق العقاب، ولا ينتقم إلا ممن يستحق الانتقام؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦﴾ [القلم]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾ [الجاثية]، وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ۝٢٨﴾ [ص]، فأنكر سبحانه على من ظن ما لا يليق بحكمة الله وعزته وإلـٰهيته، ونزه

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٧٥.
(٢) تفسير الرازي ٢٩/ ١٧٧.

نفسه عنه»[١].

ومن الأدلة على عدم العقاب إلا لمن يستحق:

- قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء].

- وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال].

- وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء].

والعقوبات الواردة في القرآن إما في الدنيا وإما في الآخرة وهي الأكثر، وذكر سبب العقوبة عدلاً من الله وحكمة.

ومن الأمثلة في هذا الباب:

- قوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة].

بيَّن تعالى أن في قلوب المنافقين مرضاً، فزادهم الله نظير ما كان في قلوبهم من الشَّكِّ والحيْرة قبل الزيادة، ولهم عذاب أليم في الآخرة.

وفي الآية بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصَّف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، فعقوبة المعصية، المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة، الحسنة بعدها، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦][٢].

قال الطبري: «فزادهم الله بما أحدث من حدوده وفرائضِه التي لم يكن فرضَها قبل الزيادة التي زادها المنافقين، إذْ شكُّوا وارتَابوا في الذي أحدَث

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٤٣٧، التفسير القيم ٥٥٣ بتصرف يسير.
(٢) تفسير السعدي ٤٢.

لهم من ذلك إلى المرض والشك الذي كان في قلوبهم في السَّالف»(١).

وقال السعدي: «﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ عقوبة على ذلك المرض الناتج عن أسباب متعددة، كلها منهم، وهم فيها غير معذورين»(٢).

ثم بيَّن تعالى أن سبب عقوبتهم تكذيبهم الله ورسوله، ودعواهم الإيمان وهم كافرون.

قال الطبري: «ثم أخبر تعالى ذكره أنّ لهم عذاباً أليماً بتكذيبهم بما كانوا يكذِّبون من نبوة نبيّه، واعتقاد الكفر به، وبما كانوا يَكذِبون في زعمهم أنهم مؤمنون، وهم على الكفر مُصِرُّون»(٣).

وقال أبو السعود: «﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ الباء للسببية، أو للمقابلة وما مصدرية داخلة في الحقيقة على يكذبون، وكلمة: كانوا مقحمة لإفادة دوام كذبهم وتجدده؛ أي: بسبب كذبهم أو بمقابلة كذبهم المتجدد المستمر الذي هو قولهم: آمنا بالله وباليوم الآخر، وهم غير مؤمنين»(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة].

فبيَّن تعالى أن الشرك بالله سبب لعقوبة النار؛ لأن من أشرك بالله فقد سوَّى الخلق بالخالق، وصرف ما خلقه الله له ـ وهو العبادة الخالصة ـ لغير من هي له، فاستحق أن يخلد في النار.

قال ابن كثير: «قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: فيعبد معه غيره، ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾؛ أي: فقد أوجب له النار، وحرم عليه الجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٢٨١. (٢) القواعد الحسان ٧٨.

(٣) تفسير الطبري ١/ ٢٧٤، وينظر: تفسير البغوي ١/ ٦٦.

(٤) تفسير أبي السعود ١/ ٤٢.

تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠﴾ [الأعراف]»[١].

وهذا فيمن مات على الشرك، أما من تاب تاب الله عليه.

قال الطبري: «إذا مات على شركه، فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار»[٢].

وقال السعدي: «وهذه الآية الكريمة في حق غير التائب، وأما التائب فإنه يغفر له الشرك فما دونه، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣]؛ أي: لمن تاب إليه وأناب»[٣].

- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧﴾ [النحل].

فبيَّن تعالى أنه يخزي المشركين يوم القيامة وبيَّن تعالى على سبيل التقريعِ العلةَ من عذابهم وهوانهم، فيقول تعالى ذكره يوم القيامة تقريعاً للمشركين بعبادتهم الأصنام: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾، ثم يقول تعالى ذكره: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ إن الخزي اليوم والسوء على من كفر بالله فجحد وحدانيته[٤].

وقال البغوي: «﴿يُخۡزِيهِمۡ﴾ يهينهم بالعذاب»[٥].

وقال النسفي: «﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ﴾ يذلهم بعذاب الخزي سوى ما عذبوا به في الدنيا، ويقول: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ على الإضافة إلى نفسه، حكاية لإضافتهم؛ ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم، ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾ تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم»[٦].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٥٧.
(٢) تفسير الطبري ٩/ ٢٠٦.
(٣) تفسير السعدي ١٨١.
(٤) تفسير الطبري ١٧/ ١٩٥.
(٥) تفسير البغوي ٥/ ١٦.
(٦) تفسير النسفي ٢/ ٢٨٤، وينظر: تفسير أبي السعود ٥/ ١٠٨.

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف].

ففي هذه الآيات كرر جل وعلا ذكر سبب العذاب للتأكيد على استحقاقهم له، فأخبر عَجَلَ بأن جزاءهم جهنم بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات الله وتكذيبهم رسل الله، وإنكارهم معجزات الأنبياء.

قال البيضاوي: «﴿بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾؛ أي: بسبب ذلك»[1].

وقال أبو السعود: «﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ تصريح بأن ما ذكر جزاء لكفرهم المتضمن لسائر القبائح التي أنبأ عنها قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾؛ أي: مهزوءاً بهما، فإنهم لم يقتنعوا بمجرد الكفر بالآيات والرسل، بل ارتكبوا مثل تلك العظيمة أيضاً»[2].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف].

فلم يذكر سبب هذا الجزاء العظيم فضلاً منه ومنّة.

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الواقعة].

ففي هذه الآيات من سورة الواقعة ذكر أسباب العذاب لأصحاب الشمال، وهذا عدل من الحَكَم العَدْل جل وعلا.

قال الرازي في تفسير هذه الآية: «ما الحكمة في بيان سبب كونهم في العذاب، مع أنه تعالى لم يذكر سبب كون أصحاب اليمين في النعيم، ولم يقل: إنهم كانوا قبل ذلك شاكرين مذعنين؟

---

(١) تفسير البيضاوي ٣/ ٥٢٦.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٥٠.

فنقول: قد ذكرنا مراراً أن الله تعالى عند إيصال الثواب لا يذكر أعمال العباد الصالحة، وعند إيصال العقاب يذكر أعمال المسيئين؛ لأن الثواب فضل، والعقاب عدل، والفضل سواء ذكر سببه أو لم يذكر لا يتوهم في المتفضل به نقص وظلم، وأما العدل فإن لم يعلم سبب العقاب يظن أن هناك ظلماً، فقال: هم فيها بسبب ترفهم»[١].

- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة].

أي: عقوبة لما سبق من ذنوبهم، وردعاً عما يأتي، وفي ذلك موعظة للمعتبرين.

قال الفراء: «وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾؛ يعني: المسْخَة التي مُسِخوها، جُعِلت نكالاً لما مضى من الذنوب، ولما يعمل بعدها: ليخافوا أن يعملوا بما عمل الذين مُسخوا فيُمسخوا»[٢].

قال ابن عطية: «والنكال: الزجر بالعقاب، والنكل والأنكال قيود الحديد، فالنكال عقاب ينكل بسببه غير المعاقب عن أن يفعل مثل ذلك الفعل، قال السدي: ما بين يدي المسخة: ما قبلها من ذنوب القوم، وما خلفها: لمن يذنب بعدها مثل تلك الذنوب، وهذا قول جيد»[٣].

وقال السعدي: «وجعل الله هذه العقوبة ﴿نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾؛ أي: لمن حضرها من الأمم، وبلغه خبرها، ممن هو في وقتهم، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾؛ أي: من بعدهم، فتقوم على العباد حجة الله، وليرتدعوا عن معاصيه، ولكنها لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين، وأما من عداهم فلا ينتفعون بالآيات»[٤].

---

(١) تفسير الرازي ٢٩/١٤٨، وينظر: اللباب ١٨/٤٠٨.
(٢) معاني القرآن ١/٤٣، وينظر: غريب القرآن للسجستاني ٤٥٨، تفسير البغوي ١/١٠٥.
(٣) المحرر الوجيز ١/١٤١، وينظر: تفسير القرطبي ١/٤٤٤.
(٤) تفسير السعدي ٥٤.

- وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ].

فالجزاء من جنس العمل، لما كفروا نعمة الله عليهم، جازاهم الله وبين سبب العقاب، وذيله بأن هذه عادة الله في جزاء الكفار.

قال مكي: «ثم قال: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: وهل يكافأ إلا من كفر بالله، فأما جزاء المؤمنين فهو تفضل من الله لا مكافأة؛ لأنه جعل لهم بالحسنة عشراً، فذلك تفضل منه، وجعل للمسيء بالواحدة واحدة مكافأة له على جرمه، فالمكافآت لأهل الكبائر والكفر، والمجازاة لأهل الإيمان مع التفضل»[1].

وقال أبو السعود: «﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ بسبب كفرانهم النعمة، حيث نزعناها منهم، ووضعنا مكانها ضدها، أو بسبب كفرهم بالرسل، ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: وما نجزي هذا الجزاء إلا المبالغ في الكفران أو الكفر»[2].

وقال السعدي: «ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ]؛ أي: وهل نجازي جزاء العقوبة - بدليل السياق - إلا من كفر بالله وبطر النعمة؟»[3].

- وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة].

قال ابن قتيبة: «﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨]؛ أي: عظة من الله بما عوقبا به لمن رآهما، ومثله قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦]»[4].

وقال الطبري: «وقوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، يقول: مكافأةً لهما على سرقتهما وعملهما في التلصص بمعصية الله»[5].

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية ٩/٥٩١٢.
(٢) تفسير أبي السعود ٧/١٢٨.
(٣) تفسير السعدي ٦٧٧.
(٤) غريب القرآن ١٤٣.
(٥) تفسير الطبري ١٠/٢٩٧.

وقال ابن كثير: «﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٣٨﴾؛ أي: مجازاة على صنيعهما السيئ في أخذهما أموال الناس بأيديهم، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك»(١).

- وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النَّازعات].

أي: عاقبه الله تعالى بسبب ذنوبه، وفيها عبرة لمن يخشى.

قال الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ﴾ فعاقبه الله: ﴿نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ۝٢٥﴾ يقول: عقوبة الآخرة من كلمتيه، وهي قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٤﴾ [النَّازعات]، والأولى قوله: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»(٢).

وقال الفراء: «وقوله ﷿: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ۝٢٥﴾، إحدى الكلمتين قوله: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]، والأخرى قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٤﴾ [النَّازعات]»(٣).

وقال ابن كثير: «قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ۝٢٥﴾؛ أي: انتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين في الدنيا»(٤).

- وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ۝١٢٧﴾ [طه].

في هذه الآيات توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين: المعيشة الضنك في الدنيا، وحشرُه أعمى في العقبى، وبيَّن سبحانه أنه هكذا يجزي من أسرف على نفسه بالمعاصي ولم يرجع إلى ربه، ثم ختم آيات الوعيد بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ۝١٢٧﴾، فهي أشد ألماً، وأدوم زمناً.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: وهكذا نجزي؛ أي: نثيب من أسرف

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١١٠. (٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٢٠٣.
(٣) معاني القرآن ٣/ ٢٣٣، وينظر: تفسير البيضاوي ٥/ ٤٤٨.
(٤) تفسير ابن كثير ٨/ ٣١٥.

فعصى ربه، ولم يؤمن برسله وكتبه، فنجعل له معيشة ضنكاً في البرزخ»[١].

وقال ابن كثير: «قول تعالى: وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة، ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد]، ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه]؛ أي: أشد ألماً من عذاب الدنيا، وأدوم عليهم، فهم مخلدون فيه»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصّلت].

في هذه الآيات بيان عقوبة الله تعالى لقوم عاد، وبيَّن حالهم: كفرٌ بالله، وجحدٌ لآياته، واستكبار في الأرض، وقهرٌ لمن حولهم من العباد، مع إعجابهم بقوتهم، وردَّ عليهم تعالى بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فعاقبهم الله عقوبة، تناسب قوتهم، التي اغتروا بها، وأخزاهم الله، فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ فأرسل عليهم ما هو أعتى منهم، وبين أن هذا عذاب الدنيا بقوله: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وبيَّن أن عذاب الآخرة أشد وأخزى، فقال: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قال ابن كثير: «وقد بيَّن سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية؛ أي: ريحاً شديدة الهبوب ذات برد شديد جداً، فكان إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة»[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٣٩٧.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٣٢٤.
(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ١٥٤.

بيّن تعالى أنه سيذيقهم من العذاب الأدنى في الدنيا، والسبب في ذلك: لعلهم يرجعون إليه ويتوبون من ذنوبهم، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الرُّوم].

قال الطبري: «وأولى الأقوال في ذلك أن يقال: إن الله وعد هؤلاء الفسقة المكذّبين بوعيده في الدنيا: العذاب الأدنى، أن يذيقهموه دون العذاب الأكبر، والعذاب: هو ما كان في الدنيا من بلاء أصابهم، إما شدّة من مجاعة، أو قتل، أو مصائب يصابون بها، فكل ذلك من العذاب الأدنى، ولم يخصص الله تعالى ذكره، إذ وعدهم ذلك أن يعذّبهم بنوع من ذلك دون نوع، وقد عذّبهم بكل ذلك في الدنيا بالقتل والجوع والشدائد والمصائب في الأموال، فأوفى لهم بما وعدهم»(١).

وقال ابن جزي: «﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [السجدة: ٢١]؛ يعني: الجوع ومصائب الدنيا، وقيل: القتل يوم بدر، وقيل: عذاب القبر، وهذا بعيد؛ لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة]»(٢).

وقال أبو السعود: «﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾؛ أي: عذاب الدنيا»(٣).

قال الطبري: «وقوله تعالى: ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]؛ أي: عذاب يوم القيامة، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»(٤).

- وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزّخرف].

الآية في سياق قصة قوم فرعون، والمراد: الآية المتأخرة أعظم من السابقة، ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ كالجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات، والسبب في ذلك رجاء رجوعهم إلى الإسلام، وترك الشرك والشر

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ١٩١.
(٢) التسهيل ٢/ ٣٥٤.
(٣) تفسير أبي السعود ٧/ ٨٦.
(٤) تفسير الطبري ٢٠/ ١٩١.

قبل فوات الأوان[١].

قال البغوي: «﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ بالسنين، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمس، فكانت هذه دلالات لموسى، وعذاباً لهم، فكانت كل واحدة أكبر من التي قبلها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾، عن كفرهم»[٢].

- وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون].

ثم بيّن سبب هذه العقوبة الشديدة فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المؤمنون].

ثم أكَّد بسبب آخر وقطع اعتذارهم فقال جل وعلا: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [المؤمنون].

قال ابن كثير: «هذا تقريعٌ من الله تعالى لأهل النار، وتوبيخ لهم على ما ارتكبوا من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم، التي أوبقتهم في ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المؤمنون]؛ أي: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت الكتب، وأزلت شُبَهكم، ولم يبق لكم حجة تدلون بها كما قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك]»[٣].

- وقوله تعالى في عقاب الكفار: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الذاريات].

---

(١) ينظر: تفسير السعدي ٧٦٧.
(٢) تفسير البغوي ٧/ ٢١٦.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ٤٩٨.

بيَّن تعالى أن الكذابين الظانين غير الحق لُعِنوا، وهم الذين في لُجَّة من الكفر والضلالة غافلون متمادون، وذكر بعض صفاتهم، ثم بيَّن أنها سبب عذابهم(١).

قال السمرقندي: «﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾؛ يعني: هذا العذاب الذي كنتم به تستهزئون؛ يعني: تستعجلون على وجه الاستهزاء»(٢).

وقال القرطبي: «﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾؛ أي: جعلنا ذلك سبب كفرهم وسبب العذاب»(٣).

- وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ [الانشقاق].

فبيَّن تعالى سبب أخذ الكتاب من وراء ظهره، وعذابه؛ بأنه كان في الدنيا مسروراً ولم يخف من عذاب الله، غافلاً عن الآخرة، منكراً الرجوع إلى الله للحساب والجزاء.

قال ابن كثير: «﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾؛ أي: فرحاً لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل، ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته»(٤).

- وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان].

ذكر الله تعالى ملازمة العذاب للكفار بسبب تكذيبهم.

قال ابن عطية: «ثم يقول: لقريش، فأنتم قد كذبتم ولم تعبدوه، فسوف يكون العذاب والتكذيب الذي هو سبب العذاب لزاماً»(٥).

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ٧/ ٤١٥، تفسير السعدي ٨٠٨.
(٢) تفسير السمرقندي ٣/ ٣٢٥.
(٣) تفسير القرطبي ١٩/ ٨١.
(٤) تفسير ابن كثير ٨/ ٣٥٨.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠.

وقال ابن كثير: «أعقب الله ذكر صفات المؤمنين بذكر جزاء الكافرين ملازماً لهم بسبب تكذيبهم، فقال: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۝٧٧﴾؛ أي: فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم؛ يعني: مقتضياً لهلاككم وعذابكم ودماركم في الدنيا والآخرة»[١].

وقال أبو السعود: «فسوف يكون لزاماً؛ أي: يكون جزاء التكذيب أو أثره لازماً يحيق بكم لا محالة حتى يكبكم في النار»[٢].

هذا؛ وعند تأمل آيات العذاب في القرآن نجد عادته ذِكر السبَبِ في الأعم الأغلب، وهذا من حِكْمةِ الله تعالى، وأن عذابه بعَدل، وثوابه بِفَضل، وأن الله جل وعلا لا يُعاقب إلا من يستحق العقوبة؛ وذِكْر السبب ليطمئنَّ العبدُ بأنه كما قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء]، والله تعالى أعلم.

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٣٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ١٣٣.

الفصل الثاني

عادات القرآن في قصصه

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: ربط القصة بما يناسبها.
- المبحث الثاني: التنويع في عرض القصص.

المبحث الأول

ربط القصة بما يناسبها

وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: توارد قصص الأنبياء عليهم السلام.
- المطلب الثاني: ذكر القصص بعد دلائل التوحيد.
- المطلب الثالث: تعقيب القصص بذكر المواعظ والعبر.

المطلب الأول

توارد قصص الأنبياء عليهم السلام

من عادات القرآن الإكثار من ذكر قصص الأنبياء مترابطة في مشهد شريف لطيف؛ ليكون للعاقل أسوةٌ برسل الله وأنبيائه وأوليائه وخاصته من خلقه عليهم السلام؛ وفي قصصهم العبرة والعظة لأولي الألباب.

وقد بيَّن تعالى في القرآن أحوال الأنبياء عليهم السلام مع الخالق سبحانه وتعالى.

قال ابن تيمية: «والقرآن قد أخبر بأدعية الأنبياء، وتوباتهم، واستغفارهم»[(١)].

فهذا جزء من علاقتهم بربهم جل وعلا.

وبيَّن جل وعلا أحوال الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم.

ومن أهم مقاصد ذكر قصص الأنبياء في القرآن: تثبيت فؤاد النبي ﷺ وتقوية قلبه، وتسليته عما أصابه، وتبشيره بأن العاقبة له ولأتباعه.

كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود].

---

(١) الرد على البكري ١/ ١٦١.

قال البغوي: «معناه: وكل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل؛ أي: من أخبارهم وأخبار أممهم، نقصها عليك لنثبت فؤادك؛ لنزيدك يقيناً ونقوي قلبك، وذلك أن النبي ﷺ إذا سمعها كان في ذلك تقوية لقلبه على الصبر على أذى قومه»(١).

ومن المقاصد في ذكر قصص الأنبياء أيضاً أخذ العظة والعبرة بمن سبق.

قال الرازي: «اعلم أن المقصود من ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام حصول العبرة لمن يسمعها»(٢).

وقال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: ١٢٠]: «والصحيح: في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف نَجّاهم الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين، جاءك فيها قَصَصُ حق، ونبأ صدق، وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتوقر بها المؤمنون»(٣).

وقال جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف].

قال ابن القيم: «ويكفي تدبُّر قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم، وشأن نبينا وأذى أعدائه له بما لم يؤذه من قبله»(٤).

وقال السعدي: «﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾؛ أي: قصص الأنبياء والرسل مع قومهم، ﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: يعتبرون بها، أهل الخير وأهل الشر، وأن مَن فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة، ويعتبرون بها أيضاً؛ ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له»(٥).

---

(١) تفسير البغوي ٤/٢٠٧، وينظر: تفسير أبي السعود ٤/٢٤٨.
(٢) تفسير الرازي ١٤/٤٤.
(٣) تفسير ابن كثير ٤/٣٦٣.
(٤) مدارج السالكين ٢/٣٢٣.
(٥) تفسير السعدي ٤٠٧.

وعادة القرآن توارد قصص الأنبياء عليهم السلام في السياق الواحد، ومن الأمثلة على ذلك:

- ما جاء في سورة الأعراف من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف] إلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف]، إلى قوله سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف] إلى قوله جل وعلا: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأعراف] إلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف] إلى قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأعراف] إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].

- وكذا ما جاء في سورة هود من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ [هود] إلى قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [هود] إلى قوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود] إلى قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ

﴿٧٧﴾ [هود] إلى قوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود] إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ [هود]، ثم قال تعالى بعدها: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود]، وفي ختام قصص الأنبياء قال جل وعلا: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود].

قال البقاعي: «﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، بسَط تعالى حال من وقعت الإحالة عليه[1]، واستوفى الكثير من قصصهم إلى آخر سورة هود، إلى قوله سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، فتأمَّل بما افتُتِحت به السورةُ المقصودُ بها قصص الأمم، وبما اختتمت، يَلُح لك ما أشرت إليه، والله أعلم بمراده، وتأمل افتتاحَ سورة الأعراف بقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأعراف]، وختْمَ القصص فيها بقوله: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف]»[2].

- ومن الأمثلة كذلك ما جاء في سورة الشعراء من قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء]، إلى قوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء]، إلى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء]، إلى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الشعراء]، إلى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الشعراء].

---

(١) المراد: الإحالة على الاعتبار بالأمم السالفة وما كان منهم حين كذبوا أنبياءهم، والذي تكرر كثيراً في سورة الأنعام، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام]، وبعدها قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام]، ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا﴾ [الأنعام]، وغيرها. ينظر: نظم الدرر ٣/ ٥.

(٢) نظم الدرر ٣/ ٥.

فهذه الأمثلة وغيرها في كتاب الله تعالى تدل على الترابط بين الرسل والرسالات، والسر ـ والله أعلم ـ وجود النسبة الكبيرة في الاتفاق بين الأنبياء، وبين أحوال الأمم مع أنبيائهم.

ولذلك أمر الله بتذكُّر قصص الأنبياء في غير ما آية، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم]، إلى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ [مريم]، إلى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم]، إلى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾ [مريم].

قال ابن تيمية خلال حديثه عن الذكر: «ومما أُمِروا به تذكرةَ قصص الأنبياء المتقدمين، كما قال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [مريم: ٤١]، ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ﴾ [مريم: ٥١]، ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ [مريم: ٥٤]، ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ [مريم: ٥٦]، وقال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧]، ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥]، ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾ [ص: ٤٨].

ومما أمروا به تَذْكِرة ما وعدوا به من الثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ [ص]»[(١)].

وعند التأمل في أوجه توارد قصص الأنبياء في السياق الواحد يتبين لي أن بينها قواسم مشتركة ومنها:

١ ـ اتفاقهم في أمر التوحيد، وهو أعظم أصلٍ اتفقوا عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال جل وعلا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

وهذا بيِّنٌ في البدء بدعوتهم بقول: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

قال ابن تيمية: «وقد أخبر الله تعالى عن كل من الرسل مثل: نوح،

---

(١) مجموع الفتاوى ١٦/ ١٩٣.

وهود، وصالح، وشعيب، وغيرهم، أنهم قالوا لقومهم: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ وهذا أول دعوة الرسل وآخرها»[1].

٢ ـ اجتماعهم في أصول الشريعة، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى].

وقال تعالى بعد ذكر عدد من قصص الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿...وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم]، وقال تعالى عن إسماعيل: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم]، وأمر الله نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر].

٣ ـ ومما اجتمع في الأنبياء: الحرص الكامل على الدعوة إلى الله والنصح لأقوامهم، وكل قصص الأنبياء مع أقوامهم دليل على هذا الحرص كما قال الله على لسان نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾﴾ [نوح] وما بعدها من الآيات.

وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف].

---

(١) منهاج السُّنَّة النبوية ٥/٣٤٦.

وقال تعالى عن أنبيائه: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب].

وقال تعالى عن رسول الله ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال ابن تيمية: «فإن الله جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يُصلِحهم في معاشهم ومعادهم، وبُعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله، وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه»(١).

واتفقوا في أمر أقوامهم بالتقوى، فكل نبي يأمر أمته بذلك، كما بيَّن تعالى في قصة كل نبي أنه يقول لقومه: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [الشعراء]، فتكرر هذا الأمر مع كل نبي - في سورة الشعراء - ومع بعضهم مرتين.

٤ - اتفق الأنبياء على تذكير أقوامهم بنعم الله تعالى، وما حصل للأمم الكافرة قبلهم، كما قال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف]، وقال تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف].

٥ - ومن مواضع الاتفاق بين الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام عدم أخذهم أجراً مقابل ما جاءوا به من الهدى والوحي والدعوة، بل يفعلون ذلك لوجه الله، وأجمع دليل على ذلك، ما بيّنه جل وعلا حكاية عن أنبيائه في قصصهم - نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم الصلاة والسلام - كل

---

(١) مجموع الفتاوى ١٩/ ٩٥.

يقول لقومه: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٩﴾ [الشعراء]، إلى آخر السورة.

وقال تعالى آمراً نبينا محمداً ﷺ: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ٤٧﴾ [سبأ].

وقال تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٠﴾ [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦].

وقال تعالى على لسان صاحب قرية يس: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾ [يس].

٦ ـ وقد اجتمع للأنبياء كلِّهم النصرُ والتأييد من الله تعالى، وهذا بيِّن من خلال ما حكاه تعالى عنهم في قصصهم، وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ٤٢﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢﴾ [الصافات]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر].

قال السعدي: «ولما ذكر في سورة الشعراء قصص الأنبياء مع أممهم، ختم كل قصة بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٩﴾ [الشعراء: ٩، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ١٧٥، ١٩١] فإن كل قصة تضمنت نجاة النبي وأتباعه، وذلك برحمة الله ولطفه، وتضمنت إهلاك المكذبين له، وذلك من آثار عزته»[1].

وبعد هذا؛ فإن من أعظم وجوه الانتفاع بالقرآن تدبرُ أخبار الأنبياء وقصصهم التي ساقها القرآن.

ومنها قصص الأنبياء الواردة في السياق الواحد، فالنظر فيما بينها من

---

(١) القواعد الحسان ٥٧.

تشابه لفظي ومعنوي يُظهر إعجاز القرآن في أسلوبه، ومن خلالها تتحقق الثمرة المرجوَّة من الاقتداء برسل الله وأنبيائه ـ في عبوديتهم وطريقتهم في التعامل مع الله تعالى، ومع المخلوقين ـ ولِتَحصل العبرة من أحوال الأمم السابقة، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

ذكر القصص بعد دلائل التوحيد

من عادات القرآن تكرار ما يستحق التكرار من الأمور المهمة؛ ليجد سبيله إلى النفوس النافرة، والطباع العصية، ومن ذلك: تقريره لعقيدة التوحيد مع اقترانها بذكر القصص(١).

قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود].

قال الزمخشري: «﴿فُصِّلَتۡ﴾ كما تُفَصل القلائد بالدلائل، من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص»(٢).

وقال الرازي: «اعلم أن من عادته ﷻ في هذا الكتاب الكريم أنه يخلط هذه الأنواع الثلاثة بعضها بالبعض؛ أعني: علم التوحيد، وعلم الأحكام، وعلم القصص، والمقصود من ذكر القصص: إما تقرير دلائل التوحيد، وإما المبالغة في إلزام الأحكام والتكاليف، وهذا الطريق هو الطريق الأحسن، لا إبقاء الإنسان في النوع الواحد؛ لأنه يوجب الملال، فأما إذا انتقل من نوع من العلوم إلى نوع آخر فكأنه يشرح به الصدر ويفرح به القلب، فكأنه سافر من بلد إلى بلد آخر، وانتقل من بستان إلى بستان آخر، وانتقل من تناول طعام لذيذ إلى تناول نوع آخر، ولا شك أنه يكون ألذ وأشهى»(٣).

---

(١) ينظر: تفسير الرازي ١٩/ ١٥٥، مناهل العرفان ٢/ ٢٦٢.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٥٨، وينظر: البحر المحيط ٥/ ٢٠١.

(٣) تفسير الرازي ٧/ ٣.

وقال السعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٤]: «المقصود الأعظم من سياق القصص أنه يحصُل بها العبرة، وأعظم العبر: الاستدلال بها على التوحيد والرسالة، والبعث وغيرها من الأصول الكبار»(١).

ومن الأمثلة على ذلك:

- قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة].

هذه أعظم آية في كتاب الله تعالى - آية الكرسي - وفيها تقرير أصل التوحيد وأساس العبادة؛ ليستشعر العبد عظمة الله، فيطيع أوامره، ويمتثل أحكامه، وبيَّن سبحانه أنه ولي المؤمنين، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت، ثم قص الله بعدها محاجة النمرود الذي عارض ربوبية الله مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وبيان ما وفق الله نبيه من دحض الشبهات، فصارت مثلاً للمؤمن والكافر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة].

وأتبعها بقصة صاحب الحمار: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ...﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وفيها إثبات الحشر والبعث.

قال البقاعي: «ولما ذكر ما له ﷻ من الإحاطة والعظمة، وأتبعه أمر الإيمان وتوليه حزبه، وأمر الكفران وخذلانه أهله، أخذ يدل على ذلك بقصة

---

(١) تفسير السعدي ٩٦٧.

المحاج للخليل، والمار على القرية، مذكراً بقصة الذين قال لهم: موتوا ثم أحياهم، في سياق التعجيب من تلك الجرأة»[١].

وبعد القصتين ذكر الله تعالى قصة ثالثة تدل على البعث، وهي قصة إبراهيم حين طلب رؤية إحياء الموتى ليطمئن قلبه.

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى ذكر هاهنا قصصاً ثلاثة، الأولى منها: في بيان إثبات العلم بالصانع، والثانية: في إثبات الحشر والنشر والبعث، والقصة الثالثة: وهي أيضاً دالة على صحة البعث، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]»[٢].

- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحجر].

في بداية هذه السورة تقرير النبوة، ثم في هذه الآيات الحديث عن دلائل التوحيد، ثم ذكر تعالى قصة الخلق وبعده أحوال القيامة وبيان صفة الأشقياء والسعداء، في الآيات من [٢٥، ٥٠] ثم أتبعها بقصص الأنبياء.

فقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر]، إلى قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الحجر]، إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَـٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الحجر]، إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الحجر].

---

(١) نظم الدرر ١/٥٠٣.

(٢) تفسير الرازي ٧/١٩، ٣٣.

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بالغ في تقرير أمر النبوة، ثم أردفه بذكر دلائل التوحيد، ثم ذكر عقيبه أحوال القيامة، وصفة الأشقياء والسعداء، أتبعه بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام؛ ليكون سماعها مرغباً في الطاعة الموجبة للفوز بدرجات الأنبياء، ومحذراً عن المعصية لاستحقاق دركات الأشقياء، فبدأ أولاً بقصة إبراهيم عليه السلام، والضمير في قوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ راجع إلى قوله: ﴿عِبَادِى﴾ والتقدير: ونبئ عبادي عن ضيف إبراهيم...» إلخ[(١)].

- ومن الأمثلة ما جاء في سورة الأنبياء من بيان أصول التوحيد، والرسالة، والبعث، والجزاء، ثم ذكرت جملة من قصص الأنبياء عليهم السلام.

يقول تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنبياء]، إلى قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء]، إلى قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء]، إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنبياء]، إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنبياء].

ثم جاءت قصص الأنبياء تسلية للنبي ﷺ وتثبيتاً لقلبه، وأن إنزال الوحي سُنَّة الله في أنبيائه، فجاءت قصة موسى وهارون، وإبراهيم، ولوط، وإسحاق ويعقوب، ونوح، وداود وسليمان، وأيوب، وإسماعيل وإدريس وذي الكفل، ويونس، وزكريا ويحيى، وعيسى عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء]، إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء]، إلى قوله: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ

(١) تفسير الرازي ١٩/ ١٥٥.

ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنبياء]، إلى قوله: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنبياء]، إلى قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنبياء] إلى آخر الآيات.

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه لما تكلم في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد شرع في قصص الأنبياء عليهم السلام تسلية للرسول عليه السلام فيما يناله من قومه وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر على كل عارض دونها...»[(١)].

ـ وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [المؤمنون]، إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون]، إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون].

فبعد أن أمر الله تعالى بالعبادات، وأورد ما يدل على وجوده وقدرته جل وعلا، ومنها: خلق الإنسان، وخلق السماوات السبع، وإنزال الماء من السماء، وخلق الحيوانات وما فيها من المنافع الكثيرة.

أتبع ذلك بقصص الأنبياء: قصة نوح، وقصة هود، وقصة صالح ولوط وشعيب مجملة، وقصة موسى وهارون، وقصة عيسى وأمه.

والمراد: بيان كفران الناس بعد تعداد النعم عليهم، والإشارة إلى ما حل بالأمم السابقة من زوالها، وأنها مماثلة لكفار مكة.

قال الرازي: «واعلم أنه تعالى لما بيَّن دلائل التوحيد أردفها بالقصص كما هو العادة في سائر السور وهي هاهنا، القصة الأولى: قصة نوح عليه السلام، ...»[(٢)].

ـ ومن الأمثلة ما جاء في سورة: الفرقان، حيث بُدِئت بإثبات الوحدانية لله تعالى، وصحة الرسالة، ووقوع البعث والجزاء يوم القيامة، يقول

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ١٥٤.
(٢) تفسير الرازي ٢٣/ ٧٩.

تعالى في وحدانيته: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان]، إلى قوله تعالى عن بشرية الرسل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، إلى قوله عن رهبة القيامة: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان].

وذكر سبحانه شبهات المشركين والرد عليها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان].

وبعد بيان شبهات المشركين حول القرآن والنبوة والبعث، ذكر قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم وما نزل بهم من عذاب بسبب تكذيبهم للرسل؛ كقصة موسى وهارون، وقوم نوح، وعاد، وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأمثالهم من الكافرين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [الفرقان]، إلى قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾ [الفرقان]، إلى قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان]، ثم قال تعالى عن قوم لوط: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [الفرقان].

قال الرازي: «واعلم أنه تعالى بعد أن تكلم في التوحيد، ونفي الأنداد، وإثبات النبوة، والجواب عن شبهات المنكرين لها، وفي أحوال القيامة، شرع في ذكر القصص على السُّنَّة المعلومة»[1].

ثم ذكر الله تعالى بعد هذه القصص التي فيها جهل المعرضين عن أدلة التوحيد ومناقشتهم، وعدم إيمانهم، ذكر أدلة على وجود الصانع القادر على كل شيء.

---

(١) تفسير الرازي ٢٤/ ٧٠.

فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٥ ـ ٥٤].

فذكر هنا الأدلة من الظواهر الكونية التي يدركها ويشاهدها كل مخلوق، وهي خلق الظل، والليل والنهار، والرياح والأمطار، والبحار المالحة والعذبة، والإنسان من الماء.

قال ابن كثير: «من هاهنا شرع تعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾»(١).

ـ ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في سورة: ق والقرآن المجيد، فهي مشتملة على أصول العقيدة مع التأكيد على إثبات البعث، والرد على منكريه، وبعد ذلك الإشارة إلى قصص إهلاك الأمم السابقة المكذبين بالرسل، تحذيراً لكفار مكة أن يصيبهم ما أصاب غيرهم.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق]، إلى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق].

ـ ومن الأمثلة ما جاء في سورة: القمر، وفيها: تقرير أصول العقيدة، من إنزال الوحي، وتهديد المكذبين بآياته، وإثبات البعث، والجزاء يوم القيامة، حيث يقول تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ١١٣.

سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر].

وأتبع هذا جل وعلا بإنذار كفار مكة من عذاب مشابه لعذاب الأمم السابقة؛ كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم ولوط، وآل فرعون جزاء تكذيبهم الرسل، وأفردت كل قصة عن الأخرى ـ وحال النبي ﷺ كحال الرسل المتقدمين مع أقوامهم ـ حيث يقول سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر: ٩ ـ ٤٢].

قال ابن القيم: «وهكذا كانت قراءته ﷺ في المجامع الكبار كالأعياد ونحوها، بالسورة المشتملة على التوحيد، والمبدأ، والمعاد، وقصص الأنبياء مع أممهم، وما عامل الله به من كذبهم، وكفر بهم من الهلاك والشقاء، ومن آمن منهم وصدقهم من النجاة والعافية، كما كان يقرأ في العيدين بسورتي: ق والقرآن المجيد، و: اقتربت الساعة وانشق القمر...»(١).

فظهر بذلك كله أن عادة القرآن ربط الدعوة إلى التوحيد وتقرير الأحكام وذكر القصص بعضها ببعض، والحكمة ـ والله أعلم ـ من ذكر القصص تقرير دلائل التوحيد، والتأكيد على أهمية تطبيق الأحكام والتكاليف، وفي هذا الأسلوب رحمة بالإنسان؛ لأن طبعه مجبول على الملل من الأسلوب الواحد، فالانتقال من أسلوب إلى أسلوب يشرح الصدر، ويجدد النشاط، ويصل بالإنسان إلى كمال الذوق واللذة، وقرب الفهم للمعنى، وسهولة العمل بالمقتضى، والله أعلم.

---

(١) زاد المعاد ١/ ٤٠٧.

المطلب الثالث

تعقيب القصص بذكر المواعظ والعبر

ثنَّى الله تعالى في كتابه القصص والمواعظ، لما فيها من التذكير والاعتبار.

قال مكي: «تُثنى في القرآن القصص والمواعظ والأخبار، دل على ذلك قوله: ﴿مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزُّمر: ٢٣]»[١].

وقال الزركشي: «وقيل: سمي القرآن مثاني؛ لتكرار الحكم والقصص والمواعظ»[٢].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾﴾ [القمر]، قال ابن جزي: «الأنباء هنا يراد بها: ما ورد في القرآن من القصص، والبراهين، والمواعظ»[٣].

وقصص القرآن فيها المواعظ والعبر، ومن تأمل في عادة القرآن وجد أن الموعظة والدروس المستفادة من القصة تمتد بعدها.

قال ابن تيمية: «ونظير ذلك ذكر القصص، فإنها كلها أمثال، هي أصول قياس واعتبار»[٤].

ومن الأدلة على ذلك:

- قوله تعالى في ختام القصص في سورة الأعراف: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف].

قال الطبري: «وأما قوله: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ فإنه يقول لنبيه محمد ﷺ: فاقصص يا محمد هذا القصص، الذي اقتصصته عليك من نبأ الذي آتيناه آياتنا، وأخبارَ الأمم التي أخبرتك أخبارهم في هذه السورة، واقتصَصْت عليك نبأهم ونبأ أشباههم، وما حلّ بهم من عقوبتنا، ونزل بهم حين كذبوا رسلَنا من

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية ٦/ ٣٩٢٥.
(٢) البرهان ١/ ٢٨٠.
(٣) التسهيل ٣/ ١٠٤.
(٤) دقائق التفسير ١/ ٢٠٥.

نقمتنا على قومك من قريش، ومَنْ قِبَلَك من يهود بني إسرائيل، ليتفكروا في ذلك، فيعتبروا وينيبوا إلى طاعتنا، لئلا يحلّ بهم مثل الذي حلّ بمن قبلهم من النّقم والمثلات»(١).

ثم قال تعالى بعدها: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف].

قال ابن كثير: «يقول تعالى ساء مثلاً مثلُ القوم الذين كذبوا بآياتنا؛ أي: ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حَيِّز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه، واتبع هواه، صار شبيهاً بالكلب، وبئس المثل مثله»(٢).

وقال البقاعي: «فتأمل هذا الإيماء بعد ذكر القصص، وكيف ألحق من كذب رسول الله ﷺ من العرب وغيرهم بمن قص ذكره من المكذبين، وتأمل افتتاح ذكر الأشقياء بقصة إبليس، وختمها بقصة بلعام، وكلاهما ممن كفر على علم، وفي ذلك أعظم موعظة، قال الله تعالى إثر ذلك: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ [الأعراف: ١٧٨]»(٣).

ـ وقوله جل وعلا: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود].

قال مكي: «المعنى: وجاءك في هذه السورة الحق، دون غيرها، بل في الكل جاء الحق، وذُكِّر في هذه السورة بهذا تأكيداً لما فيها من القصص والمواعظ، وذكر الجنة والنار ومقام الفريقين»(٤).

وقال السعدي: «ومن فوائد قصة شعيب: الترهيب بأخذات الأمم وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر، كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٢٧٤.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٥١٢.
(٣) نظم الدرر ٣/ ٥.
(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية ٥/ ٣٤٩٢، وينظر: معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٩١.

الترغيب والحث على التقوى»(١).

فعادة القرآن تعقيب القصص بالمواعظ، فبعد كل قصة موعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ومن الأمثلة:

قصص الأنبياء الواردة في سورة هود؛ فبعد أن بيَّن الله تعالى أن القرآن وحي منه سبحانه، وأثبت بعثة النبي ﷺ، وبيَّن حال المؤمنين والكافرين، وحضَّ على الاعتبار بقوله: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود]، ذكر عدداً من قصص الأنبياء للعظة والعبرة، وفيها بيان اشتراك الأنبياء في الدعوة إلى أصول واحدة، وهي عبادة الله وحدة، والإيمان بالبعث والجزاء، وفيها التنبيه على ملازمة الصبر على أذى الكفار حتى يكفِيَه الله أمرهم.

والشاهد: أن كل قصة من القصص بعدها موعظة موجزة، وأذكر هذه المواعظ على سبيل الإجمال:

١ ـ فبعد قصة نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود].

فهذه الآيات بعد قصة نوح عليه السلام، وفيها الإشارة إلى أمرين:

الأول: بيان تكريم الله تعالى لنوح عليه السلام والمؤمنين معه، بالسلامة، وبالبركة.

الثاني: الإخبار بأنباء غائبة عن الخلق؛ لتكون عظة وعبرة، ثم حث على الصبر كما صبر نوح على أذى الكفار، فإن النصر والنجاة للمتقين.

قال الطبري: «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود].

(١) تفسير السعدي ٣٨٨.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمّد ﷺ: هذه القصة التي أنبأتك بها من قصة نوح وخبره وخبر قومه ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾، يقول: هي من أخبار الغيب التي لم تشهدها فتعلمها ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾، يقول: نوحيها إليك نحن، فنعرفكها ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾، الوحي الذي نوحيه إليك، ﴿فَٱصْبِرْ﴾، على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته، وما تلقى من مشركي قومك، كما صبر نوح ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٤٩﴾، يقول: إن الخير من عواقب الأمور لمن اتقى الله، فأدّى فرائضه، واجتنب معاصيه»[1].

٢ ـ وبعد قصة هود عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾ [هود].

جمع الله تعالى في هذه الآيات خلاصة وصف قوم عاد في ثلاثة أمور: جحود بآيات ربهم، وعصيان رسله، واتباعهم رؤساؤهم على الباطل، ثم ذكر عاقبتهم في الدنيا والآخرة بالإبعاد عن رحمة الله، ثم كرر تأكيداً للبعد بسبب كفرهم ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾.

قال أبو السعود: «﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ دعاء عليهم بالهلاك، مع كونهم هالكين أي هلاك، تسجيلاً عليهم باستحقاق الهلاك، واستيجاب الدمار، وتكريرُ حرف التنبيه وإعادةُ عادٍ للمبالغة في تفظيع حالهم، والحثّ على الاعتبار بقصتهم»[2].

٣ ـ وبعد قصة صالح عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٦٧ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ۝٦٨﴾ [هود].

هذه في ختام قصة صالح عليه السلام مع ثمود، بيَّن تعالى عقوبة الظالمين بالصاعقة التي قطعت قلوبهم وأهلكتهم، فصاروا جثثاً هامدة، وأنهم لسرعة هلاكهم بالصيحة كأنهم لم يوجدوا في الدنيا، ولم يسكنوا ديارهم، بسبب

---

(١) تفسير الطبري ١٥/٣٥٦.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٢٠.

كفرهم، وجحودهم بآيات الله، فلهم الشقاء والبعد عن رحمة الله، وفي هذا عظة وعبرة لمن بعدهم.

قال السعدي: «﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ﴾؛ أي: كأنهم لما جاءهم العذاب ما تمتعوا في ديارهم، ولا أنسوا بها، ولا تنعموا بها يوماً من الدهر، قد فارقهم النعيم، وتناولهم العذاب السرمدي الذي لا ينقطع»(١).

٤ ـ وبعد قصة لوط عليه السلام، قال تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود].

قال الطبري: «وأما قوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾، فإنه يقول تعالى ذكره متهدداً مشركي قريش: وما هذه الحجارة التي أمطرتها على قوم لوط، من مشركي قومك يا محمد ببعيد أن يمطروها، إن لم يتوبوا من شركهم، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»(٢).

وقال مكي: «ثم قال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾؛ أي: من ظالمي قومك يا محمد، فهذا على التهديد للمشركين»(٣).

وقال الشنقيطي: «وقال في حجارة قوم لوط التي أهلكوا بها، أو ديارهم التي أهلكوا فيها: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾، وهو تهديد عظيم منه تعالى لمن لم يعتبر بحالهم، فيجتنب ارتكاب ما هلكوا بسببه، وأمثال ذلك كثير في القرآن»(٤).

٥ ـ وبعد قصة شعيب عليه السلام، قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود].

وهذه الموعظة يُقال فيها ما قيل الموعظة بعد قصة ثمود.

قال الطبري: «كأن لم يعش قوم شعيب الذين أهلكهم الله بعذابه، حين أصبحوا جاثمين في ديارهم»(٥).

---

(١) تفسير السعدي ٣٨٥.
(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٤٣٨.
(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية ٥/ ٣٤٤٩.
(٤) أضواء البيان ١/ ٣٧٦.
(٥) تفسير الطبري ١٥/ ٤٦٤، وينظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٤٤٩.

وقال أبو السعود: «وإنما شبه هلاكهم بهلاكهم؛ لأنهما أهلكتا بنوع من العذاب، وهو الصيحة، غير أن هؤلاء صيح بهم من فوقهم، وأولئك من تحتهم»(١).

وقال السعدي: «﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾؛ أي: قد اشتركت هاتان القبيلتان في السحق والبعد والهلاك»(٢).

- ثم قال تعالى في ختام القصص في سورة هود: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود].

بعد أن ذكر الله قصص الأنبياء مع الأمم السابقة، بيَّن ما فيها من العظة والعبرة، فقال تعالى لرسوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ وأن في هذه القصص علامة على رسالتك، وإنذار وموعظة وذكرى للمؤمنين.

ثم ذكر بعدها العبرة بجزاء الآخرة لكل من الأشقياء والسعداء، بالترهيب من عصيان الله، والترغيب بالإيمان بالله، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود] الآيات.

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ المعنى: إن في هذه القرى وما حل بها لعبرة، وعلامة اهتداء لمن خاف أمر الآخرة، وتوقع أن يناله عذابها، فنظر وتأمل، فإن نظره يؤديه إلى الإيمان بالله تعالى»(٣).

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما ذكر قصص الأولين قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٣٨.
(٢) تفسير السعدي ٣٨٨.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٠.

أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ﴾ والفائدة في ذكرها أمور، أولها: أن الانتفاع بالدليل العقلي المحض إنما يحصل للإنسان الكامل وذلك إنما يكون في غاية الندرة فأما إذا ذكرت الدلائل ثم أكدت بأقاصيص الأولين صار ذكر هذه الأقاصيص كالموصل لتلك الدلائل العقلية إلى العقول» إلى أن قال: «الفائدة الرابعة: أن الذين يسمعون هذه القصص يتقرر عندهم أن عاقبة الصديق والزنديق والموافق والمنافق إلى ترك الدنيا، والخروج عنها، إلا أن المؤمن يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في الآخرة، والكافر يخرج من الدنيا مع اللعن في الدنيا، والعقاب في الآخرة، فإذا تكررت هذه الأقاصيص على السمع، فلا بد وأن يلين القلب، وتخضع النفس، وتزول العداوة، ويحصل في القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال، فهذا كلام جليل في فوائد ذكر هذه القصص»(١).

ومن الأمثلة على تعقيب القصص بالمواعظ:

القصص الواردة في سورة الكهف؛ فكل قصة يعقبها موعظة تناسب معناها.

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾ [الكهف]، إلى آخر الآيات في قصة الفتية الذين فروا بدينهم لئلا يُفتنوا.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾ يخبر تعالى عن أولئك الفتية، الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه، فَهَرَبوا منه فَلَجَؤُوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ﴾؛ أي: هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾؛ أي: وقدِّر لنا من أمرنا هذا رشداً؛ أي: اجعل عاقبتنا رشداً.

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ٤٥.

وقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الكهف]؛ أي: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ [الكهف: ١٢]؛ أي: من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعاماً يأكلونه، كما سيأتي بيانه وتفصيله؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾؛ أي: المختلفين فيهم، ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ قيل: عدداً، وقيل: غاية فإن الأمد الغاية»[(١)].

ففي هذه القصة العبرة، وكيف نجاهم الله وييسر أمورهم لما فعلوا الأسباب.

قال السعدي: «فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقيض لهم ما لم يكن في حسابهم»[(٢)].

ثم جاء التفصيل أكثر في خبرهم وحالهم.

والشاهد هنا: أنه بعد هذه القصة جاءت الوصية بالصبر على صحبة الصالحين وترك أصحاب الهوى، والوعظ بأن لا تنسيك زينة الحياة الدنيا ذكر الله والدار الآخرة، فقال جل وعلا: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف].

قال السعدي: «ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد، ما لا يحصى.

﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فإن هذا ضار غير نافع، وقاطع عن المصالح الدينية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للناظر، وتسحر

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/١٣٩.
(٢) تفسير السعدي ٤٧١.

العقل، فيغفل القلب عن ذكر الله، ويقبل على اللذات والشهوات، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية، والندامة السرمدية»(١).

ثم قال تعالى من باب التهديد والوعيد الشديد(٢): ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف]، وما بعدها.

ففي هذه الآية أن على النبي البلاغ وعلى العباد السمع والطاعة، فمن آمن سَعِد في الدنيا والآخرة، ومن كفر شَقِي في الدنيا والآخرة.

قال ابن جزي: «أي: هذا هو الحق فمن شاء فليؤمن لفظه أمر وتخيير ومعناه أن الحق قد ظهر فليختر كل إنسان لنفسه إما الحق الذي ينجيه أو الباطل الذي يهلكه ففي ضمن ذلك تهديد»(٣).

وفي هذا موعظة بليغة بالجمع بين الترهيب والترغيب.

المثال الثاني: قصة صاحب الجنتين الذي آتاه الله من كل خير؛ فكفر بأنعم الله وأنكر البعث، وهذه إشارة إلى فتنة المال، فأهلك الله الجنتين.

قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾ [الكهف]، الآيات.

هذه الآية مثل للغني الكافر والفقير المؤمن، وبأسلوب القصة والحوار، فالكافر افتخر بماله وأنصاره على فقراء المسلمين، فعاقبه الله بهلاك ماله، وحسرته في الدنيا والآخرة على شركه وتفرق أنصاره، وبعد هذه القصة جاء الوعظ بحقارة الدنيا، فقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف].

---

(١) تفسير السعدي ٤٧٥.
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٤.
(٣) التسهيل ٢/ ١٣٥.

فبيَّن حال الدنيا وزوال ما فيها ومصير ما فيها من النعيم إلى الهلاك، ثم بيَّن أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا في عرف الناس، وهي سريعة الزوال، فلا يحسن بالعاقل أن يُقدم الفاني على الباقي.

المثال الثالث: قصة موسى عليه السلام مع الخضر حيث ظن أنه أعلم أهل الأرض، فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين، هو أعلم منك، فرحل للقائه، والتعلم منه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ [الكهف]، فلم يصبر على ما رأى من مواقف مع الخضر، وفي نهاية القصة قال الله تعالى على لسان الخضر: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف]، وفيها: أنه لا بد للعلم من التواضع والصبر.

المثال الرابع: قصة ذي القرنين الذي كان ملكاً عادلاً عالماً، بلغ مغرب الشمس ومشرقها، حتى وصل قوماً خائفين من يأجوج ومأجوج فأعانهم على بناء سدٍّ يمنعهم ويحصنهم، وخُتمت القصة بقوله جل وعلا عن ذي القرنين: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف].

ـ ثم خُتمت القصص بالمواعظ إلى نهاية السورة، فقال تعالى: ﴿...وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف: ٩٩ ـ ١٠٦] إلى آخر آية في السورة يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف].

بيّن تعالى في نهاية هذه السورة ونهاية القصص الوارد فيها أن النار تبرز للكافرين يوم القيامة ليروا سوء عاقبتهم، ولا يُقام لهم وزن ولا قدر، وأن أعمالهم قد حبطت وضاعت بسبب كفرهم.

قال الطبري: «يقول تعالى: وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين الذين كانوا

لا ينظرون في آيات الله، فيتفكَّرون فيها ولا يتأمَّلون حججه، فيعتبرون بها، فيتذكرون وينيبون إلى توحيد الله، وينقادون لأمره ونهيه، وكانوا لا يطيقون أن يسمعوا ذكر الله الذي ذكَّرهم به، وبيانه الذي بيَّنه لهم في آي كتابه، بخذلان الله إياهم، وغلبة الشقاء عليهم، وشُغلهم بالكفر بالله وطاعة الشيطان، فيتعظون به، ويتدبَّرون، فيعرفون الهدى من الضلالة، والكفر من الإيمان»(١).

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة: أنه يعرض عليهم جهنم؛ أي: يبرزها لهم ويظهرها، ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم»(٢).

وفي الآية الأخيرة الحث على العمل الصالح، وعدم الشرك بالله.

قال البيضاوي عنها: «والآية جامعة لخلاصتي العلم والعمل، وهما التوحيد والإخلاص في الطاعة»(٣).

ومن الأمثلة على تعقيب القصص بالمواعظ:

القصص الواردة في سورة الشعراء، فبعد كل قصة يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء].

قال الطبري: «وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ يقول تعالى ذكره: إن فيما فعلت بفرعون ومن معه ـ تغريقي إياهم في البحر إذ كذبوا رسولي موسى، وخالفوا أمري بعد الإعذار إليهم، والإنذار ـ لدلالة بينة يا محمد لقومك من قريش على أن ذلك سُنَّتي فيمن سلك سبيلهم من تكذيب رسلي، وعظة لهم وعبرة إن ادَّكروا واعتبروا أن يفعلوا مثل فعلهم»(٤).

ويقول الطبري في نهاية قصة عاد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ [الشعراء]: «يقول تعالى ذكره: فكذّبت عاد رسول ربهم هوداً، والهاء في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ من ذكر هود ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ﴾ يقول: فأهلكنا عاداً بتكذيبهم رسولنا،

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١٢٣.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠١.
(٣) تفسير البيضاوي ٣/ ٥٢٨.
(٤) تفسير الطبري ١٩/ ٣٦٠.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ يقول تعالى ذكره: إن في إهلاكنا عاداً بتكذيبها رسولها، لعبرة وموعظة لقومك يا محمد، المكذّبين فيما أتيتهم به من عند ربك.

يقول: وما كان أكثر من أهلكنا بالذين يؤمنون في سابق علم الله.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من أعدائه، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين به»(١).

وقال الرازي: «أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ فالمعنى: أن الذي حدث في البحر آية عجيبة من الآيات العظام الدالة على قدرته؛ لأن أحداً من البشر لا يقدر عليه وعلى حكمته؛ من حيث وقع ما كان مصلحة في الدين والدنيا، وعلى صدق موسى عليه السلام؛ من حيث كان معجزة له، وعلى اعتبار المعتبرين به أبداً، فيصير تحذيراً من الإقدام على مخالفة أمر الله تعالى، وأمر رسوله، ويكون فيه اعتبار لمحمد ﷺ..».

إلى أن قال: «وأما قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ فتعلقه بما قبله أن القوم مع مشاهدة هذه الآية الباهرة كفروا، ثم إنه تعالى كان عزيزاً قادراً على أن يهلكهم، ثم إنه تعالى ما أهلكهم، بل أفاض عليهم أنواع رحمته، فدل ذلك على كمال رحمته وسعة جوده وفضله»(٢).

وقال السعدي: «ومن الأدلة العقلية على ذلك ما شاهده العباد بأبصارهم من قديم الزمان وحديثه، من الإكرام لأهل التوحيد، والإهانة والعقوبة لأهل الشرك، وما ذاك إلا لأن التوحيد جعله الله موصلاً إلى كل خير، دافعاً لكل شر ديني ودنيوي، وجعل الشرك به والكفر سبباً للعقوبات الدينية والدنيوية، ولهذا إذا ذكر تعالى قصص الرسل مع أمم المطيعين والعاصين، وأخبر عن عقوبات العاصين ونجاة الرسل ومن تبعهم، قال عقب كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾؛ أي: لعبرة يعتبر بها المعتبرون فيعلمون أن توحيده هو الموجب للنجاة، وتركه هو الموجب للهلاك، فهذه من الأدلة الكبار العقلية النقلية الدالة على هذا الأصل العظيم، وقد أكثر الله منها في كتابه وصرفها ونوعها ليحيى

---

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٣٧٩.

(٢) تفسير الرازي ٢٤/ ١٢٢، وينظر: تفسير ابن كثير ٦/ ١٣٦، ١٤٥.

من حي عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة فله الحمد والشكر والثناء»[١].

- ثم بعد ذِكْرِ قصص الأنبياء جاءت التسلية للرسول ﷺ، والوعد له بالفوز والغلبة، والموعظة والإنذار للمشركين، حتى لا يهلكوا كما أهلك المكذبون السابقون، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الشعراء]، إلى قوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ [الشعراء].

قال البغوي: «﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ كثيرة في الدنيا؛ يعني: كفار مكة، ولم نهلكهم، ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾؛ يعني: العذاب، ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾، به في تلك السنين، والمعنى: أنهم وإن طال تمتعهم بنعيم الدنيا فإذا أتاهم العذاب لم يغن عنهم طول التمتع شيئاً، ويكون كأنهم لم يكونوا في نعيم قط»[٢].

- ثم ذكر تعالى أربع مواعظ للنبي ﷺ في قوله جل وعلا: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء].

ففي هذه الآيات أربع وصايا للرسول ﷺ:

الأولى: توحيد الله وعدم الإشراك به، ويدخل فيه من تبعه.

الثانية: إنذار عشيرته من عذاب الله.

الثالثة: لين الجانب والرفق بالأتباع.

الرابعة: التوكل على الله تعالى، وتفويض جميع الأمور إليه.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَلَا تَدْعُ﴾ يا محمد ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾؛ أي: لا تعبد معه معبوداً غيره ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ فينزل بك من العذاب ما نزل بهؤلاء الذين خالفوا أمرنا وعبدوا غيرنا»[٣].

---

(١) تفسير السعدي ١٢٤. (٢) تفسير البغوي ٦/ ١٣٠.

(٣) تفسير الطبري ١٩/ ٤٠٤.

وقال ابن كثير: «يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له، ومخبراً أنّ مَنْ أشرك به عذبه، ثم قال تعالى آمراً لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه أن ينذر عشيرته الأقربين؛ أي: الأدنين إليه، وأنه لا يُخَلِّص أحداً منهم إلا إيمانهُ بربه ﷻ، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين، ومن عصاه من خلق الله كائناً مَنْ كان فليتبرأ منه؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾، وهذه النِّذارة الخاصة لا تنافي العامة، بل هي فرد من أجزائها»[١].

وقال السعدي: «ينهى تعالى رسوله أصلاً وأمته أسوة له في ذلك، عن دعاء غير الله، من جميع المخلوقين، وأن ذلك موجب للعذاب الدائم، والعقاب السرمدي، ولمّا أمره بما فيه كمال نفسه، أمره بتكميل غيره فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، وهذا لا ينافي أمره بإنذار جميع الناس، فيكون هذا خصوصاً دالاً على التأكيد، وزيادة الحق، فامتثل ﷺ هذا الأمر الإلٰهي، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض.

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ بلين جانبك، ولطف خطابك لهم، وتوددك، وتحببك إليهم، وحسن خلقك والإحسان التام بهم.

وأعظم مساعد للعبد على القيام بما أُمر به، الاعتماد على ربه، والاستعانة بمولاه على توفيقه للقيام بالمأمور، فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾، ثم نبَّهه على الاستعانة باستحضار قرب الله، والنزول في منزل الإحسان فقال: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾»[٢].

وبعد هذا؛ فقصص القرآن تحقق غايات كثيرة من أهمها:

١ ـ الموعظة والاعتبار، وأكثر ما جاء في قصص الظالمين ونهاياتهم، والمستكبرين ومآلاتهم؛ للتحذير من سلوك مسلكهم؛ كقصة: قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون، والنمرود بن كنعان، وبلعام، وصاحب الجنتين، وغيرها، كما قال تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف].

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/١٦٦.
(٢) تفسير السعدي ٥٩٨، ٥٩٩ بتصرف.

ويأتي تعقيب قصص الهالكين بعدل الله تعالى، كما قال تعالى بعد سياق قصص أقوام الأنبياء مجتمعة: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت].

٢ ـ مجيء القصص مُصدِّقة لأنباء المواعظ كما قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر]، ثم جاءت بعدها القصص التي تدل على الرحمة، والتي تدل على العذاب.

فعادة القرآن: الموعظة والنصيحة من خلال القصة أو بعدها؛ لأن القصة لها أثر كبير في نفس السامع، يقوده إلى سرعة القبول والاستجابة للواعظ، كما قال تعالى في ختام قصة يوسف عليه السلام: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف]، وقال تعالى بعد قصة غزوة بدر: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران]، وقال تعالى بعد قصة حشر بني النضير: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر].

والقصة من أفضل وسائل تقرير الأمور المهمة.

قال الزرقاني: «وتارة يذكر العقيدة مرسلة، وأخرى يذكرها مدللة، وتارة يشفعها بدليل واحد، وأخرى بجملة أدلة، وتارة يضرب لها الأمثال، وأخرى يسوق فيها القصص، وتارة يقرنها بالوعد وأخرى بالوعيد»(١).

فهذه المواعظ والعبر التي تأتي قبل القصة وأثناءها وبعدها تدل على الغرض الأساسي من سياقها، مع ما فيها من أغراض وأهداف لا حصر لها، والله تعالى أعلم.

---

(١) مناهل العرفان ٢/ ٢٦٢.

المبحث الثاني

التنويع في عرض القصص

وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: الاقتصار في سوق القصص على المقصود.
- المطلب الثاني: الطول والقصر في القصة.
- المطلب الثالث: تكرار القصة.

المطلب الأول

الاقتصار في سوق القصص على المقصود

قصص القرآن أبلغ القصص، والقصص أسلوب بياني يمثل جزءاً كبيراً من كتاب الله تعالى، مما يدل على أهميتها، والحديث عنها لا يجمعُه فصل ولا كتاب ولا رسالة.

قال ابن قتيبة: «فأراد الله، بلطفه ورحمته، أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ويلقيها في كل سمع، ويثبتها في كل قلب، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير»[١].

قال الفيروزآبادي بعد ذكر الخلاف في عدّ الآي: «قلت: ومن هذه الجملة ألف آية وستمائة آية في قصص الأنبياء، وأَلف ومائتان في شرائع الإيمان، وأَلف وعشرون في التوحيد والصّفات، وألف في ترتيب الولايات، وأَربع مئة في الرُّقية وتعويذ الآفات، وأربعمائة في أنواع المعاملات، ومئة في عذر جُرْم العُصات، ومائة في ضمان أَرزاق البرّيات، وسبعون في جهاد

(١) تأويل مشكل القرآن ١٤٩.

الغزات، وخمسون فيما يتعلق بقصد مكّة وعرفات، والباقي في أحكام النكاح، وطلاق المنكوحات»(١).

وقد خُدمت قصص القرآن بكتابات كثير من العلماء.

ومما اختص به قصص القرآن: أنه رباني وواقعي، ودقيق وشامل.

فهو مرجع الباحثين في هذا الموضوع.

ومن عادات القرآن في قصصه الاقتصار في سوق القصص على المقصود بذكر الأجزاء التي تخدم الهدف، وطيّ الفصول التي لا تخدم الغرض الأساسي من القصة.

قال ابن عطية: «وجلبت هذه القصص بغاية الاختصار في اللفظ، وقصدت استيفاء المعاني التي تخص الآية»(٢).

فتأتي قصص القرآن وافية بالمقصود، من غير إسهاب ولا إملال.

قال السيوطي: «من الاختزال: حذف جمل كثيرة نحو: ﴿فَأَرۡسِلُونِ ۝٤٥ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٥، ٤٦]؛ أي: فأرسلون إلى يوسف لأستعبره عن الرؤيا ففعلوا، فأتاه فقال له: يا يوسف»(٣).

فلم يذكر ذلك التفصيل، لأنه مفهوم ضمناً، وعادة القرآن عدم ذكر ما لا حاجة إليه.

ومن الأمثلة على ذلك:

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾ [يوسف]، ثم ينتقل السياق وقد حضروا عند أبيهم مباشرة: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١﴾ [يوسف].

فلم يذكر ما اتفقوا عليه قبل ذهابهم لأبيهم؛ لأن الآيات التي بعدها أشارت أنهم عزموا على الرأي الذي أشار به أخوهم، ودخلوا بقولهم في

(١) بصائر ذوي التمييز ١/ ٥٦٠.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٦٩.
(٣) الإتقان ٢/ ١٣٩.

مرحلة التنفيذ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٥].

وابتدأت قصة يوسف عليه السلام من الرؤيا في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف].

فلم يذكر ولادته ونشأته، وتربيته، وحاله مع أبيه، وحاله مع إخوانه، وغير ذلك، بل ابتدأت بالمهم من القصة.

ـ **وكذلك قصص الأنبياء: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب** عليهم السلام، فلم تسرد بداية حياتهم، كما جاء في قصة موسى وعيسى عليهما السلام، حيث كان في قصة ولادتهما هدف وغاية.

وقصة آدم عليه السلام:

فلم يأت في القرآن وصف نزوله من الجنة إلى الأرض وحياته فيها بل كان الاقتصار على قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه].

فلم تشر الآية إلى مكان النزول، وكيف عاش وسكن؟.

فهذه مما يُفكِّر فيه القارئ، ولكنها ـ والله أعلم ـ أُغفلت لكي لا تكون سبباً لإبعاده عن المقصود من القصة.

وقصة أصحاب الكهف:

فلم يذكر القرآن ماذا فُعل بهم بعد العثور عليهم، بل اقتصر على ذكر اختلاف القوم في شأنهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف].

فالله أعلم ماذا عمل بهم، وكيف كانت حال قومهم من بعدهم.

ولم تُذكر في قصة أصحاب الكهف التفاصيل التي لا حاجة لها، بل بيَّن

تعالى أن المراء في أمر لا فائدة فيه لا حاجة إليه، بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف]، فالفائدة المرجوة ظاهرة في أفعالهم وثباتهم على الدين، وفرارهم بدينهم خوفاً عليه.

قال الشاطبي: «كلُّ حكايةٍ وقعتْ في القرآن، فلا يخلو أن يقع قبلها أو بعدها ـ وهو الأكثر ـ رَدٌّ لها أو لا، فإنْ وَقَعَ رَدٌّ؛ فلا إشكال في بطلان ذلك المحكي وكذبه، وإنْ لم يَقَع معها رَدٌّ؛ فذلك دليلُ صحةِ المحكي وصِدْقِه»، إلى أن قال: «ولاطراد هذا الأصل: استدل على أن أصحاب الكهف سبعة وثامنهم كلبهم بأن الله تعالى لما حكى من قولهم أنهم: ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، وأنهم: ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، أعقب ذلك بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: ليس لهم دليل ولا علم غير اتباع الظن، ورجم الظنون لا يغني من الحق شيئاً، ولما حكى قولهم: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾؛ لم يتبعه بإبطال بل قال: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف: ٢٢]؛ دل المساق على صحته دون القولين الأولين»[١].

ويبقى أن هذا القول لمعرفة طريقة استنباطهم لترجيح القول، وإلا فلا ثمرة من معرفة عددهم، ولذلك لم يذكر العدد صراحة، وعالجت القصة الأهم وهو أدب المِرَاء، وردُّ العلم إلى الله.

قال ابن تيمية: «وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني؛.. كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدتهم،

---

(١) الموافقات ٤/١٥٨ ـ ١٦١، وكذلك قال ابن عثيمين، وقال أيضاً: «نظيره قول الله تبارك وتعالى في المشركين إذا فعلوا فاحشة: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ هذا واحد، ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ هذا اثنان، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨]، فأبطل قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، وسكت عن الأول؛ فدل على أن الأول: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ (صحيح). تفسير سورة الكهف ٤٢.

وعصا موسى من أي الشجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم، ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف].

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام، وتعليم ما ينبغي في مثل هذا؛ فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين الأولين، وسكت عن الثالث، فدل على صحته؛ إذ لو كان باطلاً لرده كما ردهما، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فيقال في مثل هذا: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك؛ فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب»[1].

والشاهد أن القصة في سياقها أبرزت الأحداث المهمة دون النظر إلى الأشخاص، فمن هم؟ وأين مكانهم؟ وما أسماؤهم؟، ونحو ذلك مما أُغفل من القصة، إبقاء على المقصود.

فلو فصلت القصة في هذه الأمور لانصرف فكر القارئ إلى تتبع أحداث ليست هي الغاية، وغفل عن العبرة والعظة التي سيقت القصة من أجلها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن

(١) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٦٧.

شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القصص].

فقد طُوِيَ من النص بين الآيتين ثمان أو عشر سنوات؛ لأن الله تعالى قال على لسان موسى عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص].

وموسى قضى أكثر الأجلين، كما أخبر بذلك حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه، فعن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: «سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب، فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل»(١).

ففي كل موضع تَرِد فيه القصة يكون التركيز على ما يخدم هدف القصة وغرضها الأساسي.

وقصة قوم يونس عليه السلام:

حيث قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصَّافات].

فلم يقص تعالى علينا نبأهم وما حصل لهم خلال هذا المتاع، فهو غيب في علم الله تعالى، وهو العليم الحكيم.

---

(١) أخرجه البخاري ٣/ ٢٣٦ (٢٦٨٤)، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، وهو في حكم المرفوع؛ لأن ابن عباس كان لا يعتمد على أهل الكتاب، ينظر: فتح الباري ٥/ ٢٩١، وقد صرح برفعه عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سأل جبريل: «**أي الأجلين قضى موسى؟**» قال: «أتمهما» أخرجه الحاكم المستدرك ٢/ ٤٤٢، (٣٥٣٢)، وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه.

ومن خلال قصته كذلك أدلة على أن فيها ما طوي ذكره لعدم الحاجة إليه، والله أعلم.

قال أبو حيان: «ففي قصة يونس عليه السلام هنا جمل محذوفة مقدرة قبل ذكر فراره إلى الفلك، كما في قصته في سورة الأنبياء في قوله: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا﴾ هو ما بعد هذا، وقوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، جمل محذوفة أيضاً»[١].

وقال السعدي: «وهذه الأمة العظيمة، الذين آمنوا بدعوة يونس، من أكبر فضائله، ولكنه عليه الصلاة والسلام ذهب مغاضباً، وأبق عن ربه لذنب من الذنوب، التي لم يذكرها الله لنا في كتابه، ولا حاجة لنا إلى تعيينها»[٢].

ومما يدل على اقتصار قصص القرآن على المقصود، عدم اتحاد مكان البداية في ذكر القصص، ولا مواطن الاستشهاد، بل يُراعَى في ذلك ما يناسب السياق، ويخدم الغرض المسُوقةَ من أجله.

فأحياناً تُذكر القصة من أول أجزائها؛ لما في هذا الحدث من عبر وعظات.

- **كما في قصة آدم** عليه السلام، جاء الحديث عن بداية خلقه؛ لما فيه من إظهار قدرة الله تعالى، وكمال علمه، ونعمته على آدم وذريته، والإشارة إلى ما حصل معه من إبليس، فكل حدث فيه من الدروس والعبر الكثير.

- **وكذا قصة مولد موسى** عليه السلام، وما فيها من الآيات، ونجاته من ذبح فرعون للذكور، وتربيته في بيت فرعون، وما هيأه الله له بعنايته وتوفيقه.

- **وكذا قصة مولد عيسى** عليه السلام، وقصة أمه قبله؛ لأن فيه آية كبرى، ودليلاً على قدرة الخالق الكاملة.

- **وكذلك الإشارة إلى مولد إسماعيل وإسحاق** عليهما السلام؛ لأن في هذا المولد عبرة، فإسماعيل رزقه الله إبراهيم عليه السلام على كبر، وأسكنه بواد غير ذي

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٥٩.
(٢) تفسير السعدي ٥٢٩.

زرع، وإسحاق بُشر به إبراهيم وامرأته عجوز وقد بلغ من الكبر عتياً.

- **وكذلك أُشير في القرآن لمولد يحيى لزكريا**؛ لأن فيه آية على قدرة الله، حيث رزقه الله بعد أن وهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً.

وأحياناً لا تُذكَر أول القصة بل يُشار إلى أجزاء متوسطة منها؛ لأنه محلّ الهدف.

- **كما في قصة إبراهيم** عليه السلام حيث بدأت قصته من دعوته لقومه، ومحاولة إقناع أبيه وقومه إلى عبادة الإلـه الواحد، وعدم استجابتهم، ومحاولتهم إحراقه، فينجيه الله منهم، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء].

- **وكذا قصة يوسف** عليه السلام بدأت من الرؤيا وعرضها على أبيه ثم تسير القصة بعد هذه الرؤيا ليأتي تأويلها في نهاية القصة.

وأحياناً تأتي الإشارة إلى حدث متأخر من القصة.

- **كما في قصص أكثر الأنبياء؛ كنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب** عليهم السلام، فبداية قصصهم عند إرسالهم إلى أقوامهم، وهي أهم مدة في القصة، والعبرة والأثر موجود فيها.

هذا كله من ناحية الابتداء، فلا يكون إلا في موطنِ العظة والعبرة، والحدثِ المؤثر في القصة؛ الموافق لأهداف القرآن وغاياته، والله تعالى أعلم.

وبعد التأمل في سياقات القصص، ودقتها، تبين لي ما يأتي:

١ ـ أن القصص القرآني يركز على أحداث ومشاهد القصة التي تكون محلاً للفائدة، وخصوصاً ما فيه عظة وعبرة، دون ما خلا منها.

٢ ـ أن غالب ما يطوى من القصة معلوم منها بالضرورة إجمالاً؛ لوجود الثغرة الزمنية بين الأحداث، ولكن الله أعلم بتفاصيله.

٣ ـ ذكر المدة الزمنية للقصة، واختيار جزء منها، دليل على أن أحداثاً كثيرة قد طويت في علم الغيب، فلم يُذكر إلا محل الفائدة، كما في قوله

تـعـالـى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت]، جاء التصريح هنا بالمدة الزمنية التي لم تذكر كل أحداثها وتفاصيلها الطويلة.

٤ ـ في مواطن كثيرة من القصص يُستدل على المتروك في موضع من المواضع الأخرى في السياقات المختلفة.

قال أبو حيان: «وبمجموع القصص يتبين ما حذف في كل قصة منها»[(١)].

٥ ـ ومن خصائص قصص القرآن أن لكل حذف أو اقتصار دليلاً عليه، وكذلك يكون له سرٌّ بلاغي في كل موضع، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

الطول والقصر في القصة

المتأمل في كتاب الله تعالى يجد أسلوب القصص في أعلى صوَرِه، فقد حققت القصص أهدافها، مع مراعاة الدقة في ألفاظها.

فعادة القرآن الإجمال تارة في القصة، والتفصيل تارة أخرى، وهذا أسلوب جميل وله موقع في النفوس كبير، ومن خلاله تتحدد الأمور المهمة في القصة، فسياق القصة المجمل يكون كالأساس لها، والتفصيل للإيضاح حسب المقصود فيتم البيان.

قال السعدي: «وهذه قاعدة نافعة، فإن هذا الأسلوب العجيب يصير له موقع كبير، وتتقرر فيه المطالب المهمة، وذلك أن القصة إذا أُجملت بكلام يكون لها كالأصل والقاعدة، ثم يقع التفصيل لذلك الإجمال، يحصل به الإيضاح والبيان التام الكامل الذي يقع ما يقاربه لو فصلت القصة الطويلة من دون تقدم صورة إجمالية لها، فإن الصورة تشوق إلى التفصيل»[(٢)].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٥٩.

(٢) القواعد الحسان ١٢٨.

ومن تأمل في قصص القرآن من حيث الطول والقصر، وجد أنها على أنواع(١):

☐ الأول: قصص قصيرة:

ففي القرآن قصص جاءت الإشارة إليها بشكل سريع، أو الاقتصار على أحد أجزائها.

ـ كما في قصة إلياس عليه السلام

في سورة الصافات، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣﴾ [الصَّافات]، إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢﴾ [الصَّافات].

ـ وقصة يونس عليه السلام.

جاءت الإشارة لها في سورة يونس بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨﴾ [يونس]، وفي سورة الأنبياء بقوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الأنبياء]، وفي سورة الصافات بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩﴾ [الصَّافات]، إلى قوله: ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝١٤٨﴾ [الصَّافات].

فقصة يونس اقتصرت على خروجه وابتلاع الحوت له ثم نبذه بالعراء، ورسالته لقومه وإيمانهم به.

ـ وقصة أيوب عليه السلام.

فقد جاءت الإشارة إليها في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ۝٨٤﴾ [الأنبياء]، وفي قوله

(١) طول القصة وقصرها أمر نسبي من خلال النظر إلى غيرها من قصص القرآن.

تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [ص].

فقصة أيوب عليه السلام تُركّز على مسِّ الضر له، ثم استغاثته بالله وشفائه ورد أهله إليه.

ـ وقصة أصحاب الأخدود.

جاءت الإشارة لها في سورة البروج بقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾ [البروج] إلى قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج].

ـ وقصة الذي انسلخ من آيات الله.

كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف].

☐ الثاني: قصص متوسطة:

وفي القرآن من القصص ما أُشير إلى جزء من القصة أكثر من سابقه، وأقل من لاحقه، فتعتبر متوسطة نسبياً.

ـ كما في قصة هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام.

مع أنها تكررت في سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة الشعراء، وغيرها إلا أنها ليست طويلة؛ فتعرضُ القصة للرسالة والحوار مع قومهم، وتكذيب هؤلاء القوم، ثم إهلاكهم جميعاً.

ـ وقصة أصحاب الكهف، وقصة صاحب الجنتين، وقصة ذي القرنين كما في سورة الكهف.

وقصة أصحاب الجنة في سورة القلم؛ كلها اقتصرت على القدر الذي تحصل به العظة والعبرة.

◻ الثالث: قصص طويلة:

وهذا النوع ليس بكثير في القرآن لأن عادة القرآن الاختصار والاقتصار على المفيد، وقلة الألفاظ مع كثرة المعاني، ولذلك يبحث العلماء الحكمة في الطول إن وجد، وأوضح مثال لها قصة يوسف عليه السلام، فقد جاءت مفصلة من أول سورة يوسف إلى آخرها.

فهي أطول قصة في القرآن جاءت متسلسلة الأجزاء، ومرتبة ترتيباً زمنياً، كما وقعت.

ومن أسرار ذلك ـ والله أعلم ـ طلبُ الصحابة رضي الله عنهم(١).

قال الواحدي بإسناده: «عن سعد بن أبي وقاص في قوله عز وجل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] قال: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت، فأنزل الله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ الآية [يوسف: ١ ـ ٣]، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزُّمر: ٢٣] قال: كل ذلك تؤمرون بالقرآن»(٢).

قال السيوطي: «قلت: وظهر لي جواب، وهو أن سورة يوسف نزلت بسبب طلب الصحابة أن يقص عليهم، كما رواه الحاكم في مستدركه(٣) فنزلت مبسوطة تامة؛ ليحصل لهم مقصود القصص، من استيعاب القصة، وترويح النفس بها، والإحاطة بطرفيها»(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٣٦٦، ولا يلزم من ذكره حصر العلة به.

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ٢٥٩، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٣٧٦ (٣٣١٩)، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وحسنه ابن حجر في المطالب العالية ١٤/٧٣٨ (٣٦٣٤)، وحسنه ابن تيمية في مجموع الفتاوى ١٧/٤٠، مرفوعاً عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ويشهد له ما أخرجه الطبري في التفسير ١٥/٥٥٢، (١٨٧٧٥)، وينظر: الدر المنثور ٨/١٧٩.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) الإتقان ٢/١٤٩.

□ الرابع: قصص جاءت في موضع مطولة وفي موضع آخر مختصرة:

ومن قصص القرآن ما يأتي أحياناً مطولاً، وأخرى مختصراً، وفي بعض المواضع إشارةٌ سريعة لمراعاة ما يناسب السياق.

ـ كما في قصة موسى ﷺ.

جاءت مطولة في سورة الأعراف، وسورة طه، وسورة الشعراء، وسورة القصص، وسورة غافر.

وجاءت أقل من ذلك في سورة يونس، وسورة النمل.

وجاءت مختصرة في سورة هود، وسورة الإسراء، وسورة الذاريات، وسورة النازعات.

ولما كانت هذه القصة هي أكثر قصص القرآن تكراراً، بعَرضٍ مطول أحياناً ومختصر في أحيان أخرى، فسأُشير إلى أهم المراحل التي مرت بها من خلال القرآن مراعياً ترتيب نزول السور(١):

١ ـ في سورة الأعلى إشارة لموسى بقوله تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى]، وهي أول سورة ذُكر فيها موسى من حيث النزول.

٢ ـ ثم في سورة الفجر إشارة إلى فرعون بدون ذكر موسى، في قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر].

٣ ـ ثم في سورة الأعراف بدأ التفصيل الأول للقصة بعد قصص الأنبياء نوح، وهود، ولوط، وشعيب، ﷺ حيث اتحدت في قصصهم طريقة الدعوة ومقابلتهم بالتكذيب، والنهاية المؤلمة للمجرمين.

وقد بدأت القصة برسالة موسى وهارون إلى فرعون وملئه، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأعراف]، ثم أشارت لمعجزة العصا

---

(١) ترتيب النزول حسب ما نقله السيوطي في الإتقان ١/٥٣.

واليد، وجمع السحرة، وحرصه على الغلبة، وانتصار الحق، وهزيمتهم، وسجود السحرة، وتعذيب فرعون لبني إسرائيل بعد ذلك، وإرسال الطوفان الجراد والقُمّل والضفادع والدم على فرعون وقومه ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف] واستغاثتهم بموسى، وكف الأذى عنهم، وعودتهم لتعذيب بني إسرائيل، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف] ثم خروج هؤلاء من مصر، وبعد الخروج طلبوا من موسى أن يتخذ لهم إلهاً كما للقوم الذين مروا بهم آلهة، وتذكيره لهم بربهم، ثم ميعاد موسى مع ربه بعد ثلاثين ليلة، وزيدت إلى أربعين، وطلبه رؤية ربه، ودك الجبل وصعق موسى وإفاقته، وعودته إلى قومه حيث وجدهم قد اتخذوا لهم عجلاً إلهاً، وغضبه على أخيه، ثم اختيار سبعين رجلاً منهم لميقات ربه، وغشيتهم بالجبل لما طلبوا رؤية الله جهرة وإفاقتهم، ثم دعائهم بطلب الرحمة، فالرد عليهم بأن الرحمة قد كتبت للمؤمنين الذي يتبعون النبي الأمي.

٤ ـ ثم في سورة الفرقان إشارة للرسالة، والتكذيب، وإهلاك المكذبين، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾ [الفرقان].

٥ ـ ثم في سورة طه يأتي تفصيل آخر، ابتداء من موضع أسبق من الرسالة التي ذكرت في سورة الأعراف، وهو رؤية موسى للنار من جانب الطور، في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ [طه].

وبعد أن يكلّف الذهاب إلى فرعون، يحاور ربه ليُرسل معه هارون، يشدّ أزره ويكون وزيراً له، فيذكّره الله بنعمته عليه في مولده، ورده إلى أمه، ثم تسير القصة كما سارت في الأعراف مع ترك آيات الجراد والقمل والضفادع

والدم، وعهد فرعون لبني إسرائيل ونكثه، لكن زادت أن السامري هو الذي صنع العجل، وتفصيل قصة صنعه.

٦ ـ ثم في سورة الشعراء يقول تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الشعراء]، فابتدأت القصة من إرساله إلى فرعون، ثم مثل المراحل التي مرت في سورة الأعراف، ولكنها تزيد: ذِكْر موسى أنه قتل رجلاً منهم فهو يخشى أن يؤخذ به، وتذكير فرعون له بأنه قد رُبي فيهم وليداً، وفعل هذه الفعلة ومضى، وذِكْر انفلاق البحر كالطود العظيم.

٧ ـ ثم في سورة النمل ابتدأت القصة من رؤية موسى النار، وموقفه مع ربه، ثم التركيز على تكذيب فرعون وقومه، وبيان سوء عاقبتهم.

٨ ـ ثم في سورة القصص ابتدأت القصة من ولادته، ووضعه في التابوت، وإلقائه في البحر، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص]، ثم التقاط آل فرعون له، وتحريم المراضع عليه، وقول أمه لأخته قصي أثره، ومعرفتها بأمره، وإشارتها على آل فرعون بمرضع للطفل هي أمه، ثم لما كبر آتاه الله الحكم والعلم، ثم قتله للرجل، ومحاولته قتل آخر، وتهديده إياه بافشاء سر القتلة الأولى، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص]، ونصح رجل له بالهرب وقد جاءه من أقصى المدينة يسعى، وخروجه إلى أرض مَدينَ، والتقائه ببنتي الشيخ الكبير، وسقيه لهما، وحض إحداهما أبيها على استئجاره، وزواجه بابنته حسب شرطه، ثم انفصاله عنه وذهابه بأهله، ثم رؤيته النار ـ التي بدأ منها القصة في سورة طه ـ، ثم تسير القصة كما سارت هناك، بزيادة تهكم فرعون في قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٣٨]، وتنتهي بغرق فرعون في اليم، وسوء عاقبتهم في القيامة.

٩ ـ ثم في سورة الإسراء إشارة قصيرة لإغراق فرعون والتمكين لبني

إسرائيل، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء].

١٠ ـ ثم في سورة يونس بيان لعاقبة التكذيب، والإشارة إلى قصة السحرة، وتجاوز بني إسرائيل البحر، واتباع فرعون لهم وغرقهم، وزاد فيها: حال فرعون لما أدركه الغرق، في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس]، فجاء الرد عليه: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ﴾ [يونس: ٩١، ٩٢]، ولم ترد في غير هذه السورة.

١١ ـ ثم في سورة هود في أربع آيات إشارة إلى سوء عاقبة فرعون ومن تبعه، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ [هود].

١٢ ـ ثم في سورة غافر جاء الحوار بين موسى وفرعون، ويزيد فيه قول فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ﴾ [غافر: ٢٦]، وكذلك زيادة قصة رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، ويدافع عن موسى وينصحهم عليهم ألا يقتلوه، فقد يكون على صراط مستقيم، ولم يتكرر هذا كغيره من فصول القصة.

١٣ ـ ثم في سورة الزخرف إشارة مختصرة إلى إرسال موسى إلى فرعون، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزُخرف]، وأشار إلى استغاثتهم بموسى لكشف العذاب، ونكثهم الوعد، وفيها زيادة نداء فرعون: ﴿...أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزُخرف]، وهذا لم يتكرر في القرآن.

١٤ ـ ثم في سورة الذاريات عرض قصير للقصة، في قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الذاريات].

١٥ ـ ثم في سورة الكهف، قصة موسى مع الخضر، ولم تذكر في موضع آخر.

ثم في السور المدنية التطرق لقصة موسى، من جوانب مهمة.

١٦ ـ كما جاء في سورة البقرة، التفصيل في بعض مواقف موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، كتذكيرهم بنعمة الله عليهم ومقابلتها بالجحود، وكذلك إعطاؤهم المن والسلوى، ويزيد هنا: الإشارة إلى احتقارهم النعم وطلبهم أطعمة أخرى.

ثم الإشارة إلى طلبهم أن يروا الله جهرة من شدة عنتهم وتكبرهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة].

ثم يأتي الحديث عن أمرهم بذبح البقرة، وترددهم، وأسئلتهم عن صفاتها، ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة].

١٧ ـ وكذلك في سورة النساء الإشارة إلى طلبهم أن يروا الله جهرة، لبيان شدة عنادهم، في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء].

١٨ ـ ثم في سورة المائدة الإشارة إلى تذكير موسى بالنعم على بني إسرائيل، وأمرهم بدخول الأرض المقدسة، قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة]، فأجابوه: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة].. إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة].

ثم يأتي بعد ذلك تركهم في التيه، قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة]، ولا تأتي الإشارة بعد ذلك إلا إلى تفرق بني إسرائيل وعدائهم للمسلمين، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة].

فذَكر هذه التفصيلات في قصة موسى من أولها إلى تفرُّق بني إسرائيل؛ لأن في كل موطن من مواطن القصة هدفاً من أهداف القرآن.

وبعد هذا العرض الموجز يتبين لي:

١ ـ أن في السور المكية أحداثُ قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وهذا يناسب دعوة الكفار من قريش وغيرهم في مكة حيث التعامل الأكثر حينها مع الكفار والمعارضين.

وفي السور المدنية مواقف بني إسرائيل الذين آمنوا بموسى عليه السلام ولكنهم آذوه أو اعترضوا على أوامره، أو ترددوا في قبولها، ونحو ذلك، وهذا يناسب تأسيسَ الدولة، وقيادة الأمة، وتوجيه الصحابة، ومن دخل في دين الله؛ حيث كثر الأتباع لنبينا محمد ﷺ.

٢ ـ أن أحداث القصة كثيرة، وأن التكرار قليل جداً في أحداثها الأساسية، وإذا وقع جيء بشيء جديد، إذ الأكثر الإشارة اليسيرة إلى مواضعَ يقتضيها السياق، مرة من أول القصة وأخرى من وسطها، وتارة من آخرها، وقد تُعرَض كاملة، وقد تكون من هذا وهذا، كل ذلك حسب ما يخدم الهدف من إيرادها، وهذا من عظمة هذا القرآن وإعجازه في قصصه، كما هو معجز في بيانه.

ـ وعادة القرآن أيضاً الإجمال في القصة ثم التفصيل فيها، فالطول والقصر حسب ما يناسب السياق، ومقتضى الحال، وهذا مما يزيد القصة بياناً ووضوحاً.

ـ **كما في قوله تعالى في قصة آدم**: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه]، ثم جاءت القصة مفصَّلة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ [طه]، إلى قوله: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه].

ـ **وكذلك في قصة أصحاب الكهف**، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ [الكهف].

فهذه الجمل بينت القصة وهدفها إجمالاً، ثم كررت بأسلوب أكثر بسطاً فقال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف]، إلى آخر القصة، في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف].

ـ **ومن الأمثلة قصة موسى** عليه السلام، كما قال الله تعالى: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾ [القصص]، إلى قوله: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص]، فهذا مجمل القصة، ثم أتى بالتفصيل بعده فقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص]، إلى نهاية ما ذكر الله عنه، ونهاية فرعون وقومه بقوله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص].

قال ابن كثير: «هذا إخبار عن قصة أصحاب الكهف والرقيم على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك»[(١)].

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٣٨.

قال السعدي: «من قواعد التعليم التي أرشد الله إليها في كتابه، أن القصص المبسوطة يجملها في كلمات يسيرة ثم يبسطها»[(١)].

هذا؛ وقد جاءت الإشارة في كتاب الله تعالى أنه لا طريق للوصول إلى هذه القصص بتفاصيلها إلا بالوحي، لتَدُل على صدق القرآن وصدقِ من جاء به، كما قال تعالى بعد قصة مريم: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى بعد قصة نوح عليه السلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود]، وقوله تعالى بعد قصص الأنبياء: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [هود]، وقوله تعالى قبل قصة يوسف عليه السلام: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف]، وقوله تعالى بعد نهاية القصة: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف]، وقوله تعالى بعد قصة موسى عليه السلام: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص].

قال السعدي: «وقرر ذلك بأنه يخبر بقصص الأنبياء السابقين مطولة على جميع الواقع، الذي لا يستريب فيه أحد، ثم يخبر تعالى: أنه ليس له طريق ولا وصول إلى هذا إلا بما آتاه الله من الوحي، كمثل قوله تعالى لما ذكر قصة موسى مطولة: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]، ولما ذكر قصة يوسف وإخوته مطولة قال: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف]»[(٢)].

وفي هذا الأسلوب القصصي في القرآن بيان الطريق الصحيح لتحقيق الأهداف منها، فليس المراد مجرد السرد التاريخي وعرض الأحداث فحسْب، كما قال تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف]، وقال

---

(١) القواعد الحسان ١٢٧.
(٢) القواعد الحسان ١٤.

تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف].

فالقرآن له رسالة، والقصص من وسائل إيصال هذه الرسالة، والله تعالى أعلم.

المطلب الثالث

تكرار القصة

من عادات القرآن تكرارُ ما يستحق التكرارُ من الأمور المهمة؛ ليجدَ سبيله إلى النفوس النافرة، والطباع العصية، ومن عادة القرآن في أسلوبه تكرار القصةِ وقرنها بالوعد والوعيد[(١)].

وقد أخذت القصص القسط الأكبر من بين موضوعات القرآن.

وتكرار قصص الأنبياء عادة بارزة في مواضع كثيرة من القرآن، ولحكم عظيمة.

قال مكي: «وقد كرر الله ﷻ قصص الأنبياء وأممها، في سور كثيرة بألفاظ مختلفة، ومعانٍ متقاربة»[(٢)].

وقال السيوطي: «والتكرير أبلغ من التأكيد، وهو من محاسن الفصاحة، ومن فوائده: التقرير، وقد قيل: الكلام إذا تكرر تقرر، وقد نبَّه سبحانه على السبب الذي لأجله كرر الأقاصيص والإنذار في القرآن بقوله: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ [طه]»[(٣)].

ومن أهم الحِكَم في تكرار القصص:

نزول القرآن منجماً حيث تُراعى الأحوال والأزمان والأماكن، واكتمال

---

(١) ينظر: مناهل العرفان ٢/ ٢٦٢.
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية ٤/ ٢٤٥٩.
(٣) الإتقان ١/ ١٤٤.

القصة شيئاً فشيئاً، وحصول الإعجاز بها، وتمكين العظة والعبرة في النفوس.

قال ابن قتيبة: «وأما تكرار الأنباء والقصص، فإنّ الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجوماً في ثلاث وعشرين سنة، بفرضٍ بعد فرض: تيسيراً منه على العباد، وتدريجاً لهم إلى كمال دينه، ووعظٍ بعد وعظ: تنبيهاً لهم من سِنَة الغفلة، وشحذاً لقلوبهم بمتجدّد الموعظة، وناسخ بعد منسوخ: استعباداً له واختباراً لبصائرهم، يقول الله عَجَّلَ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان]، الخطاب للنبي ﷺ، والمراد بالتثبيت: هو والمؤمنون»(١).

وقال مكي: «علة تكرار القصص في القرآن: أن القرآن نزل شيئاً بعد شيء نُجُوماً، في ثلاث وعشرين سنة، فكانت العرب ترد على النبي ﷺ، من كل أُفُق فيقرئهم المسلمون السورة من القرآن، فيذهبون بها إلى قومهم.

وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة، بالسور المختلفة، فيبلغ إلى هؤلاء من القصص ما لم يبلغ إلى هؤلاء، فثنى الله القصص وكررها ليكون يبلغ إلى هؤلاء ما يبلغ إلى هؤلاء إشهاراً منه لهذه القصص ليتعظ بها من بلغته، ويعلم أنها دلالة على نبوة من أتى بها، ويعيها كل قلب، ويزداد الحاضرون السامعون لتكرارها تَفَهُّماً»(٢).

واقتصر على هذا الجواب ابن الجوزي في قوله: «وإنما قيل له: ﴿مَّثَانِيَ﴾ [الزُّمر: ٢٣]؛ لأنه كررت فيه القصص والفرائض والحدود والثواب والعقاب.

فان قيل: ما الحكمة في تكرار القصص، والواحدة قد كانت تكفي؟

فالجواب: أن وفود العرب كانت ترد على رسول الله ﷺ فيقرئهم المسلمون شيئاً من القرآن فيكون ذلك كافياً لهم، وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثناة مكررة، لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى قوم، وقصة نوح إلى قوم، فأراد الله

(١) تأويل مشكل القرآن ١٤٨.

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية ٤/ ٢٤٦٠، ٢٤٦١.

تعالى أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ويلقيها إلى كل سمع»[١].

وذكر هذا ابن تيمية، وقال: «وإن كانت القصة المذكورة ذاتها واحدة فصفاتها متعددة، ففي كل جملة من الجمل معنى ليس في الجمل الأُخر»[٢].

وقال ابن جزي: «فإن قيل: ما الحكمة في تكرار قصص الأنبياء في القرآن؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه ربما ذكر في سورة من أخبار الأنبياء ما لم يذكره في سورة أخرى؛ ففي كل واحدة منهما فائدة زائدة على الأخرى.

الثاني: أنه ذكرت أخبار الأنبياء في مواضع على طريقة الإطناب، وفي مواضع على طريقة الإيجاز؛ لتَظهر فصاحةُ القرآن في الطريقتين.

الثالث: أن أخبار الأنبياء قُصد بذكرها مقاصد فتعدد ذكرها بتعدد تلك المقاصد فمن المقاصد بها: إثبات نبوة الأنبياء المتقدمين بذكر ما جرى على أيديهم من المعجزات، وذكر إهلاك من كذبهم بأنواع من المهالك، ومنها: إثبات النبوة لمحمد ﷺ لإخباره بتلك الأخبار من غير تعلم من أحد»[٣].

والقصص المتكررة تأتي في كل موضع بصورة مختلفة، كما في قصة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، وقد اجتمع في هذه القصص من جهة المعنى:

١ ـ اتحاد الوظيفة في الدعوة إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

٢ ـ تشابه أحوال الأمم مع أنبيائها في الكفر والعناد، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ].

٣ ـ تشابه العاقبة للمؤمنين، وللكافرين، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف].

---

(١) زاد المسير ٧/ ١٧٥.

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى ١٩/ ١٦٨.

(٣) التسهيل ١/ ٩.

وفي قصة كل نبي كثيرٌ من الفوائد والعبر والعظات.

وإذا كررت قصة النبي الواحد، فالهدف يختلف من موضع لآخر، وإذا تغير الهدف روعي اللفظ دون إخلال بالمعنى، فيأتي الاختلاف في الطول والقصر، والاختلاف في الصياغة، والأحداث المتناولة، وطريقة عرضها، وكأنها قصة جديدة في كل موضع.

قال الباقلاني: «إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة وتؤدي معنى واحداً، من الأمر الصعب الذي تظهر به الفصاحة، وتتبين به البلاغة، وأعيد كثير من القصص في مواضع كثيرة مختلفة على ترتيبات متفاوتة»[(١)].

ومن أكثر القصص تكراراً في القرآن:

قصة موسى مع فرعون، فقد ذكرت في كثير من سور القرآن الكريم منها:

سورة البقرة، والمائدة، والأعراف، ويونس، وهود، وطه، والقصص، والشعراء، والنمل، والنازعات.

قال الزركشي: «ومن التكرار: تكرار القصص في القرآن؛ كقصة إبليس في السجود لآدم، وقصة موسى وغيره من الأنبياء، قال بعضهم: ذكر الله موسى في مائة وعشرين موضعاً من كتابه، قال ابن العربي في القواصم: ذكر الله قصة نوح في خمسة وعشرين آية، وقصة موسى في سبعين آية»[(٢)].

ولعل من أهم أسرار تكرار قصة موسى عليه السلام مع قومه:

١ ـ قربهم من كفار قريش زماناً ومكاناً.

٢ ـ التشابه الكبير في المواقف بين القوم ونبيهم.

قال ابن القيم: «ولهذا يذكر الله عز وجل قصة موسى عليه السلام، ويعيدها ويبديها، ويسلي رسول الله ﷺ، ويقول رسول الله عندما يناله من أذى الناس: لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر[(٣)]، ولهذا قال النبي إنه كائن في أمتي ما

---

(١) إعجاز القرآن ٦١. (٢) البرهان ٣/ ٢٥، الإتقان ٢/ ١٤٨.

(٣) الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قسم رسول الله ﷺ قسماً فقال رجل: إنها لقسمة ما أريد بها وجه الله، قال: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فغضب حتى رأيت =

كان في بني إسرائيل، حتى لو كان فيهم من أتى أمه علانية لكان في هذه الأمة من يفعله[(١)]، فتأمل هذا التناسب بين الرسولين والكتابين والشريعتين»[(٢)].

أظهَر الله تعالى في قصة موسى من خلال مواضع تكرارها بداية حياة موسى عليه السلام، إلى أن تآمر الملأ ليقتلوه، ثم خروجه إلى بلاد الشام، ومروره بمدين، ونزوله على شعيب، ومسيره بأهله إلى مصر، وإرساله إلى فرعون، وصراعه معه، وإسرائه بعباد الله إلى الشام، ثم المواقف معه من بني إسرائيل، إلى نهاية حياته.

وفي كل موقف أحداث كبيرة، ودروس وعبر، وفي كل موضع يُذكر من القصة ما يقتضيه السياق، ولذا لم تأت القصة على أسلوب ولفظ واحد، بل يأتي في موضع ما يُطوى في موضع آخر.

قال الزركشي: «وإنما كررها لفائدة خلت عنه في الموضع الآخر»[(٣)].

ـ ولهذا جاء تكرار قصة نبي الله موسى عليه السلام تارة ببيان فضل الله تعالى

= الغضب في وجهه، ثم قال: **«يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»** أخرجه البخاري ٤/ ١٩١ (٣٤٠٥)، كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم ٢/ ٧٣٩ (١٠٦٢)، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه.

(١) الحديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة،** قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: **ما أنا عليه وأصحابي»** أخرجه الترمذي ٥/ ٢٦ (٢٦٤١)، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق الأمة، وقال: «هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه»، وقال الألباني في تخريج مشكاة المصابيح ١/ ٦١ (١٧١) بعد أن عزاه للترمذي: «قلت: علته عبد الرحمن بن زياد الإفريقي وهو ضعيف» وحسنه في صحيح سنن الترمذي ٢/ ٣٣٤ (٢١٣١)، وأورده في صحيح الجامع وزيادته ٢/ ٩٤٣ (٥٣٤٣)، وعزاه للترمذي عن عبد الله بن عمرو وقال: حسن، فالظاهر أنه ضعف سند الترمذي فقط، وحسَّن الحديث لما له من الشواهد. ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/ ٣٣٤ (١٣٤٨)، والله أعلم.

(٢) جلاء الأفهام ١٩٩.

(٣) البرهان ٣/ ٢٥.

عليه وعلى بني إسرائيل، كما في آيات كثيرة من سورة البقرة.

ـ وفي سورة طه وسورة القصص تفصيل ولادة موسى عليه السلام، ونشأته في بيت فرعون.

ـ وتارة بالحديث عن مناظرة موسى عليه السلام لفرعون، وقصته مع السحرة، وإيمانهم، وقيام الحجة على فرعون كما في سورة الأعراف وسورة يونس وسورة طه وسورة الشعراء.

ـ وفي سورة غافر الإشارة إلى قصة الرجل المؤمن الصالح الذي وقف مع موسى ودعا فرعون إلى الإيمان ونصح قومه وأنذرهم.

ـ وتارة يأتي الحديث بتفاصيل أخرى من قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، وتعامله مع عنادهم وعنتهم، كما في سورة البقرة وسورة المائدة، وسورة الأعراف وسورة طه وسورة النمل.

ـ وفي سورة الكهف قصته مع الخضر.

ـ وتارة ببيان ما حل بهم من العقوبات الإلـٰهية والنقمة الربانية جزاء كفرهم وبغيهم، كما في سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة طه، وسورة الشعراء.

قال ابن تيمية: «وقد ذكر الله هذه القصة ـ قصة موسى ـ في عدة مواضع من القرآن، يبين في كل موضع منها من الاعتبار والاستدلال نوعاً غير النوع الآخر» إلى أن قال: «يعبر عن القصة بجمل تدل على معان فيها، ثم يعبر عنها بجمل أخرى تدل على معان أخر، وإن كانت القصة المذكورة ذاتها واحدةً فصفاتُها متعددة، ففي كل جملة من الجمل معنى ليس في الجمل الأُخر»[1].

ومن الأمثلة:

تكرر قصة آدم عليه السلام في عدد من سور القرآن:

كما في سورة البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، وطه، وص.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٧/ ١٦٧.

وفي كل موضع من هذه المواضع يأتي الحديث حسب ما يناسب السياق.

ـ فجاءت القصة في سورة البقرة في سياق تذكير الناس بالنعم الدالة على قدرته تعالى من مبدأ الخلق إلى نهايته، وبيان كفرهم وجحودهم، حيث يقول تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة]، وبيان ما خلقه الله تعالى لهم في هذه الحياة ليتمتعوا به، بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة]، ثم جاءت قصة آدم وفيها تكريم الله للإنسان باختيار آدم خليفة في الأرض، وتعليمه الأسماء التي لا تعلمها الملائكة، فهو استمرار في التذكير بنعم الله عليهم، والتناسب بين التذكير بابتداء خلقهم وابتداء خلق أبيهم آدم عليه السلام.

ـ ووردت هذه القصة في سورة الأعراف في سياق الدعوة إلى قَبول دعوة الأنبياء، بالتخويف بقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الأعراف]، ثم بالترغيب والتنبيه على كثرة نعم الله على الخلق، مع قلّة شكرهم، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف]، وذَكرت من نعم الله تعالى: خلقَ الإنسان وتصويره، وكل ذلك يوجب الطاعة والإيمان، ولكن يتعرض الإنسان لوسوسة الشيطان وإغوائه، وهذا يقود إلى الجحود، وعدم الشكر، ولذا أسهبت القصة في موقف إبليس العدائي من الإنسان، وأخذ العهد على نفسه لإغواء بني آدم.

ـ وجاءت قصة آدم في سورة الحجر في سياق الدلائل على وجود الله تعالى، من خلق السماوات والأرض، ومشاهد الرياح اللواقح، والحياة والموت، والحشر والنشر، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾، ويقول سبحانه: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحجر]، ثم بيّن تعالى أن خلق الإنس من الطين والجن من النار من دلائل وجوده وقدرته وتوحيده، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر]، ثم ذكر تعالى قصة آدم وبدأها بقوله تعالى للملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الحجر]، إلى آخر الآيات، ففيها الدلالة على قدرة الله تعالى وحده في خلق الإنسان الأول من غير أبوين، فالقصة فيها إشارات ومعان، **أهمها**:

تكريم الله تعالى للإنسان بخلقه وأمر الملائكة بالسجود له، وإباء إبليس قائلاً: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الحجر]، متكبراً، ومعللاً بأنه خير منه كما في قوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف]، ثم بيّن تعالى خطورة عصيانه، بالترهيب ثم الترغيب.

وجاءت قصة آدم في سورة الإسراء في سياق الكبر والحسد، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء]، هذه الحالُ من المشركين مع النبي ﷺ، بعد فتنتهم بالرؤيا ليلة الإسراء، وبالشجرة الملعونة، فكفر من كُتب عليه الكفر، وصدَّق من كُتب له الإيمان، شابهت ما حصل في قصة آدم عليه السلام وإبليس حيث حمله الكبر والحسد على عدم السجود، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء]، ومن المناسبة بينهما أيضاً - والله أعلم - أنه لما قال تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء]، بيّن سبب هذا الطغيان، وهو قول إبليس: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء].

وهذا يُقرر أن تكرار القصة في القرآن يُظهر جوانب مختلفة منها في كل موضع، بتحقيق هدف آخر، وتنويع معجزٍ للعرب، وبيانٌ لما صاحب القصة

من أحداث مهمَّة، وأن النظر إلى سابق القصةِ ولاحقها يُبين حقيقة تكرار القصة وإعادتها، فالقرآن تنزيل من حكيم حميد، يذكر في كل مكان ما يناسب الحال، فسبحان الحكيم العليم.

ومن الأمثلة:

ذكر الله قصة نوح ﷺ في سور كثيرة، ومنها:

سورة الأعراف، والتوبة، ويونس، وهود، وإبراهيم، والإسراء، والمؤمنون، والشعراء، والصافات، والقمر، وسورة نوح كاملة.

وهي أول قصص الأنبياء عادة عند تكرار قصصهم، ويتلوها من بعده من الأنبياء في سياق متناسب مع موضوع السورة ومقاصد الآيات.

ومن تتبع قصص الأنبياء في القرآن وجد أن الأصل فيها التكرار، ولذا أجاب العلماء عن أسباب عدم تكرار قصة يوسف ﷺ.

قال ابن عطية: «وسورة يوسف لم يتكرر من معناها في القرآن شيء كما تكررت قصص الأنبياء، ففيها حجة على من اعترض بأن الفصاحة تمكنت بترداد القول، وفي تلك القصص حُجة على من قال في هذه: لو كُررت لفترت فصاحتها»[(١)].

وأذكر على وجه الإيجاز أهم الأسرار لعدم تكرار قصة يوسف ﷺ:

١ ـ أهمها أنها أدت الغرض المقصود من إيرادها بالمرة الواحدة، لاختلافه عن القصص الأخرى[(٢)].

قال السيوطي: «وهو أقوى ما يجاب به أن قصص الأنبياء إنما كررت لأن المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم، والحاجة داعية إلى ذلك لتكرير تكذيب الكفار لرسول الله، فكلما كذبوا أنزلت قصة منذرة بحلول العذاب، كما حل على المكذبين؛ ولهذا قال تعالى في آيات: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال]، ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ [الأنعام: ٦]،

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٠.
(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ٢٩.

وقصة يوسف لم يقصد منها ذلك، وبهذا أيضاً يحصل الجواب عن حكمة عدم تكرير قصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين، وقصة موسى مع الخضر، وقصة الذبيح»[١].

٢ ـ أن هذا من أوجه الإعجاز، فقصص الأنبياء تكرر تارة، وقصة يوسف وبعض القصص لم تكرر، فالتحدي للعرب في الأمرين.

قال الباقلاني: «ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأً به ومكرراً»[٢].

أي: إن العلماء نبهوا على عجز العرب عن الإتيان بمثل قصص القرآن المكرر وغير المكرر[٣].

وقال القرطبي: «قال العلماء: وذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرر، والإعجاز لمن تأمل»[٤].

٣ ـ وأضاف بعضهم ما فيها من الحديث عن النساء، وشؤونهن مبنية على الستر، وعدم التكرار[٥].

ولما تأملت في تكرار قصص الأنبياء تبين لي ما يأتي:

١ ـ أن تكرار القصص في الظاهر يدعو إلى تأمل المعاني الجديدة في كل موضع؛ لأن فيه تكراراً لأجزاء القصة المراد بيانها، وبه تتكامل فصول القصة، ويتبين الموقف من جميع جوانبه.

ولا يخلو تكرار قصة من حاجة إليه، أو زيادة فائدة، أو تأسيس معنى جديد.

قال ابن تيمية: «والملائكة أرسلوا الحجارة من السماء على قرى قوم

---

(١) الإتقان ٢/١٤٩، ١٥٠.
(٢) إعجاز القرآن ٦١.
(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن ١/٥٦.
(٤) تفسير القرطبي ٩/١١٨.
(٥) ينظر: الإتقان في علوم القرآن ٢/١٤٩.

لوط، وقد ذكر الله قصتهم في مواضع من القرآن، في سورة هود، والحجر، والعنكبوت، وفي كل موضع يذكر نوعاً مما جرى»[١].

٢ ـ وجود الارتباط الدقيق بين القصة وسياق الآيات، فقد يستدعي السياق الاستشهاد بجزء من القصة ليكون شاهداً أو عبرة في الموضوع الذي جيء بالجزء من القصة لأجله، وذلك من خلال النظر إلى سابق القصة ولاحقها، فكلما تكررت كان هناك جديد تؤديه؛ لاختلاف الغاية التي تساق من أجلها، فقد يستشهد بالقصة الواحدة في عشرات المواضع؛ لأن فيها لكل مناسبة ما يصلح أن يكون شاهداً أو عظة أو عبرة، فتذكر بعض معانيها الوافية في مقام، وتبرز معان أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال.

قال البقاعي: «المقصود من حكاية القصص في القرآن إنما هو المعاني، فلا يضر اختلاف اللفظ إذا أدى جميع المعنى، أو بعضه، ولم يكن هناك مناقضة، فإن القصة كانت حين وقوعها بأوفى المعاني الواردة، ثم إن الله تعالى يُعبِّر لنا في كل سورة تُذكر القصة فيها بما يناسب ذلك المقام في الألفاظ، عما يليق من المعاني، ويترك ما لا يقتضيه ذلك المقام»[٢].

٣ ـ أن الله تعالى أنزل هذا القرآن، وعَجِز القوم عن الإتيان بمثله، وكما تحداهم بتنوع أساليبه، وعجزهم، تحداهم بأسلوب واحد، كتكرار القصة؛ إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم، أو أي عبارة، والله جل وعلا وحده هو القادر على ذلك[٣].

قال الباقلاني: «ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأً ومكرراً»[٤].

وكل قصة كررت أُلبِست زيادة ونقصاناً، وتقديماً وتأخيراً، وإجمالاً وبياناً، ولم يحدث مللاً ولا سآمة؛ وكل ذلك فيه الدليل على بلوغ القرآن أعلى مراتب البلاغة.

---

(١) الرد على المنطقيين ٤٩٤.
(٢) نظم الدرر ١/ ١٠٤.
(٣) ينظر: البرهان ٣/ ٢٧.
(٤) إعجاز القرآن ٦١.

وفي تكرار القصة تكامل أجزائها، وتعبيراتها، في أسلوب منتظم جميل.

وفي تكرار القصص جذب النفوس إلى سماع القصة كاملة لما جُبلت عليه من حب التنقل في الأشياء المتجددة(١).

٤ ـ وفي تكرار قصص الأنبياء تمكين العبرة والعظة في النفوس، إذ التكرار ينبه الغافل، ويزيد إدراكاً من لم يغفل.

٥ ـ وفي تكرار قصص الأنبياء تمكين سنن الله في الكون، لتثبت النفس، ويقوى القلب، فلا يجد اليأس إليه سبيلاً، ففي قصص عقوبات الماضين المفسدين تسلية؛ لأن نفوسهم في كل زمان ومكان متقاربة، ووسائلهم في محاربة الحق متشابهة، قال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصّلت: ٤٣]، والله تعالى أعلم.

---

(١) ينظر: البرهان ٣/ ٢٨.

الفصل الثالث

عادات القرآن في خطاباته

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: خطاب القرآن للأنبياء.
- المبحث الثاني: خطاب القرآن للناس.
- المبحث الثالث: انتقال الكلام من أسلوب إلى أسلوب.

المبحث الأول

خطاب القرآن للأنبياء

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول: نداء الأنبياء السابقين بأسمائهم.**
- **المطلب الثاني: نداء النبي ﷺ بوصفه.**
- **المطلب الثالث: خطاب النبي ﷺ خطاب لأمته.**

المطلب الأول

نداء الأنبياء السابقين بأسمائهم

عادة الله تعالى في القرآن نداء الأنبياء السابقين ـ قبل محمد ﷺ ـ بأسمائهم.

والأمثلة على هذا كثيرة منها:

١ ـ نداء الله تعالى لآدم عليه السلام:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة].

ـ وقال تعالى: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة].

ـ وقال تعالى: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه].

قال أبو حيان: «﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾ [البقرة: ٣٣]، نادى آدم باسمه العلم، وهي عادة الله مع أنبيائه، قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ

مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨]، ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥]، ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص]، ﴿قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾ [المائدة: ١١٠]»[(١)].

فبيَّن أن هذه عادة الله مع أنبيائه السابقين عليهم الصلاة والسلام.

٢ ـ نداء الله تعالى لنوح عليه السلام:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود].

ـ وقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود].

٣ ـ نداء الله تعالى لإبراهيم عليه السلام:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [الصافات].

٤ ـ نداء الله تعالى لزكريا ويحيى عليهما السلام:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ [مريم].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم].

٥ ـ نداء الله تعالى لداود عليه السلام:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص].

---

(١) البحر المحيط ١/٢٩٨.

٦ ـ نداء الله تعالى لموسى عليه السلام:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف].

وقد نادى الله موسى باسمه في اثني عشر موضعاً من القرآن، وهي كما يأتي:

ـ قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [طه].

ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه].

ـ وقال تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [طه].

ـ وقال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه].

ـ وقال تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [طه].

ـ وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾ [طه].

ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الشعراء].

ـ وقال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ [النمل].

ـ وقال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النمل].

ـ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص].

ـ وقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القصص].

٧ ـ نداء الله تعالى لعيسى عليه السلام:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران: ٥٥].

ـ وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠].

ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

ومن تأمل في هذه النداءات ظَهر له جلياً: عادةُ نداء الأنبياء بأسمائهم الصريحة.

قال الألوسي: «﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣] نادى سبحانه آدم باسمه العلم كما هو عادته جل شأنه مع أنبيائه ما عدا نبينا حيث ناداه بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]»[١].

ومن خلال بحث هذه العادة تبين لي:

١ ـ أن النداء بالاسم المجرد لا انتقاص فيه للمنادى، ونداء الله تعالى لأنبيائه بأسمائهم أكبر دليل على هذا المعنى، وما يقع عند بعض الناس من الأنَفَة عند ندائهم بأسمائهم، إنما هو راجع لأعرافهم وعاداتهم.

قال الرضي: «فإن بعض النفوس تأنف من أن تخاطب باسمها»[٢].

والعبرة في القرآن بسياق الكلام، فقد جاء التصريح بالاسم في القرآن تشريفاً للمنادى في كثير من المواضع.

قال أبو حيان: «﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف]، لما كان وقت النداء شرّف بالتصريح باسمه في النداء، فقيل: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾ [الأعراف: ١٩]، وحين كان وقت العتاب أخبر أنه ناداه ولم يصرّح باسمه»[٣].

وقال الألوسي: «﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ [طه: ١٢٠] ناداه باسمه ليكون أقبل عليه وأمكن للاستماع»[٤].

٢ ـ لم يأت في القرآن العدول عن الاسم إلى الكنية إلا مع أبي لهب، وقد علل العلماء ذكر الكنية بوجوه منها: أن الاسم أشرف من الكنية.

---

(١) روح المعاني ١/ ٢٢٧.
(٢) شرح الرضي على الكافية ٣/ ٢٦٤، وينظر: الكليات ٩٥١.
(٣) البحر المحيط ٤/ ٢٨١.
(٤) روح المعاني ١٦/ ٢٧٣.

قال الماوردي: «وفي ذكر الله لأبي لهب بكنيته دون اسمه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه كان بكنيته أشهر منه باسمه.

الثاني: لأنه كان مسمى بعبدهشم، وقيل: إنه عبد العزى فلذلك عدل عنه.

الثالث: لأن الاسم أشرف من الكنية؛ لأن الكنية إشارة إليه باسم غيره؛ ولذلك دعا الله أنبياءه بأسمائهم»[(١)].

وكذا قال أبو حيان: «لأن الاسم أشرف من الكنية، فعدل إلى الأنقص؛ ولذلك ذكر الله تعالى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأسمائهم ولم يُكْنِ أحداً منهم»[(٢)].

وقال القرطبي: «وإنما كناه الله بأبي لهب ـ عند العلماء ـ لمعان أربعة» وذكر منها: «أن الاسم أشرف من الكنية، فحطَّه الله ﷻ عن الأشرف إلى الأنقص؛ إذْ لم يكن بُدٌّ من الإخبار عنه، ولذلك دعا الله تعالى الأنبياء بأسمائهم، ولم يُكْنِ عن أحد منهم، ويدُلُّك على شرف الاسم على الكنية: أن الله تعالى يُسمَّى ولا يكنى، وإن كان ذلك لظهوره وبيانه؛ واستحالة نسبة الكنية إليه؛ لتقدُّسِه عنها»[(٣)].

٣ ـ أن أقوام الأنبياء والملائكة نادوا الأنبياء بأسمائهم الصريحة، والسياق هو ما يُحدد الهدف من التصريح بالاسم.

ـ كما قال تعالى عن قوم هود عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود].

ـ وقال تعالى عن قوم صالح عليه السلام: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف].

قال البقاعي: «﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: ثمود، ﴿يَـٰصَـٰلِحُ﴾ نادوه باسمه قلةَ أدبٍ منهم وجفاء»[(٤)]، وهذا واضح من السياق الذي ورد فيه النداء.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٦٥.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٥٢٧.

(٣) تفسير القرطبي ٢٠/ ٢٣٦.

(٤) نظم الدرر ٣/ ٥٨٤.

ـ وقال تعالى عن الملائكة مع لوط عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود].

ـ وقال تعالى عن قوم شعيب: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود].

٤ ـ نادى الله جل وعلا جميع الرسل على وجه الإجمال بوصف الرسالة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون].

٥ ـ لم يناد الله تعالى الأنبياء السابقين بوصف الرسالة أو النبوة لأن القرآن نزل بعدهم، فهو يحكي قصصهم الماضية، وفرق بين الغائب والمخاطب في أسلوب الكلام، والله أعلم.

قال الألوسي: «وربما يكون نداء سائر الأنبياء عليهم السلام في كتبهم أيضاً على نحو منه»[1].

يعني: مثل ما نودي به النبي ﷺ في القرآن، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

نداء النبي ﷺ بوصفه

لم يأت في القرآن نداء النبي ﷺ باسمه الصريح كما هي الحال مع عامة الأنبياء، وإنما جاء النداء بوصفه بالنبوة أو الرسالة، أو غيرها، تكرر ذلك ثماني عشرة مرة، **وسأورد الآيات الدالة على ذلك:**

١ ـ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال].

(١) روح المعاني ٢١/ ١٤٣.

فهذا نداء للنبي ﷺ بصفة النبوة، وقد تكرر هذا النداء في ثلاثة عشر موضعاً.

٢ ـ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

٣ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنفال].

٤ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة].

٥ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ [الأحزاب].

٦ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الأحزاب].

٧ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب].

٨ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

٩ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

١٠ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الممتحنة: ١٢].

١١ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ﴾ [الطَّلاق: ١].

١٢ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ [التَّحريم].

١٣ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [التَّحريم: ٩].

ونادى الله تعالى نبيه ﷺ بصفة الرسالة في موضعين من كتاب الله، وهما:

١٤ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

١٥ ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

وجاء نداء النبي ﷺ بوصفه بالمزمل.

١٦ ـ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ [المزمل].

وكذا بوصفه بالمدثر.

١٧ ـ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدَّثر].

وكذا بوصفه بالذي نزل عليه الذكر.

١٨ ـ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر].

ومن تأمل في نداءات النبي ﷺ في القرآن وجد أكثرها بوصف النبوة والرسالة، وهو وصف تشريف وتفضيل، ولم يأت في كتاب الله تعالى نداء النبي ﷺ باسمه مجرداً ألبتَّة.

قال الزمخشري: «جعل نداءه بالنبيّ والرسول في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التَّحريم: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وترك نداءه باسمه كما قال: يا آدم، يا موسى، يا عيسى، يا داود، كرامة له وتشريفاً، وربئاً بمحله وتنويهاً بفضله»(١).

وقال الرازي: «قال تعالى في أول السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التَّحريم: ١]، ومن بعده ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التَّحريم: ٩]، خاطبه بوصفه وهو النبي لا باسمه، كقوله لآدم: يا آدم، ولموسى: يا موسى، ولعيسى: يا عيسى، نقول: خاطبه بهذا الوصف ليدل على فضله

(١) الكشاف ٣/ ٥٢٦.

عليهم، وهذا ظاهر»[١].

وقال أبو حيان: «ونداؤه تعالى له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١] هنا، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ [المائدة: ٦٧]، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ١] في مواضع، تشريف وتعظيم وتفخيم لقدره، ونادى غيره من الأنبياء باسمه»[٢].

وقد جاء النص في تأديب المؤمنين على هذه العادة، وفي موضع التأديب نفسه لم يذكر النبي ﷺ باسمه، بل استبدله بصفة الرسالة، فقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، ففي هذا تعظيم وتوقير له عليه الصلاة والسلام مع التواضع وخفض الصوت.

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ «أمرهم أن يدعوا: يا رسول الله، في لين وتواضع، ولا يقولوا: يا محمد، في تجهم»[٣].

وجاء التأديب أيضاً في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات].

قال الفراء: «وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، يقول: لا تقولوا: يا محمد، ولكن قولوا: يا نبي الله، يا رسول الله، يا أبا القاسم»[٤].

وقال مكي: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: لا تنادوه باسمه كما ينادي بعضكم بعضاً باسمه، ولكن عظموه ووقروه، ونادوه بأشرف ما يُحِب أن ينادَى، قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، وهذا كلُّه أمر من الله ﷻ للمؤمنين بتعظيم النبي ﷺ وإجلاله، وهو مثل قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]»[٥].

---

(١) تفسير الرازي ٣٠/ ٤٣.
(٢) البحر المحيط ٣/ ٤٩٩، ٧/ ٢٠٦.
(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٣٠.
(٤) معاني القرآن ٣/ ٧٠.
(٥) الهداية إلى بلوغ النهاية ١١/ ٦٩٨٧، وينظر: البحر المحيط ٨/ ١٠٥، تفسير القرطبي ١٦/ ٣٠٦.

وقال الرازي: «﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح]، واعلم أنه عام في كل ما ذكروه من النبوة، وشهرته في الأرض والسماوات، . . . وأنه يُذكر معه في الشهادة والتشهد، وأنه تعالى ذكره في الكتب المتقدمة، وانتشار ذكره في الآفاق، وأنه ختمت به النبوة، وأنه يُذكر في الخطب والأذان، ومفاتيح الرسائل، وعند الختم، وجعل ذكره في القرآن مقروناً بذكره، ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [النساء: ١٣]، ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، ويناديه باسم الرسول والنبي حين ينادي غيره بالاسم، يا موسى، يا عيسى»[١].

وقال ابن كثير: «هذه آداب، أدَّب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام»[٢].

وقال الشنقيطي: «وقوله هنا: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِالْقَوْلِ﴾؛ أي: لا تنادوه باسمه، كـ يا محمد، وقد دلت آيات من كتاب الله على أن الله تعالى لا يخاطبه في كتابه باسمه، وإنما يخاطبه بما يدل على التعظيم والتوقير، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [التوبة: ٧٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ [المزمل]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدَّثر]، مع أنه ينادي الأنبياء بأسمائهم كقوله: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤﴾ [الصَّافات]، وقوله: يا ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]، ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨]، وقوله: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً﴾ [ص: ٢٦]، أما النبي ﷺ فلم يذكر اسمه في القرآن في خطاب، وإنما يذكر في غير ذلك، كقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ﴿وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [محمد: ٢]، وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: ٢٩][٣].

---

(١) تفسير الرازي ٣٢/٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٧/٣٦٤، التحرير والتنوير ٢٦/٢١٩.

(٣) أضواء البيان ٧/٤٠٢.

وعلى هذا فعادة القرآن أنه لا ينادي النبي ﷺ باسمه المجرد.

أما في غير النداء فجاء ذكره بمثل ما ذُكر في النداء بصفة الرسالة والنبوة ونحوها.

كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

وقوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾ [البيِّنة].

إلا في أربعة مواضع، جاء الخبر فيها عن النبي باسمه: محمد ﷺ وهي كما يأتي:

١ - قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

٢ - وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

٣ - وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾ [محمد].

قال الزركشي: «وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ والقصد تفضيل النبي ﷺ وما نزل عليه إذ لا يتم الإيمان إلا به»(١).

٤ - وقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الفتح: ٢٩].

وهذا يدل على أن باب الخبر أوسعُ من باب الطلب في التعامل مع رسول الله ﷺ.

---

(١) البرهان ٢/ ٤٦٩.

ولذلك بحث العلماء السر في النص على اسمه ﷺ في هذه المواضع.

قال الزمخشري: «فإن قلت: إن لم يوقع اسمه في النداء فقد أوقعه في الإخبار في قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قلت: ذاك لتعليم الناس بأنه رسول الله وتلقينٌ لهم أن يسمُّوه بذلك ويدعوه به، فلا تفاوتَ بين النداء والإخبار، ألا ترى إلى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الأخبار كيف ذكره بنحو ما ذكره في النداء، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ﴾ [الفرقان: ٣٠]، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة]»[1].

وقال أبو حيان: «وحيث ذكره على سبيل الإخبار عنه بأنه رسوله، صرح باسمه فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، أعلَمَ أنه رسوله، ولقنهم أن يسمُّوه بذلك.

وحيث لم يقصد الإعلام بذلك، جاء اسمه كما جاء في النداء: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، و﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ﴾ [الفرقان: ٣٠]، ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٦]، وغير ذلك من الآي»[2].

وقال النسفي: «وتصريحه باسمه في قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: ٢٩]، ونحوه؛ لتعليم الناس بأنه رسول الله»[3].

---

(١) الكشاف ٣/٥٢٦.
(٢) البحر المحيط ٧/٢٠٦.
(٣) تفسير النسفي ٣/ ٢٩٥.

☐ وخلاصة القول في هذا المطلب:

١ ـ أن نداء النبي ﷺ بوصف النبوة والرسالة إقرارٌ له بالنبوة والرسالة، وتعظيم وتشريف له عليه الصلاة والسلام.

قال ابن جزي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ نداء فيه تكريم له؛ لأنه ناداه بالنبوة، ونادى سائر الأنبياء بأسمائهم»[١].

وقال الزركشي: «ولم يقع في القرآن النداء بـ يا محمد، بل بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾؛ تعظيماً له وتبجيلاً وتخصيصاً بذلك عن سواه»[٢].

وقال الألوسي: «﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ [البقرة: ٣٣]، نادى سبحانه آدم باسمه العلم، كما هو عادته جل شأنه مع أنبيائه، ما عدا نبينا؛ حيث ناداه بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾؛ لعلو مقامه ورفعة شأنه إذ هو الخليفة الأعظم»[٣].

٢ ـ اختص نداء النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾، وفيها زيادة التعظيم والتشريف للنبي ﷺ.

قال الزمخشري: «فإن قلت: لم كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره؟ قلت: لاستقلاله بأوجه من التأكيد، وأسباب من المبالغة؛ لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره، ووعده ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغير ذلك مما أنطق به كتابه، أمور عظام وخطوب جسام، ومعان عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ»[٤].

وقد زكّى الله تعالى نبيه ﷺ في مواضع كثيرة من كتابه العزيز، ومنها:

أنه جل وعلا زكّاه في عقله فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النَّجم].

---

(١) التسهيل ٢/٣٥٦. (٢) البرهان ٢/٢٢٨.
(٣) روح المعاني ١/٢٢٧.
(٤) الكشاف ١/١٢١، وينظر: الإتقان ٢/١٨٠.

وزكاه في صدقه فقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النَّجم].

وزكاه في بصره فقال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النَّجم].

وزكاه في معلمه فقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النَّجم].

وزكاه في صدره فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح].

وزكاه في طهره فقال: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ [الشرح].

وزكاه في ذكره فقال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح].

وزكاه في حلمه فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة].

وزكاه كله صلوات ربي وسلامه عليه فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم].

٣ ـ في اختيار الوصف بالنبوة أو الرسالة أو غيرها المراعاة لحال السياق.

فعند التأمل في اختيار وصف النبي أو الرسول في القرآن يتبين الدقة في اللفظ حسب مواضعه.

ويؤيد هذا ما ذكره الزركشي حيث يقول: «ومن هذا النوع ـ خطاب المدح ـ الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، ولهذا تجد الخطاب بالنبي في محل لا يليق به الرسول، وكذا عكسه، كقوله في مقام الأمر بالتشريع العام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وفي مقام الخاص: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التَّحريم]، ومثله: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب].

وتأمل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، في مقام الاقتداء بالكتاب والسُّنَّة، ثم قال: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]، فكأنه جمع له المقامين معنى النبوة والرسالة تعديداً للنعم في الحالين.

وقريب منه في المضاف إلى الخاص: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، ولم يقل: يا نساء الرسول، لما قصد اختصاصهن عن بقية الأمة.

وقد يعبر بالنبي في مقام التشريع العام، لكن مع قرينة إرادة التعميم، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطَّلاق: ١]، ولم يقل طلقت»(١).

٤ ـ أن عادة القرآن حتى في المواضع التي صرح باسمه في باب الخبر، اقتران الرسالة بالاسم، وهذا أمر يدل على أن ذكر اسمه من باب التعليم والبيان أنه رسول الله الذي شُرف بالنبوة والرسالة، ونزول القرآن عليه.

٥ ـ أن باب الأخبار أوسع من باب الإنشاء في ذكر اسمه مجرداً عن الوصف ﷺ.

قال ابن عاشور: «ونداء النبي عليه الصلاة والسلام بوصف النبوءة دون اسمه العلم تشريف له بفضل هذا الوصف ليربأ بمقامه عن أن يخاطب بمثل ما يخاطب به غيره، ولذلك لم يناد في القرآن بغير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، أو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، بخلاف الإخبار عنه فقد يجيء بهذا الوصف كقوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾ [التَّحريم: ٨]، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ﴾ [الفرقان: ٣٠]، ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١]، ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، ويجيء باسمه العلم، كقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقد يتعين إجراء اسمه العلم ليوصف بعده بالرسالة، كقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وتلك مقامات يقصد فيها تعليم الناس بأن صاحب ذلك الاسم هو رسول الله، أو تلقين لهم بأن يسموه بذلك، ويدعوه به، فإن علم أسمائه من الإيمان لئلا يلتبس بغيره»(٢).

وقال ابن عثيمين: «قول: محمد رسول الله ﷺ، لا ينافي قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]؛ لأن دعاء الرسول هنا؛ أي: مناداته؛ فلا تقولوا عند المناداة: يا محمد، ولكن قولوا: يا رسول الله.

---

(١) البرهان ٢/٢٣٩، ٢٣٠.
(٢) التحرير والتنوير ٢١/٢٤٩.

أما الخبر؛ فهو أوسع من باب الطلب، ولهذا يجوز أن تقول: أنا تابع لمحمد ﷺ، أو: اللهم صل على محمد، وما أشبه ذلك»[١].

والله تعالى أعلم.

المطلب الثالث

خطاب النبي ﷺ خطاب لأمته

لا يخلو الخطاب الموجهُ إلى النبي ﷺ في كتاب الله تعالى من الحالات الآتية:

الحالة الأولى: أن يقوم دليل على أن الخطاب خاصٌّ به ﷺ فهو خاص لا يشمل الأمة.

- كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر].

- وقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب].

- وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح].

الحالة الثانية: أن تأتي القرينة الدالة على العموم في خطاب النبي ﷺ فهو للعموم.

كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطَّلاق: ١]، فصيغة الجمع في قوله: ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ تدل على عموم الخطاب للأمة.

قال الزركشي: «افتتح الخطاب بالنبي ﷺ، والمراد سائر من يملك الطلاق»[٢].

وقال أبو السعود: «تخصيص النداء به عليه الصلاة والسلام مع عموم الخطاب لأمته أيضاً لتشريفه عليه الصلاة والسلام، وإظهارِ جلالة منصبه،

(١) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ٩/ ٣٢.
(٢) البرهان ٢/ ٢١٨.

وتحقيقِ أنه المخاطب حقيقة، ودخولهم في الخطاب بطريق استتباعه عليه الصلاة والسلام إياهم، وتغليبه عليهم، لا لأن نداءه كندائهم»[(١)].

الحالة الثالثة: أن لا يوجد دليل على أن الخطاب الموجه للرسول ﷺ خاص به، أو عام له ولأمته، وهنا محل البحث في هذه العادة:

ومن الأمثلة على ذلك:

- وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١].

- وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣].

- وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ [هود: ١١٢].

- وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب]، ونحو ذلك.

وهذه مسألة أصولية مشهورة تكلم فيها الأصوليون[(٢)].

قال بعض الشافعية[(٣)] وغيرهم[(٤)]:

هو خاص بالنبي ﷺ حتى يقوم دليل على العموم.

واستدلوا: بأن اللفظ خاص من حيث الوضع اللغوي، فيبقى على خصوصه حتى يأتي الدليل على نقله من الخصوص.

---

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ٢٦٠.

(٢) ينظر: العدة ١/ ٣١٨، المحصول ٢/ ٣٧٩، البرهان للجويني ١/ ٢٥٠، شرح مختصر روضة الناظر ٢/ ٤١٢، شرح الكوكب المنير ٣/ ٢١٨.

(٣) ينظر: الإحكام للآمدي ٢/ ٢٧٩، المستصفى ١/ ٢٤١.

(٤) كالمعتزلة ومن وافقهم. ينظر: المعتمد ١/ ١٤٨.

وقال الجمهور من الحنفية(١)**، وبعض المالكية**(٢)**، وبعض الشافعية**(٣)**، وهو قول الحنابلة**(٤):

إن خطاب النبي ﷺ يدل على العموم حتى يقوم دليل على الخصوصية.

قال ابن تيمية: «ولهذا كان جمهور علماء الأمة على أن الله إذا أمر نبيه بأمر، أو نهاه عن شيء، كانت أمته أسوة له في ذلك، ما لم يقم دليل على اختصاصه بذلك»(٥).

- **واستدلوا:** بالآيات الدالة على الاقتداء بالرسول ﷺ واتِّباعه.

كما في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف].

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

وغيرها كثير، مما أوجد عادة شرعية تُحمَل عليها خطابات الشرع.

- **واستدلوا:** بأن عادة العرب توجيه الخطاب لكبير القوم والمراد كلهم، والقرآن نزل بلغة العرب.

- **واستدلوا:** بأن ما اختص به النبي ﷺ في الشريعة جاء بلفظ التخصيص.

كقوله تعالى في الواهبة نفسها: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، ولو كان حكم الخطاب خاصاً به لم يحتج إلى التخصيص في هذه الآية(٦).

---

(١) ينظر: التقرير والتحبير ١/ ٢٢٤.

(٢) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ٢٧٠.

(٣) ينظر: البرهان للجويني ١/ ٢٥٠، تفسير الرازي ٢٥/ ١٨٤، نهاية السول ١/ ٣٩٠.

(٤) ينظر: العدة في أصول الفقه ٣١٨/١، روضة الناظر ٢/ ١٠٠، المسودة ١/ ١٣٤، شرح الكوكب المنير ٣/ ٢١٨.

(٥) مجموع الفتاوى ٢٢/ ٣٢٢.

(٦) ينظر: مذكرة أصول الفقه ٢٤.

وقوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، فلو كان منفرداً بما يتوجه إليه من الشرع، لم يكن لتخصيصه فائدة[١].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فالخطاب خاصٌّ بالنبي ﷺ، وقد صرح بعده بعمومه لجميع المؤمنين في قوله: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾، ولو كان حكم الخطاب يختص بالنبي ﷺ لم يصح التعليل بالعموم.

ـ وقد دل على هذا القول استقراء آيات القرآن.

قال الشنقيطي: «وأما الخطاب الخاص بالنبي ﷺ في نحو قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فقد دلت النصوص الشرعية على شمول حكمه للأمة، كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الآية [الأحزاب: ٢١].

وقد علمنا ذلك من استقراء القرآن العظيم حيث يُعبّر فيه دائماً بالصيغة الخاصة به ﷺ ثم يشير إلى أن المراد عموم حكم الخطاب للأمة»[٢].

وبعد استقراء أقوال العلماء في المسألة وتطبيقها على الفروع تبين لي أنه لا خلاف بين القولين في العمل؛ فالجميع متفق على أن خطاب الواحد لا يطلق على الجماعة في اللغة، وكذلك متفقون على أن الوقائع الشرعية الخاصة التي استدل بها أصحاب القول الأول عُدّي حكمها إلى الأمة مع نبيها ﷺ، ومحل النزاع في العرف الشرعي[٣].

قال الطوفي: «وكأن الخلاف لفظي...»، ثم قال: «وحينئذٍ يكون التقدير: أن اللغة تقتضي أن الخطاب لواحد معين يختص به، ولا خلاف فيه بينهم، والواقعة الشرعية الخاصة، إذا قام دليل على عمومها عمَّت، ولا

---

(١) ينظر: العدة في أصول الفقه ١/ ٣٢٥. (٢) أضواء البيان ١/ ٣٧٧.

(٣) ينظر: العدة ١/ ٣٣٠، شرح مختصر روضة الناظر ٢/ ٤١٨، شرح الكوكب المنير ٣/ ٢٢١.

خلاف أيضاً فيه بينهم، فعاد النزاع كما قلنا لفظياً»(١).

وقال أيضاً: «أجمع الصحابة ﷺ على الرجوع في قضاياهم العامة إلى قضايا النبي ﷺ الخاصة، كرجوعهم في حد الزاني إلى قصة ماعز(٢) ...»(٣).

ومن الأمثلة في ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة].

قال السمرقندي: «﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ وهذا الخطاب للنبي ﷺ والمراد منه أمته»(٤).

- وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء].

قال ابن جزي: «﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ خطاب للنبي ﷺ والمراد به كل مخاطب على الإطلاق، فدخل فيه غيره من الناس»(٥).

- وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال].

قال ابن عطية: «هذا الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنون داخلون فيه

(١) شرح مختصر روضة الناظر ٢/٤١٨.
(٢) أخرجه البخاري ٨/٢٠٥ (٦٨١٥)، كتاب الأشربة باب لا يرجم المجنون والمجنونة، ومسلم ٣/١٣١٧ (١٦٩١)، كتاب الحدود باب من اعترف على نفسه بالزنى من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٣) شرح مختصر روضة الناظر ٢/٤١٥. وينظر للاستزادة: أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤٧٢، الإحكام للآمدي ٢/٢٦٠، روضة الناظر ٢/١٠٠، المحصول ٢/٣٧٩، تفسير البيضاوي ٤/٣٧٧، شرح الكوكب المنير ٣/٢١٨، نهاية الوصول في دراية الأصول ٤/١٣٨١، إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر ٥/٣٥٢.
(٤) تفسير السمرقندي ١/١١٦.
(٥) التسهيل ١/٢٦٧.

بالمعنى»[١].

- وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء].

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء]، قال المفسرون: هذا في الظاهر خطاب للنبي ﷺ، ولكن في المعنى عام لجميع المكلفين»[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الكهف].

قال السعدي: «هذا النهي كغيره، وإن كان لسبب خاص وموجهاً للرسول ﷺ، فإن الخطاب عام للمكلفين، فنهى الله أن يقول العبد في الأمور المستقبلة، ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾ من دون أن يقرنه بمشيئة الله، وذلك لما فيه من المحذور، وهو: الكلام على الغيب المستقبل»[٣].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ [الأحزاب].

قال أبو حيان: «وأمره بالتقوى للمتلبس بها، أمر بالديموية عليها والازدياد منها، والظاهر أنه أمر للنبي، وإذا كان هو مأموراً بذلك، فغيره أولى بالأمر»[٤].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الأحزاب]، فقوله: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، يدل على عموم الخطاب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، وكقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٍ﴾ [يونس: ٦١]، ثم قال: ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾ الآية [يونس]»[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٨٢.
(٢) تفسير الرازي ٢٠/ ١٤٦.
(٣) تفسير السعدي ٤٧٤.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٠٦.
(٥) أضواء البيان ١/ ٣٧٧.

قال البغوي: «وهذا خطاب للنبي ﷺ، والمراد منه غيره، وقيل: هذا أدب من الله ﷻ لنبيه وتهديد لغيره؛ لأن الله تعالى عصمه من الشرك»(١).

وقال البيضاوي: «﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥)﴾ [الزُّمر] كلام على سبيل الفرض، والمراد به: تهييج الرسل، وإقناط الكفرة، والإشعار على حكم الأمة، وإفراد الخطاب باعتبار كل واحد»(٢).

وغيرها من الآيات في هذا المعنى كثير(٣).

كلُّ هذه الأمثلة تُظهر لنا عادة من عادات القرآن في خطابه: أن الأصل في خطاب النبي ﷺ في القرآن العموم لأمته، حتى يدل دليل على الخصوصية.

قال الآمدي: «يجب تنزيل كلام الشارع على عرفه؛ إذ الغالب منه أنه إنما يناطِقُنا فيما له فيه عُرْف بعرفِه»(٤).

وعليه فيُقدَّم العُرف الشرعي على الوضع اللغوي، ويترجح قول الجمهور بأن خطاب النبي ﷺ خطاب لأمته، والله تعالى أعلم.

---

(١) تفسير البغوي ٧/ ١٣٠.

(٢) تفسير البيضاوي ٥/ ٧٦.

(٣) ينظر: تفسير الطبري ٢/ ٤٨٥، الهداية إلى بلوغ النهاية ٢/ ١١٨٣، ١٣٩٢، ٦/ ٤٣٢٧، النكت والعيون ٥/ ٣٥٦، المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٣، ٤/ ٥٩٥، تفسير القرطبي ٢/ ١٦٣، ٩/ ١٨، تفسير البيضاوي ٣/ ٣٤٣.

(٤) الإحكام ٣/ ٢٠.

المبحث الثاني

خطاب القرآن للناس

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول: الخطاب بلفظ الناس وبلفظ الإيمان.**
- **المطلب الثاني: خطاب الرجال والنساء.**
- **المطلب الثالث: خطاب العام وخطاب الخاص.**

المطلب الأول

الخطاب بلفظ الناس، وبلفظ الإيمان

المراد بالخطاب: الكلام الذي يُقصد به الإفهام.

قال الكفوي: «اللفظ المتواضَع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيِّء لفهمه»[(١)].

والقرآن خطاب لجميع الأمة، وفيه استعمال الأسلوب المناسب للمخاطَب في وقت نزول القرآن ومن يأتي بعدهم، فالقرآن صالح لكل زمان ومكان، وقد جاءت عادة القرآن بالخطاب كثيراً بلفظ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

أما الأول: فقد تكرر الخطاب للناس في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى، وتكرر بأسلوب نداء الناس في واحد وعشرين موضعاً، أغلبها في السور المكية.

---

(١) الكليات ٦٥٨، وقال: احترز بـ(اللفظ) عن الحركات والإشارات المفهمة بالمواضعة، وبـ(التواضع عليه) عن الألفاظ المهملة، وبـ(المقصود به الإفهام) عن كلام لم يقصد به إفهام المستمع فإنه لا يسمى خطاباً، وبقوله: «لمن هو متهيء لفهمه» عن الكلام لمن لا يفهم كالنائم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كل شيء نزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو بمكة، وكل شيء نزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فهو بالمدينة»(١).

ووجهه أن الغالب في أهل مكة الكفر والشرك، فخوطبوا بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وإن دخل فيه غيرهم، والغالب على أهل المدينة الإيمان فخوطبوا بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وإن دخل فيه غيرهم(٢).

قال أبو حيان: «والخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، قال الجمهور: لأهل مكة»(٣).

وقال ابن عاشور: «فالخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ موجه إلى المشركين كما هو شأن خطاب القرآن بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾»(٤).

وعند تأمل المقصود بلفظ الناس في القرآن تبين لي أنه نداء جنسٍ للناس عموماً.

ومما يدل على ذلك:

أن في القرآن سوراً مدنية وفيها الخطاب بصيغة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ مثل سورة البقرة، والنساء.

قال ابن تيمية: «... ولكن في السور المدنية خطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ كما في سورة النساء وسورة الحج وهما مدنيتان، وكذا في البقرة»(٥).

وقال القرطبي: «وأما من قال: إن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، مكي حيث وقع فليس بصحيح، فإن البقرة مدنية، وفيها قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، في موضعين»(٦).

---

(١) أخرجه البزار ٤/ ٣٣٦ (١٥٣١)، والحاكم ٣/ ٢٠ (٤٢٩٥) وسكت عنه الذهبي، والبيهقي في دلائل النبوة ٧/ ١٤٤ كلهم من طريق الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وأخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن مرسلاً عن علقمة ٢٢٢ (١٣ ـ ٥٦)، وينظر: البرهان ١/ ١٨٨.

(٢) ينظر: المكي والمدني في القرآن الكريم ١/ ٥٤.

(٣) البحر المحيط ٥/ ١٤٣.

(٤) التحرير والتنوير ٢/ ١٠١.

(٥) مجموع الفتاوى ١٥/ ١٦٠.

(٦) تفسير القرطبي ٥/ ١، والموضعان: آية: ٢١، وآية: ١٦٩.

وقال الزركشي: «سورة البقرة مدنية وفيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ﴾ [البقرة]، وفيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [البقرة: ١٦٨]، وسورة النساء مدنية وفيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]، وفيها: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [النساء: ١٣٣]، وسورة الحج مكية، وفيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧]، فإن أراد المفسرون أن الغالب ذلك فهو صحيح»[١].

وقال أيضاً في وجوه الخطاب في القرآن: «خطاب الجنس نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، فإن المراد جنس الناس لا كل فرد، وإلا فمعلوم أن غير المكلف لم يدخل تحت هذا الخطاب، وهذا يغلب في خطاب أهل مكة»[٢].

وعليه فعادة القرآن الخطاب بلفظ الناس وإرادة الجنس، فيدخل في الخطاب كل من يصلح له إلا بدليل؛ سواء كان من أهل مكة أو غيرها أو ممن جاء بعدهم.

ومن الأمثلة على ذلك:

- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة].

فهذا خطاب في سورة البقرة عام لجميع الخلق؛ إذ كلهم مقرُّون بأن الله خالقهم، ومِن لازِمه أنه المستحق للعبادة.

قال السمرقندي: «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾؛ يعني: أطيعوا ربكم، ويقال: وحِّدوا ربكم، وهذه الآية عامة، وقد تكون كلمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خاصة لأهل مكة، وقد تكون عامة لجميع الخلق، فهاهنا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ لجميع الخلق، يقول للكفار: وحِّدوا ربكم، ويقول للعصاة: أطيعوا ربكم، ويقول للمنافقين: أخلصوا دينكم، ويقول للمطيعين: اثبتوا على طاعة ربكم، واللفظ يحتمل هذه الوجوه كلها، وهو من جوامع الكلم»[٣].

---

(١) البرهان ١/١٩٠. (٢) البرهان ٢/٢٢٦.

(٣) تفسير السمرقندي ١/٥٩، وينظر: التسهيل ١/٧٧، تفسير ابن كثير ١/١٩٥.

وقال مكي: «وإنما خاطب الله الكفار بهذا لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقهم، دليل ذلك قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فقيل لهم: إذا كنتم مقرين بأن الله خالقكم فاعبدوه، ولا تجعلوا له شركاء»(١).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

هذا خطاب في سورة النساء، وهو عام لجميع الناس.

قال السمرقندي: «إن الخطاب في هذا الموضع عام لجميع الناس»(٢).

وقال ابن جزي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]، خطاب على العموم»(٣).

قال ابن عاشور: «جاء الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ليشمل جميع أمة الدعوة الذين يسمعون القرآن يومئذ وفيما يأتي من الزمان»(٤).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ [النساء].

هنا خطاب من الله تعالى لجميع الناس.

قال البيضاوي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠] لما قرر أمر النبوة وبيَّن الطريق الموصل إلى العلم بها ووعيد من أنكرها؛ خاطب الناس عامة بالدعوة وإلزام الحجة والوعد بالإجابة والوعيد على الرد»(٥).

وقال أبو حيان: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠] هذا خطاب لجميع الناس، وإن كانت السورة مدنية فالمأمور به أمر عام»(٦).

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية ١/ ١٨٢.
(٢) تفسير السمرقندي ١/ ٣٠٣.
(٣) التسهيل ١/ ٢٢٩.
(٤) التحرير والتنوير ٤/ ٢١٤.
(٥) تفسير البيضاوي ٢/ ٢٨٢.
(٦) البحر المحيط ٣/ ٤١٦.

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هذا خطاب للكل»[(١)].

ودخول المشركين فيه دخولاً أكيداً؛ لدلالة قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾.

قال ابن عاشور: «الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: يعني خصوص المشركين في الغالب، وهو المناسب لقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾»[(٢)].

- وقول الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾ [النساء].

ففي هذه الآية الخطاب بلفظ الناس الدال على العموم.

قال الطبري: «يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، يا أيها الناس من جميع أصناف الملل، يهودِها ونصاراها ومشركيها، الذين قص الله جل ثناؤه قَصَصهم في هذه السورة»[(٣)].

وسياق الآية دال على ذلك، فقد أورد الحجة على جميع الفرق وجاء الخطاب بعدها.

قال الرازي: «واعلم أنه تعالى لما أورد الحجة على جميع الفرق من المنافقين والكفار واليهود والنصارى، وأجاب عن جميع شبهاتهم، عمم الخطاب ودعا جميع الناس إلى الاعتراف برسالة محمد عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾»[(٤)].

- وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحج].

قال أبو حيان: «قيل: خطاب للمؤمنين أراد الله أن يبين لهم خطأ

---

(١) تفسير القرطبي ٦/ ٢٠، وينظر: تفسير السعدي ٢١٥.
(٢) التحرير والتنوير ٦/ ٤٩.
(٣) تفسير الطبري ٩/ ٤٢٧، وينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٢/ ١٥٤٣.
(٤) تفسير الرازي ١١/ ٩٥.

الكافرين فيكون: ﴿تَدْعُونَ﴾ خطاباً لغيرهم الكفار عابدي غير الله، وقيل: الخطاب عام يشمل من نظر في أمر عبادة غير الله، فإنه يظهر له قبح ذلك»[(١)].

والظاهر أن من قال إنه خطاب للمؤمنين بناه على القول بمدنية السورة، والأَوْلَى القول بأن الخطاب عام فالمؤمن يزداد إيماناً، والكافر تقوم عليه الحجة، وهذا الأسلوب ليس غريباً في القرآن.

قال السعدي: «﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [الحج: ٧٣]، هذا خطاب للمؤمنين والكفار، المؤمنون يزدادون علماً وبصيرة، والكافرون تقوم عليهم الحجة»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان].

هذا خطاب للناس عموماً، ويدخل فيه المشركون دخولاً أولياً كما ذكر ذلك بعض المفسرين.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: أيها المشركون من قريش»[(٣)].

وقال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ قال المفسرون: هذا خطاب لكفار مكة»[(٤)].

وهذا التفسير بأنهم المشركون من أهل مكة لا يمنع دخول غيرهم فيه؛ لعدم الدليل على التخصيص.

قال البقاعي: «ولما ظهرَت ـ بما ذكر في هذه السورة ـ دقائقَ الحكمة، . . . أمر سبحانه عباده عامةً عاصيهم ومطيعهم بالإقبال عليه، وخوّفهم ما هم صائرون إليه، منادياً لهم بأدنى أوصافهم. . . فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: عامة، ولفت الكلام إلى الوصف المذكَّر بالإحسان ترغيباً وترهيباً فقال: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾»[(٥)].

---

(١) البحر المحيط ٦/٣٥٩.
(٢) تفسير السعدي ٥٤٦.
(٣) تفسير الطبري ٢٠/١٥٨.
(٤) زاد المسير ٦/٣٢٩.
(٥) نظم الدرر ٦/٣٦.

فالصحيح بقاء الخطاب عاماً على الأصل، ولأن هذه عادة القرآن.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

فهذا الخطاب عام لجميع الناس، على اختلاف أنواعهم وأجناسهم، والأكرم عند الله تعالى هو الأتقى.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: يا أيها الناس إنا أنشأنا خلقكم من ماء ذكر من الرجال، وماء أنثى من النساء.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»[(١)].

وهذه الآية نزلت بمكة، وحكمها مدني؛ لأنها نزلت بعد الهجرة.

قال الزركشي: «ذكر ما نزل بمكة وحكمه مدني، منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ الآية، ولها قصة يطول بذكرها الكتاب، ونزولها بمكة يوم فتحها، وهي مدنية؛ لأنها نزلت بعد الهجرة»[(٢)].

فتشمل في الخطاب المؤمنين وغيرهم ولا دليل على التخصيص.

وأما الخطاب الثاني: وهو خطاب المؤمنين، فقد تكرر في القرآن كثيراً، ونداؤهم بصفة الإيمان ثُنِّي في تسعين موضعاً من كتاب الله تعالى، أغلبها في السور المدنية.

وقد رأى بعض العلماء اطراد هذا الضابط في المدني[(٣)].

قال ابن عطية تعقيباً على هذا الضابط: «وقد يجيء في المدني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وأما قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فصحيح»[(٤)].

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٠٩، وينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ١١/ ٧٠١٠، تفسير ابن كثير ٧/ ٣٨٥.

(٢) البرهان ١/ ١٩٥.

(٣) أن كل ما فيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فهو مدني.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٩٢.

وقال ابن تيمية: «فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وعز بها أهل الإيمان، وكان بها أهل الكتاب، خُوطِبَ هؤلاء وهؤلاء؛ فهؤلاء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وهؤلاء: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أو ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ولم ينزل بمكة شيء من هذا»[١].

وقال أبو حيان: «والخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ متوجه إلى من بالمدينة من المؤمنين»[٢].

ويستثنى من هذا الإطلاق سورة الحج عند من يرى أنها مكية، إذ فيها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٧٧﴾ [الحج][٣].

قال الزركشي: «خطاب المدح نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وهذا وقع خطاباً لأهل المدينة الذين آمنوا وهاجروا، تمييزاً لهم عن أهل مكة، وقد سبق أن كل آية فيها يأيها الناس لأهل مكة، وحِكْمَة ذلك: أنه يأتي بعد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: الأمر بأصل الإيمان، ويأتي بعد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: الأمر بتفاصيل الشريعة، وإن جاء بعدها الأمر بالإيمان كان من قبيل الأمر بالاستصحاب.

وقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، قيل: يرد الخطاب بذلك باعتبار الظاهر عند المخاطب، وهم المنافقون، فإنهم كانوا يتظاهرون بالإيمان، كما قال سبحانه: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ [المائدة: ٤١]»[٤].

وقال ابن عاشور: «والخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطاب للمسلمين على عادة القرآن في إطلاق هذا العنوان»[٥].

وعليه فخطاب المؤمنين واضح أنه لمن دخل في دين الله، واتصف بالإيمان على تفاوت مراتب الإيمان.

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٤٦٣.
(٢) البحر المحيط ١/ ٥٠٨.
(٣) ينظر: المكي والمدني في القرآن الكريم ١/ ١٦٧.
(٤) البرهان ٢/ ٢٢٨، ٢٢٩.
(٥) التحرير والتنوير ٢/ ٢٧٥.

وعادة القرآن بعد نداء المؤمنين الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر.

ومن ذلك الدعوة إلى ما يقتضيه الإيمان من شروطه ولوازمه ومكملاته، وأحياناً يدعوهم إلى شكر نعم الله تعالى عليهم وآلائه، وذلك بالامتثال التام لأمره ونهيه[١].

قال ابن مسعود ﷺ: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فارْعِها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»[٢].

كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة].

هذا خطاب للمؤمنين يدعوهم إلى الخير والأصلح لهم في التعامل مع اليهود.

قال أبو السعود: «﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خطاب للمؤمنين، فيه إرشاد لهم إلى الخير، وإشارة إلى بعض آخر من جنايات اليهود»[٣].

- وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة].

في هذه الآية خطاب الله تعالى للمؤمنين آمراً لهم بالصيام، وإشارة لهم بالجامع لكل ما قيل في حكمة الصيام[٤].

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

في هذه الآية حث المؤمنين على تقوى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

قال مكي: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ هذا خطاب للمؤمنين،

---

(١) ينظر: القواعد الحسان ١٨.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ١٠٧ (٣٩٤١)، وينظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٦.

(٣) تفسير أبي السعود ١/ ١٤١.

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير ١/ ٤٩٧، القواعد الحسان ٣٢.

ومعنى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ راقبوه، ودوموا على طاعته»[١].

- وقول الله جل وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ [النساء].

في هذه الآية أرشد الله فيها إلى شدة التحرُّز من الأعداء، فكل طريق وسبب يتحرز به من الأعداء فإنه داخل في هذا، ولكل وقت لبوسه[٢].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١] هذا خطاب للمؤمنين المخلصين من أمة محمد ﷺ»[٣].

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦].

هذا خطاب للمؤمنين، المراد به: دوام الإيمان وزيادته.

قال أبو حيان: «والظاهر أنه خطاب للمؤمنين، ومعنى آمنوا: دوموا على الإيمان، قاله الحسن، وهو أرجح»[٤].

قال ابن كثير: «أمر الذين آمنوا بالإيمان، وليس في ذلك تحصيل الحاصل؛ لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك، والله أعلم»[٥].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

في هذه الآية الأمر بتعظيم المحرمات والحرم[٦].

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ خطاب للمؤمنين حقاً أن لا يتعدوا حدود الله في أمر من الأمور»[٧].

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية ٢/ ١٠٨٤.
(٢) ينظر: القواعد الحسان ٨٩.
(٣) تفسير القرطبي ٥/ ٢٧٣.
(٤) البحر المحيط ٣/ ٣٨٦.
(٥) تفسير ابن كثير ١/ ١٣٩.
(٦) ينظر: تفسير الطبري ٩/ ٤٦٤.
(٧) المحرر الوجيز ٢/ ١٤٥، وينظر: تفسير القرطبي ٦/ ٣٧.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة].

هذا خطاب لجميع المؤمنين أن يجتنبوا الشهوات والعادات المحرمة، وبيان لعلة التحريم.

قال ابن عطية: «الخطاب للمؤمنين جميعاً؛ لأن هذه الأشياء شهوات وعادات قد تُلُبِّس بها في الجاهلية، وغلبت على النفوس، فكان بقي منها في نفوس كثير من المؤمنين»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠﴾ [الأنفال].

وفي هذه الآية خطاب المؤمنين بأن يطيعوا الله ورسوله، والمداومة على ذلك.

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الخطاب للمؤمنين المصدِّقين، أفردهم بالخطاب دون المنافقين إجلالاً لهم، جدَّد الله عليهم الأمر بطاعة الله والرسول ونهاهم عن التولي عنه، هذا قول الجمهور»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ [الأنفال].

وهذا خطاب للمؤمنين بالاستجابة لأمر الله تعالى ورسوله.

قال ابن عطية: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ هذا الخطاب للمؤمنين المصدقين بلا خلاف»[(٣)].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٢٧١.
(٢) تفسير القرطبي ٧/ ٣٨٧.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٨٨، وينظر: تفسير القرطبي ٧/ ٣٨٩.

في هذه الآية خاطب الله تعالى المؤمنين بتقوى الله، والحث على الصدق الذي أنجى الصادقين.

قال أبو حيان: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾، هو خطاب للمؤمنين، أُمِروا بكونهم مع أهل الصدق بعد ذكر قصة الثلاثة الذين نفعهم صدقهم وأزاحهم عن ربقة النفاق»(١).

وإذا جاء النداء بصفة الإيمان فدلالة السياق هي التي تحدد كمال الإيمان في الموصوف أو نقصها.

- كما في قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور].

قال الطبري: «وقوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: وارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله فيما أمركم ونهاكم من غضّ البصر، وحفظ الفرج، وترك دخول بيوت غير بيوتكم، من غير استئذان ولا تسليم، وغير ذلك من أمره ونهيه»(٢).

وقال السعدي: «فأما إذا كان المقام مقامَ خطاب للمؤمنين بالأمر والنهي، أو مقامَ إثبات الأحكام الدنيوية بوصف الإيمان، فإنها تتناول كل مؤمن، سواء كان متمماً لواجبات الإيمان وأحكامه، أو ناقصاً في شيء منها.

وأما إذا كان المقام مقام مدح وثناء وبيان الجزاء الكامل للمؤمن: فإنما المراد بذلك المؤمن حقاً الجامع لمعاني الإيمان»(٣).

هذا؛ وقد تبين لي ما يأتي:

١ ـ أن عادةَ القرآن تنوعُ خطاباته لمراعاة المخاطبين.

قال ابن العربي: «فإن الخطاب في القرآن لم يرد باباً واحداً»(٤).

٢ ـ أن الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ عام لجميع الخلق الذين يصلح

---

(١) البحر المحيط ٥/١١٣.
(٢) تفسير الطبري ١٩/١٦٥، وينظر: تفسير السمرقندي ٢/٥١٠، التسهيل ٢/٢٥٩.
(٣) القواعد الحسان ٧٠.
(٤) أحكام القرآن ٤/٣٦٨.

خطابهم، والمشركون من أهل مكة وغيرهم داخلون أولياً في هذا العموم، وأكثر ما يأتي بعده بيان التوحيد وأصول الإيمان، لِحاجَة المخاطَبين.

٣ ـ أن الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لكل من اتصف بالإيمان وإن قلَّ، والأسلوب مراعًى فيه حال المنادى، وغالباً ما يأتي بعده حثُّ المؤمنين على الخير أو تحذيرهم من الشر، ومن ذلك بيان التكاليف الشرعية.

وأختم بفائدة ابن القيم حيث يقول: «تأمل خطاب القرآن تجد ملِكاً له الملك كله، وله الحمد كله، أزِمَّة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه، ومرادها إليه، مستوياً على سرير ملكه، لا تخفى عليه خافية في أقطار مملكته، . . . فتأمل كيف تجده يثني على نفسه، ويمجد نفسه، ويحمد نفسه، وينصح عباده، ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم، ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبَّب إليهم بنعمه وآلائه، فيذكرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه، ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه. . .»(١).

اللَّهُمَّ اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء حزننا، برحمتك يا أرحم الراحمين.

المطلب الثاني

خطاب الرجال والنساء

عادة القرآن تغليب جمع الذكور في خطاب الرجال والنساء، وهي قاعدة أصولية مُختلف فيها معروفة: هل ما في القرآن والسُّنَّة من الجموع الصحيحة المذكرة ونحوها ـ مما يختص بجماعة الذكور ـ تدخل فيه الإناث أو لا يدخلن إلا بدليل منفصل؟.

وقبل الدخول في التفاصيل أُحرر محل البحث في هذه العادة، فأقول:

إن الجمع لا يخلو من إحدى هذه الصور:

---

(١) الفوائد ٢٨.

الأولى: أن يكون الجمع لا يصح إطلاقه على النساء، كالرجال، فهو جمع خاص بالرجال اتفاقاً.

الثانية: أن يكون الجمع لا يصح إطلاقه على الرجال؛ كالنساء، فهو جمع خاص بالنساء اتفاقاً.

الثالثة: أن يكون ذلك الجمع متناولاً للذكور والإناث لغة ووضعاً؛ كالناس فإنه يتناول الذكور والإناث بالاتفاق[١].

أما الصورة **الرابعة** التي فيها الخلاف فهي: إذا كانت علامة الذكور فيه واضحة بينة، كجمع المذكر، نحو: المؤمنين.

وقد اتفق أهل اللغة على تغليب جمع الذكور ودخول النساء فيه[٢].

والدليل على ذلك: استعمال العرب.

قال ابن فارس: «إذا جاء الخطاب بلفظ مذكر ولم يُنَصَّ فيه على ذِكر الرجال فإن ذلك الخطاب شامل للذكران والإناث، كقوله جل ثناؤه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، كذا تَعْرف العرب هذا»[٣].

وورود آيات في كتاب الله تعالى تدل على دخول النساء في الجموع الصحيحة المذكرة ونحوها.

كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة]؛ فإن حواء داخلة في قوله: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ إجماعاً[٤].

---

(١) ينظر: التمهيد لأبي الخطاب ١/ ٢٩٠، روضة الناظر لابن قدامة ٢/ ١٤٨، الإحكام للآمدي ٢/ ٢٦٥.

(٢) لسان العرب ٩/ ٩، وأشار إلى الاتفاق القاضي أبو يعلى الحنبلي في العدة ٢/ ٣٥٣، وابن النجار في شرح الكوكب المنير ٣/ ٢٣٧.

(٣) الصاحبي في فقه اللغة ١٤١.

(٤) ينظر: أضواء البيان ١/ ٣٦.

قال الطبري: «وقد اختلف أهل التأويل في المعنيِّ بقوله: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾، مع إجماعهم على أن آدم وزوجته ممن عُني به»[١].

وقال الرازي: «اختلفوا في المخاطبين بهذا الخطاب بعد الاتفاق على أن آدم وحواء عليهما السلام كانا مخاطبين به»[٢].

وقال ابن منظور: «وإنما المستجاز من ذلك رد التأنيث إلى التذكير؛ لأن التذكير هو الأصل بدلالة أن الشيء مذكر وهو يقع على المذكر والمؤنث فعلم بهذا عموم التذكير وأنه هو الأصل الذي لا ينكر»[٣].

إذن بقي اختلاف العلماء في: مسألة اندراج النساء تحت لفظ جمع المذكر؛ هل هو بالتغليب أو بأصل الوضع؟.

فقد ذهب جماعة من الحنابلة؛ كالقاضي أبي يعلى وابن قدامة[٤]**، ورواية عن الإمام أحمد، وهو قول لابن داود الظاهري**: إلى أن دخول النساء في جمع المذكر بأصل الوضع، واستدلوا بأدلة من أهمها: استخدام العرب، والآية السابقة.

وهناك رواية أخرى عن الإمام أحمد: أن النساء لا يدخلن في ذلك بأصل الوضع بل بالتغليب، **واختارها من الحنابلة أبو الخطاب**[٥]، **والطوفي**[٦] واستدلوا بأدلة من أهمها:

ـ ما روي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «يا رسول الله، ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟... فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٥٣٥.

(٢) تفسير الرازي ٣/ ١٦، وينظر: تفسير البيضاوي ١/ ٢٩٨، تفسير أبي السعود ١/ ٩١.

(٣) لسان العرب ٢/ ٥٧.

(٤) ينظر: العدة ٢/ ٣٥١، روضة الناظر ٢/ ١٤٨.

(٥) ينظر: التمهيد ١/ ٢٩١.

(٦) في شرح مختصر روضة الناظر ٢/ ٥١٥.

فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب]»[(١)].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، ثم قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١]، فعطفهن عليهم يدل على عدم دخولهن.

وحاصل القول: أن دخول النساء في جمع المذكر راجع إلى السياق والقرائن[(٢)]، فسماه بعضهم تغليباً، والآخرون أصلاً، وبهذا تتفق الأقوال[(٣)].

ولذا يستدل من قال بدخولهن بأصل الوضع بدلالة التغليب للذكور.

وأما أن يُفَسَّر قولُ من قال بدخول النساء في جمع المذكر بأصل الوضع بأنه:

ينصرف جمع المذكر للنساء كما ينصرف إلى الرجال على حد سواء فهذا لا يسُوغ؛ لأمرين:

١ ـ القطع باختصاص الذكور بهذه الصيغة لغةً واختصاصِ النساء بغيرها.

٢ ـ إجماع أهل اللغة على ذلك.

ولذا قال أبو المعالي[(٤)]: «وما ذكره هؤلاء من تغليب علامة التذكير عند محاولة التعبير عن الجنسين فصحيح في الجملة، ولكنهم لم يفهموه على وجهه؛ فإن ما ذكروه سائغ إن أريد، فأما أن يقال: وضع اللسان على أن المسلمين مسترسل على الرجال والنساء استرساله على آحاد الرجال فلا، والذي ذكروه صالح لو أريد، وليس في اللسان القضاء به إلا عند قرينة

---

(١) أخرجه أحمد ٦/٣٠١ (٢٦٥٧٥)، والطبري في التفسير ١٠/٣٠٠، والحاكم ٢/٤١٦، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) ينظر: الإتقان ٢/٣٨.

(٣) ينظر: شرح مختصر روضة الناظر ٢/٥١٦.

(٤) هو: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الطائي السنبِسي أبو المعالي الجويني الشافعي، له مصنفات من أشهرها: «البرهان»، و«الورقات في أصول الفقه»، مات سنة (٤٧٨هـ)، له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ١٨/٤٦٨، شذرات الذهب ٣/٣٥٨.

شاهدة عليه»[١].

وقال ابن عقيل الحنبلي[٢] ضمن جوابه على دليل من منع الدخول بأصل الوضع: «وإن قلنا: إنهن يدخلن، فإنما يدخلن من جهة الظاهر، فأما من جهة الصريح والنص فلا..»[٣].

وقال ابن تيمية: «ثم لا خلاف بين الفريقين أن آيات الأحكام والوعد والوعيد، التي في القرآن تشمل الفريقين وإن كانت بصيغة المذكر»[٤].

وعليه فالصواب:

أن تناول صيغة جمع المذكر للنساء بقرينة شرف الذكورية وتسمى التغليب، وهو واقع في اللغة كما سبق، وتدخل النساء في جمع المذكر حسب دلالة العرف، وكذا دلالة الشرع؛ لأن عموم الأحكام الشرعية شاملة للجنسين[٥]، وعليه جرت عادة القرآن.

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ خص الله ﷻ الإناث هنا بالخطاب على طريق التأكيد، فإن قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يكفي؛ لأنه قول عام يتناول الذكر والأنثى من المؤمنين، حسب كل خطاب عام في القرآن»[٦].

فالقرآن الكريم نزل بلغة العرب، وجاء على طريقتهم في الخطاب فإن النساء يدخلن في خطاب الرجال؛ لأن العرب تغلّب المذكر على المؤنث، فيقول الرجل: ادخلوا، واخرجوا، وهو يقصد بذلك مخاطبة جميع الموجودين من ذكور وإناث، ولا يستقيم في لغة العرب أن يقول: ادخلوا وادخلن، واخرجوا واخرجن.

---

(١) البرهان في أصول الفقه ١/ ٢٤٥.

(٢) هو: علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن أحمد البغدادي الظَّفَري، المقرئ الفقيه الحنبلي الأصولي الواعظ المتكلم، أبو الوفاء، من مصنفاته: «الفنون»، «الواضح في أصول الفقه»، «الجدل على طريقة الفقهاء»، مات سنة (٥١٣هـ)، له ترجمة في: طبقات الحنابلة ٢/ ٢٥٩، غاية النهاية في طبقات القراء ١/ ٥٥٦.

(٣) الواضح ٣/ ١٣١، وهو من القائلين بدخول النساء في خطاب المذكر بأصل الوضع.

(٤) مجموع الفتاوى ٦/ ٤٣٨.

(٥) ينظر: شرح الكوكب المنير ٣/ ٢٣٦.

(٦) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٢٦.

وقد عُلم أيضاً بأدلة الشريعة ومقاصدها أن التكليف بالأحكام الشرعية موجَّهٌ إلى الرجال والنساء، فالجميع مكلَّفون ومخاطبون ومحاسبون ومثابون ومعاقبون. فاشتراك الرجال والنساء في جميع الأحكام هو الأصل المطَّرد إلا ما خصته الشريعة بالرجال دون النساء؛ كتحريم الذهب والحرير، ووجوب الجمعة والجهاد، وما خصته بالنساء دون الرجال؛ كالحجاب، ورعاية الأولاد، وغير ذلك مما تقتضيه طبيعة كل من النوعين، والله أعلم.

قال ابن تيمية: «وقد عهدنا من الشارع في خطابه أنه يعم القسمين ويدخل النساء بطريق التغليب»(١).

ومن الأمثلة على ذلك:

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٨٣﴾ [الأعراف].

جاء بجمع المذكر ليعُم المذكر والمؤنث من الباقين.

قال الطبري: «وقيل: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٨٣﴾، ولم يقل: الغابرات؛ لأنه أريد أنها ممن بقي مع الرجال، فلما ضم ذكرها إلى ذكر الرجال قيل: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٨٣﴾»(٢).

وقال الزمخشري: «﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٨٣﴾ من الذين غبروا في ديارهم؛ أي: بقوا فهلكوا، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث»(٣).

وقال ابن جزي: «إنما قال: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٨٣﴾ بجمع المذكر تغليباً للرجال الغابرين»(٤).

وقوله جل وعلا في امرأة العزيز: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ۝٢٩﴾ [يوسف].

عَدَل من جمع المؤنث إلى جمع المذكر من باب التغليب، وأل للاستغراق.

قال البيضاوي: «﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ۝٢٩﴾ من القوم المذنبين

---

(١) مجموع الفتاوى ٦/٤٣٦.
(٢) تفسير الطبري ١٢/٥٥١.
(٣) الكشاف ٢/١١٩، وينظر: تفسير البيضاوي ٣/٣٨، تفسير النسفي ٢/٢٣.
(٤) التسهيل ١/٤٠٢.

من خطئ إذا أذنب متعمداً والتذكير للتغليب»[(١)].

وقال أبو حيان: «ثم ذكر سبب الاستغفار وهو قوله: لذنبك، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ۝٢٩﴾، ولم يقل: من الخاطئات؛ لأن الخاطئين أعم؛ لأنه يطلق على الذكور والإناث بالتغليب»[(٢)].

وقال القرطبي: «﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ۝٢٩﴾ ولم يقل: من الخاطئات؛ لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث، فغلب المذكر، والمعنى: من الناس الخاطئين، أو من القوم الخاطئين، مثل: ﴿إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ۝٤٣﴾ [النمل]، ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ۝١٢﴾ [التَّحريم]»[(٣)].

وقال أبو السعود: «﴿مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ۝٢٩﴾ من جملة القوم المعتمدين للذنب أو من جنسهم، يقال: خطئ إذا أذنب عمداً، وهو تعليل للأمر بالاستغفار، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث»[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ۝٤٣﴾ [النمل].

فلم تأت الآية بجمع المؤنث؛ لأن الإخبار عن المؤنث والمذكر، فغلب المذكر[(٥)].

- وقوله تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ۝١٢﴾ [التَّحريم].

ففي هذه الآية غُلِّب جمع المذكر مع أن السياق في مؤنث دخل في جمع المذكر من باب التغليب المعروف عند العرب.

قال البيضاوي: «﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ۝١٢﴾ من عداد المواظبين على الطاعة، والتذكير للتغليب»[(٦)].

---

(١) تفسير البيضاوي ٣/ ٢٨٤.
(٢) البحر المحيط ٥/٢٩٨.
(٣) تفسير القرطبي ٩/ ١٧٥.
(٤) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٠.
(٥) ينظر: تفسير القرطبي ٩/١٧٥.
(٦) تفسير البيضاوي ٥/٣٥٩، وينظر: تفسير أبي السعود ٨/ ٢٧٠.

قال أبو حيان: «﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ غلَّب الذكورية على التأنيث، والقانتين شامل للذكور والإناث»[(١)].

وقال الزركشي: «وقوله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾، وقوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف]، والأصل من القانتات والغابرات، فعُدَّت الأنثى من المذكر بحكم التغليب»[(٢)].

وبعد؛ فهذه نماذج من كتاب الله تعالى في خطاب البشر رجالاً ونساءً، والمرأة على عادة القرآن داخلة فيما يصلح لها من خطابات القرآن، فهي داخلة في خطاب الله تعالى للناس على وجه العموم، فيما يدعوهم إليه، وهي داخلة في خطاب الله تعالى للمؤمنين، في كل الأوامر والنواهي، إلا ما دل عليه الدليل، وهي داخلة في خطاب الذكور حسب دلالة السياق في عرف اللغة، وفي عُرْف الشرع، وهذا من كمال الشريعة، وجمال اللغة، وهو من التميز الذي عُرِف به الأسلوب القرآني في اختيار اللفظ المؤدي للمعنى الجامع، والله تعالى أعلم.

المطلب الثالث

خطاب العام وخطاب الخاص

الأصلُ حمل خطابات القرآن العامة على عموم لفظها ما لم يرد نصٌّ بالتخصيص، فقد كان السلف رضوان الله عليهم يطلبون دليل الخصوص لا دليل العموم[(٣)].

ولهذا فمعرفة العام والخاص مهمٌّ في فهم الآية ودلالتها.

قال الزركشي: «قال القفال: ومن ضبط هذا الباب أفاد علماً كثيراً»[(٤)].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٩٠.
(٢) البرهان ٣/ ٣٠٢.
(٣) قال أبو يعلى: «فإن المسألة إجماع الصحابة ﷺ» وذكر ما يؤيد ذلك، ينظر: العدة في أصول الفقه ٢/ ٤٩٢، الواضح ٣/ ٣١٧.
(٤) البرهان ٢/ ١٩.

والعام: هو اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له[١].

والخاص: هو قصر العام على بعض أفراده بدليل[٢].

وقد خاطب الله تعالى الناس في القرآن على أنواع مختلفة، فاجتمع فيه خطاب الخاص وخطاب العام على جميع وجوهه.

ولم يخرج غالب من كَتَبَ في العام والخاص القرآني من بحوث علماء أصول الفقه، إلا في الشيء القليل.

وعادة القرآن في الخطاب الشرعي العام بقاؤه على العموم، إلا ما خصه الدليل[٣].

قال الطبري: «وغير جائز ادعاء خصوصٍ في آيةٍ عامٌّ ظاهرها إلا بحجة يجب التسليم لها»[٤].

وقال القرطبي: «والأصل عموم الخطاب، فمن ادعى زواله لأمر ما فعليه الدليل»[٥].

وأمثلة هذا كثيرة منها:

- ما ذكره الطبري بعد ذكر أقوال السلف في المراد بالبقرة الواردة في سورة البقرة: «وهذه الأقوال التي ذكرناها عمَّن ذكرناها عنه ـ من الصحابة والتابعين والخالفين بعدهم، من قولهم: إن بني إسرائيل لو كانوا أخذوا أدنى بقرة فذبحوها أجزأت عنهم، ولكنهم شدَّدوا فشدد الله عليهم، **من أوضح الدلالة على أن القوم كانوا يرون أن حكم الله، فيما أمرَ ونهى في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، على العموم الظاهر، دون الخصوص الباطن، إلا أن يَخُصَّ بعض ما عمَّهُ ظاهرُ التنزيل**، كتاب من الله أو رسولُ الله، وأن التنزيل أو الرسول إن خص بعض ما عمَّه ظاهر التنزيل بحكم خلافِ ما دل عليه الظاهر؛

(١) ينظر: العدة ١/ ١٥٥، شرح الكوكب المنير ٣/ ١٠٢.
(٢) ينظر: شرح الكوكب المنير ٣/ ٢٦٧، التأسيس في أصول الفقه ٣٤٩.
(٣) ينظر: قواعد الترجيح عند المفسرين ٢/ ٥٢٧.
(٤) تفسير الطبري ٢/ ٤٦٤.
(٥) تفسير القرطبي ٢/ ٢٣٤.

فالمخصوص من ذلك خارج من حكم الآية التي عمَّت ذلك الجنس خاصة، وسائر حكم الآية على العموم»[(١)].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

قال البيضاوي: «الخطاب عام كان رسول الله ﷺ مبعوثاً إلى كافة الثقلين، وسائر الرسل إلى أقوامهم»[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠].

قال ابن جزي: «خطاب عام؛ لأن النبي ﷺ بُعِث إلى جميع الناس»[(٣)].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

قال الزمخشري: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ الخطاب عام لكل أحد في كل أمانة»[(٤)].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١].

قال ابن عطية: «﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ﴾ هذا خطاب عام لجميع العالم، وأمروا بهذه الأشياء بسبب عصيان حاضري ذلك الوقت من مشركي العرب فيها»[(٥)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحج].

قال القرطبي: «المسافر يخاطب بالأضحية كما يخاطب بها الحاضر، إذ الأصل عموم الخطاب بها، وهو قول كافة العلماء»[(٦)].

---

(١) تفسير الطبري ٢/ ٢٠٧.
(٢) تفسير البيضاوي ٣/ ٦٥.
(٣) التسهيل ١/ ٢٩٢.
(٤) الكشاف ١/ ٥٥٥.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٧.
(٦) تفسير القرطبي ١٢/ ٤٧.

- وقوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٥٠].

قال أبو السعود: «فإن الخطاب عام لكافة المؤمنين المنتشرين في الآفاق من الحاضرين والمسافرين»[(١)].

وكما أن التكاليف بالأوامر والنواهي على درجات، فكذلك العموم في التكاليف متفاوت، فهناك عموم وعموم أعم منه، فيراعى في ذلك سياق الآية[(٢)].

قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

قال ابن تيمية: «ومن المعلوم بالاضطرار تفاضل المأمورات: فبعضها أفضل من بعض، وبعض المنهيات شر من بعض»[(٣)].

وعادة القرآن كذلك بقاء عموم أخباره حتى يأتي ما يخصصها.

- وقد نص عليها الطبري في مواضع كثيرة، ويرجح بها، حيث يقول بعد ذكر الخلاف في الأسير في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان]: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله وصف هؤلاء الأبرار بأنهم كانوا في الدنيا يطعمون الأسير، والأسير الذي قد وصفت صفته؛ واسم الأسير قد يشتمل على الفريقين، وقد عمّ الخبر عنهم أنهم يطعمونهم فالخبر على عمومه حتى يخصه ما يجب التسليم له»[(٤)].

- وقال مرجحاً للعموم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى]: «والصواب من القول في ذلك عندنا، أن الله عمّ بقوله: ﴿فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ الخبر عن هدايته خلقه، ولم يخصص من ذلك معنى دون معنى، وقد هداهم لسبيل الخير والشرّ، وهدى الذكور لمأتى الإناث، فالخبر على عمومه حتى يأتي خبر تقوم به الحجة دالّ على خصوصه»[(٥)].

---

(١) تفسير أبي السعود ١/١٧٨.

(٢) فقد يكون العموم للناس كافة، وقد يكون لعموم المؤمنين، وهكذا.

(٣) مجموع الفتاوى ١٧/٦١.

(٤) تفسير الطبري ٢٤/٩٨.

(٥) تفسير الطبري ٢٤/٣٦٩.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة].

لما ذكر أبو بكر بن العربي الخلاف في المراد بالمساجد، قال: «الرابع: أنه كل مسجد، وهو الصحيح؛ لأن اللفظ عام ورد بصيغة الجمع، فتخصيصه ببعض المساجد، أو بعض الأزمنة محال»(١).

وقال البيضاوي: «﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ عام لكل من خرَّب مسجداً أو سعى في تعطيل مكان مرشح للصلاة»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

فالخطاب عام في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾(٣).

قال الزمخشري: «﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ الخطاب عام»(٤).

وقال ابن جزي: «﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ خطاب عام لجميع الناس؛ لأن علمهم قليل بالنظر إلى علم الله، وقيل: خطاب لليهود خاصة، والأول أظهر؛ لأن فيه إشارة إلى أنهم لا يصلون إلى العلم بالروح»(٥).

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء].

قال ابن الزِّبعرى(٦): «لأخصمن محمداً، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال:

---

(١) أحكام القرآن ١/ ٥٩.
(٢) تفسير البيضاوي ١/ ٣٨٥.
(٣) ينظر: تفسير النسفي ٢/ ٢٩٨.
(٤) الكشاف ٢/ ٦٤٥.
(٥) التسهيل ٢/ ١١٨.
(٦) هو: عبد الله بن الزِّبعرى بن قيس أبو سعد القرشي السهمي الشاعر، كان شديداً على المسلمين في الجاهلية، أسلم بعد الفتح، واعتذر ومدح النبي ﷺ، فقبل منه وعذره وأحسن إليه، له ترجمة في: الإصابة ٤/ ٨٧، طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٣٣ وما بعدها.

قد عُبِدت الملائكة، وعُبِد المسيح، أفيدخلون النار؟! فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء]»[١].

هذا ما ذكره عامة المفسرين في سبب نزول هذه الآية، ومنهم: الطبري[٢]، والسمرقندي[٣]، والسمعاني[٤]، والبغوي[٥]، وابن عطية[٦]، وغيرهم[٧].

وفيه دليل على أن صيغة العموم تدل على الاستغراق، بدليل استدلال ابن الزبعرى بعموم اللفظ، ولم ينكر عليه النبي ﷺ هذا الفهم؛ بل أنزل الله الآية التي تبين حكم الله فيمن ذكر كعيسى والملائكة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء]، وهذا استدلال صحيح؛ فلا بد من دليل خاص لإخراج شيء من لفظ العموم.

قال الزركشي: «وقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء]، ومعلوم أنه لم يرد به المسيح وعزيراً؛ فنزلت الآية مطلقة اكتفاء بالدلالة الظاهرة على أنه لا يعذبهما الله وكان ذلك بمنزلة الاستثناء باللفظ، فلما قال المشركون: هذا المسيح وعزير قد عُبِدا من دون الله أنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء]»[٨].

وقال الرازي: «هب أنه ثبت العموم، لكنه مخصوص بالدلائل العقلية والسمعية في حق الملائكة والمسيح وعزير؛ لبراءتهم من الذنوب والمعاصي، ووعد الله إياهم بكل مكرمة»[٩].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ١٥٣ (١٢٧٣٩)، والواحدي في أسباب النزول ص٢٥٢، وذكره الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول ص١٣٥، وينظر: مجمع الزوائد ٧/ ٦٩.

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٤١٩.

(٣) تفسير السمرقندي ٢/ ٤٤٢.

(٤) تفسير السمعاني ٣/ ٤١٠.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٧.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٠١.

(٧) ينظر: زاد المسير ٥/ ٢٨٨، تفسير الرازي ٢٢/ ١٩٣، تفسير القرطبي ١١/ ٣٤٣.

(٨) البرهان ٢/ ١٨٦.

(٩) تفسير الرازي ٢٢/ ١٩٣.

وذهب **بعض العلماء** إلى أن الصيغة لا تفيد العموم.

وأجابوا عن سؤال ابن الزبعرى بأجوبة منها:

١ ـ أن الخطاب لأهل مكة، و[مَا] في الآية لغير العالم فلا يدخل إلا الأصنام التي عبدوها، وفي إدخالها النار زيادة ذل ومهانة لعابديها، فكيف يورد هذا على المسيح والملائكة(١).

٢ ـ أن من عبد الملائكة لا يدعي أنهم آلهة؛ لقوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء: ٩٩](٢).

وهذه الأجوبة وإن كانت محتملة في هذه الآية؛ إلا أن بقاء اللفظ العام على عمومه هو الأولى والأقوى والأظهر(٣) لأمور منها:

الأول: أن ابن الزبعرى استدل بـ[مَا] في الآية على العموم، وهو حجة في اللغة(٤).

الثاني: أكّد ذلك أنه لم ينكر عليه النبي ﷺ، بل جاءت الآية الأخرى مبينة لها.

الثالث: أن لفظة [مَا] وإن كان استعمالها لغير العالم فقد تستعمل للعالم، كما قال تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝﴾ [الكافرون].

الرابع: أنه على فرض خطأ استدلال ابن الزبعرى كما ذكر بعض العلماء، فلا يمنع من بقاء الاستدلال بالعموم على عمومه، ويكون المانع له في هذا الدليل صوارف غير لفظ العموم، والله تعالى أعلم.

---

(١) ينظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٤٤٢، تفسير السمعاني ٣/ ٤١٠، تفسير البغوي ٣/ ٢٢٧، تفسير ابن كثير ٥/ ٢٣٤٩.

(٢) تفسير الرازي ٢٢/ ١٩٣.

(٣) وهذه مسألة أطال فيها الأصوليون، فينظر مثلاً: العدة ٢/ ٤٨٥، الإحكام للآمدي ٢/ ١٨٥، الإحكام لابن حزم ١/ ٣٣٨، شرح الكوكب المنير ٣/ ١٠٨، شرح مختصر روضة الناظر ٢/ ٤٦٥، تفسير الرازي ٢٢/ ١٩٣.

(٤) ينظر: العدة ٢/ ٤٩٠.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر].

قال جماعة من المفسرين: المراد بالإنسان الجنس؛ فيعم كل الناس، وبهذا فسره الطبري[(١)]، والزجاج[(٢)]، وابن الجوزي[(٣)]، والقرطبي[(٤)]، وغيرهم[(٥)].

قال الزجاج: «الإنسان ههنا في معنى الناس، كما تقول: كثر الدرهم والدينار في أيدي الناس، تريد قد كثر الدراهم»[(٦)].

ودليلهم: أن الله سبحانه استثنى من الإنسان جماعة فدل على أن المراد عموم الناس.

قال الطبري: «واستثنى الذين آمنوا عن الإنسان؛ لأن الإنسان بمعنى الجمع لا بمعنى الواحد»[(٧)].

وقال الفراء: «﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر: ٣] استثنى كثيراً من لفظ واحد؛ لأنه تأويل جِمَاع»[(٨)].

وذهب بعض العلماء إلى أن الإنسان هنا بمعنى الكافر[(٩)]، ومنهم السمرقندي[(١٠)]، والواحدي[(١١)]، وأشار إليه النحاس[(١٢)].

قال السمرقندي: «يعني: أبا جهل، والوليد بن المغيرة، ومن كان في مثل حالهم»[(١٣)].

وقال الواحدي: «يعني: الكافر العامل لغير طاعة الله»[(١٤)].

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٦١٢.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٥٩.
(٣) زاد المسير ٨/ ٣١٦.
(٤) تفسير القرطبي ٢٠/ ١٨٠.
(٥) ينظر: تفسير البيضاوي ٥/ ٥٢٦، تفسير النسفي ٤/ ٣٧٥، تفسير ابن كثير ٨/ ٣٨٥٣، الوجوه والنظائر للدامغاني ٥٢.
(٦) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٥٩.
(٧) تفسير الطبري ٢٤/ ٦١٤.
(٨) معاني القرآن ٢/ ٥.
(٩) ينظر: تفسير الرازي ٣٢/ ٨٢.
(١٠) تفسير السمرقندي ٣/ ٥٩٠.
(١١) الوجيز ٢/ ١٢٣١.
(١٢) ينظر: معاني القرآن ٤/ ٢٥٩.
(١٣) تفسير السمرقندي ٣/ ٥٩٠.
(١٤) الوجيز ٢/ ١٢٣١.

وقال البغوي في استدلالهم: «قيل: أراد به الكافر بدليل أنه استثنى المؤمنين»[(١)].

والذي يظهر لي أن هذا الدليل لا يقوى على تخصيص اللفظ العام ببعض أجزائه، ويضاف إلى ذلك أن الاستثناء سيكون على هذا التفسير منقطعاً، وهذا خلاف الأصل، فيبقى الاستثناء دليلاً قوياً للقول الأول.

كما أن مما يُستدل لهم به: أن استعمال لفظ الإنسان في القرآن إنما يراد به الكافر؛ لأن هذا اللفظ من خصائص المكي، وهذا أيضاً غير مسَلَّم؛ لأنه ينخرم عليهم في مواضع عدة من كتاب الله تعالى.

قال القرطبي: «وأما من قال: إن قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، مكي حيث وقع فليس بصحيح، فإن البقرة مدنية، وفيها قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، في موضعين»[(٢)].

فالحق والصواب أن المراد في الآية: عموم الناس؛ **لأمور منها**:

١ ـ أن هذا هو ما عليه اختيار جماهير العلماء من المفسِّرين وغيرهم[(٣)].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر: ٣] استثناء من الإنسان، إذ هو بمعنى الناس على الصحيح»[(٤)].

٢ ـ أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولم أجد دليلاً صحيحاً لمن خصَّه بأسماء معينة[(٥)]، قال ابن حجر: «تنبيه: لم أر في تفسير هذه السورة ـ يعني: سورة العصر ـ حديثاً مرفوعاً صحيحاً»[(٦)].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٩١.
(٢) تفسير القرطبي ١/٥، والموضعان: آية: ٢١، وآية: ١٦٩.
(٣) سبقت الإشارة إلى عدد منهم، وينظر: غريب الحديث لابن قتيبة ١/ ٦٤٢، البرهان للزركشي ٥/٧، أضواء البيان ٦/ ١٣٧.
(٤) تفسير القرطبي ٢٠/ ١٨٠.
(٥) ينظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٥٩٠.
(٦) فتح الباري ٨/ ٩٤٥، وينظر: تفسير السمعاني ٦/ ٢٧٩.

٣ ـ أن الأصل كذلك: بقاء العموم على عمومه حتى يأتي ما يقوى على تخصيصه.

قال الشنقيطي: «وقيل: خاص بالكافر، والأول أرجح للعموم»[(١)].

٤ ـ أن: ﴿الَّذِينَ﴾ [العصر: ٣] اسم موصول يدل على جماعة، والجماعة لا تُستثنى من واحد، فدل ذلك على أنه أراد بالإنسان الجنس[(٢)].

٥ ـ أنه لو كان المراد بالإنسان في الآية الكافر لما احتيج إلى استثناء المؤمنين[(٣)].

والله تعالى أعلم.

والأمثلة في هذا كثيرة.

والحاصل منها: أن خطاب الشرع في القرآن عامٌّ لكل من يصلح له حتى يأتي ما يخصِّصه، فيُطْلب الدليل على الخصوص لا على العموم.

وكذلك نصوص الأخبار في القرآن الأصل حملها على العموم حتى يرد ما يخصِّصها.

قال ابن تيمية: «فإنه إذا عُرِف المتكلم فُهم من معنى كلامه، ما لا يفهم إذا لم يُعرف؛ لأنه بذلك يعرف عادته في خطابه، واللفظ إنما يدل إذا عرف لغة المتكلم التي بها يتكلم وهي عادته وعرفه التي يعتادها في خطابه، ودلالة اللفظ على المعنى دلالة قصدية إرادية اختيارية، فالمتكلم يريد دلالة اللفظ على المعنى؛ فإذا اعتاد أن يعبر باللفظ عن المعنى كانت تلك لغته، ولهذا كل من كان له عناية بألفاظ الرسول ومراده بها: عرف عادته في خطابه، وتبين له من مراده ما لا يتبين لغيره.

ولهذا ينبغي أن يقصد إذا ذكر لفظ من القرآن والحديث أن يذكر نظائر ذلك اللفظ، ماذا عنى بها الله ورسوله؟ فيعرف بذلك لغة القرآن والحديث

---

(١) أضواء البيان ٦/ ١٣٧.
(٢) ينظر: النكت والعيون ٦/ ٣٣٣، تفسير الرازي ٣٢/ ٨٢.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٣١.

وسُنَّة الله ورسوله التي يخاطب بها عباده، وهي العادة المعروفة من كلامه، ثم إذا كان لذلك نظائر في كلام غيره وكانت النظائر كثيرة؛ عرف أن تلك العادة واللغة مشتركة عامة لا يختص بها هو ﷺ بل هي لغة قومه، ولا يجوز أن يُحمل كلامه على عادات حدثت بعده في الخطاب لم تكن معروفة في خطابه وخطاب أصحابه، كما يفعله كثير من الناس، وقد لا يعرفون انتفاء ذلك في زمانه..»(١).

ومن وجوه المخاطبات في القرآن الخطاب الخاص.

- كقوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦].
- وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٣٥].
- وقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدُّخان].
- وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].
- وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وغيرها(٢).

فهذه وإن كانت خاصة إلا أن فيها عموماً نسبياً، وحملها على العموم الذي يصلح لها هو الصواب.

ولذلك قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٣٥]: «هي خاصة في المسلمين فيمن لم يؤدِّ زكاة ماله منهم، وعامة في أهل الكتاب؛ لأنهم كفار لا تقبل منهم نفقاتهم إن أنفقوا»(٣).

وقال البغوي: «وقال الأكثرون: هي عامة في أهل الكتاب والمسلمين»(٤).

وقال ابن جزي: «﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدُّخان]، يقال

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ١١٥.
(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٢/ ٢١٧، ٢١٨.
(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٢٢٥.
(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٤.

هذا للكافر على وجه التوبيخ والتهكم به»[١].

والذي يرجحه المحققون عموم حكم الخطاب لجميع المكلفين الذين حالهم كحال ذلك الذي نزل فيه القرآن، وجماهير العلماء على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[٢].

قال الشاطبي: «غالب الأدلة الشرعية وعمدتها هي العمومات»[٣].

ومما يؤكد هذه العادة: عدم ذكر من كان سبباً في النزول في أكثر آيات القرآن التي لها سبب صحيح، بل يأتي اللفظ عاماً ليكون تشريعاً لجميع أهل الإسلام بدلالة العموم.

قال ابن تيمية: «والآية التي لها سبب معين، إن كانت أمراً ونهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممن كان بمنزلته أيضاً»[٤].

والقائلون بالعموم أرادوا أن عمومه عُرف بطريق العرف الشرعي، فالأصل في التشريع العموم، ولا يخصص به فرد إلا بدليل قوي يدل على الخصوصية.

ويدل على ثبوت العرف الشرعي آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ويؤيد ذلك الإجماع على عموم حُكْم السرقة واللعان والظهار وغيرها مع أن سببها كان خاصّاً.

قال الطوفي: «أكثر أحكام الشرع العامة وردت لأسباب خاصة؛ كورود

(١) التسهيل ٣/ ٣٣.
(٢) ينظر: الإبهاج ٢/ ١٨٥، إرشاد الفحول ١/ ٣٣٢.
(٣) الموافقات ٤/ ٤٦.
(٤) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٣٩.

حكم الظهار في أوس بن الصامت، وحكم اللعان في شأن هلال بن أمية، فلو كان السبب الخاص يقتضي اختصاص العام به، لما عمت هذه الأحكام، لكنه باطل بالإجماع»(١).

ومن أنكر عموم الخطاب الموجه لواحد من الأمة، قالوا: يلحق به غيره من المكلفين ممن حاله كحاله بطريق القياس.

فالخلاف بينهم: في أن عمومه بطريق النقل العرفي أو بطريق القياس.

والذي يظهر أن القول بالعموم أولى؛ لأن القائل به لا يحتاج إلى البحث عن علة الحكم وتحققها في بقية المكلفين، بخلاف من قال بالقياس، فإنه يحتاج إلى ذلك.

قال الشوكاني(٢): «والحاصل في هذه المسألة على ما يقتضيه الحق، ويوجبه الإنصاف عدم التناول لغير المخاطب من حيث الصيغة، بل بالدليل الخارجي، وقد ثبت عن الصحابة فمن بعدهم الاستدلال بأقضيته ﷺ الخاصة بالواحد، أو الجماعة المخصوصة على ثبوت مثل ذلك لسائر الأمة، فكان هذا مع الأدلة الدالة على عموم الرسالة، وعلى استواء أقدام هذه الأمة في الأحكام الشرعية مفيداً لإلحاق غير ذلك المخاطب به في ذلك الحكم عند الإطلاق إلا أن يقوم الدليل الدال على اختصاصه بذلك»(٣).

وبهذا يظهر لي أن الأصل في نصوص الشرع العموم حتى ولو كان اللفظ خاصاً باللغة والوضع، حتى يأتي دليل على التخصيص والحصر(٤)، فإن المعتبر هو عرف الشارع وعادة القرآن، والله تعالى أعلم.

---

(١) شرح مختصر الروضة ٢/٥٠٣.

(٢) هو: محمد بن علي بن محمد الشوكاني أبو عبد الله الصنعاني، فقيه مجتهد، ومن تصانيفه: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، فتح القدير، مات سنة (١٢٥٠هـ)، له ترجمة في: البدر الطالع ٢/١٠٦، الأعلام ٦/٢٩٨.

(٣) إرشاد الفحول ١/٣٢٥.

(٤) أي: ببعض أفراد العام دون من يماثلهم بالصفة.

المبحث الثالث

انتقال الكلام من أسلوب إلى أسلوب

وفيه ستة مطالب:

- المطلب الأول: انتقال الكلام من التكلم إلى الخطاب.
- المطلب الثاني: انتقال الكلام من الخطاب إلى التكلم.
- المطلب الثالث: انتقال الكلام من الغيبة إلى التكلم.
- المطلب الرابع: انتقال الكلام من التكلم إلى الغيبة.
- المطلب الخامس: انتقال الكلام من الخطاب إلى الغيبة.
- المطلب السادس: انتقال الكلام من الغيبة إلى الخطاب.

❑ **تمهيد:**

من عادات القرآن البيانية: انتقال الكلام ـ في السياق الواحد ـ من أسلوب إلى أسلوب آخر، وهذا مما تميز به القرآن، واختصت به لغة العرب، ونال عناية علماء التفسير والبلاغة في القديم والحديث[(١)].

وأبرز مثال على ذلك ما اصطلح عليه الجمهور بـ: أسلوب الالتفات،

---

(١) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ١٢، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ١٧٧، الكامل في اللغة والأدب للمبرد ٣/ ١٧، الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ١٦٣ ـ ١٦٤، المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٨، الكشاف للزمخشري ١/ ٥٦، ١٢٠، ١٦٩، تفسير البيضاوي ١/ ٢١٥، ٢٦٨، ٣٢٥، الإكسير في علم التفسير للطوفي ١٥٣ ـ ١٥٦، الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ٧٢ ـ ٨٠، البحر المحيط لأبي حيان ١/ ١٤١، ١٦٧، ٣٠٢، والدر المصون للسمين الحلبي ١/ ٤٥، ١٤٩، ٢٠٢، تفسير أبي السعود ١/ ١٢، ١٦، ١٢٧، روح المعاني للألوسي ١/ ٧٣، ٨٩، ٢٥٢، التحرير والتنوير لابن عاشور ١/ ١٠٩، ١١٦، ١٧٨، ١٨٠، وغيرها.

وحقيقته: انتقال الضمير من أحد طرق الكلام ـ التكلم، أو الخطاب، أو الغيبة ـ إلى طريق آخر منها[١].

قال السيوطي: (هذا هو المشهور)[٢].

وهو كثير في كلام العرب نثراً ونظماً[٣].

وتوسع ابن الأثير في مصطلح الالتفات فأدخل فيه ـ إضافةً إلى الضمائر ـ الالتفات في الأفعال، والأعداد، وامتدح هذا الأسلوب بقوله: «وهذا النوع ـ الالتفات ـ من خلاصة علم البيان التي حولها يُدَنْدَن، وإليها تستند البلاغةِ، وعنها يُعَنعن، وحقيقته: مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشمالهِ، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة؛ لأنه ينتقل فيه عن صيغة إلى صيغة،... ويسمى أيضاً: شجاعة العربية؛ وإنما سمي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام، وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورّد ما لا يتورّده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات»[٤].

وقال ابن عاشور: «نرى من أفانين الكلام: الالتفات، وهو نقل الكلام من أحد طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى طريق آخر منها، وهو بمجرده معدود من الفصاحة، وسماه ابن جني: شجاعة العربية[٥]؛ لأن ذلك التغيير يجدد نشاط السامع، فإذا انضم إليه اعتبار لطيف يناسب الانتقال إلى ما انتقل إليه صار من أفانين البلاغة، وكان معدوداً عند بلغاء العرب من النفائس، وقد جاء منه في القرآن ما لا يحصى كثرة مع دقة المناسبة في الانتقال»[٦].

وبغضِّ النظر عن المصطلح فإن انتقال أسلوب الكلام في القرآن من وجه

---

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة ٧٤، البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣١٤.
(٢) الإتقان ٢/ ١٨٤.
(٣) عَدَّهُ ابن فارس في فقه اللغة: من سنن العرب في حقائق الكلام ١٤٩.
(٤) المثل السائر ٢/ ٣.
(٥) وكذا سماه الطوفي في الإكسير ١٥٣.
(٦) التحرير والتنوير ١/ ١٠٩.

إلى آخر، من عادة القرآن الظاهرة، وقد ربطه البلاغيون ببلاغة العرب وعاداتهم وأساليبهم، ولهذا فهم يستكثرون منه؛ لكونه أجمل في القبول عند السامع، وأحسن تطرية لنشاطه، وأعظم للإصغاء إليه.

وأمثلته في كتاب الله تعالى لا تحصى، بل إن هذه الانتقالات في طرق الكلام ارتبطت بأساليب القرآن الكريم وإعجازه وبلاغته، وهذا مما يُظهر أهمية دراسة هذه الأساليب ومعرفة أسرارها.

وفي هذا المبحث التركيز على عادة القرآن في تحولات الخطاب القرآني بين الأساليب الثلاثة: التكلم، والخطاب، والغيبة، والقسمة العقلية تجمعها في ست صور، كلها تحققت في القرآن على تفاوت في كثرة ورودها، هو ما سيسطر في هذا المطلب وما يليه بإذن الله تعالى.

المطلب الأول

انتقال الكلام من التكلم إلى الخطاب

المراد به: أن يجري سياق الكلام على ضمير التكلم ثم يتحول إلى ضمير الخطاب، وتتمثل بلاغة هذا الأسلوب في حث السامع على الاستماع حيث أقبل المتكلم عليه، وأعطاه فَضْل عناية، وخصه بالمواجهة[١].

كقوله تعالى في حكاية مقالة الرجل المؤمن الذي كان يدعو قومه: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [يس].

فالالتفات في الآية: هو في انتقال الكلام من المتكلم في قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾ إلى المخاطب وهو قوله: ﴿تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

فجاء على طريقة التكلم، ثم قال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾، ولو جاء الكلام على مقتضى السياق لكان: وإليه أرجع؛ ليتناسب مع المتكلم، ولكنه جاء على طريقة الالتفات، وفيه شدة تحذير لهم، وتنبيه إلى أنهم صائرون إلى الله وراجعون إليه، ولا يتأتى هذا لو قال: وإليه أرجع؛ لأن في

---

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣١٥.

الالتفات التنبيه برجوعهم إلى من يكفرون به، فيكون أبلغ تأثيراً بهم من التكلم عن النفس.

ولهذا أُخرج الكلام هنا في سياق مناصحة المتكلم لنفسه، وهو يريد نصح قومه تلطفاً وإعلاماً أنه يريده لنفسه، ثم التفت إليهم لغرض تخويفهم ودعوتهم إلى الله[١].

قال الزركشي: «ومن فوائد الالتفات: التنبيه على ما حقُّ الكلام أن يكون وارداً عليه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾ [يس]، أصل الكلام: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم، ولكنه أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم، ويريهم أنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه، ثم لما انقضى غرضه من ذلك قال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾؛ ليدل على ما كان من أصل الكلام ومقتضياً له، ثم ساقه هذا المساق، إلى أن قال: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾ [يس]»[٢].

وقال الشوكاني: «ثم أبرز الكلام في معرض النصيحة لنفسه، وهو يريد مناصحة قومه، فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾؛ أي: أيُّ مانع من جانبي يمنعني من عبادة الذي خلقني، ثم رجع إلى خطابهم لبيان أنه ما أراد نفسه بل أرادهم بكلامه، فقال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾، ولم يقل: وإليه أرجع، وفيه مبالغة في التهديد»[٣].

- وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٤﴾ [يونس].

في هذه الآية التفات في قوله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾، صيغة خطاب، وكان السياق بصيغة التكلم في قوله: ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ﴾، وكان المقتضى لاستمرار المقطع على صيغة واحدة: ولكن أعبد الله الذي يتوفاني.

---

(١) ينظر: الإتقان ٢/ ١٨٤. (٢) البرهان ٣/ ٣٢٨.

(٣) فتح القدير ٤/ ٥١٨، وينظر: روح المعاني ٢٢/ ٢٢٦.

قال الرازي: «فإن قيل: ما الحكمة في ذكر المعبود الحق في هذا المقام بهذه الصيغة وهي قوله: ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ قلنا: فيه وجوه:

الأول: يحتمل أن يكون المراد أني أعبد الله الذي خلقكم أولاً، ثم يتوفاكم ثانياً، ثم يعيدكم ثالثاً، وهذه المراتب الثلاثة قد قررناها في القرآن مراراً وأطواراً، فههنا اكتفي بذكر التوفي منها لكونه منبهاً على البواقي.

الثاني: أن الموت أشد الأشياء مهابة فخص هذا الوصف بالذكر في هذا المقام ليكون أقوى في الزجر والردع.

الثالث: أنهم لما استعجلوا نزول العذاب قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس].

فهذه الآية تدل على أنه تعالى يهلك أولئك الكفار ويبقي المؤمنين ويقوي دولتهم، فلما كان قريب العهد بذكر هذا الكلام لا جرم، قال ههنا: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ وهو إشارة إلى ما قرره وبيَّنه في تلك الآية كأنه يقول: أعبد ذلك الذي وعدني بإهلاكهم وإبقائي»(١).

ففي هذا الالتفات التهديد والوعيد للمشركين.

قال أبو السعود: «وفي تخصيص التوفي بالذكر متعلقاً بهم ما لا يخفى من التهديد»(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه].

ففي هذه الآيات انتقال من أسلوب التكلم في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، إلى أسلوب الخطاب في قوله: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) تفسير الرازي ١٧/ ١٣٨.

(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ١٧٩، وينظر: فتح القدير ٢/ ٤٧٧.

وفيها انتقال من أسلوب التكلم في قوله: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾، إلى أسلوب الخطاب في قوله: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾.

وفيها كذلك انتقال من أسلوب التكلم في قوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، إلى أسلوب الخطاب في قوله: ﴿فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾﴾.

ففي هذه الآيات تردد الأسلوب بين التكلم والخطاب، فالمتكلم هو الله جَلَّ جَلَالُهُ والمخاطب هو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والأوامر الشرعية تحمل معنى الخطاب والتكليف، اهتماماً بالمخاطب، وتفخيماً للمخاطب به.

قال الزركشي: «ومن الالتفات من التكلم إلى الخطاب: قوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾، ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ وهو كثير»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة].

ففي هذه الآية انتقال من أسلوب التكلم من الرب الخالق للجميع حينما ذكر أوصاف المؤمنين والكافرين والمنافقين، إلى أسلوب الخطاب اهتماماً بهم وبما سيأمرهم به.

قال البيضاوي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة]، لما عدد فرق المكلفين وذكر خواصهم ومصارف أمورهم، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات، هزاً للسامع وتنشيطاً له، واهتماماً بأمر العبادة وتفخيماً لشأنها، وجبراً لكلفة العبادة بلذة المخاطبة»(٢).

وقال أبو السعود: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ إثر ما ذكر الله تعالى علو طبقة كتابه الكريم، وتحزب الناس في شأنه إلى ثلاث فرق: مؤمنة به محافظة على ما فيه من الشرائع والأحكام، وكافرة قد نبذته وراء ظهرها بالمجاهرة والشقاق، وأخرى مذبذبة بينهما بالمخادعة والنفاق، ونعت كل فرقة منها بما

---

(١) البرهان ٣/٣١٦.

(٢) تفسير البيضاوي ١/ ٢١٥.

لها من النعوت والأحوال، وبيّن ما لهم من المصير والمآل، أقبل عليهم بالخطاب على نهج الالتفات هزاً لهم إلى الإصغاء، وتوجيهاً لقلوبهم نحو التلقي، وجبراً لما في العبادة من الكلفة بلذة الخطاب، فأمرهم كافة بعبادته ونهاهم عن الإشراك به»(١).

- وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ].

ففي قوله: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ التفات من التكلم إلى الخطاب، لما فيه من الإشعار بأن الربوبية تقتضي الرزق لعباده واستحقاقه للشكر(٢).

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح].

افتتحت السورة بالتكلم ثم تحول الأسلوب إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾، وفيه تشريف للنبي ﷺ، وبيان لغاية الفتح.

قال الزركشي: «وقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ ولم يقل: لنغفر لك؛ تعليقاً لهذه المغفرة التامة باسمه المتضمن لسائر أسمائه الحسنى، ولهذا علق به النصر، فقال: ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ [الفتح]»(٣).

وقال أبو السعود: «وقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ غاية للفتح؛ من حيث أنه مترتب على سعيه عليه الصلاة والسلام في إعلاء كلمة الله تعالى، بمكابدة مشاق الحروب، واقتحام موارد الخطوب، والالتفات إلى اسم الذات المستتبع لجميع الصفات للإشعار بأن كل واحد مما انتظم في سلك الغاية من أفعاله تعالى صادر عنه تعالى من حيثية غير حيثية الآخر، مترتبة على صفة من صفاته تعالى»(٤).

وبعد هذا؛ فانتقال الكلام من أسلوب التكلم إلى أسلوب الخطاب، كثير

---

(١) تفسير أبي السعود ١/ ٥٨.
(٢) ينظر: البرهان ٣/ ٣١٦.
(٣) البرهان ٣/ ٣١٦.
(٤) تفسير أبي السعود ٨/ ١٠٤.

في القرآن، وفيه التأثير على السامع إما من جهة تشريفه أو تنبيهه أو تخويفه أو غير ذلك، وفيه الإشارة إلى أهمية الموضوع المخَاطَبِ فيه، فيُلتَفت إلى الأسلوب المناسبِ له، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

انتقال الكلام من الخطاب إلى التكلم

والمراد به: أن يكون السياق على أسلوب الخطاب، ثم ينتقل إلى أسلوب التكلم.

ومن أمثلة هذا الأسلوب في كتاب الله تعالى ما يأتي:

ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس].

فقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أسلوب خطاب، ثم تحول إلى أسلوب تكلم في قوله تعالى: ﴿رُسُلَنَا﴾، خاطب الله ﷻ نبيه ﷺ بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾، أي: قل لهؤلاء المشركين المستهزئين: الله أسرع مكراً واستدراجاً وعقوبة لكم، ففي الآية تهديد من الله تعالى للمشركين على مكرهم، ثم جاء الالتفات إلى التكلم فقال: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: إن حفظتنا الذين نرسلهم إليكم يكتبون عليكم ما تمكرون في آياتنا، ثم نحاسبكم على ذلك.

قال أبو حيان: «وفي قوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ التفات، إذ لم يأت: إنّ رسله»(١).

وقال السمين: «وفي قوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ التفاتٌ أيضاً، إذ لو جَرَى على قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، لقيل: إنَّ رسله»(٢).

وقال الألوسي: «وفي: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ التفات، إذ لو أُجرِي على قوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، لقيل: إن رسله، فلا إشكال فيه من حيث أنه لا وجه

---

(١) البحر المحيط ٥/ ١٤٠، وينظر: تفسير اللباب ١٠/ ٢٨٧.

(٢) الدر المصون ٨/ ١٤٣.

لأمر الرسول ﷺ بأن يقول لهم: إن رسلنا إذ الضمير لله تعالى لا له عليه الصلاة والسلام»[١].

وقال الزركشي ضمن أقسام الالتفات: «من الخطاب إلى التكلم: كقوله: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا﴾ [طه] وهذا إنما يتمشى على قول من لم يشترط أن يكون المراد بالالتفات واحداً فأما من اشترطه فلا يحسن أن يمثل به.

ويمكن أن يمثل بقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ على أنه سبحانه نزّل نفسه منزلة المخاطب»[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره، مخبراً عن قيل شعيب لقومه: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾، أيها القوم من ذنوبكم، بينكم وبين ربكم التي أنتم عليها مقيمون، من عبادة الآلهة والأصنام، وبَخْس الناس حقوقهم في المكاييل والموازين ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾، يقول: ثم ارجعوا إلى طاعته والانتهاء إلى أمره ونهيه ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾، يقول: هو رحيم بمن تاب وأناب إليه أن يعذبه بعد التوبة ﴿وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾، يقول: ذو محبة لمن أناب وتاب إليه، يودُّه ويحبُّه»[٣].

فأول الآية جاء بأسلوب الخطاب في قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾، ثم انتقل في آخرها لأسلوب التكلم في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾، وكان مقتضى السياق أن يكون: إن ربكم، لموافقة سابِقِه، ولكن التفت من الخطاب إلى التكلم، وفيه الإشارة ـ والله أعلم ـ إلى أن ربكم وربي واحد، وهو المستحق للعبادة وحده، وفي ضمير الخطاب ترغيب لهم بالتوبة حيث أضاف كلمة رب إلى خطابهم، ليحرك ما في نفوسهم، ويقربهم إلى الله، والانتقال

---

(١) روح المعاني ١١/ ٩٥.
(٢) البرهان ٣/ ٣١٧.
(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٤٥٦.

لخطاب التكلم؛ لبيان ما يعهده نبي الله شعيب عليه السلام في نفسه، وأنه موقن برحمة ربه، وصادق في دعوته، والله أعلم.

قال البقاعي: «﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾، أي: اطلبوا ستر المحسن إليكم، ونبَّه على مقدار التوبة بأداة التراخي فقال: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ ثم علل ذلك مرغباً في الإقبال عليه بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى﴾؛ أي: المختص لي بما ترون من الإحسان ديناً ودنياً ﴿رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ أي: بليغ الإكرام لمن يرجع إليه بأن يحفظه على ما يرضاه، بليغ التحبب إليه»(١).

- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ [طه].

في الآية التفات من أسلوب الخطاب في قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، إلى أسلوب التكلم في قوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾، وفيه حثهم وترغيبهم بعبادة الله تعالى، وترك الشرك به سبحانه.

قال الطبري: «يقول: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي يعم جميع الخلق نعمه، ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ على ما آمركم به من عبادة الله، وترك عبادة العجل، ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ فيما آمركم به من طاعة الله، وإخلاص العبادة له»(٢).

وقال مكي: «ثم قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾؛ أي: إن معبودكم الذي يستحق العبادة هو الرحمٰن، فاتبعوني ولا تعبدوا غيره، وأطيعوا أمري في ترك عبادة العجل»(٣).

وفي هذا الالتفات إشارة إلى تلطُّف هارون عليه السلام مع قومه وشفقته عليهم.

قال الرازي: «اعلم أن هارون عليه السلام إنما قال ذلك شفقة منه على نفسه وعلى الخلق»(٤).

وقال أيضاً: «واعلم أن هارون عليه السلام سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه؛ لأنه زجرهم عن الباطل أولاً بقوله: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾، ثم دعاهم

---

(١) نظم الدرر ٣/٥٦٩.
(٢) تفسير الطبري ١٨/٣٥٨.
(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية ٧/٤٦٨٧.
(٤) تفسير الرازي ٢٢/٩١.

إلى معرفة الله تعالى ثانياً بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، ثم دعاها ثالثاً إلى معرفة النبوة بقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾، ثم دعاهم إلى الشرائع رابعاً بقوله: ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ۝٩٠﴾ وهذا هو الترتيب الجيد»[١].

- وقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢﴾ [يس].

فالآية الأولى بأسلوب الخطاب في قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾، ثم انتقل إلى التكلم في قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾، وقد كان مقتضى السياق أن يكون: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم؛ بدليل آخر الآية حيث التفت أُخرى إلى الخطاب، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢﴾، والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره.

وفي التفات هذه الآية من أسلوب الخطاب إلى أسلوب التكلم تلطف من الرجل المؤمن بالمخاطبين، فأورد الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم، وفيه إظهار كمال النصح لهم حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه[٢].

قال السمين: «قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ﴾، أصل الكلام: وما لكم لا تعبدون، ولكنه صَرَفَ الكلامَ عنهم، ليكون الكلامُ أسرعَ قبولاً، ولذلك جاء قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢﴾ دون: وإليه أرجعُ»[٣].

وفي قوله جل وعلا في الآية بعدها على لسانه: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ۝٢٥﴾ [يس]، ولم يقل: بربي ما يؤكد هذا الحرص.

قال ابن الأثير: «وقد وضع قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ مكان قوله: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢﴾ ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذي فطرني وإليه أرجع، وقد ساقه ذلك

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ٩٢.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ١٣، تفسير البيضاوي ٤/ ٤٣٠، البرهان ٣/ ٣٢٨، تفسير أبي السعود ٧/ ١٦٤.

(٣) الدر المصون ١٢/ ١٥٤.

المساق إلى أن قال: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [يس] فانظر أيها المتأمل إلى هذه النكت الدقيقة التي تمر عليها في آيات القرآن الكريم وأنت تظن أنك فهمت فحواها واستنبطت رموزها»[١].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر].

فأول الآية أسلوب الخطاب في قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾، ثم انتقل إلى أسلوب التكلم فقال: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة].

فالله جل وعلا يخاطب رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾، وأعقبه مباشرة بأسلوب التكلم بقوله: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وكان مقتضى السياق أن يكون: فقل لهم إني قريب، ولكن الله تولى الجواب، فهو قريب جل وعلا من داعيه بالإجابة، وفيه إشارة إلى فضل الدعاء، والحث عليه، وأن الله وحده هو المجيب لمن دعاه.

قال أبو حيان: «وهو من باب الالتفات»[٢].

وقال الزركشي: «فإن قيل: كيف جاء ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ وعادة السؤال يجيء جوابه في القرآن بقل نحو: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ونظائره.

قيل: حُذفت للإشارة إلى إن العبد في حالة الدعاء مستغن عن الواسطة، وهو دليل على أنه أشرف المقامات، فإن الله سبحانه لم يجعل بينه وبين الداعي واسطة، وفي غير حالة الدعاء تجيء الواسطة»[٣].

وقال أبو السعود: «﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ في تلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله ما لا يخفى من تشريفه ورفع محله، ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾؛

---

(١) المثل السائر ٢/٧.
(٢) البحر المحيط ٢/٥٢.
(٣) البرهان ٤/٥٤.

أي: فقل لهم: إني قريب»[١].

وقال السعدي: «قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ قُرْب يقتضي إلطافه تعالى، وإجابته لدعواتهم، وتحقيقه لمراداتهم»[٢].

وجمعاً لما مضى أقول:

إن من العلماء من قال: الالتفات من الخطاب إلى التكلم لم يقع في القرآن[٣]؛ لأن شرط الالتفات أن يكون المرادُ به واحداً.

والسبب في ذلك:

١ - ما بين الأسلوبين من التقارب الشديد، فلا يتميز الخطاب والتكلم في السياق الواحد.

٢ - أو التباعد التام، بحيث يكون الملتَفَتُ إليه غير الملتَفَت عنه.

ومن جهة أخرى فلا يخلو سياق من أسلوب الخطاب والتكلم، وعليه فلا بد من الدقَّة في استنباط الانتقال بين هذين الأسلوبين، والتماس الحِكَم والأسرار من الانتقال بينهما في أسلوب القرآن.

وما سبق من أمثلة هي نماذج عدَّها العلماء: انتقالٌ في الأسلوب من الخطاب إلى التكلم، وهي دليلٌ على وقوعه في القرآن.

وفيها زيادة العناية بالملتَفت إليه، وشد ذهن السامع، وكمال البلاغة والإعجاز في كتاب الله الكريم، والله تعالى أعلم.

المطلب الثالث

انتقال الكلام من الغيبة إلى التكلم

والمراد به: أن يكون السياق على أسلوب الغيبة، ثم ينتقل إلى أسلوب التكلم، وهو كثير في كتاب الله تعالى، اعتنى به العلماء، وبينوا لطائفه، مما

(١) تفسير أبي السعود ١/ ٢٠٠.
(٢) تفسير السعدي ٣٨٤.
(٣) كالسيوطي في الإتقان ٢/ ١٨٥.

يدل على أهميته وكثرة فوائده[١].

ومن أمثلة هذا الأسلوب في كتاب الله تعالى:

ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢].

بيَّن تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل العهد المؤكد الغليظ، وبعث منهم اثني عشر رئيساً وعريفاً على من تحته، ليكون ناظراً عليهم، حاثّاً لهم على القيام بما أُمِرُوا به[٢].

وفي الآية الالتفات من أسلوب الغيبة إلى أسلوب التكلم، فحوَّل الكلام من الغيبة في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلى التكلم في قوله: ﴿وَبَعَثْنَا﴾.

قال أبو السعود: «والالتفات في قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ للجري على سنن الكبرياء، أو لأن البعث كان بواسطة موسى عليه السلام»[٣].

وقال القاسمي: «وفي الالتفات تربية المهابة وتأكيد ما يتضمنه الكلام من الوعد»[٤].

وقال ابن عاشور: «والعدول عن طريق الغيبة من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾، إلى طريق التكلم في قوله: ﴿وَبَعَثْنَا﴾ التفات»[٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء].

نزَّه تعالى نفسه وعظَّمها، لقدرته على ما لا يقدر عليه سواه، ومن ذلك إسراؤه بنبيه ﷺ، وعبَّر بقوله: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ فأضافه الله تعالى لنفسه تشريفاً، وقوله: ﴿لَيْلًا﴾ منكّراً للإشارة إلى تقليل المدة، والإسراء ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ

---

(١) ينظر: البرهان ٣/ ٣١٩.
(٢) ينظر: تفسير السعدي ٢٢٥.
(٣) تفسير أبي السعود ٣/ ١٤، وينظر: روح المعاني ٦/ ٨٥.
(٤) تفسير القاسمي ٤/ ٨٨.
(٥) التحرير والتنوير ٦/ ١٤٠.

﴿ٱلْحَرَامِ﴾ الذي هو أشرف المساجد ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾، الذي هو من المساجد الفاضلة وهو محل الأنبياء[١].

وجاءت هذه المقدمة بأسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾، ثم انتقل إلى أسلوب التكلم في قوله: ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾، وفيه إشارة إلى تعظيم البركات التي اختص بها المسجد الأقصى.

قال أبو حيان: «وهو التفات من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم»[٢].

وقال أبو السعود: «والالتفات إلى التكلم لتعظيم تلك البركات»[٣].

ثم التفت مرة أخرى من أسلوب التكلم في قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ ما رأى من الأنبياء وآثارهم[٤]، إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾، لينبه بالسميع أنه المجيب لدعائه، وبالبصير أنه الحافظ له في ظلمة الليل[٥].

قال الزمخشري: «ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم فقيل: أسرى به، ثم: باركنا ليريه، على قراءة الحسن، ثم: من آياتنا، ثم: إنه هو، وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة»[٦].

وقال الرازي: «اعلم أن الكلام في الآية التي قبل هذه الآية، وفيها انتقل من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة؛ لأن قوله: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾ فيه ذكر الله على سبيل الغيبة، وقوله: ﴿بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ فيه ثلاثة ألفاظ دالة على الحضور، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾ يدل على الغيبة، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الإسراء: ٢] إلخ، يدل على الحضور، وانتقال الكلام من الغيبة إلى الحضور وبالعكس يسمى:

(١) ينظر: تفسير السعدي ٤٥٣.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٧.
(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ١٥٥.
(٤) ينظر: معنى القرآن للنحاس ٤/ ١١٩.
(٥) ينظر: تفسير البغوي ٥/ ٥٨.
(٦) الكشاف ٢/ ٦٠٦، وينظر: الإتقان ٢/ ١٨٦.

صنعة الالتفات»[١].

ولو جاء السياق على أسلوب واحد لكان بهذه الضمائر: سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله ليريه من آياته إنه هو السميع البصير.

قال الزركشي: «وقد تكرَّر الالتفات في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء] في أربعة مواضع»[٢].

ففي هذا الالتفات: مراعاةُ مناسبةِ المقام من التعظيم، وترابطٌ دقيق أثناء انتقالها من أسلوب إلى أسلوب، وهذا ما أعجز أهل البلاغة والفصاحة.

قال ابن الأثير: «فانظر إلى هذه الالتفاتات المترادفة في هذه الآية الواحدة التي جاءت لمعانٍ اختصت بها، يعرفها من عرفها ويجهلها من جهلها»[٣].

وقال الألوسي: «وصَرْفُ الكلام من الغيبة التي في قوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ إلى صيغة المتكلم المعظم في: باركنا ونريه آياتنا لتعظيم البركات والآيات؛ لأنها كما تدل على تعظيم مدلول الضمير، تدل على عظم ما أضيف إليه وصدر عنه، كما قيل: إنما يفعل العظيمُ العظيمَ، وقد ذكروا لهذا التلوين نكتة خاصة، وهي أن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ يدل على مسيره ﷺ دون أن يراه أحد، فهو بالغيبة أنسب، وقوله تعالى: ﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ دل على إنزال البركات؛ فيناسب تعظيم المنزل، والتعبير بضمير العظمة متكفل بذلك، وقوله سبحانه: ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ يدل على قربه ولطفه به فيناسب التكلم معه، وقوله تعالى: ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ عود إلى التعظيم كما سبقت الإشارة إليه..»[٤].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل].

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/ ١٢٢.
(٢) البرهان ٣/ ٣٢٢.
(٣) المثل السائر ٢/ ٦.
(٤) روح المعاني ١٥/ ١٣ بتصرف يسير.

فالالتفات من الغيبة في قوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ إلى التكلم في قوله: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٥١﴾ ولم يقل: فارهبوه.

وفي هذا الالتفات: التنبيه على أهمية المتكلم عنه، والحث على الإصغاء أكثر، وتربيةُ المهابة في النفوس، والمبالغة في التخويف والترهيب، فتوجيهها للحاضر أبلغ من الغائب.

قال الزمخشري: «﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٥١﴾ نقل للكلام عن الغيبة إلى التكلم، وهو من طريقة الالتفات، وهو أبلغ في الترهيب من قوله: وإياه فارهبوه، ومن أن يجيء ما قبله على لفظ المتكلم»(١).

وقال الألوسي: «لأن تخويف الحاضر مواجهة أبلغ من تخويف الغائب، سيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المتضمنة للعظمة والقدرة التامة على الانتقام»(٢).

ومن فوائد الالتفات هنا: تربية المهابة وإلقاء الرهبة في القلوب.

قال ابن عطية: «والأمر بالرهبة يتضمن معنى التهديد»(٣).

وقال البيضاوي: «نقل من الغيبة إلى التكلم مبالغة في الترهيب، وتصريحاً بالمقصود، فكأنه قال: فأنا ذلك الإله الواحد فإياي فارهبون لا غير»(٤).

وقال أبو السعود: «﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٥١﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم لتربية المهابة وإلقاء الرهبة في القلوب؛ ولذلك قدم وكرر الفعل؛ أي: إن كنتم راهبين شيئاً فإياي ارهبوا»(٥).

- وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىۡءٍ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرًا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: ٩٩].

قال أبو حيان: «﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾ التفات من غيبة إلى تكلم بنون العظمة»(٦).

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٧٠، وينظر: التسهيل ٢/ ٧٤.
(٢) روح المعاني ١٤/ ٣٣٤.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ١١٦ بتصرف.
(٤) تفسير البيضاوي ٣/ ٣٠٤.
(٥) تفسير أبي السعود ٥/ ١١٩.
(٦) البحر المحيط ٤/ ١٩٢.

وفي هذا: الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، إلى التكلم في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾، إظهار قدرة الله تعالى وعظمته، وأن هذه النعم لا يقدر عليها غيره، وفيه إظهار كمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله.

قال الرازي: «قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ بعد قوله: ﴿أَنزَلَ﴾ يسمى التفاتاً، ويعد ذلك من الفصاحة»[١].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [طه].

الالتفات هنا بين قوله: ﴿وَأَنزَلَ﴾ وهو يختص بالغيبة، وبين قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ وهو يختص بالمتكلم، وفيه إثبات كمال القدرة لله تعالى وحده.

قال أبو حيان: «فيكون قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ التفاتاً من الضمير الغائب، وسلك إلى ضمير المتكلم لمعظم نفسه»[٢].

وقال أبو السعود: «﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ [طه: ٥٣]»؛ أي: بذلك الماء، وهو عطف على: أنزل داخل تحت الحكاية، وإنما التفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة، والإيذان بأنه لا يتأتى إلا من قادر مطاع عظيم الشأن، تنقاد لأمره وتذعن لمشيئته الأشياء المختلفة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠]»[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [فاطر].

هنا قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾، جاء على أسلوب الغيبة، ثم انتقل إلى أسلوب التكلم فقال: ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾، وكان مقتضى الظاهر أن يقول:

---

(١) تفسير الرازي ١٣/ ٨٨.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٣٤.
(٣) تفسير أبي السعود ٦/ ٢١.

فساقه، ولكن في هذا الالتفات إشعار بعظمة الله جل وعلا القادر على كل شيء.

وقد جاء ذلك مفصلاً في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف].

- وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ﴾ [فاطر: ٢٧].

فالالتفات هنا من قوله: ﴿أَنزَلَ﴾ وهو أسلوب غيبة، إلى قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ وهو أسلوب المتكلم؛ ليدل أن القادر على هذه الآيات هو الله جل وعلا دون سواه.

قال السمين: «قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ هذا التفاتٌ من الغَيْبةِ إلى التكلم، وإنما كان ذلك لأن المِنَّةَ بالإخراج أبلغُ من إنزال الماء»(١).

وقال البقاعي: «﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: التي لا يصعد إليها الماء، ولمَّا كان أمراً فائتاً لقوى العقول، نبَّه عليه بالالتفات إلى مظهر العظمة فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾؛ أي: بما لنا من العظمة»(٢).

وقال أبو السعود: «﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ بذلك الماء، والالتفات لإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة»(٣).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصّلت].

ففي الآية التفات من أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ﴾، وما قبلها من خلق السماوات والأرض، إلى أسلوب تكلم في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ﴾، فهي ظاهرة للعباد، وفيه

---

(١) الدر المصون ١٢/ ١٣٠.
(٢) نظم الدرر ٦/ ٢٢٠.
(٣) تفسير أبي السعود ٧/ ١٥٠.

إبراز كمال قدرة الله سبحانه، والحث على التفكر في مخلوقاته.

قال الزركشي: «الالتفات من الغيبة إلى التكلم كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾»(١).

قال أبو السعود: «والالتفات إلى نون العظمة لإبراز مزيد العناية بالأمر»(٢).

والأمثلة في هذا الباب كثيرة، وعناية المفسرين بها كبيرة، ولما تأملت فيها تبين لي ما يلي:

١ ـ أن أغلب الانتقالات من ضمير الغيبة إلى ضمير التكلم يكون عائداً على الله تعالى.

٢ ـ وكذا أغلب ورود الالتفات من أسلوب الغيبة إلى أسلوب التكلم في الآيات الدالة على كمال قدرة الله جل وعلا وتصريفه لهذا الكون، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ﴾ [النمل: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [فاطر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ﴾ [فصلت: ١٢].

٣ ـ أن في هذا الالتفات تخصيصاً للمذكور بأسلوب التكلم بعد الغيبة بمزية تتضمن التعظيم والتشريف، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾ [التغابن].

فقد ذكر الله ﷻ الرسول ﷺ بأسلوب الغيبة فقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ﴾، ثم أعقب الغيبة بأسلوب المتكلم فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾ فالتعريف بالإضافة في قوله: ﴿رَسُولِنَا﴾ لقصد تعظيم شأنه ﷺ، فهي إضافة تشريف وتكريم.

٤ ـ وفي هذا الالتفات إظهار العناية بالملتَفَت إليه، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ﴾ [فاطر: ٢٧].

---

(١) البرهان ٣/٣١٩.

(٢) تفسير أبي السعود ٨/٧.

قال أبو السعود: «﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ بذلك الماء، والالتفات لإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة»(١).

٥ ـ في هذا الالتفات تفنن في الأسلوب، وهو من إعجاز القرآن البياني، لمن فهم اللغة وتأمل في القرآن، ويظهر ذلك جلياً إذا تكررت ضمائر الغيبة ثم جاء بعدها ضمير التكلم، كما في قوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل].

جاءت ضمائر الغيبة في قوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ ﴿وَهَدَىٰهُ﴾، في سياق الحديث عن إبراهيم عليه السلام، ثم انتقل السياق إلى ضمير التكلم في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾، وكان مقتضى السياق أن يكون: وآتاه.

قال ابن عاشور: «وضمير ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم تفنناً في الأسلوب لتوالي ثلاثة ضمائر غيبة»(٢)، والله تعالى أعلم.

المطلب الرابع

انتقال الكلام من التكلم إلى الغيبة

والمراد به: أن يكون السياق جارياً على أسلوب التكلم، ثم ينتقل إلى أسلوب الغيبة، وهذا الأسلوب هو أكثر أنواع الالتفات وجوداً في كتاب الله تعالى(٣)، ولذلك أولاه المفسرون اهتماماً في دراسة مواضعه وبيان فوائده.

قال الزركشي: «الالتفات من التكلم إلى الغيبة، ووجهه أن يفهم السامع أن هذا نمط المتكلم، وقصده من السامع حضر أو غاب، وأنه في كلامه ليس ممن يتلوّن ويتوجّه، فيكون في المضمر ونحوه ذا لَوْنَين، وأراد بالانتقال إلى

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ١٥٠.
(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٣١٧.
(٣) ينظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ١٩٠ وما بعدها، فقد أوصل الأمثلة إلى أكثر من ١٣٥ موضعاً.

الغيبة الإبقاء على المخاطب من قرعه في الوجه بسهام الهجر، فالغيبة أروح له وأبقى على ماء وجهه أن يفوت»[١].

ومن أمثلة هذا الأسلوب في كتاب الله تعالى:

ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة].

فالالتفات في هذه الآية في انتقال الكلام من أسلوب التكلم في قوله: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ وفي قوله: ﴿عَبْدِنَا﴾ إلى أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ فالآية بدأت بضمير المتكلم ليثبت مصدر هذا المنزل، ثم جاءت كلمة ﴿عَبْدِنَا﴾ لتبين صفة النبي ﷺ، وتؤكد عبوديته التامة لربه جل وعلا، ثم تلتفت الآية إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ لتزيد الأمر تعظيماً، وتوضح أن صاحب هذا الضمير السابق هو الله ذو الألوهية والعبودية على الخلق أجمعين.

وفي هذا الالتفات إدخال الروعة وتربية المهابة، والإيذان بكمال سخافة عقولهم، حيث آثروا على عبادة من له الألوهية الجامعة لجميع صفات الكمال ما لا أحقر منه، وتأكيد عجزهم عن المعنى الملتفت إليه[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...﴾ إلى قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فانتقل الكلام من أسلوب التكلم في قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وكان مقتضى السياق أن يكون: فآمنوا بالله وبي، استمراراً على أسلوب التكلم، وفي الالتفات إلى ضمير الغيبة فائدتان:

إحداهما: دفع التهمة عن نفسه بالعصبية لها.

والثاني: تنبيههم على استحقاقه الاتباع بما اتصف به من الصفات المذكورة، من النبوة والأمية، التي هي أكبر دليل على صدقه، وأنه لا يستحق

---

(١) البرهان ٣/٣١٦، ٣١٧.

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود ١/٦٥، ٦٦.

الاتباع لذاته، بل لهذه الخصائص[١].

قال ابن عاشور: «وفي قوله: ﴿وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ التفات من التكلم إلى الغيبة لقصد إعلان تحقق الصفة الموعود بها في التوراة في شخص محمد ﷺ»[٢].

- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [النحل].

في هذه الآية الالتفات من أسلوب التكلم في قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ﴾، إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾.

قال الطبري: «والله أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبدِّل ويغير من أحكامه»[٣].

وقال ابن الجوزي: «﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ من ناسخ ومنسوخ»[٤].

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا للرسول: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾؛ أي: كذاب وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد»[٥].

وكان مقتضى السياق أن يكون: ونحن أعلم بما ننزل.

ولكن في هذا الالتفات: توبيخ الكفار، وبيان الحكمة من النسخ في كتاب الله تعالى.

قال البيضاوي: «﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتراض لتوبيخ الكفار على قولهم والتنبيه على فساد سندهم»[٦].

وقال أبو السعود: «وفي الالتفات إلى الغيبة مع إسناد الخبر إلى الاسم

---

(١) ينظر: البرهان ٣/ ٣١٧.
(٢) التحرير والتنوير ٩/ ١٤١.
(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٢٩٧، وينظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٢٩١.
(٤) زاد المسير ٤/ ٤٩١.
(٥) تفسير ابن كثير ٤/ ٦٠٣.
(٦) تفسير البيضاوي ٣/ ٤٢٠.

الجليل المستجمع للصفات ما لا يخفى من تربية المهابة وتحقيق معنى الاعتراض»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف].

في قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ﴾، أسلوب تكلم، ثم انتقل إلى أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾، ثم عاد والتفت إلى التكلم فقال: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: نحن يا محمد نقص عليك خبر هؤلاء الفتية الذين أووْا إلى الكهف، ﴿بِالْحَقِّ﴾، يعني: بالصدق واليقين الذي لا شك فيه، ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ يقول: إن الفتية الذين أووْا إلى الكهف الذين سألك عن نبئهم الملأ من مشركي قومك، فتية آمنوا بربهم، ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ يقول: وزدناهم إلى إيمانهم بربهم إيماناً، وبصيرة بدينهم، حتى صبروا على هجران دار قومهم، والهرب من بين أظهرهم بدينهم إلى الله، وفراق ما كانوا فيه من خفض العيش ولينه، إلى خشونة المكث في كهف الجبل»(٢).

وقال السمين: «قوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾، فيه التفاتٌ من التكلم إلى الغيبة إذ لو جاء على نَسَقِ الكلام لقيل: إنهم فتيةٌ آمنوا بنا، وقوله: ﴿وَزِدْنَاهُمْ﴾ ﴿وَرَبَطْنَا﴾ التفاتٌ من هذه الغَيْبَة إلى التكلم أيضاً»(٣).

وفي هذا الالتفات إلى لفظ الربوبية بيان عناية الله تعالى بهم، ورعايته وتوفيقه لهم.

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر].

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ١٤١، وينظر: روح المعاني ١٤/ ٢٣١.
(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦١٥.
(٣) الدر المصون ١٠/ ٢٥.

في هذه الآية يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه، من إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾؛ أي: ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم، ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ أي: لذنوبهم، ﴿شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ للقليل من أعمالهم[١].

قال الرازي: «وقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾؛ أي: ما يتوقعونه ولو كان أمراً بالغ الغاية»[٢].

قال ابن عاشور: «ووقع الالتفات من التكلم في قوله: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ رجوعاً إلى سياق الغيبة من قوله: ﴿يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ليوفي الله الذين يتلون كتابه»[٣].

وفي هذا الالتفات بيان الوفاء الكامل في ثوابهم من الله تعالى، وأن جزاءهم مضاعف فضلاً من الله ومنّة.

ـ وقوله تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾ [طه].

ففي هذه الآيات التفات من أسلوب التكلم في قوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾، ثم انتقل إلى ضمير الغيبة في قوله: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾؛ أي: هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو تنزيل من ربك رب كل شيء ومليكه، القادر على ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السماوات العلى في ارتفاعها ولطافتها[٤].

وفي هذا الالتفات بيان عظمة الله تعالى ومجده.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٢٠/ ٤٦٣، تفسير ابن كثير ٦/ ٥٤٥.
(٢) ٢٦/ ٢١.
(٣) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٠٧.
(٤) ينظر: تفسير ابن كثير ٥/ ٢٧٢.

قال الزمخشري: «فإن قلت: ما فائدة النقلة من لفظ المتكلم إلى لفظ الغائب؟.

قلت: غير واحدة، منها: عادة الافتنان في الكلام وما يعطيه من الحسن والروعة.

ومنها: أنّ هذه الصفات إنما تسردت مع لفظ الغيبة.

ومنها: أنه قال أولاً: ﴿أَنزَلْنَا﴾ ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع، ثم ثنّىٰ بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فضوعفت الفخامة من طريقين»[1].

وقال الرازي: «فائدة الانتقال من لفظ التكلم إلى لفظ الغيبة أمور.

أحدها: أن هذه الصفات لا يمكن ذكرها إلا مع الغيبة.

وثانيها: أنه قال أولاً: أنزلنا ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع، ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد، فتضاعفت الفخامة من طريقين.

وثالثها: يجوز أن يكون أنزلنا حكاية لكلام جبريل عليه السلام، والملائكة النازلين معه»[2].

وقال ابن جزي: «وبدأ السورة بلفظ المتكلم في قوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾، ثم رجع إلى الغيبة في قوله: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ الآية، وذلك هو الالتفات»[3].

وقال البقاعي: «والالتفات من التكلم إلى الغيبة؛ ليدل على ما اقتضته النون من العظمة مقدماً ما اقتضى الحال تقديمه من سكن المدعوِّين المُعْتَنَى بتذكرتهم وهداية من أريد منهم»[4].

ـ وقوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾ [الدخان].

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣.
(٢) تفسير الرازي ٢٢/ ٥.
(٣) التسهيل ٢/ ١٦٧.
(٤) نظم الدرر ٥/ ٩.

أقسم جلّ ثناؤه بهذا الكتاب، أنه أنزله في ليلة مباركة؛ أي: كثيرة الخير والبركة، يُفْصَل ويميز ويكتب كل أمر قدري وشرعي حكم الله به، فأنزل الله تعالى أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام، وهذا الأمر الحكيم أمر صادر من عند الله جل وعلا بنون العظمة، فأرسل الرسل وأنزل الكتب التي أفضلها القرآن رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسل، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة فإنه من أجل ذلك وسببه[(١)].

وقد جرى الكلام في بداية هذه السورة على أسلوب التكلم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ ﴿عِندِنَآ﴾، ثم انتقل إلى أسلوب الغيبة: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾، وكان مقتضى ظاهر السياق أن يكون: رحمة منا، ولكن في هذا الانتقال إشعار بعناية الله بمن أنزل عليهم الكتب وأرسل لهم الرسل، ولما ذكر الرحمة أظهر اسم الرب؛ لأنه يشير إلى معنى التربية والرفق والعناية.

قال البيضاوي: «﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾ أي: أنزلنا القرآن لأن من عادتنا إرسال الرسل بالكتب إلى العباد لأجل الرحمة بهم، ووضع الرب موضع الضمير للإشعار بأن الربوبية اقتضت ذلك فإنه أعظم أنواع التربية»[(٢)].

وقال الزركشي: «ومن الالتفات قوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾ عدل عن قوله: رحمة منا، إلى قوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾ لما فيه من الإشعار بأن ربوبيته تقتضي رحمته وأنه رحيم بعبده»[(٣)].

وقال أبو السعود: «ووضع الرب موضع الضمير الإيذان بأن ذلك من أحكام الربوبية مقتضياتها وإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه»[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٢٢/ ٧، تفسير السعدي ٧٧١.
(٢) تفسير البيضاوي ٥/ ١٥٨.
(٣) البرهان ٣/ ٣١٦.
(٤) تفسير أبي السعود ٨/ ٥٩.

في هاتين الآيتين تحول من التكلم في قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾، إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾.

قال القزويني: «مثال الالتفات من التكلم إلى الغيبة قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾»[١].

وكان مقتضى السياق أن يكون: فَصَلِّ لنا، وفي عدول الضمير للغائب الحث على الصلاة؛ فذكر بأنها لربِّه الذي ربَّاه ورعاه زيادة في الترغيب فهو المستحق لإخلاص العبادة له.

قال الرازي: «قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أبلغ من قوله: فَصَلِّ لله؛ لأن لفظ الرب يفيد التربية المتقدمة المشار إليها بقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ ويفيد الوعد الجميل في المستقبل أنه يربيه ولا يتركه»[٢].

وقال الزركشي: «حيث لم يقل: لنا، تحريضاً على فعل الصلاة لحق الربوبية»[٣].

وفيه هذا الأسلوب ترغيب النبي ﷺ بفعل ما أمره الله به على الوجه الأكمل، وفيه الإشارة إلى تشريف النبي ﷺ وتقريبه، وفيه تعريض بأنه يرُبُّه ويرْأَف به[٤].

قال ابن عاشور: «والعدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾، دون: فَصَلِّ لنا، لما في لفظ الرب من الإيماء إلى استحقاقه العبادة؛ لأجل ربوبيته فضلاً عن فرط إنعامه»[٥].

وأمثلة هذا النوع كثيرة، وهي دالة على أهميته، ومن الحِكَم فيه:

١ ـ أن الالتفات من التكلم إلى الغيبة فيه نوع من البيان تظهر فيه روعة الأسلوب وجمال الألفاظ، مما ينشط الذهن ويدفع الملل.

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ٧٥. (٢) تفسير الرازي ٣٢/ ١٢٣.
(٣) البرهان ٣/ ٣١٧.
(٤) ينظر: روح المعاني ٣٠/ ٢٤٧، التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٧٤.
(٥) التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٧٤.

٢ ـ أن أسلوب التكلم عائد إلى الله تعالى غالباً، كما في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾، ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾، ﴿إِنَّا كُنَّا﴾، وغيرها.

٣ ـ أن الانتقال من التكلم إلى الغيبة زيادة في المعنى من ناحيتين:

الأولى: من أسلوب التكلم المتضمن للعظمة والفخامة.

والثانية: من أسلوب الغيبة المتضمن غالباً وصفاً أو أكثر للملتفت إليه.

كما قال تعالى في سورة طه: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه]، ثم التفت لبيان زيادة عظمة المنزل: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤﴾ [طه].

٤ ـ أن الغرض من الالتفات من أسلوب التكلم إلى أسلوب الغيبة يختلف حسب اختلاف السياق.

فقد يكون للتوبيخ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١﴾ [النحل].

فقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ جملة اعتراضية لتوبيخ الكفار المنكرين للنسخ، والمكذبين لرسول الله ﷺ.

وقد يكون لبيان العناية بالملتفَت إليه، كما في قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣﴾ [الكهف].

وقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾ [الدُّخان]، لما فيه من الإشعار بأن ربوبيته تقتضي رحمته وأنه رحيم بعباده.

وقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر]؛ لأن لفظ الرب يفيد كمال التربية ويبشر بتحقيق الوعد الجميل في المستقبل في قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر]، وفيه تشريف النبي ﷺ.

ومن تأمَّل في كل موضع وجد حِكَماً أكثر، وفوائد أدق، والله تعالى أعلم.

المطلب الخامس

انتقال الكلام من الخطاب إلى الغيبة

والمراد به: كون السياق جارياً على أسلوب الخطاب، ثم ينتقل إلى أسلوب الغيبة، وهو كثير في كتاب الله تعالى(١).

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب:

- قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة].

فقد جاء الالتفات في هذه الآية من أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، إلى أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، فلم يأت على سياق الكلام: غير الذين غضبت عليهم؛ كما في قوله: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، وذلك أن النعمة موضع خير وقرب من الله، فكان إسناده إليه بتاء المخاطب أبلغ، بخلاف الغضب، وهذا من أدب القرآن الذي علمنا عليه.

قال ابن الأثير: «لأن الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفاً عن ذكر الغاضب، فأسند النعمة إليه لفظاً، وزوى عنه لفظ الغضب تحنناً ولطفاً»(٢).

وقال الزركشي: «ثم التفت إلى الغيبة بقوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ ولم يقل: الذين غضبت كما قال أنعمت عليهم»(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ۝٨٧ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ۝٨٨﴾ [البقرة].

---

(١) ينظر: تأويل مشكل القرآن ١٧٧، الصاحبي في فقه اللغة ١٦٣، البرهان ٣/ ٣١٨.
(٢) المثل السائر ٢/ ٥. (٣) البرهان ٣/ ٣٢٢.

يمتن تعالى على بني إسرائيل في هذه الآية أن أرسل لهم كليمَه موسى، وآتاه التوراة، ثم تابع من بعده بالرسل الذين يحكمون بالتوراة، إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى ابن مريم عليه السلام، وآتاه من الآيات البينات ما يؤمن على مثله البشر، جاءت الآية بخطاب بني إسرائيل في قوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: فقدمتم الهوى على الهدى، وآثرتم الدنيا على الآخرة، وفيها من التوبيخ والتشديد ما لا يخفى، ثم انتقل إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾؛ أي: عليها غلاف وأغطية، فلا تفقه ما تقول[(١)].

قال ابن عاشور: «﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، وإبعاد لهم عن مقام الحضور، فهو من الالتفات الذي نكتته أن ما أجري على المخاطب من صفات النقص والفظاعة قد أوجب إبعاده عن البال وإعراض البال عنه، فيشار إلى هذا الإبعاد بخطابه بخطاب البعد.

وقد حَسُن الالتفات لأنه مؤذن بانتقال الكلام إلى سوء مقابلتهم للدعوة المحمدية وهو غرض جديد، فإنه لما تحدث عنهم بما هو من شؤونهم من أنبيائهم وجه الخطاب إليهم، ولما أريد الحديث عنهم في إعراضهم عن النبي ﷺ صار الخطاب جارياً مع المؤمنين، وأجرى على اليهود ضمير الغيبة»[(٢)].

وقال أبو السعود: «﴿وَقَالُوا۟﴾ بيان لفن آخر من قبائحهم على طريق الالتفات إلى الغيبة إشعاراً بإبعادهم عن رتبة الخطاب لما فصل من مخازيهم الموجبة للإعراض عنهم»[(٣)].

وقال الألوسي: «فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضاً عن مخاطبتهم وإبعاداً لهم عن عز الحضور»[(٤)].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٢/ ٣٢٣، تفسير السعدي ٥٨.
(٢) التحرير والتنوير ١/ ٥٩٩ بتصرف. (٣) تفسير أبي السعود ١/ ١٢٧.
(٤) روح المعاني ١/ ٣١٨.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأنعام].

بيَّن تعالى أن الذي له الألوهةُ التي لا تنبغي لغيره، المستحق إخلاص الحمد له بآلائه، هو الله الذي في السماوات وفي الأرض، يعلم سرَّكم وجهركم، ويعلم ما تكسبون، فجاء سياق الكلام على أسلوب الخطاب، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾، وهذا إخبار من الله تعالى عن إعراض المشركين، وشدة تكذيبهم وعداوتهم، وأنهم لا تنفع فيهم الآيات(١).

ففي الآية انتقال من أسلوب الخطاب في قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾، إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾.

وفي الانتقال إلى الغيبة: إعراض عنهم لقبح أفعالهم.

قال أبو السعود: «والالتفات للإشعار بأن ذكر قبائحهم قد اقتضى أن يضرب عنهم الخطاب صفحاً، وتعدد جناياتهم لغيرهم ذمّاً لهم وتقبيحاً لحالهم»(٢).

وضمائر الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾، عائدة إلى المشركين الذين هم بعض من شملته ضمائر الخطاب في الآية قبلها.

قال ابن عاشور: «ففي العدول عن الخطاب إلى الغيبة بالنسبة إليهم التفات أوجبه تشهيرهم بهذا الحال الذميم، تنصيصاً على ذلك، وإعراضاً عن خطابهم، وتمحيضاً للخطاب للمؤمنين، وهو من أحسن الالتفات، لأن الالتفات يُحَسِّنه أن يكون له مقتضى زائد على نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب المراد منه تجديد نشاط السامع»(٣).

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ١١/ ٢٦١، تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤٠، تفسير السعدي ٢٥٠.
(٢) تفسير أبي السعود ٣/ ١٠٩، وينظر: روح المعاني ٧/ ٩١.
(٣) التحرير والتنوير ٧/ ١٣٣.

- وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس].

ففي هذه الآية التفات من أسلوب الخطاب الذي يعم جميع السامعين في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ﴾، وقوله: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾، إلى أسلوب الغيبة حتى يبين ما يخص الكافرين[1] في قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾، وقوله: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾، وقوله: ﴿وَجَآءَهُمُ﴾[2].

قال المبرد: «والعرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب، قال الله جل وعز: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾»[3].

وكان مقتضى السياق أن يكون: وجرين بكم، وفرحتم، وجاءكم، ولكن جاء العدول من خطابهم إلى حكاية حالهم لغيرهم، لتعجبّه من فعلهم وكفرهم.

قال الزركشي: «إذ لو استمر على خطابهم لفاتت تلك الفائدة»[4].

وفي نقل الكلام من الخطاب إلى الغيبة: معنى التشهير بهم، ورواية قصتهم لغيرهم؛ لأن في حكاية هذه الأفعال العجيبة عظة وعبرة، والإنسان لا يستعظم فعل نفسه غالباً، ولكن يستعظم فعل غيره، والله أعلم.

وفيه لطيفة أخرى: وهي أنهم كانوا في مقام الخطاب في الفُلك كما في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾، فهم في مقام الشهود والحضور، ولما جرت بهم الريح ذهبوا بعيداً عن مقام الخطاب، فناسب حكاية هذه الحال بأسلوب الغيبة، ورُوعي تصوير حالهم في جميع الألفاظ، والله أعلم[5].

---

(١) ينظر: البرهان ٣/ ٣١٨.

(٢) ينظر: تأويل مشكل القرآن ١٧٧، الصاحبي في فقه اللغة ١٦٤.

(٣) الكامل في اللغة والأدب ٣/ ١٧.

(٤) البرهان ٣/ ٣١٨.

(٥) ينظر: البرهان ٣/ ٣١٨، الإتقان ٢/ ١٨٦.

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنبياء].

فهذه الآية جرت على أسلوب الخطاب في قوله: ﴿أُمَّتُكُمْ﴾، ﴿رَبُّكُمْ﴾، ﴿فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾، ثم انتقل إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾، والمراد بالأمة الواحدة هنا: أن دين الأنبياء دين واحد، وملتهم ملة واحدة[١].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: إن هذه ملتكم ملة واحدة، وأنا ربكم أيها الناس فاعبدون دون الآلهة والأوثان وسائر ما تعبدون من دوني.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»[٢].

وفي هذا الالتفات إلى أسلوب الغيبة: حكاية وضعهم إلى قوم آخرين؛ لأنه جدير بأن يحذَّر منه، وليكون أعظم في النفوس.

وفيه تقبيح فعلهم، وبيان عظيم جرمهم فيما ارتكبوه من تفريق دين الله ومفارقة الجماعة.

قال الزمخشري: «﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ والأصل: وتقطعتم، إلا أن الكلام حُرِف إلى الغيبة على طريقة الالتفات، كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى آخرين، ويُقَبِّح عندها فعلهم وقوله لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله»[٣].

وقال البيضاوي: «﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ صرفه إلى الغيبة التفاتاً لينعى على الذين تفرقوا في الدين وجعلوا أمره قطعاً موزعة بقبيح فعلهم إلى غيرهم»[٤].

وقال الزركشي: «﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ والأصل: فقطعتم، عطفاً على ما قبله لكن عدل من الخطاب إلى الغيبة، فقيل: إنه سبحانه نعى عليهم

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ٥/ ٤٧٩، تفسير البغوي ٥/ ٤٢٠، تفسير السعدي ٥٣٠.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٥٢٣.
(٣) الكشاف ٣/ ١٣٤.
(٤) تفسير البيضاوي ٤/ ١٠٧.

ما أفسدوه من أمر دينهم إلى قوم آخرين ووبخهم عليه قائلاً: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله»[١].

- وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون].

ففيها الالتفات من أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾؛ - أي: وإنَّ دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد وهو الإسلام، وأنا ربكم فاتقوني بامتثال أوامري واجتناب زواجري - إلى أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

كان الخطاب للأنبياء بأن دينهم واحد، فقبلها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون]، ثم انتقل الكلام إلى أممهم فبين أنهم تفرقوا واختلفوا.

قال ابن عطية: «قوله: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ وإن كان قيل للأنبياء فأممهم داخلون بالمعنى فيحسن بعد ذلك اتصال ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ ومعنى الأمة هنا: الملة والشريعة، والإشارة بهذه إلى الحنيفية السمحة ملة إبراهيم ﷺ وهو دين الإسلام وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ يريد الأمم؛ أي: افترقوا»[٢].

- وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الرُّوم].

بيَّن تعالى في هذه الآية أن من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم، فهذا لا يزيد عند الله، بل يمحقه ويبطله، وإنما الثواب عند الله في الزكاة ابتغاء مرضاة الله وطلباً لثوابه، فهذا هو الذي يقبله الله ويضاعفه لكم أضعافاً كثيرة[٣].

وكان الكلام فيه جارياً على أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم

---

(١) البرهان ٣/ ٣١٩.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٨.
(٣) ينظر: تفسير ابن كثير ٦/ ٣١٨.

﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾، ثم انتقل إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ٣٩﴾.

وفي هذا الالتفات التنبيه باسم الإشارة الذي هو في معنى ضمير الغائب على ارتفاع منزلتهم عند الله.

قال الزمخشري: «﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ٣٩﴾ التفات حسن، كأنه قال لملائكته وخواص خلقه: فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم: هم المضعفون، فهو أمدح لهم من أن يقول: فأنتم المضعفون»[١].

وقال البيضاوي: «والالتفات فيه للتعظيم كأنه خاطب به الملائكة وخواص الخلق تعريفاً لحالهم أو للتعميم كأنه قال فمن فعل ذلك: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ٣٩﴾»[٢].

وقال أبو السعود: «وفي تغيير النظم الكريم والالتفات من الجزالة ما لا يخفى»[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ [الحجرات].

في هذه الآية خطاب الله تعالى للمؤمنين: أن بين أظهركم رسول الله فعظِّموه ووقروه، وتأدبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتمّ من رأيكم لأنفسكم، والله تعالى يحبب إليكم الإيمان، ويزينه في قلوبكم، ويكره إليكم الكفر والذنوب كلها، ثم جاء اسم الإشارة على معنى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾، أي: من سبق ذكرهم هم المهتدون للصراط المستقيم[٤].

وقد جاء الانتقال من أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾، ثـــم

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٨٧، وينظر: البحر المحيط ٧/ ١٧٠.
(٢) تفسير البيضاوي ٤/ ٣٣٧.
(٣) تفسير أبي السعود ٧/ ٦٢.
(٤) ينظر: تفسير البغوي ٧/ ٣٣٩، تفسير ابن كثير ٧/ ٣٧٢، تفسير السعدي ٨٠٠.

انتقل إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾.

قال أبو حيان: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة»[(١)].

وقال أبو السعود: «قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾؛ أي: السالكون إلى الطريق السوي الموصل إلى الحق، والالتفات إلى الغيبة كالذي في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ۝٣٩﴾ [الرُّوم]»[(٢)].

ففي هذا الانتقال باسم الإشارة للبعيد ـ الذي هو في قوه ضمير الغيبة ـ لتشريفهم، وبيان علو منزلتهم، كما هو في الآية التي قبله.

وصفوة القول أن أمثلة هذا الأسلوب كثيرة في كتاب الله تعالى، ومن أسراره:

١ ـ أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة من الأساليب اللغوية التي تدل على العناية باختيار اللفظ ودقة العبارة، وربط اللفظ بالمعنى.

قال ابن قتيبة: «ومنه ـ أي: باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه ـ أن تخاطب الشاهد بشيءٍ، ثم تجعل الخطاب له على لفظ الغائب، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ۝٣٩﴾ [الرُّوم]، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ٧]، ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات]»[(٣)].

٢ ـ من فوائد انتقال الأسلوب من الخطاب إلى الغيبة: الإعراض عن المخاطب في أغلب المواضع.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١١٠، الدر المصون ١٣/ ١٥٠.
(٢) تفسير أبي السعود ٨/ ١٢٠.
(٣) تأويل مشكل القرآن ١٧٧، وينظر: الصاحبي في فقه اللغة ١٦٤.

كما في قوله تعالى: ﴿...أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ [يونس: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنبياء] ونحوها.

٣ ـ ومن حكم الانتقال من أسلوب الخطاب إلى أسلوب الغيبة كذلك: التفخيم والتشريف.

كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء].

فقد جاء الالتفات في هذه الآية من الخطاب في قوله: ﴿جَآءُوكَ﴾، ثم انتقل إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، ولم يأت: واستغفرت لهم؛ تفخيماً لشأن الرسول ﷺ، وتعظيماً لاستغفاره.

ومن المعلوم أن الاسم الظاهر من قبيل الغيب ما لم يدخل عليه ما يوجب الخطاب(١).

قال العكبري: «ولم يقل: فاستغفرت لهم؛ لأنه رجع من الخطاب إلى الغيبة لما في الاسم الظاهر من الدلالة على أنه الرسول»(٢).

وقال الرازي: «إنما قال: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ ولم يقل: واستغفرت لهم، إجلالاً للرسول عليه الصلاة والسلام، وأنهم إذا جاؤوه فقد

(١) الكليات ٢٤١.

(٢) التبيان في إعراب القرآن ١/ ٣٦٩.

جاؤوا من خصه الله برسالته وأكرمه بوحيه وجعله سفيراً بينه وبين خلقه ومن كان كذلك فإن الله لا يرد شفاعته، فكانت الفائدة في العدول عن لفظ الخطاب إلى لفظ المغايبة ما ذكرناه»[(١)].

وقال أبو حيان: «والتفت في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، ولم يجئ على ضمير الخطاب في: ﴿جَآءُوكَ﴾ تفخيماً لشأن الرسول، وتعظيماً لاستغفاره»[(٢)].

وكذا أفاد الالتفات التفخيم في قوله جل وعلا: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الرُّوم].

ومثله كذلك قوله سبحانه: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ [الحجرات].

إلى غير ذلك من الفوائد واللطائف التي أشار إليها العلماء حول هذا الأسلوب القرآني العربي البليغ، والله تعالى أعلم.

المطلب السادس

انتقال الكلام من الغيبة إلى الخطاب

والمراد به: أن يأتي السياق على أسلوب الغيبة، ثم ينتقل إلى أسلوب الخطاب، وهو كثير في كتاب الله تعالى، وأسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب من أول المواضع التي بيّن فيها المفسرون ما يتعلق بالالتفات[(٣)]، وأظهروا ما في هذا الأسلوب من حِكَم وأسرار[(٤)].

ومن أمثلة هذا الأسلوب في كتاب الله تعالى:

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة].

---

(١) تفسير الرازي ١٠/ ١٣٠. (٢) البحر المحيط ٣/ ٢٩٥.

(٣) لوقوع شاهده في أول سورة الفاتحة.

(٤) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة ١٦٤، البرهان ٣/ ٣٢٢، تفسير أبي السعود ١/ ١٦.

فابتدأت هذه السورة بالحمد والثناء والتمجيد لله تعالى بأسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، ثم انتقل إلى أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾.

قال ابن فارس: «﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ معناه: فأعِنّا على عبادتك»(١).

ولو جرى على أسلوب الغيبة كما هو السياق لكان: إياه نعبد.

قال النحاس: «وقال: إياك، ولم يقل: إياه؛ لأن المعنى: قل يا محمد إياك نعبد على أن العرب ترجع من الغيبة إلى الخطاب»(٢).

وقال أبو حيان: «﴿إِيَّاكَ﴾ التفات؛ لأنه انتقال من الغيبة، إذ لو جرى على نسق واحد لكان: إياه»(٣).

وفي هذا الأسلوب تدرُّج في الثناء فانتقل من الحمد إلى الثناء إلى التمجيد، والعبد إذا وصف الله بهذه الأوصاف قرب منه، وإذا قرب منه ناداه.

قال ابن جزي: «ذكر الله تعالى في أول هذه السورة على طريق الغيبة ثم على الخطاب في: إياك نعبد وما بعده، وذلك يسمى الالتفات، وفيه: إشارة إلى أن العبد إذا ذكر الله تقرب منه؛ فصار من أهل الحضور فناداه»(٤).

وقال أبو السعود: «﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، وتلوين للنظم من باب إلى باب، جار على نهج البلاغة في افتنان الكلام ومسلك البراعة حسبما يقتضي المقام لما أن التنقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في استجلاب النفوس واستمالة القلوب»(٥).

وقال ابن عاشور: «والانتقال من أسلوب الحديث بطريق الغائب المبتدأ من قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ إلى

(١) الصاحبي في فقه اللغة ١٣٤. (٢) معاني القرآن ١/ ٦٥.
(٣) البحر المحيط ١/ ١٤١، وينظر: الدر المصون ١/ ٣٥.
(٤) التسهيل ١/ ٦٤. (٥) تفسير أبي السعود ١/ ١٦.

أسلوب طريق الخطاب ابتداء من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلى آخر السورة، فن بديع من فنون نظم الكلام البديع عند العرب، وهو المسمى في علم الأدب العربي والبلاغة التفاتاً»(١).

وفوائد هذا الأسلوب كثيرة(٢)، ومنها:

١ ـ دلالة اختصاص العبادة والاستعانة واستحقاقها لله جل وعلا، وتقديم الضمير دليل على المبالغة في ذلك.

٢ ـ وكذلك فإن أسلوب الخطاب أخص من أسلوب الغيبة، فاستعمل الأسلوب الأخص في ذكر الفعل الأخص(٣).

قال الألوسي: «سر الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وقد ازدحمت فيه أذهان العلماء بعد بيان نكتته العامة، وهي: التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر تطرية له وتنشيطاً للسامع، فقيل: لما ذكر الحقيق بالحمد ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر الذوات، وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك ليكون أدل على الاختصاص، والترقي من البرهان إلى العيان، والانتقال من الغيبة إلى الشهود، وكأن المعلوم صار عياناً والمعقول مشاهداً والغيب حضوراً»(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ [التوبة].

محل الالتفات في هذه الآية في قوله تعالى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فقد جاءت بأسلوب الخطاب، وما قبلها كان بأسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾، وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾، وكان مقتضى السياق أن يكون: فإن تابوا فهو خير لهم.

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٠٢.
(٢) ينظر: الكشاف ١/ ٥٦، الإتقان ٢/ ١٨٧.
(٣) الإكسير في علم التفسير ١٧٧.
(٤) روح المعاني ١/ ٨٩.

وفي هذا الالتفات من الغيبة إلى الخطاب معنى التهديد والتخويف[١].

قال أبو السعود: «﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ من الشرك والغدر، التفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التهديد والتشديد»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران].

في هذه الآية بيَّن تعالى بَعد مَكْرِ الذين كفروا من بني إسرائيل لقتل عيسى عليه السلام أنه مَكَرَ بهم وهو خير الماكرين، فمكر الله بهم، إذ قال الله لعيسى: إني قابضك من الأرض من غير أن ينالك سوء، ورافعك إليَّ ببدنك وروحك، ومخلصك من الذين كفروا بك، وجاعل الذين اتبعوك ظاهرين على الذين جحدوا نبوتك إلى يوم القيامة، ثم إليّ مصيركم جميعاً يوم الحساب، فأفصِل بينكم فيما كنتم فيه تختلفون من أمر عيسى عليه السلام[٣].

قال الطبري: «ومكر الله بالقوم الذين حاولوا قتلَ عيسى مع كفرهم بالله، وتكذيبهم عيسى فيما أتاهم به من عند ربهم»[٤].

ففي هذه الآية الالتفات من أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾، إلى أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾.

قال أبو حيان: «﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ هذا إخبار بالحشر والبعث، وهذا عندي من الالتفات، فلو جاء على نمط السابق لكان التركيب: ثم إليّ مرجعهم، ولكنه التفت على سبيل الخطاب للجميع، ليكون الإخبار أبلغ في التهديد، وأشد زجراً لمن يزدجر»[٥].

---

(١) ينظر: نظم الدرر ٣/ ٢٧٠، روح المعاني ١٠/ ٤٨.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٤٢.
(٣) ينظر: تفسير القرطبي ٤/ ١٠٠، تفسير السعدي ٥٣، التفسير الميسر ٥٧.
(٤) تفسير الطبري ٦/ ٤٥٥.
(٥) البحر المحيط ٢/ ٤٩٨ بتصرف، وينظر: الدر المصون ٣/ ٤٢١.

ففي هذه الآية معنى البشارة والنّذارة، وجاءت بأسلوب الالتفات ليكون أبلغ في التأثير، وليعم بالخطاب الجميع.

قال البقاعي: «ولما كان البعث عاماً دل عليه بالالتفات إلى الخطاب فقال تكميلاً لما بشر به من النصرة: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: المؤمن والكافر في الآخرة»(١).

وقال أبو السعود: «﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: رجوعكم بالبعث، وثم: للتراخي، وتقديم الجار والمجرور للقصر المفيد لتأكيد الوعد والوعيد، والضمير لعيسى عليه الصلاة والسلام وغيره من المتبعين له والكافرين به على تغليب المخاطب على الغائب في ضمن الالتفات فإنه أبلغ في التبشير والإنذار»(٢).

ويفيد الالتفات إلى أسلوب الخطاب: العناية والاهتمام.

قال الألوسي: «﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: مصيركم بعد يوم القيامة ورجوعكم، وفيه التفات للدلالة على شدة إرادة إيصال الثواب والعقاب؛ لدلالة الخطاب على الاعتناء»(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ [مريم].

لما قرّر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام، وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً ـ تعالى وتقدّس وتنزه عن ذلك علوّاً كبيراً ـ ففي هذه الآيات بيان جرأة الكفار بقولهم: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾، فقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾؛ أي: لقد جئتم ـ أيها القائلون ـ بهذه المقالة شيئاً عظيماً منكراً(٤).

فقد جاء الالتفات من أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾، إلى

---

(١) نظم الدرر ٢/ ٩٩.
(٢) تفسير أبي السعود ٢/ ٤٤.
(٣) روح المعاني ٣/ ١٨٤.
(٤) ينظر: تفسير الطبري ١٨/ ٢٥٧، مفردات ألفاظ القرآن ٦٩، تفسير ابن كثير ٥/ ٢٦٥.

أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿جِئْتُمْ﴾، وفي هذا الالتفات إلى الخطاب معنى التوبيخ على وجه شديد الصراحة؛ لأن من فُتِن في دينه فزعم اتخاذ الرحمٰن ولداً، يُستَنكر منه هذا القول الآثم، ويستحقُّ التوبيخ، وتوبيخُ الحاضر أشد نكاية من توبيخ الغائب، فهذا ـ والله أعلم ـ من أسرار الالتفات في هذه الآية الكريمة[(١)].

قال أبو السعود: «﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ رد لمقالتهم الباطلة، وتهويل لأمرها بطريق الالتفات، المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب، المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح، وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة»[(٢)].

وقال ابن عاشور: «والخطاب في: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ﴾، للذين قالوا: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾، فهو التفات لقصدِ إبلاغهم التوبيخ على وجه شديد الصراحة لا يلتبس فيه المراد»[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾﴾ [عبس].

ذَكَر المفسرون[(٤)] أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطبُ بعض عظماء قريش، وقد طَمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابنُ أم مكتوم ـ وكان ممن أسلم قديماً ـ فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه، وودَّ النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك؛ ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل؛ طمعاً ورغبة في هدايته، وعَبَس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه بوجهه وبدنه، وأقبل على الآخر، فأنزل الله ﷻ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾﴾؟ أي: يحصل له زكاة وطهارة في نفسه[(٥)].

---

(١) ينظر: الكشاف ٣/ ٤٥، تفسير البيضاوي ٤/ ٣٥، البحر المحيط ٦/ ٢٠٥، روح المعاني ١٦/ ١٣٩.

(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٨٢. (٣) التحرير والتنوير ١٦/ ١٧٠.

(٤) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ١٢/ ٨٠٥٤، تفسير ابن كثير ٨/ ٣١٩، تفسير السعدي ٩١٠.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢١٧، والحاكم ٢/ ٥١٤ (٣٨٩٦)، وقال: صحيح على شرط =

قال الشوكاني: «أجمع المفسرون على أن سبب نزول الآية قصة ابن أم مكتوم»[١].

والالتفات في هذه الآية من أسلوب الغيبة في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾، وفيه الإكرام والإجلال واللطف برسول الله ﷺ من المواجهة بالعتاب، ثم انتقل إلى أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾، وفيه الإقبال عليه ﷺ تأنيساً له بعد الإعراض[٢].

قال أبو حيان: «وجاء بضمير الغائب في: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ إجلالاً له عليه الصلاة والسلام، ولطفاً به أن يخاطبه؛ لما في المشافهة بتاء الخطاب مما لا يخفى»[٣].

وقال القرطبي: «ومع هذا أنزل الله في حقه على نبيه ﷺ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ بلفظ الإخبار عن الغائب، تعظيماً له، ولم يقل: عبست وتوليت، ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيساً له»[٤].

وقال البقاعي: «ولما عرف بسياق الغيبة ما أريد من الإجلال، وكان طول الإعراض موجباً للانقباض، أقبل عليه ﷺ فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾؛ أي: وأي شيء يجعلك دارياً بحاله وإن اجتهدت في ذلك، فإن ذوات الصدور لا يعلمها إلا الله تعالى»[٥].

ورأى الزمخشري، وابن عطية: أن العتاب هنا بأسلوب الخطاب زيادةٌ في الإنكار.

قال الزمخشري: «وفي الإخبار عمَّا فرط منه، ثم الإقبال عليه

= الشيخين ولم يخرجاه، والترمذي ٥/ ٤٣٢ (٣٣٣١)، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة عبس، وقال: هذا حديث غريب، والواحدي ٣٧٩، كلهم من حديث عائشة ﵂، وصححه ابن حبان ٢/ ٢٩٣ (٥٣٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ١٢٦ (٢٦٥١).

(١) فتح القدير ٥/ ٥٣٩.
(٢) ينظر: روح المعاني ٣٠/ ٣٩.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٤١٩.
(٤) تفسير القرطبي ١٩/ ٢١٣.
(٥) نظم الدرر ٨/ ٣٢٤.

بالخطاب: دليل على زيادة الإنكار، كمن يشكو إلى الناس جانياً جنى عليه، ثم يقبل على الجاني إذا حمي في الشكاية مواجهاً له بالتوبيخ وإلزام الحجة»(١).

وقال ابن عطية: «وفي مخاطبته بلفظ ذكر الغائب مبالغة في العتب؛ لأن في ذلك بعض الإعراض»(٢).

والذي عليه الأكثر: أن في أسلوب الغيبة إكرام للنبي ﷺ.

قال أبو حيان: «ولابن عطية هنا كلام أضربت عنه صفحاً»(٣).

وقال ابن جزي: «قال ابن عطية: في مخاطبته بلفظ الغائب مبالغة في العَتَب؛ لأن في ذلك بعض الإعراض، وقال الزمخشري: في الإخبار بالغيبة زيادة في الإنكار، وقال غيرهما: هو إكرام للنبي ﷺ، وتنزيه له عن المخاطبة بالعتاب، وهذا أحسن»(٤).

وهذا هو الأقرب والله أعلم.

وبهذا يتبين أن أمثلة هذا الأسلوب في كتاب الله تعالى كثيرة، وعناية المفسرين فيه كبيرة، وانتقال الكلام من الغيبة إلى الخطاب له معان وأغراض كثيرة، ومنها:

١ ـ التهديد والتخويف، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران].

وفي قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النحل]، والالتفات في قوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾(٥).

٢ ـ التوبيخ والتقريع، كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ [مريم].

---

(١) الكشاف ٤/٧٠٢.
(٢) المحرر الوجيز ٥/٤٠٨.
(٣) البحر المحيط ٨/٤١٩.
(٤) التسهيل ٣/٢٨٢، وينظر: تفسير القاسمي ٩/٤٠٥.
(٥) ينظر: روح المعاني ١٤/١٦٦.

وقوله تعالى: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩)﴾ [الأعراف]، فالالتفات في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩)﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦)﴾ [النحل]، فالالتفات في قوله: ﴿لَتُسْأَلُنَّ﴾[٢].

٣ ـ ومن ذلك الامتنان على العباد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٩)﴾ [السجدة]، فالالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾، والغرض: الامتنان[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾ [النور].

فالالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، فتشريع هذه الأحكام فضلٌ من الله تعالى، وأسلوب الخطاب لغرض الامتنان أبلغ.

قال أبو السعود: «التفات إلى خطاب الراجين والمرميات بطريق التغليب لتوفية مقام الامتنان»[٤].

إلى غير ذلك من الأغراض والفوائد لمن تأمل فيها، وهي سِرٌّ من أسرار الإعجاز البلاغي في كتاب الله جل وعلا، والله تعالى أعلم.

☐ وختاماً:

فإن من عادات القرآن: انتقال الكلام من أسلوب إلى أسلوب، ولكلِّ أسلوب من أساليب القرآن حِكَم وفوائد، عرَفَها من عرَفَها، وجَهِلَها من جَهِلَها، **وخلاصة الكلام:**

١ ـ أن عادة القرآن في الانتقال من أسلوب إلى آخر هي عادة العرب في

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود ٣/ ٢٨٨.

(٢) ينظر: تفسير الخازن ٤/ ٩٥.

(٣) ينظر: الدر المصون ١٢/ ٨.

(٤) تفسير أبي السعود ٦/ ١٥٩.

شعرهم ونثرهم[١].

قال النسفي: «والعرب يستكثرون منه، ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع، وأحسن تطرية لنشاطه، وأملأ لاستلذاذ إصغائه، وقد تختص مواقعه بفوائد ولطائف قلما تتضح إلا للحذاق المهرة، والعلماء النحارير، وقليل ما هم»[٢].

فالقرآن نزل بلغة العرب وأساليبهم، وأعجزهم عن الإتيان بمثله، فصار مرجعاً لهم في أساليبهم، مما جعل العلماء يربطون استدلالهم كثيراً بآيات القرآن لهذا الأسلوب.

٢ ـ رفع السآمة والملل من الاستمرار على أسلوب واحد، متكلم أو مخاطب أو غائب، وبالانتقال تستريح النفوس ويتجدد نشاطها، فَيَحسُن الانتقال من أحدها إلى الآخر؛ لأن الكلام المتوالي على نسق واحد غير مُسْتَطَاب.

٣ ـ أن الانتقال الذي هو محل الدراسة هو الانتقال اللفظي لا المعنوي، فيكون المنتَقَل إليه هو في نفس الأمر الملتَفَت عنه[٣].

٤ ـ تنوُّع الأغراض والفوائد من الالتفات في الأساليب على حسب السياق، وهي أكثر من أن تحصر في جزء من بحث، والجامع لها مراعاة المخاطب من حيث الرقَّة أو الشدة.

٥ ـ انتقال الكلام من أسلوب إلى آخر يحث على التفكير في المعنى؛ لأن تغيُّر الأسلوب يدعو للتفكير في السبب.

٦ ـ أن انتقال الأساليب في القرآن لا يتوقف على الضمائر، بل يتعدى للأفعال والأعداد، وغيرها، ولكن باب الضمائر هو أشهرها.

ولذلك اختلفت عبارات العلماء في تحديد هذا المصطلح.

فمنهم من أطلق عليه: الترك والرجوع[٤]، ومنهم من ذكره في باب:

---

(١) عَدَّهُ ابن فارس في فقه اللغة: من سنن العرب في حقائق الكلام ١٤٩.

(٢) تفسير النسفي ١/ ٧، ٨. (٣) ينظر: البرهان ٣/ ٣١٤.

(٤) كأبي عبيدة معْمَر بن المثنى في كتابه: مجاز القرآن ١/ ١٢، ولكنه لم يذكر شيئاً عن =

مخالفة ظاهر اللفظ معناه[١]، وعدُّوه من مجاز القرآن، ومنهم من قال: تحويل الخطاب[٢]، والاصطلاح الذي عليه الجمهور: الالتفات، وقد أفرده المتأخرون بمبحث مستقل، وتتابع العلماء على التأليف فيه واستفادة بعضهم من بعض وتوسع بعضهم في الموضوع، وهو حقيق بالبحث والاستنباط أكثر، والله تعالى أعلم.

= الالتفات من ضمير الخطاب إلى ضمير التكلم في القرآن الكريم أو العكس، ولم يشر إلى أي سر من أسرار الالتفات في أي نوع من أنواعه، ومع ذلك فإنه يعتبر من أوائل من تكلم عن أسلوب الالتفات في كتابٍ مُؤَلف، واستفاد منه من بعده.
وسماه المبرد تركاً حيث قال: «والعربُ تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب»، الكامل في اللغة ٣/ ١٧.

(١) ينظر: تأويل مشكل القرآن ١٧٧، فقد أشار إليه في باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه.
(٢) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة ١٦٣، ١٦٤.

الخَاتِمَة

الحمدُ لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات، والصلاة والسلام على خير البريَّات، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، **أما بعد**:

فقد عشت مع هذا البحث فترة من عمري، أقلِّب فيها كتب التفسير، وأهل اللغة؛ من المتقدمين والمتأخرين، لأستخرج شيئاً من أسرار القرآن العظيم وكنوزه، من خلال جمع عاداته الأسلوبية، وتحقيقها بدراسة الأمثلة التطبيقية من آيات القرآن، فزادت معرفتي لأهمية هذا الموضوع وحاجته إلى وقت أطول، ومشروع أكبر، وظهر لي عدة نتائج أثناء البحث، **أبرزها ما يلي**:

- ظهور عناية العلماء قديماً وحديثاً بعادات القرآن، على اختلاف عباراتهم في تحديد هذا المصطلح؛ إذ بعضهم يعبر عنه بذكر الأمثلة عليه، كما هي عادة السلف الأوائل؛ حيث لم يكونوا يُعنَون بالحدود والتعريفات، ولم يظهر هذا المصطلح إلا في القرن السادس الهجري.
- أن عادات القرآن ليست محصورة على أساليبه، بل عاداته متنوعة لا يمكن حصرها، ومن ذلك: عادات القرآن الشرعية، واللغوية، والفقهية، والعقدية، وغيرها مما يفتح الأفق للباحثين في هذا الموضوع.
- أن العادات الأسلوبية في القرآن لا تخلو من دلالة خاصة ميَّزت اختيار الأسلوب في القرآن، وهي محل تدبر وتأمل، ودافع للإيمان بإعجاز هذا القرآن من جميع الوجوه.
- أن الأسلوب شامل للحروف والألفاظ والتراكيب، وكل حرف في القرآن فله معنى.
- أن عادات القرآن من جملة العلوم المضافة إلى القرآن.

- عادات القرآن من أهم دلالات الترجيح بين المعاني عند المفسِّرين.
- عادات القرآن تحمي المفسِّر من القول على الله بلا علم.
- إيجاب العلماء تنزيل معاني القرآن على المعهود من عُرفه وعادته.
- **من عادات القرآن:** اختيار الحرف واللفظ المناسب للسياق، نيابة بعض الحروف أو الألفاظ عن بعض، التأكيد ببعض الحروف أو حذفها، استعمال بعض الألفاظ لمعنى خاص، الحذف والذكر، والإضمار والإظهار، والإيجاز والإطناب، اقتران بعض الألفاظ أو الآيات الكونية أو الأحكام ببعض، ربط القصص بما يناسبها، وقَصْرها على المقصود، مع تكرار بعضها، خطاب الأنبياء بأسمائهم، ونبينا ﷺ بوصفه، وعموم الخطاب، والانتقال بين الأساليب، وغيرها كثير كما جاء تفصيل ذلك في ثنايا البحث.
- زادت قناعتي بأن علوم القرآن لا تنفد، وأن نعم الله تعالى عامة على عباده، فقام العلماء السابقون بخدمة كتاب الله بكل ما يستطيعون، وتركوا الكثير لمن بعدهم، فنحمد الله تعالى على ما يسَّر، ونسأله دوام التوفيق والسداد.
- لا بُدَّ لاستخراج عادات القرآن من الاستقراء الكامل لكتاب الله، بتأمل وتدبر، مع استجماع شروط المفسر لئلا يحصل الخطأ والزلل.
- ولا أدَّعي في جمعي هذا أني أحطت بجميع عادات القرآن؛ لأن البحث يعتمد على الاستقراء، الذي يصعب معه الاستقصاء، ولكن حسبي أن بذلت غاية وسعي، ونهاية جهدي، والله الموفق، وهو حسبي ونعم الوكيل.

❑ المقترحات والتوصيات:

- ضرورة التوسع في جمع عادات القرآن المتنوعة في موسوعات علمية من خلال مشاريع بحثية.

- العناية بعادات القرآن ضمن تدريس تفسير كتاب الله تعالى وعلومه، وبيان أهمية الرجوع إليها عند الاختلاف في معنى اللفظ اللغوي.

- تأصيل المنهج الصحيح لاستخراج هذه العادات، والحكم عليها، من خلال الندوات والمؤتمرات العلمية.

- من الموضوعات التي لا زالت بحاجة إلى بحث:

١ - خروج اللفظ عن مقتضى الظاهر وتحته عادات كثيرة.

٢ - دراسة الاقتران في القرآن وفيه فروع كثيرة.

٣ - التقديم والتأخير من أجل الفاصلة القرآنية.

٤ - الدقة في ألفاظ القرآن الكريم.

٥ - دراسة عادات القرآن اللغوية، والفقهية، والعقدية، والتربوية، والدعوية، وغيرها.

٦ - دراسة أساليب الالتفات في القرآن وإظهار إعجازه وبلاغته وأسراره من خلالها.

وفي الختام أكرر حمدي وشكري لله تعالى على ما يسر وأعان على إتمام هذا البحث وأنا في أتم الصحة والعافية، كما أكرر شكري لمشرِفَيّ الأفاضل، ولكل من أفادني وكان سبباً في تيسير بحثي، كما أعترف أن هذا جهد بشري، وهو عرضة للنقص والخطأ، والكمال لله وحده.

وكما قال الأول: إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

ولكن حسبي أني بذلت الوسع في إعطاء البحث حقه من الاهتمام والجدية.

وأستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم، أو طغى به القلم، وأستغفر الله من أقوالي التي لا توافقها أعمالي، وأستغفر الله من كل خطرة دعتني إلى التصنع والتزين في بحثي، وأرجو الله تعالى لمن طالع بحثي أن يُكرَمَ بالرحمة والمغفرة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهراً وباطناً، وأن لا يبخل عليّ بتوجيه أو تنبيه، وتقويم أو تصويب، وله مني الشكر والدعاء.

أسأل الله العلي القدير أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم،

مكتوباً له القبول في الدنيا والآخرة، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

❊ ❊ ❊

الفهارس

* ثبت المصادر والمراجع.

* فهرس الموضوعات.

ثبت المصادر والمراجع

١ ـ **إبراز المعاني من حرز المعاني في القراءات السبع**: لعبد الرحمٰن بن إسماعيل بن إبراهيم، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، نشر شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي.

٢ ـ **الإبهاج في شرح المنهاج**: لعلي بن عبد الكافي السبكي، وولده عبد الوهاب، مكتبة دار الباز، دار الكتب العلمية.

٣ ـ **إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر**: لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي، تحقيق: أنس مهرة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ.

٤ ـ **إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل**: د. عبد الكريم بن علي النملة، دار العاصمة ط١، ١٤١٧هـ.

٥ ـ **الإتقان في علوم القرآن**: لأبي الفضل جلال الدين عبد الرحمٰن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٦ ـ **الإحكام في أصول الأحكام**: للإمام علي بن محمد الآمدي، تعليق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، ط١، ١٣٨٧هـ.

٧ ـ **الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام**: لشهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، نشر: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٣٨٧هـ.

٨ ـ **أحكام القرآن**: لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، ضبط نصه وخرج آياته: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية.

٩ ـ **أحكام القرآن**: لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

١٠ ـ **أحكام القرآن**: لأبي الحسن علي بن محمد الطبري الشافعي، المعروف بالكيا الهراسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.

١١ ـ **إحياء علوم الدين**: لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، دار االمعرفة، بيروت.

١٢ ـ **آداب المشي إلى الصلاة مع شرحه**: للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، دراسة وتحقيق: محمد بن عبد الرحمٰن بن قاسم، الناشر: محمد بن عبد الرحمٰن بن قاسم، الرياض المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٩هـ.

١٣ ـ **أدب الكاتب**: لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفي الدينوري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، مصر، ط٤، ١٩٦٣م.

١٤ ـ **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول**: للإمام محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ.

١٥ ـ **أسباب النزول**: للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، تحقيق د. السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، ط٤، ١٤١٢هـ.

١٦ ـ **أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان**: لتاج القراء محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة.

١٧ ـ **أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية**: لحسن طبل، دار الفكر العربي، ط١، ١٤١٨هـ.

١٨ ـ **أسماء الله الحسنى**: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المعروف بابن القيم، تحقيق: يوسف علي بديوي، وأيمن عبد الرزاق الشوّا، دار ابن كثير، دمشق بيروت، ط٣، ١٤٢١هـ.

١٩ ـ **الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة النعمان**: لزين العابدين بن إبراهيم بن نجيم، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٤٠٠هـ.

٢٠ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**: لابن حجر العسقلاني، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، ط١، ١٤١٢هـ.

٢١ ـ **الأصول الثلاثة**: لمحمد بن عبد الوهاب، شعبة توعية الجاليات، الزلفي، ط١، ١٤٢٥هـ.

٢٢ ـ **الأصول في النحو**: لأبي بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي، تحقيق: د.عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٨٨م.

٢٣ ـ **أصول الفقه الإسلامي**: للدكتور: وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.

٢٤ ـ **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**: لمحمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ١٤١٥هـ.

٢٥ ـ **إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد**: تأليف د. صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٢٣هـ.

٢٦ ـ **إعجاز القرآن**: لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، علّق عليه: أبو عبد الرحمٰن صلاح بن محمد عويضة، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ.

٢٧ ـ **إعراب القرآن الكريم وبيانه**: لمحيي الدين الدرويش، دار ابن كثير، ط٦، ١٤١٩هـ.

٢٨ ـ **إعراب القرآن**: لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس، تحقيق: د. زهير غازي زاهد، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، ط٢، ١٤٠٥هـ.

٢٩ ـ **إعراب القرآن المنسوب**: لأبي إسحاق الزجاج، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، ط١، ٢٠٠١م.

٣٠ ـ **إعراب القرآن وعلل القراءات المسمى: كشف المشكلات وإيضاح المعضلات**: لنور الدين أبي الحسن علي بن الحسين الباقولي، تحقيق: د. عبد القادر عبد الرحمٰن السعدي، دار عمار، ط١، ١٤٢١هـ.

٣١ ـ **الأعلام (قاموس تراجم أشهر الرجال والنساء العرب والمستعربين والمستشرقين)**: لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.

٣٢ ـ **الاقتضاب في شرح أدب الكتاب**: لأبي محمد عبد الله بن محمد البطليوسي، تحقيق: مصطفى السقا، د. حامد عبد المجيد، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٦م.

٣٣ ـ **الإكسير في علم التفسير في أصول وقواعد التفسير**: لسليمان بن عبد القوي الطوفي، تحقيق: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ٢٠٠٩م.

٣٤ ـ **ألفية ابن مالك في النحو والصرف**: لمحمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي، مطبعة النهضة الوطنية، نشر: دار طيبة، الرياض، ط٣، ١٤٠٩هـ.

٣٥ ـ **الأمثال السائرة من شعر المتنبي**: للصاحب بن عباد، تحقيق: جميل عبد الله عويضة، ط، ١٤٣٠هـ.

٣٦ ـ **الأنساب**: للإمام أبي سعيد عبد الكريم بن منصور التميمي السمعاني، تعليق: عبد الله البارودي، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤٠٨هـ.

٣٧ ـ **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك**: لجمال الدين عبد الله الأنصاري، دراسة وتحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٣٨ ـ **الإيضاح في علوم البلاغة**: للخطيب القزويني، توزيع مكتبة عباس أحمد الباز، دار الكتب العلمية.

٣٩ ـ **البحر المحيط**: لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ.

٤٠ ـ **البحر المحيط في أصول الفقه**: لبدر الدين محمد بن بهادر الزركشي، دار الكتبي.

٤١ ـ **بدائع الفوائد**: لابن قيم الجوزية، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا وعادل عبد الحميد العدوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٦هـ.

٤٢ ـ **البداية والنهاية**: للحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، ط١، ١٤١٩هـ.

٤٣ ـ **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**: للقاضي محمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ.

٤٤ ـ **البرهان في أصول الفقه**: لإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني، تحقيق: د. عبد العظيم محمود الديب، دار الوفاء ط٣، ١٤٢٠هـ.

٤٥ ـ **البرهان في علوم القرآن**: لمحمد بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ.

٤٦ ـ **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**: لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي، المكتبة العلمية، بيروت.

٤٧ ـ **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة**: لعبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط١٧، ١٤٢٦هـ.

٤٨ ـ **البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني**: لـ د. فضل حسن عباس، دار النفائس، الأردن، ط١٢، ١٤٢٩هـ.

٤٩ ـ **البيان والتبيين**: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: المحامي فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

٥٠ ـ **التأسيس في أصول الفقه على ضوء الكتاب والسُّنَّة**: لأبي إسلام مصطفى بن محمد بن سلامة، مكتبة الحرمين للعلوم النافعة، ط٣، ١٤١٥هـ.

٥١ ـ **تأويل مشكل القرآن**: لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، علّق عليه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٣هـ.

٥٢ ـ **تاج العروس من جواهر القاموس**: لمحمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، نشر: دار الهداية.

٥٣ ـ **تاريخ الأمم والرسل والملوك**: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.

٥٤ ـ **تاريخ بغداد**: لأحمد بن علي الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

٥٥ ـ **التبيان في أقسام القرآن**: لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ١٤٠٢هـ.

٥٦ ـ **التبيان في إعراب القرآن**: لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، ط٢، ١٤٠٧هـ.

٥٧ ـ **تذكرة الحفاظ**: لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

٥٨ ـ **تراجم لتسعة من الأعلام**: د. محمد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع، السعودية، ط١، ١٤٢٨هـ.

٥٩ ـ **التحرير والتحبير**: لمحمد بن محمد بن أمير الحاج الحنبلي، دراسة وتحقيق: عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

٦٠ ـ **التحرير والتنوير**: للإمام الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

٦١ ـ **التسهيل لعلوم التنزيل**: للإمام ابن جزي الكلبي، ضبط: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ.

٦٢ ـ **التعريفات**: للشريف علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ.

٦٣ ـ **تغليق التعليق على صحيح البخاري**: لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: سعيد عبد الرحمٰن موسى القزقي، المكتب الإسلامي دار عمار، الأردن، ط١، ١٤٠٥هـ.

٦٤ ـ **تفسير ابن أبي حاتم**: لعبد الرحمٰن بن محمد بن إدريس الرازي تحقيق: أسعد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا.

٦٥ ـ **تفسير أبي السعود المسمى**: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للقاضي أبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، وضع حواشيه: عبد اللطيف عبد الرحمٰن، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ.

٦٦ ـ **تفسير أسماء الله الحسنى**: للشيخ عبد الرحمٰن السعدي، دراسة وتحقيق: عبيد بن علي العبيد، نشر في: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ١١٢ السنة ٣٣، ١٤٢١هـ.

٦٧ ـ **تفسير البغوي المسمى**: معالم التنزيل للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي الشافعي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ.

٦٨ ـ **تفسير البيضاوي**: لعبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي الشيرازي الشافعي، دار الفكر، بيروت لبنان.

٦٩ ـ **تفسير الثعالبي**: لعبد الرحمٰن بن محمد بن مخلوف الثعالبي المالكي، دار الأعلمية، بيروت.

٧٠ ـ **تفسير الجلالين تصنيف**: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، عناية: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، ١٤١٩هـ.

٧١ ـ **تفسير الرازي، المسمى مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير**: لفخر الدين محمد بن عمر الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ.

٧٢ ـ **تفسير السعدي المسمى: تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان**: للشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، في سبع مجلدات، مركز صالح بن صالح الثقافي، عنيزة، ١٤٠٧هـ.

٧٣ ـ **تفسير السمرقندي المسمى: بحر العلوم**: لنصر بن محمد أبو الليث السمرقندي، تحقيق: د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت.

٧٤ ـ **تفسير السمعاني**: لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، غنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ.

٧٥ ـ **تفسير الطبري المسمى: جامع البيان عن تأويل آي القرآن**: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط١، ١٤٢٢هـ.

٧٦ ـ **تفسير**: العز بن عبد السلام الدمشقي الشافعي، تحقيق: د. عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.

٧٧ ـ **تفسير القاسمي المسمى: محاسن التأويل**: لمحمد جمال الدين القاسمي، ضبطه: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ.

٧٨ ـ **تفسير القرآن العظيم**: للإمام المحدث ابن كثير، تحقيق: سامي محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع ط٢، ١٤٢٠هـ.

٧٩ ـ **تفسير القرآن الكريم (الفاتحة، البقرة)**: للشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي للنشر، بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن عثيمين الخيرية، ط١، ١٤٢٣هـ.

٨٠ ـ **تفسير القرآن الكريم (جزء عم)**: للشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار الثريا للنشر بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن عثيمين الخيرية، ط١، ١٤٢٣هـ.

٨١ ـ **تفسير القرطبي المسمى: الجامع لأحكام القرآن**: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ثمان مجلدات، دار الشعب، القاهرة.

٨٢ ـ **التفسير القيم لابن القيم**: جمع: محمد أويس الندوي، تحقيق: محمد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٨٣ ـ **التفسير الميسر**: إعداد نخبة من العلماء بإشراف عبد الله بن عبد المحسن التركي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ط١، ١٤١٨هـ.

٨٤ ـ **تفسير النسفي المسمى: مدارك التنزيل وحقائق التأويل**: لأبي البركات عبد الله النسفي، دار الفكر.

٨٥ ـ **التفسير والمفسرون**: لـ د. محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، ط٦، ١٤١٦هـ.

٨٦ ـ **التقرير والتحبير في شرح التحرير**: لمحمد بن محمد بن محمد بن أمير الحاج، مؤسسة قرطبة.

٨٧ ـ **التمهيد في أصول الفقه**: لأبي الخطاب محفوظ بن أحمد بن الحسن، تحقيق: د. مفيد أبو عمشة، د. محمد إبراهيم، دار المدني، نشر جامعة أم القرى ط١، ١٤٠٦هـ.

٨٨ ـ **تهذيب اللغة**: لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٨٩ ـ **التيسير فى القراءات السبع**: لأبي عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمرو الداني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ.

٩٠ ـ **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**: للخطابي، بيان إعجاز القرآن، والرماني، النكت في إعجاز القرآن، والجرجاني، الرسالة الشافية، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، ود. محمد زغلول سلام، ط٣ دار المعارف بمصر.

٩١ - **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم**: للإمام أبي الفرج عبد الرحمٰن بن شهاب الدين البغدادي الشهير بابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٤١٤هـ.

٩٢ - **جامع المسائل**: لأبي العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد عزيز شمس، وإشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٢هـ.

٩٣ - **الجدول في إعراب القرآن**: لمحمود بن عبد الرحيم صافي، دار الرشيد مؤسسة الإيمان، دمشق، ط٤، ١٤١٨هـ.

٩٤ - **الجرح والتعديل**: لعبد الرحمٰن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي، دار إحياء التراث، بيروت، ط١، ١٢٧١هـ.

٩٥ - **جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام**: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المعروف بابن القيم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة، الكويت، ط٢، ١٤٠٧هـ.

٩٦ - **الجنى الداني في حروف المعاني**: للحسن بن قاسم المرادي، تحقيق: د. فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ.

٩٧ - **الجواهر المضية في طبقات الحنفية**: لعبد القادر بن أبي الوفاء محمد بن أبي الوفاء القرشي، تحقيق: مير محمد كراتشي، ١٣٣٢هـ.

٩٨ - **الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون في المعاني والبيان والبديع**: لعبد الرحمٰن بن سيدي محمد الصغير بن محمد بن عامر الأخضري، وشرحه: **حلية اللب المصون على الجوهر المكنون**: لأحمد بن عبد المنعم الدمنهوري، طبعة عيسى البابي الحلبي، مايو/أيار ١٨٨٢م.

٩٩ - **حاشية ابن القيم على سنن أبي داود**: لمحمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ.

١٠٠ - **حاشية مقدمة التفسير**: لعبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم الحنبلي، ط٢، ١٤١٠هـ.

١٠١ - **الحجة في القراءات السبع**: للإمام ابن خالويه، تحقيق وشرح: د. عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، ط٦، ١٤١٧هـ.

١٠٢ - **حجة القراءات**: لأبي زرعة عبد الرحمٰن بن محمد بن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني، ط٤، ١٤٠٤هـ، بيروت مؤسسة الرسالة.

١٠٣ - **حلية الأولياء**: لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ.

١٠٤ ـ **الحيوان**: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت لبنان، سنة ١٤١٦هـ.
١٠٥ ـ **الخصائص**: لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت.
١٠٦ ـ **خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه**: لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ط١، ١٤٠٠هـ.
١٠٧ ـ **دراسات في علوم القرآن الكريم**: أ.د فهد بن عبد الرحمٰن بن سليمان الرومي، مكتبة التوبة، ط٩، ١٤٢١هـ.
١٠٨ ـ **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**: لمحمد بن عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥هـ.
١٠٩ ـ **الدر المصون في علم الكتاب المكنون**: لأحمد بن يوسف، المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: د. أحمد بن محمد الخراط، دار القلم، دمشق.
١١٠ ـ **الدر المنثور**: لجلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، ثمان مجلدات، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.
١١١ ـ **الدرر السنية في الأجوبة النجدية**: جمع عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم الحنبلي، ط٦، ١٤١٧هـ.
١١٢ ـ **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**: لأبي الفضل أحمد بن علي العسقلاني، مراقبة: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف، الهند، ط٢، ١٣٩٢هـ.
١١٣ ـ **دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب**: للشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي، عناية: عمر عبد السلام السلامي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ.
١١٤ ـ **دلائل الإعجاز**: لعبد القاهر الجرجاني تعليق: د. محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.
١١٥ ـ **دلائل النبوة**: للبيهقي، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، ودار الريان للتراث، ط١، ١٤٠٨هـ.
١١٦ ـ **ديوان زهير بن أبي سلمى**: دار بيروت، ١٤٠٢هـ.
١١٧ ـ **ديوان أبي الطيب المتنبي**: شرحه وكتب هوامشه: مصطفى السبيتي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
١١٨ ـ **الذيل على طبقات الحنابلة**: للإمام أبي الفرج عبد الرحمٰن بن شهاب الدين البغدادي الشهير بابن رجب، دار المؤيد، دار المعرفة، بيروت.

١١٩ ـ **الرد على البكري**: لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: محمد علي عجال، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ط١، ١٤١٧هـ.

١٢٠ ـ **الرد على المنطقيين**: لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، دار المعرفة، بيروت.

١٢١ ـ **رصف المباني في شرح حروف المعاني**: لأحمد بن عبد النور المالقي، تحقيق: أ.د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط٣، ١٤٢٣هـ.

١٢٢ ـ **روح المعاني**: لأبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث، بيروت.

١٢٣ ـ **روضات الجنات في أحوال العلماء**: والسادات لمحمد باقر الموسوي، الطبعة الثانية.

١٢٤ ـ **روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقة على مذهب الإمام أحمد بن حنبل**: لموفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، مكتبة المعارف، الرياض.

١٢٥ ـ **زاد المسير في علم التفسير**: للإمام أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن الجوزي، عناية: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٤هـ.

١٢٦ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**: لابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١٤، ١٤٠٧هـ.

١٢٧ ـ **الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي**: لمحمد بن أحمد بن الأزهر الأزهري الهروي أبو منصور، تحقيق: د. محمد جبر الألفي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط١، ١٣٩٩م.

١٢٨ ـ **الزهد**: لعبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي، تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢٩ ـ **سر صناعة الإعراب**: لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: د.حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٨٥.

١٣٠ ـ **سنن ابن ماجه**: محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

١٣١ ـ **سنن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي**: دار الحديث، ط١، ١٣٨٨هـ.

١٣٢ ـ **سنن الترمذي المسمى الجامع الصحيح**: لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق أحمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣٣ ـ **سير أعلام النبلاء**: للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٥هـ.

١٣٤ ـ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**: لعبد الحي بن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ.

١٣٥ ـ **شرح ابن عقيل عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني على ألفية ابن مالك**: دار الفكر، ١٤١٤هـ.

١٣٦ ـ **شرح الرضي**: لكافية ابن الحاجب، تحقيق: د. حسن بن محمد الحفظي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤١٤هـ.

١٣٧ ـ **شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب**: لعبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام، تحقيق: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، ط١، ١٩٨٤م.

١٣٨ ـ **شرح صحيح البخاري**: لأبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ.

١٣٩ ـ **شرح صحيح مسلم بن الحجاج**: لأبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٣٩٢م.

١٤٠ ـ **شرح العقيدة الطحاوية**: للإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي، تحقيق: د. عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ط٦، ١٤١٤هـ.

١٤١ ـ **شرح الكوكب المنير المسمَّى: مختصر التحرير**: للعلامة محمد بن أحمد الفتوحي المعروف بابن النجار، تحقيق: د. محمد الزحيلي ود. نزيه حماد، مكتبة العبيكان، ١٤١٣هـ.

١٤٢ ـ **شرح مختصر روضة الناظر**: لنجم الدين أبي الربيع سليمان بن عبد القوي الطوفي، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، توزيع: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، ط٢، ١٤١٩هـ.

١٤٣ ـ **شرح المفصل**: لموفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي، عالم الكتب، بيروت.

١٤٤ ـ **شعب الإيمان**: لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

١٤٥ ـ **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**: للقاضي عياض، تحقيق: علي بن محمد البجاوي، مكتبة البابي الحلبي، ١٩٧٧م.

١٤٦ ـ **الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي حياته وآثاره**: لسعود بن صالح السيف، دار العاصمة، ط١، ١٤١٥هـ.

١٤٧ ـ **الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها**: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تعليق: أحمد حسن، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٨هـ.

١٤٨ ـ **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**: لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٩هـ.

١٤٩ ـ **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**: لمحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ.

١٥٠ ـ **صحيح البخاري**: للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الشعب، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ.

١٥١ ـ **صحيح الجامع الصغير وزياداته**: لمحمد ناصر الدين الألباني، إشراف: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٨هـ.

١٥٢ ـ **صحيح سنن ابن ماجه**: لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ط١، ١٤١٧هـ.

١٥٣ ـ **صحيح سنن الترمذي**: لمحمد ناصر الدين الألباني، تعليق: زهير الشاويش، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط١، ١٤٠٨هـ.

١٥٤ ـ **صحيح مسلم**: للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٥٥ ـ **الصحيح المسند من أسباب النزول**: لأبي عبد الرحمٰن مقبل بن هادي الوادعي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤١٤هـ.

١٥٦ ـ **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**: لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم، تحقيق: د. علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ط٣، ١٤١٨هـ.

١٥٧ ـ **ضياء السالك إلى أوضح المسالك**: لمحمد عبد العزيز النجار، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، توزيع مكتبة المغني، الرياض.

١٥٨ ـ **الطب النبوي**: لأبي بكر محمد بن ابن قيم الجوزي، تحقيق: السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط١، ١٤١٠هـ.

١٥٩ ـ **طبقات الحفاظ**: لأبي الفضل عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.

١٦٠ ـ **طبقات الحنابلة**: للقاضي أبي الحسين محمد بن أبي يعلى، دار المعرفة، بيروت، توزيع دار المؤيد، الرياض.

١٦١ ـ **طبقات الشافعية الكبرى**: لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٠هـ.

١٦٢ ـ **طبقات فحول الشعراء**: لمحمد بن سلام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.

١٦٣ ـ **طبقات المفسرين**: للإمام جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية.

١٦٤ ـ **طبقات المفسرين**: لشمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداوودي، دار الكتب العلمية.

١٦٥ ـ **طبقات المفسرين**: لأحمد بن محمد الأدنه وي، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة النبوية، ط١، ١٤١٧هـ.

١٦٦ ـ **الطراز لأسرار البلاغة وحقائق علوم الإعجاز**: ليحيى بن حمزة العلوي اليمني، تحقيق: عبد الحميد بن أحمد الهنداوي، الجيزة، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٦٧ ـ **العبر في خبر من غبر**: لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٤م.

١٦٨ ـ **العدة في أصول الفقه**: للقاضي أبي يعلى محمد بن الحسين ابن الفراء البغدادي الحنبلي، تحقيق: د. أحمد بن علي سير المباركي، ط٣، ١٤١٤هـ.

١٦٩ ـ **العرف وأثره في الشريعة والقانون**: للشيخ أحمد بن سير المباركي، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط١، ١٤١٢هـ.

١٧٠ ـ **العين**: لأبي عبد الرحمٰن الخليل بن أحمد الفراهيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٧١ ـ **غاية النهاية في طبقات القراء**: لشمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن الجزري، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٠هـ.

١٧٢ ـ **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**: لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٤١٦هـ.

١٧٣ ـ **غريب الحديث**: لأبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد بن الجوزي، تحقيق: د.عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

١٧٤ ـ **غريب القرآن**: لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.
١٧٥ ـ **غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب**: لأبي بكر محمد بن عُزير السجستاني، تحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة، سوريا، ط١، ١٤١٦هـ.
١٧٦ ـ **الفاصلة في القرآن**: لمحمد الحسناوي، دار عمار، ط٢، ١٤٢١هـ.
١٧٧ ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**: لابن حجر أحمد بن علي العسقلاني، تعليق: الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ومحب الدين الخطيب، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، مصورة عن الطبعة السلفية.
١٧٨ ـ **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**: للإمام محمد بن علي الشوكاني، ضبط: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ.
١٧٩ ـ **الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم**: لـ د. محمد بن عبد الرحمٰن الشايع، مكتبة العبيكان، الرياض السعودية، ١٤١٤هـ.
١٨٠ ـ **الفروق في اللغة**: لأبي هلال العسكري، تحقيق: جمال عبد الغني مدغمش، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٧هـ.
١٨١ ـ **الفصول في الأصول**: لأحمد بن علي الرازي الجصاص، تحقيق: د. عجيل جاسم النشمي، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية دولة الكويت ط١، ١٤٠٥هـ.
١٨٢ ـ **فضائل القرآن**: لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: وهبي سليمان غاوجي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٤١١هـ.
١٨٣ ـ **فقه اللغة**: لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، تحقيق: د. جمال طلبة، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٤هـ.
١٨٤ ـ **فقه اللغة وأسرار العربية**: لأبي منصور الثعالبي، ضبط وفهرسة: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط٢، ١٤٢٠هـ.
١٨٥ ـ **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**: لعبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، تحقيق: حسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م.
١٨٦ ـ **فوات الوفيات**: لمحمد شاكر أحمد الكتبي، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
١٨٧ ـ **القاموس المحيط**: لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي الشافعي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ.

١٨٨ ـ **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ**: لعبد الرحمٰن بن حسن حبنكة، دار القلم، دمشق، ط٣، ١٤٢٥هـ.

١٨٩ ـ **قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية**: د. حسين بن علي الحربي، دار القاسم ط١، ١٤١٧هـ.

١٩٠ ـ **قواعد التفسير جمعاً ودراسة**: للدكتور: خالد بن عثمان السبت، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ.

١٩١ ـ **القواعد الحسان لتفسير القرآن**: للشيخ: عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤١٣هـ.

١٩٢ ـ **القول المفيد على كتاب التوحيد**: لفضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، ط٣، ١٤١٩هـ.

١٩٣ ـ **الكامل في اللغة والأدب**: لأبي العباس، محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٤١٧هـ.

١٩٤ ـ **الكتاب كتاب سيبويه**: لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المشهور بسيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، عالم الكتب، ط٣، ١٤٠٣هـ.

١٩٥ ـ **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**: لمحمد علي التهانوي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٦م.

١٩٦ ـ **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**: لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تعليق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٧هـ.

١٩٧ ـ **كشف المعاني في المتشابه من المثاني**: لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة، تحقيق: مرزوق علي إبراهيم، دار الشريف للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ.

١٩٨ ـ **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها**: لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: د. محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٤١٨هـ.

١٩٩ ـ **الكشف والبيان**: لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ.

٢٠٠ ـ **كليات الألفاظ في التفسير دراسة نظرية تطبيقية**: لبريك بن سعيد القرني، ط١، ١٤٢٦هـ.

٢٠١ ـ **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**: لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٩هـ.

٢٠٢ ـ **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**: لعلي بن حسام الدين المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م.

٢٠٣ ـ **لسان العرب**: لمحمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، ط١، ١٣٧٤هـ.

٢٠٤ ـ **اللباب في علل البناء والإعراب**: لأبي البقاء محب الدين عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، تحقيق: غازي مختار، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٥م.

٢٠٥ ـ **اللباب في علوم الكتاب**: لأبي حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٤١٩هـ.

٢٠٦ ـ **اللمحة شرح الملحة**: لمحمد بن الحسن الصايغ، تحقيق: إبراهيم بن سالم الصاعدي، نشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، السعودية، ط١، ١٤٢٤هـ.

٢٠٧ ـ **ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن**: لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، عناية: د. محمد رضوان، دار البشائر، دمشق، ط١، ١٤١٣هـ.

٢٠٨ ـ **مباحث علوم القرآن لمناع القطان**: ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢٣، ١٤١١هـ.

٢٠٩ ـ **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**: لأبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥م.

٢١٠ ـ **مجاز القرآن**: لأبي عبيدة، تحقيق: فؤاد سزكين، مطبعة دار السعادة، مصر، ط١، ١٩٥٥م.

٢١١ ـ **مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة**: العدد (٣) السنة (٦) محرم ١٣٩٤هـ.

٢١٢ ـ **مجموع رسائل ابن عابدين**: لمحمد أمين أفندي الشهير بابن عابدين، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م.

٢١٣ ـ **مجمع الزوائد**: لعلي بن أبي بكر الهيثمي، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ.

٢١٤ ـ **مجموع فتاوى شيخ الإسلام**: أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦هـ.

٢١٥ ـ **مجموع فتاوى ورسائل**: فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين جمع وترتيب فهد بن ناصر السليمان.

٢١٦ ـ **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات**: لابن جني، تحقيق: علي النجدي ناصف، د. عبد الحليم النجار، د. عبد الفتاح شلبي، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٦هـ.

٢١٧ ـ **المحرر في علوم القرآن**: د. مساعد بن سليمان الطيار، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، ط٢، ١٤٢٩هـ.

٢١٨ ـ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ.

٢١٩ ـ **المحصول في علم أصول الفقه**: لفخر الدين محمد بن عمر الرازي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٢٢٠ ـ **المحلى شرح المجلى**: لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٢٢١ ـ **محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه**: للأستاذ مسعود الندوي، تعليق: عبد العليم البستوي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، ١٤٢٠هـ.

٢٢٢ ـ **المخصص**: لأبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده، تحقيق: خليل إبراهم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.

٢٢٣ ـ **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ.

٢٢٤ ـ **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**: لجلال الدين السيوطي، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨م.

٢٢٥ ـ **مستدرك الحاكم**: لمحمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

٢٢٦ ـ **المستصفى في علم الأصول**: لمحمد بن محمد الغزالي أبو حامد، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ.

٢٢٧ ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل ضمن الموسوعة الحديثية المحققة**: بإشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٠هـ.

٢٢٨ ـ **مسند البزار**: لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، تحقيق: د. محفوظ الرحمٰن زين الله، وعادل سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة، ط١، ١٤٠٩هـ.

٢٢٩ ـ **المسودة في أصول الفقه**: لآل تيمية مجد الدين عبد السلام بن تيمية، وعبد الحليم بن تيمية، وأحمد بن تيمية، تحقيق: د. أحمد بن إبراهيم الذروي، دار ابن حزم ط١، ١٤٢٢هـ.

٢٣٠ ـ **مشكاة المصابيح**: لمحمد بن عبد الله التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ.

٢٣١ ـ **مشكل إعراب القرآن**: لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٥هـ.

٢٣٢ ـ **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**: للرافعي، لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.

٢٣٣ ـ **مصنف ابن أبي شيبة في الأحاديث والآثار**: لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ.

٢٣٤ ـ **مصنف عبد الرزاق**: لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٢٣٥ ـ **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**: لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار العاصمة، دار الغيث، السعودية، ط١، ١٤١٩هـ.

٢٣٦ ـ **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد**: للشيخ: حافظ بن أحمد حكمي، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، ط١، ١٤١٠هـ.

٢٣٧ ـ **معاني القرآن**: لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار، دار السرور، ١٩٥٥م.

٢٣٨ ـ **معاني القرآن**: لأبي الحسن سعيد بن مسعدة، المعروف بالأخفش الأوسط، تحقيق: د. فائز فارس، الكويت، ط٢، ١٤٠١هـ.

٢٣٩ ـ **معاني القرآن الكريم**: لأبي جعفر النحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٠هـ.

٢٤٠ ـ **معاني القرآن وإعرابه**: لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ.
٢٤١ ـ **المعتمد في أصول الفقه**: لأبي الحسين محمد بن علي بن الطيب المعتزلي، دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٣هـ.
٢٤٢ ـ **المعجم الأوسط**: لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله، عبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.
٢٤٣ ـ **معجم البلدان**: لياقوت بن عبد الله الحموي، دار الفكر، بيروت.
٢٤٤ ـ **المعجم الكبير**: لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤م.
٢٤٥ ـ **معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية**: لعمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٤٦ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**: وضع: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، استانبول، تركيا، ١٩٨٢م.
٢٤٧ ـ **معجم مقاييس اللغة**: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، ١٤٢٠هـ.
٢٤٨ ـ **المعجم الوسيط**: لـ د. إبراهيم أنيس ورفاقه، القاهرة، ط٢، ١٣٩٢هـ.
٢٤٩ ـ **معرفة السنن والآثار**: لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٥٠ ـ **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصر**: للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: أبي عبد الله محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ.
٢٥١ ـ **المُغْرب في ترتيب المُعْرب**: لأبي الفتح ناصر الدين بن عبد السيد بن علي بن المطرز، تحقيق: محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد، حلب، ط١، ١٩٧٩م.
٢٥٢ ـ **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**: لجمال الدين بن هشام الأنصاري، تحقيق: د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، ط١، ١٤١٩هـ.
٢٥٣ ـ **مفتاح دار السعادة**: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٥٤ ـ **مفتاح العلوم لأبي يعقوب**: يوسف بن محمد السكاكي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٠هـ.

٢٥٥ ـ **مفردات ألفاظ القرآن**: لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط٣، ١٤٢٣هـ.

٢٥٦ ـ **مقدمة في أصول التفسير**: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمود محمد نصار، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة ـ.

٢٥٧ ـ **المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد**: لبرهان الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح، تحقيق: د. عبد الرحمٰن بن سليمان العثيمين، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤١٠هـ.

٢٥٨ ـ **المكي والمدني في القرآن الكريم من أول القرآن إلى نهاية سورة الإسراء**: لعبد الرزاق حسين أحمد، دار ابن عفان، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ.

٢٥٩ ـ **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل**: لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، تحقيق: د. سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٣هـ.

٢٦٠ ـ **الملل والنحل**: لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، ١٤٢٣هـ.

٢٦١ ـ **مناهل العرفان في علوم القرآن**: للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر.

٢٦٢ ـ **منهاج السُّنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**: لابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، جامع الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط٢، ١٤١١هـ.

٢٦٣ ـ **الموافقات**: لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي، ضبط: مشهور سلمان، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ.

٢٦٤ ـ **الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة**: د. ناصر بن عبد الله القفاري، د. ناصر بن عبد الكريم العقل، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٣هـ.

٢٦٥ ـ **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة بإشراف ومراجعة**: د. مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ط٤، ١٤٢٠هـ.

٢٦٦ ـ **موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب**: لابن هشام، تأليف: خالد بن عبد الله الأزهري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

٢٦٧ ـ **ميزان الاعتدال**: لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: علي بن محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٥م.

٢٦٨ ـ **ناظمة الزهر**: للشاطبي مع شرح المخللاتي لأبي عيد رضوان بن محمد، تحقيق: عبد الرازق بن علي بن إبراهيم موسى، طبع مكتبة الرشيد، المدينة المنورة.

٢٦٩ ـ **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر**: لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، لبنان، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

٢٧٠ ـ **النشر في القراءات العشر**: لشمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن الجزري، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى.

٢٧١ ـ **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**: لأبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق: عبد الرزاق غالب مهدي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ.

٢٧٢ ـ **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**: لأحمد بن محمد التلمساني، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ.

٢٧٣ ـ **النكت والعيون تفسير الماوردي**: أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، راجعه: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، مؤسسة الكتب الثقافية.

٢٧٤ ـ **نهاية الأرب في فنون الأدب**: لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ.

٢٧٥ ـ **نهاية السول شرح منهاج الوصول**: لجمال الدين عبد الرحيم الإسنوي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ.

٢٧٦ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**: للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت ـ.

٢٧٧ ـ **نهاية الوصول في دراية الأصول**: لصفي الدين محمد بن عبد الرحيم الهندي، تحقيق: د. صالح بن سليمان اليوسف، د. سعد ين سالم السويح، مكتبة نزار مصطفى الباز ط٢، ١٤١٩هـ.

٢٧٨ ـ **الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه**: لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، بإشراف أ.د الشاهد البوشيخي، نشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ط١، ١٤٢٩هـ.

٢٧٩ ـ **هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**: لإسماعيل باشا البغدادي، طبع بعناية وكالة المعارف بإسلامبول بتركيا، منشورات مكتبة المثنى ببغداد ١٩٥٥م.

٢٨٠ ـ **الواضح في أصول الفقه**: لأبي الوفاء علي بن عقيل الحنبلي، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ.

٢٨١ ـ **الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية**: لمحمد صدقي بن أحمد بن محمد البورنو أبي الحارث الغَزِّي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٦هـ.

٢٨٢ ـ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**: لأبي العباس شمس الدين أحمد بن حمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

٢٨٣ ـ **ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن**: لأبي عمر محمد بن عبد الواحد المعروف بغلام ثعلب، تحقيق: محمد يعقوب التركستاني، مكتبة العلوم والحكم، المدينة النبوية، ط١، ١٤٢٣هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
أهمية الموضوع	٩
أسباب اختيار الموضوع	٩
هدف البحث	١٠
الدراسات السابقة	١٠
خطة البحث	١٢
منهجي في كتابة البحث	١٧
التمهيد	٢١
بيان مصطلح (عادات القرآن الكريم) إفراداً وتركيباً	٢٣
ظهور مصطلح (عادات القرآن الكريم) وعناية العلماء به	٣٢
منزلة عادات القرآن في التفسير	٣٩

*** الباب الأول ***

عادات القرآن الكريم في حروفه وألفاظه

الفصل الأول: عادات القرآن الكريم في الحروف	٤٧
المبحث الأول: اختيار الحروف	٤٨
المطلب الأول: اختيار الحرف المناسب للسياق	٤٨
المطلب الثاني: ذكر القرآن بعد الحروف المقطعة	٥٧
المطلب الثالث: مراعاة المناسبة لحروف الفواصل	٦٠
المبحث الثاني: نيابة بعض الحروف عن بعض	٦٦
المطلب الأول: نيابة حروف الجر عن بعض	٦٦
المطلب الثاني: نيابة حروف النداء عن بعض	٧٣
المطلب الثالث: نيابة حروف العطف عن بعض	٧٤
المبحث الثالث: التأكيد ببعض الحروف أو حذفها	٨٧

الموضوع | الصفحة

المطلب الأول: التأكيد ببعض حروف المعاني ٨٧
المطلب الثاني: تقوية المعنى ببعض الحروف ٩٧
المطلب الثالث: حذف بعض الحروف ١٠٩
الفصل الثاني: عادات القرآن الكريم في الألفاظ ١١٩
المبحث الأول: اختيار اللفظ المناسب ١٢٠
المطلب الأول: اختيار اللفظ المناسب للسياق ١٢٠
المطلب الثاني: اختيار الألفاظ الجامعة ١٢٨
المطلب الثالث: مراعاة المناسبة لألفاظ الفواصل ١٣٨
المبحث الثاني: استعمال بعض الألفاظ لمعنى خاص ١٤٨
المطلب الأول: تخصيص اللفظ بمعنى ١٤٨
المطلب الثاني: استعمال بعض الألفاظ مرة واحدة ١٥٨
المطلب الثالث: استعمال الألفاظ اللائقة بالقرآن ١٦٧
المبحث الثالث: نيابة بعض الألفاظ عن بعض ١٧٣
المطلب الأول: وضع الماضي موضع المستقبل ١٧٣
المطلب الثاني: تذكير المؤنث ١٧٨
المطلب الثالث: استعمال لفظين مختلفين في معنى واحد ١٨٧

*** الباب الثاني ***

عادات القرآن الكريم في الحذف والإضمار والإيجاز وضدها

الفصل الأول: عادة القرآن الكريم في الحذف والذكر ١٩٩
تمهيد ٢٠٠
المبحث الأول: حذف المبتدأ أو الخبر ٢٠١
المطلب الأول: حذف المبتدأ ٢٠١
المطلب الثاني: حذف الخبر ٢٠٦
المبحث الثاني: حذف الفعل أو المفعول به ٢١٥
المطلب الأول: حذف الفعل ٢١٥
المطلب الثاني: حذف المفعول به ٢٢١
المبحث الثالث: حذف الصفة أو الموصوف ٢٣٠
المطلب الأول: حذف الصفة ٢٣٠
المطلب الثاني: حذف الموصوف ٢٣٦

الموضوع — الصفحة

المبحث الرابع: حذف المضاف أو المضاف إليه ٢٤٢
المطلب الأول: حذف المضاف ٢٤٢
المطلب الثاني: حذف المضاف إليه ٢٤٧
المبحث الخامس: حذف جواب الشرط والقسم ٢٥٦
المطلب الأول: حذف جواب الشرط ٢٥٦
المطلب الثاني: حذف القسم أو جوابه ٢٦٤
الفصل الثاني: عادة القرآن في الإضمار والإظهار والإيجاز والإطناب ٢٧٣
المبحث الأول: كون الإضمار يقوم مقام الإظهار ٢٧٤
المطلب الأول: وضع الظاهر موضع المضمر ٢٧٤
المطلب الثاني: وضع المضمر موضع الظاهر ٢٨٠
المبحث الثاني: إيجاز الحذف والقصر ٢٨٩
المطلب الأول: إيجاز الحذف ٢٨٩
المطلب الثاني: إيجاز القصر ٢٩٥
المبحث الثالث: الإطناب ٣٠٦
تمهيد ٣٠٦
المطلب الأول: الإيضاح بعد الإبهام ٣٠٧
المطلب الثاني: ذكر الخاص بعد العام ٣١٦
المطلب الثالث: التكرار ٣٢٢
المطلب الرابع: التذييل ٣٣٨

*** الباب الثالث ***

عادات القرآن الكريم في تراكيبه

الفصل الأول: عادات القرآن الكريم في قرن بعض الألفاظ ببعض ٣٥٣
المبحث الأول: قرن بعض الأسماء ببعض ٣٥٤
المطلب الأول: قرن بعض أسماء الله جل وعلا ببعض ٣٥٤
المطلب الثاني: قرن بعض أسماء البشر ببعض ٣٧١
المطلب الثالث: قرن بعض الطوائف ببعض ٣٨٣
المبحث الثاني: قرن بعض الآيات الكونية ببعض ٤٠٢
المطلب الأول: قرن بعض الآيات الكونية ببعض ٤٠٢
المطلب الثاني: قرن دلائل الأنفس بدلائل الآفاق ٤٢٠

الموضوع | الصفحة

المبحث الثالث: قرن بعض الأحكام ببعض ٤٢٨
المطلب الأول: قرن بعض العبادات الشرعية ببعض ٤٢٨
المطلب الثاني: قرن الأحكام بما يحث على فعلها ٤٥٣
المبحث الرابع: قرن الترغيب بالترهيب ٤٦٤
المطلب الأول: قرن الوعد بالوعيد ٤٦٤
المطلب الثاني: التهديد والترغيب بذكر صفات الله ٤٧٠
المبحث الخامس: ما يضاف إلى الله تعالى من الخير والشر ٤٧٧
المطلب الأول: إضافة الخير إلى الله دون الشر ٤٧٧
المطلب الثاني: ذكر سبب العقاب ٤٨٨
الفصل الثاني: عادات القرآن الكريم في قصصه ٥٠٣
المبحث الأول: ربط القصة بما يناسبها ٥٠٤
المطلب الأول: توارد قصص الأنبياء عليهم السلام ٥٠٤
المطلب الثاني: ذكر القصص بعد دلائل التوحيد ٥١٢
المطلب الثالث: تعقيب القصص بذكر المواعظ والعبر ٥٢٠
المبحث الثاني: التنويع في عرض القصص ٥٣٥
المطلب الأول: الاقتصار في سوق القصص على المقصود ٥٣٥
المطلب الثاني: الطول والقصر في القصة ٥٤٣
المطلب الثالث: تكرار القصة ٥٥٥
الفصل الثالث: عادات القرآن الكريم في خطاباته ٥٦٧
المبحث الأول: خطاب القرآن للأنبياء ٥٦٨
المطلب الأول: نداء الأنبياء السابقين بأسمائهم ٥٦٨
المطلب الثاني: نداء النبي ﷺ بوصفه ٥٧٣
المطلب الثالث: خطاب النبي ﷺ خطاب لأمته ٥٨٣
المبحث الثاني: خطاب القرآن للناس ٥٩٠
المطلب الأول: الخطاب بلفظ الناس وبلفظ الإيمان ٥٩٠
المطلب الثاني: خطاب الرجال والنساء ٦٠٢
المطلب الثالث: خطاب العام وخطاب الخاص ٦٠٩
المبحث الثالث: انتقال الكلام من أسلوب إلى أسلوب ٦٢٢
تمهيد ٦٢٢

الموضوع | الصفحة

المطلب الأول: انتقال الكلام من التكلم إلى الخطاب ٦٢٤
المطلب الثاني: انتقال الكلام من الخطاب إلى التكلم ٦٢٩
المطلب الثالث: انتقال الكلام من الغيبة إلى التكلم ٦٣٤
المطلب الرابع: انتقال الكلام من التكلم إلى الغيبة ٦٤٢
المطلب الخامس: انتقال الكلام من الخطاب إلى الغيبة ٦٥١
المطلب السادس: انتقال الكلام من الغيبة إلى الخطاب ٦٦٠
الخاتمة ٦٧١
* **الفهارس** ٦٧٥
ثبت المصادر والمراجع ٦٧٧
فهرس الموضوعات ٦٩٩